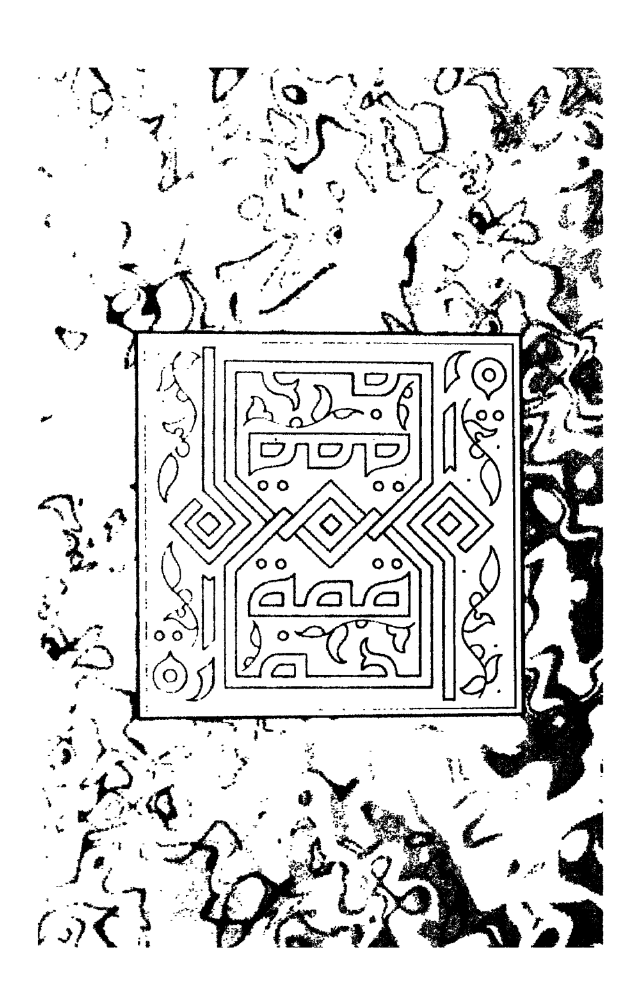
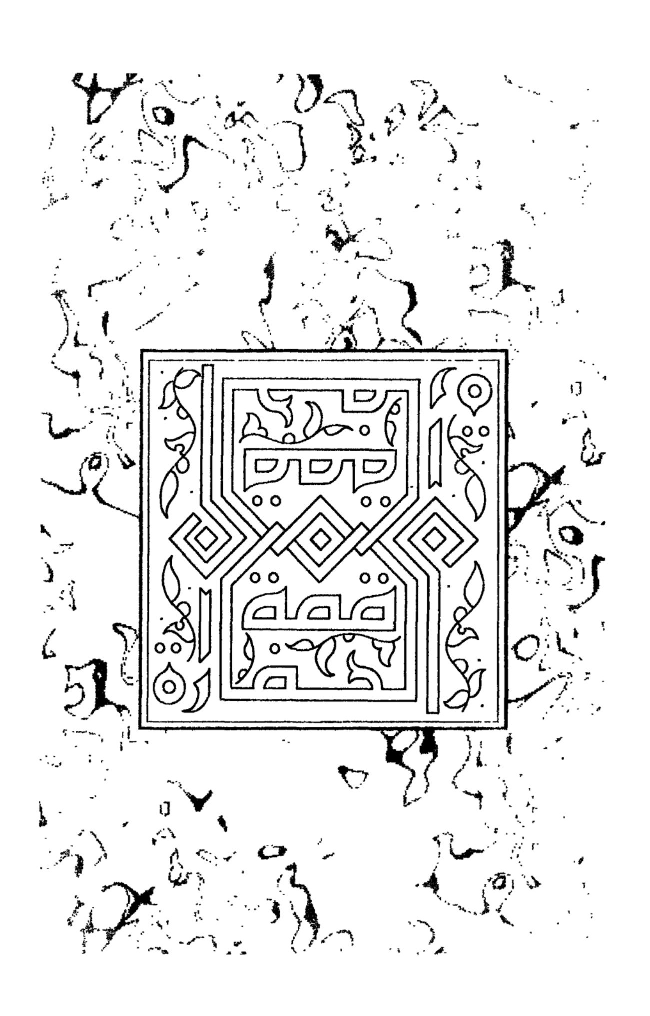
ول وايريل ديورانت

قصة الحضارة









قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

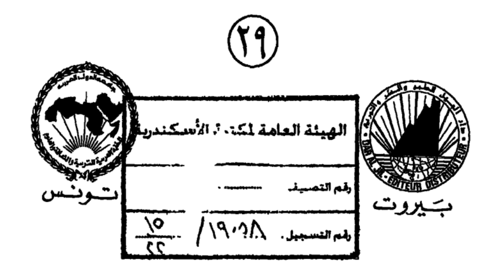
بداية عصر العقل

مراجعة
علي أدهم

ترجمة
فؤاد أندراوس

الجزء الثاني من المجلد السابع

(٢٩)



دار الجيل : ص.ب ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلكس: ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي: دار جيلاب - بيروت - لبنان

الكتاب الثاني

صراع العقائد على السلطة

١٥٥٦ - ١٦٤٨

فهرس

الجزء الثاني من المجلد السابع

صراع العقائد على السلطة

١٥٥٦ — ١٦٤٨

الفصل التاسع

إيطاليا : الأم الخيرة

١٥٦٤ — ١٦٤٨

صفحة

صفحه

الفصل العاشر

فخامة اسبانيا وانحطاطها

١٥٥٦ — ١٦٦٥

الفصل الحادى عشر

العصر الذهبي للأدب الأسباني

١٥٥٦ ١٦٦٥

الفصل الثانى عشر

العصر الذهبي للفن الأسباني

١٥٥٦ — ١٦٨٢

صفحة

الفصل الثالث عشر
الصراع على فرنسا
١٥٥٩ — ١٥٧٤

الفصل الرابع عشر
هنرى الرابع
١٥٥٣ — ١٦١٠

الفصل الخامس عشر
ريشليو
١٥٨٥ — ١٦٤٢

الفصل السادس عشر

فرنسا إبان الحروب

١٥٥٩ — ١٦٤٣

الفصل التاسع

إيطاليا الأم الخيرة

١٥٦٤ – ١٦٤٨

١ – « الحذاء السحرى »

بعد أن هدأ عنف المعركة التى خاضتها إيطاليا فى ميدانى النهضة والاصلاح البروتستنتى ، راحت تستكين إلى حكم الأسبان استكانة يزعجها الفقر ، ويواسيها الدين ، ويضفى عليها السلام بريقا خداعا . كانت معاهدة كاتو – كامبريزى (١٩٥٩) قد خلعت دوقية سافوا على إمانويل فيلبرت ، أما جنوا ولوكا والبندقية وسان مارينو فقد مد فى أجلها فبقيت جمهوريات مستقلة . وأما مانتوا فظلت خاضعة لأمراء جونزاجا ، وفيرارا لأمراء استنزى ، وبارما لأمراء فارنيزى . وحكمت أسرة مديتشى توسكانيا – فلورنسة وبيزا وأريتزو وسيينا – ولكن موانيها كانت تحت سيطرة أسبانيا . وحكمت أسبانيا عن طريق نواب ملكها دوقية ميلان ومملكة نابلى التى كانت تضم صقلية وكل إيطاليا جنوب الدويلات البابوية . وحكم هذه الدويلات ، التى اخترقت وسط شبه الجزيرة من البحر المتوسط إلى الأدرياتى ، بابوات تحدق بهم القوة الأسبانية .

على أن هذه القوة لم تكن عدوانية عسكريا ، فهى لم تتدخل فى الشئون الداخلية للدويلات ، اللهم إلا ميلان ونابلى ، ولكن عزوفها عن التجارة وخوفها من الفكر الحر ألقيا حجابا كثيفا على الحياة الايطالية . وكان من أثر استيلاء أمم الأطلنطى على تجارة الشرق وأمريكا أن انتقلت إليها تلك الثروة التى كانت من قبل تنفق على حركة النهضة ، فأصبحت الآن تغذى الازدهار الثقافى الذى بدأ فى أسبانيا وإنجلترة والأراضى المنخفضة . وعانت إيطاليا فوق ذلك من اضمحلال الموارد البابوية نتيجة لحركة الاصلاح

البروتستنتى . كان الفلاحون الصابرون يكدحون ويصلون ، والرهبان الذين يفوقون الحصر يتعبدون ، أما التجار ففقدوا الجاه والثروة ، وأما النبلاء فضيعوا الحياة جريا وراء الألقاب وتعلقا بمظاهر البذخ والترف .

ومع ذلك أنجبت إيطاليا وسط هذا الانهيار السياسى جاليليو أعظم العلماء فى جيله ، ووهبت العالم فلسفة برونو الجريئة البعيدة النظرة ، وهبته برنينى أعظم مثالى العصر ، ومونتيفردى أكبر مؤلفيه الموسيقيين أثرا ، ووهبته أشجع مبعوثيه الدينيين ، وواحدا من أعظم الشعراء الإيطاليين هو تاسو ، كذلك وهبته — فى بولونيا ونابلى وروما — مذاهب فى التصوير لا ضريب لها إلا فى الأراضى المنخفضة الوافرة الثراء . وهكذا ظل لواء الثقافة معقودا لإيطاليا .

١ — فى سفوح الألب

يطيب لنا أن نجوس من جديد خلال تلك الحديقة وقاعة الفن المسماة إيطاليا ، ولو بالفكر والقلم ، وأن نمر بها ولو مرور الكرام . فأما تورين فقد غدت عاصمة كبيرة تحت حكم كفء على رأسه ايمانويل فيليبرت ، وبفضل تشجيع زوجته مرجريت الأميرة الفرنسية السافواوية للأدب والفن . وأما ميلان فظلت محتفظة بأبهتها على الرغم من خضوعها لأسبانيا . قال ايفلين عام ١٦٤٣ فى وصفها : « انها من أفخم مدن أوربا ، ففيها ١٠٠ كنيسة ، و ٧١ ديرا ، ٤٠٠٠٠ من السكان . فيها القصور الباذخة ، وفيها الفنانون النادرون[1] » وبعد أن دمرت النار داخل باسليقا سان لورنزو ماجيورى (١٥٧٣) عهد كارلو بوروميو ، مطران ميلان الورع ، إلى مارتينو باسى ببناء داخلها وفق الطراز البيزنطى الرائع الذى بنيت به كنيسة سان فيتالى فى رافنا . وبنى الكردينال فيديريجو بوروميو ، وهو ابن أخى كارلو ، قصر أمبروز (١٦٠٩) ، وشيد فيه مكتبة أمبروز الشهيرة . أما قصر بريرا ، الذى بدىء تشييده عام ١٦١٥ ليضم كلية لليسوعيين ، فقد أصبح منذ عام ١٧٧٦ مقرا لأكاديمية الفنون الجميلة ، ومنذ عام ١٨٠٩

لقاعة بريرا الذائعة الصيت ، التي أصابتها الحرب العالمية الثانية بأضرار بالغة ، ولكنها رممت الآن ترميما جميلا ، وفيها نجد الكثير من آثار أسرتي بروكاتشيني وكرسبي ، وهما الأسرتان اللتان غلب تأثيرهما على التصوير الميلانى فى العصر الذى نتناوله .

وأما جنوه ، « الهادئة جدا » ، فما زالت من تلالها المرصعة بالقصور تختال فوق بحر متوسط انتشرت فوق أمواهه المراكب الجنوية . حقا لقد فقدت هذه الجمهورية التاجره أملاكها الشرقية التى استولى عليها الترك ، وانتقلت بعض تجارتها مع دول الشرق إلى دول الأطلنطى ، ولكن التل الكبير الذى تقوم فوقه قيض لها ميناء ممتازا ظلت بفضله ، وما زالت إلى اليوم ، أهم الثغور الايطالية . هنا شاد أمراء التجارة أو ملوك المال طائفة من أعظم بيوت إيطاليا ترفا . وفى رأى ايفلين أن « الشارع الجديد » الذى صممه روبنز وازدان بقصور من الرخام المصقول « يزرى بأى نظير له فى أوربا »[٢] . وقد صمم جالياتزو أليسى وتلاميذه الكثير من هذه القصور الفاخرة التى اشتهرت بما حوت من قاعات فن ، وسلالم فخمة ، وجدران زينت باللوحات أو الرسوم الجصية ، وأثاث مترف — « موائد وأسرة كاملة من الفضة الثقيلة » ، ولا عجب ، فقد حذق أقطاب المال الجنويون تحويل عرق الشعب إلى ذهب . وفى عام ١٥٨٧ بنى « جاكومو ديللا بورتا » باسليقا « البشارة المقدسة » التى كانت أعمدتها المحززة ، ومنبرها البديع ، وقوسها المزخرف ، مفخرة الأتقياء من أهل جنوه . على أن هذه الكنيسة وكثيرا غيرها من كنائس جنوه وقصورها لحقها دمار كثير فى الحرب العالمية الثانية .

وأما فلورنسة فقد ظلت ، حتى إلى عهد فازارى ، تلقب بأثينة إيطاليا ، إذ تميزت بخصوبتها سواء فى الأدب أو الدرس أو العلم أو الفن . لقد زكا فيها كل شيء إلا العفة ، ففى عهد الدوق الكبير فرانشسكو الأول (١٥٧٤ — ٨٧) انحدرت أسرة مديتشى العظيمة إلى حمأة الفجور والدعارة . ثم تخلى الكردينال فرديناندو مديتشى عن وظيفته الكهنوتية

وأصبح « الدوق الكبير فرديناند الأول » ، فأتاح بذلك لتوسكانيا طوال اثنين وعشرين عاما (١٥٨٧ — ١٦٠٩) عهدا من العدل والاستنارة ، ووسع تجارتها إذ جعل ليفورنو (ليجهورن) ثغراً حراً مفتوحا لكل التجار من كل الأديان ، وأصلح بالقدوة الفاضلة أخلاق شعبه . أما خلفاه كوزيمو الثانى وفرديناند الثانى فكان لهما فضل إعانة جاليلو بالمال . ونقش بارتولوميو أماناتى نافورة نبتون الكبرى لميدان « السنيوريا » بفلورنسة ، وصمم قصر دوكالى بلوكا . وفى عام ١٥٨٣ أكمل جوفانى دابولونيا « اغتصاب السابين » ، وهو التمثال القائم فى « لوجا (قاعة) دى لانزى » ، وصب تمثال هنرى الرابع الذى أهداه كوزيمو الثانى إلى مارى مديتشى لبزين « البون نوف » فى باريس . وواصل اليساندرو أللورى وابنه كريستوفانو التقليد الذى درج عليه التصوير الفلورنسى من خيال جامح فى التلوين ، فى شىء من التخفيف ، وأشرف بيترو دا كورتونا على الكمال فى رسومه الجصية التى زين بها سقوف قصر بيتى ليصور مناقب الدوق كوزيمو الأول .

وأما بارما فقد كان يحكمها فى هذه الفترة دوق مشهور يدعى اليساندور فارنيزى ، ولكن بلغ انشغاله بقيادة الجيوش الأسبانية فى الأراضى المنخفضة حداً لم يتح له أن يتربع على عرشه قط : وفى عهد ابنه رانوتشو ذاع صيت جامعة بارما فى أرجاء أوربا ، وبنى أليوتى (١٦١٨) مسرح فارنيزى الذى اتسع لسبعة آلاف متفرج فى مدرج نصف دائرى لا يضارعه فى إيطاليا الحديثة سوى المسرح الأولمبى الذى بناه أستاذه باللاديو .

وأما مانتوا فقد دخلت عهداً من الرخاء اعاد إلى الأذهان ذكرى أيام ايزابللا ديستى المجيدة . فبفضل صناعة النسيج المزدهرة أقبل الناس على شراء القماش المانتوى ، حتى فى انجلترة وفرنسا المنافستين لمانتوا . وظل بيت جونزاجو الذى حكم هذه الدوقية منذ عام ١٣٢٨ ينجب الأكفاء من الرجال . ففى الدوق فنشنزو الأول تمثلت من جديد فضائل أمراء النهضة : وجل حلو الصورة لطيف المعشر ، يرعى روبنز المحظوظ وتاسو التعس على

السواء ؛ يجمع الآثار القديمة ، والتحف الصينية ، والآلات الموسيقية ، والنسيج المرسوم الفلمنكى ، وأزهار الطوليب الهولندية ، والنساء الجميلات ؛ يهوى الشعر والقمار ، مقاتل باسل ورجل دولة جرئ ، ولكنه ينهك نفسه بالفجور والحرب ، ويموت غير متجاوز الخمسين (عام ١٦١٢) . ثم يخلفه ثلاثة أبناء على التوالى ، وآخرهم وهو فنشنزو الثانى لم يعقب ، وكان من أثر تنافس فرنسا والنمسا وأسبانيا على تعيين خلف له والتحكم فى هذا الخلف أن غدت الدوقيـة مسرحا عاجزا لحرب الوراثة المانتوية (١٦٢٨ — ٣١) وكانت حربا ضروسا أوشكت أن تمحو مانتوا من سجل التاريخ .

وأما فيرونا فقد تكاسلت ثقافيا خلال هذه الحقبة واعتمدت على تراث النهضة . ففى فينشنزا كانت واجهات باللاديو الكلاسيكية تحـدد الطراز الذى اتبعه كرستوفر رن فيما بعد . وقد أكمل فنشنزو سكاموتزى مسرح باللاديو الأولمبى ، ثم صمم قصر تريسينو — بارتون . وأصبح سكاموتزى همزة الوصل بين الكلاسيكية وفن الباروك بفضل ولعـه بالزخرف ، وهو ولع لم يستطع باللاديو كبحه فى فنه .

ب — البندقيـــة

كان اضمحلال ملكة الأدرياتى ، كاضمحلال روما القديمة ، طويلا بهيا . إنها تفقد تجارتها البحرية مع الهند لتستولى عليها البرتغال ، وعما قليل ستشعر بمنافسة الهولنديين لها . لقد تحملت وطأة توسع الأتراك بحرا ، وكانت بحريتها وقوادها عاملين رئيسيين فى الانتصـار عليهم فى ليبانتو (١٥٧١) ، ولكنها تخلت عن قبرص بعدها بشهور ، ومن ثم غدت تجارتها مع بحر المشرق مرهونة برضى الأتراك وشروطهم . ولقد كافحته ببسالة لتواجه تحدى الزمن المتغير ، فاستطاعت باتصالها بالقوافل القادمة من وسط آسيا عند حلب أن تعوض بعض التعويض ما خسرته من تجارتها البحرية مع الشرق . وظلت سفنها تسيطر على الأدرياتى ، وشاركت فى

أرباح تجارة الرقيق التى أصبحت الآن تسىء إلى سمعة البرتغال وأسبانيا وانجلترة ، أما أملاكها فى البر — وهى فنشنزا وفيرونا وتويستة وترنت واكويلا وبادوا — فقد أثرت وكثر سكانها ، وأما صناعتها فقد واصلت تفوقها فى الزجاج والحرير والمخرمات والطرف الفنية المترفة. كذلك كان لمصرفها المسمى « بانكو دى ريالتو » ، والذى أنشأته عام ١٥٨٧ بعد أن أخفق كثير من المصارف الخاصة ، الفضل فى دعم مالية البنادقة بقوة الدولة ، وكان المثال الذى احتذته بلاد أخرى فى إنشاء مؤسسات مماثلة فى نورمبرج وهمبورج وامستردام . وقد تعجب الرحالة من جمال عمارتها ، وفتنة نسائها ، ونظافة شوارعها ، وثبات حكومتها فى حزم وإصرار .

استهدفت سياستها الخارجية حفظ توازن القوى بين فرنسا وأسبانيا مخافة أن تبتلع احداهما الجمهورية التى لم تعد قوية البأس كما كانت من قبل . ومن هنا مبادرتها إلى الاعتراف بهنرى الرابع ملكا على فرنسا دعما لبلد مزقته الحرب . وفى عام ١٦١٦ اشترك الدوق أوزونا ، نائب ملك أسبانيا فى نابلى ، مع السفير الأسبانى فى البندقية ، فى مؤامرة للاطاحة بمجلس شيوخها واخضاع الجمهورية لحكم أسبانيا . وبارك فيليب الثالث المشروع ، ولكنه جريا على أسلوب الحكومات المهذب ، أمر أوزونا بالمضى فيه « دون أن تدع أحدا يعلم أنك تنفذه بعلمى ، وتظاهر بأنك تتصرف دون أوامر منى[٢] » . غير أن حكومة البندقية كانت تستخدم أبرع الجواسيس فى أوربا ، فكشفت المؤامرة ، وقبض على المتآمرين المحليين ، وذات صباح تعلم الناس درسا ينفعهم ، إذ رأوهم يتدلون من المشانق فى ميدان القديس مرقس ، محدقين فى الحمائم السعيدة بعيون انطفأ نورها .

هذه الاوليجركية المادئة الصارمة ، التى انجرت مع الناس من جميع العقائد ، ومنحتهم الحرية الدينية ، كان موقفها من البابوية مستقلا على نحو ملحوظ . جبت الضرائب من رجال الدين ، واخضعتهم للقانون المدنى ، وحظرت بغير موافقتها بناء أى معابد أو أديار جديدة ونقل ملكية الأراضى

الكنيسة : وراح حزب من ساسة البندقية يتزعمهم ليوناردو دوناتو ونيكولو كونتاريني ، يقاوم بصفة خاصة دعاوى البابوية بأن لها سلطانا على الأمور الدنيوية . وفي عام ١٦٠٥ ارتقى كاميللو بورجيزي كرسي البابوية باسم بولس الخامس ، وفي السنة التالية اختير دوناتو « دوجا » للبندقية ، ووقف الرجلان اللذان كانا بالأمس صديقين ، يوم كان دوناتو مبعوثا لدى روما ، يواجه أحدهما الآخر في صراع بين الكنيسة والدولة ردد عبر قرون خمسة أصداء ذلك النضال الذي احتدم من قبل بين البابا جريجوري السابع والامبراطور هنري الرابع . وكانت صدمة للبابا بولس أن يعلم أن الزعيم الفكري للحزب المناهض للاكليروس في البندقية راهب سميّ له ، ينتمي لجماعة « خدام العذراء » هو فرا باولو ساربي .

وساربي هذا كان في رأي مولمنتي « ألمع العقول التي أنجبتها البندقية قاطبة(٤) » . كان أبوه تاجرا ، والتحق الصبي بجماعة « الخدام » وهو في الثالثة عشرة ، وتشرب العلم في شغف ، وحين بلغ الثامنة عشرة دافع عن ٣١٨ قضية علمية في جدل علني بمانتوا ، ووفق في دفاعه توفيقا حمل دوقها على تعيينه لاهوتيا لبلاطه . ثم رسم كاهنا في الثانية والعشرين ، وأصبح أستاذا للفلسفة ، وفي السابعة والعشرين انتخب ممثلا اقليميا لرهبنته لدى جمهورية البندقية . وواصل دراساته في الرياضيات ، والفلك ، والفيزياء ، وشتى العلوم . واكتشف انقباض القزحية ، وكتب مقالات علمية ضاعت ، وشارك في الأبحاث والتجارب التي قام بها « فابريزو داكوابندنتي » و « جامباتيستا ديللا بورتا » ، الذي قال انه لم يصادف قط « رجلا أغزر علما ولا أكثر دقة في محيط المعرفة بأسره(٥) » وربما آذت هذه الدراسات الدنيوية عقيدة باولو ، فقد رحب بصداقة بعض البروتستنت ، وقدمت التهم ضده لمحكمة تفتيش البندقية — وهي نفس الهيئة التي لن تلبث أن تلقي القبض على جوردانو برونو . ورشحه مجلس الشيوخ اسقفا ثلاث مرات ، وثلاث مرات رفض الفاتيكان الترشيح ، وقوت ذكرى هذه الهزائم من عدائه لروما .

وفى عام ١٦٠٥ قبض مجلس الشيوخ على كاهنين وأدنهما بجرائم خطيرة فطالب البابا بولس الخامس باحالة الرجلين إلى القضاء الكنسى ، وأمر بالغاء القوانين الموجهة ضد الجديد من الكنائس والديورة والطرق الدينية . ورفضت حكومة البندقية فى أدب ولباقة . فأمهل البابا الدوج والحكومة ومجلس الشيوخ سبعة وعشرين يوما للامتثال لأوامره . وهنا استدعوا فرا باولو باعتباره مستشاراً فى القانون الكنسى ، وأشار ساربى بمقاومة البابا ، وحجته فى ذلك أن سلطاته لا يسرى إلا على الأمور الروحية ، واعتنق مجلس الشيوخ رأيه هذا . وفى مايو ١٦٠٦ حرم البابا دوناتو والحكومة وأوقع حظراً على جميع الخدمات الدينية فى أراضي البندقية . وأصدر الدوج تعلياته للكهنة البنادقة بتجاهل الحظر ومواصلة أداء وظائفهم ، ففعلوا إلا اليسوعيين والثياتين والكبوشيين . ورحل اليسوعيون بجملتهم عن البندقية ، لأن قوانينهم تلزمهم بطاعة البابوات ، وذلك برغم انذار الحكومة لهم بأنهم ان رحلوا فلن يسمح لهم بعدها بالعودة . ونشر ساربى خلال ذلك ، ردا على الكردينال بللارمينى ، كراسات دعا فيها إلى تقييد سلطة البابا ، وأعلن أن للمجامع العامة سلطانا يسمو على سلطان البابوات .

ولجأ بولس الخامس إلى أسبانيا وفرنسا ، ولكن أسبانيا هذه طالما رفضت المراسيم البابوية ، أما هنرى الرابع ملك فرنسا فكان مدينا للبندقية بصنيعها معه . على أنه أوفد إليها رجلا حكيما هو الكردينال دجوايوز ، الذى ابتكر ما اقتضاه الموقف من صيغ تحفظ ماء الوجوه . فافرج عن الكاهنين وسلما إلى السفير الفرنسى ، الذى أسلمهما بعد قليل إلى روما ، ورفض مجلس الشيوخ الغاء القوانين التى اعترض عليها البابا ، ولكنه — أملا فى المعونة البابوية ضد الترك — وعد بأن الجمهورية « ستسلك بما عهد فيها من ولاء » . وأوقف البابا لومه ، ورفع جوايوز الحرم عن المحرومين . يقول مؤرخ كاثوليكى « لقد غلت مزاعم البابا بولس الخامس فى تشبهها بمزاعم القرون الوسطى غلوا جعل تحقيقها ضربا من المحال(٦) » . وكانت هذه آخر مرة أوقع فيها الحرم على دولة بأسرها .

وفى ٥ أكتوبر ١٦٠٧ هاجم بعض القتلة المستأجرين ساربى وتركوه وهم يحسبونه ميتا . ولكنه أفاق ، ويروى أنه علق على الهجوم بهذه الحكمة ، التى فيها من البراعة ما يجعل صدورها عنه لحظتها بعيد الاحتمال ، « انى تبين أسلوب الادارة البابوية الدقيق(٧) »(*) . ووجد القتلة الحماية والاستحسان فى الدويلات البابوية(٨) . بعد هذا عاش ساربى معتكفا فى صومعته يتلو القداس كل يوم ، ولكن « مرقمه » لم يكن معطلا . ففى عام ١٦١٩ نشر تحت اسم مستعار وعن طريق دار نشر لندنية « تاريخ مجمع ترنت » ، وهو اتهام ضاف للمجمع ، صور فيه حركة الاصلاح الدينى تصويرا بروتستنتيا خالصا ، وأدان المجمع لأنه باذعانه التام للبابوات حال دون رأب الصدع فى الكنيسة . وتحمس العالم البروتستنتى للكتاب ، وأطلق ملتن على مؤلفه « ممزق القناع العظيم » . أما اليسوعيون فعهدوا إلى فقيه منهم يدعى سفورتزا باللافتشينو بكتابة تاريخ معارض (١٦٥٦ — ٦٤) كشف تحيز ساربى وعدم دقته وباراه فيهما(٩) . وعلى الرغم من تحيز الكتابين فانهما سجلا تقدما فى جمع الوثائق الأصلية واستخدامها ، وفى حالة ساربى المسهبة سحر البلاغة النارية ، وهذا تشويق اضافى ذو خطر . لقد كان الرجل متقدما كثيرا على جيله فى الدعوة إلى الفصل التام بين الكنيسة والدولة :

فى ظل هذه الحكومة الأبية ، وفوق تلك القنوات المطمئنة العطرة ، واصلت البندقية سعيها وراء المال والجمال تسترضى المسيح بالعمارة ، والعذراء بالابتهالات ، فلكل أسبوع عيد يتذرع للاحتفال به بقديس ما . وفى رسوم جواردى نرى أمثلة من هذه الانتشاءات الجماهيرية ، وتلحظ فى صور الأشخاص ذلك الترف الشرقى الحسى ، ترف الثياب والحلى .

(*) التورية هنا فى كلمة Stilus و Style . والكلمة الأولى كانت فى الأصل تعنى حديدة مستدقة الطرف ، ثم سناً من حديد استعمل فى الكتابة على ألواح من الشمع ، ثم قلما ، ثم طريقة فى الكتابة ، أى أسلوبا . والتصغير الايطالى Stiletto كان له معنيان : المرقم ، والخنجر الصغير .

وكان فى وسع المرء فى أية أمسية أن يسمع الموسيقى تعزف فى الزوارق (الجوندولا) . ولو وطئت قدماه زورقاً من هذه الزوارق السحرية ولم يفه بأى توجيه للملاح ، لمضى به دون كلام كثير إلى بيت مومس شريكة له . وقد دهش مونتنيى لكثرة بنات الهوى البندقيات ، وغلوهن فى التحرر ، وما هو بالرجل المغرض المتحيز ، وكن يدفعن ضريبة للدولة ، لقاء سماحها لهن بأن يسكن حيث شئن ، ويلبسن ما يشتهين ، ولقاء دفاعها عنهن ضد الزبائن الذين يأكلون حقوقهن(١٠) .

واكتسبت « القناة الكبرى » وأفرعها مزيداً من الحسن عاماً بعد عام بفضل ما قام على ضفافها من كنائس فخمة أو قصور جديدة مشرقة أو جسور رشيقة . ففى عام ١٦٣١ عهد مجلس الشيوخ إلى بالداسارى لونجينا ببناء كنيسة رائعة للعذراء « سانتاماريا ديللا سالوتى » وفاء بنذر لأنها ردت إلى أهل المدينة عافيتهم عقب طاعون كبير . وفى ١٥٨٨ — ٩٢ أقام انطونيو دا بونتى بدلا من الجسر الخشبى العتيق « جسر ريالتو » الحديد الذى امتد عبر القناة الكبرى فى قوس واحد من الرخام طوله تسعون قدما ، وقامت المتاجر على جناحيه . وحوالى عام ١٦٠٠ بنى « جسر التنهدات » (بونتى دى سوسبيرى) عاليا فوق قناة تجرى بين قصر الدوج وسجن القديس مرقس — « فقصر على طرف وسجن على الطرف الآخر — »(١١) . وأتم سكاموتزى كنيسة باللاديو « سان جورجو » ومكتبة فيكيا التى بدأها سانسوفينو . وبنى سكاموتزى ولونجينا « البروكوراتى نوفى » (١٥٨٢ — ١٦٤٠) الملاصق لميدان القديس مرقس ليستخدم مكاتب جديدة لحكومة البندقية . وقامت الآن قصور شهيرة على ضفاف القناة الكبرى : بالبى ، وكونتارينى ديلى سكرينى ، وموتشينجو ، حيث عاش بايرون فى ١٨١٨ . والذين لم يروا من قصور البندقيـــة سوى ظاهرها لا يستطيعون أبداً تصور ما فى باطنها من بذخ — يجعله الذوق الرفيع سائغاً : تلك السقوف ذات الرسوم الجصية أو الزخارف الغائرة ، والجدران المزدانة بالصور أو قطع النسيج المرسوم ، والمقاعد المكسوة بالساتان ،

والكراسى والموائد والصناديق المنقوشة ، والدواليب المطعمة بالصدف والعاج ، والسلالم العريضة الفخمة التى بنيت لتعيش القرون الطويلة . هنا نعمت أولحركية غيور ، قوامها عـــدة مئات من الأسر ، بكل ثراء أقطاب التجارة ، وبكل المعايير الفنية المرهفة التى أتيحت للأرستقراطيات العريقة .

ولا يبرز فى هذه الفترة بين مثالى البندقية غير مثال واحد هو أليساندرو فيتوريا ، ولكن فن التصوير البندقى أنجب اثنين من مصورى المرتبة الثانية . فقد أورث بالما فيكيو (مات ١٥٢٨) فنه عبر الأجيال إلى حفيد لأخيه يدعى بالما جوفانى — أو ياكوبو بالما الأصغر — الذى مات بعد موت جده بمائة عام تماما . والرأى فى فن جوفانى — إنه « منحط » لأن الرجل كان يرسم فى عجلة يشوبها الاهمال ، ولكن بعض صوره ، كصورة « البابا اناكليتوس » فى كنيسة الصلب ، تدنو من العظمة ، وفى هذه السطور التى خلفها مولمنتى يقفز هـــذا الفنان الأصغر المهمل إلى الحياة .

« لم يكن لبالما جوفانى من هدف . . . سوى فنه ، اللذى عجز أشد الأحزان عن أن يصرفه عنه . ففى فنه التمس العزاء عن موت ولديه ، اللذين مات أحدهما فى نابلى ، وقضى الآخر فى حياة الفجور . وبينما كانت زوجته تحمل إلى قبرها عكف على الرسم هروبا من الألم »[١٢] ؟

أما برنارد و ستروتزى فقد حصر بين ساقيه قمة الحذاء السحرى ، إذ ولد فى جنوه ، ومات فى البندقية (١٦٤٤) ، وخلف صورا لكل قاعة فن تقريبا بين البلدين . انفق بعض عمره راهبا كبوشيا ، ثم خلع رداء الرهبة ، ولكنه لم يستطع قط ان يخلع كنيته « الكبوشى » . وبعد أن بذل محاولات كثيرة ، وجد التسامح والتوفيق فى البندقية ، وفيها انتج أنتج أفضل أعماله . ويكفى أن نذكر مثلا منها « هو صورة أخ دومنيكى » (برجامو) : ف « البيريه » العالية تزين الجبين العريض ، والعينان عابستان

مركزتان ، .والأنف والفم .ناطقان بقوة الشخصية ، واليد الرقيقة تنئ بعراقة الأصل ؛ أن تتسيانو نفسه لم يكن في وسعه أن يبدع خيرا من هذا الفن . ولو ظهر هـــذان الوريثان للعمالقة من السلف فى أى وطن آخر لحسبا من العمالقة .

ح — من بادوا إلى بولونيا

انحصر فخر بادوا بجملته الآن فى جامعتها . ففيها درس هارفى فى هذه الحقبة ، وفيها علم جاليليو . وفى إمارة فيرارا لم يبد الفونسو الثانى (حكم ١٥٥٩ — ٩٧) تقاعسا أو فتورا فى همة آل ايستى الذين حكموا الامارة منذ ١٢٠٨ . وصورته التى يحتفظ المتحف البريطانى بنسخة منها غفل من التوقيع يطل منها رأس قوى . ولحية آمرة ، وعينان تنبئان بعقل حازم مكتئب . كان فى وسعه أن يكون قاسيا لا يرحم الذين يقاومونه ، رفيقا بغيرهم ، صبورا على غضبات تاسو ، جريئا فى النزال ، مشتطا فى فرض الضرائب . وقد واصل التقليد الذى جرت عليه أسرة ايستى فى بسط رعايتها على الأدب والعلم والفن ، وجمع ثمارها كلها فى ثقافة بلاطه وبهائه ومرحه . أما الشعب فكان عليه أن يقنع بالكفاف — وأن يستمتع بثمار كده فى شخص وكلائه . وقد أخفق الفونسو فى أن يعقب ولدا برغم جبروته كله ، وبرغم زواجه من ثلاث نساء على التعاقب ، وأصبحت فيرارا دويلة بابوية فى ١٥٩٨ بمقتضى اتفاق كان قد أبرم فى ١٥٣٦ ، بعد أن ظلت طويلا اقطاعة بابوية — وهكذا انتهى تاريخها الثقافى .

أما بولونيا التى خضعت للحكم البابوى منذ ١٥٠٦ فقد اتيح لها فى هذا العصر ازدهار ثان تمثل فى مدرسة للتصوير سادت ايطاليا مدى قرنين ومدت نفوذها إلى أسبانيا وفرنسا وفلاندر وانجلترا . عاد لودوفيتشو كاراتشى ، وهو ابن جزار غنى ، إلى بولونيا بعد أن درس الفن فى البندقية وفلورنسة وبارما ومانتوا . وكان تنتوريتو قد حذره بأنه لم يوهب عبقرية التصوير ، ولكنه أحس أن الاجتهاد يمكن أن يقوم مقام العبقرية ،

ثم أن العبقرية لا تعوزه : ويبعث بحماسته الحمية فى اثنين من أبناء عمومته هما أجوستينو وأنيبالى كاراتشى — وكان أحدهما صائغا والآخر خياطا ، فرحلا إلى البندقية وبارما ليدرسا فن تيشان (تتسيانو) وكوريدجو : فلما عادا انضما إلى لودوفيتشو وفتح الثلاثة أكاديمية « للبادئين على الطريق » (١٥٨٩) . وقد وفروا فيها تعليم أصول الفن وتاريخه وطرائقه ، والدرس المدقق لأئمة الفن ، ورفضوا التشديد على « اللازمات » أو الاغرابات التى التزمها أى من الفنانين ، بل آثروا الجمع بين نعومة رفائيل الأنثوية ، وبلاغة كوريدجو الرقيقة ، وفحولة ميكلانجلو ، وتنويع ليوناردو الضوئى ، وتلوين تيشان الدافئ — كلها فى مذهب شامل واحد . هذه « المدرسة الانتقائية » أتاحت لبولونيا أن تنافس روما ، عاصمة فنية لايطاليا .

والصور التى خلفها المصورون كاراتشى لا تحصى ، وكثير منها محفوظ فى أكاديمية بولونيا للفنون الجميلة ، وبعضها فى اللوفر ، ولكنا نجدها فى أماكن أخرى كثيرة . ونتاج لودفيتشو أقلها جاذبية ، ولكنه يبلغ غايته فى صورة « البشارة » المشرقة ، وصورة « استشهاد القديسة أورسولا » ، وكلتاهما فى « قاعة صور الأكاديمية . أما اجوستينو ففنه يتجلى فى لوحة « عشاء القديس جيروم » القوية — التى لم تمنعه من الاستجابة للطلب الكثير على نسخ من الصور الفاجرة . وأما أنيبالى فكان ألمع أفراد الأسرة موهبة ،وقد نقل عن كوريدجو رهافة فى الخطوط والألوان ندر أن طاولها ابناء عمه . تأمل الأناقة الشهوانية فى لوحته «الباخوسية» المحفوظة بقاعة الأوفتزى ، وصورة الأنثى الكاملة فى « الحورية والساطير » المحفوظة بقصر بيتى ، وصورة الذكر الكامل فى « عبقرية الشهرة » المحفوظة بدرسدن ؛ وقد أبدع فى لوحته « المسيح والمرأة السامرية » (فينا) آية من آيات الفن فى هـذه الحقبة — صورا جديرة بريشة رفائيل ، ومنظرا طبيعيا سبق به بوسان .

وفى عام ١٦٠٠ قبل أنيبالى وأجوستينو دعوة الكردينال فارنيزى لهما ليذهبا إلى روما ويرسما صالة قصره فيها . فاختارا موضوعا مناسبا ورسما « انتصار باخوس » ، وهى مهرجان روبنزى من المفاتن الأنثوية .

ومن روما انطلق أجوستينو إلى بارما حيث رسم لوحــة جصية هائلة للكازينو ، ومضى أنيبالى إلى نابلى حيث يرى فى متحفها القومى إلى اليوم ذلك المزج الذى اختص به بين لوحة « العائلة المقدسة » ولوحة « فينوس ومارس » . وقد ودع أبناء العم الثلاثة الحياة متفرقين ، وهم الذين طالما جمع الفن بينهم . فمات أجوستينو فى بارما (١٦٠٢) ، وأنيبالى فى روما (١٦٠٩) ، ولودفيتشو فى بولونيا التى ظل وفيا لها — فكان أول الوافدين عليها وآخر الراحلين عنها (١٦١٩) .

لقد دربت المدرسة الجديدة نفرا من أشهر رسامى ذلك العهد . وكان لأحدهما — وهو جيدو رينى — من الأتباع أكثر مما كان لأى مصور فى أوربا . فبعد تفتح مواهبه المبكر بفضل عناية المصورين كاراتشى ، استسلم لإغراء روما (١٦٠٢) ، واشتغل فيها عشرين عاما — ثم عاد إلى بولونيا ليرسم صورا فيها من حس التقوى ، وجمال العاطفة ، ما جعلها همزة وصل مرحبا بها بين سنية الايمان وهرطقات الجسد . أما جيدو نفسه فيبدو أنه كان مخلصا فى تدينه ، واثر عنه احتفاظه بعذريته كاملة إلى النهاية . وصورته الذاتية المحفوظة بمتحف الكابيتولينى تظهره فى شبابه ، فتى وسيما كالصبايا ، أشقر الشعر أبيض البشــرة أزرق العينين . وأروع صــوره صورة « الفجر » الجصية المرسومة على سقف قصر روسبليوزى بروما . وفيها ترى ربة الفجر تحلق فى الجو ومن خلفها جياد رشاق تجر فيبوس الأشعث فى مركبته ، تصحبه راقصات ملاح الوجوه حسان الأجساد ، يمثلن ساعات اليوم ، وكاروبيم مجنح كأنه خاتم المسيحية على هذه النشوة الوثنية . ورسم جيدو أساطير أخرى — مثل « اغتصاب هيلانة » فى اللوفر ، و « تفاحات الهسبريد » فى نابلى ، ولوحة « فينوس وكيوبد » الشهوانية فى درسدن . وعن العهد القديم أخذ لوحته المشهورة « سوسنه والشيوخ » (الأوفتزى) . ولكنه فى أكثر رسومه قنع باعادة تصوير الموضوعات القديمة القريبة إلى قلوب الناس المحببة إلى الكنيسة ، كقصة المسيح وأمه .—

وكلها ينضح بما ندد به قساة النقاد من اسراف « مجدلى »(*) فى العاطفة ، على أنه أجاد فى تصوير الرسل ، كما تشهد بذلك لوحة « القديس متى » المحفوظة بالفاتيكان ، وقد رسم رأسا رائعا للقديس يوسف (بريرا) ، وفى لوحة « استشهاد القديس بطرس » بالفاتيكان جرب واقعية كارافادجو الصارمة . وحين عاد إلى العاطفة رسم لقاعات الفن لوحـــة « القديس سباستيان » المشهورة ، وفيها يبدو القديس وهو يتلقى السهام فى جسده الكامل هادئا رابط الجأش . وفى كل آثاره نلمح براعة الأسلوب المدرب خير تدريب ، ولكنا حين نقارن هذه اللوحات المقدسة ، المفرطة الحلاوة ، بلوحة رفائيل « ستانتزى » أو بسقف كنيسة السستين الذى رسمه ميكلانجلو ، لا يحركنا فى فن رينى غنى اللون ولا نعومة الخط ، بل « الافتقار إلى الجرأة » . كان يحلم حلما يغتفر له حين كتب يقول : « أحب أن اخلع على الوجه الذى ارسمـــه جمالا كالجمال الكامن فى الفردوس[١٣] » ، ولكنه فضح نفسه حين فاخر بأن لديه « مائتى طريقة لجعل العيون تطلع إلى السماء[١٤] » .

اتبع دومنيكينو (دومنكيو تزامبيرى) سياسة جيدو فى ارضاء الوثنيين والمتدينين جميعا ، ولمـا كان هذان فى كثير من الأحيان واحدا فان الخطة أثمرت . كان معقدا أكثر من جيدو ، فيه تواضع وحياء ، يحب الموسيقى ويعشق زوجته . وقد تعلم هو أيضا التصوير فى بولونيا ثم انطلق إلى روما سعيا إلى الفن والمال . وأثار نجاحه هناك حسد منافسيه فيها ، فاتهموه بانتحال صور غيره ، فقفل إلى بولونيا راجعا ، ولكن جريجورى الخامس عشر استدعاه ليكون كبير معماريى الفاتيكان ومصوريه . فصمم فيللا لودوفيزى بروما ، وهى اليوم أثر بعد عين ، كما صمم جزءا من فيللا الدوبراندينى بفراسكاتى ، مستعينا فى فنه بشىء من تعدد البراعات الذى

(*) لاحظ أن هذه الكلمة maudlin تحريف لكلمة magdalen — التى ما زالت تنطق « مودلن » فى أسمى كلية مودلن باكسفورد ، وكلية مودلن بكمبردج — أما مريم المجدلية ذاتها فلم تعفها ريشة جيدو الحسية من المطاردة الملحة .

أثر عن رجال النهضة . ولما انتقل إلى نابلى بدأ سلسلة من الصور الجصية فى كاتدرائيتها . وكاد يتم مهمته برغم ما لقى من مشاق ضاعف منها مصورو نابلى ، ولكنه مات (١٦٤١) فى الستين من عمره وهو لا يزال فى عنفوان فنه . وأعظم لوحاته «عشاء القديس جيروم الأخير» المحفوظة بالفاتيكان . واستنادا إلى هذه الرائعة لم يفضل بوسان عليه من المصورين سوى رفائيل(١٥) ، ونحن نحترم هذا التحمس أكثر مما نحترم الحكم . أما رسكن ففى رأيه أن دومنيكينو «عاجز بصورة واضحة عن الإتيان بشىء حسن ، أو عظيم ، أو صواب ، فى أى ميدان ، أو سبيل ، أو فرع ، كائنا ما كان(١٦)» ، ونحن لا نعجب بالحكم ولا ببلاغة العبارة هنا :

أما آخر تلاميذ آل كاراتشى الثلاثة المشهورين فقد شهر بكنية مؤسفة هى جويرتشينو — «الأحول» — ما أصاب عينه من تشويه أثر حادث وقع له فى طفولته ، ولكن أمه سمته جوفانى فرانشسكوباربيرى . مارس التصوير فعلا ، متأثراً بأسلوب كارافادجو القوى ، قبل أن يأتى ليدرس على يد آل كراتشى ، لذلك توسط فى فنه بين بولونيا وروما . وظل أعزب مثل جيدو ، وعاش عيشة التقشف ، وأظهر خير فضائل حركة الاصلاح الكاثوليكى فى حياته الهادئة الكريمة . وقد خلف لنا الكثير من الصور اللطيفة ، منتشرة من روما إلى شيكاغو ، وكان أضعف مصورى المدرسة البولونية وأحبهم إلى الناس .

إن النظرية الأساسية التى قامت عليها المدرسة الانتقائية — وهى أن فى الاستطاعة تكوين الفنان العظيم بمحاولة الجمع بين مختلف المزايا التى تفرد بها سابقوه — هذه النظرية كانت خطأ بغير شك ، ذلك لأن شيمة العبقرية كثيرا ما تكون التعبير عن شخصية وشق مسالك جديدة ، بيد أن «أكاديمية البادئين على الطريق» أفادت فى بث تقليد ونظام ربما اشتطت العبقرية لولاهما وأغربت .

والنجاح الذى أصابته المدرسة يعزى جزئيا إلى تعاونها الحاضر مع

حاجات الكنيسة ، فقد احتاجت البابوية بعد اصلاحها ، كما احتاج اليسوعيون بعد اتساع منظمتهم ، إلى ألوان جديدة من التعبير عن قصة المسيح ، ومن التحريض الحى على التقوى والإيمان . وقد مس المصورون البولونيون كل وتر عاطفى فى العابدين ، وانتشرت الصور التى رسموها للعذراء والعدلية فى العالم المسيحى الكاثوليكى قاصيه ودانيه . ومنذا الذى ينكر أن الناس أقروا بالفضل لهذه الإلهامات ، أو أن الكنيسة حين وفرتها اثبتت أنها أعظم السيكولوجيين فى التاريخ فهما لطبائع البشر ؟

كانت الولايات البابوية قد استوعبت منذ زمن فورلى ورافنا وريمنى وأنكونا ، ثم ضمت إليها أوربينو عام ١٦٢٦ ، وبيزارو عام ١٦٣١ . وإذا اتجهنا جنوبا ، مارين بفودجا وبارى وبرنديزى حتى كعب « الحذاء السحرى » — ومارين بتارانتو وكروتونى وريدجو كالابريا حتى ابهامه ، وعرضا من سيلا إلى كاريبديس مخترقين صقلية ، وشمالا على طول الساحل الغربى إلى كابوا — وجدنا مملكة نابلى ، التى أصبحت ولاية أسبانية منذ ١٥٠٤ . هنا كان ثلاثة ملايين من السكان المشبوبى العاطفة ، يكدحون فى ذل الفقر بين أرجاء هذه المملكة المنبسطة فى غير نظام ليدبروا المال الذى تطلبه بهاء عاصمتها المتألقة . وقد رأى ايفلين نابلى عام ١٦٤٥ وقال فى وصفها : —

« إن كبار الحكام يفتنون فى الاثراء من كد الشعب التعس لما فيهم من شره شديد للمال . وعمارة المدينة إذا قيست بحجمها أفخم من أى نظير لها فى أوربا : فالشوارع واسعة جدا ، جيدة الرصف ، كثيرة الأنفاق لصرف الأقذار ، ومن ثم أصبحت غاية فى الجمال والنظافة .. وتملك المدينة أكثر من ٣٠,٠٠٠ كنيسة ودير ، وهى خير ما فى إيطاليا بناء وزخرفا . والقوم شديدو التظاهر بالوقار الأسبانى فى لباسهم ، وهم يهوون الجياد الفارهة ؛ والشوارع حافلة بالوجهاء المتأنقين يمتطون الخيل أو

يركبون المركبات أو المحفات . أما النساء فلاح الوجوه عموما ، ولكن فيهن شبق شديد[١٧] » .

كان الكل يسلون مرحين ، تفيض لفوسهم بالموسيقى والشعر والتقوى ، ولكن تحت هذا السطح المرح ، وتحت بمصر محكمة التفتيش - كانت النفوس تجيش بالهرطقة والثورة . ففى هذا العهد عاش الفيلسوف تيليزيو ومات (١٥٨٨) ، وفى نولا ، القريبة من نابلى ، ولد برونو (١٥٤٨) . وفى عام ١٥٩٨ اشترك كامبانيللا فى حركة تمرد استهدفت جعل كالابريا جمهورية مستقلة ، ولكن المؤامرة فشلت ، وقضى الشاعر الفيلسوف بعدها سبعة وعشرين عاما فى غياهب السجن .

وفى عام ١٦٤٧ انتاب نابلى ضرب من الهوس من جراء انتفاضة من هذه الانتفاضات المسرحية التى عطلت بين الحين والحين الاستغلال الزراعى فى إيطاليا . ذلك أن تومازو أنييللو ، المشهور بمازانييللو ، كان بائع سمك متجولا حكم على زوجته بغرامة كبيرة لتهريبها القمح . فلما فرض الحاكم الأسبانى ضريبة على الفاكهة ليمول البحرية ، وأبى زراع الفاكهة وباعتها أداء الضريبة ، دعا توماززو الناس إلى العصيان المسلح . فتبعه مائة ألف إيطالى حين زحف على قصر الحاكم مطالبا بسحب الضريبة . ورو الحاكم فأذعن للطلب ، وأصبح توماززو — الذى كان يومها فى الرابعة والعشرين — سيداً على نابلى ، وحكمها عشرة أيام ، أعدم خلالها ألفا وخمسمائة من الخصوم فى حمى الدكتاتورية ، وسعر الخبز بثمن أقل ، وكان عقاب خباز رفض الامتثال للتسعيرة ان شوى حيا فى فرنه[١٨] — ولكن أعداء توماززو هم الذين كتبوا التاريخ ، وذكروا أن توماززو ، الذى ارتدى ثوبا من الذهب ، أحال بيته المتواضع إلى قصر يرفل فى مظاهر السلطان ، وطاف حول الخليج فى زورق فاخر . ولكن فتاكا استأجرتهم أسبانيا اغتالوه فى ١٧ يوليو . وأخذ أتباعه الجثة التى قطعت أوصالها فجمعوا الأشلاء وشيعوها فى مشهد جليل . وماتت الحركة بعد أن فقدت قائدها .

استطاع ضرب من الفن الدينى القائم أن يحتفظ بالحياة برعاية المطارنة والحكام . ففى عام ١٦٠٨ انفقت الكنيسة مليونا من الفلورينات لتشيد فى كاتدرائية سان جينارو كنيسة صغيرة تسمى « كابيللا ديل تيزورو » لتكون ضريحا لأنائين يحتويان الدم المتخثر الذى تخلف عن القديس يانواريوس حامى نابلى . وقيل للشعب انه لا بد أن يسيل الدم ويجرى مرتين فى العام لكى تزدهر نابلى وتأمن غائلة فيزوف .

أما التصوير فى نابلى فقد ظل يهيمن عليه حينا ثلاثى من الفنانين الغيورين — كورينتزيو ، وكاراتشولو ، وريبيرا — الذين عقدوا العزم على أن يكون كل التصوير فى نابلى وقفا عليهم أو على أصحابهم . وقد بلغ من تهديداتهم لانيبالى كاراتشى أنه أكره على الفرار إلى روما ، حيث ادركه الموت بعد قليل من جراء رحلته المحمومة التى اضطر إليها تحت شمس حامية[19] : وحين حضر جيـدو رينى لزخرفة « كنيسة الكنز » تلقى انذارا بأن يرحل عن نابلى أو يموت ، فرحل من فوره تقريبا وهو لم يكد يبدأ مهمته . وأركب اثنان من مساعديه بقيا بعـد رحيله سفينة كبيرة لتشغيل العبيد وانقطع خبرهم بعدها . ثم حضر دومنيكينو ، وأتم اربع صور جصية فى الكنيسة على الرغم من أن الصور محيت غير مرة ، وأخيرا فر من تهديدات ريبيرا ، ثم عاد بعد أن تعهد الحاكم بحمايته ، ولكنه مات بعد قليل ، ربما مسموما[20] .

على أننا لا بد أن نشيد بذكر جوزى أو جوزيبى ريبيرا ، برغم كل جرائمه ، لأنه أعظم مصورى هذا العهد فى إيطاليا . وتدعيه أسبانيا لنفسها استنادا إلى أنه ولد فى زاتيفا قرب بلنسيه (١٥٨٨) ، وقد درس حينا على فرانشيسكو دى ريبالتا ، ولكنه قصد روما فى بواكير شبابه . هناك عاش فى فقر مدقع ، ينسخ الصور الجصية ولا يجمع غير الفتات ، حتى قيض الله له واحدا من هؤلاء الكرادلة عشاق الفن كان لا يزال يشعر بوحى النهضة ، فاستضافه فى قصره ويسر له الغذاء والفراش والألوان

والكساء . وراح جوزيبي ينسخ في جد ومثابرة لوحات رفائيل في الفاتيكان وصور آل كاراتشي في قصر فارنيزى . ثم فر « الأسباني الصغير » إلى بارما ومودينا ليدرس كوريدجو حين وجد أن الراحة اطفأت حماسته . وعاد إلى روما ، وتشاجر مع دومنيكينو ، ثم انتقل إلى نابلي . وفيها أو في روما وقع تحت تأثير كارافادجو ، الذي زاده أسلوبه الوحشي رسوخا في المذهب الطبيعي القاتم ، ولعله أخذه من قبل عن ريبالتا . واستلطفه تاجر صور غني فعرض عليه أن يتزوج ابنته الحسناء . وظن جوزيبي الملق أن الرجل يسخر منه ؛ ولكن حين اعاد العرض قفز صاحبنا إلى حياة الزواج والثراء .

ورسم الآن لوحته المسماة « سلخ جسد القديس برتولميو » ، وفيها من احتمال الحقيقة الدامي ما جعلها — حين عرضت — تجتـــذب حشدا من المتفرجين استهواهم الدم أكثر من الفن . أما الحاكم الأسباني — وهو أوزونا الذي عرفناه متآمرا على البندقية — فقد أرسل في طلب اللوحة والمصور ، وافتتن بهما ، ثم عهد إلى ريبيرا بكل أعمال الزخرفة في القصر . وأقصى الأسباني النهم كل منافسيه ، حتى عهـــد إلى جوفاني لانفرانكو صديقه برسم الصور الحصية لكنيسة الكنز ، . وقام هو نفسه بتنفيذ صور المذبح التي مثل فيها يانواريوس ، القديس الذي لا تؤذيه النار ، يخرج من أتون مشتعل دون أن يمسه لهيبه .

بعد هـــذا أصبح ريبيرا إمام فنه غير منازع في نابلي . وبدا أن في استطاعته إن شاء أن يضارع نعومة رفائيل وكوريدجو دون أن يقع في عاطفية جيدو ريني أو موريللو ، وأن يرتفع بواقعية كارافادجو إلى مزيد من القوة بفضل حدة تصوره وعمق تلوينه . وحسبنا أن نستشهد بلوحتين فقط من لوحاته « بييتا » و « الرثاء » ، في كنيسة سان مارتينو وديرها — « عمل إذا نظر إليه على أنه تجسيد لجلال الحزن الرهيب لهبطت كل التعبيرات المماثلة له في ذلك القرن إلى درك المشاهد المسرحية [٢١] » ، أو خذ من الأساطير لوحته « أرخميدس » . في متحف البرادو — فهو بالضبط ذلك

الصقلى العجوز المتغضن الذى قد يلتقى المرء بأشباهه اليوم فى سيراقيوز .
وحين انتقل ريبيرا من الكتاب المقدس والتاريخ إلى الشارع ، وجد التنويع لفنه فى لقطات واقعية من صميم الحياة العامة ، فكان فى لوحة « الصبى الحافى » المثال الذى احتذاه فلاسكويز وموريللو (*) .

وعيوب ريبيرا تقفز إلى العين — غلو فى العنف ، وولع بالتجاعيد والضلوع ، وظمأ للدم . وقد لاحظ بايرون أن « هذا الأسبانى الصغير لوث ريشته بكل دماء القديسين[٢٢] » . ان ألوانه الكابية وتشديده على الجانب القاتم من الحياة يروع ويغم ، ولكن هذا الأسلوب المظلم وجد تقبلا حاضراً فى بلد كنابلى كابد حكم الأسبان وتقلبات مزاجهم . وتنافست عليه كل كنيسة أو دير جديد ، وكان فيليب الرابع وحكام نابلى بعض زبائنه الشرهين . وانتشرت رسوم ريبيرا ومحفوراته فى أسبانيا انتشارا أوسع من أعمال فيلاسكويز — الذى زاره مرتين فى إيطاليا . أما بيتـه فكان من أفخم بيوت نابلى ، وأما ابنتاه فايتان فى الفتنة السمراء ، وقد شرفت إحداهما باغواء « دون خوان » آخر لهـا ! هو الابن غير الشرعى لفيليب الرابع ، الذى هرب بها إلى صقلية ، ولكنه سرعان ما ملهـا وهجرها ، فاعتكفت فى دير للراهبات ببالرمو . أما ريبيرا فأشرف على التلف كمدا وعارا ، والتمس العزاء فى صور للعذراء يخلع عليها الملامح التى لم ينسها ، ملامح ابنته ماريا روزا التى فقدها ، ولكنه مات بعد مأساتها بأربع سنوات (١٦٥٢) .

٢ — روما والبابوات

أصبحت عاصمة الدويلات البابوية(**) وقصبة العالم الكاثوليكى الرومانى

(*) يجد رواد المتاحف من صور ريبيرا ثلاثا وستين فى البرادو ، وملء نصف قاعة فى رواق الصالون كاريه باللوفر : وتحتفظ نيويورك بصورة « العائلة المقدسة » فى متحف المتروبوليتان للفنون ، وبصورة المجدلية فى الجمعية الأسبانية .

(**) أهمها هذه المدن وما يحيط بها : روما ، وأوستيا ، وفيتربو ، وتيڤولى ، وسبوليتو ، وفولينو ، وأسيسى ، وبيروجيه ، وجوبيو ، وأوربينو ، ولوريتو ، وأنكونا ، وبيزارو ، وريمينى ، وفورلى ، ورافينا ، وبولونيا ، وفيرارا .

مدينة من مدن المرتبة الثانية ، فيها من الأنفس ٤٥,٠٠٠ عام ١٥٥٨ ، زادوا إلى ١٠٠,٠٠٠، فى عهد سيكستوس الخامس (١٥٩٠) . وحين وفد عليها مونتيني عام ١٥٨٠ خيل إليه أنها أكثر من باريس اتساعا ، ولكن بيوتها لا تعدو ثلث بيوت باريس ؛ وبين السكان عدد غير قليل من المجرمين والبغايا (قبل سيكستوس الخامس) ، وكان كثير من النبلاء يحتفظون بنفر دائم من الفتاك . أما الفقر فمنتشر ولكنه هين تكسر من حدته احسانات البابا ، والاحتفالات الكنسية ، والأحلام الدينية . وأما عشائر النبلاء العريقة — كأورسيني ، وكولونا ، وسافللي ، وجيتاني ، وكيجي — فقد تناقص دخلها وسلطانها وإن لم تفتر دعاواها وكبرياؤها ، وكانت الأسر الأحدث عهدا — كألدوبرانديني ، وباربريني ، وبورجيزي ، وفارنيزي ، وروسبليوزي — تتصدر غيرها ثراء ونفوذا ، بفضل اتصالاتها بالبابوات عادة . وظفر أقرباء البابا بعهد جديد من المحاباة . فجنى آل ألدوبرانديني المنافع من انتخاب كلمنت الثامن ، وآل لودوفيزي من انتخاب جريجوري الخامس عشر ، وآل باربريني من انتخاب أوربان الثامن ، وآل بورجيزي من انتخاب بولس الخامس . ووضع الكردينال سكيبيوني بورجيزي ابن أخي بولس خطة لبناء فيللا بورجيزي ، وبنى الكازينو (١٦١٥) ، إذ كان يتمتع بأكثر من دخل كنسي وبراتب قدره ١٥٠,٠٠٠ سكودى فى العام ، ثم انشأ الكازينو مجموعته الفنية الغنية ، ونال قسطا لا بأس به من الخلود فى الرخام على يد محسوبه برنيني . وقد استخدم كثير من الكرادلة مالهم فى تشجيع الآداب والفنون .

وأعان كنيسة روما على البقاء سلسلة من البابوات الأقوياء الشكيمة برغم فقدها ألمانيا والأراضي المنخفضة واسكندناوة وبريطانيا — وكلها سلختها منها حركة الاصلاح البروتستنتي . وكان مجمع ترنت قد أكد سيادة البابوية على المجامع وزاد منها ، كذلك كانت جمعية يسوع (اليسوعيون) الفتية القوية تدين بالولاء للبابوية وتخلص لها الحب . وفى عام ١٥٦٦ ارتقى أنطونيو جيسليري — الأخ الدومنيكي والرئيس الأعلى لمحكمة التفتيش —

عرش البابوية باسم بيوس الخامس وهو فى الثانية والستين ٠٠٠ : وخيل إليه أن قداسة حياته الشخصية تنسجم تمام الانسجام مع الصرامة التى تعقب بها البدع الدينية . فسحب س كاثوليك بوهيميا الحق الذى منحوه من قبل ، حق تناول الأسرار بالخمر كما يتناولونها بالخبز . وحرم اليزابث ملكة انجلترة وأحل الكاثوليك الانجليز من الولاء لها . وحض شارل التاسع ملك فرنسا وكاترين مديتشى على مواصلة الحرب على الهيجونوت حتى يبادوا بغير رحمة(٢٣) . وامتدح الأساليب الفظة التى اتبعها ألبا فى الأراضى المنخفضة(٢٤) . وجاهد بقواه المحتضرة لتجهيز الأرمادا الذى هزم الترك فى ليبانتو . وما خفف فى حياته حكما كنسيا(٢٥) ، بل شجع محكمة التفتيش على تنفيذ قواعدها وعقوباتها بالقوة .

على أنه عنف مثل هذا العنف فى فرض الاصلاح الكنسى . فالأساقفة الذين يغفلون الاقامة فى اسقفياتهم يشلحون ، وعلى الرهبان والراهبات أن يعتزلوا الناس اعتزالا تاما ، وكل اخلال بالوظائف الكنسية يجب أن يكشف أمره ويعاقب . وحين شكا بعض من طردوا من رجال الحاشية الزائدين عن الحاجة من أنهم سيموتون جوعا ، أجاب بيوس بأنه خير للانسان أن يموت جوعا من أن يخسر نفسه(٢٦) . وكانت الكفاية ، لا المحسوبية ولا محاباة الأقرباء ، رائده فى التعيينات والترشيحات . أما هو فكان دءوبا على العمل ، يجلس الساعات الطوال يقضى فى الدعاوى ، لا يكاد يصيب من النوم أكثر من خمس ساعات فى اليوم ، ويضرب المثل لرجال الاكليروس بما أخذ به حياته الخاصة من بساطة وتقشف . فهو كثير الأصوام ، لا يزال يلبس قميص الرهبان الصوفى الخشن تحت عباءته البابوية . ولقد أفنى نفسه بهذا النسك الصارم ، فكان فى الثامنة والستين يبدو أكبر من عمره بعشر سنين — شيخا نحيل الجسد ، أعجف الوجه ، غائر العينين ، قد اشتعل رأسه شيبا . وأصر وهو لا يكاد يقوى على المشى على أن يحج إلى باسليقات روما السبع ، راجلا أكثر الرحلة . ولم تمض

على ذلك الحج تسعة أيام حتى مات بعد شهر من العذاب ، مرتديا ثوب القديس دومنيك . كتب مؤرخ بروتستنتى كبير يقول « قليل من البابوات من تدين لهم الكاثوليكية بفضل أكثر من دينها لبيوس الخامس ، حقا لقد قسا فى اضطهاد البدع ، ولكن ادراكه لضرورة الاصلاح ، وعزمه الوطيد على تنفيذه ، ردا إلى الكنيسة كثيرا من الاحترام الذى فقدته(٢٧) . وقد أدخلت الكنيسة بيوس فى عداد القديسين عام ١٧١٢ .

وواصل جريجورى الثالث عشر (١٥٧٢ — ٨٥) اصلاح الكنيسة بروح أكثر اعتدالا . ونحن نذكر فيه الرجل الذى أعطانا تقويمنا واحتفل بمذبحة القديس برتولوميو بقداس شكر لإله رحيم . على أنه كان رجلا فاضلا ، عيوفا ، رقيق الخلق . وكان له ولد غير شرعى قبل أن يدخل فى زمره الكهنوت ، ولكن أمثال هذه الزلة كان يغتفرها أهل روما الشهوانيون . كان سخيا فى العطـــاء ، دءوبا فى الادارة . وقد أثنى البروتستنت على اختياره لمن يلون مناصب الكنيسة(٢٨) . ورأى فيه مونتينى عام ١٥٨٠ « شيخا وسيما ، ذا وجه يطفح هيبة ، ولحية بيضاء طويلة ، صحيح البدن موفور العافية مع أنه ينيف على الثامنة والسبعين . . . دمث الطبع قليل الارتباك بشئون الدنيا(٢٩) » .

بيد أن مشاريعه الجزيئة — كتمويل المدارس اليسوعية ، وقمـــع الهيجونوت ، وخلع اليزابث — كانت تحتاج إلى المال . ولكى يجمعه أمر بتطبيق القانون بحذافيره على ملاك الضياع الكائنة فى الأملاك البابوية وعلى عقود التمليك . وهكذا صـــادر البابا كثيرا من الأملاك التى كان مآلها إلى البابوية لانقطاع خط الوراثة المباشر ، أو لعدم أداء الضرائب المفروضة على الاقطاعات البابوية . على أن ضحايا هذا الأمر البابوى ، الحاليين منهم أو المنتظرين ، سلحوا أتباعهم ، وقاوموا نزع ملكياتهم ، واتخذوا قطع الطريق سبيلا للانتقام . فتزعم رجال من أسر نبيلة ، كألفونسو بيكولومينى وروبرتو مالاتستا ، عصابات من طريدى العدالة واستولوا على

المدن وسيطروا على الطرق . فاستحال بعد ذلك جمع الضرائب ، وسد الطريق على الذهب المتدفق على روما ، وما لبثت الفوضى أن عمت الادارة البابوية . هنا أوقف جريجورى مصادراته ، واصطلح مع بيكولوميني ، ثم مات فى ذل الهزيمة وهوانها .

يقولون ان الضرورات صانعةُ الرجال ، وقد صنعت هذه الضرورة من فليتشى بيريتى (سيكستوس الخامس ١٥٨٥ — ٩٠) رجلا من أعظم البابوات وأجلهم قدرا . رأت عيناه النور أول مرة فى جروتاماري ، قرب أنكونا ، فى كوخ كان سقفه مهلهلا حتى لقد نفذت منه أشعة الشمس ، قال وهو كبير على سبيل المزاح انه « ولد فى بيت منير[٣٠] » . تعلم فى دير فرانسسكانى بمونتالتو ، وحصل على دكتوراة اللاهوت بدراسته فى بولونيا وفيرارا ، ثم ارتقى سريعا بفضل بلاغته واعظا وكفايته إداريا . فلما اختير لكرسى البابوية وهو فى الرابعة والستين ، كان الدافع لهذا الاختيار أن مجمع الكرادلة تبين فيه الشخصية الصلبة التى تتطلبها سلامة الدويلات البابوية وكفايتها المالية .

بيد أن أقاربه تزاحموا من حوله يمدون إليه أكفهم فلم يقو على ردهم ، وهكذا عادت محاباة الأقرباء ترفع عقيرتها ، ولكنه فى غير ما يتصل بأسرته كان رجلا صلبا لا تلين له قناة . كان فى مظهره ذاته ما يستوقف النظر : رجل قصير القامة ، عريض المنكبين ، متين البنية ، واسع الجبين ، أبيض اللحية كثها ، كبير الأنف والأذنين ، ضخم الحاجبين ، له عينان نفاذتان قادرتان على إسكات المعارضة دون كلمة . وكان وجهه المتورد ينسجم مع عنف طبعه ، ورأسه الكبير يوحى بارادة لا تنثنى . على أنه مع كل صرامته كان يملك معينا من روح الفكاهة ومن النكتة الذكية النفاذة أحيانا كثيرة . وقد تنبأ بأن هنرى الرابع سيهزم ماين ، لأن هنرى ينفق فى الفراش وقتا أقل مما ينفقه ماين على موائد الطعام[٣١] . أما هو نفسه فكان قليل النوم شديد العكوف على العمل .

عقد العزم أولا على الضرب على أيدى قطاع الطرق المتصرين . فبدأ بتنفيذ حظر مفروض على حمل الأسلحة الفتاكة ولكنه كان مهملا إلى حد كبير . وفى اليوم السابق لتتويجه قبض على أربعة شبان لانتهاكهم هذا الحظر ، وأمر سيكستوس بشنقهم فوراً . والتمس أقرباؤهم العفو عنهم أو تأجيل التنفيذ ، فأجاب « ما دمت على قيد الحياة فلا بد أن يموت كل مجرم أثيم » ؛ وما لبثت أن تدلت أجسادهم من مشنقة نصبت على مقربة من جسر سانتانجيلو ، وسط احتفالات التتويج ، فكان هذا بمثابة الخطاب الافتتاحى لسيكستوس والبيان لسياسته فى أمر الجريمة .

وأمر البابا النبلاء بطرد فتاكهم ، ووعد كل قاطع طريق يسلم إليــه آخر حيا أو ميتا بالعفو عنه ومكافأته ، أما المكافأة فتدفعها أسرة اللص الأسير أو موطنه . فإذا أذاع لص منهم تحديه للأمر ، أمر سيكستوس أسرته بأن يعثروا عليه ويأتوا به أو يلقوا الموت جزاء لهم . وقد أرضى دوق أوربينو البابا[٣٢] . بأن حمل بغالا طعاما مسموما وأمر سائقها بالمرور بمخبأ قاطع طريق منهم ، وسرق اللصوص الحمل وأكلوا الطعام وماتوا . ولم يكن هناك أى اعتبار للمراتب الكهنوتية أو الاجتماعية ، فالمذنبون من « الأسر الأولى » يعدمون دون رحمة أو تأجيل ، وكان بين المشنوقين قسيس خارج على القانون . وما نبث الريف أن انتشرت فوق ارجائه الجثث تتأرجح فى الريح ، وقال ظرفاء روما إن عــدد الرءوس المقطوعة المعلقة على جسر سنتانجيلو يفوق عدد ثمار الشمام المعروضة فى أكشاك السوق[٣٣] . ولغط الناس بقسوة البابا الهمجيه ، ولكن السفراء أخبروه أنهم « أينما ساروا فى دويلاته كانوا يجتازون بلدا رفرف عليه السلام والأمن[٣٤] » وأمر الحبر الفخور بضرب عملة كتب عليها Noli me tangere « حذار أن تمسنى » ، وفى غضبة مضرية للفضيلة أمر بحرق قسيس وغلام جزاء ارتكابهما اللواط ، وأكره شابة على أن تشهد شنق أمها التى باعتها للبغاء . أما كل جرائم الزنى التى يكشف أمرها فجزاؤها الموت الزؤام . وكان يقبض على الناس لجرائم

ترتد إلى تاريخ بعيد، حتى أن اعلانا جداوياً نقل عن القديس بطرس ارتعاده فرقا ، مخافة أن يوجه سكستوس إليه التهمة لقطعه أذن مالخوس عند إلقاء القبض على المسيح .

على أنه فى غمرة هذه المطاردة المجنونة وجد الوقت للحكم والاصلاح . فأنهى حرب المصادرات التى خاضها جريجورى الثالث عشر مع الأشراف . ووفق بين عدوين مدمين هما آل أورسينى وآل كولونا إذ وحد بينهما بالزواج . ووزع الكرادلة على أحد عشر « جمهورا » جديدا من العابدين وأربعة من القدامى ، وقسم بين هؤلاء وظائف الادارة البابوية . وأمر رجال الاكليروس باتباع جميع مراسيم الاصلاح الصادرة عن مجمع ترنت ، وطلب إلى الأساقفة تفقد الاديرة دوريا واصلاحها . وكانت عقوبة مضاجعة راهبة هى الموت للمذنبين جميعا . وقد نفخ الحياة فى جامعة روما فنشطت بكامل قوتها . ورغبة فى تدبير المكان الكافى للعدد المتعاظم من الكتب كلف دومنيكو فونتانا بتصميم بيت جديد فخم يضم مكتبة الفاتيكان . وأشرف بنفسه على طبعة منقحة من ترجمة جيروم اللاتينية للكتاب المقدس — وهى تضارع فى روعتها الترجمة الانجليزية للكتاب فى عهد الملك جيمس الأول .

بيد أنه لم يشارك أسلافه من بابوات النهضة شعور الاحترام لمخلفات الفن الوثنى . فأتم هدم سبتزونيوم سيفيروس ، ليوفر الأعمدة لكنيسة القديس بطرس . واقترح هدم مقبرة سسيليا ميتيللا . وهدد بهدم الكابيتول ذاته ان لم تنزع منه تماثيل جوبيتر تونانس ، وأبوللو ، ومنيرفا ؛ ثم أبقى على منيرفا ، ولكنه أطلق عليها اسما جديدا هو روما ، واستبدل برمحها صليبا . وأخرج الشياطين من أعمدة تراجان وماركوس أوريليوس بأن وضع فوق قمتها تماثيل للقديس بطرس أو القديس بولس وأطلق اسميهما على الأعمدة . وامعاناً فى الرمز على خضوع الوثنية للمسيحية كلف دومنيكو فونتانا بأن ينقل إلى ميدان القديس بطرس المسلة التى جلبها كاليجولا من

من هليوبوليس وأقامها نيرون في ملعب مكسيموس . وكانت هذه الكتلة الواحدة من الجرانيت الوردى تعلو ثلاثة وثمانين قدماً ، وتزن أكثر من مليون رطل رومانى . وكان أساطين المعمار ، من أمثال أنطونيو دا سانجالو وميكلانجلو ، قد أفتوا بأن لا طاقة لمهندسي النهضة بنقلها . واستغرق انجاز هذه المهمة عاماً كاملا من دومنيكو وأخيه جوفانى (١٥٨٥ — ٨٦). وأنزلت الآلات الضخمة هذا الأثر ونقلته ، وقام ثمانمائة من الرجال تشد أزرهم الاسرار المقدسة ، و ١٤٠ حصاناً ، بجر أربعة وأربعين حبلا سمك الواحد منها كذراع الرجل ، ليقيموا المسلة فوق موقعها الجديد . وغدا دومنيكو بطل روما بعد نجاحه في المهمة ، أما سيكستوس فضرب المداليات التذكارية ، وأعلن النبأ رسمياً للحكومات الأجنبية . واستعيض عن الكرة التي في قمة المسلة بصليب يحوى قطعة من «الصليب المقدس» الذى مات عليه المسيح . وأحس سيكستوس أن المسيحية استعادت سلطانها بعد أن عطلته النهضة حينا .

وجدد هذا البابا الذى لم يعرف الكلل عمارة روما غير الدينية خلال بابويته القصيرة التى لم تزد على خمس سنوات ، فجلب لها كمية جديدة من الماء الصالح — تغذى سبعا وعشرين عيناً جديدة — وذلك بإعادة بناء أكوا ألسندريا ، التى أطلق عليها اسمه « أكوا فيليتشى » . وطهر الهواء بتمويل تجفيف المستنقعات ، وأمكنه تحقيق تقدم طيب في هذا الميدان واستصلح من الأراضى ٩,٦٠٠ فدان ، ولكن المشروع هجر بعد موته . وتنفيذاً لأمره شق دومنيكو فونتانا شوارع فسيحة جديدة وفق النظام الكلاسيكى ، نظام الخطوط المستقيمة ، ومد طريق سيستينا وغير اسمه إلى طريق فيليتشى ، وأصبحت كنيسة سانتا ماريا مادجورى الرائعة مركزاً يتوسط عدة شوارع تتفرع منه ، وبدأت روما تتخذ شكلها الحديث . ولكى يمول سيكستوس مشاريعه وخزائنه التى كانت خالية الوفاض عند البدء بتنفيذها فرض الضرائب حتى على ضروريات الحياة ، ومذق العملة ، وباع المناصب ، وأصدر

تأميناً بدخل سنوى يدفع مدى الحياة لقاء ما يقدم للخزانة البابوية من عطايا ، وأمد أهلها ماليته بكفاية وعناية ، وخلف خمسة ملايين كراون فى خزانته عند موته .

أما شغله الشاغل فكان السياسة الخارجية . فهو لم يطلق الأمل قط من إعادة إنجلترة وألمانيا إلى حظيرة الكاثوليكية وتوحيد كلمة العالم المسيحى ضد الإسلام . أعجبته كفاية التزابث فى السياسة والحكم ، ولكنه مد يد المعونة للمؤامرات التى استهدفت خلعها . ووعد بالمساهمة فى نفقات الأرمادا الأسبانية ، ولكنه ارتاب فى تباطؤ فيليب ، واشترط فى دهاء أن تكون معونته رهناً بنزول الجيوش الإسبانية فعلا على أرض إنجلترة ، وكانت فرنسا مشكلته الكبرى . فالهيجونوت الذين افترض أنهم أبيدوا عام ١٥٧٢ كانوا يزحفون على باريس بقيادة هنرى نافار الذى لا تفل له عزيمة . وكان فيليب الثانى يموّل الحلف ليتقذ فرنسا من براثن البروتستنتية ويحفظها للكاثوليكية — ولأسبانيا . وكان على سيكستوس أن يختار بين أمرين : فإما أن يترك فرنسا تنحرف إلى البروتستنتية ، وإما أن يعين فيليب على تحويل فرنسا إلى ولاية أسبانية . ولكن توازن القوى بين فرنسا وأسبانيا يبدا أمراً لا غنى عنه للبابوية إن أرادت التحرر من سلطان القوى الدنيوية . وفى عام ١٥٨٩ وعد سيكستوس بالاشتراك فى حرب ضد هنرى ، ولكنه انسحب من هذه الخطة حين تعهد هنرى باعتناق الكاثوليكية . وهدد فيليب بسلخ أسبانيا من واجب الطاعة للبابا ، وندد يسوعى أسبانى بالبابا لأنه يحرض على الهرطقة ، ولكن سيكستوس لم يهتز ، فاستقبل سفير هنرى بالترحيب ، وتبين آخر الأمر أنه على حق فى ثقته بهنرى ، فقد استنقذت الكنيسة فرنسا ؛ واستمرت فرنسا ميزان قوة ضد أسبانيا .

وكان هذا آخر انتصاراته ، ولعل الجهد الذى بذله فيه أضناه . ولم يحزن على موته (١٥٩٠) لا الكرادلة ولا الأشراف ولا الشعب ، أما الكرادلة فقد أجفلتهم صرامته ، وأما الأشراف فقــد أكرهوا على طاعة

القانون برغم ما ألفوا من عادات تقدست كثيراً بحكم القدم . وأما الشعب الذى فرض عليه أقصى ما يمكن فرضه من ضرائب وأدّب ليلزم سلاماً لم يألفه ، فقد حاول تحطيم التمثال الذى أقيم لسيكستوس فى الكابيتول ، ولكن بعد أن فقدت الضربات التى كالها لذعتها ، استطاع الخلف أن يوازنوا بين انجازاته وبين قسوته وكبريائه وولعه بالسلطة . وفى رأى « ليكى » المؤرخ العقلانى أنه « وإن لم يكن أعظم الرجال اللذين ولوا عرش البابوية ، فهو إلى حد كبير أعظم رجل دولة بين البابوات[٢٥] » .

ومن خلفائه فى هذه الحقبة تفرد بالذكر رجلان . أما أولها وهو كلمنت الثامن (١٥٩٢ — ١٦٠٥) فكان أقرب ما يكون إلى روح المسيحية . يقول صلى الميجونوتى « كان بين جميع البابوات الذين تربعوا منذ أمد طويل على كرسى روما أخلاهم من الهوى الحزبى ، موفور الحظ من تلك الوداعة وذلك الحنو اللذين أوصى بهما الإنجيل[٢٦] » بيد أنه رفض الرأفة على بياتريشى تشنشى (١٥٩٩) ، وأذن لمحكمة التفتيش بحرق جوردانو برونو (١٦٠٠). وأما الثانى فهو أوربان الثامن (١٦٢٣ — ٤٤) ، الذى قدم المعونة أول الأمر لأسبانيا والنمسا فى حرب الثلاثين سنة ، ولكنه خشى أن تطوقاه حين حاولتا ابتلاع مانتوا ، فاتجه بمناوراته الدبلوماسية إلى التعاون مع ريشليو فى استخدام جيوش جوستاف أدولف البروتستنتية لإضعاف قوة الهابسبورج . وقد سرت إليه العدوى من روح العصر العسكرية ، فأخضع الشئون الدينية لمقتضيات التوسع شأن الملوك ، واستولى على أوربينو وفرض عليها الضرائب الثقيلة — كما فرضها على دويلاته الأخرى — ليموّل جيشاً بابوياً يعده لمحاربة دوق بارما . ولكن الجيش كان عاجزاً لا خير فيه ، وخلف موته المملكة البابوية « فى حال من الانحلال والأعياء » كما يقول سفير بندقى « بحيث يستحيل أن تقوم لها قائمة بعد اليوم[٢٧] » . على أن السفير كان مخطئاً فى حكمه ، فقد ظهرت عناصر الانتعاش فى كل مكان فى الكنيسة ، وشقت طريقها صعداً إلى البابوية . فالشعب الإيطالى البسيط ،

هذا الشعب الذى كان يتعزى عن شقائه الطويل بالتمسك بأهداب الدين وبالورع الخصب الخيال ، ظل أفراده يقدسون مزاراتهم كما كانوا يفعلون من قبل ، ويمشون خاشعين فى المواكب الدينية ، ويتجاذبون حديث المعجزات الجديدة ، ويصعدون « السلم المقدس » على ركبهم فى وجد صوفى أليم . لقد كشف قديسون كفيليب نيرى ، وفرنسيس سيلز ، وفانسان دبول ، عن قدرة الكنيسة العريقة على أن تلهم أتباعها أعمق مشاعر التقوى والولاء ؛ وهكذا نرى يسوعياً مثل الويسيوس جونزاجا يموت غير متجاوز الثالثة والعشرين وهو يخدم ضحاياالطاعون فى روما (١٥٩١) . لقد تقهقر الفساد والحرص اللذان ابتليت بهما الإدارة البابوية أمام هجمات المصلحين البروتستنت ، وحض القديسين ، والقدوة الملهمة التى أتاحها للناس أحبار كالقديس شارل بوروميو الميلانى . فنمت ، ولو فى شىء من التعثر ، حركة الاصلاح الذاتى من بابا إلى آخر . ونفخ من جديد فى الطوائف الدينية القديمة واستكثر من الطوائف الجديدة — الأوراتوريون (١٥٦٤) ، ومنذورو القديس أمبروز (١٥٧٨) ، وصغار الكهنة النظاميون (١٥٨٨) ، واللعازريون (١٦٢٤) ، وأخوات البر (١٦٣٣) ، وكثير غير هؤلاء . وانشئت الكليات اللاهوتية فى أرجاء العالم المسيحى لإعداد طبقة متعلمة من أكليروس غير منتسب إلى رهبنة . وانطلق المبعوثون الكاثوليك إلى كل بد غير مسيحى ، يقابلون المكاره والأخطار ، ويعنون بالمرضى ، ويعلمون الصغار ، ويبشرون بالدين . أما اليسوعيون المدهشون ، الذين لا تفل لهم عزيمة ، فقد تحركوا فى كل مكان ، يصارعون البروتستنتية فى ألمانيا ، ويدبرون المؤامرات السياسية فى فرنسا ، ويموتون فى سبيل عقيدتهم فى إنجلتره ، ويحملون الإيمان إلى « الوثنيين » فى قارات الدنيا الخمس .

٣ — اليســـوعيون

١ — فى أوربا

بعد أن مات دييجو لاينز (١٥٦٥) ، اختارت « جمعية يسوع » فرانشسكو بورجا قائداً لها ، وكان خلقه وسيرته علامة على جيله . فهذا الرجل الذى ولد غنياً ، والذى كان حفيداً للبابا اسكندر السادس ، وارتقى دوقا لجانديا ثم حاكماً لقتلونيا ، والذى صاحب الملوك — هذا الرجل دخل الطائفة الجديدة عام ١٥٤٦ ، ووهبها كل ثروته الشخصية ، واكتسب مرتبة القديسين بما اتصفت به حياته من قداسة صارمة . أما خليفته ايفيرارد مركوريان فلم يترك أى أثر فى التاريخ ، ولكن كلوديو أكوافيفا قاد الجمعية بكثير من الحكمة واللباقة خلال أربعة وثلاثين عاماً من المتاعب (١٥٨١ — ١٦١٥) حتى ليعده كثير من اليسوعيين الآن أرفع مكانة من جميع قادتهم بعد لويولا . وحين تقلد الزعامة كان عدد اليسوعيين زهاء خمسة آلاف ، وحين مات كان عددهم ثلاثة عشر ألفاً .

وقد وضعت لجنة من فقهاء اليسوعيين تحت إدارته (١٥٨٤ — ٩٩) خطة للتعليم ظلت إلى عام ١٨٣٦ تقرر نظام الدراسات فى الكليات اليسوعية وطريقتها . فهذا النظام الدراسى الذى يتسلم الأولاد من سن الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة ويمتد ست سنوات ، كان يتيح لهم ثلاث سنوات من دراسة اليونانية واللاتينية لغة وأدباً ، أما السنوات الباقية فتخصص للفلسفة بأوسع معانيها ، فتشمل العلوم الطبيعية والمنطق والميتافيزيقا والأخلاق . وتجمع الشواهد على أن هــذه المواد كلها كانت تدرس على نحو يدعو للإعجاب . صحيح أن الفلسفة كانت وسيطة (سكولاستيه) ولكن لم يكن عنها بديل مقبول بعد . أما الأحياء والتاريخ الدنيوى الحديث فقد أهملا إلى حد كبير كما كان الشأن فى جميع مدارس العصر تقريباً ، ربما لأن بساطة الإيمان الواثقة كانت تتأذى من بشاعة مشهد الصراع على البقاء بين الحيوان،

ومن موكب الحرب الذى لا يكاد ينقطع بين بنى الإنسان . لقد كانت خطة الدراسة فى جملتها توفيقاً ماهراً بين العصور الوسطى والنهضة . ففى قدرة بالغة على التكيف ، رحب اليسوعيون بمولد الدراما من جديد ، فترجموا وألفوا ومثلوا المسرحيات ، واكتشفوا فى المسرحيات المدرسية وسيلة حية لتعليم الكلام والبلاغة ، وتقدموا عصرهم فى إدارة المسرح ومشاهده . واستعانوا بالمناظرات شحذاً للذكاء وقوة الحجة ، ولكنهم ثبطوا أصالة الفكر فى المعلم والطالب على السواء . ولقد كان هدفهم فيما يبدو إعداد صفوة متعلمة ولكنها محافظة ، قادرة على القيادة الذكية العملية ولكنها بنجوة من متاعب الشكوك العقائدية ، راسخة فى الإيمان الكاثوليكى لا تحيد عنه قيد أنملة .

وكانت المدارس اليسوعية فى جميع الحالات تقريباً يقوم بإنشائها ومنح الهبات لها السلطات الزمنية أو زعماء الكنيسة أو الأفراد الميسورون ، ولكن اليسوعيين احتفظوا بالهيمنة الكاملة عليها . ومع أن بعض كلياتهم أنشىء خصيصاً لأبناء الأشراف ، فإن كلها تقريباً كان مفتوحاً ، دون رسوم تعليم ، لأى طالب مؤهل فقيراً كان أو غنياً (٣٨) . أما المدرسون الذين كانوا عادة من رجال الطائفة فأفضل إعداداً من نظرائهم البروتستنت ، أوفياء لمهنتهم لا يتقاضون عنها أجراً ، يتيح لهم ثوب الكهنوت وتأثيره سلطاناً محترماً مكنهم من حفظ النظام دون اللجوء إلى التخويف أو العقاب البدنى . وقد أرسل كثيرون من البروتستنت أبناءهم إلى الكليات اليسوعية(٣٩) لكى ييسروا لهم ، فضلا عن الإلمام السليم بالدراسات الكلاسيكية ، تدريباً رفيعاً على الفضيلة وآداب السلوك وقوة الخلق . يقول فرانسس بيكون « أما الجانب التربوى فأقصر قاعدة أن يقال لك استشر مدارس اليسوعيين ، لأنه لم يجرب ما هو خير منها »(٤٠) . وفى عام ١٦١٥ كان لليسوعيين ٣٧٢ كلية ، وفى عام ١٧٠٠ كان لهم ٧٦٩ ، وأربع وعشرون جامعة منبثة فى أرجاء العالم . وفى الدول الكاثوليكية كاد التعليم

القانوى بأسره يكون فى قبضتهم ، مما أتاح لهم نفوذاً هائلا فى تشكيل الفكر القومى .

ثم التمسوا مسمع الملوك فى طرف السلم الآخر . وقد حظر عليهم أكوافينا أن يصبحوا كهنة اعتراف للملوك ، وثناهم عن الاشتراك فى السياسة . ومع ذلك فحتى فى عهد أكوافيفا قبل الأب كوتون دعوة هنرى الرابع له ليكون مرشده الروحى ، وبعد هذا وافق اليسوعيون على رأى ألمع تلاميذهم فولتير ، وهو أن خير السبل لتشكيل الشعب هو تشكيل ملكه . وما وافى عام ١٧٠٠ حتى كانوا آباء الاعتراف لمئات من أبرز الشخصيات . وكان النساء على الأخص شديدات الشعور بحسن آدابهم وبتقبلهم السمح للدنيا ، وبفضل تلقيهم اعترافات لنساءذوات أهمية ، استطاع الآباء الدهاة أن يصلوا إلى رجال ذوى أهمية .

وإذ جهروا بنية الاختلاط بالناس بدلا من الاعتزال فى الأديرة ،فقد كيفوا مبادئهم الخلقيةوفق طرق البشر العصية علىالاصلاح . ففى رأيهم أن الأخلاق المسيحية الصارمة لم تكون ميسورة إلا للنساك والقديسين ، فواقع الطبيعه البشريه يقتضى بعض التخفيف من قاعدة الكمال . ومثل هذه التوفيقات للقانون الخلقى وضعها أرسطو رداً على نزعه أفلاطون الكماليه ، ووضعها معلمو الناموس اليهود ليلائموا بين الشرائع العبريه القديمه والظروف الجديدة للحياة الحضرية . ومع أن اليسوعيين فى مذهبهم — وفى تطبيقهم للمذهب عادة — يحتقرون الجسد ، فإنهم فهموا الجسد ، وأتاحوا له ملاذا خلقياً لكيلا يكره الخطاة على التمرد فتخسرهم الكنيسة . ورغبة فى تخفيف التوتر بين ناموس المسيح وطبيعة البشر ، طور اللاهوتيون من اليسوعيين وغيرهم فكرة الإفتاء — أى تطبيق التعاليم الخلقية على الحالات الخاصة . ولكن لنترك الآن هذا العلم العويص حتى نصل إلى أعدى أعدائه بليز باسكال .

ويمكن القول عموماً بأن اليسوعيين مالوا فى لاهوتهم إلى الرأى السمح

والنظرية المتحررة . كان من رأى بعضهم ، كالأب ليس والأب هاملى فى لوفان (١٥٨٥) ، إنه ليس من الضرورى الإيمان بأن كل كلمة أو كل تعليم فى الكتاب المقدس موصى به من الله (٤١). وقد أكد كل اليسوعيين تقريباً المعتقد السكولاسى القائل بأن الحكومات الزمنية تستقى سلطتها من الشعب ، وقد بشر عدد غير قليل منهم – مثل ماريانا وبوزنباوم – بحق الشعب عن طريق ممثليه الشرعيين فى أن يعزل ، بل أن يقتل ، الملك « الفاسد » ، ولكن « الفاسد » فى هذا المجال كان معناه المهرطق ، وربما كان مبعث هذا التشديد الديمقراطى رغبة اليسوعيين ، بحكم ولائهم المطلق لسيادة روما ، فى الاعلاء من سلطة البابا التى تفردت بالقداسة والسمو . وعلى النقيض من لوثر ، آمن اليسوعيون بفعالية الأعمال الصالحة فى نيل الخلاص ، واستنكروا التأكيد على الخطية الأصلية ، وقابلوا الجبرية القائمة التى قال بها بولس ، وأوغسطين ، ولوثر ، وكلفن ، ويانسن ، بالتأكيد من جديد لحرية الإرادة . ولقد أثار لويز مولينا ، وهو يسوعى أسبانى ، ضجة لاهوتية حين زعم أن الإنسان يستطيع تقرير مصيره الأبدى بإرادته وأعماله ، وأن اختياره الحر يمكن إما أن يتعاون مع النعمة الإلهية أو يغلبها . وطالب اللاهوتيون والدومنيكان بإدانة مولينا بالهرطقة ، ولكن اليسوعيين خفوا للدفاع عنه ، وحمى وطيس الجدل إلى حد دعا كليمنت الثامن إلى أمر الفريقين بالكف عنه (١٥٩٦) .

ونضافرت أخلاقيات اليسوعيين ، الرحيمة بالقياس إلى أخلاقيات غيرهم ، مع أفكارهم الراديكالية ، واتصالاتهم المحافظة ، وسلطانهم المتسع ، لتزهد فيهم الاكليروس الكاثوليكى غير المنتسب إلى الرهبنات وتثير كراهية البروتستنت لهم . فرماهم القديس شارل بوروميو بالتساهل المخزى مع ذوى النفوذ من الخطاة (٤٢) . وقال ساربى لو أن القديس بطرس كان مرشده كاهن اعتراف يسوعيا لوصل به الأمر إلى إنكار المسيح دون أن يحسب ذلك عليه خطيئة (٤٣) . أما موتيو فيتيللسكى ، قائد

اليسوعيين الذى خلف أكوافيفا ، فقد نبه أفراد الطريقة إلى أن حرصهم على جمع المـال يثير اللوم عليهم من جمع الناس (٤٤) . وأما القساوسة البروتستنت فى انجلتره ، الملتزمون بعقيدة الحق الإلهى لملوكهم فى الحكم ، فقد صدمتهم آراء اليسوعيين فى سيادة الشعب وقتل الملوك أحياناً . وندد روبرت فيلمر برأى الكردينال بللارمينى القائل بأن « السلطة الزمنية أو المدنية . . كائنة فى الشعب ، إلا إذا خلعها على ملك. » (٤٥) . أما البروتستنت الألمان فحاربو اليسوعيين زاعمين أنهم « مخلوقات من الشيطان تقيأتهم جهنم » ، وطالب بعضهم بحرقهم كما تحرق الساحرات (٤٦) . وفى عام ١٦١٢ ظهر فى بولنده كتاب « التعليمات السرية » ، وهو يوهم قارئه بأنه تعليمات سرية لليسوعيـــين فى فن الظفر بالتركات والوصول إلى السلطة السياسية . وأعيد طبع الكتاب اثنتين وعشرين مرة قبل عام ١٧٠٠ . وكان يصدق إلى وقتنا هذا تقريبا، ولكن أغلب الرأى فيه الآن أنه أما هجاء ذكى أو تزوير وقح (٤٧) .

ب — فى الأقطار غير المسيحية

كان الرأى عند الجماهير الكاثوليكية أن أخطاء اليسوعيين لهـا ما يرجحها كثيرا من فضائل فى التعليم وجرأة فى التبشير . صحيح أن طرقا دينية أخرى شاركت فى هذه المغامرة التقية ، مغامرة نشر الدين ، ولـكن أين هذا من جرأة اليسوعيين وإقدامهم واستشهادهم فى الهند والصين واليابان والأمريكتين ؟ ففى الهند مثلا دعا السلطان المغولى المستنير أكبر بعض اليسوعيين إلى بلاطه فى فاتحبور سكرى (١٥٧٩) ، واستمع إليهم فى حب استطلاع وتعاطف ، ولكنه أبى أن يطرد حريمــه . وانضم شريف إيطالى يدعى «روبرتودى نوبيلى إلى جماعة اليسوعيين ، وذهب إلى الهند مبشرا (١٦٠٥) ، وهناك درس العقائد والطقوس الهندية، واتخذ لباس البراهمة واتبع نظامهم، وألف الكتب بالسنسكريتية ،

وحول البعض إلى المسيحية . ومارس يسوعيون آخرون اليوجا ، وعملوا بين الطبقات الدنيا . وعبر المرسلون اليسوعيون الهملايا إلى التبت حوالى عام ١٦٢٤ وزودوا أوربا بأول معلومات وثيقة — وآخرها حتى وقت طويل — عن ذلك العالم المحجوب .

أما اليابان فقد دخلها اليسوعيون فى تاريخ مبكر (عام ١٥٤٩) ، وفى عام ١٥٨٠ زعموا أنهم حولوا إلى المسيحية ١٠٠,٠٠٠ ، وفى عام ١٥٨٧ أمروا بالرحيل عن الجزر ، وفى عام ١٥٩٧ لقى اليسوعيون والفرنسسكان اضطهادا عنيفا صلب فيه القساوسة والرهبان وآلاف المسيحيين اليابانيين — وهى طريقة جديدة زعم قاتلوهم أنهم أخذوها عن الأناجيل . وحوالى عام ١٦١٦ دخلت فئة جديدة من اليسوعيين اليابان وكسبوا مسيحيين جددا لا يستهان بعددهم ، ولكن التجار الهولنديين والانجليز حرضوا الحكومة على اضطهادهم من جديد ظنا منهم بأنهم يمهدون الطريق للتجارة البرتغالية أو الأسبانية (٤٨) ، فأعدم من اليسوعيين واحد وثلاثون ، ولم تحل سنة ١٦٤٥ حتى اختفت المسيحية من اليابان .

وأما الصين فكانت خطراً يتحدى اليسوعيين ، إذ توعد الأباطرة أى مسيحى يجرؤ على دخول « المملكة الوسطى » بالموت. وقد رأينا فى غير هذا الموضع من الكتاب كيف مات اليسوعى فرانسيس زافير (١٥٥٢) وهو قاب قوسين من الصين بعد أن عول على كسبها للمسيحية . وفى عام ١٥٥٧ أنشأ التجار البرتغاليون مستعمرة فى مكاو ، على ساحل الصين الجنوبى الشرقى . هناك انقطع بعض اليسوعيين لتعلم لهجات الصين وعاداتها. وأخيرا دخل اثنان منهم ، وهما ماتيو ريتشى وميكيلى رودجيرى ، ولاية كوانتونج مسلحين باللغــات والفلك والرياضة والساعات كبيرها وصغيرها والكتب والخرائط والآلات . وافتتن حاكم الإقليم بهذه الطرف وكانا يتخذان أسماء صينية ولباسا صينيا ، ويعيشان عيشة البساطة ،

ويشتغلان بجد ، ويسلكان مسلك التواضع الذى توقعة الصينيون من أبناء حضارة حديثة العمر قليلة النضج كحضارة أوربا،لذلك سمح لهما بالبقاء . واتخذ ريتشي سمته إلى كانتون حيث أثار أعجاب المندريين (كبار الموظفين) بمعارفه العلمية والجغرافية . وهناك أقام المزاول ، ورسم الخرائط المريحة الوثيقة ، وأجرى الحسابات الفلكية العويصة . ثم أدخل أصدقاءه الجدد إلى حظيرة المسيحية بكتابته خلاصه مفرغة فى أسئلة وأجوبة شرحت العقائدالأساسية للمسيحية ، ودعمت بمقتبسات منالنصوص الشرقيه القديمه . وشجعه التسامح الذى لقيه فانتقل إلى ضاحيه من ضواحى بكين (١٦٠١) وأرسل ساعة كبيرة إلى الأمبراطور كانج . هسى . فلما تعطلت الساعه ولم يستطع أحد من العلماء الصينيين أن يديرها من جديد ، أرسل «ابن السماء» فى طلب مهديها . وحضر ريتشي ،وضبط الساعه ، وقدم إلى الحاكم الطلعة مزيدا من الأدوات العلمية ، وما لبث ريتشي وآخرون من اليسوعين أن ثبتوا فى بلاط مينج . ولم يضع الامبراطور الطيب أى عقبه فى سبيل اعتناق كثير من علية الصينيين للمسيحية . وبعد موت ريتشي (١٦١٠) واصل يسوعى آخر يدعى « يوهان آدم شال فون بل » عمل البعثه العلمى والتبشيرى . فأصلح التقويم الصينى ، وصنع المدافع الممتازة للجيوش الصينية ، وغدا الصديق الحميم للامبراطور وموضع أكرامه، ولبس الحرير المنـــدرى ، وسكن قصرا ، وقامر بالسياسة ، ثم ألقى فى أحد السجون ، ومات بعد سنة من الافراج عنه .

وقد تكون بقية القصة ، التى اتصلت إلى القرن الثامن عشر ، باعث تسلية لمؤرخ فلسفى النزعة . ذلك أن اليسوعين فى الصين كانوا بفضل تبحرهم فى العلم ، قد نفضوا عنهم تزمت اللاهوت . فحين درسوا آداب الصين الكلاسيكية تأثروا بما كشفوه فيها من حكمة سامية . وبدت لهم عبادةالصينيين لأسلافهم كأنهادافع رائع على الاستقرار الخلقى والاجتماعى ،وكان فى كونفوشيوس الكثير ممايبرر تبجيله. ولكنمرسلين

آخرين شكوا إلى محكمة تفتيش روما (١٦٤٥) من أن اليسوعيين يغضون من قدر الصليب وعقيدة الخلاص الإلهى لما قد يصدم الصينيين منهما إذ لا عهد لهم بفكرة البشر يقتلون إلها ، ومن أن اليسوعيين يتلون القداس بالصينية دون اللاتينية ، وأنهم أذنوا لمن نصروهم بأن يحتفظوا بكثير من شعائر دينهم القومى ، وأن المبعوثين اليسوعيين يقتنون المال لأنهم يعملون أطباء وجراحين وتجارا ومرابين ومشيرين للقواد والأباطرة . أما اليسوعيون فقد راعهم إصرار الدومنيكان والفرانسسكان على أن يقولوا للصينيين إن المسيحية هى الملاذ الوحيد من الهلاك الأبدى ، وأن الأسلاف الذين يعبدونهم إنما يصلون نار جهنم . وأمر أنوسنت العاشر اليسوعيين بحظر قرابين اللحم والشراب التى تقدم لظلال الأجداد . وكان الآباء اليسوعيون خلال ذلك يرسلون إلى أوربا أوصافا لحياة الصين ودينها وفكرها ، وهى الأوصاف التى قدر لها أن تشارك فى ازعاج السنية المسيحية فى القرن الثامن عشر .

وأما فى أمريكا الجنوبية فقد اكتسب المرسلون اليسوعيون احترام الوطنيين وثقتهم بفتحهم المدارس والمراكز الطبية ، وبذلهم الجهود الشاقة للتخفيف من وحشية السادة الأسبان . وقد صنفوا المعاجم وكتب النحو ، وارتادوا المجاهل الداخلية الخطرة ، ودفعوا الجغرافية دفعة هائلة . وأرسلوا إلى أوربا قشرة الشجرة البيروية التى أصبحت — فى هيئة الكينين — العقار الثابت لعلاج الملاريا . وفى براجواى أنشأوا مجتمعا مثاليا شيوعيا .

هنالك فى سهول الپامپز والغابات التى تحف بنهر أوروجواى ، وفوق الشلالات الخطرة التى ثبطت همة المستعمرين ، نظموا مستوطناتهم الهندية . وأذن لهم فيليب الثالث ملك أسبانيا فى أن يحظروا الإقامة فيها على جميع البيض فيما خلا اليسوعيين وحاكم المستعمرة . وقالوا إنهم وجدوا فى الأهالى براعة ومودة — ومائتا ألف من الهنود صالحون من جميع

الوجوه لملكوت الله . » (٤٩) . فتعلموا لغة الأهالى ولم يعلموهم الأسبانية ولا البرتغالية ، وثبطوا كل اتصال بالمستعمرين . واستمالوا الناس إلى المسيحية بالمحبة والرحمة والموسيقى . وأنشأوا المدارس لتعليم الموسيقى ، وألفوا الفرق الموسيقية التى تعزف على جميع الآلات الأوربية الهامة وتؤدى كل ألوان الألحان تقريبا ، حتى المختارات من الأوبرات الايطالية . وسرعان ما تعلم الأهالى أن ينشدوا أضخم ألحان الكورال . وقيل على التحقيق إنه فى فرقة من ألف صوت لم تسمع نغمة ناشزة واحدة . وكانت فرقة الموسيقى تتقدم الناس فى غدوهم ورواحهم ، وتصحب جهدهم فى المتاجر والحقول . واحتفل القوم بالأعياد المسـيحية بالغناء والرقص والألعاب الرياضية ، وألف الآباء اليسوعيون المسرحيات الفكاهية وعلموا الرعية كيف يؤدونها .

ولقد هيمنوا على الاقتصاد كما هيمنوا على شئون الحكم . وأبدى الأهالى استعداداً ملحوظاً لمحاكاة المنتجات الأوربية ، حتى صناعة الساعات المعقدة ، والمخزمات المفافة ، والآلات الموسيقية . وكان العمل إجبارياً ، ولكن للشباب الحرية فى اختيار حرفهم ، ويباح الفراغ اللازم للترفيه والتثقيف . أما يوم العمل فثمانى ساعات فى المتوسط . وحدد اليسوعيون ساعات العمل والنوم والصلاة واللعب . وكان جزء من الأرض يملكه الأفراد ، ولكن أكثرها ملك مشاع . ونتاج العمل الجماعى يسلم للحكومة ويفرز جزء منه للبذر أو لسنوات الجدب ، وجزء يؤدى فرضة رءوس لملك أسبانيا ، وأكثره يوزع على العشرين ألف أسرة كل حسب حاجته ، ومن المسلم به أن جزءاً كان يخصص ليعول ، على مستوى متواضع (٥٠) ، اليسوعيين المائة والخمسين الذين يعملون مديرين وملاحظين وأطباء ومعلمين وقساوسة . وقد حرم عليهم بمقتضى مرسوم ملكى اقترحه اليسوعيون أن يشاركوا فى أرباح الاقتصاد ، وطلب إليهم أن يقدموا حساباً دورياً لرئيسهم الإقليمى . أما القانون فيطبقه قضاة وشرطة من الوطنيين ، وأما العقوبات

فهى الجلد والسجن والنفى وليس فيها الإعدام . ولكل مستوطنة مستشفاها وكليتها وكنيستها ووسائلها للتيسير على الشيوخ أو العجزة . لقد كانت شيوعية دينية ، ينال فيها الوطنيون الرزق والأمن والسلام وقسطاً من الحياة الثقافية نظير قبولهم المسيحية والنظام .

من أين يا ترى استقى اليسوعيون فكرة هذا النظام العجيب ؟ ربما بعضها من « يوتوبيا » مور (١٥١٦) ، وبعضها من الأناجيل ، وبعضها من دستور جماعتهم التى كانت هى ذاتها أشبه بجزيرة شيوعية وسط بحر يدين بالفردية . أياً كان الأمر ، فقد أثبت النظام أنه محل حب الوطنيين لأنه أقيم على الإقناع دون ضغط ، وحافظ على كيانه ١٣٠ عاماً (تقريباً ١٦٢٠ — ١٧٥٠) ، وحين هوجم من الخارج دافع عن نفسه بحماسة أذهلت المهاجمين ، وكان مثار الإعجاب حتى من شكاك حركة التنوير الفرنسية . يقول دالمبير « أقام اليسوعيون بالدين سلطة ملكية (؟) فى برجواى ، لا تستند إلا على ما أوتوا من قوة فى الإقناع ورفق فى الحكم . وإذ كانوا السادة المتصرفين فى البلد فإنهم أسعدوا الشعب الذى حكموه . » أما فولتير فوصف هذه التجربة بأنها « انتصار للإنسانية »[٥١] .

وقد انتهى النظام بكارثة لأنه لم يستطع عزل نفسه عن العالم الخارجى فالتجار الأسبان نعوا على اليسوعيين اشتغالهم بالتجارة ، والمستعمرون الأسبان كرهوا أن يحال بينهم وبين منطقة تغرى باستغلال الموارد والبشر[٥٢] . وراحت عصابات خطف الرقيق تهاجم المستوطنات اليسوعية المرة بعد المرة ، وأخلى الآباء ورعاياهم الأقاليم الأكثر تعرضاً لغاراتهم . فلما أوغلت الغارات حصل اليسوعيون على إذن من ملك أسبانيا بتسليح الأهالى بأسلحة أوربية ، وبعدها أمكن مقاومة الغارات بنجاح . على أن خطراً أكبر على المستعمرة كان يكمن فى مجرى السياسة والفكر الأوربيين . ذلك أن الدسائس السياسية المستمرة التى تورط فيها اليسوعيون فى فرنسا وأسبانيا والبرتغال تضافرت مع نهضة الفكر الحر والعداء للاكليريكية لتفضى إلى طرد جماعة اليسوعيين

من جميع الأقطار تقريبا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . ونشط المركيز بومبال — وهو وزير حاكم فى البرتغال — نشاطاً ملحوظا فى حركة العداء لليسوعيين . ففى عام ١٧٥٠ رتب إبرام معاهدة بمقتضاها نزلت البرتغال لأسبانيا عن مستعمرة سكرمنتو ، على مصب ريو دلابلاتا ، لقاء أراض أسبانية أبعد منها شمالا — شملت سبع مستوطنات يسوعية تضم ثلاثين ألف هندى . وراجت خلال ذلك شائعة تزعم أن بهذه الأراضى ذهبا وأن اليسوعيين يختزنونه . وأمرت السلطات البرتغالية الآباء والأهالى بالرحيل عن المستوطنات السبع خلال ثلاثين يوما . أما اليسوعيون فأشاروا بالتسليم (كما توقع الناس) ، وأما الهنود فآثروا المقاومة ، وردوا الهجمات البرتغالية طوال سنوات خمس . ولكن فى عام ١٧٥٥ جلب الجيش البرتغـــالى المدفعية ، وذبح المئات من الهنود ، أما الباقون ففروا إلى الغابات أو استسلموا ، وأصدر الرؤساء اليسوعيون فى أوربا لمرءوسيهم الأمر بالعودة إلى أسبانيا . وهكذا اختتمت تجربة « المسيحية الســعيدة » كما سمـاها موراتورى[٥٣] .

أما قصة المبعوثين اليسوعيين فى أمريكا الشمالية فهى أشهر ، ويكفى أن نلم بها المامة سريعة لنحيط بمجال النشاط اليسوعى فى هذه الحقبة . فقد دخلوا المكسيك عام ١٥٧٢ وشاركوا فى تحويل الوطنيين بسرعة إلى المسيحية ، ولكن عبء هذه المغامرة الأكبر وقع على كاهل الدومنيكان والفرانسسكان . وترك الفرنسسكان قافلة من البعثات والهيئات اللطيفة للرهبان « المتسولين » على طول الطريق من المكسيك إلى المدينة الفاتنة التى تحمل اسم مؤسس طريقتهم . ولقى كثير من اليسوعيين العذاب وأبشع الميتات فى محاولتهم ضم الهنود إلى حظيرة الكاثوليكية . من ذلك أن إسحاق يوجس شوه جســده واستعبد ثم قتل . أمان جان دبريبوف ، وجابرييل لالمانت ، وأنتونى دانيال ، وغيرهم من اليسوعيين ، فقد أحرقوا أو غلوا على النار خلال عامى ١٦٤٨ — ٤٩ . لقد نختلف مع هؤلاء الرجال على

اللاهوت الذى حاولوا بثه ، ولكن يجب أن نحترم إنسانيتهم وإخلاصهم ، ولو لمجرد كونهما النقيض المؤسف لقسوة المستعمرين والمسيحين وجشعهم، هؤلاء الصيادين الجلابين للرقيق، الذين شكوا من أن نشاط المبشرين الإنسانى يحول دون تحضير الهنود .

٤ — أيام إيطاليا ولياليها

كتب مونتيني حين رأى أهل روما عام ١٥٨١ « إنهم يبدون أقل تديناً من أهل المدن الصالحة فى فرنسا ، ولكنهم أكثر ولعاً بالمراسم والطقوس.(٥٤) » وكانت احتفالات أسبوع الآلام تشمل مواكب من أفراد يجلدون أنفسهم حتى تسيل دماؤهم، وإذاعة قرارات الحرم البابوى، وعرضاً للقناع الذى مسحت به فيرونيكا العرق من جبين المسيح . « رأيت فى عشية القيامة بكنيسة القديس يوحنا لاتيران رأس القديسين بولس وبطرس ، المعروضين هناك ، والمحتفظين بلحمهما ، وجلدهما ، ولحيتهما ، كأنهما حيان (٥٥) » . وكان إخراج الأرواح النجسة يمارس بطقوس شديدة الرقع فى النفوس ، ربما كضرب من العلاج النفسى الجماعى . ولقد تجاهلت الكاثوليكية فى إيطاليا عن عمد عقول الصفوة من الناس وقدمت لجماهير الشعب ناموساً خلقياً خيراً ولكن غير مرحب به ، لف فى الشعر والدراما والرمزية والتنفيس والرجاء ؟

وشهد مونتيني بتحسن عام فى أخلاق الناس ، ولكن ما زالت العلاقات بين الجنسين يشوبها كثير من التراخى القديم . فقد بلغ من خلاعة المسرح الإيطالى سواء فى الحركة أو الحوار أن مجلس شيوخ البندقية طرد جميع الممثلين من أراضيه (١٥٧٧) (٥٦) مع أنه كان يغضى عن البغاء . وكان الأدب الفاجر يشترى فى أى مدينة كبيرة كما هى الحال اليوم فى أى مكان تقريباً من العالم المسيحى . وحين اعتبر البابا بيوس الخامس اللواط جريمة كبرى جزع للقرار شباب روما من النبلاء . وقد دخل ثمانية لواطين

برتغاليين فى زواج رسمى ، فقبض عليهم وأحرقوا (٥٧) . كذلك أمر بيوس بطرد البغايا من الدويلات البابوية (١٥٦٦) . وشكا رجال الأعمال من أن المرسوم سيقفر المدينة،فأذن البابا لبعض المومسات بالبقاء فى حى معزول، وقدم المعونة الكبيرة للنساء اللاتى حاولن الانتقال إلى مهنة أحدث عمراً . أما سيكستوس الخامس ، ذلك الذى قهر قطاع الطرق ، فلم يصب غير انتصارات باهظة الثمن على الغانيات ، كما تشهد مراسيمه المتكررة فى ١٥٨٦ و ١٥٨٨ و ١٥٨٩ .

وإذ كان الحب الرومانسى لا يزال نزوة خارج الرباط الزوجى ، والزواج تزويج المال بالمال ، والطلاق محظوراً بأمر الكنيسة ، فقد انغمس الأزواج من أرباب الخيال فى الزنى . وفكر بيوس الخامس فى اعتبار الزنى جريمة كبرى . وقد ورد فى تقرير بتاريخ ٢٥ أغسطس ١٥٦٨ « إن التهديد بتقرير الإعدام عقوبة على الزنى أمر متوقع ، فإما أن يتمسك كل امرئ بالفضيلة أو يرحل عن المدينة . » على أن بيوس لان وقنع بعقوبات أخف : فصدر حكم على سيدة من أشراف روما بالسجن المؤبد ، وجلد مصرفى بارز بالسوط علانية ، ونفى الكثيرون من المذنبين غير هؤلاء .

وفى أواخر القرن السادس عشر دخلت عادة وصفاء الزوجات إلى إيطاليا من أسبانيا بطريق نابلى وميلان : فكان للزوج من علية القوم أن يأذن لصديق بأن يكون وصيفا (تابعاً شريفاً) لزوجته ، والظاهر أن هذه العادة نشأت فى أسبانيا إبان الحروب المتكررة وطول غياب الزوج عن بيته . وكان الوصيف الفارس يخدم السيدة النبيلة منذ استيقاظها حتى نومها ، ولكن العرف لم يكن قد أغضى بعد عن الزنى الذى كثيراً ما رافق هذه العادة فى إيطالية القرن الثامن عشر .

أما الجريمة فقد أفرخت برغم المعوقات اللاهوتية . فكثر الفتاك فى بيوت النبلاء ، ورجال العصابات فى الطرق العامة ، والقراصنة فى البحر المتوسط ، والاغتيالات السياسية والغرامية . من ذلك أن باولو جوردانو

أورسيني خنق إزابللا مديتشي في فراشها كما فعل عطيل بزوجته ؛ وقتل بيرو مديتشي زوجته لشبهة الزنى ، وقد رأينا كيف نقل جون وبستر عن قصة فيتوريا أكورامبوني الدامية روايته « الشيطان الأبيض » ، ومثل هذا سيفعله شلي مع بياتريتشي تشنشي ، التي كان أبواها فرانشسكو تشنشي مضرب المثل في الرذيلة والتوحش . وفي عام ١٥٩٤ حوكم بتهمة اللواط ، ولكنه أفلت بغرامة قدرها ١٠٠,٠٠٠ سكودي . وماتت زوجته الأولى بعد أن ولدت له اثني عشر طفلا ثم تشاجر مع أبنائه ، فغادر روما مع بياتريتشي وزوجته الثانية لوكريتسيا بتروني ، وانتقل إلى قلعة منعزلة في الطريق إلى نابلي . هناك حبسهما في عليتين وعاملهما بمنتهى القسوة ، ولو أننا لا نملك دليلا على وجود علاقة محرمة بينه وبين ابنته . ووجدت بياتريتشي وسيلة للدخول في علاقة غير شرعية بينها وبين حارس القلعة . وبتحريض بياتريتشي ، وزوجة أبيها ، وشقيقيها جاكومو وبرناردو ، أو لقاء أجر دفعوه له ، قتل الحارس الأب في فراشه (١٥٩٨) ، مستعيناً بأحد القتلة المحترفين . وقبض على المتآمرين وحكموا ، فدفعوا بالاستفزاز الذي لا يحتمل ، وتقدم مواطنون كثيرون بطلب الرأفة إلى كلمنت الثامن ، ولكنه أبى . فقطع رأسا بياتريتشي ولوكريتسيا ، وعذب جاكومو حتى الموت(٥٨) .

ومع ذلك أخذت الأخلاق تنصلح ، وآداب السلوك ترق ، وكان للمجتمع الإيطالي مفاتن ولطائف لا يباريه فيها غير الفرنسيين . فاللباس عند الطبقات العليا بهاء ملون من المخمل والساتان والحرير . وحوالي هذه الفترة بدأت نساء النبلاء يؤطرن وجوههن ، ويكللن رءوسهن ، ويطرحن على أكتافهن الحرير الأسود « المانتيليا » وكان زياً فاشياً في أسبانيا . وظل وجهاء القوم يلبسون الجوارب الطويلة . أما العوام والتجار الذين ألفوا الزي التركي فأخذوا يعتادون لبس السراويل . وهزأت المسرحيات الفكاهية الإيطالية بهذه العادة في شخص « بانتاليوني » المزلي المألوف ، الذي اشتق

منه لفظا « بانتالونز » و « بانتز » (فى الإنجليزية) .

أما الملاهى فكانت كثيرة كما هى الحال فى معظم الأقطار اللاتينية . فكان لروما كرنفالها السنوى قبل الصوم الكبير ، وكانت الشوراع كما شهدها إيفلين عام ١٦٤٥ « تعج بالبغايا والمهرجين والغوغاء من كل شكل ، لون»(٥٩)، وكانت هناك سباقات فى الكورسو ، ترى فيها الجياد المغربية الفارهة ، لا يمتطيها فارس ولكن تدفعها مهاميز تتدلى على جوانبها ، وسباقات للحمير ، والجواميس ؛ والشيوخ ؛ والرجال العرايا ، والغلمان ، وكانت المسرحيات تمثل على مسارح متنقلة فى الهواء الطلق . وكانت فنون الرقص والحديث والغزل تزين البيوت والحدائق والشوارع . وهل كان هناك إيطالى يجهل الغناء ؟ .

٥ — مولد الأوبرا

لقد شارك الدين ، والحب ، والرقص ، والبلاط ، بل حتى العمل ، فى مولد الموسيقى . ووجد إيفلين أهل الريف الإيطالى «غاية فى المرح وإدمان الموسيقى ، وحتى الزراع كانوا كلهم تقريباً يعزفون على القيثارة . . . ويمضون عادة إلى الحقل ومعهم كمانهم(٦٠) » وكان لكل بلاط دوق فرقة مرتلين وقائد للعازفين فى الكنيسة ؛ وفى فيرارا أثار رباعى من النساء اشتهر باسم « فرقة موسيقى السيدات » الدموع فى عينى تاسو وأطلق قلمه بالقوافى . ونسجت أغانى الحب الشعرية شكاواها المتعددة الأصوات ، فجعلت التعبد للمرأة حتى زواجها موضع توقير يكاد يرقى إلى توقير الابتهالات الموجهة إلى والدة الإله . وانطلقت القداديس وصلوات المساء والألحان والتراتيل يصدح بها ألف أرغن . وحوالى عام ١٦٠٠ بدأت فرق من خصيان صغار تشنف آذان المصلين . ووصف زائر بروتستنتى موسيقى الكنيسة الكاثوليكية « التى يرتلها خصيان وأصوات أخرى نادرة ، تصحبهم الآلات الموسيقية ، كالعود والبيان القيثارى والفيول ؛ ترتيلا كاد

بمذهب بألبابنا (٦١) ، ودرب الرهبان والراهبات فى فرق ترتيل تبعث الإيمان القويم حتى فى الصدور المتوحشه . واجتذب أندريا جبريلى ، وكلوديو ميرولو ، وجوفانى جبريلى (ابن أخى أندريا) على التوالى ألوف المستمعين إلى كنيسة القديس مرقس بالبندقية لينصتوا لعزفهم على الأرغن ولفرقتهم الموسيقية ولفرق المرتلين التى يقودونها . وحين عزف جيرولامو فرسكوبالدى على الأرغن الكبير فى كنيسة القديس بطرس احتشد ما لا يقل عن ثلاثين ألفاً فى الكنيسة أو من حولها ليستمعوا لعزفه . وقد أثرت ألحانه المنوعه ، المعقدة بتجاربها العويصة ، فى دومنيكو سكارلاتى ؛ ومهدت للتطورات الهارمونية التى جاء بها يوهان سباستيان باخ .

وكانت الآلات الموسيقية متنوعة تنوعها اليوم تقريباً . وحوالى منتصف القرن السادس عشر بدأ الكمان ، المتطور عن القيثارة ، يحل محل الفيول . وكانت بريشيا مقر أول صانعين من صناع الكمان العظام ، وهما جاسبارو داسالو وتلميذه جوفانى ماجينى . ويلوح أن أندريا أماتى أخذ الفن عنهما وحمله إلى كريمونا ؛ حيث أسلمه أبناؤه إلى آل جوارنيرى وآل ستراديفارى . وقد لقيت الآلة الجديدة مقاومةمنأولئك الذين آثروا أنغام الفيول الأكثر نعومة ورقة . وقامت المنافسة بين الفيول والعود والكمان قرناً من الزمان . ولكن حين وجد آل أماتى الوسائل للتخفيف من حدة صوت الكمان ارتقت الآلة الجديدة إلى مقام الصدارة غير منازع ، يعينها عليه ازدياد غلبة أصوات السوبرانو فى الموسيقى الصوتية .

كانت الألحان لا تزال توضع للصوت أكثر منها للآلة . وإلى هذه الفترة تنتمى شخصية شاعرية هى شخصية كارلو جزوالدو ، أمير فينوزا ، الذى زين النبالة بالموسيقى ؛ والقتل بالأغانى الشعرية . ولد فى نابلى (حوالى ١٥٦٠) وأصبح عازف عود ممتازاً ، وتزوج سيدة عريقة المولد ؛ ودبر قتلها هى وعشيقها لشبهة الزنى ؛ ثم هرب إلى فيرارا ، وتزوج دونا اليونورا ديستى ؛ ونشر خمسة كتب من أغانى الغزل تنقلت أنغامها

الجزئية وانتقالات طبقاتها الحادة من قوالب النهضة إلى قوالب الأصوات المتعددة الحديثة . وفى فبراير ١٦٠٠ أخرج إميليو دى كافاليرى ، فى مصلى القديس فيليب نيرى بروما ؛ قصة رمزية شبه مسرحية ، الحركة فيها للرمز فقط ؛ ولكن يصاحبها الأوركسترا والرقص والخورس والمغنون المنفردون؛ هـذه الموشحة الدينية « الأوراتوريو الأولى » ، سبقت أوبرا بيرى المسماة « أوريديتشى » بثمانية شهور لا أكثر ، وشابهتها من وجوه كثيرة . وبعد مرور جيل آخر ألف جاكومو كاريسيمى أوراتوريوات وكنتاتات أثرت تراتيلها الفردية فى تطور الإلقاء الأوبرى الملحون .

والتقت خطوط كثيرة أخرى من التطور الموسيقى لتخرج لنا الأوبرا . فبعض « التمثيليات المقدسة » التى خلفتها العصور الوسطى أضافت الموسيقى والغناء إلى الحركة . ففى هذه ، وفى موسيقاها المعبرة عن آلام المسيح، كانت الكنيسة أما للأوبرا أو حاضنة لها كما كان شأنها فى كثير من الفنون الأخرى . فقد كانت المقاطع الملحونة المصحوبة بالموسيقى تسمع فى القصور أواخر العصور الوسطى . وذكر علماء النهضة أن قطعاً من المآسى اليونانية كانت تغنى أو ترتل بمصاحبة الموسيقى . وفى بلاط مانتوا ، عام ١٤٧٢ ؛ جمع إنجيليو بولتسيانو بين الموسيقى والدراما فى مسرحيتـه القصيرة «فافولا دى أورفينو»(خرافة أورفينو) ، وبدأت هذه الأسطورة الحزينة تشق الآن طريقها الطويل إلى الأوبرا . كذلك شقت مسرحية الأقنعة « الماسك » التى اشـتد الإقبال عليها فى قصور القرن السادس عشر طريقاً آخر إلى الأوبرا ؛ ولعل الباليه ؛ والمشاهد المسرحية المترفة ؛ والملابس الفخمة التى نراها فى الأوبرا الحديثة ، منحدرة من الرقص والمواكب والثياب الفاخرة التى غلبت على الحركة فى مسرحيات الأقنعة أيام النهضة .

وفى أخريات القرن السادس عشر اقترح فريق من المتحمسين للموسيقى والأدب التقوا فى بيت جوفانى باردى بفلورنسة أن يحيوا مسرحية اليونان الموسيقية بتحرير الأغنية من تعدد الأصوات الشـديد ومن لغة القصائد

الغزلية المفرّقة المكتومة، وردها إلى ما كانوا يعتقدونه أسلوب المأساة القديمة الفردى (المونودى) . فقام أحدهم وهو فنشنزو جاليلى ، أبو الفلكى ، بتأليف موسيقى مونودية لأجزاء من جحيم دانتى . ووضع عضوان آخران من الجماعة ، هما الشاعر اوتافيو رينوتشينى والمغنى ياكوبو بيرى ، النص والموسيقى لما يمكن أن نعده أول أوبرا واسمها « دافنى » ، وقد أخرجت فى بيت ياكوبو كورسى فى ١٥٩٧(٦٢) . وقوبل الأداء بالاستحسان الكبير حتى أن رينوتشينى دعى إلى وضع الكلمات للحن أهم ، وبيرى وجوليو كاتشينى إلى تأليف موسيقى اللحن ، وذلك احتفالا بزفاف هنرى الرابع وماريا دى مديتشى بفلورنسة (٦ أكتوبر ١٦٠٠) . و « الأوريديتشى » التى مثلت هناك هى أقدم الأوبرات الباقية على قيد الحياة . وقد اعتذر بيرى عن عيوب هذا العمل المستعجل ،راجيا « أن أكون قد فتحت الطريق لموهبة غيرى من المؤلفين ، ليقتأثروا خطاى نحو هذا المجد الذى لم يتح لى بلوغه(٦٣) » .

هذا المجد بلغه أحد الفحول فى تاريخ الموسيقى ، وهو كلوديو مونتيفردى . حذق العزف على الكمان فى مسقط رأسه كريمونا ، حتى أنه عين عازفا للكمان فى قصر دوق مانتوا وهو لا يتجاوز الثانية والعشرين (١٥٨٩) ، وفى الخامسة والثلاثين أصبح قائد فرقة المرتلين فى الكنيسة . وقد ندد النقاد تنديدا شديدا بكتبه الخمسة فى الأغانى الشعرية (١٥٨٧ — ١٦٠٥) لما أخلوه عليها من تنافر شديد ، و « نقلات شديدة التحرر » ، ومتواليات هارمونية « غير قانونية » ، وخروج على قواعد مزج الألحان (الكونتربنط) . كتب جوفانى أرتوزى فى «مثالب الموسيقى الحديثة» (١٦٠٠ — ٣) يقول « هؤلاء الملحنون المحدثون يخلو لهم فيما يبدو أن يخرجوا أعظم ما يستطيعون من ضوضاء بالجمع بين عناصر لا رابط بينها اطلاقا ومجموعات متعاظمة من الأنغام المتنافرة(٦٤) » .

ووجه مونتيفردى محاولته المتهورة إلى الشكل الجديد الذى سمعه فى

فلورنسة ، فأخرج فى مانتوا أول أوبرا من تلحينه ، وهى « أورفيو » أخرى (١٦٠٧) يشارك فى عزفها أوركسترا من ستة وثلاثين عازفا . وسجلت الموسيقى والحركة فى هـذه الأوبرا تقـدما عظيما على أوبرا « أوريديتشى » لبرى . وفى الأوبرا الثانية التى لحنها مونتيفردى ، واسمها « أريانا » (١٦٠٨) كانت الحركة أشد مسرحية والموسيقى أكثر استهواء للسامعين . وبدأت إيطاليا كلها تردد عويل أريادنى التى هجرها حبيبها « دعونى أمت » ، وفى توسيع مونتيفردى للأوركسترا واعادة تنظيمه ، وفى تمييزه المتكرر لكل شخصية بلحن خاص ، وفى افتتاحياته (سنفونياته) التى استهل بها أوبراته ، وفى تجويده للموسيقى الصوتية والألحان ، وفى جمعه الحميم ، المعقد ، بين الموسيقى والدراما ، فى هذا كله سجل من التقدم الحاسم فى الأوبرا ما كان يفعله معاصره شكسبير فى المسرح .

وانتقل مونتيفردى فى ١٦١٢ إلى البندقية قائدا للمرتلين بكنيسة القديس مرقس . ولحن مزيدا من الأغانى الشعرية ، ولكنه غير من هـذا اللون الآخذ فى الانحلال مسرفا فى العنصر الالقائى اسرافا حدا بالنقاد إلى اتهامه بأنه يخضع الموسيقى للدراما (على نحو ما سيتهم به برنينى من اخضاع النحت للدراما) ، ومما لا ريب فيه أن أوبرا مونتيفردى — ككل أوبرا تقريبا — ضرب « من الباروك » الموسيقى . وافتتحت البندقية أول دار عامة للأوبرا « تياترو دى سان كاسيانو » ، وفيها استمر عرض أوبرا مونتيفردى « أدونى » من عام ١٦٣٩ إلى كرنفال ١٦٤٠ ، بينما كانت أوبرا أخرى له تسمى « أريانا » تشغل مسرحا آخر بين الحين والحين . فلما أخرج آخر أوبراته « تتويج البابا » (١٦٤٢) اغتبطت إيطاليا لأنها رأت أنه ما زال فى عنفوانه رغم بلوغه الخامسة والسبعين (شأن فردى الذى اخرج « عطيل » وهو فى الرابعة والسبعين) . وبعد عام مات تاركا دنيا الموسيقى بعد أن ألهمتها وجددت شبابها ثورته الخلاقة .

٦ — الآداب

يدهش المرء حين يرى إيطاليا جياشة بالعبقرية فى كل ميدان ، حتى فى فترة الاضمحلال المزعوم هذه . لقـــد كان عصراً مثمراً فى الأدب الإيطالى كما وتوقدا ، ولا يحول بيننا وبين انصافه هنا سوى الافتقار إلى الوقت والحيز والمعرفة .

كان طبيعياً أن يضمحل العلم الإيطالى بعد ما لحق الهام النهضة من كلال ؛ فما كان فى الإمكان أن يمضى الناس فى الكشف من جـــديد عن اليونان والرومان إلى ما شاء الله . لذلك ترك الاهتمام بالآداب إلى الأكاديميات الأدبية ، التى كانت محافظة بحكم نظامها . وكان لكل مدينة تقريباً فى إيطاليا معهد أو جماعة منقطعة لبث الآداب وتبادل الشعر فى سماحة . وقد سبقت أكاديمية كروسكا (أى الهشيم) التى أنشئت بفلورنسة عام ١٥٧٢ ، الأكاديمية الفرنسية إذ صنفت قاموساً للغة (١٦١٢ وما بعدها) وحاولت تنظيم الأسلوب والذوق الأدبيين .

أما المؤرخون الإيطاليون فكانوا خيرة مؤرخى العصر . وقد رأينا كتاب ساربى النارى « تاريخ مجمع ترنت » . كذلك أخرج الكردينال جويدو بنتيفوليو تاريخاً للثورة فى الأراضى المنخفضة مشرباً بروح التعاطف الشديد . وكان من الجائز أن ينتج المزيد ، لولا أنه مات فى مجمع الكرادلة فى اللحظة التى بدا اختياره للبابوية قاب قوسين . وقد أفضى إلى موتة ، كما يقول نيكيوس اريثراوس ، شخير كردينال فى الحجرة المجاورة حرمه النوم إحدى عشرة ليلة متعاقبة(٦٥). ومؤرخ آخر هو الكردينال شيزارى بارونيوس صنف تاريخاً ضخماً للكنيسة (الحوليات الكنسية ١٥٨٨ — ١٦٠٧) يقع فى اثنى عشر مجلداً من القطع الكبير زاده العلماء بعد ذلك إلى ثمانية عشر . وكان حكم رانكيه عليها أنها عاطلة من التشويق(٦٦) ، ولكن جيبون وجد فيها عونا له ، وقد بذل الكردينال جهداً مشكوراً

ليكون منصفاً ، فقال « سأشعر بالحب الصادق للرجل الذى يصحح أخطائى بكل صرامة وقسوة(٦٧) » ، وتكفل إسحاق كازوبن بهذه المهمة ، ولكنه أقلع عنها بعد أن كتب مقدمة ناقصة فى ثمانمائة صفحة من القطع الكبير .

وأما المسرح فقد زكا ، ولكن الدراما اضمحلت . فقل من التمثيليات الباقية الذكر ما ألف ، ولكن كثر ما أخرج منها ، وأخرج بسخاء فى المناظر وبراعة فى التمثيل جعلت اينيجو جونز يعجب ويتعلم . واشتد الطلب على الممثلين الإيطاليين فى القارة طولا وعرضاً . وبينما كانت أدوار النساء يقوم بها الغلمان فى المسرح الإنجليزى ، كانت النساء يؤدينها فى إيطاليا . كان الناس يعبدون الممثلات ؛ وقد كتب تاسو سونيتة لأيزابللا أندرينى ، التى لم تكن ممثلة جميلة فحسب ، بل شاعرة لا بأس بها وزوجة فاضلة كذلك .

وتطالعنا فى هذا العصر تمثيليتان ممتازتان ؛ من جهة لأنهما أرستا لوناً جديداً على المسرح — وهو الدراما الرعوية . وقد أعطاها تاسو دفعة بتمثيليته « أمينتا » (١٥٧٣) ، أما جوفانى باتيستا جوارينى فقد أخرج مثلها الكلاسيكى فى درامته « الباستور فيدو » (الراعى الوفى) (١٥٨٥) . قال تاسو « إذا لم يكن قرأ أمينتا فهو لم يبزها(٦٨) » وقد وبخه الكردينال بللارمينى لما فى التمثلية من إباحية ، وقال إنها ألحقت بالعالم المسيحى من الضرر فوق ما ألحقته كل هرطقات لوثر وكلفن ؛ على أن البحث الدءوب لم يعثر على منظر أكثر وقاحة من منظر كورسيكا الجميلة وهى تقدم «تفاحتى» صدرها لسيلفيو الذى لا يقدرها ، وهو صياد « يفرح بحيوان واحد يصيده . . . أكثر من فرحته بكل حوريات البحر(٦٩) » وإذا استثنينا سيلفيو هذا وجدنا فى المسرحية — ككل شعر هذه الفترة الإيطالى تقريباً — حرارة فى الحس تصهر الحياة كلها فى الحب . وتتجلى الحركة فى ضرب من « الأركاديا » الرعوية ، فى ذلك « العصر الذهبى الجميل ، حين كان اللبن غذاء الناس الأوحد » ، فلا رذيلة ، ولا حزن يلوث الإنسان ، أما

للحب فخلو من كل لوم وقيد(٧٠) . وتضافرت « أمينتا » ودرامة « الراعى الوفى » هذه ، وتمثيلية مونتمايور « ديانا العاشقة » ، وتمثيلية سدنى « أركاديا » وتمثيليه فلتشر « الراعية الوفية » لتطلق نصف جمهور القراء الأوربيين ليسرحوا فى المراعى .

وقد عدّ كرستشمبينى من ناظمى السونيتة ٦٦١ فى إيطاليا لم يعيهم العثور على قواف رنانة لقصائدهم المغايرة قليـلا لسونيتات بترارك(٧١) . ومن أروع سونيتات العصر ما كتبه كامبانللا وبرونو ، وكأنه شرار نفثته نار فلسفتهما . وقد هجا الساندرو تاسونى كتاب السونيته وعشاق بترارك ومارينى وتاسو فى قصيدة من عيون الشعر الإيطالى تدعى « الدلو المسروق » . وأبى الناشرون أن ينشروها لأن ضحيتها كان نبيلا ذا سطوة ، ولكن الطلب عليها اشتد حتى لقـد أثرى النساخ بنسخها وبيعها بسعر ثمانية كراونات للمخطوطة ، وأخيراً طبعت فى فرنسا وهربت إلى إيطاليا . ولم يفتن القراء الإيطاليون بما فى تعليقاتها اللاذعة من ذكاء وحدة فحسب ، بل بفواصل من الشعر المصفى تخللت ذلك المرح الصاخب — قصة غرام أنديميون مروية جنباً إلى جنب تقريباً مع صورة لعضو فى مجلس الشيوخ يسافر إلى الجنة على كرسى مرحاض .

ولم يبز تاسونى فيما حظى به من استحسان فى هذه الحقبة سوى شاعرين إيطاليين — هما تاسو وجوفانى باتيستا مارينى . أما جيوفانى فقد ولد فى نابلى ونشئ ليكون محامياً ، ولكنه هجر المرافعات إلى القوافى ، واستمتع حيناً بحياة التشرد . ثم منحه المركيز مانسو حجرة فى قصره مغتفراً له إباحية شعره الغنائى ، وهناك استطاع الفتى أن يشهد ، على بعد خاشع ، تاسو المحزون المشرف على الفناء . ثم ألقى به السجن لأنه ساعد صديقاً على خطف فتاة ، ولما أفرج عنه مضى إلى روما ، حيث عينه الكردينال السمح بيترو ألدوبراندينو سـكرتيراً خاصاً له . ثم اصطحبه الكردينال إلى تورين وهناك أخذه منه شارل امانويل دوق سافوا . وراح مارينى يرشف حيناً ما فى حياة البلاط من خمر وخل .

وتهكم بشاعر منافس يدعى جسبارو مورتولا ، كمن له فى الطريق ، وأطلق عليه النار ، ولكنه أخطأ وأصاب خادماً من خدم الدوق . وحكم على مورتولا بالإعدام ، ولكن مارينى حصل له على العفو ، وناله أشد النكران من غريمه . وبعد أن سجن مارينى عقاباً له على هجائيات موجهة ضد أصحابها توجيها مكشوفاً ، قبل دعوة من مارى مديتشى ليكون زينة بلاطها فى باريس (١٦١٥) . ورحب به الإيطاليون فى حاشيتها باعتباره الصوت المعبر عنهم فى فرنسا ، وكان محل الإعجاب الشديد ، وتلقى وظائف شرفية دسمة ، وأجزل له النبلاء والنبيلات المال ثمناً لنسخ من ملحمته « أدونى » قبل نشرها. ووجدت نسخة منها طريقها إلى الكردينال بنتيفوليو ، فناشد مارينى أن ينقى القصيدة من فقراتها الفاجرة ، ولا ندرى إلى أى حد حاول المؤلف ذلك . ونشرت أدونى بباريس فى ١٦٢٣ ، وأدرجت فى قائمة الكتب التى تحرمها الكنيسة ، وأصبحت البدعة الفاشية فى إيطاليا والموضوع الذى تلوكه الألسن . وحين عاد مارينى إلى نابلى (١٦٢٤) ، رمى قطاع الطرق عربته بالورد ، وخرج النبلاء لمرافقته ، وهفت الحسان إليه من شرفاتهن . ولم يمض عليه عام حتى مات غير متجاوز الثانية والخمسين وقد بلغ ذرى الثروة والشهرة .

أما أدونى هذه فقصيدة من عيون الشعر حتى فى بلد يكاد الشعر أن يكون فيه كالغناء سجية وطبعاً . وطولها يوقفنا — ألف صفحة بها ٤٥,٠٠٠ بيت . أما أسلوبها فمستغرق فى كل ألاعيب الكلام التى أطربت لايلى فى إنجلترة ، وجويفارا وجونجورا فى أسبانيا ، وبعض « متحذلقات » الأوتيل درامبوييه فى فرنسا ؛ لقد كان التأنق اللفظى جزءاً من وباء أوربى . وكان لهذا الإيطالى الماهر غرام بالألفاظ يكاد يكون شهوانياً ، فراح يقذف بها فى مفارقات رنانة ، وأخيلة غريبة ، وإطنابات بارعة ، بل فى نكت وتوريات رشيقة . ولكن الجمهور الإيطالى فى القرن السادس عشر ، بما طبع عليه من تدفق بالحديث الحار ، لم يسؤه هذا الولع بحيل الألفاظ وألاعيبها .

وأى بأس بهذه الألاعيب اللفظية فى عصر كان أنشودة تسبيح الجنس فى شتى صوره — العادى منه والوحشى ، والشـاذ ، والحرام ؟ هنا رويت أساطير هيلاس الغرامية فى رقة وظرف ، هنا يلهو مارس وفولكان مع أفروديت ، وهنا زيوس يغوى جانيميد ، ومفاتن جسم الرجل هى حديث القوم السائر ، وحاسة اللمس يشاد بها لأنها المصدر المدهش لألذ مباهج الإنسان . هنا تتغزل النساء والرجال والوحوش فى أدونيس البطل الذى حبته الآلهة حسن الصبايا كله ، وتتودد إليه فينوس بحيلها الناعمة، ويحاول زعيم عصابة أن يجعل منه محظيته ، وينتهى أمر الفتى المحبوب حباً بوقفه موقف العاجز ، بأن يجرح فى أصل فخذه جرحاً مميتاً أصابه به خنزير برى مدفوعاً بأحرّ النيات الغرامية . ترى هل كان هـذا التركيز المخنث على الجنس تفريجاً وملاذاً من الغلو فى الدين والإفراط فى تسلط الأسبان ؟

٧ — تاسو

توافر لتوركواتو تاسو الكثير من المغريات بالشعر . ولد فى سورنتو (١٥٤٤) حيث البحر ملحمة ، والسماء أغنية ، وكل ربوة من الأرض أنشودة . وكان أبوه برناردو شاعراً ، وموظفاً فى البلاط ، وإنساناً مرهف الحس مشبوب العاطفة ، تآمر على الحاكم الأسبانى ، ونفى فى مملكة نابلى (١٥٥١) ، وجاب الأرض من بلاط إلى بلاط تاركاً وراءه زوجته وولده فى عوز وضنك . وتنتمى أمه بورنسيا دى روسى إلى أسرة توسكانية عريقة تجرى الثقافة فى عروقها . ودرس الصبى ثلاث سنوات فى مدرسة لليسوعيين بنابلى ، فشرب اللاتينية واليونانية فى جرعات تحطم الأعصاب ، ودرب على التقوى العميقة التى أثارت فيه الرجفة اللاهوتية تارة ؛ ووهبته السـلام الذى يجل عن الوصف تارة أخرى . وفى العاشرة لحق بأبيه فى روما ، وتركه موت أمه بعد عامين شديد التأثر طويل الحسرة . ثم رافق أباه إلى أوربينو والبندقية ، وهناك نشر برناردو قصـيدته « أماديجى » (١٥٦٠) التى حكى فيها بالشعر قصة غرام من العصر الوسيط .

وكان توركواتو نفسهُ يجيش الآن بالشعر . أرسل إلى بادوا ليدرس القانون ، ولكن قدوة أبيه كانت أقوى من مبادئه ، فأهمل الفتى درس الشرائع وراح ينظم القوافى ، وكان منذ أمد بعيد قد وقع أسيراً لسحر فيرجل . فعزم الآن على أن يطبق الأسلوب المانتوى الرفيع الجاد على أساطير الفروسية التى عالجها أريوستو علاج المازح العابث . وهكذا فاجأ أباه برواية فى اثنى عشر قسما تسمى « رينالدو » . وكان شعور برناردو مزيجاً من الحزن والابتهاج ، فقد تكشف له ما سيلقاه من صروف الأيام شاعر لا يملك غير عبقريته ، ولكنه طرب لرؤية ولده الذى لم يجاوز الثامنة عشر ربيعاً ينافس أشعر شعراء العصر رقة وخيالا . ونشرت الملحمة الصغيرة بأمزه (١٥٦٢) . واغتبطت نفسه بما لقيت من استحسان ، فأذن لتوركواتو بأن يهجر دراسة القانون فى بادوا ويستبدل بها الفلسفة والأدب فى بولونيا . وهناك أثارت موهبة الفتى المتاعب ، لأنه كتب « الأبجرامات » اللاذعة فى مدرسيه ، فهددوه برفع دعوى القذف ضده ، وعاد من فوره إلى بادوا .

واقنع برناردو الكردينال لويجى دستى ، أخا الدوق الفونسو الثانى أمير فيرارا ، بأن يستخدم توركواتو سكرتيراً له (١٥٦٥) . والتحق الشاعر مغتبطاً بهذا البلاط الذى كان يعد يومها أينع زهرة فى بستان الثقافة الإيطالية . هناك ألفى مجتمعاً يزخر بالموسيقى والرقص والأدب والفن والدسائس والحب . وافتتن تاسو بأختين للكردينال ، لوكريتسيا المتغطرسة الجميلة بنت الواحدة والثلاثين ، وليونورا ، بنت التسعة والعشرين ، المعاولة التقية التى جعلتها مشاجراتها مع الفونسو معبودة البلاط . وتروى الأساطير (كما نقرؤها فى مسرحية جوته وفى قصيدة بايرون « عويل تاسو ») عن الشاعر وقوعه فى غرام ليونورا ، وما من شك فى أنه طارحها القصائد المشبوبة كما اقتضى العرف ، وفى أن السيدتين قبلتاه فى صداقة طوقت بهالة النبالة ، ولكن أحداهما كانت تكبره بأحد عشر عاماً ، والأخرى بتسعة أعوام ، ويبدو

أن واحدة منهما لم تمنحه شيئاً أدفأ من أذنيها . ولم يتزوج تاسو قط ، إذ لم يكن فى وسعه أن يعشق إلا أميرات ، أما الأميرات فلم يكن فى وسعهن الزواج إلا من ذوى اليسار . ولعله خشى مطالب الزواج وقيوده ، فقد جمع بين ضعف الثقة فى قدراته ، والتيه بشعره .

وفى عام ١٥٦٩ مات أبوه وهو لا يملك شروى نقير ، واضطر تاسو إلى الاستدانة ليدفنه . وبعد عام اصطحبه الكردينال دستى إلى باريس ، فجزع حين وجد شارل التاسع يخالط زعماء الهيجونوت فى لطف وود ، وجاهر بنقد الحكومة على انسجامها مع المهرطقين . أما الكردينال الحريص على رضاء الملك فقد رد سكرتيره المتعب إلى إيطاليا . ولم يغتفر له تاسو هذه الفعلة قط .

وعزّى ألفونسو الشاعر بأن ألحقه ببيته وأجرى عليه معاشاً سنوياً دون أن يحمله من المسئوليات شيئاً غير أن يهدى الدوق الملحمة التى عرف أنه يكتبها عن الحروب الصليبية الأولى . تلك كانت سنوات سعيدة بالقياس إلى غيرها . ففى صيف عام ١٥٧٣ أنجز فى البلاط درامته الرعوية « أمينتا » ، وقد أثلج صدره ما لقيت من نجاح . فسادة فيرارا وسيداتها الذين كانوا يعيشون على استغلال الفلاحين انتشوا حين رأوا نعيم الريفيين — على المسرح . وأطربت كل وجهاء البلاط صورة العصر الذهبى الذى كانت فيه كل الأشياء السارة حلالا وخيراً :

لك الله أيها العصر الذهبى الجميل !
لست جميلا لأن أنهارك كانت تفيض لبناً ،
ولا لأن أشجارك كانت تقطر مناً ،
بل لأن ذلك الألم الكاذب الذى خلقناه لأنفسنا ،
وصنم الخطيئة ، ذلك المحتال المعبود ،
وذلك الشرف — الذى سمته كذلك عقول العوام المرتاعة — ،
لم يكن قد استبد بطبيعتنا بعد ،

لم يكن قد جاء ليكدر صفو الحظيرة الحلوة السعيدة ،
حظيرة البشرية الوادعة ،
ولا قيد ناموسه القاسي نفوساً ربيت على الحرية ،
بل كان هناك قانون جميـل ،
قانون ذهبي سـعيد ،
خطتـه يد الطبيعة :
« كل لذيذ حـلال » (٧٣)

ولكن جرأة الروح غير المعهودة فيه فارقته حين وجد نفسـه ينهى ملحمته « أورشليم المحررة » (١٥٧٤) . لقد كان هذا الجهد ذروة جهود حياته ، فلو أنه باء بالفشل ، أو لو أن الكنيسة أدانته بالإباحية أو الهرطقة لودع السعادة إلى الأبد . وفى رهبة وخوف بعث بمخطوطته إلى سبعة نقاد مستفتياً فى حبكة القصيدة وشخوصها ولغتها وآدابها . وقد بلغ نقدهم لها من الكثرة ما جعله يلقى القصيدة جانباً لأنه لم يعرف كيف يرضيهم جميعاً . فظلت محبوسة عن النشر خمس سنوات . إنه وهو عليم بأنه كتب رائعـة اشتط فى مطالبه من النقاد ومن الحياة . وقد اعترف بأنه « لم يطق العيش فى مدينة لا يخلى نبلاؤها مكان الصـدارة له ، أو على الأقل يسوون بينه وبينهم مساواة مطلقة » . ولا ريب أنه كان يستحق هذه المساواة ، ولكنه أضاف أنه « كان يتوقع أن يعبده الأصدقاء ، ويخدمه الخدم ، ويعانقه أهل البيت ، ويكرمه السادة ، ويحتفل بذكره الشعراء ، ويشير إليه الجميع بأصابعهم.»(٧٤) وكثرت فى فيرارا فئة تنقد شعره ، وخلقـه ، ودعاواه . فبدأ يحلم بمكان ألين فى قصور ألطف وأرق .

كانت المنغصات البدنية والنفسية قد هزت أعصابه : حمى الملاريا ، ونوبات الصداع المتكررة ، والصدمات المتراكمة إثر نفى أبيه ، وموت أمه ، وإملاق أبيه وهو مشرف على الموت ، يضاف إلى هذا كله أن الشكوك اللاهوتية التى ساورته — شكوك الجحيم والخلود ، وألوهية المسيح — ألقت على عقله ظلا ثقيلا من الاحساس بالإثم ودفعته إلى الاكثار من

الاعتراف وتناول الأسرار[٧٥] . وقد وقر فى نفسه أنه مارس قوة السحر الأسود (أى الشيطانى) ، وتراءت له الرؤى المرعبة عن الدينونة الأخيرة ، وشهد الله يسوق الهالكين إلى النار الأبدية[٧٦] . وانتابته أوهام الاضطهاد — فخامرته الظنون فى افشاء الخدم لأسراره ، واعتقد أن أمره أبلغ لمحكمة التفتيش ، وتوقع كل يوم أن يدس له السم . لقد كان ضيفا عسير الارضاء[٧٧] .

ولكن الفونسو ترفق به ؛ ذلك أن أروع قصائد العصر — برغم كل شىء — أهديت إليه وأفردت نصف قسم منها (السابع عشر) للأشادة بنسبه . فأعفى الشاعر من الحضور إلى البلاط ، وأرسله إلى فيللا بلريجواردو اللطيفة ليعينه على التغيير والسكينة . ولكن صبره نفد حين وجد أن تاسو يتفاوض خفية مع فرانشسكو مديتشى — أقوى منافسى الفونسو وأعدى أعدائه — ليقبله متقاعدا بمعاش فى بلاط فلورنسة . وفى نوفبر ١٥٧٥ غادر الشاعر فيرارا زاعما أنه ذاهب إلى روما لينال غفران اليوبيل . ومضى إليها ، ولكنه عرج على فلورنسة مرتين فى الطريق . على أنه لم يقع من نفس الدوق الكبير موقعا حسنا ، وكتب فرانشسكو إلى صديق له (٤ فبراير ١٥٧٦) يقول « لست أدرى هل أدعوه إنسانا مجنونا أم ذكيا مسليا » ، وبعد عام قرر أنه « ليس فى حاجة إلى وجود رجل مجنون فى بلاطه »[٧٨] وقفل تاسو إلى فيرارا كسير الخاطر محزونا .

وطلب إلى الفونسو أن يعينه فى وظيفة المؤرخ الرسمى للبلاط ، فنال الوظيفة . وفى يناير ١٥٧٧ مثل أمام محكمة التفتيش فى بولونيا واعترف بأنه ارتاب آثما فى العقيدة الكاثوليكية ، وأعادته المحكمة بكلمات من المواساة والتشجيع . وفى يونيو من ذلك العـــام ، بينما كان فى مسكن لوكريتسيا دستى ، شهر سكينه على خادم أثار شبهته . فأمر الفونسو بحبس الشاعر فى حجرة بالقلعة ، ولكنه أفرج عنه بعد قليل وأخذه إلى بلريجواردو . كتب تاسو يقول ان الدوق عامله « وكأنه أخ له لا أمير عليه »[٧٩] . وطلب

الشاعر أن يرسل إلى دير القديس فرنسيس ، فأمر الفونسو بارساله إليه ، وأوصى بأن يعطى مسهلا . وخضع تاسو ، ولكن ثائرته ثارت فى الدير ، فاتهم الرهبان بأنهم يغشون نبيذه ، وطلب الرهبان اعفاءهم من وجوده . فرد إلى قلعة الدوق ووضع تحت الحراسة . ولكنه هرب متخفيا فى ثوب فلاح ، وضرب فى الأرض سيرا على قدميه وحيدا عبر الأبنين حتى بلغ بيت أخته كورنيليا فى سورنتو . فاستقبلته بحنان مشرب بالمحبة .

وكان ممكنا أن يظفر بشىء من صفاء الذهن والسعادة هناك لولا قلقه على مصير القصيدة العظيمة التى ما زالت محبوسة عن النشر والتى خلفها وراءه فى فيرارا ، ولعله بعد أن طال إلفه لحياة القصور افتقد أسباب الراحة التى صاحبت شدائده ، فذهب إلى روما ورجا سفير فيرارا أن يتشفع له عند الفونسو . وأرسل الدوق مالا للعناية به ووافق على عودته شريطة أن يتعهد بالتزام الهدوء والخضوع للعلاج الطبى . وحين وصل إلى فيرارا (١٥٧٨) أعطى مسكنا خاصا خارج القصر ، وزود بخادم ، ووافوه بالطعام من مائدة الدوق . وقبل تاسو المسكنات والمسهلات طائعا ، وواصل كتابة الشعر الرائع . ولكنه كان يأمل فى العودة إلى مكان الحظوة فى البلاط ، فوجد بدلا من هذا أن كل إنسان تقريبا يعامله كأنه مجنون . ولم يعد الدوق ولا الأميرتان يسمحون له بمجالستهم . أما شر الاهانات فأمر الفونسو بأن تؤخذ مخطوطات الشعر منه ، ومن بينها « أورشليم » مخافة أن يتلفها .

وفى يونيو ١٥٧٨ هرب تاسو مرة أخرى من فيرارا ، وذهب إلى مانتوا وبادوا والبندقية وأوربينو وتورين . وهناك أكرم الدوق شارل عمانويل مثواه ، وبذل له كل أسباب الراحة التى عهدها فى فيرارا . ولكن ما مضت ثلاثة أشهر حتى التمس الشاعر القلق من الفونسو أن يرده ، ربما حرصا منه على استرداد مخطوطاته . ووافق الفونسو ، وفى فبراير ١٥٧٩ أسكن تاسو مرة أخرى قصر الكردينال لويجى دستى . ولكن الفونسو

التواق إلى وريث كان يتزوج للمرة الثالثة ، ولم يكن ليعير الشعراء أذنه ، ولم يدع تاسو إلى الحفلات . وظل أسبوعين يحتمل هـذا الإغفال مغيظا محنقا ، وأخيرا غادر مسكن الكردينال (١٢ مارس ١٥٧٩) ، واقتحم قصر بونتيفولى وهو يصيح مهاجما الدوق ، والدوقة الجديدة ، وجميع الحاشية . وجرى إلى القلعة ، مصرا على لقاء الدوقة واستعادة مخطوطاته . وأمر الدوق بايداعه مستشفى قريبا لمرضى العقول يدعى سانتانا ، وهناك ظل حبيسا أكثر من سبع سنين .

لم يكن مجنوناجنوناً مطبقاً . فقد كانت له أويقات صفاء كتب فيها الشعر واستقبل الأصدقاء . وزعم مونتيني أنه زاره . ووفدت عليه سيدات من البلاط ليطيبن خاطره ، واصطحبته لوكريتسيا مرة لبيتها فى بلفـديرى ، ولكن عنفه روعها فرد إلى المستشفى بناء على طلبها .لقد كان العقل المحطم نهبا لرعب متقطع تثيره هلوسات بأصوات أشباح يسمعها ، وبأرواح علوية تغزو حجرته وتسطو على قصائده .

وأخيرا نشرت ملحمته . ذلك أن المحتفظين بمخطوطتها أرسـلوها للناشرين بعد أن علموا أن قراصنة الكتب نسخوها (١٥٨٠) . وظل النقاد يتسقطون الأخطاء فيها ، ولكن إيطاليا استقبلتها استقبالا حماسيا ، وأطرى رجال الكنيسة موضوعها وتقواها . وتتابعت طبعات القصيدة ، وبيع منها فى يوم واحد ألفا نسخة ، ورددت البيوت والقصور أنغامها ، واختلف الناس فى أمر تاسو ، أيضعونه فى صف أريوستو أم فى صف بترارك . وفضل فولتير القصيدة على الالياذة وهو على ما نعلم من بعد عن التحيز للمسيحية[٨٠] . أما اليزابث ملكة إنجلترا فبعد أن استمعت إلى أجزاء منها مترجمة إلى اللاتينية حسدت دوق فيرارا على أنه عثر على هوميروس يخلد ذكره[٨١] .

ونستطيع إذا همزنا حاستنا التاريخية أن نبدأ فى فهم السبب فى استجابة أوربا بهذه الحماسة لهذه القصة المثيرة — قصة الحرب الصليبية الأولى .

لقد رحبت بها باعتبارها ملحمة العالم المسيحي التي طال انتظارها ومست الحاجة إليها . ذلك أنه حين بدأ تاسو قصيدته كانت أوربا تحشد الأسطول الذى التحم بالأتراك فى ليبانتو . ودارت رحى المعركة الهائلة بينما الشاعر ينظم ملحمته ، وكسب الأوربيون المعركة ، ولكن انتعاش الأتراك السريع كان يهدد أوربا ، لا سيما إيطاليا ؛ وتعرضت روما ، معقل المسيحية ، للخطر والقصيدة تكتمل . وساد الخوف من الاسلام أرجاء العالم المسيحى إذ ذاك ، كخوف أوربا اليوم من شرق نفخت فيه الحياة من جديد . وفى هذا الجو قرأ الرجال والنساء في شعر يأخذ بالألباب قصة تشدد عزائمهم إذ تحكى كيف قاد جودفرى أمير بويون فى ١٠٩٩ جيشاً مسيحيا ظافرا برغم ما لحقه من ضربات واستولى به على أورشليم .

وهكذا يبدأ تاسو قصيدته متفاخرا ، ذاكرا عبارة فيرجل « Arma virumque cano » ومتحدياً إياها ، « انى أتغنى بذكر الجيوش الصالحة والقائد الذى حرر قبر المسيح العظيم » . وهو يناشد ربة الشعر أن تلهب صدره بحماسة من السماء ، ويهدى قصيدته إلى الفونسو ، الأمير الهمام الذى أنقذه من زعازع الخطر وهيأ له مرفأ طيبا . ويرسل الله رئيس ملائكته جبريل ليأمر جودفرى بأن يحزم أمره ويزحف قدما على أورشليم . وحين يدنو المسيحيون من المدينة يأمر حاكمها التركى علاء الدين رجاله بأن ينقلوا تمثالا للعذراء من كنيسة مسيحية إلى جامع للمسلمين ، مؤمنا بأن التمثال سيجلب النصر لمالكه . على أن التمثال يسترد فيخفيه للمسيحيون ، ويأمر علاء الدين بذبح كل من بقى بأورشليم من المسيحيين . وتقدم العذراء سوفرونيا نفسها قربانا عن شعبها ، وتخبر علاء الدين كذبا أنها سرقت التمثال وأحرقته ، فيحكم بحرقها . على أن حبيبها الذى لا تبادله الحب ، أوليندو ، يحاول افتداءها ويزعم أنه المذنب ، فيحكم عليهما جميعاً بالموت ، ولكن البطلة المسلمة كلوريندا تنقذهما . ويدعو بلوتو رب العالم السفلى مجمعاً من أتباعه للنظر فى طرق هزيمة المسيحيين الذين يحاصرون المدينة ،

فيقع اختيارهم على أرميدا الحسناء أداة لتنفيذ خطتهم ، وهي عذراء دمشقية ذات قوة سحرية . ويقع رينالدو وغيره من الفرسان في فخ حديقتها المسحورة ، ويرتاح رينالدو بين ذراعيها . أما تانكرد ، الفارس المسيحي المثالي ، الشهم الهمام ، فيعجب بشجاعة كلوريندا ويقع في غرامها برغم حواجز العقيدة . وفي جزء من أجمل أجزاء القصيدة (١٢) تتخفى كلوريندا وتقاتل تانكرد حتى تقتل ، ثم تتوسل إليه وهي في النزع أن يدخلها في دينه. ويرسل جودفري الجند للعثور على رينالدو والفرسان المفقودين ، فيكتشفون قلعة أرميدا ، ويتجنبون « الحسان العرايا » اللاتي يسبحن في بركتها ، ويحررون الأسرى . وتغضب أرميدا لهجر رينالدو لها ، فتعرض نفسها مكافأة لمن يقتله . ويضطلع تسيفرنيس بالمهمة ، ولكن رينالدو ينفذ رمحه فيه . وتنوى أرميدا الانتحار ، لكن رينالدو يثنيها عنه بحب متجدد ، فترتضي اعتناق المسيحية ، وتستسلم له بعبارة مريم العذراء « هوذا أنا أمة الرب » . ويتسلق المسيحيون الأسوار ، ويذبحون جيش المسلمين ، ويقدمون الشكر لله . ولكن القصة لا تسترسل إلى ذكر حرق اليهود .

كان أريوستو يرمق قصة الفروسية بابتسامة ساخرة . أما تاسو فقد أحياها بملء الجد ، وأضاف سحر العصر الوسيط ومعجزاته إلى الجهاز الكلاسيكي — جهاز الأرباب التي تتدخل في الأحداث . وكانت الحركة المعارضة للإصلاح البروتستنتي قد قمعت حيناً روح الفكاهة الإيطالي القوي . والافتقار إلى الفكاهة مهد لجنون تاسو ، فالكون يجب ألا يؤخذ مأخذ الجد الخالص . ولكن تاسو في ملحمته هو الإيمان غير منازع ، والعاطفة لا مخفف لها . وهو يزين القصيدة بأخيلة جعلت جاليليو يشبهها بمتحف من الغرائب[٨٣] ، ويكتب نقداً غاضباً على هامش نسخته[٨٤] . والتقليد في الملحمة واضح : تقليد هومر في مناظر القتال ، وفرجل في زيارة الجحيم ، وأريوستو في الغراميات ، وفرجل ودانتي وبترارك في الأفكار وفي أبيات بأسرها . أما السحر فصبياني ، وأما الأمازونيات فغير معقولات . ولعل ملحمة «أورشليم»

ليست ضرباً فى عظمتها للإلياذة، ولا آخذة بالألباب كالأوديسة ، ولا رفيعة كالأنياده ، ولكنها تحتفظ بتشويق القارئ كأى ملحمة ، وأسلوبها مرصع بانعطافات النغم وتدفقاته الموفقة ، وشخوصها حية ، وأحداثها مذابة بمهارة فى موضوعها الرئيسى . وكثير من مشاهدها وأحداثها ألهم الفنانين لوحات شهيرة . وقد أعان شعرها وروحها سبنسر على تأليف ملحمته « ملكة الجان » . أما مقاطعها فحين لحنت كانت عزاء لملاحى الجندولا البنادقة عن رتابة عملهم المضنى ..

لم يجن تاسو فى أوقات صفائه غير السرور القليل ، والربح الأقل ، من نجاح قصيدته . فلم ينل فلساً واحداً من الناشرين . وكانت أوقية من اللوم ترجح عنده رطلا من المديح كما هو الشأن مع أكثر المؤلفين . وقد جزع حين قرأ النقد القاسى الذى وجهه إلية نقاده ، الذين زعموا أن قوافيه فى أكثرها ليست إلا صلصلات ، وأن مشاهد حبه مسرفة فى الشهوانية ، وأن مسلميه يثيرون الإعجاب فوق ماينبغى ، وأن بطلاته فى الأغلب مسترجلات. ولكن باقى الإيطاليين هللوا له كأنه فرجيل ولد من جديد ، وعلت الأصوات مطالبة بمعاملة أرفق للشاعر المنكوب . على أن زواره رأوا حاجته للملاحظة الدقيقة ، وأن الفونسو يعالج الأمر بكل الرعاية التى تتوقع من رجل أسيء إليه كثيراً وشغلته تبعات الحكم .

وصلحت حال الشاعر . وفى يوليو ١٥٨٦ حصل فنشنزو جونزاجا ، الوريث الشرعى للدوقية مانتوا ، على الإفراج عنه بعد أن تعهد بالعناية به . وعاش تاسو فى مانتوا شهرا ثم رحل عنها إلى برجامو ، ومودينا ، وبولونيا ، ولوريتو ، وروما ، يبيع قصائده ومدائحه لمن يشتريها . ولقى حسن الاستقبال فى روما ، ولكنه سرعان ما بدأ الترحال من جديد ، فمضى إلى سينا ، ففلورنسه ، ثم عاد إلى مانتوا ، ثم لنابلى مرة أخرى ، حيث صادقه المركيز مانسو ، ثم عاد إلى روما حيث أنزله الكردينالان تشنزيو وألدوبراندينو مسكنهما بالفاتيكان (١٥٩٤) . وأراد العودة إلى

فيرارا ليموت فيها ، غير أن الفونسو رفض الأذن له . ورتب له البابا كلمنت الثامن معاشا وأعد العدة لتتويجه شاعراً . للبلاط البابوى . ولكن فى أبريل ١٥٩٥ لم يكن بد من نقل الشاعر الذى انهارت قواه وأدركته الشيخوخة والعجز وهو بعد فى الحادية والخمسين ، إلى دير سان أونوفريو بروما ، ليجد رعاية أفضل . هناك ، وبعد غضبة أخرى من غضباته ، مات (٢٥ أبريل) وهو يتمتم « فى يديك يا رب أستودع روحى » ووضع على نعشه أكاليل الغار الذى لم يعش ليلبسه . وحمل جثمانه فى مشهد إلى كنيسة القديس بطرس وخرج منها تشيعه حاشية البابا وأشراف روما وعلماؤها ، ووورى التراب فى كنيسة الدير وفوق مثواه قبرية بسيطة ، « هنا يرقد توركواتوس تاسوس » وأصبحت الصومعة التى نزلها مزارا للحجاج كما هى اليوم .

٨ — مجىء الباروك : ١٥٥٠ — ١٦٤٨

كان الفن الكلاسيكى — كالبارثينون وأفريزه ، ومنحوتات ميرون وبولكايتوس ، وساحة روما ، والاينياد ، وستانزا رفائيل بالفاتيكان ، وصور كنيسة مديتشى لميكلانجلو — هذا الفن كان اختزال الفوضى إلى نظام ، والتعدد إلى وحدة ، والحركة إلى ثبات ، والشعور إلى فكر ، وغير المميز إلى مميز ، والمعقد المبهم إلى البسيط الواضح ؛ كان المادة مصوغة فى الشكل . ولكن كل شىء حتى الكمال يزهده الناس حين يطول به العمر . فالتغيير ضرورى للحياة ، والحس ، والفكر ؛ والجديد المثير قد يبدو جميلا لهذه الجدة ذاتها ، حتى يعود القديم المندى على عجلة الزمن فيرحب به الناس على أنه فنى وجديد . وهكذا طردت النهضة الفن القوطى من إيطاليا باعتباره فنا همجيا ، حتى إذا ضاق الفنانون ورعاة الفن بالنسب الجميلة والتناسق المقيد ، وضحكوا كما ضحكت تماثيل الكاتدرائيات البشعة الوجوه على الأعمدة والاعتاب

والقواصر الــكلاسيكسية ، أعادوا الروح القوطية ممثلة فى شذوذات الباروك وتفصيلاته الزاخرة بالحيوية والمرح (*).

كان الفن الكلاسيكى ينشد الافصاح عن الموضوعى ، اللاذاتى ، الكامل ، أما الباروك فقد أتاح للفنان الفرد ، حتى لنزوته العارضة ، أن تجد التجسيد فى عمل لا يمثل موضوعا يصور تصويرا واقعيا (كما فى التصوير الهولندى) بقدر ما يمثل انطباعا أو شعورا مموضعاً عن طريق أشكال متخيلة جزئيا . وهكذا نرى أن صور الجريكو النحيلة الطويلة ليست صور رجال أسبان بل صور ذكرياته أو بدواته هو ؛ وصور العذراء التى رسمها موريللو وجويدو رينى لم تكن صور الأمهات المرهقات اللاتى عرفاهن بل الورع المثالى الذى طلب إليهما التعبير عنه . يضاف إلى هذا أن بلدا كإيطاليا زلزلت إحساسه حركة الإصلاح البروتستنتى وشحذ عاطفته الدينية من جديد أفراد كلويولا ، وتريزا ، وزافير ، وشارل بوروميو — إيطالية ما بعد لوثر هذه ما كان فى الأمكان أن تستكين إلى سلام المثل الكلاسيكى ، ذلك السلام الهادئ الفخور ، لذلك راحت تؤكد عقيدتها من جديد ، وتبدى رموزها فى تحد ، وتزين هيا كلها ، وتسكب فى الفن دفقا جديدا من اللون والاحساس ، وتنوعا جديدا وحرية فى التركيب والحركة لا يمكن التنبؤ بها ، انطلقت من عقال القواعدوالضوابط والخطوط الكلاسيكية . لقد أصبح الفن تعبيرا عن الشعور بالحلية ، لا ضغطا للفكر لإحداث الشكل .

أما العمارة فلم تعد رياضيات يونانية أو هندسة رومانية ، بل موسيقى ، وأحيانا أوبرا ، مثل دار الأوبرا فى باريس . واتجه المصممون والبناؤن من الثبات إلى السيولة والايقاع ، فرفضوا التناسق الساكن مؤثرين عليه عدم التوازن وعدم الوحدة المتعمدين ، وقصصوا

(*) الباروك مشتقة من الـكلمة البرتغالية barroco ، وهى صدفة غير منتظمة الشكل كثيراً ما تستعمل حلية .

الأعمدة والأعتاب أو لووها عن قصد . وسئموا السطوح الساذجة والكتل الثقيلة ، وقطعوا الكرانيش ، وشطروا القواصر شطرين ، وبعثروا النحت في كل اتجاه . أما المثّالون فقد ضاقوا بأطراف الجسد الكاملة، والملامح الساكنة ، والوقفة الأمامية الجامدة ، فاتخذوا لأشكالهم أوضاعا غير متوقعة ، داعين الناظر إلى اتخاذ نظرات منوعة ، واستخدموا مؤثرات التصوير في صناعة التماثيل ، فنحتوا الأضواء والظلال في الحجر، والحركة في الجسد ، والفكر والشعور في الوجه . وأما المصورون فتركوا الخطوط النقية ، والضوء الصافي ، والسكينة البريئة — تركوا هذا كله لبيروجينو ، وكوريدجو ، ورفائيل ، وغمروا الدنيا في اللون كما فعل روبنز ، أو ظللوها بالغموض كما فعل رمبرانت ، أو أيقظوها للحس مثل ريني ، أو كدروها بالعذاب والوجد مثل الجريكو . وأما نقاشو الخشب فبعثروا الزخرف على الأثاث ، وأما صانعو الأدوات المعدنية فقد حولوا مادتهم إلى أشكال غريبة أو مضحكة . وحين عهد اليسوعيون عام ١٥٦٨ إلى فينولا برسم « كنيسة يسوع » في روما ، اشترطوا أن تجمع كل الفنون في فيض من الأعمدة ، والتماثيل والصور ، والمعدن النفيس ، تصمم لا للتعبير عن الهندسة ، بل لتلهم الإيمان وتشيعه في النفوس .

ولما كانت إيطاليا لا تزال في الفن قائدة أوربا ، فإن الأسلوب الجديد في الزخرفة والعاطفة والتعبير لم ينتقل إلى أسبانيا وفلاندر وفرنسا الكاثوليكية فحسب ، بل حتى إلى ألمانيا البروتستنتية حيث بلغ بعضاً من أكثر أشكاله مرحاً وبهجة . أما الأدب فأحس تأثير الباروك في لعب مارينى وجونجوزا ولايلي المسرف بالألفاظ ، وفي لغة شكسبير الرنانة الطنانة ، وفي مسرحية مارلو « الدكتور فاوستس » ومسرحية جوته « فاوست » . وأما الأوبرا فما هي إلا موسيقى بأسلوب الباروك . على أن الأسلوب الجديد لم يحقق انتصاراً في كل مكان ، فقد آثر الهولنديون الواقعية الهادئة على انفعالات

الباروك : وفيلاسكويز فى أفضل أعماله كلاسيكى أو واقعى ، أما سرفانتس فبعد أن عاش حياة رومانسية ألف « دون كخوته » فى اتزان وهدوء كلاسيكيين . ولكن هل كان الفنانون والأدباء الكلاسيك دائماً كلاسيكيين ؟ وهل هناك أكثر باروكية من لاوكون المناضل ، القبيح ؟ إن التاريخ يبتسم سخرية من كل المحاولات التى تبذل لإكراه مياهه على أن تجرى فى قوالب نظرية أو أخاديد منطقية ،وهو يعبث أشد العبث بتعمياتنا، ويحطم كل قواعدنا . إن التاريخ ضرب من الباروك .

على أن عاملا قوياً واحداً ظل ثابتاً فى الفن الإيطالى ، فما زالت الكنيسة أنشط رعاته وأقدرهم على تشكيله . كان هناك بطبيعة الحال رعاة آخرون ومؤثرات أخرى . فقد شيدت أسر الأمراء والكرادلة المثقفون القصور الخاصة ، وواصلوا فى تزينها بعض الموضوعات الوثنية ، مثال ذلك أن أودواردو فارنيزى عهد إلى المصورين كاراتشى بأن يرسموا له « انتصار باخوس » و « حكم الغرام » . ولكن مجمع ترنت وحركة الإصلاح الكاثوليكى التالية له حددا للفن اتجاهاً أكثر صرامة ، فتراجعت الأجساد العارية من الفن الإيطالى ، ولم تعد الموضوعات الدينية تستخدم مطية للحس ولم يثن البابا كلمنت الثامن عن تغطية لوحة ميكلانجلو « الدينونة الأخيرة » كلها ، وسراويل دانييلى دا فولتيرا وما حولها ، إلا توسلات فنانى روما . وقد دافع المجمع عن الصور الدينية ضد هجمات الهيجونوت والبيوريتان ، ولكنه أصر على أن توحى هذه الرموز بالخشوع لا أن تلهب الدم العروق . وبينما استنكر المصلحون عبادة مريم والابتهالات إلى القديسين ، روى مصورو إيطاليا ومثالوها فى فترة معارضة الإصلاح البروتستنتى ، من جديد ، عذابات الشهداء ، ورووها بواقعية قاسية أحياناً ، وحكوا مرة أخرى قصة العذراء أم الإله ، بعاطفة واعية . وتعاون حرص الكنيسة على تجريد الفن من الوثنية وبث العقيدة والتقوى

فى النفوس ، مع انتكاسات إيطاليا السياسية والاقتصادية ، على جعل هـذا العصر آخر صدى من أصداء النهضة .

٩ — الفنون فى روما

ظلت روما قصبة العالم الفنية . صحيح أن عصر التصوير الرومانى العظيم قد انتهى ، ولم يعد الآن إيطالى ينافس روبنز أو رمبرانت ، ولكن العمارة الرومانية أزهرت ، وظل برنينى أشهر فنانى أوربا طوال جيل من الزمان . ومع أن بولونيا سطت على زعامة روما فى التصوير ، فإن نجوم هـذه المدرسة كانوا يفدون على روما استكمالا لازدهارهم ، وقد وصل فازارى عام ١٥٧٢ ليرسم الصور الجصية للصالة الملكية فى الفاتيكان . واحتشـد فى « بوتيجى » روما الرسامون الذين ما زالوا محل التبجيل من أقليات مغرمة : ناديو وفديريجو زوكارو ، وجيرولامو موتزيانو ، وفرانشيسكو دى سالفياتى ، وجوفانى لانفرانكو ، وبرتولوميو مانفزيدى ، ودومنيكوفيتى وأندريا ساكى . وأكثر هؤلاء يصنفون عادة تحت اسم « أصحاب اللازمات » — أى الفنانون المقلدون لطريقة فنان بعينه من أساطين الفن أيام عز النهضة ؛ ويجوز أن نعتبر هذه « اللازمية » (١٥٥٠ — ١٦٠٠) مرحـلة أولى للباروك .

أما فيديريجو زوكارو فقد نشر قلوعه فوق أمم أربع . ففى فلورنسة أكمل الصور الجصية التى بدأها فازارى فى قبة الكتدرائية ، وفى روما رسم « المصلى البولسى » فى الفاتيكان ، وفى فلاندر صمم سلسلة من الرسـوم المزلية ، وفى إنجلتره رسم لوحات مشهورة للملـكة اليزابث ولمارى ستيوارت ، وفى أسبانيا شارك فى زخرفة الأسكوريال ، وحين عاد إلى روما أنشأ أكاديمية القديس لوقا ، التى أوحى نظامها لرينولدز بأكاديمية الفنون الملكية بانجلتره . وكان الإقبال على فنه أعظم من جميع الرسامين الإيطاليين فى ذلك الجيل ، ولكن الخلف فضلوا عليـه بيترو بريتينى

داكورتونا . وبروح الكفايات المتعددة التى أثرت عن فنانى النهضة صمم بيترو قصرى باربرينى وبامفيلى بروما ، ورسم فى قصر بيتى بفلورنسه صوراً جصية تزخر بالأشكال الغريبة فى كل غزارة الباروك وتدفقه .

أما القطب الحقيقى للتصوير الرومانى فى هذا العهد فهو ميكلانجلو مريزى دا كارافادجو . كان رجلا فيه روح تشلينى ، وقد ولد لبناء بالحجر فى لومبارديا ، ودرس فى ميلان ، وانتقل إلى روما واستمتع بعدة مشاجرات، وقتل صديقاً فى مبارزة ، ثم هرب من السجن ، وفر إلى مالطة وقطانيا وسراقبوز ، ومات بضربة شمس على أحد شواطىء صقلية وهو فى الرابعة والأربعين (١٦٠٩) ، وفى الفترات التى تخللت هذه المغامرات أحـــدث ما يشبه الثورة فى مزاج التصوير الإيطالى وأسلوبه . وقد أحب التناقضات العنيفة بين الضوء والظل ، واستخدم حيلا كإضاءة المنظر من مدفأة مخفاة ، وشكل صوره بالضوء ، وأخرجها من خلفية معتمة ، وبدأ فى إيطاليا عهد « الفن المعتم » الذى تزعمه جورتشينو ؛ وريبيرا ، وسلفاتور روزا . وإذ احتقر عاطفية الرسامين البولونيين المثاليه ، فقد روع العصر بواقعيته التى أشرفت على الوحشية . كان إذا تناول موضوعاً دينياً يجعل الرســـل والقديسين يبدون وكأنهم عمال ضخام ثلاظ نقلهم عن عمال أرصفة الموانى. وقد أكسبته « لوحة لاعبى الورق » (المحفوظة بمجموعة روتشيلد بباريس) شهرة دولية . أما لوحة « الموسيقيين » — وهم ثلاثة من المغنين وعواد جميل — فقد تراكم عليها التراب ثلاثة قرون قبل أن يعــثر عليها فى متجر للتحف القديمة بشمالى إنجلتره حوالى ١٩٣٥ ، وبيعت بالمزاد بمبــلغ مائة جنيه ، ثم اشتراها متحف المتروبوليتان بنيويورك (١٩٥٢) بخمسين ألف دولار . وقد درجت الكنيسة على رفض صور كارافادجو الدينية باعتبارها مشرفة فى الابتذال مفتقرة إلى السمو ، أما اليوم فهى مشتهى كل ذواقة للفن . وقد بلغ إعجاب روبنز بلوحة هذا الإيطالى المسماة « مادونا ديل روزاريو » مبلغاً حمله على جمع ١,٨٠٠ جولدن من فنانى أنتورب ليشتريها

وبهديها إلى كنيسة القديس بولس(٨٥) : ولوحة « عشاء عمواس » (بلندن) لا تبلغ فى عمقها نظيرتها التى رسمها رمبرانت ، ولكنها تصوير قوى لأشكال الفلاحين . أما « موت العذراء » (المحفوظة باللوفر) — وهى أيضا صورة ريفية — فكانت احدى الصور التى وطدت مدرسة « الطبيعيين » فى إيطاليا والواقعيين فى أسبانيا والأراضى المنخفضة . لقد أكثر كارافادجو من تأكيد ميلودراما العنف والخشونة ، ولكن التاريخ كالخطابة قلما يقرر نقطة دون أن يبالغ فيها . وقد اقشعر لمرأى عمال الشحن مفتولى العضل هؤلاء جيـــل استنفد موضوعات العاطفة ، ثم قبلهم على أنهم مدخل منشط دخل به إلى الفن رجال منسيون . والتقط ريبيرا فرشاة كارافادجو القائمة ولحق به ، واقتفى رمبرانت أسلوب الإيطالى فى توزيع الضوء والظل وجوّده ، وحتى مصورو القرن التاسع عشر شعروا بهذا التأثير العاصف .

أما المعمار فقد شهد مجىء الباروك وذروته . وراح البابوات الواحد تلو الآخر يحيلون عرق المؤمنين الراضين ودراهمهم أمجادا لروما . فأكمل بيوس الرابع البلفديرى وقاعات أخرى فى الفاتيكان . وبنى جريجورى الثالث عشر كلية روما وبدأ تشييد قصر الكويرينال — الذى أصبح مسكنا للملك عام ١٨٧٠ . أما دومنيكو فونتانا ، الأثير بين المعماريين عند سيكستوس الخامس ، فقد صمم قصر اللاتيران الجديد ، ومصلى السيستين فى كنيسة سانتا ماريا مادجورى ، ومقبرة بيوس الخامس فى هذا المصلى ، وهى باروك مسرف . وأضاف الكرادلة والنبلاء خلال ذلك إلى روما قصوراً جديدة (جوستنيانى ، ولا نشلوتى ، وبورجيزى ، وباربرينى ، ورروسبليورى) ، وفيللات جديدة (بامفيلى ، وبورجيزى ، ومديتشى) . كذلك واصل الهدم أفاعيله ، ففى هذه الفترة هدم بولس الخامس حمامات قسطنطين التى عمرت منذ عهد أول الأباطرة دون أن يمسها سوء تقريبا .

وكثر عدد المعماريين الأكفاء ، ومنهم جاكومو ديللا بورتا الذى أكمل بكفاية عدة معابد خلفها أستاذه فنيولا ناقصة ، كواجهة كنيسة يسوع وقبة كنيسة القديس بطرس ، وبهذه الضخامة صمم كابيللا جريجوريانا الفخمة ،

ولمس قصر فاريزى لمساته الأخيرة ، وكان ميكلانجلو قد بدأه ؛ وهو صاحب الفضل فى نافورتين رائعتين تضفيان على روماروا شباب لا يشيخ. وابدعهما نافورة السلاحف التى أقامها تاديو لونديني أمام قصر ماتى واشترك مارتينو لونجى الأب مع ديللا بورتا فى تشييد قصر الكونسرفاتورى نقلا عن رسوم لميكلانجلو ، وبدأ هو ذاته قصر بورجيزى ، الذى أكمله فلامينو بونتزيو للبابا بولس الخامس . وأسهم دومنيكو فونتانا بنافورة « الفونتانونى » ديل أكوا فيليتشى ، وفونتانا ديل أكوا باولينا ، وشيد « قاعة البركة » الجميلة على الرواق المعمد الشمالى للاتيران القديس يوحنا . وخلفه ابن أخته كارلو مادبرنا معماريا لكنيسة القديس بطرس ، فغير خطتها الأساسية من صليب ميكلانجلو اليونانى إلى الصليب اللاتينى ، وصمم واجهة هذا الضريح العظيم ، ووجد فى حمامات كاراكاللا ودقلديانوس إلهاما بصحنها الهائل . وأعاد فرانشسكو بوروميني ، تلميذ مادبرنا ، بناء مدخل لاتيران القديس يوحنا بناء فاخرا ، وبدأ رائعته — كنيسة سانت أجنيس — الفخمة الأنيقة التى تضارع « كنيسة يسوع » فى بيانها للباروك الرومانى .

أما كنيسة يسوع فقد صممها (١٥٦٨) جاكومودا فنيولا تحقيقا لرغبة اليسوعيين فى معمار تروع فخامته العابدين وتلهمهم وتسمو بنفوسهم . وصمم المعمارى وخلفاؤه صحنا فسيحا دون أجنحة ، فيه الدعامات والسبندلات والتيجان والكرانيش المزخرفة ، ثم مذبح مهيب ، وقبة مضيئة ، وحلية رائعة من الصور والتماثيل والرخام والفضة والذهب . وفى عام ١٧٠٠ أضاف أندريا ديل بوتزو ، وكان هو ذاته يسوعيا ، مقبرة القديس اغناطيوس ومذبحه الرائعين . وقد اختلفت نظرة اليسوعيين للحياة عن نظرة غيرهم من رجال الكنيسة الكاثوليكية ، وكانت النقيض التام لنظرة البيورتان ، فالفن فى رأيهم يجب أن يطهر من الحس الدنيوى ، ولكن يجب أن يرحب به فى تزيين الحياة والإيمان . على أنه لم يكن هناك « أسلوب يسوعى » بعينه . كانت كنيسة يسوع باروكا فى الحجر ، وكثير من

كنائس اليسوعيين لا سيا فى ألمانيا كانت باروكا ، ولكن كل كنيسة اتبعت الأشكال والأمزجة المحلية والفاشية .

وكان اكمال كنيسة القديس بطرس آخر منجزات الفن الرومانى . فقد خلف ميكلانجلو نموذجا للقبة ، ولكن « الطبلة » وحدها هى التى كانت ممدودة حين ارتقى سيكستوس الخامس كرسى البابوية . وكان قطرها ١٣٨ قدما . ولم يجرؤ على تغطية مساحة هائلة كهذه دون دعامات تتخللها سوى برونولليسكى بفلورنسه . وأحجم المعماريون والمهندسون أمام العمل الذى اقترحه بووناروتى (ميكلا نجلو) ، وشكا رجال المال من أنه سيكلف مليون دوكاتية وجهد عشر سنين . ولكن سيكستوس أمر بالشروع فى العمل آملا أن يحيى القداس تحت القبة الجديدة قبل أن يودع الحياة . وتكفل جاكومو ديللا بورتا بالمهمة يساعده فيهـا دومنيكو فونتانا . وراح ثمانمائة من الرجال يكدحون ليل نهار — فيما عدا الآحاد — من مارس ١٥٨٩ ، إلى أن أعلنت روما فى ٢١ مايو ١٥٩٠ ، قبل موت الحبر الجرىء بثلاثة أشهر ، بأن « البابا المقدس سيكستوس الخامس ، قد أتم عقد قبة كنيسة القديس بطرس ، لمجده الدائم وخزى أسلافه » (٨٦) .

وقد انتقص من وقع منظر القبة ، إلا على بعد ، واجهة الباروك التى أقامها ماديرنا فى ١٦٠٧ — ١٤ . أما الكنيسة نفسها فقد كرست نهائيا عام ١٦٢٦ ، بعد ١٧٤ سنة من البدء بتخطيطها . وفى عام ١٦٣٣ صب برنينى بالبرونز البلداكينو (أى المظلة) المزوقة فوق « مقبرة القديس بطرس » والمذبح المرتفع . وقد أنفذ النحات العظيم نفسه باحاطة المدخل إلى الضريح بصف أعمدة بيضى هائل (١٦٥٥ — ٦٧) أعان على جعـل كنيسة القديس بطرس أفخم بناء على وجه الأرض ، كما أن قبتها ذروة توجت كل ما بلغه الفن الحديث من انجازات .

١٠ — برنينى

جمع جوفانى لورينزو برنينى [فن روما القرن السابع عشر فى عمر

مسيطر واحد (١٥٩٨ — ١٦٨٠) . أخذ النحت عن أبيه المثال الفلورنسى ، ولعله أخذ عن أمه النابولية حدة العاطفة وحرارة الإيمان . وفى عام ١٦٠٦ دعى الأب إلى روما للعمل فى كنيسة سانتا ماريا مادجورى . هناك درج « جان » فى جو من النحت الكلاسيكى والتقوى اليسوعية . وقد انتشى بتماثيل الفاتيكان « أنطنووس » و « أبوللو بلفديرى » ولكنه كان أعمق تأثرا بكتاب القديس اغناطيوس فى « الرياضات الروحية » ، التى مارسها حتى أحس الرعب والتقوى اللذين شعر بهما رجل جرّب آلام الجحيم ومحبة المسيح . وكان يستمع إلى القداس يوميا ، ويتناول الأسرار المقدسة مرتين فى الأسبوع .

وجرب التصوير ، حتى بلغت صوره المائة . وقد ظفرت إحداها ، وهى لوحة « القديسين أندراوس وتوما » فى مجموعة باربرينى بأعظم الثناء ، ولو أننا نفضل عليها صورته الذاتية المحفوظة بقاعة الأفتزى — فتى أسمر وسيم يجنح إلى التأمل الحزين . على أنه جوّد أكثر من هــذا فى العمارة . وقد أكمل قصر باربرينى لمافيوباربرينى ، فلما ولى راعى فنه هذا كرسى البابوية باسم أوربان الثامن ، عين برنينى كبير معماريى كنيسة القديس بطرس وهو فى الحادية والثلاثين . وهناك بنى — بالاضافة إلى صف الأعمدة والمظلة — فى الجزء الثانى من البناء « كاتدرا بترى » المزخرفة لحفظ المقعد الخشبى الذى اعتقد المؤمنون أن الرسول بطرس كان يستعمله ، ومن حوله جمع أربعة تماثيل قوية الشخصية لآباء الكنيسة ، ومن فوق البناء العجيب كله نثر تماثيل الملائكة بحماسة رجل يملك فى ذهنه معينا لا ينضب من الروائع . وعلى مقربة منــه اختار مكانا لمقبرة ضخمة لحبره المحبوب أوربان الثامن . وصمم الشرفات ، وكثيرا من التماثيل التى تزين الركائز التى تسند القبة . وتحت القبــة وضع تمثالا ضخما للقديس لونجينوس ، وفى الجناح الأيمن أقام أثرا تذكاريا مترفا لماتيلدا كونتيسة توسكانيا . وفى خارج الكنيسة أعاد تخطيط الصالة الملكية التى ترقى إلى قصر الفاتيكان مارة بأعمدة مهيبة ، وذلك بأسلوب أكثر

نقاء ، وفى فجوة فى هذا السلم الملكى أقام تمثالا لقسطنطين راكبا جواده وهو يطالع فى السماء دعوته لاعتناق المسيحية ؛ وأصبحت حرارة العاطفة فى هذا التمثال قالبا احتذاه عصر الباروك.وفى أخريات أيامه بنى فى مصلى السر المقدس بكنيسة القديس بطرس مذبحا لم تبدله رخاماته الساطعة ، وما توجه من ظلة وهيكل وقبة وملائكة مستغرقين فى العبادة — لم يبد له هذا كله تجسيدا مسرفا فى البهاء لسر القربان الذى ينطوى عليه القداس . كل هذا الجهد فى كنيسة القديس بطرس وما حولها يرى فيه الفنان العصرى اسرافا مسرحيا ومخاطبة خداعة للحواس ، أما برنينى فقد رأى فيه الأداة الخصبة لإيمان حار يصل إلى قلوب العابدين .

كان يمزج بين العمارة والنحت فى كل مكان ، ويحلم بفن يجمع بين العمارة والنحت والتصوير فى كل يستنهض الروح . وفى كنيسة سانتا ماريا ديللا فتوريا جمع قطع الرخام الثمين — الأخضر والأزرق والأحمر — وأطلق لخياله الزخرفى العنان ليبنى مصلى الكورنارو ، ذا الركائز المحززة والأعمدة الكورنثية الرشيقة ، وقد أودعها أعظم تماثيله فتنة وحرارة ، تمثال القديسة تريزا ، منهكة القوى غائبة عن الوعى فى نوبة من الوجد الصوفى ، وملاك حلو يتأهب لشق قلبها بسهم ملتهب رمزا لاتحاد القديسة مع المسيح . ووجه تريزا الذى يبدو كأن الحياة فارقته هو أحد انتصارات الباروك الإيطالى ، والملاك الذى يريش سهمه ان هو إلا أغنية فى الحجر .

كان لبرنينى منافسون . وقد أعجب مونتينى أيما أعجاب بتمثال العدالة الذى نحته جاكوموديللا بورتا على قبر بولس الثالث فى كنيسة القديس بطرس . وصب تورجانو تمثالا نصفيا لسيكستوس الخامس ، فيه قوة وواقعية ، وهو الآن محفوظ بمتحف فكتوريا والبرت . ومزج بورومينو النحت بالعمارة مثل برنينى ، كما نرى فى قبر الكردينال فيللا مارينو بكنيسة سانتى أبوستولى فى نابلى . وبلغ اليساندرو ألجاردى مستوى برنينى فى ثلاثة تماثيل نحتها لمقبرة ليو الحادى عشر بكنيسة القديس

بطرس ، وفاته فى النقوش البارزة التى مثل بها « لقاء البابا ليو الأول وأتيلا » ، وهى أيضاً بكنيسة القديس بطرس .. أما تمثال إنوسنت العاشر النصفى الذى نحته الجاردى فى قصر دوريا بامفيلى ، فأكثر ارضاء للناظر من التمثال الذى نحته برنينى ، ويكاد يعدل فى القوة لوحة فيلاسكويز . ولكن أحدا فى هذا العصر لم يضارع برنينى فى خصوبته الفنية وخياله ومجموع منجزاته .

ثم شرح صدر روما بالنافورات الغريبة : فونتانا ديل تريتونى ، وفونتانا دى فيومى — حيث نقش مثالون أقل شأنا أربعة تماثيل للدانوب والنيل والجنج والبلاتا . وقد اختار إنوسنت العاشر من بين تصميمات المتسابقين المقدمة لهذه النافورة تصميم برنينى قائلا « على المرء ألا ينظر إلى تصميماته ما لم يكن مستعدا لقبولها »[٨٧] ولا بد أن ولع برنينى بالآثار القبرية الفخمة قد أوحى إلى رعاته بتقبل لذيذ لفكرة الموت . وقد عمر أوربان الثامن حتى رأى المقبرة التى أعدت لرفاته فى كنيسة القديس بطرس .

ونافس الكردينال سكيبونى بورجيزى البابا أوربان فى منح برنينى المال وتكليفه بالمهام . فصنع له المثال تمثالا حيا سماه « اغتصاب بروزربين » ، هو حلم من عضلات الذكر وانعطافات جسد الأنثى ، وتمثال « داود » يضرب جالوت بمقلاعه ، وتمثال « أبوللو ودافنى » — وهو تعبير مسرف فى الكمال عن شباب الرجل والمرأة . هذه التماثيل (وكلها فى قاعة بورجيزى للفنون) جرت على برنينى تهمة « اللازمية » والمغالاة المسرحية . وقد صور الكردينال نفسه فى تمثالين نصفيين ، هما تجسيد للطبع اللطيف والشهية الطيبة ، وأشد من هذين فتنة بطبيعة الحال التمثال النصفى لكونستانزا بووناريللى الجميلة ، المحفوظ بمتحف فلورنسه الوطنى ، وكانت زوجة مساعد برنينى ، ولكن برنينى — كما قال ابنه — نحتها فى الحجر ، بينما هو يعشق جسدها عشقا مشبوبا [٨٨] .

ويعكس برنيني عيـوب الباروك أكثر من أى فنان آخر. فخطابه للعاطفة مسرف فى الوضوح ، وقد حسب التكلف دراميا ، واللطف جمالا ، والإفراط فى العاطفة تعاطفا ، والضخامة جلالا . وخلع على النحت تعبير الوجوه الحاد بينما هو ميزة اختص بها التصوير عادة . وقد أضعفت واقعية التفاصيل ، المغالية فى الدقة ، من التأثير السيكولوجي لفنه أحيانا . وقل أن بلغ فى تماثيله ذلك السكون الذى يضفى تفوقا خالدا على منحوتات أثينا فى عهد بركليس . ولكن لم يجب أن يعبر التمثال دائما عن السكون ؟ ولم لا تغزو الحركة والشعور وحرارة الحياة الرخام والبرونز وتبعث فيهما الحياة ؟ أنها فضيلة فى نحت الباروك وليست عيبا أنه جعل الحجر يحس ويتكلم . لقد اتبع برنيني المبدأ الهوراسى وأحس بما عبر عنه — بنعومة بشرة الفتاة ، وحيوية الشباب الرشيقة ، وهموم القادة ومتاعبهم ، وورع القديسين ووجدهم .

ولقد تقبله الناس قرابة خمسين عاما إماما لمعماريى عصره . وفى عام ١٦٦٥ ، حين فكر كولبير ولويس الرابع عشر فى إعادة تخطيط اللوفر وتوسيعه ، وجها الدعوة إلى برنيني ليحضر إلى باريس ويضطلع بهذه المهمة . فذهب إليها وصمم، لا بحكمة بل بغلو فى البراعة — وجاوز فى الفخامة الذوق والمال الفرنسيين . وفضلت على تصميمـه واجهـة بيرو الأكثر صرامة ، وقفل برنيني إلى روما يجرر أذيال الخيبة . هنا (١٦٦٧) رسم لنفسه تلك الصورة الطباشيرية الرائعة ، المحفوظة الآن فى قلعة ونزر — خصل بيضاء تتراجع فوق رأس قوى البأس ، ووجه خلف عليه الجهد التجاعيد والعقد ، أما العينان الوديعتان بالأمس فقد أصبحتا جامدتين خائفتين ، كأنهما تريان إلى أين تفضى مدارج المجد . ولكنه لم ينهزم بعد ، فقد ظل ثلاث عشرة سنة أخرى يبنى وينحت فى عنف ، « حاداً فى روحه ، راسخاً فى عمله ، حاميا فى غضبه [٨٩] » وحين خبت جذوته (٢٨ فبراير ١٦٨٠) كان قد عمر إلى ما بعد النهضة الإيطالية :

حين زار ملتن إيطاليا عام ١٦٣٨ ذكران العلماء الإيطاليين أنفسهم أحسوا أن مجد وطنهم قد زال بمجيء الحكم الأسبانى والحركة المعارضة للاصلاح البروتستنتى . ولعل التسلط والرقابة ألحقتا الضرر بفكر إيطاليا وفنها — ولو أن سرفانتس وكالديرون وفيلا سكويز كانوا يزدهرون فى ظل محكمة تفتيش أشد عتوا فى أسبانيا . ولكن الذى أنهى النهضة الإيطالية لم يكن قائداً أسبانيا ، ولا قائمة كتب حرمتها الكنيسة ، بل ملاحا برتغاليا ، هو فاسكودا جاما الذى عثر على طريق يمخر كله البحر إلى الهند ، طويل حقاً ولكنه أرخص من طرق التجارة البندقية والجنوية التى أغنت إيطاليا . وأخذت التجارة البرتغالية والهولندية تحل محل التجارة الإيطالية ، والمنسوجات الفلمنكية والانجليزية تنتزع الأسواق من الفلورنسيين . أما حركة الإصلاح البروتستنتى فكانت قد هبطت بالذهب المتدفق على روما من ألمانيا وإنجلتره إلى النصف .

وتألقت إيطاليا فى اضمحلالها. حقاً لقد هبط الفن من علياء رفائيل وميكل انجلو ، وفقد الفكر السياسى عمق مكيافللى وشجاعته ، ولكن لم يكن هناك اضمحلال بل نهوض فى السياسة والإدارة من ليو العاشر إلى سيكستوس الخامس ، وفى العلم من ليوناردو إلى جاليليو ، وفى الفلسفة من بومبوناتزى إلى برونو ، وفى الدراما الموسيقية من بوليتيان إلى مونتيفردى ، اللهم إلا اضمحلال فى الشعر مختلف عليه من أريوستو إلى تاسو . وكانت إيطاليا خلال خلال ذلك ، كالأم الرءوم ، تسكب فنها وموسيقاها ، وعلمها وفلسفتها ، وشعرها ونثرها ، فوق الألب إلى فرنسا وفلاندر ، وفوق المانش إلى إنجلتره ، وفوق البحر إلى أسبانيا .

الفصل العاشر

فخامة أسبانيا وانحطاطها

١٥٥٦ — ١٦٦٥

١ — الحياة الأسبانية

إن الذين ربوا منا على المؤرخين الإنجليز قد ينسون بسهولة أن أسبانيا كانت بعد هزيمة الأرمادا ، كما كانت قبلها ، أعظم الإمبراطوريات على وجه الأرض وأعتاها وأكثرها اتساعاً ، وأنها اعتبرت نفسها — ولها العذر — أرقى من إنجلتره الإليزابيثية فى الأدب ، ومن إيطاليا المعاصرة فى الفن . فحين ارتقى فيليب الثانى العرش (٢٥٥٦) كانت الملكية الإسبانية تحكم أسبانيا ، وروسيون ، وفرانش كونتيه ، وسته ، وأوران ، والأراضى المنخفضة ، ودوقية ميلان،ومملكة نابلى ، وصقلية ، وسردانيا، والفلبين ، وجزر الهند الغربية ، ومعظم أمريكا الجنوبية ، وجزءاً من أمريكا الشمالية ، وكل أمريكا الوسطى ، يضاف إلى هذا (١٥٨٠ — ١٦٤٠) البرتغال والأملاك البرتغالية فى آسيا ، وأفريقيا ، والبرازيل ، كذلك محمية فى سافوى ، وبارما ، وتوسكانيا ، وحلف مع الامبراطورية الرومانية المقدسة التى حكمها فرديناند الأول عم فيليب*. وكانت أسبانيا تمتلك جيشاً عدته خمسون ألف مقاتل اشتهروا بالبسالة وحسن النظام ، تحت امرة أفضل قواد العصر ، وأسطولا من ١٤٠ سفينة ، ودخلا سنوياً يبلغ عشرة أمثال دخل إنجلترة* وكان ذهب أمريكا وفضتها يتدفقان على الموانئ الأسبانية . أما البلاط الأسبانى فى هذا العصر فأفخم بلاط فى العالم ، وأما الاستقراطية الاسبانية فأشد الارستقراطيات كبرياء وعجباً . وكان

الملايين من الناس خارج أسبانيا يتكلمون الأسبانية ، وفى كثير من الأقطار تعلمت الطبقات المثقفة اللغة الأسبانية كما تعلمت بعد ذلك اللغه الفرنسية فى القرن الثامن عشر . كذلك زينت العمارة الأسبانية المدن فى خمس قارات .

وبلغ عدد سكان أسبانيا الآنزهاء ثمانية ملايين . واضمحلت الزراعة بتحويل المزيد من الأرض إلى مراع للأغنام لإنتاج الصوف . وقد بلغ عدد عمال النسيج فى طليطلة وحدها خمسين ألفاً حوالى عام ١٥٦٠ ، وحفزت مطالب المستعمرات الأسبانية صناعات أسبانيا ، وأصبحت أشبيلية من أهم الثغور فى أوربا ، وأرسلت المستعمرات نظير ذلك الشحنات من الفضة والذهب . ورفع تدفق المعادن النفسية الأسعار رفعاً جنونياً — فبلغت نسبة الغلاء فى الأندلس ٥٠٠ فى المائة فى القرن السادس عشر ، وصعدت الأجور لتلحق بتكاليف المعيشة فى سباق محموم أصبح فى النهاية عديم الجدوى . وكان كثير من الصناعة يقوم على أكتاف المغاربة (المورسكو) — وهم المسلمون الذين اعتنقوا المسيحية ظاهرياً . أما الخدمة فى البيوت فألقى أكثر عبئها على العبيد المأسورين فى الغارات على أفريقيا أو فى الحروب التى شنت على « الكفار » : لقد كان عامة الأسبان يحتقرون العمل ويقنعون بالقليل فى تفلسف ، فالنوم فى كوخ ، والاصطلاء فى الشمس ، ومداعبة القيثارة ، والبكاء على شح الحسان — ذلك خير من الكدح والعرق شأن العبيد أو المسلمين . وقد ساهم طرد المغاربة عام ١٦٠٩ مع غلاء المنتجات الأسبانية فى اضمحلال الصناعة فى أسبانيا .

وكان طرد اليهود عام ١٤٩٢ قد ترك فراغاً فى بناء أسبانيا التجارى والمالى . وأصبح الجنويون والهولنديون أهم النقلة لتجارة أسبانيا الخارجية . أما أسبانيا التى كان يحكمها نبلاء تمرسوا بالدبلوماسية والحرب أكثر مما تمرسوا بشئون الاقتصاد، فقد تركت ثروتها تعتمد على استيراد الذهب، وازداد ثراء الحكومة حيناً بينما ظل الشعب فى فقره ، ولكن كثيراً من هذا الذهب كان ينزح لاستخدامه فى الحرب ، أو يأخذه التجار الأجانب

الذين ينقلون تجارة أسبانيا ، حتى كادت الحكومة تفتقر كالشعب . ورفضت أسبانيا الوفاء بديونها المرة بعد المرة (١٥٥٧ و ١٥٧٥ و ١٥٩٦ و ١٦٠٧ و ١٦٢٧ و ١٦٤٧) أو حولتها بالاكراه إلى قروض جديدة ، وهذه الأزمات المالية هي التي ألجأتها إلى انهاء حربها مع هنري الثاني عام ١٥٥٩ ، ومع « الأقاليم المتحدة » عام ١٦٠٩ . ففي التاريخ علينا أن نفتش لا عن « المرأة » بل عن « المصرف » .

وفي أسبانيا علينا كذلك أن نفتش عن الكاهن . ذلك أن الدين لم يفرض هذا السلطان على الشعب ، ومن ثم على الحكومة ، في أي بلد آخر من بلاد الله ، ولم تكتف أسبانيا برفض حركة الاصلاح البروتستنتي فحسب ، بل تجاوزتها إلى رفض النهضة أيضا — اللهم ألا لحظة إرزمية عابرة . وظلت « وسيطة » في عالم حديث ، قانعة بنصيبها هذا . وكان فقر الشعب يتهلل لثراء الكنيسة . كان الكل متدينين ، من الملوك « الأشد كثلكة من البابا »[1] إلى قطاع الطرق الذين لم يروا قط إلا حاملين المداليات أو الشارات الكتفية الدينية . وفي عام ١٦١٥ سار نحو أربعين ألف أسباني في مظاهرة مطالبين بأن يجعل البابا من « حمل العذراء غير المدنس » (أي خلوها من لوثة الخطيئة الأصلية) عقيدة في صلب الإيمان — أي اعتقاد الزامي على جميع الكاثوليك[2]. وفي كل مكان كنت تجد القساوسة والرهبان والأخوة ، لا متسامحين أو راضين عن مباهج الحياة والحب كما في إيطاليا أو فرنسا ، بل ملقين جوا من اكتئاب الجريكو على كل شيء الا مصارعات الثيران . وأصبح في أسبانيا الآن ٠٨٨ ر ٩ ديرا ، و ٠٠٠ ر ٣٢ أخ دومنيكي وفرنسسكاني[3] ، وعدد متزايد من اليسوعيين . وكانت الكنائس معتمة ، تزخر بالرفات الرهيبة ، وتزدان بالمرعبات الواقعية في فنها . أما قصص القديسين ومعجزاتهم فهي الشعر الذي يعتز به الشعب . وحبب الناس في التصوف أغاني القديس يوحنا الصليبي وكتابات القديسة تر.ا ووجدت الكنيسة لزاما عليها أن تحتج

على ما ادعاه « المهدئون » من صلة حميمة بالله ومن رؤى طوباوية ، وفى عام ١٦٤٠ وقعت فى براثن محكمة التفتيش طائفة من الألومبرادو — « أى المستنيرين » — زعموا أن اتحادهم الصوفى بالاله يطهرهم من كل اثم حتى وهم فى نشوات الجنس . علينا اذن أن نذكر هذا التدين الواسع الانتشار ، الشديد التحمس ، إن أردنا أن نفهم لم استطاع الشعب الأسبانى أن يرقب فى استحسان قوى حرق المهرطقين ، وأن يجود بماله حتى الأفلاس والأعياء دفاعا عن العقيدة فى ألمانيا والأراضى المنخفضة . لقد كان فى هذا الجنون شيء من النبل ، وكأن الأمة أحست بأنه ما لم يكن إيمانها صادقا فإن الحياة تصبح سخفا لا معنى له .

وهكذا مضت محكمة التفتيش فى وحشيتها التى أملاها عليها ضميرها ، فحدت بالعقوبات « المعتدلة » — كجلد المذنب مائة جلدة — من بدع كتلك التى زعمت أن الزنى ليس خطيئة ، أو أن الزواج مقدس كالتبتل الديرى . أما المارانو « المرتدون » — وهم اليهود الذين اعتنقوا المسيحية من قبل ثم ارتدوا إلى اليهودية سرا — فكان التكفير المقرر عن جريمتهم هو الموت أو السجن المؤبد . وحين وصل فليب الثانى إلى أسبانيا (١٥٥٩) استقبل فى بلد الوليد بتنفيذ حكم للمحكمة شهد فيه ٢٠٠,٠٠٠ شخص يرأسهم الملك عشرة من المهرطقين يشنقون واثنين يحرقان أحياء[٤]. والتمس أحد المحكوم عليهم الرأفة من فليب فرفض ، واكتسب أعجاب الشعب بقوله « لو أن ابنى كان شقيا مثلك لحملت بنفسى الحطب لأحرقه »[٥] وقد قاوم فليب أحيانا جنوح محكمة التفتيش إلى توسيع سلطانها على حساب السلطة المدنية ، ولكنه على العموم شجع هذه المؤسسة باعتبارها أداة تعين الحماسة والوحدة القوميتين . وقد أراحه بعض الشيء أنه استطاع استخدام المحكوم عليهم عبيدا على السفن[٦]، وأنه فى سنة واحدة (١٥٦٦) تسلم ٢٠٠,٠٠٠ دوكاتية من الذهب هى نصيب الثلثين المستحق للحكومة من غرامات محكمة التفتيش ومصادراتها .

واعتزت محكمة التفتيش بصونها عقيدة العصر الوسيط نقية لا غش فيها ، وبإنقاذها أسبانيا من الفرقة الدينية التي تتلوى فرنسا تحت قبضتها . وترك اهتمامها بالعقيدة دون السلوك حماية الفضيلة لرجال الاكليروس — وكانوا هم أنفسهم مشهورين بالتهاون في سلوكهم — وللموظفين المدنيين الذين حد من سلطانهم على الشعب خضوعهم لما تصدره محكمة التفتيش من أحكام بالسجن أو الغرامة . أما عفة النساء فلم يقم حارسا عليها الدين والقانون فحسب ، بل « البونتو » ، أي حق الدفاع عن العرض ، وهو مبدأ يلزم كل ذكر بأن يدافع أو يثأر بالسيف لعرض أية امرأة في أسرته هدد أو انتهك . وكانت المبارزة غير قانونية ولكنها محببة إلى الشعب . وكان كرام النساء يلزمن بيوتهن في احتجاب شبيه بما كان عند العرب ، يأكلن بمعزل عن الرجال ، وقلما يصحبنهم علانية ، ويركبن المركبات المقفلة إذا انتقلن من بيوتهن . وكان طلاب يد الفتاة يتوددون بالموسيقى تعزف من الشارع للعذراء المحتجبة خلف نوافذ ذات قضبان ، وقل أن يؤذن لهم بدخول البيت حتى يصل والدا الطرفين إلى اتفاق ، ومع ذلك كثرت زيجات الغرام (٧) . وفي عهد فليب الثاني احتفظ بمستوى الأخلاق عاليا على قدر ما سمحت به فتنة النساء أو خيال الرجال ، وخفف من فساد الموظفين الطبيعي يقظة الملك ، وإلى هزيمة الأرمادا كان يصون روح الشعب المعنوية اعتقادهم بأن أسبانيا تخوض حربا مقدسة ضد الإسلام ، والأراضي المنخفضة ، وانجلتره ، فلما تحطم الحلم انهارت أسبانيا جسدا وروحا .

على أن الحياة الأسبانية كان لها بهاؤها وسحرها الملازمان لطبعها . فالاحسان واسع الانتشار ، والسلوك المهذب يسود جميع الطبقات . ونصف الأمة يزعم لنفسه عراقة الأصل ، ويحاول الارتفاع بحياته إلى آداب الفروسية ، ويصر على أن يرتدي لباس العشر الأعلى من السكان . وكان اللباس في عهد فليب الثاني متوسط البساطة ، فالرجال يلبسون أطواق الرقبة والصدرات

والجوارب الطويلة القاتمة الضيقة ، والأحذية ذات المشابك ، أما النبيلات (وكلهن نبيلات) فيغطين ما استدار من أجسادهن بالمشدات القاسية المستوية ، ويحجبن عن الجنس الآخر كل وجوههن فيما عدا العيون (وهى فى نساء الأسبان شديدة التوقد) ، ويخفين أقدامهن فى خفر بحيث كانت لمحة واحدة إليها أعظم المكافآت المثيرة التى تجزى بها توسلات العاشق الولهان(٨) . وأصبح لباس النساء أكثر بهاء إبان التراخى الخلقى الذى أعقب موت فيليب ، فالمراوح ترف فى مداعبة بلا كلام ، والصباغ الأحمر يلمع على الوجوه والأكتاف والنحور والأيدى ، والسيقان التى يلفها الغموض تختفى فى تنانير بلغ من سعتها أن أصحاب المسارح كانوا يتقاضون أجر كرسيين من كل امرأة تعاظم حجمها على هذا النحو .

وظلت مصارعة الثيران الفرجة المفضلة . وقد أصدر البابا بيوس الخامس مرسوما بحظرها عام ١٥٦٧ ، ولكن فيليب الثانى احتج بأن هذا الحظر سيطلق ثورة فى أسبانيا ، فأهمل المرسوم . وأضافت المواكب الدينية شيئاً من الشعر الحزين إلى الأيام العادية الخالية من الاثارة . وسترت أقنعة الكرنفال كثرة من الخطايا . أما الموسيقى فغرام لا يفوقه غير الدين والعشق — وهو وثيق الصلة بهما . فالفويلا الشبيهة فى شكلها بالقيثارة تعزف الحانا شجية تلازم العلاقات الغرامية . وقد حظيت الأغانى الشعرية القصيرة بشعبية موقتة . ونافست أسبانيا إيطاليا فى الموسيقى الكنيسة . وقد نشأ توماس لويس دى فكتوريا، وهو بمثابة فلاسكويز الموسيقى الأسبانية، فى أفيلا (آبله)، بلد القديسة تريزا ، ولعله وقع تحت تأثيرها . وكان يملك الصوت والوظيفة، ولعله رسم قسيسا عام ١٥٦٤، ومن المؤكد أن فيليب أجرى عليه إعانة ليدرس الموسيقى فى إيطاليا . ونحن نراه فى سنة ١٥٧١ رئيسا لفرقة المرتلين فى الكلية الجرمانية بروما . وفى عام ١٥٧٢ أصدر كتابا من من الألحان يحوى موسيقى « Ovos omnes » (يا جميع الآلهة) الملهمة المرافقة لمراثى أرميا لأورشليم . ولما عاد إلى أسبانيا قدم لفليب الثانى

كتاب قداديس احتـــوى على لحن من أرفع ألحانه ، وهو قداس « O quam gloriosum » (ما أمجدك) . وكتب قداسا جنائزيا عميق التأثير لمأتم ماريا أخت فيليب ، وأرملة الامبراطور مكسليان الثانى ، وضعه مؤرخ نابه للموسيقى فى صف « أروع الألحان المدونة قاطبة[٩] » . وقد سمـــاه أغنيته التم » ، وبعد نشره (١٦٠٣) تفرغ بكليته لواجباته الكهنوتية . وكان من ألمع النجوم فى أشهر عهد من عهود الملكية الأسبانية .

٢ — فيليب الثانى : ١٥٥٥ — ٩٨

هنا رجل من أغرب وأقوى شخصيات التاريخ ، متعصب ، ذو ضمير حى ، مكروه أشد الكره خارج أسبانيا ، محبوب أحر الحب داخلها ، يتحدى أى دارس يحاول جاهدا أن يكون موضوعيا . كان نسبه قدره المكتوب ، فأبوه شارل الخامس ، الذى خلف له ملكا والتزاما بالتعصب ، وجدته لأبيه جوانا لا لوكا ابنة فرديناند الكاثوليكى المجنونة ؛ فالصوفية والجنون إذن فى عروقه ، والعقيدة والاستبداد فى ميراثه . وكان لأمه ايزابللا البرتغالية ولدان آخران مات كلاهما بالصرع فى طفولته ، وماتت هى نفسها فى السادسة والثلاثين حين كان فيليب فى الثانية عشرة . ولد فى بلد الوليد عام ١٥٢٧ يوم كانت جيوش أبيه تنهب روما وتسجن البابا ، وربى على أيدى قساوسة ونساء أغرقوه فى التدين واقنعوه بأن الكنيسة الكاثوليكية هى السند الذى لا غنى عنه للفضيلة والملكية . وعلى حين كان أبوه — الذى نشأ فى فلاندر — قد شب رجل دنيا ، أصبح فيليب — الذى عاش فى أسبانيا معظم حياته — أسبانيا وجها وعقيدة ، جسدا وعقلا ، برغم جلده الأبيض ، شعره الأصفر الحريرى .

لم يكد يستمتع بشباب ، ففى الثالثة عشرة عين حاكما على ميلان ، وفى السادسة عشرة وصيا على عرش أسبانيا — وهى وصاية لم تكن مجرد اسم بلا مسمى . فقد رتب شارل مشيرين له ، وشرح له طباعهم ببصيرة نافذة ، وأمره ان يؤلب المشير على المشير ، وحضه على أن يحتفظ لنفسه

بكل السلطة الحقيقية وكل القرارات النهائية — وهو ما فعله فيليب إلى آخر نسمة من حياته . وفى تلك السنة (١٥٤٣) تزوج فيليب ابنة خاله الأميرة ماريا البرتغالية ، ولكنها ماتت عام ١٥٤٥ ، عقب أن أنجبت له ابنا « سيئ الطالع » هو الدون كارلوس ، فعقد فيليب زواجا من احدى بنات الشعب هى إيزابيلا دى أوزوريو ، التى أنجبت له عدة أطفال . وألح عليه أبوه فى فسخ هذا الزواج ، وكان لزاما على كل أمير هابسبورجى أن يعين على تأليف نطاق من الحلفاء حول العدو القديم فرنسا . لذلك وجب على فليب — لكى يؤمن قوة أسبانيا فى الأراضى المنخفضة من تدخل إنجلتره — ان يبتلع حاسته الجمالية ويتزوج مارى تيودور ملكة إنجلتره الكاثوليكية . وينجب منها بنين يحتفظون بانجلتره فى حظيرة الكاثوليكية . وهكذا نراه فى عام ١٥٥٤ يعبر المانش ، ويتزوج مارى الدميمة ، العليلة ، المؤملة فى الخلف (وكانت تكبره بأحد عشر عاما) ، ويبذل قصاراه لاخصابها ، ولكنه يخفق ، فيرحل (١٥٥٥) ليصبح حاكما للأراضى المنخفضة .

وتمضى السنون وأعباؤه تثقل . ففى عام ١٥٥٤ كان قد نصب حاكما لمملكة نابلى وصقلية المزدوجة . وفى عام ١٥٥٦ تخلى له شارل عن تاج أسبانيا . وظل فيليب أربع سنوات يحكم أملاكه المبعثرة من بروكسل . وقد ناضل للتوفيق بين رزانته الأسبانية وبين المرح الفلمنكى والمالية الهولندية . لم يكن يستطيب الحرب ، ولكن قواده كسبوا له فى سانت كوينتين (١٥٥٧) معركة حملت الفرنسيين على ابرام معاهدة كاتو — كامبريزى . ورغبة منه فى إقامة بعض روابط الصداقة مع فرنسا تزوج فيليب من اليزابث فالوا ، ابنة هنرى الثانى وكاترين مديتشى ، وبعد أن خال الأمور قد استقرت ودع الأراضى المنخفضة وأبحر من غنت (أغسطس ١٥٥٩) وحبس نفسه بقية حياته فى أسبانيا .

ونقل العاصمة من طليطلة إلى مدريد (١٥٦٠) ، وما لبث أن حمله حبه للعزلة ، وعدم ارتياحه إلى الوجود وسط الجماهير ، على تكليف

خوان باوتستا وخوان دى هيرايرا بان يشيدا له على سبعة وعشرين ميلا شمال غربى مدريد مجمعا من العمائر يحوى قصرا ملكيا ، ومركزا إداريا ، وكلية ومدرسة لاهوتية ، وديرا ، وكنيسة ، وضريحا — ولا غرو فقد أصبح فليب الآن متدينا على قدر ما تسمح به مقتضيات السياسة . ففى معركة سانت كوينتين هدمت مدافعه كنيسة مكرسة للقديس لورنس ، وتكفيرا عن هذا الانتهاك للمقدسات وعرفانا بالجميل على انتصاره ، كان نذر أن يقيم للقديس ضريحا فى أسبانيا . وهكذا سمى مجمع العمائر الشاسع هذا السيتيوريال دى سان لورينزو « — أى المقر الملكى للقديس لورنس ، ولكن الزمن سماه الإسكوريال ، نسبة لمدينة قريبة ، اشتقت هى نفسها اسمها من لفظ « سكوريا » ومعناه خبث مناجم الحديد المحلية[١٠] . وكان الاعتقاد أن القديس لورنس قد أحرق حتى الموت على مشواة من حديد ، لذلك صمم خوان باوتستا خطة الأرض على هيئة مشواة تقطعها الصالات من جنب إلى جنب ، قاسمة الفراغ الداخلى إلى ستة عشر فناء .

ويعجب المرء وهو يركب السيارة من مدريد إلى هذا المكان كيف استطاع فيليب ، فى عصر لم يتح له من وسائل الانتقال ما هو أسرع من ظهور الخيل ، أن يحكم ملكه العالمى من مثل هذا الحرم الذى يتوه وسط تلال كئيبة ؛ ولكن مدريد كانت أكثر منه بعدا عن العالم . وقد هجر هذا المجمع العظيم اليوم إلا من الرهبان وخدماتهم ، ولكنه كان أيام عزه ، بواجهته المبنية بطرز النهضة والبالغ طولها ٧٤٤ قدما ، وبقلاعه وأبراجه ، وبقية كنيسته الضخمة ، رمزا رهيبا للسطوة الأسبانية التى تبلت بالتقوى والفن . هنا كان يحكم نصف العالم المسيحى ، ووحد الدين والحكومة فى متاهة واحدة من السياسة والحجر ، وهنا كان فى استطاعة الملك أن يعيش كما يشتهى ، لا بين حاشيته ، بل بين القساوسة والرهبان والرفات المقدسة ، ويسمع مرات كل يوم الأجراس المعلنة للقداس . هنا كان البانتيون مزمعا أن يتلقى رفات ملوك أسبانيا وملكاتها ، والمكتبة أن تصبح من أغنى المكتبات فى أوربا ، ومتحف الصور أن

يضم عما قليل روائع بريشة رفائيل ، وتتسيانو ، وتنتوريتو ، وفيرونيزى ، والجريكو ، وفلاسكويز ، وهنا أقبل بلجرينو تيبالدى ، وبارتولوميو كاردوتشى ، وفدريجو زوكارو ، من إيطاليا للانضمام إلى خوان فرنانديز نافاريتى ، ولويزدى موراليس ، ولويز دى كارباyal ، وغيرهم من الفنانين الأسبان ليرسموا الصور الحصية على الجدران والبوا كى التى لا نهاية لها . أما القصر الملكى فتركه بسيطا كل البساطة ، ولكن الكنيسة برغم بنائها على الطراز الدورى الصارم ، كان مذبحها يتلألأ بالرخام السماق واليشب والذهب ومن خلفه رافدة ذات حلية معقدة . وكانت القاعة المخصصة لاستقبال كبار القوم شاسعة حافلة بالزخرف ، أما حجرة فليب فأفقر حجرات البناء ، متواضعة كأنها صومعة عابد (١١) . كان البناء رمزا لسطوة فليب ، أما الحجرة فتعبير عن خلقه .

لقد جهد غاية الجهد ليكون قديسا ، ولكنه لم ينس أنه ملك . كان يعلم أنه أقوى حاكم على ظهر البسيطة ويشعر بالتزام سياسى بالكبرياء ، ولكنه كان فى لباسه آية فى البساطة حتى أن بعض الغرباء الذين صادفوه فى الاسكوريال حسبوه تابعا ، وسمحوا له أن يكون دليلهم (١٢) . وكان خليقا بهم أن يتعرفوا عليه من ذقنه الهابسبورجية الناتئة ، لأنها كانت تحديا بارزا للعالم . وفى عام ١٥٥٩ ، قبل أن يقسيه الزمن والتجارب ، وصفه سفير بندقى بأنه « يبدى دائما من الرقة والانسانية مالا يبزه فيه أمير (١٣) » ، وقال عنه سفير انجليزى أنه « ذو خلق لطيف ، وطبع لين ، وميل إلى الهدوء (١٤) . ولم يجد فيه أحد أى ميل للمزاح أمام الناس ، وذكر أعداؤه القساة أنه لم يبتسم فى حياته كلها غير مرة — وذلك حين سمع بمذبحة القديس برتلميو . على أنه فى حياته الخاصة كان يستطيب الدعابة والنكتة ويضحك من كل قلبه (١٥) . وكان يجمع الكتب بذوق ولذة ، ولكنه آثر الفن على الأدب ، فهو الراعى المرهف الذوق لتتسيانو ، والناقد لإلجريكو ، يحب الموسيقى ويعزف على القيثارة

حين لا يرقبه العالم ، تحليه كل آداب السلوك الأسبانية ، ولكنه يرتبك حياء ويجمد فى المناسبات الرسمية ، رشيق الجسم إلى أن أعجزه النقرس لولعه بالفطير والحلوى . كان منذ شبابه مستهدفا للمرض ، وإذا كان قد أدرك السبعين كاملة فإنما الفضل فى ذلك لتصميمه العنيد على اتمام واجباته . وقد اتخذ الحكم واجبا مقدسا ، وراح يكد فيه ويكدح يوما بعد يوم طوال خمسين عاما . ويبدو أنه آمن حقا بأن الله اختاره لوقف المد البروتستنتى ، ومن هنا ما عرف عنه من عناد شديد وقسوة على مضض ، « ولم يكن بطبيعته يؤثر الطرق العنيفة (١٦) » ولم ينس قط صنيعا (اللهم إلا حالة أجمونت) . ولا نسى اساءة . كان المنتقم أحيانا ، الشهم الصفوح غالبا . وزع الصدقات بسخاء يمليه الضمير (١٧) . كان فى عدمر فاسد غير قابل للافساد ، وما كان لرشوة أو هدية أن تثنيه عن الاضطهادات التى دفعه إليها تدينه .

أما فى أخلاقيات السياسة فكان شبيها كل الشبه بمعاصريه — يكره الحرب ، ولم يبدأ حربا قط ، واحتمل من إهانات انجلترة جيلا كاملا تقريبا قبل أن يجرد عليها الارمادا . كان قادرا ، بل أقدر من معظم الحكام ، على الخداع المتخفى وراء التقوى ، والظاهر أنه شارك فى مؤامرة لقتل البزابث حين أعيته الحيل لانقاذ مارى ستيوارت (١٨) . وكان حكمه لأسبانيا أوتوقراطيا ولكنه عادل ، « يهتم الاهتمام الشديد برعاياه ، ويصلح أى مظالم اجتماعية بمجرد الوقت لاكتشافها (١٩) » .

أما خلقه الشخصى فيفضل خلق أكثر ملوك القرن السادس عشر . كان فى شبابه ببروكسل ، إذا صدقنا أعداءه ، « شديد الاباحية » و « لهوه المفضل أن يخرج ليلا متخفيا ليمارس شتى الشهوات المبتذلة فى المواطن المألوفة للرذيلة (٢٠) » ؛ وبعد سنوات اتهم وليم أورنج ، وهو يقود ثورة الأراضى المنخفضة ، ناسك الاسكوريال هذا بأنه قتل ابنه ودس السم لزوجته الثالثة (٢١) ، ولكن رجلا ساخطا مثل وليم لا يعتمد

عليه فى كتابة التاريخ . على أن مؤرخا لا يتطرق الشك إلى عظمتـه وجرأته ، وهو ماريانا اليسوعى الأسبانى ، يصدر عليه حكما عدائيا كهذا ، فبينما هو يشيد بـ «سماحة فليب وعزيمته ويقظته وزهده فى الطعام والشراب» يتهمه بـ « الشهوانية ، والقسوة ، والـكبر والغدر ، وعدة رذائـل أخرى »[٢٢] ولكننا نجد مؤرخا هولنديا محدثا يخلص إلى أن « فليب الثانى لا يمـكن اتهامه بالفجور و . . والخلاعة والفسـاد ، فهو على قدر علمنا عاش بعد عودته إلى أسبانيا حياة فاضلة إلى حـد الصرامة [٢٣] » زوجا وفيا وأبا شـديد الاهتمام بأبنائه . وحين مرضت زوجته الثالثة اليزابث قالوا بالجدرى (وكان يومها فتاكا أغلب الأحيان) ظل ملازما لها لا يبرحها إلا نادرا مع أنه وزراءه ألحوا عليه فى ألا يعرض نفسه لخطر العدوى . وبعد موت اليزابث عقـد فليب زواجا دبلوماسيا آخر (١٥٧٠) بأميرة نمساوية من أميراتها العديدات المسميات « آن » ، وماتت آن هذه عام ١٥٨٠ وبعدها كرس عواطفـه العائلية الحميمة لبناته . ورسائله لهن رسائل إنسانية فيها دعابة ومحبة [٢٤]. وأصبحت اليزابث كلارا رفيقه الحميم وعزاءه الـكبير وسط هموم الشيخوخة وهزائمها . وقد وصفها فى وصيته بأنها نور عينيه . أما أبناؤه فلم يجد فيهم أى عزاء .

وتضافرت الأسطورة والأدب (*) والشفقة الانسانية لتجعـل من ابن فليب الأكبر رجلا أشهر من أبيـه . كان كارلوس ضعيف البنية ، مستهدفا للحمى المتقطعة ، والاكتئاب ، ونوبات الغضب والكبرياء . كان سخيا فى إسراف ، شجاعا فى شراسة ، كان يضحك جده ، الذى كان بالأمس شارل الخامس العظيم . بلومه إياه على أنه فر من موريس أمير سكسونيا فى إنزبروك (١٥٥٢) — « لو كنت مكانك لما

(*) اتخذ هؤلاء الكتاب الدون كارلوس موضوعا لمسرحياتهم : شيلر ، والفييرى ، وأوتواى ، ومارى جوزف دشنييه ، وخوان بيريز دمونتالبين . . . الخ .

قررت قط ! » (٢٥) وفى المحادثات التمهيدية لمعاهدة كاتو ــ كاميريزى كان هناك وعد بزواج كارلوس ــ وهو يومها فى الرابعة عشرة ــ من اليزابث فالوا ، ولكن فى المعاهدة نفسها اتخذ فليب هذه الأميرة زوجة له بعد أن ترمل بموت مارى تيودور ، وذلك ليحول الصداقة الفرنسية من انجلترا إلى أسبانيا ، وبعد عام وصلت العروس إلى مدريد (١٥٦٠). ولعل كارلوس حين رأى جمالها المتوارى خلف قناع من الحشمة ساءة هذا التحوير لحق « السيد الاقطاعى » ، ولكن ليس هناك دليل على وجود أية علاقة غرام بينه وبين الملكة ذات الأربعة عشر ربيعا(٢٦) .

وكان من المسلم به رسمياأن كارلوس وريث للتاج برغم علته . وفى عام ١٥٦١ أرسل إلى جامعة ألكالا « القلعة » . وهناك سقط من درجات سلم خلال مطاردته فتاة يغازلها ، فكسرت جمجمته ، وراح يهذى فى غيبوبته . ونشر الجراح الكبير فيزاليوس عظم رأسه فأنقذ حياة الصبى ، ولكن تحسن حالته عزاه الناس إلى رفات أخ فرنسسكانى تقى ــ مات قبل قرن ــ أخذت من تابوتها ووضعت على الفراش إلى جوار الأمير . وخلال نقاهة الفتى الطويلة مكث فليب « القلعة » وأنفق الوقت الكثير إلى جانبه . وأعيد كارلوس إلى مدريد، وهناك استرد من العافية ما سمح له بالانضمام إلى شباب النبلاء فى حوادث العنف يرتكبونها فى الشوارع ضد الرجال والنساء . وقوت اعتداءاته القاسية الصاخبة ، الشبهة فى أن سقطته قد ألحقت بمخه أذى لاشفاء له منه . ولم يكن مما يعينه على كسب عطف فليب أنه أعرب عن تعاطفه مع الثوار فى الأراضى المنخفضة . ولما عين ألفا قائدا للجيش هناك احتج كارلوس بأن هذه المهمة كان يجب أن تعهد إليه ، فنهى ألفا عن الذهاب ، وهاجم الدوق بخنجر شهره عليه حين أصر على الذهاب (٢٧) . ويبدو أن الأمير خطر له حينا أن يهرب إلى الأراضى المنخفضة ويضع نفسه على رأس الثورة (٢٨) . وكلف فليب بعض

وزرائه ، الزاهدين فى المهمة ، بأن يراقبوه . ووضع كارلوس الخطط للهروب ، وبعث بعملائه لجمع المال ، وجمع ١٥٠٫٠٠٠ دوكاتية ، وأمر بأن يؤتى له بثمانية جياد لهروبه (يناير ١٥٦٨) . غير أنه أسر بخطته لدون جوان النمساوى ، الذى أفضى بها إلى الملك . وخاف فليب أن تستعمل اليزابث ملكة انجلترا ، أو وليم أورنج ، ابنه — إذا سمح له بمغادرة أسبانيا — منافسا لأبيه تمهيدا لعزله ، فأمر بتشديد الرقابة على الأمير ، وهدد كارلوس بالانتحار ، فجرده فليب من كل سلاح وحبسه فى القصر الملكى بمدريد .

إلى هنا كان مسلك فليب يسمح بالدفاع عنه ، ولكن التعصب بدأ يعمق المأساة . ذلك أن الملك حين اشتبه فى هرطقة ابنه أمر بألا يسمح له بأى كتاب الا كتاب صلوات يومية وبعض كتب العبادة . ورفس كارلوس الكتب وأهمل كل الطقوس الدينية . وأنذره قسيس بأن مسلكه قد يحمل محكمة التفتيش على التحقيق فى صحة مسيحيته ، وحاول كارلوس أن يقتل نفسه ، ولكن حيل بينه وبين ذلك ، على أنه حقق هدفه بأن رفض كل طعام قدم إليه طوال أيام ثلاثة ، ثم أتخم نفسه باللحم والماء المثلج ، فأصيب بالدوسنتاريا ، ورحب الأمير بالموت ، وتناول القربان لآخر مرة ، وسامح أباه ، ثم مات غير متجاوز الثالثة والعشرين (٢٤ يوليو ١٥٦٨) . واتهم انطونيو بيريز — عدو فليب المنفى — الملك بأنه دس السم لكارلوس ، وصدقت معظم أوروبا التهمة ، ولكن البحث دحضها (*) . على أن صرامة سجن الفتى من النقط السوداء الكثيرة التى تلوث سجل الملك .

(*) « فى الحادث الأليم ، حادث سجن الدون كارلوس وموته ، سلك فليب مسلكا شريفا » — الموسوعة البريطانية ، ١٧ ، ٧٢٢ . قارن مارتن هيوم فى كتابه « أسبانيا ، عظامتها واضمحلالها » ١٥٠ ، ور . تريفور ديفز « القرن الذهبى لأسبانيا » ١٤٩ .

وقد ألقى مسلكه من أخيه لأبيه ، دون جوان النمساوى ، ظلا آخر على الصورة . فيبدو أن هذا الابن غير الشرعى لشارل الخامس وبربارا بلومبرج أثار فى نفس فليب أعجابا تشوبه الغيرة . ومع ذلك رفع جوان إلى مرتبة الأمراء ، وعهد إليه بتنظيم حملة على قراصنة الجزائر . وأبلى جوان فيها بلاء حسنا . وقلده فليب قيادة القوات البرية ضد مغاربة غرناطة ، وأنفذ جوان مهمته دون أن يضيع وقتا أو يسرف فى رأفة . فعينه فليب — وهو بعد فى الرابعة والعشرين — أميرالا أكبر للأساطيل الموحدة فى « الحرب الصليبية الأخيرة » ، وهزم جوان الترك فى ليبانتو ، وغدا بطل العالم المسيحى . هنا شعر بأنه جدير بعرش مملكة ، ولكن شق عليه أن يكتفى فليب بتنصيبه حاكما عاما على الأراضى المنخفضة .

ثم لام الناس الملك الصموت ، الذى كان على الدوام يأبى لكبريائه أن يفسر مسلكه أو يدافع عن نفسه على منبر الرأى العام ، لاموه أشد اللوم على مأساة أخرى . ذلك أنه رقى إلى منصب المستشارية لديه رجلا من عامة الشعب ذكيا أنيقا يدعى أنطونيو بيريز ، وكان الاعتقاد أنه الابن غير الشرعى لأخص أصدقاء فليب وأحوزهم لثقته ، وهو روى جوميز أمير ايبولى . فلما مات جوميز (١٥٧٣) ، أصبح بيريز الصديق الحميم — وربما العشيق [٢٩] — لآنا دى مندوزا ، أميرة ايبولى — الأرملة المغرقة فى الدس . وقيل أن فليب نفسه كان له علاقة بهذه الحسناء العوراء قبل أحد عشر عاما ، ولكن لعل « التاريخ » هنا لفق هذه القصة [٣٠] . وثرمآ بيريز معها بغية الافادة من اطلاعها على أسرار الدولة . فلما هددهما خوان دى اسكوبيدو بأن يفضح نشاطهما المريب ، أقنع بيريز فليب بأن اسكوبيدو يتآمر على خيانته ، وأعطى فليب الأمر باغتيال خوان . واحتفظ بيريز بالأمر ستة أشهر ، ثم نفذه (١٥٧٨) مما أدهش فليب وأربكه . وبعد عام أقنعت أوراق دون خوان النمساوى السرية فليب ببراءة اسكوبيدو ، فقبض على بيريز ، وحبس الأميرة

فى قصرها . واعترف بيريز بجريمته تحت ضـغط التعذيب ، ووافق على أن يرد للخزانة ٠٠٠ ر٠٠٠ ر١٢ مارافيدى . ولكنه فر إلى اراجون بمساعدة زوجته ، وهناك طاردته محكمة التفتيش بتحريض فليب باعتباره مهرطقا . ففر إلى فرنسا ، وعزا اضطهاده إلى غرام فليب بلا ايبولى غراما لم يسله ، وأفشى مواطن ضعف أسبانيا الحربى والمـال لحكومتى فرنسا وانجلتره ، وحرض ايسيكس على الاغارة على السفن والشواطئ الأسبانية . وأخيرا مات بباريس عام ١٦١١ بعد أن حاول عبثا الحصول على عفو فليب الثالث وحمايته (٣١) .

لقد وجد فليب مبررا كافيا لاتباع نصيحة أبيه له بألا يثق بمساعديه. ذلك أن أشراف الأسبان — كالنبلاء الفرنسيين — كانوا غيورين من سلطة الملكية لا يتورعون عن الكيد للملك . ولقد أبقى على خلافاتهم فيما بينهم ، وضرب بعضهم ببعض ، وتلقى تقارير ملخصة عن آرائهم المتعارضة ، ثم اتخذ قرارته . ولما فقد الثقة فى مرءوسيه ، أكبّ بشخصه على دقائق الحكم والإدارة فى كل ميدان — فى السياسة البابوية، والأشغال العامة ، والرذائل المحلية ، والطرق والكبارى ، وتطهير الأنهار للملاحة، وانشاء المكتبات ، واصلاح القانون الأسبانى وجمعه وتنسيقه، والاشراف على مسح جغرافى وتاريخى واحصائى واسع لأسبانيـا ما زالت مجلداته الخمسة عشر ذات القطع الكبير دون نشر (٣٢) . على أن اضطلاعه بأعباء ينوء بها كل كاهل حتى كاهله أفضى به إلى سياسة التسويف والتأجيل ، فقد لاحظ أن كثيرا من المشكلات تفقد إلحاحها أو معناها إذا أجلت عمدا، ولكن مجرى الأحداث فى عدة حالات — كحالة الأراضى المنخفضة — فصل فيها على عكس ما يشتهى بينما هو يزن ما للحلول وما عليها أو يضعها على الرف . وفى مهجعه الملكى كان يملى أو يكتب بيده التعليمات لموظفيه الذين عينهم فى خمس قارات . وقد افترض أن السلطة الملكية يجب أن تكون مطلقة ، وأغفل أو طغى على « الكورتيز » أو المجالس الاقليمية.

إلا فى الأراجون،وأصدر المراسيم — حتى مراسيم الاعدام — دون محاكمة علنية،وهدأ أوتقراطيته باليقين بأن هذا سبيله الأوحد إلى حماية الفقراء من الأغنياء(٣٣).وأنشأ تدريجا وبجهد ، داخل حكمه المستبد ، فى قارة استشرى الفساد فى كل ارجائها تقريبا ، بيروقراطية وقضاء امتازا بالقياس إلى غيرهما بالكفاية والعدل (٣٤) .

كان يحترم الكنيسة باعتبارها المشكل التقليدى للفضيلة والحارس القديم للملوك ، ولكنه أخضع الدين للدولة فى أسبانيا كما فعل هنرى الثامن أو اليزابث الأولى فى انجلترة . وعلق أهمية كبرى على الوحدة الدينية باعتبارها أداة للحكم ، حتى أنه رأى « أنه خير للملك ألا يملك اطلاقا من أن يملك على مهرطقين » .(٣٥) فلما اقتنع بأن المغاربة فى أسبانيا ما زالوا يمارسون شعائر الاسلام برغم تظاهرهم بالكثلكة ، أصدر (١٥٦٧) أمرا عاليا يحرم كل العادات الاسلامية ويحظر استخدام اللغة العربية واقتناء الكتب العربية . وتمرد المغاربة (١٥٦٨)،واستولوا على اقليم كبير جنوبى غرناطة ، وذبحوا المسيحيين ، وعذبوا الكهنة ، وباعوا النساء والأطفال رقيقا للبربر نظير البارود والبنادق . ولكن التمرد أخمد بعد سنتين من الفظائع التى تنافس الفريقان فى ارتكابها . وطرد جميع المغاربة من اقليم غرناطة وشتتوا بين الجماعات المسيحية فى قشتالة ، وأودع أبناؤهم البيوت المسيحية ، وجعل الحضور إلى المدارس اجباريا على جميع الأطفال — وهو أول الزام من نوعه فى أوربا (٣٦) . واشتبه فليب فى أن المغاربة الباقين فى بلنسية وقتلونيا يتآمرون مع العدو ، وكان فى حرب مع الترك ، ولكن كثرة أعبائه أكرهته على أن يترك آخر مراحل المشكلة لخلفه .

وكان أبوه قد خلف له مهمة الدفاع عن العالم المسيحى ضد الإسلام باعتبارها جانبا هاما من سياسة الهابسبورج . ففى عام ١٥٧٠ انضم إلى البندقية والبابوية فى حرب صليبية تنهى سيادة الترك على البحر المتوسط .

وسقطت قبرص فى يد الترك بينما كان فليب يضع الخطط والحلفاء الثلاثة يحشدون أسطولهم . وما وافى عام ١٥٧١ حتى كانوا قد جمعوا فى مسينا ٢٠٨ سفينة شراعية كبيرة و ٠٠٠ ر ٥٠ بحار ، و ٠٠٠ ر ٢٩ جندى ، ورفع فوق مقدم كل سفينة صليب ، ومنحت البركة للرايات ، وارتفعت الصلوات جملة إلى عنان السماء ، وأصدر الاميرال الشاب الملهم الصيحة الصليبية ، والمسيح قائدكم ، أنكم تخوضون معركة الصليب». وفى ١٦ سبتمبر ١٥٧١ أقلع الأسطول وحقق انتصارا قضى على تفوق الترك فى البحر المتوسط . وإذ كانت أسبانيا قد أسهمت بأكثر من نصيبها من السفن والرجال ، فإن بهاء ليبانتو سطع على دون جوان والملك ، وقارب فليب عندها ذروة مجده قبل انحداره . وواتته هذه الذروة حين ورث عرش البرتغال (١٥٨٠) فضم هذا البلد الاستراتيجى إلى ملكه المتعاظم .

أما همه المقيم فكان ثورة الأراضى المنخفضة . فقد علم ساخطا أن أن كولينى ، الزعيم البروتستنتى ، كاد يقنع شارل التاسع بأن فرنسا يجدر بها أن تتحالف مع الثوار . فلما بلغ فليب نبأ مذبحة القديس برتولوميو التى أطلق شارل وحوشها على الهيجونوت طرب له وشدد النكير على الأراضى المنخفضة . فحرض على اغتيال وليم أورنج ودفع أجر الجريمة ، وحاول شراء صداقة هنرى نافار ؛ ولكن هنرى لم يكن ممن تشترى صداقتهم بالمال . ومن ثم اشترى فليب آل جيز والحلف الكاثوليكى ؛ وحلم بجعل ابنته ملكة على فرنسا ، وعندها تتحالف قوى أسبانيا وفرنسا فتخضعان الأراضى المنخفضة ، وتنصبان مارى ستيوارت ملكة على انجلتره ، وتقطعان دابر البروتستنتية من كل مكان . فلما أرسلت اليزابث المعونة لهولندة (١٥٨٥) ؛ وشيعت مارى إلى آخرتها (١٥٨٧) ، وبعد سنين صبر فيها فليب وصابر على الغارات التى شنها قراصنة اليزابث على سفن أسبانيا وشواطئها وكنوزها . جنح آخر الأمر إلى الحرب ، فخرب مالية حكومته ليمول الأرمادا . وساندت أسبانيا كلها هذا الجهد وصلت من أجل النصر ، شاعرة بأن مصير الأسطول سيفصل فى تاريخ أوربا .

وتجلد فليب فى ظاهر الأمر لذل الكارثة وعارها ، وقال انه أرسل سفنه لتقاتل البشر لا الأنواء . ولكن الهزيمة حطمت روحه وكادت تحطم أسبانيا ، هذا برغم أنه عاش بعدها وقاتل عشر سنوات أخرى ، وأن أسبانيا استغرقت قرنا حتى سلمت بخرابها . إنه لم يستطع أن يصدق أن الله تخلى عنه بعد ثلاثين عاما من الكفاح فى سبيل الإيمان ، ولكن لا بد أن هذه الحقيقة الكئيبة طالعته فى النهـــاية ، وهى أنه بعد أن أفقر شعبه بالضرائب ، أخفق فى كل شىء إلا فى اكتسابه البرتغال بمحض الصدفة ، ورده الترك مؤقتا — وكانوا قد استولوا من جديد على تونس وأخذوا يستردون سطوتهم . لقد كان هنرى الرابع يسير إلى النصر فى فرنسا ؛ والأراضى المنخفضة فى ثورة لا سبيل إلى التصالح فيها ؛ وأبى البابا أن يتحمل فلسا من نفقات الأرمادا ؛ وقبضت البروتستنتية على ناصية الشمال الغنى ، وأخذت إنجلترة تهيمن على البحار ومن ثم على أمريكا والشرق بعد قليل ، أما تلك السليطة البزابث ، فهى متربعة على عرشها المنيع وسط المياه ظافرة بعد أن تفوقت على كل ملوك عصرها فطنة ودهاء .

واصطلح على الملك الثكل ، والعزلة ، والمرض — اصطلحت عليه كلها لتذله بعد عز وتوهن من اعتداده بنفسه . كانت زوجته الرابعة قد ماتت عام ١٥٨٠ ، ولم يبق على قيد الحيـــاة من الأطفال الثلاثة الذين أنجبتهم غير غلام قليل الكفاية لا بد أن يورث أول امبراطورية لا تغرب الشمس فوق رقعتها . ان الشعب ما زال يحمل لفليب الاجلال برغم أخطائه وهزائمه ، فهو مقتنع بأنه ناضل من أجل قضية مقدسة ، وأنه لعب لعبة القوة دون أن يفوق أعداءه تحللا من مبادئ الشرف ، وهو صابر فى غير لوم على الشقاء الذى أوقعته فيه سياساته الاقتصادية ونظام ضرائبه وهزائمه . وقد أصاب أطرافه بالآلام المبرحة فى شيخوخته ، وأعجزه بالشلل ، ذلك النقرس الذى كان آخر تركة ورثها عن أبيه ، وخيمت على احدى عينيه سحابة من السد ، وشوهت جلده القرح المنفرة .

وفى يونيو ١٥٩٨ حمل على محفة إلى الاسكوريال ، إلى غرفته الأثيرة التى يستطيع خلال نافذتها أن يتطلع إلى مذبح الكنيسة المرتفع . وظل ثلاثة وخمسين يوما يبلى جسده فى فراشه ، محتملا كل شىء وهو واثق أنه امتحان الأله لإيمانه ، محتفظا بذلك الإيمان إلى النهاية الرهيبة ، متشبثا بصليب لا يفتأ يلثمه مرددا الصلوات المرة بعد المرة . وأمر بالافراج عن السجناء ليكون ذلك آخر عمل من أعمال الرأفة . وأرسل فى طلب ابنه ، وأوصاه بالرأفة والانصاف ما دام حيا ، وأمره بأن يعتبر بالخاتمة المهينة التى تنتهى إليها القوة الدنيوية . ثم انتهى عذابه فى ١٣ سبتمبر ١٥٩٨ .

لقد بذل قصاراه بعقل غلت التربية فى تقييده ، عقل أضيق من أن يسع امبراطوريته ، وأصلب من أن يطوع نفسه لتبعاته المنوعة . وليس فى مقدورنا أن نعرف هل كان إيمانه زائفا ؛ وكل ما نشعر به أنه إيمان متعصب قاس ككل إيمان فى عصره تقريبا ، وأنه أظلم عقله وشعبه بينما واسى فقر هذا الشعب وسند كبرياء الملك . ولكن فليب لم يكن الغول الذى صورته أقلام خصومه المشبوبة . فقد كان — على قدر ما أوتى من بصيرة — لا يقل فى عدله وسماحته عن أى حاكم فى قرنه إلا هنرى الرابع . وكان مهذبا فى حياته الزوجية ، محبا لأسرته محبوبا منها ، صابرا على الاستفزاز ، شجاعا فى الشدة ، مخلصا فى الجهد . لقد دفع إلى التمام ثمن تركته الغنية المهلكة .

٣ — فليب الثالث : ١٥٩٨ — ١٦٢١

أما وريثه فكان فليبا آخر يختلف كل الاختلاف عن أبيه . لقد حزن أبوه حين رأى تراخى الفتى وقصر نظره قائلا « ان الله الذى رزقنى هذا الملك العريض لم يرزقنى ولدا يصلح لحكمه(٢٧) » كان فليب الثالث ، الذى بلغ العشرين الآن ، أتقى حتى من أبيه ، فترددت الشائعات فى رميه بأى خطيئة ولو عارضة . ولما كان خجولا وديعا ، شديد العجز عن القيادة ، فقد أسلم كل سلطات الحكم ومتطلباته إلى فرانشسكو جومز دى ساندوفال أى روجاس ، دوق ليرما .

أما الدوق فكان فيه شيء من البر بالناس ، لأنه رقى كل أقاربه تقريبا إلى المناصب الدسمة ، ولم يغفل ذاته فى بره ، ففى العشرين سنة التى رأس فيها الوزارة جمع ثروة طائلة قدرها الشعب المغيظ بمبلغ ٤٤,٠٠٠,٠٠٠ دوكاتية[٣٨] ، وهو رقم يستحيل تصديقه . وقد وفر للخزانة من المال ما يكفى لتجهيز أسطولين ضخمين ضد إنجلتره (١٥٩٩ و ١٦٠١) ، ولكن كليهما حطمته الأنواء العاتية . وكان للبرما من الحصافة ما جعله يرحب بعروض السلام التى قدمها جيمس الأول ، وهكذا أبرمت أسبانيا وإنجلترة صلح لندن (١٦٠٤) بعد تسعة عشر عاما من الحرب . أما الحرب فى الأراضى المنخفضة فاستمرت ، واستنزفت الذهب من أسبانيا بأسرع من وصوله إليها من أمريكا ، ووجد لبرما أنه ليس فى طاقته أن يشبع من موارد بلد مرهق حاجات قواده المعوّقين ، وجيبه الخاص . وإذا أدرك أنه لم يعد هناك جدوى من بذل مزيد من الجهود لرفض منح « الأقاليم المتحدة » استقلالها ، فقد وقع معها هدنة تمتد اثنى عشر عاما (١٦٠٩) .

ولكن مشروعه التالى كان لا يقل تكلفة عن الحرب . كان مسقط رأسه بلنسية ، حيث يعيش ثلاثون ألفا من أسر المغاربة ، وكان فيه من التقوى ما يكفى لتبغيضه فى هؤلاء المزارعين والصناع الذين كان لجدهم واقتصادهم الفضل فى احتفاظهم باليسر وسط فقر المسيحيين المستكبر العاجز . وكان يعلم أن هؤلاء المسلمين المتنصرين قد احتفظوا — بدافع من سخطهم لاضطهاد فليب الثانى لهم — باتصالات خائنة مع مسلمى أفريقيا وتركيا ، ومع هنرى الرابع ملك فرنسا ، الذى أمل أن يفجر الثورات فى أسبانيا فى الوقت المناسب[٣٩] . ورأى أنه ليس من الوطنية فى شيء أن يعاف المغاربة الخمر ويزهدوا فى أكل اللحم ، فنتيجة هذا أن يقع عبء الضرائب المفروضة على هذه السلع ، كله تقريبا ، على كواهل المسيحيين من الأسبان . وأعرب سرفانتس عن الخوف من أن هؤلاء المغاربة الذين ارتفعت نسبة المواليد فيهم عنها فى « المسيحيين القدامى » لندرة العزوبة عندهم ، سيسودون

أسبانيا عما قليل (٤٠) ؛ وقدم خوان دى ريبيرا رئيس أساقفة بلنسية المذكرات إلى فليب الثالث (١٦٠٢) يحضه فيها على طرد جميع المغاربة الذين تزيد أعمارهم على السابعة ، وقال فى تفسيره للكوارث التى نزلت بأسبانيا ، بما فيها تدمير الأرمادا ، إنها عقوبات أنزلها الإله لإيوائها الكفار ، فهؤلاء المسيحيون المزيفون يجب ترحيلهم ، أو ارسالهم لسفن العبيد ، أو شحنهم بالمراكب إلى أمريكا ليشتغلوا عبيدا فى المناجم (*) (٤١) . وبرغم تحذيرات البابا ، وبرغم احتجاجات ملاك الأراضى الذين كانوا ينتفعون من مستأجريهم المغاربة ، أصدر ليرما (١٦٠٩) مرسوما أمر به جميع مسلمى اقليم بلنسية — مع بعض الاستثناءات — بأن يستقلوا خلال ثلاثة أيام مراكب أعدت لهم لينقلوا إلى أفريقيا ، غير حاملين معهم من المتاع أكثر مما تطيقه ظهورهم . وتكررت الآن المناظر التى رافقت طرد اليهود قبل ١١٧ عاما . وأكرهت الأسر البائسة على بيع أملاكها بخسائر فادحة ، وساروا إلى الموانئ يتعثرون فى شقائهم ، وسرق الكثيرون منهم ، وقتل البعض ، فى طريقهم إلى السفن أو وهم على ظهورها . فلما وصلوا إلى أفريقيا تهللوا لبلوغهم أرضا مسلمة ، ولكن ثلثيهم هلكوا جوعا أو قتلوا باعتبارهم مسيحيين (٤٢) . وفى شتاء ١٦٠٩ — ١٠ أجلت حركات طرد أخرى من بقى من المغاربة فى غير بلنسية ، وهكذا نزعت أملاك ٤٠٠,٠٠٠ من أكثر أهل أسبانيا انتاجا وأقصوا عن البلاد. وكان هذا فى أعين الشعب أمجد منجزات الحكم ، وتطلع الأسبان السذج إلى عهد أكثر رخاء، بعد أن استرضوا الإله بتخليص أسبانيا من الكفار. واغتبطت الحاشية بالحصيلة التى تجمعت من مصادرة أملاك المغاربة، فكان نصيب ليرما منها ٢٥٠,٠٠٠ دوكاتية ، ونصيب ابنه ١٠٠,٠٠٠ ، ونصيب ابنته وصهره ١٥٠,٠٠٠ (٤٣) .

(*) أدخل خوان دى ريبيرا فى زمرة القديسين عام ١٩٦٠ .

وما حلت سنة ١٦١٨ حتى كان جشع ليرما وأهماله ، وأسراف الملك وحاشيته ، وفساد الموظفين ، وتمزق الاقتصاد بخروج المغاربة ، قد هبط بأسبانيا إلى درك نبه حتى هذا الملك الخامل إلى ضرورة التغيير . وفى فورة من فورات العزيمة طرد ليرما (١٦١٨) ، ولكن ليقبل ابنه — الدوق أو سيدا — رئيسا لوزرائه . واعتزل ليرما فى لباقة ، وتقبل قبعة الكردينالية وعاش سبع سنين أخر رافلا فى حلل التقوى والثراء . وفى عام ١٦٢١ أنذر مجلس قشتاله الملك بأن ملكه « فى طريقه إلى الافلاس والدمار لفداحة الأعباء والضرائب والرسوم » (٤٤) ، وتوسل إليه أن يعتدل فى نفقاته . فتقبل النصيحة ولكنه مضى يسلك مسلكا ملكيا مترف الجهاز والصيانة . فى هذه السنة بعينها مات مخلفا لولده ملكا عريضا لاحول له ولا قوة ، وحكومة فاسدة لا كفاية فيها ، وشعبا هوى إلى درك الفاقة والتسول والسرقة ، وطبقة استنكفت من أن تؤدى ضرائبها ، وكنيسة خنقت فكر الشعب وحطمت ارادته وأحالت خرافاته أكداسا من الذهب .

٤ — فليب الرابع : ١٦٢١ — ٦٥

خالف الولد أباه فى كل شىء إلا الإسراف . ونحن نعرفه ظاهرا من الصور الكثيرة التى رسمها له فيلاسكويز ، ففى متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك يطالعنا وهو بعد فى التاسعة عشرة (١٦٢٤) ، فتى وسيما أشقر الشعر متفتحا للحياة ، وفى متحف الصور الأهلى بلندن نراه مرحا واثقا بنفسه فى السابعة والعشرين ، ثم بدينا وقورا فى الخمسين ، وفى البرادو نراه فى خمس مراحل بين البهاء والانحلال ، كذلك نرى صوره فى فلورنسة ، وتورين ، وفينا ، وسنسناتى — لا بد أن هذا الرجل أنفق نصف حياته فى مرسم فيلاسكويز . ولكن هذه اللوحات لا تكشف إلا عن ملامحه الرسمية ، فهو لم يكن فى حقيقته بهذه الرزانة والكبرياء ، وقد نكون أكثر انصافا فى تصوره إذا تأملنا أطفاله فى لوحات فيلاسكويز ، وأغلب الظن أنه أحبهم حبا يفوق العقل كما نحب أطفالنا . كان فى صميمه رجلا

لطيفا ، كريما مع الفنانين والمؤلفين والنساء ؛ لا نصف قديس كأبيه ؛ بل مستمتعا بالطعام ، والجنس ، والتمثيليات ، والصور ؛ وحياة البلاط ، والصيد ، عازما على أن ينهل من الحياة ما استطاع حتى فى بلد محتضر كأسبانيا .

ولعل استطابته الخالصة للحياة هى صاحبة الفضل فى ازدهار الشعر والدراما؛ والتصوير والنحت ، فى عهده ازدهارا لم تشهد أسبانيا له نظيرا من قبل ولا من بعد . كان إذا بدت للذاته مشتطة فى فوضاها استكثر من الصلوات ؛واعتمد على نياته الطيبة فى أن تعبد له الطريق إلى السماء . أنجب من الأطفال غير الشرعيين اثنين وثلاثين ، اعترف منهم بثمانية [٤٥] . وإذ لم يكن فى وقته متسع لشئون الحكم ، فقد فوض بسلطاته وواجباته رجلا من أبرز الشخصيات فى دبلوماسية القرن السابع عشر .

هذا الرجل — الدوق جاسبار دى جوزمان ، كونت أوليفاريس — جرت حياته موازية ومعارضة لحياة ريشليو . فقد لعب هذا الـكونت العظيم مع الكردينال الداهية ، طوال واحد وعشرين عاما (١٦٢١—٤٢)، لعبة دامية من الذكاء والحرب للتسيد على أوربا . وقد أطلعنا فيلاسكويز على شخصية أوليفاريس—رجل خلا من الخوف والملامة ، فيه كل عدوان القوة ، تلتف شواربه الكبيرة المشذبة كأنها سيف معقوف رهيب ، وعباءات منصبه وأحزمته وسلاسله ومفاتيحه تنطق بالسلطة [٤٦] . أما العيوب التى شابت خلقه ، وهى الغطرسة والنزق والعناد الشديد ، فقد أقصت عنه كل الناس إلا من خبروا أيضا غيرته المتفانية ؛ وعكوفه الشديد على خدمة أسبانيا . وأمانته الصريحة فى بيئة فاسدة ، واحتقاره للذات الدنيا إلا أن تـكون سبيلا لإرباك الملك ، وقصده فى الطعـام وبساطة حياته الخاصة ؛ ومساندته الحارة للآداب والفنون . وقد ناضل مخلصا للتخفيف من الرذائل ، ولوقف الرشوة ، ولرد الأموال المختلسة إلى الخزانة ، وللتقليل من نفقات بلاط الملك ، ولفرض الاقتصاد والاعتدال

فى اللباس والأثاث ، وحتى للحد من قسوة محكمة التفتيش. اضطلع بكل أعباء الحكم ، والسياسة ، والدبلوماسية ، والحرب ، فكان يبدأ مهام يومه قبل طلوع الفجر ويواصلها حتى بعد أن يخر إعياء . وكانت اللعنة التى ابتلى بها ما عمد إليه ريشليو — بمثل هذا التفانى — من استنزاف لقوة الهابسبورج فى النمسا وأسبانيا فى بطء ، ودهاء،وعناد. وقد اقتضى لقاء هذا التحدى الرهيب وجود الجيوش فى قتلونيا والبرتغال وفرنسا ونابلى ومانتوا والممرات الفالتلينية والأراضى المنخفضة، وفى بالوعة حرب الثلاثين سنة الشاسعة الدامية . ولكن الجيوش تحتاج إلى المال ، والمال يتطلب فرض الضرائب . لذلك رفع « القبالة » أى ضريبة البيوع إلى ١٤ ٪ ، فاختنقت التجارة ؛ وكان الجباة يختلسون ثلثى الضرائب قبل أن يصل باقيها إلى الخزانة . وهكذا أوهن أوليفاريس،بعزيمة وطنية، اقتصاد أسبانيا لينقذ سطوتها السياسية .

وليس حتما أن نتتبع كل تحركات لعبة الشطرنج الدامية هذه ، فهى لا تضيف شيئا إلى معرفتنا أو تقديرنا للبشرية . لقد كانت صراعا بين القوة لا بين المبادئ ، صراعا يغفل فيه كل طرف مذهبه فى سبيل الانتصار العسكرى ، فترى ريشليو يمول الجيش البروتستنتية فى ألمانيا ضد النمسا الكاثوليكية ؛ وأوليفاريس يبعث ٣٠٠,٠٠٠ دوكاتية كل سنة للدوق روهان ليطيل أمد ثورة الهيجونوت فى فرنسا (٤٧) . وتحطمت أسبانيا فى النهاية ؛ فقضى الهولنديون على قوتها فى البحر فى معركة داونز (١٦٣٩). وقضى الفرنسيون على قوتها فى البر فى روسيون(١٦٤٢) وروكروا (١٦٤٣) وانتهزت البرتغال وقتالونيا فرصة ضعف أسبانيا فانتزعتا حريتهما(١٦٤٠)، وخاضت جمهورية قتلونيا الحرب ضد قشتالة مدى تسعة عشر عاما بمعونة فرنسا . وأخيرا طرد الملك اللطيف وزيره على كره بعد أن كان محل ثقته خلال عشرات الكوارث (١٦٤٣) . وفر أوليفاريس من مدريد المتاوئة إلى منفاه الاختيارى فى تورو البعيدة ، وهناك مات مخبولا بعد سنتين .

واضطلع فليب بالمهمة شخصيا إلى حين . فخفض نفقاته وكرس نفسه مخلصا للحكم . غير أن أسباب اضمحلال أسبانيا كانت فوق ادراكه أو سيطرته . واستمرت الحرب، ولم تخفف الضرائب ، وتناقص الإنتاج، وتقلص السكان . وفى صلح وستفاليا (١٦٤٨) كانت أسبانيا عاجزة ، فاضطرت إلى النزول عن الاستقلال للأقاليم المتحدة ، بعد حرب عقيمة امتدت قرابة قرن من الزمان . وختم صلح البرانس (١٦٥٩) بخاتمه مصدقا على السيادة الفرنسية فى أوربا . وسط هذه النكبات ماتت ازابيللا البوربونية زوجة فليب الوفية الصابرة (١٦٤٤) ، ولحق بها بعد عامين ولدها الوحيد الباقى على قيد الحياة ، دون بالتازار كارلوس ، الذى صوره فيلاسكويز بأسلوب خلاب . ولم يبق للملك غير طفلة شرعية واحدة هى ماريا تريزا ، التى زوجها للويس الرابع عشر . وإذ كان فليب تواقا لوريث للملكه فقد تزوج (١٦٤٩) وهو فى الرابعة والأربعين ابنة أخ لا تتجاوز الرابعة عشر ربيعا ، هى ماريانا النمساوية التى كانت مخطوبة لبالتازار ، فمنحته ولدين : فليب ابروسبر الذى مات فى الرابعة ، وولدا آخر أصبح فيما بعد كارلوس سيجوندو (شارل الثانى) . أما الملك المرهق ، الذى هد قواه حصى المرارة ، وأوهنه نزف البواسير ، ولم يكف عن مطاردته الرهبان المتجرون بالسحر ، فقد استسلم للموت (١٦٦٥) تعزيه فكرة وجود وريث له ، ولكنه أعفى من العلم بأن ولده نصف الأبله هذا سيوصى بملك أسبانيا كله لفرنسا .

٥ — البرتغال : ١٥٥٧ — ١٦٦٨

تميزت هذه السنوات بثلاثة أحداث فى البرتغال . فقدت استقلالها ، ثم استردته ، وكتب كاموئنش « اللوسياد » .

لقد شاركت أسبانيا نشوة التوسع وشراسة العقيدة ، ثم سبقتها إلى الاضمحلال . وكان من أثر سرعة تطورها الاستعمارى أنها استنزفت وراء البحار أكثر أبنائها مغامرة ، وأهملت الزراعة أو ترك أمرها للعبيد

الخائرى الهمة ، وفاحت فى لشبونة رائحة المرتشين ، والتجار الجشعين ، والعمال المفلسين ، وكلهم يعيش فى النهاية على الاستغلال الامبريالى أو التجارة الخارجية . واقترح الملك الشاب سباستيان ، الذى ألهمه اليسوعيون الحماسة الدينية ، على ابن عمته فليب الثانى الاشتراك فى فتح المغرب وتنصيرها . ولكن فليب تردد لكثرة شواغله ، فاقترح سباستيان أن يضطلع بالمغامرة منفردا ، وحذره فليب من قصور موارد البرتغال عن انفاذ هذه الحملة ، فلما أصر سباستيان قال فليب لمجلسه ، « لو كسب الحرب أصبح لنا صهرا مفلحا ، ولو خسرها آل الينا ملك حسن[٤٨] » وغزا سباستيان المغرب فغلب على أمره وقتل (١٥٧٨) فى معركة القصر الكبير . ولم يعقب سباستيان وريثا لأنه كان أعزب وفيا لعزوبته ، فولى العرش عمه الأكبر الكردينال هنرى ، ولكن هنرى نفسه مات دون عقب عام ١٢٨٠ ، فانتهت بذلك أسرة أفيز التى حكمت البرتغال منذ عام ١٣٨٥ .

هنا واتت فليب الفرصة التى ترقبها . وكان هو وفيليبرت امانويل أمير سافوا الوريثين المباشرين للعرش الخالى باعتبارهما حفيدى مانويل ملك البرتغال . واعترف مجلس لشبونة بفليب وريثا ، وقاوم بعض المطالبين بالعرش من منافسيه دخوله ، ولكن ألفا الجبار انتصر عليهم ، وفى عام ١٥٨١ دخل فليب الثانى لشبونة باسم فليب الأول ملك البرتغال . وحاول بالمجاملات والرشا أن يكسب صداقة الأمة . فنهى جيشه عن نهب الريف ، وشنق الدوق ألفا من جنوده جزاء جرائم كهذه عددا كبيرا خشى معه نقصا فى الحبال ، ووعد فليب بابقاء الأملاك البرتغالية فى يد حكام من البرتغال ، وبعدم تعيين أى أسبانى فى منصب بالبرتغال ، وبصون امتيازات الشعب وحرياته . وأوفت أسبانيا بهذه العهود ما دام فليب حيا . وهكذا ورث فليب بسهولة مذهلة البحرية البرتغالية ومستعمرات البرتغال فى أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية . وزال خط الحدود القديم الذى وسمه

البابا ليفصل الممتلكات الأسبانية عن البرتغالية ، واستعد أقوى ملوك أوربا ، الذى ازداد الآن قوة على قوة ، لتدمير نفسه بغزو إنجلترة .

وبينما كانت إمبراطورية البرتغال تؤول إلى أسبانيا والهولنديين ، كان اعظم شعرائها يتغنى بأمجاد فتوحها. هنا أيضا تقوم حواجز القومية واللغة سدا منيعا أمام رغبتنا فى الفهم . فأنى لقوم لم يربوا على التاريخ البرتغالى ، ولا أحسوا بمعنى الكلام البرتغالى وموسيقاه ، أن ينصفوا لويز فاز دى كاموئز — المعروف لنا باسم كاموئنش ويوفوه حقه من التقدير .

لقد عاش أغنيته قبل أن يكتبها ، كان أحد أجداده جنديا شاعرا مثله ، وجدته قريبة لفاسكودا جاما بطل اللوسياد ، أما أبوه ، القبطان الفقير ، فقد تحطمت سفينته قرب جنوه ومات هناك عقب مولد لويز فى لشبونه أو كويمبرا . والراجح أن الفتى درس فى الجامعة ، لأن قصيدته تصدح بأصداء كاتللوس وفيرجل وهوراس وأوفيد . وبدأت تجربته العاطفية فى إحدى الكنائس ، فى لحظة تعبد ، إذ تراءت له حسناء « لها وجه ناصع البياض كالثلج ، وشعر فى صفرة الذهب » ، فتحرك فيه هاتف الشعر . ولا بد أن بعض شعره ساء القصر ، إذ أنه نفى إلى قرية على أعلى نهر تاجه ، وهناك حلم بملحمة « تزيد البرتغال فخرا ، وتثير حسد أزمير مسقط رأس هومر[٤٩] » . ولكن الحكومة التى لم تقدر شعره أرسلته إلى المنفى ، أو إلى الخدمة العسكرية فى سيته ؛ وهناك فقد احدى عينيه فى معركة أو عراك ، ولما عاد إلى لشبونه دافع عن بعض أصحابه فى مشاجرة ، وطعن رجلا من الحاشية ، فزجوه فى السجن ثمانية أشهر ، ثم أفرج عنه فى أغلب الظن بعد تعهده بالانخراط فى سلك الجندية خارج البرتغال . وفى ٢٦ مارس ١٥٥٣ أبحر إلى الهند جنديا عاديا على سفينة أمير الأسطول فرناو ألفاريس كابرال ، وكان يومها فى التاسعة والعشرين من عمره .

واحتمل ضجر الليالى الرطبة فى الرحلة التى استغرقت نصف عام بنظم

القسمين الأولين من اللوسياد . وفى سبتمبر رست السفينة على جوا ، وهى « سدوم » البرتغالية فى الهند . واشترك فى حملات كثيرة . على ساحل ملبار وتجاه شواطىء جزيرة العرب ، وفى ممبسة ، وفى جزر الهند الشرقية ، فى مكاو ، « سدوم » البرتغالية فى الصين ؛ وهو يصف نفسه ملوحاً بالسيف فى يد ، وبالقلم فى الأخرى ، ولقبه رفاقه بـ « ترنكافورتيس » — أى المتفاخر الطائش — ولعلهم احترموا سيفه أكثر من قلمه . وفى مكاو إلى اليوم غار يرى للزائرين على أنه المكان الذى كتب فيه كاموئنش بعض قصيدته . وتروى قصة غير مؤكدة أنه أعيد من مكاو فى الأغلال بعد أن قبض عليه لأسباب لا نعرفها . وتذكر قصة أخرى (جردته من أغلاله) كيف تحطمت سفينته تجاه ساحل كمبوديا فسبح لويز إلى الشاطىء وملحمته بين أسنانه [٥٠] . على أنه فقد فى غرق السفينة خليلته الصينية المحبوبة . وبعد أشهر من الشقاء وجد طريقه إلى جوا ، ولكنه طرح فى السجن هناك . وأفرج عنه ، ثم ردّ إلى السجن بسبب الدين هذه المرة . وأطلق حاكم صديق سراحه ، واستطاع الشاعر أن يستمتع برهة وجيزة بالحياة وبشتى الخليلات من كل لون . وفى عام ١٥٦٧ اقترض بعض المال واستقل مركباً إلى البرتغال ، ونفدت نقوده فى موزمبيق ، فتسكع فى الفاقة عامين . ودفع بعض الأصدقاء العابرين ديونه وأجرة سفره وعادوا به لشبونة آخر المطاف (١٦٧٠) ، وهو لا يملك من حطام الدنيا غير قصيدته . وأجرى عليه الملك سباستيان معاشاً متواضعاً . وأخيراً وصلت القصيدة إلى المطبعة (١٥٧٢) ، وأتيح لكاموئنش أن يعيش فى الفقر مع السلامة ثمانى سنوات . ومات فى لشبونة عام ١٥٨٠ ، ودفن مع غيره من ضحايا الطاعون فى مقبرة مشتركة . وتحتفل البرتغال بذكراه فى ١٠ يونيو ، وهو يوم عطلة تذكارية ، وتعتز بقصيدته « أوس لوسيادس » ملحمة قومية ، وعنوانها معناه « البرتغاليون » وقد أخذ كاموئنش لفظ لوسيا من الاسم الرومانى القديم للجزء الغربى من أسبانيا وهو لوزيتانيا .

أما القصة الكثيرة التلاقيف فتدور حول رحلة فاسكو داجاما التاريخية (١٤٩٧ — ٩٩) من البرتغال إلى الهند دورانا حول رأس الرجاء الصالح. وقد استهلها الشاعر بدعاء للملك سباستيان و « حوريات نهر تاجه » . ثم تمضى القصة مع أسطول داجاما صعدا على الشاطىء الشرقى لأفريقيا . ويرى الشاعر لزاماً عليه أن يقلد هومر وفيرجل ، فتراه يصـــور اجتماعاً الأرباب يتناقشون فيه حول البعثة ، وهل يسمحون لها بالوصول إلى الهند ؟ أما باخوس فيقول لا ، ويؤلب مسلمى موزمبيق ليهاجموا البرتغال ، الذين يرسون على البر بحثاً عن الماء . وأما فينوس فتتشفع للملاحين عند جوبيتر . ويرد المغاربة على أعقابهم ، ويأمر جوبيتر داجاما بالمضى قدماً . ويرسو الأسطول على شاطىء كينيا فيستقبله الأهالى بالترحاب . ويسلك الملك الوطنى وفق خطة الشاعر ، فيطلب إلى فاسكو أن يقص عليه تاريخ البرتغال . وبعد لأى يستجيب أمير البحر للطلب ، فيروى مأساة اينيس دى كاسترو ، ويصف معركة أجبروتة الحاسمة (١٣٨٥) ، حيث انتزع البرتغال أولا حريتهم من أسبانيا ، ويختم بإقلاع بعثته هو من لشبونة . وبينما يعبر هؤلاء المغامرون الجدد المحيط الهندى يبتليهم باخوس وتبتون بعاصفة هوجاء ، وهنا يرى الشاعر الذى جاز بمثل هذه العاصفة ، متجلياً فى وصف مثير . ولكن فينوس تهدىء ثائرة الأمواج ، ويصل الأسطول ظافراً إلى كاليكوت .

وفى رحلة العودة تعد فينوس وابنها كيوبيد وليمة للبحارة الذين نال منهم التعب ، فتخرج بأمرها « ناريدات » حسان من البحر ، يكدسن موائد القصر بأطايب الطعام والزهر ، ويذهبن تعب البحارة بالطعام والشراب والحب :

« أى قبل جائعة تلك التى تبودلت فى الغابة ! وأى صوت رقيق علا بالشكوى الحنون ! أى عناق لذيذ ، وكم من طبع حيى غضوب تحول تحولا لطيفاً بفضل هذا اللهو المرح ! لقـــد ظلوا من مطلع الفجر حتى

الظهيرة ينهلون من هـذه المتع التى أجنجبت فينوس لهيبها ، والتى يؤثر الرجال ارتشافها على ذمها ، بل يؤثرون ذم الذين لا يستطيعون تذوقها (٥١) » .

ومخافة أن يشكو بعض البرتغاليين من أن فى هذه الأبيات إهانة لمبدأ الزواج بامرأة واحدة أكد لنا كاموئنش أن هذا الغرام ليس إلا رمزاً، وأن الحوريات « لسن إلا جوائز . . . ترفع بها الحياة وتهذب » (٥٢) أياً كان الأمر ، فإن البحارة يتعثرون رمزيا عائدين إلى سفنهم ، ويجد الأسطول طريقه عوداً إلى لشبونة . وتختتم القصيدة بتوسل إلى الملك أن يحسن جزاء الكفايات أينما كانت ، وليس أقلها جدارة بالمكافأة هذه الأغنية الوطنية .

ويستطيع القارئ الأجنبى ، ولو خلال ضباب الترجمة ، أن يشعر بما فى هذه القصيدة الرائعة من موسيقى رقراقة ونشوات غنائية ، ويحس بالدم الدافئ الذى يجرى فى عروق جندى شاعر ينقل لنا صلابة البرتغاليين وتاريخهم الحافل بالمغامرات فى أيام التوسع تلك : ويروى أن تاسو قال إن كاموئنش هو الشاعر المعاصر الوحيد الذى لا يقيس نفسه به قياس المطمئن الواثق ؛ وقد فضل لوبى دى فيجا القصيدة على الإلياذة والأنياده ، يوم لم يكن بين الأسبانيه والبرتقالية ما بينهما الآن من بون ساشع (٥٣) . واليوم تعد القصيدة رباط وحدة ، وراية فخر ورجاء ، أينما نطق الناطقون بلغة كاموئنش — فى لشبونة الجميلة ، وفى جوا ومكاو المنحطتين ، وفى البرازيل النشيطة ، المتفتحة ، الرخية .

وروى أن كاموئنش قال حين نمى إليه استيلاء فليب على البرتغال ، وكانت هذه آخر كلماته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة « لقد أحببت وطنى حباً يجعلنى أموت معه . (٥٤) » لقد سارت أمور هذا الوطن الأسير سيراً لا بأس به فى حياة فليب ، ولكن خلفاءه حنثوا بعهوده . واقترح

أوليفاريس توحيد الأمتين واللغتين ، واستولت أسبانيا على معظم المكاسب التى غلتها مستعمرات البرتغال وتجارتها ، أما الإنجليز والهولنديون ، الذين كانوا فى حرب مع أسبانيا ، فقد أسروا البرتغاليين ، كما أسروا الأسبان ، أو نهبوا ممتلكاتهم وأسواقهم وأساطيلهم . وملأ الأسبان المناصب البرتغالية ، وملأ الكنسيون الأسبان الكراسي الدينية البرتغالية ، وألقت محكمة التفتيش حجاباً كثيفاً على الأدب والفكر البرتغاليين .

وكان سخط الشعب يزداد كلما هبط الدخل القومى ، حتى انتهى الأمر بأن قاد الأشراف والأكليروس الأمة المحنقة إلى الثورة . وأعلن الوطنيون بتشجيع من إنجلتره وريشليو ، يوحنا دوق براجانزا ملكا على البرتغال (١٦٤٠) . وأرسلت فرنسا والهولنديون أساطيل إلى نهر تاجه لتحمى البرتغال ، وتعهدت فرنسا بألا تعقد صلحاً مع أسبانيا مالم تعترف باستقلال البرتغال . وكانت الحرب الخارجية قد أرهقت أسبانيا إلى حد أعجزها عن تدبير المال أو الرجال لقمع انتفاضة جارتها ، ولكن حين خفت الضغوط الأخرى عليها ، جردت على الحكومة الجديدة جيشين عدتهما ٣٥,٠٠٠ مقاتل (١٦٦١) . ولم يكن فى طاقة البرتغال أن تحشد أكثر من ١٣,٠٠٠ جندى ، ولكن تشارلز الثانى ملك إنجلتره أرسل إلى البرتغال قوة يقودها القائد الألمعى فريدريك شومبيرج ، وذلك لقاء عروس هى كاترين أميرة براجانزا ، ولقاء مهر أجمل من العروس ، ومعاهدة رابحة تبيح التجارة الحرة مع الموانىء البرتغالية فى جميع القارات . وهزم الغزاة الأسبان فى أيفورا (١٦٦٣) ومونتس كارلوس (١٦٦٥) ، وفى عام ١٦٦٨ اعترفت أسبانيا المنهوكة القوى باستقلال البرتغال .

الفصل الحادي عشر

العصر الذهبي للأدب الأسباني

١٥٥٦ — ١٦٦٥

---

١ — السيجلو دى أورو (القرن الذهبي)

كتب سرفانتس عام ١٥٨٤ يقول « ما أكثر العباقرة الملهمين الذين يعيشون اليوم فى وطننا أسبانيا ». [١] وأغلب الظن أنه هو ، دون سواه، الذى عرف أنه أعظمهم ، ولم يكن بعد قد ألف « دون كخوته » (١٦٠٤) فحين وافى هذا التاريخ فيما بعد كان « القرن الذهبى » (١٥٦٠ — ١٦٦٠) قد بلغ شأوه وتألق بكل سنائه ومجده .

ترى ما الذى أطلق هذا التفجر الثقافى ، هذا الحشد الرائع من نجوم الأدب والفن؟ لعله انتصارات أسبانيا فى ميادين السياسة والاقتصاد والدين — فتح الأمريكتين واستغلالهما ، وقوة أسبانيا ومكاسبها فى إيطاليا، والأراضى المنخفضة ، والبرتغال ، والهند ، والنصر على المسلمين فى أسبانيا والترك فى ليبانتو . ونحن لا نستطيع اليوم ، لما بيننا وبين أزمات الروح الأسبانية من بعد الشقة ، أن نفهم كيف أججت مخاطر هذه السنوات المثيرة وانتصاراتها حماسة الإيمان الكاثوليكى وجعلت أكثر الأسبان يفخرون بدينهم فخرهم بأنسابهم ؛ أما رقابة المطبوعات ومحكمة التفتيش اللتان قد نحسبهما خانقتين للحريات ، فقد تقبلتهما الأمة على أنهما من الاجراءات الحربية الضرورية للوحدة القومية فى الحرب الصليبية ضد الإسلام . وهكذا راح العقل الأسبـانى ، الذى حظر عليه أن يشت بعيدا عن العقيدة المقدسة ، يحلق داخل حدوده المقيدة ، وسط عالم رفيع من القصص والشعر والدراما والعمارة والنحت والتصوير .

ولكنه كان إلى ذلك عصر العلماء الأمناء والمؤرخين الأجرياء ، عصر المؤلفات البارزة فى اللاهوت والحكم والقانون والاقتصاد والجغرافيا والدراسات الكلاسيكية والشرقية . وفى رأى العلامة هالام أن « العلم كان فى عهد فليب الثانى أكثر تقدما منه فى عهد إليزابث [٢] » . ولا ريب فى أن التعليم كان أوفر وأعم . فقد وجد الفقراء والأغنياء على السواء طريقهم إلى الجامعات الكثيرة ، وأضيف فى هذه الفترة عشرون جامعة جديدة إلى الجامعات المشهورة ، وكانت جامعة سالامانكا وحدها تضم ٥٨٥٦ طالبا عام ١٥٥١ [٣] . « لا يستطيع انسان أن يزعم أنه كابالليرو (جنتلمان) مالم يكن كذلك أديبا » . [٤] ونتح الملوك والوزراء والنبلاء والأحبار خزائنهم للعلماء والشعراء والفنانين والموسيقيين . على أنه كان هناك بعض الشذوذ فى هذا التصعيد ؛ ذلك أن الكنيسة شهرت سوطا فوق رءوس المعلمين . وحرم فليب الثانى على الشباب ، حرصا منه على الاحتفاظ للجامعات الأسبانية بملئها من الطلاب وجعل العقول الأسبانية نقية من الناحية اللاهوتية ، حرم عليهم أن يدرسوا فى أى جامعات أجنبية الا كوامبرا وبولونيا وروما . ولعل هذا التزاوج الفكرى المحصور لعب دورا فى عقم أسبانيا الثقافى بعد العصر الذهبى .

وهناك رجلان بارزان من اليسوعيين يدخلان الصورة هنا . أما أولهما ، بالتازار جراثيان ، مدير كلية لليسوعيين فى تاراجونا ، فقد وجد الوقت ليكتب (١٦٥٠ — ٥٣) رواية من ثلاثة مجلدات تدعى « الكريتيكون » يصف فيها تحطيم سفينة لسيد أسبانى على جزيرة القديسة هيلانة ، وتعليمه للرجل المتوحش الوحيد الذى وجده هناك (أهذا مصدر لروبنسن كروزو ؟) ، ثم أسفارهما معا فى أرجاء العالم ، ونقدهما النفاذ للحضارة الأوربية . وقد أطرب تشاؤمهما وكرههما للنساء شوبنهاور ، فوصف الكتاب بأنه « من خيرة الكتب فى العالم [٥] » ونفح أحد الأصدقاء

جراثيان بعض العملة الدولية إذ اختار من كتبه ثلاثمائة فقرة نشرها تحت هذا العنوان « الوحي الميسر ، وفن الحكمة الدنيوية » . وقد قام شوبنهاور بترجمة من ترجماتها الكثيرة . وإلى القارئ عينات من هذه :

« حذار من أن يكسف ضوءك ضوء السيد . . . لقد كان التفوق دائما مكروها ، وكلما عظم اشتد الكره له . وشيء من الحذر كفيل بتغطية فضائلك العادية كما تخفى حسنك باللباس المهمل(٦) .

ان التوسط فى الكفاية يحرز بالاجتهاد تقدما أكثر مما يحرزه التفوق بدونه(٧) .

للحظ قواعد ، فالعقلاء لا يرون الأشياء كلها وليدة الصدفة(٨) .

ليس الكمال فى الكم بل فى الكيف . . . بعض الناس يحكمون على قيمة الكتب بركبهم ، وكأنها كتبت لتمرين الأذرع(٩) .

فكر كالقلة ، وتكلم كالكثرة . . . ان الحقيقة للقلة . . . ليعتصم الحكيم بالصمت ، فإذا سمح لنفسه أحيانا بالكلام فليكن فى حمى القليلين والفاهمين(١٠) .

تعلم كيف تقول لا . . . لا يكن الرفض قاطعا ، فالحقيقة تتجلى تدريجيا . . . عليك بالمجاملة لتملأ بها فراغ الرفض(١١) .

قد تتبين نضج امرئ من البطء الذى يصدق به ما يسمع(١٢) .

هناك دائما متسع من الوقت تضيف فيه كلمة ، ولا وقت لسحب كلمة(١٣) » .

كان المؤرخون الأسبان فى هذه الفترة خير المؤرخين فى أوربا . وجمع فليب فى دار المحفوظات بسيمانكاس مجموعة هائلة من الأوراق الرسمية وغيرها من الوثائق ، لأن « الاخباريين والمؤرخين قاصرو العلم بشئون

الدولة ، ورغبة فى تفادى هذا العيب كان من المرغوب فيه جمع ما أمكن من مواد قد تكون ذات فائدة »(١٤) على حد قوله . وأصبحت هـذه المخطوطات ذخرا للمؤرخين منذ ذلك الحين . وقد رجع جيرونيمو دى زوريتا إلى آلاف الوثائق الأصيلة فى إعداد كتابه « حوليات مملكة أراجون » (١٥٦٢ — ٨٠) ، واشتهر فى أوربا بأسرها بـ « أعظم الكتاب تدقيقا » .

أما أعظم المؤرخين الأسبان قاطبة ، وهو خوان دى ماريانا ، فقد بدأ حياته ابنا غير شرعى لكاهن فى طلبيرة . وإذ ترك فى صباه ليدير شئونه بنفسه ، فقد شحذ ذكاءه على حجر الضرورة القاسية والفقر الطاحن . وزوده اليسوعيون بتعليم صارم بفضل ما عهد فيهم دائما من سرعة فى تبين الموهبة . فلما بلغ الرابعة والعشرين أرسلوه للتدريس فى كليتهم بروما ، ثم إلى صقلية ، ثم إلى باريس ، حيث اجتذبت محاضراته عن توما الأكوينى جماهير المستمعين المتحمسين . على أن صحته انهارت ، فسمح له وهو فى السابعة والثلاثين (١٥٧٤) بالاعتكاف فى بيت الطائفة اليسوعية فى طليطلة ، فلزمه لا يبرحه إلا نادرا طوال سنيه التسعة والأربعين الباقية من عمره . وهناك كتب رسائل هامة أثارت إحداها ضجة دولية (كما سنرى) ، ورسالة أخرى « فى عملة المملكة » كانت هجوما جريئا على غش ليرما للعملة ، وثالثة تركها دون نشر شرحت « الأخطاء فى حكومة جمعية يسوع » . وقد أفرغ أكثر جهـده فى الأربعين سنة الأخيرة من حياته فى تأليف « كتاب فى تاريخ أسبانيا » (١٥٩٢) — الذى كتبه باللاتينية ليتيح لكل الأوربيين المثقفين أن يعرفوا كيف ارتقت أسبانيا إلى مقام الزعامة والقوة . وقد ترجم أكثر الكتاب إلى أنقى اللهجات القشتالية بحضى من الكردينال بمبو تحت عنوان « تاريخ أسبانيا » (١٦٠١) ، وهو أجل المنجزات فى تأليف التـاريخ الرسمى الأسبانى ، نابض بالحياة فى سرده ، بديع فى أسلوبه ، متمكن فى رسمه

للأشخاص ، جرىء فى أمانته — « أروع ما شهده العالم من جمع بين العرض الزمنى المثير ، والتاريخ الرصين[١٥] » .

وكما أن كتب الأخبار المعروضة حسب تسلسلها الزمنى ، تدرجت (كما نرى فى مؤلفات كالتى ذكرنا) إلى كتب التاريخ بوصفه ضربا من الأدب والفلسفة ، كذلك نرى القصص الأسبانى فى هذا العصر ينتقل من رواية الفروسية والقصة الرعوية ليبلغ فى قفزة واحدة أرفع القمم فى تاريخ القصة : لقد ظلت روايات الفروسية كثيرة يقبل عليها فى نهم كل أسبانى من القديسة تريزا إلى سرفانتس ، وربما كانت عند بعض القراء تفرجا من حدة الدين الأسبانى المتسامية ، لأن عقيدة هذه الروايات كانت الغرام ، وولاء الفرسان لم يكن للعذراء مريم بل لمن اختاروا أو هووا من النساء ؛ وفى سبيل الدفاع عنهن أو تملكهن تراهم على استعداد لتكسير النصال الكثيرة وتحطيم عدد غير قليل من نواميس الله والبشر . ولكن التهافت على مثل هذه القصص كان يتناقص حين كتب سرفانتس ، وكان مونتيى وخوان لويز فيفز قد سخرا منها ، وكان مجلس قشتاله شكا منذ سنين طويلة (١٤٣٨) من أن « كثيرا من الأذى يلحق بالرجال والفتيـان والفتيات وغيرهم » بسبب هذه الروايات ، وان الكثيرين « قد أضلتهم هذه القصص عن التعليم المسيحى الصحيح[١٦] » .

وبلغت الأمور الذروة بفضل تطور آخر . ففى عام ١٥٥٣ كان كاتب مجهول الهوية قد كتب فى « لاثاريللو دى تورمس » أول قصة بأسلوب البيكارسك (أى التشرد) الذى جعل من أحد الوضعاء الظرفاء بطلا يكفر عن فقره بالتمرد على القانون ، وعن تمرده على القانون بالفكاهة الذكية ، وفى عام ١٥٦٩ نشر ماتيو أليمان قصة مرحة سماها « حيـاة المتشرد جوثمـان دى الفاراتشى » . وبعد خمس سنوات تناول سرفانتس هذين المزاجين — حـلم الفارس الشهم الآخذ فى الزوال ، وحكمة رجل الشارع الممزوجة بالفكاهة ، وجمع بينهما جنبا إلى جنب فى أشهر القصص قاطبة وأروعها اطلاقا .

٢ — سرفانتس : ١٥٤٧ — ١٦٦٦

فى ٩ أكوبر ١٥٤٧ ، وجريا على العادة الأسبانية بتسمية كل طفل باسم القديس الذى يحتفل بذكراه فى يوم ميلاده ، عمد خالق دون كخوتة وسانشو بانزا باسم « ميجل دى سرفانتس » فى « القلعة » . وقد أضاف — وربما أضاف أبوه أيضا — اسم سافيدرا ، من الأسرة القشتالية التى تزاوج فيها أسلافه الغاليسيون فى القرن الخامس عشر . وكان الأب طبيبا غير مرخص ، ثقيل السمع قليل المال ، يتنقل من بلد إلى بلد ليجبر العظام ويطبب الاصابات الخفيفة ، ويبدو أن الصغير ميجل صحبه إلى بلد الوليد ، ومدريد ، واشبيلية . أما تعليم الصبى فلا نعرف عنه شيئا ، فيلوح انه لم يحظ بتعليم عال برغم مولده فى مدينة جامعية ، ومن ثم لم تطهره الدراسات الكلاسيكية ولا زحمته ، واضطر إلى التقاط معرفته بالحياة من العيش فيها .

وأول ما نملك من الحقائق عنه بعد سجل عماده أن معلما من مدريد نشر عام ١٥٦٩ مجلدا احتوى ست قصائد بقلم « تلميذنا العزيز المحبوب » سرفانتس . وفى سبتمبر من تلك السنة قبض على المدعو ميجل دى سربانتس بتهمة الاشتراك فى مبارزة ، ونفى من أسبانيا عشر سنوات يعاقب دونها بقطع يده اليمنى . وفى ديسمبر نجد فتانا ميجل يخدم فى بيت كبير من رجال الكنيسة فى روما . وفى ١٦ سبتمبر ١٥٧١ نرى ميجل هذا ، ربما مدفوعا (مثل كاموئنش) بتفضيل الخدمة العسكرية فرارا من السجن ، مبحرا من مسينا على السفينة «ماركيزا » فى أسطول دون جوان النمساوى . وحين التحم الأسطول بالترك فى ليبانتو كان سرفانتس مريضا بالحمى فى عنبر سفينته ، ولكنه وضع على رأس اثنى عشر رجلا فى زورق إلى جوار السفينة لأنه أصر على لعب دوره ، وأصيب بثلاثة جروح من طلقات نارية ، جرحين فى صدره والثالث أعجز يسراه عجزا مستديما — « لنصرة الحق » على حد قوله . وأعيد إلى مستشفى بمسينا ودفعت له الحكومة

الأسبانية اثنتين وثمانين دوكاتية . ثم شارك فى معارك حربية أخرى — فى نافارينو ، وتونس ، وجوليتا (لاجوليت) . وأخيرا سمح له بالعودة إلى أسبانيا ، ولكن قرصان البربر أسروه هو وأخاه رودريجو فى رحلة العودة إلى الوطن (٢٦ سبتمبر ١٥٧٥) وباعوهما فى سوق الرقيق بالجزائر . وأقنعت الرسائل التى حملها من دون جوان وغيره آسريه بأنه رجل ذو حيثية ، فطلبوا عنه فدية كبيرة . وظل ميجل أسيرا خمس سنوات مع أن أخاه أطلق سراحه فى عام ١٥٧٧ . وحاول الهروب غير مرة . ولكنه لم يجن من محاولاته غير تشديد النكير عليه . وصرح الداى ، وهو الحاكم المحلى ، بأنه « إذا استطاع أن يؤمن حراسة ذلك الأسبانى المعطوب الذراع فقد أمن عاصمته وعبيده وسفنه »[١٧] وكافحت أمه لتجمع الخمسمائة كراون التى طولب بها للافراج عنه ، وضحت أخواته بمهورهن فى هذا السبيل ، وأخيرا (فى ١٩ سبتمبر ١٥٨٠) أفرج عنه ، وبعد رحلة مضنية لحق بأسرة أمه فى مدريد .

كان مملقا عاجزا ، لذلك لم يكن أمامه من سبل الرزق غير العودة إلى الانخراط فى الجيش . وهناك من الدلائل ما يشير إلى أنه مارس الخدمة العسكرية فى البرتغال والأزوره . ووقع فى غرام سيدة نبيلة تصغره بثمانية عشر عاما ولا تملك غير أسمائها الكثيرة : كاتالينا دى بالاكيو سالازار إى فوزميديانو الإسكيفية . وتحت إلحاح الحب والفاقة كتب سرفانتس رواية رعوية تسمى « غلاطية » باعها بمبلغ ١٫٣٣٦ ريالا (٦٦٨ دولارا ؟) . وتزوجته السيدة الآن (١٥٨٤) ، فقدم إليها ابنة غير شرعية وأقنعها بأن تربيها كأنها ابنتها ، وكانت قد ولدتها له حسناء عابرة قبل سنة[١٨] . أما كاتالينا نفسها فلم تنجب . وكانت تعنفه بانتظام على فقره ، ولكنها ظلت وفية له فيما يبدو ، وعمرت بعده ، وحين ماتت طلبت أن تدفن إلى جواره .

(-) ان قصة الأسير فى « دون كنوتة » (الجزء الأول ، الكتاب الرابع ، الفصول ١٢ — ١٤) ترجمة ذاتية إلى حد كبير .

ولم تأت غلاطيه بمزيد من الريالات ؛ كان رعاتها مسرفين فى بلاغتهم ، إلا حين ينطقون بالشعر ، ومع أن سرفانتس كان ينوى كتابة بقية لها ، ومع أنه ظل إلى النهاية يعتبرها أروع ما كتب ، فانه لم يجد قط الوقت أو الحافز لاتمامها . ثم جرب كتابة التمثليات طوال خمسة وعشرين عاما ، فألف نحو ثلاثين منها ، وكان رأيه أنها ممتازة ، وهو يؤكد لنا أنها « مثلت كلها دون أن يعرض عليه أى جزاء(١٩) » ولكن واحدة منها لم تستهو الجماهير أو تلمس عرقا من ذهب . لذلك ارتضى وظيفة متواضعة فى إدارة تموين الجيش والبحرية (١٥٨٧) ، وسافر بصفته هذه إلى عشرات المدن تاركا زوجته فى البيت . وقد ساعد فى تموين الأرمادا الجبار . وفى عام ١٥٩٤ عين جابيا لغرناطة . وسجن فى اشبيلية لمخالفات فى حساباته ، وأفرج عنه بعد شهور ثلاثة ، ولكنه طرد من خدمة الحكومة . ومكث عدة سنين فى فقر مدقع بأشبيلية وهو يحاول الارتزاق من قلمه . ثم قبض عليه مرة أخرى فى أرجا ماريللا وهو يجوب أسبانيا . وتقول الرواية انه فى سجنه وفى بؤسه واصل تأليف كتاب من أكثر الكتب مرحا فى العالم . فلما عاد إلى مدريد باع لفرانسسكو دى روبلز مخطوطة « حياة ومغامرات دون كخوته دى لامانشا الأشهر » فنشرت عام ١٦٠٥ . وهكذا ، وبعد ثمانية وخمسين عاما من الكفاح ، بلغ سرفانتيس شاطئ التوفيق .

ورحب كل الناس — عدا النقاد — بالكتاب مهرجانا من الفكاهة والفلسفة . وتقول رواية قديمة ان فليب الثالث « لاحظ وهو واقف يوما بشرفة قصره فى مدريد طالبا بيده كتاب على ضفة مانزاناريس المقابلة . وكان الطالب يقرأ ، ولكنه بين الحين والحين كان يقطع قراءته ويلطم جبينه لطمات عنيفة تصحبها حركات لا حصر لها من النشوة والطرب . وقال الملك « إن الطالب إما أن يكون مجنـــونا وإما إنه يقرأ . . . دون كخوته(٢٠) » .

إن فى هذه الصفحات الباسمة مآخذ كما فى كل رائعة — فحبكة

«الرواية ليست غاية فى البراعة — سلسلة من الأحداث المترابطة. تكشفها حكايات مقحمة غير متصلة بالموضوع ، خلو من الحطة خلو الفارس الذى « يواصل سفره على ظهر جواده مرخيا له العنان ليمضى حيث شاء » . وبعض خيوط الحبكة متروك عند أطراف مفكوكة أو شديدة التعقيد ، مثل ضياع حمار سانشو وظهوره ثانية دون تعليل . ويصبح السرد بين الحين والحين مملا ، والنحو غير دقيق ، واللغة مفتقرة إلى الصقل . ويقول الجغرافيون إن جغرافية الرواية مستحيلة . ولكن ما أهمية هذا كله ؟ فكلما مضينا فى القراءة مشدودين بجذب لطيف خلال المعقول وغير المعقول ، ازداد عجبنا من أن سرفانتيس استطاع وسط كل شدائده أن يجمع معا مثل هذا المشهد العريض من المثالية والظرف وأن يقرب قطبى الخلق الإنسانى المتباعدين فى مثل هذا التراكب المنير . أما الأسلوب فهو ما ينبغى أن يكون عليه أسلوب قصة طويلة — لا سيل مرهق من البلاغة ، ولكن جدول صاف جار ، يتألق هنا وهناك بعبارة حلوة ، كقوله « كان له وجه كالبركة(٢١)» وأما القدرة على اختراع الأحداث فتمضى إلى النهاية ، وأما معين أمثال سانشو فلا ينضب ، وآخر قطعة من الفكاهة أو التفجع لا تقل جمالا عن أولها . هنا ، فى هذا « التاريخ الجاد أعظم الجد ، المجلجل ، الدقيق ، الناعم ، الفكه » على حد قول سرفانتيس ، نلتقى بحياة أسبانيا وشعبها ، موصوفين بحب يبقى بعد أن ينقضى عـدم التحيز ، وبمئات التفاصيل الصغيرة التى تخلق هذا الكل الملهم ، وتفعمه بالحياة .

ويلجأ سرفانتس إلى حيلة قديمة فيزعم لنا أن « تاريخه » مأخوذ عن مخطوطة لمؤلف عربى سماه السيد حامد بن انجلى . وتفصح المقدمة عن هدفه ، وهو أن يصف فى « هجو للفروسية الجوابة . . . سقوط ودمار ذلك الكوم البشع من روايات الفروسية . . . التى افتتن بهـا أكثر الناس على نحو عجيب » . وقد فعل تشوسر مثل هذا فى حكايات كنتربرى (« شعر السير توپاس ») ، ورابليه فى « جرجانتوا » ، وبولتشى فى « المورجانتى

مادجورى » ، وهزأ تيوفيلو فولنجو وغيره من شعراء التخليط بين اللاتينية واللغة القومية بالفرسان ، وسخر أريوستو فى أورلندو فوريوزو » من أبطاله الرجال والنساء . على أن سرفانتس لا يرفض روايات الفروسية جملة ، فهو ينقذ من النار بعضها ، مثل « أماديس داجاولا » ، ومثل روايته « غلاطية » ، وهو يدخل فى قصته بعض مغامرات الفروسة . ونرى فى نهاية القصة أن هـذا الدون الفارس ، بعد عشرات الهزائم والضربات المخزية ، هو بطل القصة الخفى .

ويصوره سرفانتس سيدا ريفيا خصب الخيال ، أذهلته القصص التى جمعها فى مكتبته ، فدجج نفسه بالسلاح من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وارتدى سترة الفارس وخرج على فرسه روزنانتى ليذود عن حياض المظلومين ويصلح الفساد ويحمى العذارى والأطفال . أنه يمقت الظلم ويحلم بماض ذهبى يوم لم يكن هناك ذهب ، « يوم كانت هاتان الكلمتان القتالتان « مالك » و « مالى » فوارق مجهولة ، كل الأشياء كانت مشتركة فى ذلك العصر المقدس ... كله كان تآلفا واتحادا ، كله كان حبا وصداقة فى الدنيا »[٢٢]. وجريا على قواعد الفروسية نراه يكرس سلاحه ، لا بل حياته ، لسيدة نبيلة تدعى دولتسينيا ديل توبوزو . ومع أن عينه لم تقع عليها قط ، فقد كان فى وسعه أن يتصورها تجسيدا كاملا للطهارة المحتشمة والجمال الرقيق . « نحرها مرمر ، وثدياها رخام ، ويداها عاج . والثلج ينكسف بياضه إذا دنا من صدرها »[٢٣] أما وقد ملأه هذا الرخام صلابة ، وبعث فيه هذا الثلج دفئا ، فهو ينطلق ليهاجم عالما حفل بالشرور . وهو فى هذه المعركة غير المتكافئة لا يشعر بأن أعداءه أعز منه نفرا « فأنا وحدى أعدل مائة منهم . » وبينما يلازم سرفانتس ذلك « الفارس ذا الوجه البائس » متنقلا بين الفنادق الصغيرة وطواحين الهواء ، بين المصارف القذرة والخنازير المذعورة ، تنتهى به الصحبة إلى حبه قديساً كما يحبه مجنوناً ، وفى كل هذه المغامرات الفاشلة والكبوات الأليمة يظل الدون المثال الحى للأدب

والعطف والسماحة . وأخيرا يتغير المجذوب المحزون على يد خالقه ، فيصبح فيلسوفا يتحدث –حتى وهو يتردى فى الوحل – حديثا عاقلاسويا، ويغفر الإساءات للدنيا التى عجز عن فهمها ، ثم يغيظنا من سرفانتس أنه يواصل خبطه وتحطيمه التزاما بخطته المرسومة . ثم نعطف على الفارس الذى ينقشع الوهم عن عينيه حين يؤكد له سانشو إن الدولتسنيا ديل توبوزو الوحيدة التى تعرفها بلدتها ليست سوى « خادمة متمنطقة ، هى صبية بدينة ، مفتولة العضل ، مسترجلة » ، من أصل متواضع . ويجيب الفارس بحكمة ذهبية ، فيقول لسانشو ، « إن الأصل يشرف بالفضيلة ، إنما أصل الفتى ما قد حصل »[٣٥] .

والشيء الذى يفتقر إليه الدون هو روح الفكاهة ، وهو خير جوانب الفلسفة . ومن ثم يعطيه سرفانتس تابعا مرافقا أصله عامل من عمال المدينة الأقوياء ، وابن من أبناء الريف ، هو سانشوبانزا . ويؤمن الفارس خدماته بأن يعده بالطعام والشراب ، وبحكم ولاية فى الممالك التى يزمعان فتحها . فأما سانشو فرجل ذو إدراك بسيط وشهية طيبة ، يظل محتفظا بسمنته إلى آخر صفحة فى القصة برغم إشرافه دائما على الموت جوعا ، إنسان كريم النفس يحب بغلته كأنها « نفسه الثانية » ويقدر «عشرتها الحلوة»، أنه ليس الفلاح الأسبانى النموذجى ، فهو سخى فى النكتة زاهد فى الوقار ، إنما هو – كأى أسبانى تحرر من سعار اللاهوت – طيب القلب محب للخير ، حكيم دون ثقافة أو تعليم ، وفى لسيده فى دنيا العذاب هذه وسرعان ما ينتهى إلى أن الدون رجل مجنون ، ولكنه هو أيضاً ينتهى إلى أن يحبه . يقول فى ختام القصة « لقد لازمت مولاى الطيب وصاحبته هذه الشهور الطوال ، والآن أصبحنا نحن الاثنين واحدا »[٣٦]، وهذا حق، لأنهما ليساسوى جانبين لأنسانية واحدة. أما الفارس فينتهى هو أيضا إلى احترام حكمة تابعه لأنها أعمق جذورا إن لم تكن نبيلة كحكمته . ويعبر سانشو عن فلسفته بأمثال يقفو بعضها بعضا حتى لتكاد تخنق تفكيره : « إن الدجاجة

. والمرأة تضيعان إذا سرحتا» ، « بين قول المرأة نعم وقولها لا ، لا أوافق على أن أضع سن دبوس ، فالوحد منهما قريب جدا من الآخر » ، « إن الطبيب يبذل نصيحته بجسه نبض جيبك » ، « كل إنسان كما صنعه الله ، وكثيرا ما يكون أسوأ ».(٢٧) ولعل سرفانتس استعمل مجموعة مختارة من هذه الأمثال التى عرفها بأنها « عبارات قصيرة صيغت من خبرة طويلة » .(٢٨) ويعتذر سانشو عن هذا « الاسهال » فى الحكم بأن هذه المأثورات تسد حلقه . ولا بد أن تنطلق، بترتيب ورودها على خاطره . ويستسلم الدون لهذا الفيض الدافق فيقول « حقا ، يبدو أنك لست أعقل منى ... أشهد أنك انسان مختلط العقل ، إننى أصفح عنك ، وقد فعلت »(٢٩) .

كان للتوفيق الذى أصابته " دون كخوته " الفضل فى ظفر سرفانتس براعيين لأدبه ، الكونت ليموس وكردينال طليطلة ، أجريا عليه معاشا صغيرا يسر له أن يعول زوجته ، وابنته غير الشرعية ، وأخته الأرملة ، وابنة أخته . وبعد شهور من نشر كتابه قبض عليه هو وكل أفراد أسرته لشبهة اشتراكهم فى مقتل جاسباردى ازبليتا على باب بيت سرفانتس . وأرجفت الشائعات بأن جاسبار كان يعشق ابنته ، ولكن التحقيق لم يسفر عن شىء ، فأفرج عنهم جميعا .

ومضى سرفانتس يكتب الجزء الثانى من « دون كخوته » فى غير عجلة . وفى عام ١٦١٣ قطع هذا الجهد المحبب بنشر اثنتى عشرة قصة « مثالية جديدة » جاء فى مقدمتها « لقد وصفت هذه القصص بأنها مثالية ، ولو تأملها القارئ لما وجد فيها قصة لا تعطيه مثالا نافعا » (٣٠) . وأولها قصة عصابة من اللصوص تعمل فى انسجام مثالى مع رئيس شرطة اشبيلية ، وقصة أخرى اسمها « ندوة الكلاب » تصف سلوك تلك المدينة وأخلاقها . وفى التمهيد للمجموعة صور سرفانتس نفسه بهذه العبارات :

إن الرجل الذى ترونه هنا بمحياه النسرى ، وشعره الكستنائى ، وجبينه الهادئ الطلق ، وعينيه اللامعتين ، وأنفه المعقوف المتناسب ، ولحيته

الفضية التى كانت ذهبية منذ أقل من عشرين عاما ، وشاربه الكبير ... وأسنانه التى لا تستحق الاحصاء ، وقامته الربعة ؛ وكتفيه طفيفى الانحناء، وبنيته الثقيلة بعض الشيء ... أحيز لنفسى أن أقول لكم إنه مؤلف «غلاطية» و « دون كخوته دلا مانشا » (٣١) .

ولكنه فوجىء عام ١٦١٤ بظهور الجزء الثانى من « دون كخوته » ، لا بقلمه ، بل بقلم سارق مجهول انتحل اسم « أفيللانيدا » . وقد هزأت المقدمة من جراح سرفانتس ، وطربت للحيلة المتقنة التى ستقضى على جزء سرفانتس الثانى . وعجل الكاتب المنزعج بانجاز كتابه ونشره عام ١٦١٥، وابتهج القراء الأسبان حين وجدوا هذه التتمة ترقى إلى مستوى الجزء الأول خيالا وقوة ومرحا ، ففى كل هذه الصفحات الخمسمائة الجديدة احتفظ الكاتب بتشويقه للقارئ حتى النهاية ، وهى نهاية حزينة إن لم تكن أليمة ، وبدا للبعض أن حظ الدون وتابعه العاثر فى بلاط الدوق ، وملك شانسو على ولايته ، والقصة المؤلمة التى روى فيها كيف ضرب عجزه — كل هذا من شأنه أن يجعل الجزء الثانى هو النصف الأفضـــل . فحين يولى سانشو حاكما على باراتاريا يتوقع الكل منه أن يتجاوز كل ما أثر عن الحكام من حماقات . ولكننا نجد على النقيض من ذلك أن طيبتـــه وفطنته ،وأن نظمه واصلاحاته البسيطة العادلة ؛ وأن قراره الحكيم فى دعوى هتك العرض (٣٢) — كل هذا يخجل واقع الحـــكم المعاصر له . ولكن قوى الشر الذى لا يعرف رحمة ولا هوادة تطغى عليه ؛ وأخيرا ترهقه ارهاقا يكرهه على التخلى عن منصبه والعودة مرتاحا إلى حياته تابعا للدون .

ولا يبقى بعد ذلك إلا أن يهرب الفارس مثل هذا الهرب من دنيا الأحلام إلى دنيا الواقع . إنه يخرج فى طلب المغامرات الجديدة ، ولـــكنه يهزم هزيمة عارمة ؛ ينتزع المنتصر فيها تعهدا منه بأن يمضى إلى داره ويعيش سنة فى هدوء لا شأن له بالفروسية . ويوافق المحارب المتعب ، ولكن تبدد أوهامه يجفف ينابيع حياته . فيرسل فى طلب أصدقائه إلى جواره،ويوزع

الهدايا عليهم؛ويكتب وصيته ، وينبذ الفروسية الطوافة الباحثة عن المغامرات ، ويدع روحه تنحسر انحسارا شديدا . ويعود سانشو إلى أسرته ؛ ويفلح حديقته قانعا قناعة ر لى خير من الدنيا ما يكفى لجعله عارفا بقدر بيته . وفى النهاية يلوح أن هذه الواقعية الطيبة تنتصر على مثالية مولاه المغرقة فى الأوهام برغم سماحتها . ولكن الأمر فى حقيقته غير هذا . فروح الفارس هى صاحبة الكلمة الأخيرة فى القبرية التى أوصى بأن تكتب له . « إذا كنت لم أحقق جلائل الأعمال فإننى مت فى سبيلها » . وهكذا يتبين أن الواقعى يعيش إلى أن يدركه الموت ؛ ولـكن المثالى يبدأ عندها الحياة .

ونشر سرفانتس فى السنة التى بقيت لهفى أجله ثمانى تمثيليات ، ولم يؤيد الزمن تقديره لها ، ولكنه قدر تقديرا عظيما « لانومانسيا » ، وهى قصيدة تمثيلية فيها قوة وفيها جمال ، تحيى ذكرى مقاومة تلك المدينة الأسبانية للحصار الرومانى (١٣٣ ق . م) . وكان له كفارسه وهمه الذى يسنده ؛ فظن أن الأجيال القادمة ستكرمه أولا لتمثيلياته ، وتكلم فى غيرة لا تليق به وإن غفرناها له عن لوبى دى فيجا الذى وفق توفيقا هائلا ، ثم كتب وهو يحتضر تقريبا ، قصـة أخرى من قصصه بعد أن هزأ بأكثر الروايات الغرامية « برسيليس وسجموندا » . وقبل أن يموت بأربعة أيام أهداها إلى كونت ليمور قائلا :

« مسحت بالأمس المسحة المقدسة الأخيرة ، واليوم أخط هذا الإهداء . ليس فى الوقت متسع ، وعذابى يزيد ، والآمال تتضاءل . . . فوداعا للمزاح إذن ، وداعا فكاهاتى البهيجة ، وداعا أصدقائى المرحين ، لأننى أشعر بأننى أموت ، ولا أمنية لى إلا أن أراكم سعداء فى الحيـاة الأخرى[٣٢] » .

ومات فى ٢٣ ابريل ١٦١٦(*) .

(*) فى الظاهر فى نفس اليوم الذى مات فيه شكسبير . وكانت انجلترة لا تزال تستعمل التقويم اليوليانى ، أما حسب التقويم الجريجورى الذى أخذت به أسبانيا قبل ذلك فموت شكسبير وقع فى ٣ مايو ١٦١٦ .

كان قد تنبأ على طريقته « الكيخوتية » المميزة أن كتابه « دون كخوته » سيباع منه ثلاثون مليون نسخة . وابتسم العالم لسذاجته ، ثم اشترى ثلاثين مليونا . لقد ترجمت القصة العظيمة إلى لغات أكثر من أى كتاب باستثناء الكتاب المقدس . وفى أسبانيا يعرف أبسط القرويين من هو دون كخوته ، وهو عموما ، خارج الكتاب المقدس أيضا ، « أكثر شخوص الأدب كله حياة وفتنة وشهرة [٣٤] » ، وأكثر واقعيه من ألف علم من أعلام التاريخ المستكبرين . وقد استطاع سرفانتس ، بجعل قصته هذه صورة لآداب السلوك ، أن يرسى أساس الرواية الحديثة ، ويفتح الطريق لقصاصين مثل لوساج ، وفيلدنج ، وسموليت ، وستيرن ، ورفع هذا اللون الجديد إلى مقام الفلسفة إذ جعله يكشف عن طبائع البشر ويلقى الضوء على ما خفى من أخلاقهم .

٣ — الشعراء

إن رنين اللغة القشتالية الفحل ، مثله مثل جمال الإيطالية التسكانية الرخيم ، أسلم نفسه مختارا للموسيقى والقافية ، واستجابت روح الشعب للشعر بطبعها أكثر من استجابتها للنثر . وكثر الشعراء كثرة القساوسة . وفى قصيدته غار أبوللو (١٦٣٠) وصف لوبى دى فيجا مهرجانا للشعر وتنافسا عليه اقتتل فيه ، فى خياله . شعراء أسبانيا المعاصرة الثلاثمائة على اكليل الغار . وكاد إقبال الشعب على هذه المباريات الشعرية يعدل إقباله على حرق المهرطقين . كانت هناك قصائد تعليمية منومة ، وعظات دينية بالشعر ، وروايات غرامية منظومة ، وشعر رعوى ، وشعر ساخر من البطولة ، وقصائد قصصية ، وشعر غنائى ، وملاحم . ولم يؤت كل المؤلفين شجاعة فرانسسكو دى فيجويروا ، الذى حكم على أشعاره بالحرق لما فيها من هرطقات .

أما أروع الملاحم فلحمة « لا أروكانا » (١٥٦٩ — ٨٩) ، التى تصف

ثورة قبيلة هندية فى أمريكا الجنوبية ، كتبها الونسو دى ارسيللا إى زونيجا الذى أبلى بلاء حسناء فى تلك الحرب وهو جندى أسبانى . وربما كان أبدع الشعراء الغنائيين راهبا أوغسطينيا اسمه لويس بونسى دى ليون ، لم يمنعه بعض الدم اليهودى الذى اختلط بدم أسلافه من تصوير أرق جوانب التقوى المسيحية ، وأعجب من ذلك جمعه بين الشاعر واللاهوتى ، ففى سنته الرابعة والثلاثين عين أستاذا للإلاهيات فى جامعة سلامانكا ، وما برح طوال حياته متصلا بهذه الجامعة ، ومع ذلك لم تمنعه جهوده الدراسية وحياة النسك من التحليق فى أجواء الشعر الغنائى . ودعته محكمة التفتيش لتحاكمه (١٥٧٢) على ترجمة نشيد الانشاد إلى شكل من أشكال الحوار الرعوى . واحتمل عذاب السجن خمس سنين ، فلما أفرج عنه استأنف محاضراته فى الجامعة بهذه الكلمات الساحرة « لاحظنا فى آخر لقاء لنا . . .[٣٥] » وقد وافق رؤساءه على أن قرض الشعر لا يليق برجل اللاهوت ، فترك قصائده دون نشر ، ولم تصل إلى المطبعة إلا بعد موته بأربعين سنة . وهى بالاجماع أقرب إنتاج اللغة القشتالية إلى الكمال .

وكان لويس دى جونجورا وفرانسسكو جومز دى كويفيدو اى فيلليجاس لا يزالان يفوقانه شهرة لأنهما أثارا الضجيج بالجدل كما أثاراه بالشعر ، وخلفا بعدهما مدرستين متقاتلتين هما الجونجورية والكونسبتية ، باعتبارهما فلسفتين من فلسفات الأسلوب . وقال سرفانتس — الذى لم يبخل بكلمة ثناء على كل منافسيه فيما عدا لوبى وأفيللانيدا — فى وصف جونجورا إنه « عبقرى نادر ، مثير ، لا ثانى له[٣٦] » وفى هذا المقطع من قصيدة الشاعر القصصية « إلى الأرمادا » نلتقط صدى بعيدا لصيحة الكراهية والحقد : —

« إيه أيتها الجزيرة ! كنت يوما وفية للكثلكة ، قوية البأس ،
حصنا للإيمان انقلب هيكلا بغيضا للهرطقة ،

كنت معسكرا للحرب المدربة ، ومدرسة للحكمة المقدسة ،

أتى عليك زمن كان فيه هذا الجلال جلالك
وتغنى الشعراء أول ما تغنوا ببريق تاجك ،
أما الآن فالأعشاب الكثيبة التى تنبت عند بركة الجحيم
تصلح اكليلا لك . يا وطن الكماة .
من كل أرثر ، وإدورد ، وهنرى ! أين هم اليوم منك ؟
أين أمهم التى سعدت يوماً ببأسهم .
وثبتت فى قوة الإيمان ؟ إيه يا جرأة المرأة
التى تحكمك الآن ، لقد قضى عليك بالعار الأبدى
أيتها الملكة البغيضة يا قاسية القلب عابسة الجبين ،
أيتها الفاجرة الصارمة الشرسة الداعرة ،
يا مرأة تربعت على العرش ، يا لعنــة الفضيلة الصادقة.
يا شبيهة الذئبة فى كل طباعها ،
لتمطر السماء على ضفائرك الكاذبة لهيبها العادل ! (٣٧)

هنا قلم جدير بالتودد له . لا عجب إذن أن جعل فليب الرابع هـــذا الشاعر الثارى (الذى أصبح الآن قسيسا) كاهنه الملكى الخاص ، فربط مواهبه بالعرش . وجهد جونجورا ليكتسب نعومة الأسلوب ودقة العبارة ، وأعلن الحرب على الكتابات المتعجلة ككتابة لوبى دى فيجا ، وأصر على وجوب تهذيب كل بيت من الشعر وتصفيته وصقله ليكون حجرا كريما . ولكنه فى تحمسه غالى فجعل من الفن صنعة وتكلفا ، وأثقل أبياته بالكثير المسرف من الاستعارات ، والنعوت ، والتقديمات والتأخيرات ، والطباقات ، حتى بز لايلى فى تأنقه وفاق مارينى فى تكلفه . انظر إليه يقول فى مفاتن صبية يخلب حسنها الألباب :

عيناها التوأمان اللامعتان كالشمس
تحيلان صقيع النرويج صيفا ،
وتلك العجيبة البيضاء ، يدها الناصعة كالثلج ،

تجعل الحبشى يبيض دهشة وذهولا .

وانقسم شعراء الأسبان الآن معسكرات ثلاثة ، ففريق اتبع الجونجورية (أو الكولتيه) ، وفريق اعتنق مذهب كويفيدو (الكونسبتية) ، وفريق ثالث قاوم الوبائين كما فعل لوبى ذى فيجا .

أما كويفيدو فقد نال فى «القلعة» مراتب الشرف فى القانون، واللاهوت ، واللاتينية ، واليونانية ، والفرنسية ، والعربية ، والعبرية ، والمبارزة . وكان برغم قصر بصره وتشوه قدميه رهيبا بسيفه وقلمه على السواء ، وكانت هجائياته بتارة كحسامه . وقد فر إلى صقلية ونابلى بعد أن قتل عددا من غرمائه . وحين بلغ الخامسة والثلاثين تقلد هناك وزارة المالية . وشارك فى مؤامرة أوزونا على البندقية (١٦١٨) ، فلما فشلت أودع السجن ثلاث سنين . وعاد بعدها إلى مدريد ، فلم تسكته وظيفة شرفية هى وظيفة السكرتير لفليب الرابع ، وراح يسلق بشعره الحاد الملك والبابا وأوليفاريس والنساء والرهبان . وفى كتيبه المقذع « الكلب والحمى » (١٦١٥) نبح كل شىء ، وأطلق على الكل عاصفة من الأمثال أكثف من أمثال سانشو بانزا وأشد لذعا ، وكانت نصيحته التى لم يعمل بها قط أن يقف المرء بعيدا عن المعركة و « يدع القاذورات تمر » [٢٨] . ولما أعوزه الخصوم والأهداف ، هاجم « كولتية » الجونجوريين ، وعارضها بـ « الكونسبتيه » ، وقال إن على الشاعر ، بدلا من تصيد العبارات والألفاظ الخيالية ، أن يبحث عن الأفكار — لا الأفكار العامة الظاهرة التى أبلاها الزمن أو لوثها الابتذال ، بل المفاهيم الدقيقة ، الجليلة ، النبيلة ، العميقة .

وقد اتهم ظلما بكتابة خطابات تنبه الملك إلى ضرورة الكف عن التبذير ، وطرد وزرائه العاجزين . فأودع زنزانة رطبة خمس سنين ، ولما أفرج عنه كان رجلا محطما ، فلم يعش بعدها غير ثلاث سنين (١٦٤٥) . إنه لم يعش

حياة أدبية هادئة مطمئنة ، بل حياة كان فيها المداد دما ، والشعر حربا ، وإذ شارف نهايته أنذر بلاده بأنها هى أيضا فى طريقها إلى الموت :

رأيت أسوار وطنى
تتداعى بعد منعتها ،
لقد أوهن من قواها أسلوب هذا الجيل الجديد
الذى أبلى كل جليل وأفسده ،
مضيت إلى الحقول حيث رأيت
الشمس تلتهم مياه الثلوج الذائبة ،
وفوق التلال تنبش الماشية النائحة الأرض ،
لقد سلبنى شقاؤها ضياء النهار ،
ومضيت إلى بيتى فرأيت كيف أفسدت
الأشياء القذرة البالية هذا البيت القديم ،
لقد تقوس عكازى الذاوى الذى أتوكأ عليه
وأحسست أن الشيخوخة انتصرت ، رأيت سيفى صدئا
ولا شىء تقع عليه العين
إلا ذكرنى بالنهاية (٣٦)

٤ — لوبى دى فيجا : ١٥٦٢ — ١٦٣٥

كثر كتاب المسرحية فى ذلك العصر النشيط كثرة الشعراء . كان المسرح هنا ، شأنه فى انجلترة المعاصرة ، بدعة مرتجلة إلى ذلك الحين ، فالممثلون الجوابون يسرحون بفنهم على المدن مفلسين ، ومحكمة التفتيش تصدر حظرا على جميع التمثيليات (١٥٢٠) فى كفاحها للهيمنة على جلافة تمثيلياتهم الفكاهية فلما أصبحت مدريد مقرا للملك (١٥٦١) ، استأذنت فرقتان تمثيليتان الملك فى الاستقرار فيها ، فأذن ، ورفع الحظر الكنسى (١٥٧٢) ، وبنى مسرحان ، تياترو دلا كروز (مسرح الصليب) وتياترو دلبرنسيبى (مسرح الملك) —

يعبر الاسمان عن أهم ولاءات أسبانيا وأقواها . وما وافى عام ١٦٠٢ حتى قامت المسارح أيضا فى بلنسية ، واشبيلية ، وبرشلونه ، وغرناطة ، وطليطلة ، وبلد الوليد ، وفى عام ١٦٣٢ كان فى مدريد ألف ممثل ، وفى قشتالة ستة وسبعون من الكتاب المسرحيين ،وكان الخياطون والباعة والرعاة يكتبون التمثيليات . ولم تحل سنة ١٨٠٠ حتى كانت أسبانيا قد استمعت إلى ثلاثين ألفا من مختلف التمثيليات . ولا يذكر التاريخ بلدا آخر ، حتى انجلتره الاليزبيثية ، انتشى بمثل هذه النشوة المسرحية .

وتطور شكل المسرح من الأفنية — المحاطة بالبيوت والمواقف المؤقتة — التى كانت تمثل فيها المسرحيات الأولى ؛ وصممت المسارح الدائمة صفوفا من المقاعد وألواحا تحيط بمكان مسيج ، وكانت الملابس أسبانية أيا كان مكان التمثيلية أو زمانها ، والنظارة خليطا من جميع الطبقات ، والنساء يختلفن إلى المسرح ولكنهن يجلسن فى قسم خاص بهن ويلبسن الأقنعة الثقيلة . وكان الممثلون يعيشون عيشة قلقة هبطت بمعنوياتهم بين المجاعات والولائم ، يتعزون عن الفاقة والتشرد بالفوضى وحلو الأمانى . ونال بعض « النجوم » الذكور من الثراء والشهرة ما أدار رءوسهم ، فراحوا يختالون فى أهم شوارع مدريد وهم يصلحون سيوفهم ويفتلون شواربهم ، ونامت بعض كبريات المغنيات مع الملوك فى مضاجعهم .

أما ملك المسرح الأسبانى فهو لوبى فيلكس دى فيجا كاربيو . ففى عام ١٦٤٧ اضطرت محكمة التفتيش إلى حظر « قانون إيمان » منشور مطلعه « أؤمن بلوبى دى فيجا ضابط الكل ، شاعر السماوات والأرض » (٤٠) ولعل كاتبا آخر فى التاريخ لم يحظ بمثل هذه الشهرة فى جيله . ولم يقتصر معظم هذه الشهرة على أسبانيا دون غيرها من الأقطار إلا لصعوبة ترجمة الشعر المقفى ، ولكن حتى مع هذا القيد كانت مسرحياته تمثل بالأسبانية فى نابلى وروما وميلان،وانتحل اسمه فى فرنسا وإيطاليا لمسرحيات لم يكتبها، وذلك اغراء للجماهير بحضورها .

ولد فى مدريد قبل مولد شيكسبير بعامين لأسرة فقيرة ولكنها — كما يؤكدون — عريقة . فلما ناهز الرابعة عشرة هرب من البيت والمدرسة وتطوع فى الجيش وشهد بعض المعارك الدامية فى الأزورة . ثم أحب ، ولكنه أنقذ نفسه دون أن يصاب إلا بجراح طفيفة ، وكتب « ابجرامات » سافلة فى حق السيدة النبيلة ، فقبض عليه بتهمة القذف ، ونفى من مدريد . ولكنه تسلل إلى المدينة ، وفر مع ايزابل دى أوربينا ، وتزوجها ، فطورد ، والتحق بالأرمادا تهربا من القانون . وقد شارك فى هزيمة الأسطول ، ومات أخوه القتيل فى المعركة بين ذراعيه . وتركه موت زوجته حرا ولكنه تورط فى مشاكل أخرى . فقد أنجب طفلين من الممثلة ميكالا دى لوخان[٤١] ، وتزوج ثانية ، وأصبح موظفا فى محكمة التفتيش (١٦٠٩) ، ثم فقد زوجته الثانية ، ورسم قسيسا (١٦١٤ ؟) ووقع فى أكثر من غرام[٤٢] .

أما أسبانيا فقد اغتفرت له خليلاته لقاء مسرحياته . فقد كتب منها زهاء ألف وثمانمائة ، بالإضافة إلى أربعمائة « فصول مقدسة » قصيرة تمثل فى الاحتفالات الدينية . وذاع عنه أنه ألف عشر تمثيليات فى أسبوع واحد ، وتمثيلية قبل الفطور ، وتقهقر سرفانتس يائساً أمام هذا السيل الجارف ، وسمى منافسه « وحش الطبيعة » . كان لوبى « كوميديا فنية » فى ذاته ، فهو يؤلف المسرحية وهو يرتجلها . وإذ كان ينجب بمثل هذه الخصوبة المستهترة ، فإنه لم يزعم لنفسه تفوقا فى الفن أو الفلسفة . وقد اعترف بلطف فى كتابه « الفن الجديد فى كتابة المسرحيات » انه إنما يكتب ليرتزق ، ومن ثم فهو يزود الجمهور بما يروقه[٤٣] . وما كان ليطبع تمثيلياته لولا قراصنة الناشرين الذين درجوا على ايفاد رجال ذوى ذاكرة معجزة إلى حفلاته ، وكان فى استطاعة هؤلاء الرجال بعد الاستماع إلى المسرحية ثلاث مرات أن يتلوها عن ظهر قلب ويقدموا نصا محرفا للناشرين الذين لا يدفعون للمؤلف فلسا واحدا . وذات مرة أبت فرقة لوبى أن تمضى فى تمثيل المسرحية ما لم يطرد

عجيبة من عجائب الذاكرة هؤلاء خارج القاعة(٤٤) — فنشرها قد يهبط بعدد روادها . على أن لوبى نشر فى عناية وحب رواياته الشعرية — اركاديا ، وسان ايسيدرو ، وأورشليم المفتوحة ، ولا هور موسورا دى أنجليكا ، ولا دوروتيا ، وكلها مشجية متوسطة الجودة .

والحبكة فى مسرحياته هى كل شىء ، أما الشخوص فقلما تحظى من مؤلفها بدراسة وثيقة ، ويخيل للمرء أنه يصدق على هذه المسرحيات ماقاله ثورو فى الصحف — وهو أنك لو غيرت أسماءها وتواريخها لا أكثر ، لوجدت المحتوى دائما هو هو . فالقصة تدور فى كل الحالات تقريبا حول عاملين : الدفاع عن العرض ، ثم من يضاجع السيدة . أما جمهور النظارة فلم يكن يمل قط من معالجة الموضوع الثانى فى صور متنوعة ، لأنه حرم ممارسة أى من صوره هو . وكان خلال ذلك يستمتع بالفكاهة العارضة ، والحوار الذكى ، والشعر العاطفى الذى يتدفق سريعا رشيقا من أفواه النساء الحسان والرجال البواسل . وهكذا اتخذت روح الرومانسيات ، التى لم تنقرض قط ، حياة جديدة على المسرح الأسبانى .

وأشهر مسرحيات لوبى هى « نجمة إشبيلية » . ففى هـــذه المسرحية يفد سانشو الشجاع ملك قشتالة على إشبيليته ، فيطرى بهاء شوارعها ، ولـكنه يطلب إلى مستشاره أرياس أن يزيده حديثا عن نسائها بنوع خاص .

« الملك : ثم نساؤها ذوات الحسن السماوى ، لم لا تحدثنى عنهن ؟ ...
قل لى ، ألا تلتهب عواطفك ببهاء مفاتنهن ؟

أرياس : أن الدونا ليونور دى ريبيرا بدت لى كأنها السماء المنيرة ذاتها ، ففى وجهها أشرق ضياء شمس الربيع .

الملك : إن فى وجهها شحوبا كثيرا . . . أريد شمسا تحرق ولا تجمد .

أرياس : إن المرأة التى ألقت إليك الورود هى الدونا منثيا كورونيل .

الملك : سيدة جميلة ، ولكنى رأيت أجمل منها . . . واحدة منهن

تفيض حسنا ولم تذكرها . . . فمن تلك التى لفتت نظرى من شرفتها ، فخلعت لهـا قبعتى ؟ من هى التى أرسلت عيناها البرق كصواعق جوبيتروواشت سهامها الفتاكة فى قلبى ؟ . . .

أرياس : اسمها الدونا ستيللا تابيرا ، وتسميها اشبيلية نجمتها إطراء لها .

الملك : وقد يخلق بها أن تسميها شمسها . . . لقد قادنى نجمى الهادى إلى اشبيلية . . . فكيف السبيل إلى رؤيتها والتحدث إليها أيها الدون أرياس ؟ يا له من حلم تضطرم له أعماق نفسى ! »(٤٥)

على أن ستيللا تعشق الدون سانتشو أورتيث ، وهى ترفض فى غضب ما عرضه عليها أرياس من السماح للملك بالتمتع بـ « حق السيد » . ولكن أرياس يرشو الخادمة لتدخل الملك إلى مخدع مولاتها ، ويدخل بوستوس شقيق ستيللا الوفى فى اللحظة التى يجب فيها الدفاع عن العرض ، فيكف الملك ، ويكاد يقتله ، ولكنه إجلالا لمنصبه يخلى سبيله ، مزدرى ولكن دون أن يمسه سوء . وبعد ساعة يشهد الملك جسد الخادمة التى قبلت الرشوة مشنوقا فوق سور قصره . ويرسل فى طلب أورتيث ، ويسأله هل ولاؤه لمليكه لا يعرف الحدود ، فيتلقى جوابا فخورا مرضيا ، ومن ثم يأمره بقتل بوستوس . ويلتقى أورتيث ببوستوس ويتسلم منه رسالة من ستيللا تقول إنها تبادله الحب وتقبل تودده ، فيشكره ، ثم يقتله ، ويكاد يختلط عقله ، ويخشى الملك ثورة الشعب ، فيخفى عنه أن اغتيال بوستوس كان بأمر منه . ويقبض على أورتيث ويكاد يعدم لولا أن ستيللا تجد الوسيلة لإطلاقه . ولكن القصة لا تنتهى نهاية سعيدة ، فقد اتفق العاشقان على أن القتل قد سمم غرامهما إلى الأبد .

لقد أصبح لوبى معبود مدريد بعد أن أخرج ألف مسرحية من هذا النوع . وأغدق عليه الخاصة والعامة الأعجاب ، وبعث إليه البابا بصليب مالطة ودرجة الدكتوراه فى اللاهوت . وكان إذا خرج إلى الشوارع تزاحمت حوله الجماهير التواقة للقائه ، وقبلت النساء والأطفال يديه طالبين منه

البركة . وأطلق اسمه على كل شيء تميز فى بابه : فهناك خيل لوبى ، وشمام لوبى ، وسيجار لوبى (٤٦) . أما الناقد الذى يجد فيه عيبا فيعيش كل يوم فى خوف الموت على يد أنصار الشاعر الأوفياء .

على أنه لم يكن سعيدا برغم هذا كله . كان ينقد أجرا لا بأس به عن مسرحياته ، ولكنه ينفق أو يهب ماله بمجرد كسبه ، وبعد أن أصاب هذا التوفيق الكثير أدركه الفقر واضطر إلى التماس المعونة من فليب الرابع — الذى أرسل له مهرا سخيا برغم أفلاسه . ولكن أحزانه كانت أفتك به من فقره . فقد دخلت ابنته مارثيلا الدير ، والتحق ابنه لوبى بالبحرية وغرق ، وهربت ابنته انطونيا مع كريستوبال تونوريو آخذة معها عددا كبيرا من تحف أبيها القيمة . وتبرأ منها لوبى ، وهجرها كريستوبال . ووقر فى نفس لوبى أن هذه المحن ليست سوى عقاب من السماء على آثامه ، فحبس نفسه فى حجرة وأضعف جسده بفرط الصيام حتى تلوثت الجدران بدمه . وفى ٢٣ أغسطس ١٦٣٥ نظم آخر قصائده « السجلو دى أورو » (القرن الذهبى) ومات بعد أربعة أيام وقد بلغ الثالثة والسبعين . ومشت نصف مدريد فى مشهده الذى عرج على الدير ليمكن ابنتــه من أن تقرئه تحية الوداع من نافذة صومعتها . وهكذا مثل تمجيد الناس له على هذا المسرح الشعبى الكبير .

إننا لا نستطيع أن نعتبره ضريبا لشيكسبير كما فعل فولتير . ولــكنا نقول فيه إنه بعبقريته العارمة ، وشعره الجياش ، وشخصيته المحببة المشرقة خلال ألف مسرحية ، ارتفع إلى ذروة العصر الذهبى الأدبية التى لم يطاوله فيها سوى سرفانتس وكالديرون .

٥ — كالديرون : ١٦٠٠ — ٨١

كان هناك كتاب آخرون تحدوا تفوق لوبى فترة وجيزة . ومن هؤلاء جويلين دى كاسترو (١٥٩٦) الذى ألف مسرحية « شباب السيد » ،

وقد فضلها بعضهم على مسرحية كورنى « السيد » الأكثر شهرة . ثم لويس فيليزدى جويفارا الذى انقطع عن ممارسة القانون فترة أتاحت له تأليف أربعمائة تمثيلية ، ومنها « الديابلو كوخويلو » وهى المصدر الذى استقى منه لساج مسرحيته « الشيطان الأعرج » . كذلك عرض تيرسو دى مولينا فى برشلونه (١٦٣٠) مسرحية « ساحر اشبيلية والضيف الحجرى » التى ثبتت شخصية دون خوان مجدفا شهوانيا ، وزدوت موليير بحبكة مسرحيته « الوليمة الحجرية » وموتسرت بحبكة أوبراه « دون جوفانى » وأوحت إلى بيرون ملحمته « دون جوان » ففى هذه السطور القليلة لمحات عن التأثير الهائل الذى كان للمسرحية الأسبانية فى الخارج . وفى عام ١٨٠٣ فاجأ أوجست فلهلم فون شليجل ألمانيا بإعلانه أنه ليس بين كتاب المسرحية الحديثة من يعلو على بيدور كالديرون دى لاباركا سوى شيكسبير .

اختتم كالديرون العصر الذهبى وعمر بعده كما فعل موريللو . كان أبوه وزيرا للمالية على عهد فليب الثانى والثالث ، وتلقى فى سلامنكا كل ما استطاع اليسوعيون أن يعطوا ويسمحوا به من تعليم ، وقد كان للاهتمام الشديد بالدين فى تربيته أثر قوى فى تلوين عمله وحياته . درس القانون فى سلامنكا ، ولكنه هجره حين اكتشف أن فى قدرته الكتابة للمسرح بنجاح . وقد احتوت احدى تمثيلياته على اشارة شديدة الوضوح إلى الحشو الجونجورى الذى شاب عظات واعظ ذى نفوذ ، لذلك أودع كالديرون السجن حينا ، ولكن اسمه ذاع بين الناس . ونشر مجلد بمسرحياته ومنها « لافيدا ايس سوينو » (الحياة حلم) عام ١٦٣٦ فكفل له من فوزه مكان الصدارة فى المسرح الأسبانى . وعينه فليب فى ذلك العام ليخلف لوبى دى فيجا مسرحيا للبلاط . وفى عام ١٦٤٠ انضم إلى فرقة من الفرسان المدرعين واكتسب شهرة بفضل بسالته وشهامته فى ترجونا . وكثيرا ما استطاع الأديب فى أسبانيا — كما استطاع فى البلاد الاسلامية

— أن يحقق حلما يضمره ، وهو أن يكون رجل أعمال لا أقوال فحسب — على أن صحة كالديرون تداعت بعد اشتغاله بالحرب سنتين ، فتقاعد بمعاش حربى . ووجهه الحزن على فقد الأقرباء وجهة الدين ، فأصبح عضوا علمانيا فى طائفة الفرنسكان ، ثم رسم قسيسا (١٦٥١) ؛ وظل عشر سنوات يخدم أبرشية فى طليطلة وهو يواصل الكتابة للمسرح بين الحين والحين . وبعد أن نال كل ما تمنحه هذه الدنيا من مظاهر التشريف ، مات فى الحادية والثمانين وهو وطيد الأمل فى أن ينال المثوبة على تأليفه مئات « الفصول المقدسة » واكتفائه بخليلة واحدة دون سوها .

ومسرحياته الدينية أجمل ما كتب فى بابها ، ففيها وجدت قدرته العاطفية سندا من تقواه الصادقة . وقد حظيت مسرحياته الدنيوية زمنا طويلا بشهرة دولية أوسع من مسرحيات لوبى ، لأنها تضارعها شعرا وتفوقها فكرا . وكان يعوزه بعض ما وهبه لوبى من حيوية وتنويع هائلين ، ولكنه هو أيضا كتب هذا اللون من مسرحيات « العباءة والسيف » بحيوية ومهارة . ولا يستطيع ايفاءه حقه الكامل من التقدير سوى خبير باللسان القشتالى ، ولكنا نسجل هنا أن شاعرين من شعراء الإنجليز شعرا بعبقريته وناضلا لابتعاثها من بوتقتها اللغوية . وأولهما شلى الذى ترجم بتصرف اجزاء من « الساحر الرهيب » ، وكان متفقا مع شليجل فى رأيه فى كالديرون ، والثانى ادوارد فتزجيرالد الذى حاول فى كتابه « ست مسرحيات لكالديرون » (١٨٥٣) أن يفعل للمسرحى الأسبانى — دون أن يوفق — ما فعله بعد ست سنوات لعمر الخيام بتوفيق كبير .

و « الساحر الرهيب » صورة محورة لاسطورة فاوست . هنا نرى فقيها شهيرا من فقهاء انطاكية يدعى كبريان يقطع مبارزة بين اثنين من تلاميذه يشتهى كلاهما خوستينا ، ويحملهما على أن يغمدا سيفيهما بعد أن يوافق على الذهاب إليها للتحقق من أيهما تختار . ويمضى إليها ، ولكنه يقع فى غرامها لأول نظرة . أما هى فتطرده فى ازدراء ، ثم تحن إليه ، وأما

الطالبان اللذان صدتهما أيضا فتعزيان باختها ليفيا ، ولكن كبريان لايقوى. على تخليص ذا كرته من فتنة خوستينا .

رائعة الجمال هي —
وأنانهب بين حبي وغيرتي؛
يعتصرني الأمل والخوف ،
مهما بدا هذا شائنا —
ما أمر الحياة التي أحيا ،
فأنصتي الآن يا جهنم !
إنني لأبذل لروحك البغيضة
نفسي ترثينها إلى الأبد ،
وأحتمل العذاب والسقم ،
نظير أن أملك هذه المرأة(٤٧)

ويقول الشيطان « قبلت » ، ولكن خوستينا تستعصى عليه . وأخيراً يأتي بها إلى كبريان ، ولكن حين يحاول العالم ضمها إلى صدره ينكشف قناعها فلا يبدي غير جمجمة . ويعترف لوسيفر (ابليس) أن قوة المسيح وحدها هي التي استطاعت أن تجيز عليه هذه الحيلة . وأخيرا ، وبينما يساق كبريان وخوستينا إلى لاستشهاد المسيحي ، تعترف بحبها له .

ومن التمثيليات التي ترجمها فتزجيرالد ظفرت « عمدة سلامبا » بالاطراء الشديد لتفوقها التقني . ولكن لمسرحية «الحياة حلم» مسحات باطنة أكثر عمقا . فهي تنحي موضوعات الشرف والحب القديمة جانبا ، وتعرض على المسرح في جرأة مشكلة تكاد تكون شرقية : فالى أي حد تكون صروف الدهر وانتصارات الحياة دائمة وحقيقية ؟ ألعلها ليست سوى أوهام ، وخدع ؛ وجزء من القناع الذي يحجب ما خلفه من حقيقة جوهرية خالدة ؟ هنا نرى باسليوس ملك بولندة يسجن ابنه الحديث الولادة ، الذي تتنبأ الطوالع بتمرده على أبيه . ويربى سجسموند في الأغلال وسط حيوات

الغابة ، ويشب أشد توحشا من أى وحش طليق . على أن الملك يلين في شيخوخته ، فيدعو ولده للحضور ومشاركته العرش ، ولكن سجسموند الذى لم يدرب على الحكم يقاتل بضراوة وفى عنف أخرق يكره أباه على تحذيره حتى يخضع . فإذا أفاق وجد نفسه قد عاد إلى كهفه وأغلاله فى الغابة . ويقال له إن سلطانه الأخير لم يكن غير أضغاث أحلام ، فيصدق ، ويتكلم كما تكلم رتشرد الثانى المهزوم فى مسرحية شيكسبير :

لا ريب فى أن الحياة فى وميض
هذه الدنيا ليست سوى حلم !
يحلم النائم بما هو عليه ولا يفيق إلا
حين يفاجئه الموت بصبحه الحافل بالأسرار .
فالملك يحلم بأنه ملك ،
وعلى هذا النحو الخداع
يعيش ويحلم بسطوة الملوك ،
ولكن كل الهتافات التى تجلجل من حوله
تتخذ لها أجنحة وتطير فى الهواء
لأنها وليـــدة الهـــواء .
ثم يذيب الموت كبرياءه وأبهته .
فيحيلها — وا أسفاه — رمادا فى رماد .
فمنذا الذى يشتهى التاج
وهو يرى أنه لا محالة مفيق
من حلمه وراء باب الموت ؟
قصارى القول ان الناس فى كل الأرض
يحلمون أيا كان مولدهم . . .
فما الحياة ؟ خيال يتراءى ،
سراب يترقرق كاذبا ،

فرحة زائفة ، راحة خداعة ،
فالحياة على أحسن الفروض حلم ،
وحتى الأحلام ذاتها ليست غير أحلام(٤٨)

ثم يلقى سجسموند عنه وحشيته ، بانقلاب آخر علله المؤلف تعليلا شديد القصور ، ويغدو إنسانا عاقلا ، فإذا أجلسته الثورة على العرش أصبح ملكا صالحا ، واعيا فى تواضع بأن هذا الارتقاء هو أيضا حلم ، فقاعة تافهة فى زبد الحياة .

والخطب فى المسرحيـــة طويلة طولا مؤلمـــا ، وتزويق العبارات « الجونجورى » يفسد خمر الشعر ، ولكنها مسرحية قوية برغم هذا العيب ، تمزج الحركة بالفكر وتحتفظ بالتشويق الدرامى إلى النهاية . وأغلب الظن أننا لو كان لنا وطن وتعليم غير وطننا وتعليمنا ، ولو أتيح لنا الفهم الجيد للغة القشتالية ، لاعتبرنا هذه التمثيلية من أعظم التمثيليات فى العالم .

ويستحيل علينا الآن أن نستعين بالخيال لنقتلع أنفسنا من سجن زماننا ومكاننا ، وندرك قوة الدور الذى لعبته الدراما فى أسبانية القرن السابع عشر ، ومدى النفوذ الذى حظيت به . ففى إيطاليا كادت تطرد المأساة الإيطالية من خشبة المسرح . وفى فرنسا زودت بالحبكات كتابا كآردى وكورنيى وموليير وكثيرين غيرهم ، وقد صاغت شكل المأساة الفرنسية قبل راسين ، إذ شددت على الشرف وأسقطت البلاغة . فإذا ذكرنا إلى ذلك كله تأثير سرفانتس وغيره من الروائيين الأسبان على لوساج وديفو وفيلدنج وسموليت ، ومن خلال هؤلاء على دكنز وثاكرى ، وإذا قارنا فن إنجلترة الاليزابيثية ، أو حتى فن فرنسا المعاصرة ، بعمارة أسبانيا ونحتها وتصويرها فى أوجها ذاك — إذا فعلنا هذا كله بدأنا هنا ندرك لم تغلو شعوب العالم الناطقة بالأسبانية فى الفخر بميراثها والاعتزاز بنفسها .

الفصل الثانى عشر

العصر الذهبى للفن الأسبانى (*)

١٥٥٦ — ١٦٨٢

١ — الفن واحد ، وألوانه ألف

ترى كيف نفسر هذه الظاهرة ، وهى أن أسبانيا استطاعت فى هذه الحقبة — بعد أن انتزعت منها انجلترة السيادة على البحر وفرنسا السيادة على البر ، وبعد أن بدا أن كل مشروعاتها المادية قد أصابها الفشل والافلاس — أن تبنى كاتدرائية سيجوفيا (سقوبية)، وتوجه نحت هرنانديث ومونتانيس ، وتلهم تصوير الجريكو ، وثورباران ، وفيلاسكويز ، وموريللو ؟ ألأن الكنيسة الأسبانية ما زالت غنية، والبلاط الأسبانى ما زال مسرفا ، والذهب الأمريكى ما زال يدخل اشبيلية ، والفنانين الأسبان الذين يغذيهم الإيمان والمال ما زالوا يحسون وهج مجد لم ينطفىء كله بعد ؟

كان أقل البهاء فى العمارة ، ففيها أشبعت انتصارات الماضى كل حاجات الاتقياء . وفى اشبيلية أعلنت الكنيسة نصرها على المغاربة بتتويجها مئذنة جامع للمسلمين ببرج مسيحى أكمل جمال الجيرالدا (١٥٦٧) ، وبعد سنة توج بارتولومى موريل البناء كله بتمثال « الإيمان » الذى يزن طنا ، ومع ذلك ففى توازنه من الخفة ما يتيح له الحركة مع كل هبة ريح ليشرف على ملكه المبجل . وفى بلد الوليد بدأ خوان دى هيريرا ، معماري الاسكوريال ،

(*) كل الصور الأسبانية الواردة فى هذا الفصل معروضة فى « البرادو » ما لم ينص على غير هذا .

عام ١٥٨٥ بناء كاتدرائية « الصعود » الصارمة ، على نطاق مفرط فى السعة حتى أنها ما زالت بغير أثاث . وفوق تل يشرف على سيجوفيا بدأ قرنان من المعماريين والحرفيين عام ١٥٢٢ الكاتدرائية الضخمة التى ترمز فى كبرياء إلى ورع أسبانيا العارم الذى لا يتزعزع . وفى سلامنكا صمم خوان جومنيث دى مورا « السيميناريو كونثيليار » الضخم لليسوعيين بالطراز التورى البالاديوى مضافا إليه القبة .

ولكن حتى أسبانيا كانت تحتاج إلى فن دنيوى ، وكانت القصور كما كانت الكنائس تتطلب الفن . ففى أرانخويث بنى فليب الثانى (١٥٧٥) مصيفا يلوذ بحدائقه اللطيفة الجو من قيظ الاسكوريال ووقاره . وأضاف فليب الثالث قصر الباردو منتجعا له ولأصحابه ، وبهو السفراء المحلى بالزخارف فى هذا القصر مشهور بما حوى من ثريات . أما فليب الرابع وأوليفاريس فكادا يسبقان فرساى ببناء حديقة لهو عند بوابة مدريد الشرقية تدعى « بوين ريتيرو » (المتجع الطيب) (١٦٣١ — ٣٣) . وفى مسرحها الملكى مثلث مسرحيات كثيرة للوبى وكالديرون . وشيدت فى هذه الفترة قاعات مدن فخمة بليون واستورجا ، وصمم الجريكو قاعة منهـا بطليطلة .

أما النحت فكاد يكون كله كنسيا فى الشكل والمزاج . لقد عدل الطراز القوطى بفعل التأثير الإيطالى والزخرف الباروكى ، ولكن التمثال النصفى الذى لقى اقبالا شديدا فى إيطاليا أعرض عنه الناس فى أسبانيا بتحريم يقرب من تحريم المسلمين للتماثيل . وساهم المصورون — حتى أساطينهم من أمثال ثورباران وموريللو — بفنهم ليجعلوا النحت يقر فى نفوس العابدين الواقعية التى صوروها فى تماثيل المسيح المصلوب والقديسين المستشهدين . وكانت كل التماثيل تقريبا من الخشب المتعدد الألوان . وفى رأى السير وليم ستيرلنج — ماكسويل ، العلامة الاسكتلندى الذى أولع بالفن الأسبانى وأرخ له بحولياته ، أن خوان دى خونى « أفضل المثالين الأسبان » (١)

وقد أذاع اسم خوان مذبح أقامه فى كنيسة « سيدتنا عذراء أنتيجوا » فى بلد الوليد ، وتمثال فى كنيسة أخرى هناك سماه « الأم المتألمة » اعتز به الناس اعتزازا حدا بهم فى عمق إيمانهم الحزين إلى التماس السماح لهم بإلباس التمثال ثيابا غالية . وهناك مثال آخر تضعه أسبانيا فى صف يعلو حتى عن مقـام خوان ، وهو جريجوريو هرنانديث ، هذا أيضا نحت تمثالا آخر للأم المتألمة ، وفى واقعية اختص بها رسم على ثوبها بقع دم ووضع دموعا من زجاج فى وجهها . ولعل تمثال هذه الأم الحزينة ، والمسيح الميت مسجى على حجرها ، هو أسمى ما بلغه فن النحت الأسبانى فى هذا العهد .

وأعظم هؤلاء المثالين خوان مارتينيث مونتانيس . ولم يكن يجاوز الثامنة عشرة يوم وفد هووزوجته (١٥٨٢) على دير « دولثى نومبرى دى خيسوس » فى إشبيلية ، وأهداه تمثالا للعذراء ، وعرفانا بصنيعه كوفئ بسكن مجانى مدى الحياة . وقد سر اليسوعيين بتماثيل نحتها لأغناطيوس وزافير ، وأبهج الرهبان الهيرونيميين بتمثال للقديس جيروم . ومازالت كاتدرائية إشبيلية تعرض تمثاله للمسيح المصلوب ، الذى قال فيه أحد المؤرخين إنه ربما كان أسمى تشخيص للضحية الإلهية [٢] ، وحين فرض البابا بولس على جميع الكاثوليك الإيمان بعقيدة « الحمل غير المدنس » ، سعدت أسبانيا جدا بهذا القرار لأنها — كفرنسا — كانت تركز تقواها على العذراء . وارتفع مونتانيس إلى متطلبات الموقف ، فنحت رائعته (المحفوظة بكاتدرائية اشبيلية) — وهى تمثل « أم الإله » الفتية تتأمل سر خلوها من الخطيئة الأصلية ، هذا التمثال أيضا عد من آيات النحت العالمى[٣] ، ولـكن العذراء الأندلسية تبدو شديدة الهدوء والرضى ، وأن أثقلتها كثرة الملابس .

ولوتوخينا الانصاف برغم الإيجاز ، لقلنا أن صورة الفن الأسبانى لا بد أن تعدد مفاخره الصغيرة وتحتفل بها : هذه المشبكات والأستار

والبوابات من الحديد أو البرونز ، والمحفورات الخشبية على كثير من حواجز المذبح فى الكنائس ، ومقاعد المرتلين كتلك التى نقشها بيدرو دى مينا لكاتدرائية ملقا ، والمصابيح ، والصلبان والكئوس ، والعلب ، والمظال المشغولة بالفضة أو الذهب ، كصناديق خوان دى أرفى العالمية الشهرة ؛ ثم التماثيل الصغيرة من الخشب أو العاج أو المرمر أو البرونز ، والمطرزات والموشيات التى ازدانت بها مذابح الكنائس وتجملت بها النساء ، وزجاج برشلونة المغشى بالمينا ، وآنية تلافيرا (طلبيرة) من الصفيح المزجج .

كادت الكنيســة قبل مجىء فيلاسكويز أن تكون الراعى والحكم الأوحد فى التصوير . وكان من آثار الأحاسيس القاتمة التى اصطبغ بها اللاهوت والورع الأسبانيان ، والتى ربما كانت انعكاسا لصخور الإقليم الكئيبة وقيظه المحرق ، أنها لم تسمح إلا بالقليل من الفكاهة أو الخفة أو التأنق فى علاج الموضوعات ، وأنها حرمت تصوير العرايا ، واعرضت عن تصوير الأشخاص ومناظر الطبيعة ، وشجعت ضربا من الواقعية الحافية التى اتكأت على جوانب الإيمان المخيف أكثر من جوانبه المعزية ، فعلى الصور أن تقر العقيدة وتؤججها فى النفس بالخيال الملتهب والصرامة الديرية . وانتهى الأمر بأن المصورين أنفسهم رأوا الرؤى وادعوا الوحى الإلهى . وقد نافس فليب الثانى الكنيسة فى رعاية المصورين، ولكن موضوعات التصوير ظلت دينية ، وحين كلفهم النبلاء برسم صور كانوا عادة يتبعون القاعدة نفسها ، ولم يبدأ توجيه التصوير وجهة دنيوية إلا بفيلاسكويز وفليب الرابع . ودخلت بعض المؤثرات الأجنبية لتعدل من هذا التأثير الكنسى . مثال ذلك أن كاردوتشى وتسوكارو ونحو ثمانية عشر فنانا إيطاليا آخرين طعموا الفن الأسبانى بطابع أرق ؛ وقدم انطونيس مور من فلاندر عام ١٥٧٢ ، وتأثر الرسامون الأسبان الذين زاروا الأراضى المنخفضة بروح فانديك ، كذلك ناشد روبنز ، الممتلئ حيوية ومرحا ، الفنانين الأسبان حين اكتسح مدريد عام ١٦٠٣ ، أن ينظروا إلى الحياة لا إلى الموت .

وفضلا عن أئمة الفن الأربعة اللذين هيمنوا على التصوير الأسبانى فى هذا العصر كان هناك كثير غيرهم أقل نبوغا ؛ كألونسو سانتشيث كوئيللو الذى رسم بالأسلوب الفلمنكى لوحات لابن فليب الثانى الصغير دون كارلوس وابنته ايزابل ، وتلميذ كوئيللو خوان بانتوخا دلاكروث ، الذى ترك لنا صورة قائمة لفليب الثانى (٤) ، وأخرى قوية للقديس أوغسطين ، وفرانسسكودى ريبالتا الذى يظهر أسلوبه « القاتم » ، أسلوب الضوء تحيط به الظلمة ، فى لوحة « القديس فرنسيس يعزيه ملاك » ، وفرانسسكو باتشيكو الذى علم فيلاسكويز ، وزوجه ابنته ، وشرح مبادىء التصوير الأسبانى فى كتابه « فن التصوير » (١٥٤٩) ، كتب يقول « إن أكبر هدف للفن أن يعزى الناس بالتقوى ويعطف قلوبهم نحو الله (٥) » . وفى عام ١٥١١ زار الجريكو فى طليطلة ، وأدن صور اليونانى لأنها « تخطيطات تحضيرية (٦) » فلننظر الآن فى هذا الحكم .

٢ — الجريكو : ١٥٤٨ ؟ — ١٦١٤

كان فى كريت مسقط رأسه يسمى نفسه كرياكوس ثيوتوكوبولس — أى الابن الإلهى للرب ، وفى إيطاليا سمى دومنيكو تيوكوبولو ؛ وفى أسبانيا دومنجو تيوتوكوبولى ، وكان يوقع بالحروف اليونانية دومنيكوس تيوتوكوبولس ، واختزل الزمن اسمه إلى الجريكو ؛ وهو الكنية التى اشتهر بها فى أسبانيا . ولا نعرف شيئا عن حياته فى كريت . ولعل أجداده هاجروا إليها من القسطنطينية بعد أن فتح المسلمون هذه المدينة اليونانية (١٤٥٣) ؛ على أية حال كان يستطيع فى كريت ، كما استطاع فى البندقية بعد ذلك ، أن يشعر بتأثير الفسيفساء البيزنطية الصارم . وكانت كريت فى حياته ملكا للبندقية ؛ لا عجب إذن أن يستقل الفنان الصغير السفينة إلى مدينة البحيرات ، تجيش فى صدره الآمال بعد ما سمع عن بلوغ التصوير أوجه فيها ، وأغلب الظن أنه انضم إلى الجالية اليونانية الكبيرة فى تلك العاصمة العالمية .

ودرس على يد تتسيانو عامين أو أكثر ، وأعجب بفن تنتوريتو فى جمعه الوجوه فى صور مزحومة ، وربما سرى إليه ولع فيرونيزى بالثياب الفاخرة البهية . وقد نسخ الصور الشهيرة بتواضع صابر فى البندقية وريدجواميليا ، وبارما ، وفلورنسة ، ووصل إلى روما عقب وفاة ميكل انجلو (١٥٦٤) .

وأول ذكر محدد لدينا عنه ورد فى خطاب كتبه جوليو كلوفيو إلى الكردينال أليساندرو فارنيزى فى ١٦ نوفمبر ١٥٧٠ يقول فيه

« وفد على روما شاب من كانديا ، تلميذ لتتسيانو ، ومصور ذو موهبة نادرة فى ظنى ... وقد رسم لنفسه صورة أطراها كل المصورين فى روما . وبودى لو شملتموه سيادتكم بالرعاية ، دون أى اسهام فى رزقه سوى اعطائه حجرة فى قصر فارنيزى » (٧) .

وقبل الكردينال ، وكافأ الجريكو كلوفيو بلوحة رائعة (٨) . وحين كثر اللغط حول العرايا فى لوحة ميكل انجلو « الدينونة الأخيرة » عرض دومنيكو ان يرسم بدلا منها — إذا رفعت — لوحة أخرى لا تقل عنها اتقانا وتمتاز بتغطية الأجسام على نحو أفضل (٩) ، فسقط فى أعين فنانى روما . وأخبره بعض الأحبار الأسبان فى روما أن فليب الثانى يبحث عن مصورين لتزيين الاسكوريال . فرحل إلى أسبانيا عام ١٥٧٢ بعد أن نفض عن قدميه غبار روما ، ولكنه استبقى على فرشاته بعض انحرافات « اللازمية » الإيطالية .

وليس لدينا بعد ذلك عنه ذكر حتى عام ١٥٧٥ ، حين نجده يصمم ويزين كنيسة « سانتودومنجو الانتيجيو » فى طليطلة ، العاصمة الدينية لأسبانيا . فرسم لمذبحها لوحة « صعود العذراء » الفخمة التى تحتل اليوم مكانا بارزا فى معهد الفن بشيكاغو — وهى تحذو فى نواح منها حذو لوحة تتسيانو « الصعود » بالفرارى فى البندقية ، وتلتزم الأجساد الفتية المفعمة شبابا والرءوس الهرمة لحلية التى درج عليها الأسلوب الإيطالى فى

التصوير . وفى عام ١٥٧٧ رسم لكاتدرائية طليطلة لوحة مشهورة سماها « تقسيم أثواب المسيــح » وأخذت لجنة شكلت للحكم على الصورة عليها أن ســترة يسوع فاقعــة الحمرة ، وأن النســاء اللاتى يرين فى أسفل اليسار — المريمات الثلاث — لا محل لهن هناك ، لأن الأناجيل ذكرت أنهن كن ينظرن من بعيد ، ومع ذلك أعلن القضاة حكمهم المتنبئ بأن الصورة « لا تقدر بثمن ، وأنها عظيمة القيمة [١٠] » . وكانت إحدى المريمات منقولة عن خليلة المصور، واسمها الدونا خيرونيا دلاس كيفاس، التى يظهر وجهها الحزين اللطيف فى معظم عذارى الجريــكو . وهو لم يتزوجها قط برغم وفائه لها وولائه للكنيسة ، ولم تكن هذه عادة أسبانية قديمة بل عادة تقدست طويلا فى مراسم الفنانين .

ووصف كاتب من الجيل التالى ، يدعى خوزيه مارتينيث ، دومنيكو بأنه أصبح الآن على ثقة من الخلود ، قال :

« لقد استقر . . . فى طليطلة ، وأدخل أسلوبا شديد الاسراف بحيث لم ير إلى اليوم له نظير ، ومحاولة البحث فيه تشوش أسلم العقول . . . وقد صرح بأن فنه لا يعلو عليه فن . . . وكان فى طبيعته من الغلو مثل ما فى فنه . . . كان يقول إنه ما من ثمن يمكن أن يوفى رسومه حقها، لذلك كان يرتهنها عند أصحابها ، الذين يقرضونه عنهــا ما شاء عن طيب خاطر . وكان معماريا ذائع الصيت ، عظيم البلاغة فى أحاديثه . أما تلاميذه فقلائل ، لأن أحدا لم يشأ أن يأخذ بأسلوبه المسرف المتقلب الذى لا يصلح إلا له »[١١] .

وحوالى عام ١٥٨٠ أرسل فليب الثانى فى طلب الجريكو ووكل إليــه رسم لوحة « القديس موريس والفيلق الطيبى » وبعد جهد سنوات أربــع قدم الفنان ثمرة تعبه للملك . غير أن فليب وجد تجميــع الأشخاص شديد الاختلاط ، فدفع ثمن اللوحة ولكنه لم يقبلها ، وعاد الجريكو محزونا إلى طليطلة ، ولم يبرحها بعد ذلك قط فيما نعلم . . وكان ذلك خيرا له ، لأنه أصبح حرا فى أن يعود إلى طبيعته الصوفية .

ثم رسم لكنيسة القديس توما (١٥٨٦) أشهر صوره اطلاقا ، وكأنه كان بذلك يثأر لنفسه ،وهى إحدى ذرى فن التصوير . وقد اشترط العقد أن يبدى فيها الكهنة يحيون تقليدا يزعم أن القديسين هبطوا من السماء ليدفنوا الدوق جونزالو رويز ، كونت أورجاز ، وأن يمثل القديسان اسطفانوس وأوغسطين (فى أثواب الأساقفة) وهما ينزلان الجثمان إلى قبره وسط جمع جليل من وجوه القوم ، وفوق هذه الوجوه تبدى السماء المفتوحة ابن الله فى مجده وبهائه . كل هذا فعله بحذافيره وأكثر منه ، فكل رأس تقريبا لوحة كاملة الصقل . والأرواب معجزة من الذهب والخضرة والبياض ، والدرع الدمشقى الحلية الذى يلبسه الكونت يتلألأ ضياء ، زد على ذلك أن الجريكو نفسه يرى من خلف القديس اسطفانوس. أما آية هذه الآية فرأس القديس أوغسطين بقلنسوته ولحيته ، أم لعلنا نؤثر عليه الجثمان الجميل ؟ أم وجه القديس اسطفانوس الحلو ؟ أم الكاهن الأصلع يتلو صلاة الدفن ؟ أم خورجى مانويل ، بن الجريكو ذا الثمانية الأعوام ممسكا فى فخر مشعلاومبرزا من جيبه منديلا ليظهر توقيع الجريكو؟ وفى كتاب فرانسسكو دى بيزا « تاريخ طليطلة » (١٦١٢) نقرأ ما كان ينبغى أن نحزره : « إن لوحة (دفن الكونت أورجز) هذه من أبدع الصور فى أسبانيا بأسرها . والناس يؤمونها من كل بلد غريب ليعجبوا بها إعجابا خاصا ، وأهل طليطلة لا يملونها ، بل يجدون فيها على الدوام جديدا يتطلعون إليه . وفيها يرى الكثير من مشاهير الرجال فى عصرنا مصورين تصويرا واقعيا[١٢]. » ومع ذلك كله راح مجلس الأبرشية يساوم على أتعابها ، فرفع اليونانى الحامى الطبع الأمر إلى القضاء ، وكسب دعواه ، وتسلم ألفى كراون .

إنه الآن لا يشكو قلة الطلب على رسومه ، فلقد وجد نفسه ، ولم يعد يفكر فى تتسيانو ولا فى تنتوريتو ، وقد استطاع أن يجرى تجاربه فى إطالة الأشكال ، لا لأنه يعانى من أى قصور فى البصر ، بل لأنه

فى أغلب الظن شعر بأنه بهذه الطريقة قد يرمز إلى التسامى الروحى لأشكاله — أجسام تمددها نفوس تشرئب إلى السماء . وفى لوحتى القديس أندراوس والقديس فرانسيس المحفوظتين بالبرادو يبدو هذا التحول غير مفهوم ما لم نأخذ هذه الرمزية فى الاعتبار ، ونتذكر التماثيل القوطية التى ترقق مراعاة للقيود المعمارية . على أن هذا كله يغتفر للفنان حين نصل إلى لوحته «القديس الديفونسو» التى رسمها لمستشفى الكاريداد بإلليسكاس ، فهنا ، فى الروح الوقور الذى خلعه على رئيس الأساقفة الوسيط ، وفى عقله المستغرق ، ووجهه المتقشف ، وشعره الأبيض الناحل ، ويديه الرقيقتين — هنا تصور من أعمق تصورات الجريكو . « هذه الصورة وحدها تكفى جزاء وعوضا عن الرحلة إلى أسبانيا » (١٢) .

ولا يدلنا القليل الذى نعلمه عن حياة الجريكو على أنه كان متدينـــا على الطريقة الأسبانية ، ويبدو أنه كان يميل إلى اللذة لا إلى الورع . فحين رسم لوحة « العائلة المقدسة » لمستشفى تافيرا خلع على العذراء جمال الجسد لا وفاء الأم . أما لوحة « الصلب » ففيها علم واسع بالتشريح ، ولـكنها باردة فى العاطفة ، وقد أحس جرونيفالد بمأساة الصلب تلك احساسا أعمق بكثير . ففى صوره الدينية لا يتجلى الجريكو إلا فى اللوحات العارضة — كما نرى فى صورته هو بلحيته البيضاء ورأسه الأصلع فى «يوم الخمسين». ولم يجد مشقة ، فى بلد يعج برجال الدين ، فى العثور على شخصيات قوية يصورها ، كصديقه بارافيثينو الشالوثى (بوسطن) بوجهه نصف العـــالم ونصف عضو محكمة التفتيش ، أو رئيس المحكمة نفسه، الكردينال نينودى جيفارا (نيويورك) — وصورته لا ترقى إلى صورة فيلاسكويز التى رسمها لانوسنت العاشر . وقد تجاوزها الجريكو ذاته فى لوحة « كردينـــال تافيرا » الذى نرى فى وجهه المضنى — وكله عظام وعيون حزينة — تعبيرا آخر عن تصور الفنان لتكريس الكاهن نفسه لخدمة الدين . ولكن خير اللوحات كلها لوحات الأخوين كوفاروبيا : فواحد — وهو انطونيو — علمانى ،

أشيب ، متحرر من الوهم ، مرهق ، صفوح ، والآخر — دييجو — فى ثوب الكاهن ، ولكنه يبدو أشد اقبالا على الدنيا ، وأكثر مرحا ، وحسن التكيف مع محيطه . ولا يفوق هذه الدراسات العميقة سوى بعض لوحات رمبرانت وتتسيانو ، ولوحة رفائيل « يوليوس الثانى » .

وهى بعض الذخائر التى يضمها متحف كازا ديلجريكو فى طليطلة . وفيه أيضا « تصميم مدينة طليطلة » ، وهو يشرف هنا على المدينة كلها وعلى التـلال التى تكتنفها وكأنه يطل عليها من سحابة . وقـد صورها مرة أخرى فى أخريات عمره فى لوحـة « منظر طليطلة » ومن فوقها سماء عاصفة (نيويورك) — صورة تأثرية تزدرى الدقة الواقعية كل الازدراء . وحين أقبل عام ١٦٠٠ ، كان « اليونانى » قد أصبح من أشهر مواطنى المدينة ، يعرفه الجميع بروحه المتقلبة المتكبرة ، صوفيا بستطيب المال ، يشغل أربعا وعشرين حجرة فى قصر عتيق ، يستأجر الموسيقيين ليعزفوا له خلال تناوله الطعام ، ويجمع من حوله مثقفى طليطلة ، ويكرمه الناس بوصفه « فيلسوفا كبيرا ».[14] وحوالى عام ١٦٠٥ رسم صورة يفترض أنها صورته الذاتية (نيويورك) — أصلع ، أشيب ، يكاد يكون أعجف . وفى عام ١٦١١ وجده باتشيكو فى حال من الهزال أعجزته عن المشى . ولم يستطيع دفع ديونه وإن احتفظ بغرفه الأربـع والعشرين ، وقرر له مجلس المدينة مبالغ كبيرة غير مرة . ومات عام ١٦١٤ وهو فى الثالثة والسبعين .

أما مقامه فى دنيا الفن فمغامرة تالية لموته . كتب عنه جونجورا سونيتة مديح ، وأقر فيلاسكويز بعبقريته ، ولكن فنه الغريب لم يوح بأى محاكاة له ولم يؤسس أى مدرسة . ولم تأت سنة ١٦٥٠ حتى تاه أمام بهاء شهرة فيلاسكويز ، وطواه النسيان تقريبا مدى قرنين ، ثم اكتشفه دلاكروا من جديد ، واحتذى ديجا ومانيه وسيزان طريقته فى التعبير عن الحالات النفسية ، ورأى فان جوخ وجوجان فيه سلفا لهما . وفى عام ١٩٠٧ رفعت « الرحلة الأسبانية » التى كتبها « يوليوس

مايير جريفى » الجريكو فوق فيلاسكويز إلى أعلى ذرى التصوير الأسبانى . على أن هذه الذبذبات فى الشهرة قلقة لاثبات لها لأنها عرضة لـ « تقلبات الذوق الجامحة » (١٥) . ولكن الجريكو سيظل قرونا طوالا المثال الحافز للفنان الذى جاوز الأشياء إلى الأفكار والمشاعر ، وجاوز الأجساد إلى الأرواح .

٣ — ثورباران : ١٥٩٨ — ١٦٦٤

وبعد الجريكو ظل فن التصوير الأسبانى جيلا لا يتحرك ولا يظهر فيه غير رجال أقل كفاية بذلوا ما وسعهم من جهد ثم اختفوا . وإذا فنانان يظهران فى آن واحد تقريبا، هما فرانسسكو دى ثورباران وديجو فيلاسكويز ، ويفيضان فنهما العظيم على أسبانيا . وقد ظلا ثلاثين عاما يكمل الواحد منهما صاحبه . فثورباران يرسم كأنه راهب يدفعه الخوف إلى العبادة ، ويقترب بصلاته من الله ، وفيلاسكويز يلقى النجاح فى الدنيا ويلصق بمليكه .

أما ثورباران فقد عمد فى فوينتى دى كانتوس ، بجنوبى أسبانيا الغربى ، فى ٧ نوفمبر ١٥٩٨ ، ابنا لصاحب حانوت أتيح له من النجاح ما مكنه من إرسال ولده لينمى موهبته فى اشبيلية . وبعد عامين من الدرس وقع أول صوره المؤرخة (١٦١٦) ، وهى صورة للحمل غير المدنس . كان خليقا بها أن تقضى على مستقبله . وبعد سنة انتقل إلى ليريما ، على خمسة عشر ميلا من مسقط رأسه . وكانت المنطقة آهلة بالأديرة والكنائس والصوامع ، ومنها تلقى فرانسسكو مهامه المتواضعة وإلهاماته . وهناك تزوج ماريا بيريز ، وكانت تكبره بتسع سنين ، لكى يضفى الشرعية على ولده منها ، وقد ماتت بعد أن أنجبت له طفلين آخرين . وفى عام ١٦٢٥ تزوج أرملة تكبره بعشر سنين ، ولكن لها صداقا مغريا ، فولدت له ستة ، مات خمسة منهم فى طفولتهم . وبعد موتها تزوج بأرملة غنية ، فأنجبت له ستة ، مات منهم خمسة فى طفولتهم . وهكذا جاهد الحب لكى يتقدم الموت بخطوة .

أما في الفن فقد بدأت فترته الخلاقة بعقد كلف فيه بأن يرسم في ستة أشهر إحدى وعشرين صورة لديردومنيكى بأشبيلية يدعى سان بابلو الريال (١٦٢٦) . وبعد أن أنجز ثوربارن هذه المهمة زار مدريد فيما يبدو ، وأحس بتأثير فيلاسكويز . وكانت صوره حتى ذلك الحين تعكس أسلوب كارافادجو القاتم الضخم ، وربما أسلوب ريبرا أيضا ، فأضاف الآن إلى طبيعيته الخشنة نعومة جديدة في الظلال ورهافة في الصقل : وبعد قليل نلقاه في إشبيلية يرسم اثنتين وعشرين لوحة قماشية هائلة للرهبان « المرسيدارين » — (أى رهبان سيدتنا الرحيمة) خصصت لافتداء المسيحيين الأسرى . والصور الأربعة الباقية من هذه المجموعة ليست من الروائع ،ولكن في واحدة منها وجها صبيانيا تعيه الذاكرة لعله وجه خوان ابن الفنان : ولا بد أن اشبيلية أحبت هذه الصور ، لأنها طلبت إلى فرانسسكو رسميا عام ١٦٢٩ أن يجعل فيها مقامه — «إن اشبيلية تشرف ... لأن التصوير من أهم ما تزدان به الدولة [16] » . وقبل ثورباران العرض :

ونحو عام ١٩٣٠ رسم لكنيسة سان بونافنتورا الفرنسيسكانية طائفة من أروع صوره . ومنها صورة « القديس بونافنتورا يشير للقديس توما الأكويني على الصليب » ، ترى فيها اللاهوتى العظيم — ممثلا على هيئة راهب دومنيكى لسوء الحظ — ينبهه القديس في رفق إلى أن الدين ليس قوامه النظرية الفلسفية بل تأمل المسيح . وهذه الصورة — وهى الموضوع الذى يتردد في ثورباران — سرقها المارشال صولت من أسبانيا (١٨١٠) ووجدت طريقها إلى متحف القيصر فردريك في برلين ، ثم أتت عليها الحرب العالمية الثانية . وصورة أخرى في هـذه المجموعة ، « القديس بونافنتورا على نعشه » ، أخذها صولت أيضا ، بيعت للوفر عام ١٨٥٨ وما زالت هناك ؛ والوجوه الأربعة التى إلى يسارها رائعة . وأروع من هذه « تمجيد القديس توما الأكوينى » التى رسمها ثورباران لكلية دومنيكية بأشبيلية ؛ والفكر ينتقل في دهشة من وجه عميق إلى وجه آخر —

أمبروز ، وجريجورى ، وجيروم ، وأوغسطين ، وشارل الخامس .
ولكن خيرونيمو فيلاسكويز كان ينقد على الإطار وحده ستة أمثال ما ينقده ثورباران على الصورة .

وحين انتقل المصور المشغول إلى كنيسة القديس البرتو الكرملية ، رسم القديس فرانسيس مستغرقا فى صلاته بخشوع ، والقديس بطرس توما ، راهبا كثير التجاعيد أضناه طول انتظار الفردوس . ولما عاد إلى دير المرسيداريين (١٦٣١) صور بعضا من أجلّ رهبانه ، ومن هذه الصور صورة « فراى بيدروما تشادو » وتكاثر عليه الطلب خلال سنة ١٦٣٣ : اثنا عشر رسولا لكنيسة فى لشبونه ، وثلاث صور للكارثوسيين بأشبيلية ، وعشر لمصلى القديس بطرس فى الكاتدرائية الكبرى ، واحداها — القديس بطرس نادماً — الموجودة إلى اليوم فى مكانها الأصلى ، تجربة مدهشة فى الواقعية : ربما رسمها وهو يذكر ريبيرا .

وتعاظم الطلب على ثورباران الآن حتّى وكل معاونيه بالكثير من أعماله . رسم لدير جوادالوبى فى استريمادورا صورة « إغراء القديس جيروم » ، ورأس القديس ويداه فى هذه الصورة من أعاجيب التقنية ، أما السيدات الرقيقات عازفات الموسيقى فليس من الانصاف أن يقاوم اغراؤهن . وطلبت صور الفنان حتّى من بيرو وجواتيمالا ، وذهبت سلسلة من صور الرسل إلى ليما ، وأخرى إلى أنتيجوا ، وأرسلت إلى المكسيك لوحة « المسيح فى عمواس » ، التى تصور المسيح المقام فلاحا سليم الجسم سعيد النفس يتناول طعامه . وبعض هذه اللوحات القماشية أدى فى عجلة أو قام به معاونوه ، وقد اضطر ثورباران لمقاضاة ليما حتّى يحصل على أتعابه .

ومنذ عام ١٦٤٥ بدأ الفنان الشاب موريللو يتحدى مكانته الرفيعة فى اشبيلية ، فزود الكنائس والأديار بصور تمثل قصة المسيحية بلغ من مرقتها أنها هوت بالطلب على واقعية ثورباران المقلقة : وحاول المصور المكتهل

أن يلطف من مرعباته ، وكافح حينا ليبارى موريللو فى عاطفته العائلية الورعة ، كما نرى فى لوحته « العذراء والطفل مع القديس يوحنا » (المحفوظة بسان دييجو فى كاليفورنيا) ، ولكن هذا الأسلوب الجديد كان غريبا على فنه ومزاجه . وعلى ذلك شد رحاله إلى مدريد عسى أن يستقيم له الأمر ، ولكن فليب الرابع ، المفلس ، لم يجد ما يكلفه به خيرا من زخرفة كوخ صيده . وكان فيلاسكويز كريما معه ، ولكنه مات فجأة . وعمر ثورباران بعد موت صديقه وزوال شهرته .

ولم يكد صيته يجاوز جبال البرانس ، حتى استلطف قواد نابليون صور رهبانه الضخام وقديسيه العابثين فخطفوا بعضها وأتوا بها إلى فرنسا . ولما أتبعت الأديرة الأسبانية للدولة عام ١٦٣٥ جلب المزيد من صوره إلى باريس ، وفى عام ١٨٣٨ افتتح الملك لوى فليب فى متحف اللوفر قاعة أسبانية تضم أربعمائة لوحة نسبت ثمانون منها لثورباران . والذوق الفنى فى أيامنا هذه يجد رقعته شديدة الضيق مغرقة فى الديرية ، ويجد روحه مثالية فى الكآبة والتفكير . ونحن نفتقد فيه صعاليك موريللو وفلاسفة فيلاسكويز وأميراته الجميلات . ومع ذلك ففى فنه اخلاص مكين ، وتفان عميق ، وقوة فى اللون والشكل ترفعه فوق دنيا الميول العابرة وتكفل له مكانه فى ذاكرة البشر .

٤ — فيلاسكويز : ١٥٩٩ — ١٦٦٠

كان جده لأبيه نبيلا برتغاليا رحل عن أوبورتو إلى اشبيلية بعد أن فقد كل ثروته . وولد الفنان لخوان دى سيلفا والدونا خيرونيما فيلاسكويز ، فى السنة التى ولد فيها فان ديك ، وبعد مولد ثورباران وبرنينى بعام ، وقبل مولد موريللو بثمانية عشر عاما . وسمى دييجو رودريجيز دى سيلفا إى فيلاسكويز ، وقد ألف أن يسمى نفسه باسم أمه ، وهى عادة شائعة فى جنوبى أسبانيا . وحظى بتعليم جيد ، وتعلم شيئا من اللاتينية والفلسفة ، وجرب دراسة العلوم حينا . ثم اتجه إلى التصوير ، فدرس فترة وجيزة

على خوان دى هيريرا وفترة أطول على باتشيكو . يقول باتشيكو « زوجته لابنتى بعد أن أغرانى شبابه ونزاهته وخصاله الحميدة وما يرجى لنبوغه الطبيعى العظيم من مستقبل مرموق[١٧] » .

وأقام فيلاسكويز مرسمه الخاص ، وسرعان ما لفت النظر بايثاره للمواضيع الدنيوية . وقد اختلط بالدهماء ، وكان يغتبط بنقل أفكارهم وترجمة حياتهم إلى وجوههم . ورسم وهو بعد فتى فى العشرين لوحة رائعة سماها « سقاء إشبيلية[١٨] » . هنا ، فى ثوب رث وفى صبر جميل ، صورة للفقر مع الأمانة . وفى عامه الثالث والعشرين صور الشاعر جونجورا (بوسطن) ببصيرة اكتمل نضجها — فالعينان والأنف نافذة إلى صميم الحيـــاة .

وأكبر الظن أن هذا العمل قام به فيلاسكويز خلال زورته الأولى لمدريد (١٦٢٢) . لقد كانت اشبيلية وكهانها أضيق من أن يتسعا لبوغه ، وساقته فورة من الطموح إلى العاصمة فانطلق إليها يتأبط « سقاءه » . هناك حاول التقرب من البلاط ولكنه لم يفلح . ذلك أن فليب الرابع وأوليفاريس كانا مشغولين بالسياسة والزيجات والحروب ، وكان هناك أكثر من عشرة فنانين يتسلقون نفس السلم . وقفل دييجو إلى إشبيلية . وانقضى عام ، ثم وفد الأمير تشارلز ستيوارت على مدريد ، وتودد إلى احدى بنات الملك ، وأبدى تذوقا للفن ، فأرسل أوليفاريس فى طلب فيلاسكويز . وركب الفتى الأسود العينين والشعر إلى العاصمة مرة أخرى ، فعين مصورا للبلاط ، واستهوى الملك إذ صوره خيالا باسلا يمتطى فرسا يطفر ، ولم يقنع فليب بالجلوس أمام فيلاسكويز ليصوره مرارا وتكرارا ، ولكنه شجع الأسرة المالكة (الاخوة والزوجات والأطفال) ورجال البـــلاط (الوزراء والقواد والشعراء والمضحكين والأقزام) أن يجلس كل بدوره أمام هذه الريشة الخلدة . وأعطى دييجو مرسما فى القصر الملكى ، وفيه ، أو على مقربة منه ، أنفق أكثر السنين السبعة والثلاثين الباقية من عمره . لقد كانت فرصة رائعة ، وكانت سجنا مضيقا للأفق .

على أن موثرين كبيرين وسعا من أفقه . ذلك روبنز ، أشهر الفنانين فى العالم يومئذ ، زار مدريد مرة أخرى عام ١٦٢٨ — وكان إمام الضوء والظل ، والمصور المستهتر للأرباب الوثنية والأجساد العارية الشهوانية . وتأثر فيلاسكويز بفن روبنز ، ونصحه هذا بأن يذهب إلى إيطاليا ، وإلى البندقية خاصة ، ويدرس أعمال نوابغ التلوين . والتمس دييجو الاذن من فليب ، فمنحه أجازة وأربعمائة دوكاتية ثمينة لنفقات الرحلة . وقد نحيط بمثال من سرعة الانتقال بالبحر فى ذلك العصر إذا عرفنا أن فيلاسكويز غادر برشلونة فى ١٠ أغسطس ١٦٢٩ ، ووصل جنوة فى ٢٠ أغسطس . ثم عبر إيطاليا إلى البندقية وجلس أياما يتأمل اللوحات القماشية العظيمة التى رسمها تنتوريتو وفيرونيزى ، وصور الأشخاص والأساطير التى رسمها تتسيانو . ثم انتقل إلى فيرارا وروما ، ونسخ صور التماثيل الرخامية القديمة فى ساحة روما العامة ، وحسد ميكلانجلو على رسمه الصور الجصية على سقف كنيسة السيستين الصغيرة . وقد أعانت هـذه الصور الفخمة فيلاسكويز على الانتقال من ظلال كارفادجو القاتمة إلى تصوير أكثر حدة للاشكال فى الضوء الواضح . ثم رحل إلى نابلى ابزور ريبيرا ، ومنها قفل راجعا إلى أسبانيا (يناير ١٦٣١) .

ترى أهو الغرور — ذلك الظل المساند لكل نفس — الذى دفع فليب ليجلس المرة بعد المرة إلى فنان أوتى مثل هذه النظرة الثاقبة والصدق المدقق ، أم كان الدافع له أن يهدى صورته لمن يطلبونها من أصحابه ؟ ولكنه تحول مؤسف ذلك الذى نلحظه على هيئته ، فصورة الشاب الفارع الطول الرشيق القوام الذى يبدو فى اللوحات الأولى تستحيل فى النهاية إلى صور رجل غاض اللون من وجهه وصبغ به شعره ، وأوتقراطية قاتمة تتشبث بالبقاء — على الرغم من الزمن والهزائم — فى العيون الزرقاء الباردة والذقن الهابسبورجى الملتف . وإذا كانت السطحية عيب هـذه الصور الملكية ، فلعل السبب أنه لم يكن هناك شىء تحت السطح الظاهر . فإذا

كان هناك شىء ما ، كما فى صور جونجورا وأوليفاريس ، فإنه ينبعث على القماش .

وتخللت صور الملك صور للملكة ايزابيللا ، ثم للملكة ماريانا ، ثم للملكة ماريا المجرية أخت فليب ، وكلهن جلسن إلى المصور دون أن تحقق صورهن نتائج باهرة . واتخذ أخو فليب الأصغر ، الكردينال الأمير فردياند ، زى الصياد يرافقه كلب كاه عضلات وأعصاب ووفاء يقظ أما أوليفاريس فقد امتطى فرسا أدهم ليصور صورته المحفوظة بالبر دو ، وجوادا أبيض بنفس الوضع بصورته المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفن فى نيويورك ، غير تارك مجالا للشك فى هوية من يملك الزمام فى أسبانيا . وألطف صور الحاشية هذه صور الدون بالتازار كارلوس الصغير ، الذى كان مناط آمال الأسرة المالكة . وقد رسم فيلاسكويز هذا الطفل الجميل المرة بعد المرة فى اغتباط واضح ، مرة فى ١٦٣١ ومعه قزم تابع[١٩] ، ومرة فى ١٦٣٢ بعد أن أصبح فتنة البلاط[٢٠] ، ومرة فى ١٦٣٤ وهو يلوح بعصا المرشالية ، ممتطيا فى كبرياء جوادا ضخما (وهو بعد فى الخامسة) ، ثم صيادا يمسك بندقيته بعناية ، ولكن واضح أنه أرق من أن يقتل أو يحكم ؛ وفى هذا الوجه البرىء خير رد على أولئك الذين رأوا أن فيلاسكويز لم يرسم غير السطوح . وهكذا جاءت صور السلسلة تترى ، من سنة كارلوس الثانية إلى سنته السادسة عشرة ، حين أصابت الحمى الأمير المحبوب وقضت عليه .

أما القزم الذى يرى فى إحدى هذه الصور فكان من عدة أقزام أعطوا الفاشلين فى بلاط فليب شعورا معزيا بالتفوق والعظمة . كانت عادة منحدرة من روما الأمبراطورية ومن الشرق الأقدم منها . وحتى البلاط البابوى كان فيه أقزام ؛ وقد جمع الكردينال فيتيللى منهم أربعة وأربعين ليخدموا ضيوفه . وأهدى دوق بكنجهام الملكة هنريتا ماريا فطيرة احتوت قزما طوله ثمانى عشرة بوصة [٢١] . وكان أقزام فليب الرابع يلبسون الثيـــاب

الفاخرة التي تتألق بالجواهر والذهب ارضاء لهم وتسلية للناس . أما فيلاسكويز فقد صورهم بروح العطف والمرح ؛ فواحد منهم ، اسمه انطونيو الانجليزى ، يبدى فى كبرياء طوله عن كلبه وإن كان دونه جمالا ؛ وآخر اسمه سباستيان دى مورا يعبس فى لحيته الضخمة ويزم قبضتيه سخطا على قدره . كذلك كان فى البلاط مهرجون ، رسم فيلاسكويز منهم خمسة ، واحدا منهم ، صورته تسمى « الجغرافى (٢٢) » لأنه يشير إلى الكرة الأرضية ، يبدو أكثر تفكيرا من أوليفاريس ، وثانيا يسمى باريباروسا يستل سيفا رهيبا ؛ وثالثا ارتدى زى دون جوان النمسوى ، ورابعا يحاول حمل كتاب ضخم ، وخامسا تسمى صورته « الأبله » يبدو عليه جنون لا يؤذى ، بل يكاد يكون لطيفا .

وجد فيلاسكويز تفريجا من البروتوكول — برغم كونه دائما رجل بلاط وجنتلمانا لا تخطئه العين — فى دراسة حياة العامة الأجلاء الذين لا يزالون زينة المشهد الأسبانى . ففى بواكير اشتغاله بالتصوير (١٦٢٩) اقنع شابين جميلين وستة من الفلاحين بأن يجلسوا إلى صورة « السكارى » . وفيها باخوس عار تقريبا ، جالس فوق برميل ، يتوج بالكروم شخصا راكعا ، بينما تجمع حولهما عشاق للكرمة أجلاف ، أضنى بعضهم الكد ، وأشاب بعضهم الزمن ؛ ولعل هذه هى الخمرية الخالدة الوحيدة فى الفن الأسبانى خلال القرن الذهبى . وأعجب حتى من هؤلاء السكارى لوحتان سمى فيلاسكويز الأولى « ايزوب » ، وهى صورة مؤلف حزين عجوز ، مملق نصف أعمى ، يحمل قصصه الخرافية عبر السنين ، والثانية « منيبوس » وهى صورة فيلسوف كلبى من فلاسفة القرن الثالث ق . م . ، هذان وجهان يعلقان بالذاكرة . ولا يقل عن هذا كله ما تركه لنا فيلاسكويز من صور الحيوان ؛ جياد تبدو لنا اليوم ثقيلة الحركة لضخامتها ، ولكن يعوض عن عيبها رءوس تختال وعيون تلمع ، ورأس غزال عليه سيماء الفلسفة ، وقد استسلم لوحشية البشر ، وكلاب متحفزة للجرى والوثب ، أو يقظانة نائمة .

تلك كانت الأعمال الخانية التى تسلت بها ريشة فيلاسكويز ، رغم تخففاً من مخاطر تصويره لكبار الحاشية دون أن ينال منهم المدح والثناء ، وقد يزيد تقديرنا الأسبان القرن السابع عشر حين نرى هؤلاء النبلاء يرتدون الأثواب المتواضعة ، ومع ذلك يواجهون بأيمان فخور عالما بدا فيه وطنهم الحبيب عاجزاً مشلول الحركة لما أصابه من انحلال . فالدون دييجو دبل كورال أى أريللانو ، والكردينال جاسبار دى بورخا أى فيلاسكو (٢٣) ، والنحات القوى البدن مونتانيس ، وفارس سنتاجو الشامخ (٢٤) ، وفرانسسكو دستى الشانى ، الحلو الحيى ، والدون خوان فرنسسكو بيمنتال الفخم المهيب — تلك صور تنفذ إلى صميم النفس . وإذا كانت « صورة رجل » المحفوظة فى قاعة كابيتولينى بروما هى حقيقة صورة فيلاسكويز نفسه ، كان مستحيلا على الناظر إلا أن يحبه — بشعره الجعد فى إهمال ، وثوبه المتواضع ، وعينيه الرقيقتين المفكرتين .

ويعجب المرء كيف زحم رجال الحاشية فى صور فيلاسكويز الكنيسة والموضوعات الدينية المقدسة ليحلوا محلها . لم يكن فى استطاعته أن ينافس الجريكو أو ثورباران فى رسم شيوخ الرسل والقديسين بتجاعيدهم الكثيرة ، ولم تنبعث قدراته كلها إلا فى صورة « تتويج العذراء » دون سائر صوره الدينية . فلقد كان اغتباطه أعظم بالمناظر الدنيوية . وفى صورته « لاس لانثاس » ، والمشهورة باسم « استسلام بريدا » بسط نفسه على اللوحة بسخاء ، فجعلها من أوسع اللوحات فى تاريخ الفن (١٢٠ بوصة × ١٤٤) ، ولكنها أيضا من أغناها تفاصيل . وبيان ذلك أن أمبروزيو دى سبينولا كان قد استرد للأسبانيا خلال الحرب الطويلة التى خاضتها ضد ثوار الأراضى المنخفضة مدينة بريدا الاسترانيجية فى برابانت الشمالية . والتقى فيلاسكويز بسبينولا عام ١٦٢٩ أثناء رحلته عائدا من إيطاليا ، ووقع من نفسه موقعا جميلا ذلك النبل الفروسى الذى اتسم به القائد الكبير ، فسجل هذا كله فى رائعة بدا فيها الرماحون الأسبان المنتصرون يرفعون حرابهم عاليا ، والمدينة

تحترق ، والقائد المهزوم المستسلم جوستين الناساوى يقدم مفاتيح المدينة إلا سبينولا ، والفاتح الشهم يهنىء الرجل المغلوب على بسالة دفاعه : ولقد حقق فيلاسكويز فى مفارقات اللون العجيبة وفى تمييز كل فرد من الأتباع ، نصرا أسعد فليب الرابع أن يعرضه فى قصر بوين ريتيرو .

وفى عام ١٦٤٩ دفع فليب نفقات زيارة فيلاسكويز الثانية لإيطاليا مكافأة له على جهد ستة وعشرين عاما ، وكلف الفنان بالحصول على مصبوبات من التماثيل الكلاسيكية وبشراء لوحات بريشة أئمة الفن الايطاليين. ووجد فيلاسكويز أن الأسعار قد شطت ، وكاد يستحيل شراء أى أثر كبير للفانين البنادقة العظام بأى ثمن ، واضطر أن يدفع ٠٠٠ ر ١٢ كراون (٠٠٠ ر ١٥٠ دولار ؟) ثمنا لخمس صور . فهل كان أصحاب الملايين وغيرهم قد أخذوا يستغلون الفن وقاء من التضخم المالى ؟

أما خير صورة رسمت فى إيطاليا فى ذلك العام (١٦٥٠) فصورة فيلاسكويز لانوسنت العاشر. وحين ارتضى البابا أن يجلس إلى الفنان ليصوره، وشعر هذا بقصور فى التمرين، نشط يده وعينيه برسم صورة لعبده الخلاسى ، خوان دى باريخا (*) . (٢٦) ولقيت الصورة الاستحسان العام من فنانى روما ، الذين بادروا بانتخاب فيلاسكويز عضوا فى أكاديمية القديس لوقا . ولم يتح له البابا غير بضع جلسات ، وقام فيلاسكويز بدراسات مبدئية للرأس ، وتكاد واحدة منها — محفوظة بالقاعة الأهلية بواشنطون — لا تفرق العين بينهما وبين اللوحة النهائية التى توارثتها أسرة دوريا التى انتمى

(*) بعد أن أنفق باريخا سنوات فى تحضير فرش فيلاسكويز وألوانه ولوحاته ، وملاحظة عقله وعمله ، راح يستعمل هذه المواد بنفسه سراً ، وأخيراً أجاد التصوير إجادة حلت فليب الرابع على عتقه بعد أن حسب إحدى لوحات باريخا من عمل فيلاسكويز . ومع ذلك بقى خوان تلميذاً وخادماً فى أسرة المصور حتى مات (٢٧) .

إليها البابا ؛ وقداحتفظ بها فى قصر دوريا بامفيلى ، حيث حكم رينولدز حين رآها بأنها « أبدع صورة فى روما » (٢٨) . وحين يطلع المرء إليها اليوم يشعر بأن فيها قوة ، سواء فى الشخصية أو فى الفن ، تضعها مع لوحة « يوليوس الثالث » لتتسيانو ، فى مضاف أروع الصور فى جميع العصور : وكان انوسنت العاشر فى السادسة والسبعين حين جلس إلى صورته تلك ، وقد مات بعدها بخمس سنين . وقد يخطئه الناظر فيحسبه أحد كبار قطاع الطرق الذين كدروا صفو كثير من البابوات ، لولا ثوب البابوية وخاتمها ، ولكنا حين ندرس تلك الملامح القاسية الحازمة ندرك أن انوسنت كان ما يجب أن يكون — حاكما يحكم دولة من الإيطاليين المتمردين ، وحبر يقود كنيسة من المسيحيين غير المتخلقين بخلق المسيحية ، المنتشرين من روما إلى الفلبين ، ومن روما إلى براجواى ، ولقد كان عليه أن يضع حديدا فى دمه ؛ وفولاذا فى عينيه ، وجبروتا فى طلعته ، وقد رآها كلها فيلاسكويز ثم سجلها على لوحته . وحين رأى البابا الصورة علق عليها تعليقا ساخرا واحدا : « إنها صادقة جدا ! » (٢٩) واعترف فنانو روما بتكوينها المتماسك ، والانسجام العجيب بين ألوانها الحمراء والبيضاء والذهبية ، والنظرة الشكاكة الفاحصة الجانبية تنبعث من عينين رماديتين زرقاوين ، وحتى اليدين المنبثتين بقوة الشخصية : وحين رحل فيلاسكويز عن إيطاليا (يونيو ١٦٥١) ، لم يعد طالبا يلتمس أئمة الفن القدامى ، بل إمام فن العصر غير منازع : ذلك أن روبنز كان قد طواه الموت ، وما كان لأحد أن يحلم بأن هولنديا مغمورا ، أثقلت كاهله الديون وأزمع على الاعتكاف بعد قليل فى مغارة بامستردام ، سيبعث من قبره بعد قرون لينازعه تلك السيادة .

فلما عاد فيلاسكويز إلى مدريد اقترف أفدح خطأ فى حياته ، ذلك أنه التمس ونال وظيفة « مدير للقصر الملكى » ، ولعله سئم التصوير ، أو لعله أحس أنه بلغ غاية امكاناته فى ذلك الميدان : ولم تكن الوظيفة تشريفا ، فقد تطلبت منه الاشراف الشخصى على القصر ، على أثاثه

وزينته ، وعلى تدفئته وصيانته الصحية ، يضاف إلى هذا ترتيب ما يقام فى القصر من مسرحيات ومراقص ومباريات ، وتوفير الاقامة للحاشية خلال أسفار الملك . وكان عليه أن يرافق الملك فى جميع رحلاته الكبيرة ، سواء للهو أو السياسة أو الحرب . أهناك شىء أسخف من هـــذا لرجل صور انوسنت العاشر ؟ أن زهو المنصب عند فيلاسكويز طغى على شعوره بالعبقرية .

ولم يهب التصوير فى السنوات التسع الباقية له من الأجل غير الوقت الذى اقتطعه من مهامه الرسمية الثقيلة . فاستأنف تصوير الأسرة المالكة ، وكبار رجال البلاط ، والملك نفسه . ورسم ثلاث صور جميلة للأميرة مارجاريتا ، وصورها مرة أخرى مركزا لاحدى روائعه المسماة « وصيفات الشرف » ، فالخادمات والقزم والكلب من حول الأميرة ، ومن خلفهم فيلاسكويز ذاته برسمهم على لوحته . ثم صورها مرة أخرى فى تنورتها الزرقاء الواسعة التى جعلت ساقيها بعد ذلك سرا مقدسا يكتنفه الغموض[٣] ، وقبيل موته رسمها معجزة من البراعة فى ثوب مخرم ، وفى عام ١٦٥٧ زاغ من البلاط ليرسم « نساجى القماش المرسوم » — وجوها رائعة اقتنصها بين ضجيج العمل ووقاره . وفى السنة ذاتها تحدى محكمة التفتيش ، وصدم احتشام أسبانيا ، وأبهجها برسمه ظهر « فينوس روكبى » وأردافها الجميلة ، وقد أطلق اسم روكبى على الصورة لطول ما مكثت فى بيت أسرة إنجليزية اشترتها بمبلغ ٥٠٠ جنيه ثم باعتها لقاعة الفن الأهلية بلندن بمبلغ ٤٥,٠٠٠ جنيه . وقد شقت احدى المطالبات بمنح المرأة حق الاقتراع ذلك الظهر الوردى بالسلاح فى ستة مواضع حين أحفظها هذا الفضح لأسرار المهنة ، ولكنه أصلح ثانية اصلاحا بديعا .

فى لوحة « وصيفات الشرف » نرى فيلاسكويز كما رأى نفسه فى سنيه الأخيرة — شعرا غزيرا ، وشاربا فخورا وعينين فيهما أثر من الاكتئاب . أما الفم فيبـــدو شهوانيا ، ومع ذلك لا نسمع فى سجله شيئا من تلك

الانحرافات الجنسية والصراعات الشخصية التى تفنى الكثير فى كثير من الفنانين : كان يحظى بمقام رفيع فى القصر بفضل آدابه العالية ، وروحه المرحة ، وحياته الأسرية المهذبة . وقد خلف لنا صورا لزوجته خوانا وابنته فرانسسكا[٢١] ، ولعل النموذج الذى نقل عنه لوحته « السيدة ذات المروحة[٢٢] » هو أيضا فرانسسكا . وقد رسم زوجها خوان باوتستا ديل ماثو لوحة سماها « أسرة الفنان[٢٣] » يبدو فيها فيلاسكويز وفى خلفيته مرسم ، ومعه خمسة أطفال أعانوا على وحدة الأسرة .

وكان موته نتيجة لوظيفته . ففى ربيع عام ١٦٦٠ رتب المراسم والاحتفالات المعقدة التى تقرر أن تصاحب توقيع معاهدة البرانس على جزيرة فى نهر بداسوا الواقع على الحدود ، وخطبة الأميرة ماريا تريزا للويس الرابع عشر . وكان على فيلاسكويز أن يدبر نقل الحاشية إلى منتصف الطريق عبر أسبانيا إلى سان سباستيان ، ويجهز أربعة آلاف من بغال النقل لحمل الأثاث والصور وقطع النسيج المرسوم وغير ذلك من زينات . وعاد المصور ، الذى تاه الآن فى الموظف ، إلى العاصمة « وقد أضناه سفر الليل وكد النهار » ، كما ذكر لصديق . وفى ٣١ يوليو لزم الفراش مصابا بحمى ثلثية ، وفى ٦ أغسطس ، أو بعبارة أول مترجم لحياته « فى عيد تجلى المسيح . . . . أسلم روحه لله ، الذى خلقها لتكون أعجوبة من أعاجيب الدنيا[٢٤] » . ولما مضت ثمانية أيام حتى ووريت زوجته الثرى إلى جواره .

والذين لا علم لهم منا بتقنية التصوير لا يستطيعون إلا الاستمتاع بآثار فيلاسكويز — لا حاكمين على جودتها ، بل تاركيها لتربنا عصرا ، وبلاطا ، وملكا خاملا ، وزوجا جمعت بين الكبرياء والرقة . وحتى ونحن فى هذا الوضع قد نتذوق ما فى هذه الصور من صفاء وبساطة ووقار وصدق كلاسيكى ، ونستطيع أن نحزر ما وراء انتصاراتها من جهد ومهارة ، وما اقتصته من محاولات اجتهادية ، وتوزيع تجريبى للأشكال ، وتراكب وعمق وشفافية فى الألوان ، وحركة مشكلة للأضواء والظلال . أما النقاد

الذين تعبوا من المديح المتكرر فقد أشاروا إلى عيوب الفنان الأسباني الكبيرة: أخطاء صغيرة كالأغطية البلهاء التي ألبسها رءوس أميراته الصغار، وبطون جياده الغليظة، والوجه عديم التناسب، المعكوس في المرآة، في صورة « فينوس روكبي »؛ ثم عيوب كبيرة، كافتقاره إلى العاطفة، والخيال، والمثالية ورقة الاحساس، وفنائه في الشخصيات لا في الأفكار فناء يكاد يكون نسائيا، وعماه الواضح عن كل شيء لا تراه عيناه[٣٥]. وحتى في أيام فيلاسكويز، اتهمه أحد منافسيه المدعو فنتسنزو كاردوتشي بطبيعية قصيرة النظر تحسب أن التشخيص المدقق للواقع الخارجي هو أسمى وظائف التصوير.

فمن يجيب عن فيلاسكويز (الذي ما كان ليجيب قط) بأنه غير مسئول عن أغطية الرءوس ولا عن بطون الخيل تلك، وبأن العاطفة المضبوطة أوقع في النفس من العاطفة المعلنة، وبأن صور بالتازار كارلوس والأميرات، وصور وصيفات الشرف، وصورة استسلام بريدا - كلها تبدي احساسا رقيقا مرهفا، وان « أيسوبس » و « منيبوس » دراستان في الفلسفة، وان صور جونجورا، وأوليفاريس، وانوسنت العاشر، ليست محاكاة للظاهر بل ابتعاثا للروح؟ وليس في فن فيلاسكويز سعي سافر وراء الجمال، بل بحث عن النوع الكاشف منه؛ اناث قليلات يرقق الحسن منهن، ولكن رجال كثيرون خطتهم الحياة وميزتهم.

ومع أن فيلاسكويز كان على الدوام موضع الاجلال في أسبانيا بوصفه مصورها الأعظم، فان شهرته لم تكد تعبر البرانس - ربما لأن الكثير جداً من فنه كان في البرادو - حتى قدمه رفائيل منجز لألمانيا عام ١٧٦١، وكشفت عنه حروب نابليون الأسبانية لإنجلتره وفرنسا، ونادى به مانيه والتأثريون رائدا لهم في دراسة الضوء والجو والتعبير عنهما، ووضع فيلاسكويز طوال نصف قرن في مصاف أعظم المصورين، وسماه وسلر « مصور المصورين » لأنه أستاذهم جميعا، وصرح رسكن بقوة الرجل

الحجة بأن « كل ما يفعله فيلاسكويز يمكن اعتباره صحيحاً على الإطلاق » . ثم ذهب ماير — جريفى إلى أسبانيا ملتمساً فيلاسكويز فى البرادو ، ولكنه عثر على الجريكو فى طليطلة ، فأعلن أن فيلاسكويز « وقف حيث بدأ الجريكو » ، و « أنه ظل دائما فى حجرة انتظار الفن »[٣٦]. وفجأة اعتقد نصف العالم أن فيلاسكويز من مصورى المرتبة الثانية .

والشهرة زى من الأزياء المتقلبة ، فنحن نمل تحميل أقلامنا عبارات الإعجاب القديمة ، ونجد البهجة والانتعاش فى أن ننبذ الأصنام البالية من خيالنا ، وأن ننزل الجبابرة الذين ماتوا عن عروشهم ، ونرفع آيات الحمد والثناء لآلهة جديدة نفخت فيها أصالتنا أو بعثها من رقادها صيت جديد . ولا ندرى أى مكان من العظمة سيحظى به فيلاسكويز حين يدور الزمن دورته ويغير الذوق اتجاهه من جديد .

٥ — موريللو : ١٦١٧ — ٨٢

أتى على الناس حين ، أيام شبابنا المؤمن ، كانت فيه صورة موريللو « حمل العذراء غير المدنس » تتمتع بصيت ذائع كصورة رفائيل « سيستينى مادونا » ؛ أما اليوم فما من إنسان مهما قل شأنه يؤدى لها حقها من الاحترام . ذلك أن اضمحلال الإيمان المسيحى فى أوربا وأمريكا قد اقتطع نصف الجمال من صور حسبنا الجمال ملازما لها . وموريللو ضحية من ضحايا هذه التعرية .

ولكن لنبدأ بتحية لألونسو كانو . رجل عجيب — قسيس ، ومبارز ، ومصور ، ونحات ، ومعمارى . ولد فى غرناطة ، وهاجر إلى إشبيلية ، ودرس التصوير (جنبا إلى جنب مع فيلاسكويز) على باتشيكو ، والنحت على مونتانيس ؛ صمم وحفر ورسم روافد للمذبح لكلية سان البرتو وكنيسة سانتا باولا ، حيث نافس ثورباران بنجاح . وحفر لكنيسة لبريخا تماثيل دينية جذبت الطلاب من خارج البلاد ليعجبوا بها ويحاكوها . وقد اشتبك فى مبارزة ، وجرح غريمه جرحا خطيرا ، فهرب إلى مدريد ، ونال حماية أوليفاريس حين تشفع له عنده فيلاسكويز ، ويفضل رسومه فى العاصمة

وقربها حصل على وظيفة بالبلاط . وفى عام ١٦٤٤ وجدت زوجته قتيلة فى فراشها ، فاتّهم خادمه ، ولكن تهمة القتل وجهت إليه هو . ففر مرة أخرى من النجاح ، واختبأ فى ديرقصى ، ولكن مخبأه عرف ، فقبض عليه وعذب ، واحتمل كل الآلام دون أن يعترف بأنه المذنب ، فأفرج عنه ، وبدأ من جديد . وفى عام ١٦٥١ ، حين بلغ الخمسين ، عاد إلى غرناطة ، حيث أصبح قسيسا وكاهنا من كهان الكاتدرائية ، وصنع لها تماثيل وصورا ومقارئ وأبوابا بلغت كلها من الروعة ما يغتفر له معها غروره . ولما كلفه مراجع الحسابات الملكية فى غرناطة بصنع تمثال للقديس أنطونى البادوى ، انجزه على نحو أرضى هذا الموظف ، ولكنه مع ذلك ساومه على ثمنه . وطلب كانو مائة دوبلون (٣,٢٠٠ دولار ؟) . فسأله الموظف « كم يوما استغرق منك صنعه » أجاب : « خمسة وعشرين » قال المحاسب ، « فأنت تقدر جهدك إذن بأربعة دبلونات لليوم ؟ » أجابه « أنك لا تحسن الحساب ، فقد أنفقت خمسين سنة لأصنع تمثالا كهذا فى خمسة وعشرين يوما » . قال « وأنا أنفقت شبابى وميراثى فى دراستى الجامعية ، والآن وقد أصبحت محاسب غرناطة ، وهى مهنة أشرف بكثير من مهنتك ، لا أكسب فى اليوم غير دوبلون واحد . » وصاح به المثال « تقول مهنتك أشرف من مهنتى ! فاعلم إذن أن فى قدرة الملك أن يصنع محاسبين من تراب الأرض ، ولكن الله يحتفظ لنفسه بخلق فنان كألونسو كانو . » ، ثم هشم التمثال لفوره فى سورة غضبه[٣٧] . وظن الناس حينا أن محكمة التفتيش ستسجنه ، ولكن فليب الرابع بسط عليه حمايته ، ومضى كانو فى رسم صور وحفر تماثيل — جلها دينى — حملت عشاق عبقريته المتعددة الجوانب على أن يلقبوه ميكل انجلو أسبانيا . وكان ينفق مكاسبه بالسرعة التى يحصل بها عليها ، على وجوه البر عادة ، وتقدمت به الأيام وهو فى فقر اضطر هيئة الكاتدرائية لاعتماد معونة مالية له . وقد رفض وهو على فراش موته صليبا يمثل المسيح مصلوبا قدم إليه ، لأنه سيئ الحفر .

أما برتولومى استيبان موريللو فرجل مختلف تماما — متواضع ، دمث الخلق ، تقي ، معبود تلاميذه ، ومحبوب منافسيه ، ومعين للبر بالناس ٥ شهدت إشبيلية مولده عام ١٦١٧ وهى يومها قصبة الفن الأسبانى ، وكان آخر أربعة عشر طفلا . ودرس التصوير على خوان دى كاستيللو ، ولكن موت أبويه فقيرين وهو بعد فى الرابعة عشرة اضطر الصبي اليتيم إلى كسب قوته برسم صور فجة سريعة لسوق أسبوعية . وإذ سمع أن فليب الرابع عطوف على الفنانين اتخذ سمته إلى مدريد (؟) حيث صادقه فيلاسكويز — فى رواية غير مؤكدة[٣٨] وأسكنه منزله ، وحصل له على إذن بدخول قاعات الفن الملكية ، وشجعه على دراسة أعمال ريبيرا ، وفان ديك ، وفيلاسكويز .

على أننا نلقاه فى إشبيلية ثانية عام ١٦٤٥ . ذلك أن ديرا فرانسسكانيا بها عرض أجرا غير مغر نظير رسم سبع صور كبيرة ، واحتقر الفنانون الراسخون هذا الأجر ، ولكن موريللو رضى به ، وأنتج أول روائعه « مطبخ الملائكة[٣٩] » ، وفيها يبدو الملائكة قادمين من السماء يحملون الطعام ويطهونه ويمدون الموائد ويطعمون الصالحين فى مجاعة ، ومع أن موريللو حاول أن يتأثر الأسلوب الفحل الذى جرى عليه ريبيرا وثورباران ، إلا أنه روى القصة متأثرا بميله للعاطفة الرقيقة . هذه الصورة ، هى وصورة « موت القديسة كلارا[٤٠] » صنعتا شهرة الفنان ، وأقبل نصف مثقفى إشبيلية ليعجبوا ، ثم تكاثر عليه الطلب . وكان أكثر ما طلب إليه صورا كنسية ، فتدفقت من ريشته صور العذراء ، والعائلة المقدسة ، والقديسين فى وفرة موفقة ، واغتنت الأساطير المسيحية بالجميل من النساء ، والوسيم من الرجال ، والظريف من الأطفال ، وبالألوان الوردية والجو الصوفى حتى انعطفت نحوه أوربا لأنه أحب العارضين لأحب العقائد إلى نفوس النـــاس .

وإذ وجد موريللو رزقه على هذا النحو ، فإنه غامر بالزواج وهو فى

الثلاثين ، وملأ بيته بضجيج تسعة أطفال وشجارهم وبهجتهم ، وشقى من أجلهم راضياً حتى موته . ونقدته هيئة الكاتدرائية عشرة آلاف ريال عن لوحته « القديس أنطونى البادوى » التى ما زالت معلقة هناك . وتؤكد لنا قصة يشتبه أنها صدى لأسطورة رويت عن زيوكس[٤١] ، ولكنها طبعت قبل موت موريللو بأحد عشر عاما ، تقول إن الطيور التى طارت داخل الكاتدرائية حاولت أن تحط على الزنابق المرسومة فى الصورة ، وراحت تنقر الفاكهة[٤٢] .

ومع أن مواضيعه كانت جلها دينية ، فإنه جعلها إنسانية أكثر منها كنسية . وإذا كانت أوربا الكاثوليكية الرومانية كلها قد أحبت النسخ الكثيرة التى أذاعها نقلا عن لوحته « حمل العذراء غير المدنس[٤٣] » فما كان ذلك لمجرد أنها احتفلت بموضوع محبب جداً لأسبانيا ولذلك الجيل ، بل لأنها توجت الأنوثة فى سحابة من المثالية والقداسة . وقد استوحى الفنان نساء الأندلس الفاتنات ذوات الحس الجنسى المتواضع ليرسم صور « عذراء الصلوات[٤٤] » والعذراء الغجرية ، وصورة « العائلة المقدسة والطائر » ذات الجمال الأسمر[٤٥] .

ومن رسم الأطفال خيرا منه ؟ ان صورة « البشارة » المحفوظة بالبرادو تطالعنا فيها صبية دخلت سن المراهقة ، فيها خفر ورقة ، آية الحياة ذاتها . وقد وجد موريللو نماذج للأشكال الكثيرة التى صور بها المسيح طفلا فى الأطفال الحسان الوجوه الذين أحاطوا به فى بيتـــه وشارعه ، ولعله استمتع بهم هم أكثر من استمتاعه بالموضوع المقرر ، ورسمهم فى صورة لا تقل فتنة عن أى صور للأطفال رسمت أيام النهضة الإيطالية . وكان إذا عجز عن حشر الأطفال فى لوحاته الدينية يرسمهم فرادى . وفى « بيت الفن » بميونيخ حائط حافل بهم : صبيان يرمون النرد ، وغلمان يأكلون الشمام لأنه طريقة محتملة لغسل وجوههم ، وصبى يمضغ الخبز بينما تفلى أمه شعره . وبصورة « الصبى المطل من نافذة[٤٧] » تبين بوضوح

أن المال والسعادة تشاجرا وافترقا ، فليكن إذن « الصبي ذا الكلب(٤٨)» والعالم سبيله إلى الرزق. وفى صورة « الغلام المتسول » المحفوظة باللوفر يستأذن الفنان المثالى القوى العليا ، وينظر إلى الحياة على الأرض ، ويجدها جميلة حتى ولو لبست أسمالا بالية . ان موريللو فى واقعيته يحتفظ بمثاليته .

وعاش — كما رسم — دون مأساة ، إلا فى ختام عمره . ذلك أنه تسلق سقالة لينجز صورة فى كنيسة بقادس ، فزلت قدمه وسقط فانكسر كسرا خطيرا أصاب دمه بالتسمم ، وما لبث ابن الأندلس جميعها ، الأثير لديها ، أن مات (١٦٨٢) ، وكان موته مفاجئا حتى أنه لم يستطع إتمام وصيته ، وخط فوق قبره ما أوصى به ، وهو اسمه ، وهيكل عظمى ، وكلمتان « فيفى موريتوروس » — أى عش كأنك تموت وشيكا .

وظلت مكانته طوال قرنين عالية عند أولئك الذين تهمهم ما تقوله الصورة أكثر مما تهمهم الكيفية التى تقولها به . وقد أذاع قواد نابليون صيته بسرقتهم صوره وبيعها غنيمة حلالا . وأكثر النساخ غير الأكفاء من نقل لوحاته فشككوا النقد فى فنه. كان على علم بتقنية صناعته ، ولكن ضيق من رقعته كثيرا ذلك التوفيق الذى أصابه مع الكنيسة ؛ وقد غالى فى الاستسلام لجانب الحياة الأنثوى العاطفى ، فما بدأ جميلا أصبح بالتكرار الثابت مجرد شىء لطيف على نحو لا يؤثر فى نفس الناظر . وكان قديسوه يتطلعون إلى السماء فى إصرار كثير أنسى أوربا هذا الفنان حين انصرفت عن السماء . ولهذا السبب نفسه أغفلت النظر إلى التصوير الأسبانى عامة بعد سنة ١٦٨٠ . وبينما كانت أوربا تتجادل حول المسيحية ، ظلت أسبانيا متشبثة بتراثها الوسيط ، فلم يلفت فنها أنظار العالم ثانية إلا عند مجىء جويا .

وإبان حياة موريللو قضت على القرن الذهبى للفن عشرات العوامل الفتاكة . وكان الذهب ذاته ، والبحث عنه فى الأقطار الأجنبية ، بعض هذه العوامل : ذلك أن شباب أسبانيا وعنفوانها تحررا من سجن شبه الجزيرة ليكتشفا الأمريكتين ويستغلاهما ، والذهب الذى أرسلاه إليها أفسد

الحياة الأسبانية ، وشجع التكاسل ، ورفع الأسعار ، أو وقع غنيمة للسفن الهولندية أو الجنوية التى تحمل التجارة الأسبانية . واختزنت الحكومة المعادن النفيسة ، وغشت العملة ، وطردت المغاربة المتنصرين ، واستكثرت من الوظائف وباعتها ، وفرضت الضرائب على كل شيء إلى حد اللامبالاة الاقتصادية ، وبعثرت الثروة فى الحملات الحربية ومظاهر البذخ فى البلاط بينما الصناعة تذبل ، والبطالة تنتشر ، والتجارة تذوى ، والسكان يتقلصون ، والمدن تخرب . وفقدت الحكومة ذات الطابع الاستقراطى الضيق كل كرامة ، فوضعت صناديق التبرعات فى الشوارع ، والتمست المال من بيت إلى بيت لتمول عجزها فى الداخل وهزائمها فى الخارج(٤٩) . أما الجيوش الأسبانية المرابطة فى صقلية ونابلى وميلان ، الشاقة طريقها فى غابات العالم الجديد وبراريه ، المضنية نفسها فى حرب الثلاثين ، الخائضة حربا خاسرة لقهر عناد توار الأراضى المنخفضة وإصرارهم الذى لا يصدق — هذه الجيوش استنزفت الموارد البشرية والمادية لدولة صغيرة جبلية نصف صحراوية، تحبسها حدودها فى بحر يسيطر عليه منافسوها التجاريون وأعداؤها البحريون. ولم يبق غير الأديرة والكنائس ، متشبثة بأملاكها الشاسعة ، اللاصقة بها ، المعفاة من الضرائب ، مستكثرة من الرهبان فى حياة عاطلة غالية الثمن . وبينما كان الدين يسترضى الفقر بصكوك على الجنة ، ويخنق الفكر ، ويدعو أسبانيا للعيش على ماضيها ، أجزلت فرنسا وإنجلترة مكافأة الصناعة ، واستولتا على التجارة ، ودخلتا رحاب المستقبل . ان التلاؤم مع البيئة المتغيرة هو لب الحياة ، وهو أيضا ثمنها .

الفصل الثالث عشر

الصراع على فرنسا

١٥٥٩ — ٧٤

١ — القوى المتنافسة

الإنسان حيوان منافس ما دام يخشى الخطر أو يذكر افتقاره إلى الأمن. كذلك حال الجماعات والطبقات والأمم والأجناس التي تفتقد شعور الأمن. فهي تتنافس بذات الحرص الذي يتنافس به الأفراد المؤلفة منهم، وبعنف أشد، لأنها أقل تقيدا بالقانون، وتمتعا بالحماية؛ ان الطبيعة تدعو جميع الكائنات الحية إلى العراك. وفي حمى الصراع الأوربي بين حركة الاصلاح البروتستنتي (١٥١٧) وصلح وستفاليا (١٦٤٨) استخدم هذا التنافس الجماعي الدين ستارا وسلاحا لتحقيق الأهداف الاقتصادية أو المآرب السياسية. فلما ألقى المحاربون سلاحهم بعد قرن من النضال، احتفظت احتفظت المسيحية ببقائها وسط الخرائب بشق الأنفس.

كانت فرنسا أول من عانى وأول من أفاق. فقد كانت «حروبها خاصتها من ١٥٦٢ إلى ١٥٩٤ بالنسبة لها ما ستكونه حرب الثلاثين (١٦١٨ — ٤٨) بالنسبة لألمانيا، والحروب الأهلية (١٦٤٢ — ٤٨) بالنسبة لانجلترة. ذلك أنه عند موت هنري الثاني في صراع مؤسف (١٥٥٩) وارتقاء ابنه البالغ من العمر خمسة عشر ربيعا العرش باسم فرنسيس الثاني، كانت الأمة على شفا الافلاس من جراء النزاع الطويل بين آل هابسبورج وملوك فالوا. كان مجموع ايراد الدولة السنوي آنئذ ١٢،٠٠٠،٠٠٠ جنيه، وبلغ الدين الأهلي ٤٣،٠٠٠،٠٠٠. وتخلفت رواتب كثير من الحكام المحليين أربع سنوات، واستحال اقناع الشعب الفرنسي بدفع الضرائب[1]. وتردت ليون في الفوضى الاقتصادية عام ١٥٥٩ إثر انهيار مالي مفاجئ. وكان من أثر تدفق فضة أمريكا وذهبها إلى فرنسا بطريق أسبانيا والبرتغال

أن هبطت قيمة العملة ، وتضخمت الأسعار ، وانطلق سباق شرس بين الأجور والأسعار لم يفد منه غير الرأسماليين العليمين ببواطن الأمور والمشتغلين بالمضاربات . وحاولت الحكومة عام ١٥٦٧ وعام ١٥٧٧ أن تسن القوانين لتحديد أقصى الأسعار والأجور ، ولكن التزاحم الاقتصادى طغى على القوانين[٢] ، واستشرى التضخم ، ربما باعتباره طريقة غير دينية لدفع نفقات الحروب الدينية . أما المنظمة الغنية الوحيدة فى الدولة فكانت الكنيسة الكاثوليكية التى انضوى تحت لوائها ٩٤٫٠٠٠ من رجال الدين (فى عام ١٦٠٠) ، و ٨٠٫٠٠٠ راهبة ، و ٧٠٫٠٠٠ راهب أو أخ ، و ٢٫٥٠٠ يسوعى ، وملكت الكاتدرائيات المهيبة ، والأسقفيات الفخمة ، والأراضى الشاسعة المثمرة . لقد كان ثلث ثروة فرنسا — وقيل ثلثاها — ملكا للكنيسة[٣] . وتوارت خلف الحروب الدينية تلك الرغبة فى الاحتفاظ بهذه الثروة الكنسية أو الحصول عليها .

ووافى الحظ الكنيسة بارتقاء شارل دجيز منصب كبير وزراء فرنسيس الثانى ، وكان قد نصب كردينالا للورين وهو لا يتجاوز الخامسة والثلاثين . وقد أخذ الأدواق من آل جيز لقبهم هذا من قلعتهم القريبة من لاون ، ولكن مقرهم الرئيسى كان فى اللورين ، التى لم تندمج فى فرنسا إلا مؤخرا . أما الكردينال فكان رجلا وسيم الطلعة ، حاضر الذكاء ، مهذب المسلك ، إداريا قديراً ، يملك ناصية البلاغة فى اللاتينية والفرنسية والإيطالية ، ولكن شغفه بالمال والسلطان ، ونفاقه المصقول ، وتحفزه لاضطهاد الخوارج والانتقام من المعارضين ، وخفضه الجرىء لنفقات الحكومة — كل هذا خلق له أعداء فى كل طبقة تقريبا . وكان أخوه الأكبر ، فرنسيس دوق جيز ، قد اكتسب سمعة فى الاستراتيجية وميادين القتال ، وأصبح الآن وزيرا للحربية ، ولكن افلاس البلاد كان يتطلب السلام ، لذلك كان على فرنسيس أن يشبع أطماعه فى تبطل مثير ، فعشق مظاهر العظمة ، والثياب الفاخرة ، والعرض الفروسى ، ولكن آدابه الملوكية وكياسته ومسلكه

الشخصي — كلها جعلت منه معبود فرنسا الكاثوليكية . ولم يكن يطيق الهرطقة ، فرأى استئصال شأفتها بالقوة[٤] — وكان هو وأخوه على يقين من أن الكنيسة ستشرف لا محالة على الفناء إذا اعتنقت فرنسا البروتستنتية كما اعتنقتها ألمانيا وإنجلترة،وأن فرنسا ستفقد تلك الحماسة الدينية التي دعمت من قبل نظامها الاجتماعي ووحدتها القومية . وفي سبيل الدفاع عن إيمانهما وسلطانهما تحدى الأخوان جيز الكثير من المخاطر ، ولقيا حتفهما قبل الأوان ، وشاركا تبعة إيذاء فرنسا وتعذيبها .

لم يعد الهيجونوت أقلية ضئيلة عاجزة من الفرنسيين البروتستنت يقودهم ويلهمهم كالفن من جنيف ، بل ثورة عقائدية واجتماعية واسعة الانتشار على الكنيسة . وقد قدرهم كالفن بعشر الشعب الفرنسي عام ١٥٥٩[٥] . وقدر ميشليه إن عددهم تضاعف عام ١٥٧٢[٦] . كان لهم مراكز في كل إقليم من دوفيني إلى بريتني ، ولا سيما في الجنوب الغربي من فرنسا ، حيث استؤصلت في الظاهر هرطقة الألبيجنس قبل ثلاثة قرون . فعقدوا اجتماعاتهم للصلاة برغم قوانين الحظر التي أصدرها فرنسيس الأول وهنري الثاني ، وعاشوا على العظات الجادة التي تبشر بالجبرية ، وأصدروا الكتيبات النارية حول مفاسد الكنيسة وعسف الأخوين جيز ، وعقدوا مجمعا عاما في باريس (٢٦ مايو ١٥٥٩) تحت سمع الملك وبصره . لقد أعلنوا ولاءهم للملكية الفرنسية ، ولكنهم نظموا الأقاليم التي سادوها وفق الأساليب الجمهورية . وصاغوا لهم ما تصوغه أية أقلية مضطهدة من أيديولوجية موقتة للحرية ، ولكنهم وافقوا الكاثوليك على أن من واجب الدولة أن تفرض « الدين الحق » على فرنسا كلها . وكانت نظريتهم الخلقيـــة أكثر صرامة من ناموس خصومهم الذي تراخى مع الزمن ، فاجتنبوا الرقص ، والثياب البهية ، والمسرح ، ونددوا ساخطين بأخلاق القصر ، حيث « الرجال لا يغرون النساء ، بل النساء يغرين الرجال[٧] » كما قالت جان دالبر لابنها .

أما الملكة الأم ، كاترين دى مديتشى ، فرأت أن الدين عند الفريقين « إن هو إلا ستار لانفع له الا إخفاء الأحقاد والضغائن ، ومع ذلك فقلوبهم لا تنطوى على شيء أضأل من الدين »[٨] . ولعلها قست فى حكمها هذا ، ولكن ما من شك فى أن العوامل الاجتماعية والاقتصادية كانت تكمن خلف الصراع الدينى ؛ وثبت الفلاحون على الكثلكة ، ولم يكن لهم مصلحة فى هذا النزاع ، ولم يجدوا فى عقيدة جبرية صارمة كالبروتستنتية بديلا يعوضهم عن الأساطير المعزية وملطفات الأعياد التى أتاحتها لهم عقيدتهم القديمة . أما البرولتاريا ، الصغيرة عددا الكبيرة بروح الثورة ، فقد نددت بروسائها واستمعت فى تعاطف إلى صوت « الاصلاح » لأنه يعد ببعض التغيير ، وكما حدث فى إنجلترة اللولارد والبيورتان، وألمانية حرب الفلاحين ، كذلك أصبح الإنجيل هنا كتاب الثورة[٩] . كذلك استمعت الطبقات الوسطى إلى الوعاظ الأجرياء الذين دربتهم جنيف وبعثتهم إلى فرنسا . وأما رجال الأعمال الذين التقوا فى الأسواق الكبيرة بالأثرياء من الألمان والانجليز والسويسريين فقد لاحظوا الحلف الناجح بين هؤلاء التجار وبين الحكام البروتستنت والأفكار البروتستنتية . لقد طالما كابدوا الأهانات تحت سلطان الأساقفة والبارونات الذين احتقروا التجارة وارتبطوا بعادات الاقطاع . وسرهم وأثار حسدهم ما علموه من عطف كالفن على دنيا المال والأعمال ، ومن اشراكه العلمانيين فى رقابة الأخلاق والاشراف على الكنيسة . وقد كرهوا ثراء الكنيسة وعشورها ، وغاظتهم المكوس الاقطاعية المفروضة على التجارة . ولم يستطيعوا أن يغتفروا للملكية اخضاعها الكومونات البلدية للحكومة المركزية بعد أن ظلت قرونا حكرا سياسيا لهم[١٠] . وحتى أصحاب المصارف رضوا عن الهيجونوت الذين لم يحتقروا تقاضى الفائدة على المال ، وهو الأمر الذى استنكرته الكنيسة منذ زمن سحيق ، وان أغضت عنه مؤخرا بعين لاهوتية وقور .

وكان كثيرون من النبلاء يعتنقون قضية الثوار ، لأنهم هم أيضا لم يرتضوا

مركزة السلطة فى دولة موحدة . ولا بد أنهم سمعوا بأمراء الأقاليم الألمان الذين استطاعوا بتحالفهم مع البروتستنتية أن يتحدوا الأباطره والبابوات ، والذين أثروا من غنائم الكنيسة ، إذن فما الذى يحول دون استخدام هؤلاء الهيجونوت البواسل أداة جاء أوانها لتهذيب الملك واخضاعه ؟ لقد كان النبلاء يهيمنون على حقول فرنسا ومحاصيلها وفلاحيها ، وينظمون فرقها العسكرية ويقودونها ، ويسيطرون على حصونها ، ويحكمون أقاليمها ، فلو أن حركة الاصلاح كسبت طبقة النبلاء لدعمت ظهرها بقوة منتشرة فى الأمة كلها . وقد نبه كردينال اللورين هنرى الثانى عام ١٥٥٣ إلى أن النبلاء ينحازون إلى صف الهيجونوت . فلم يحل عام ١٥٥٩ حتى كان النبلاء فى نورمانديا ، وبريتنى ، وبواتو ، وأنجو ، ومين ، وسانتونج ، يتزعمون ثورة الهيجونوت علانية .

لم تغتفر أسر البوربون المعتزة بنفسها لأسرة فالوا الحاكمة أنها دفعت شارل دوق بوربون إلى الخيانة والموت قبل الأوان (١٥٢٧) ، ولا استطابوا إقصاءهم عن الحكم على يد آل جيز المتعصبين لقومهم ، والذين اعتبروهم أغرابا أصلهم من اللورين الذى كان ألمانيا أكثر منه فرنسيا . لقــد كان لويس الأول البوربونى ، أمير كونديه ، سليلا للملك لويس التاسع ، يجرى فى عروقه الدم الملكى ، وتسمو مرتبته فوق مرتبة الأخوين جيز ، وقد انضم إلى الهيجونوت ، ومات فى محاولته الوصول إلى السلطة على جناح عقيدتهم . أما أخوه انطوان البوربونى ، ملك نافار لقبا — والذى لا يحكم فعلا غير إقليم بيارن فى جنوب فرنسا الغربى — فقد انحاز حينا إلى صف الهيجونوت ، متأثرا إلى حد كبير برأى زوجته جان دالبر . وكانت جان الابنة المناضلة لأم رقيقة هى مارجريت النافارية ، التى احتفظت فى الظاهر بكثلكتها احتراما لأخيها فرنسيس الأول ، ولكنها بسطت حمايتها على كثيرين من المهرطقين والهيجونوت . . وكما أن الأم مثلت النهضة فى حبها للحياة والشعر ، فكذلك مثلت جان دور النساء فى الاصلاح البروتستنتى الفرنسى

وخلقهن – غيورات فى دينهن إلى حد التعصب ، يربين أطفالهن ويكرسنهم ليواصلوا الحرب المقدسة حتى الموت أو النصر . وقد نشأت ولدها الشهير الذى عرف فيما بعد بهنرى الرابع ، على كل فضيلة إسبرطية وبيوريتانية ، ولم يفسح لها فى الأجل حتى تراه يرتد إلى مرح النهضة المنحل . ولا بد أنها أعجبت أشد الاعجاب بجاسبار دكولينى ، فقد جمع فى شخصه كل مثلها الأعلى : إنسان شريف لقبـا وخلقا ، وزعيم حصيف وفى لقضية الهيجونوت ، وجندى ورجل دولة صارم أخزت مناقبه خيانات البلاط المتوارية خلف طلاء زائف .

كان كالفن قد حذر أتباعه الهيجونوت من المقاومة العنيفة للحكومة(١١) . ولكن صبرهم عيل تحت وطأة الاضطهاد . ذلك أن هنرى الثانى كان قد أمر جميع القضاة بأن يحكموا بالاعدام على كل البروتستنت المتشبثين بعقيدتهم (يونيو ١٥٥٩) . ثم جدد فرنسيس الثانى هذا الأمر بتحريض من الأخوين جيز ، وأضاف إليه أمرا بهدم جميع المبانى التى تعقد فيها اجتماعات دعاة الاصلاح البروتستنتى ، وأمرا باعدام الأشخاص ، وحتى الأقرباء : الذين يؤوون مهرطقا محكوما عليه ، أو يقصرون فى ابلاغ الحكام عنه . وفى الشهور الخمسة الأخيرة من عام ١٥٥٩ أحرق ثمانية عشر شخصا أحياء لتماديهم فى الهرطقة ، أو لرفضهم حضور القداس أو تناول القربان الكاثوليكى . وفر مئات من الهيجونوت الفرنسيين إلى جنيف حيث آواهم كالفن . أما الذين بقوا فى فرنسا فقـد بدأوا ينظمون أنفسهم لخوض الحرب الأهلية .

وفى ٢٣ ديسمبر ١٥٥٩ أحرقت آن دبور لأنها اجترأت فى « برلمان » باريس على إدانة الاضطهاد بسبب الهرطقة . وبعد هذا بقليل خنق جاسبار دهو فى قصر فانسين الريفى بأمر الأخوين جيز . وتآمر زوج أختـه ، جودفروا دبارى ، سيد إقليم رنودى ، مع الأشراف وغيرهم على اعتقال الأخوين جيز وعزلهما بهجوم مباغت يقومون به فى أمبواز . واكتشف

كردينال اللورين المؤامرة ، فجرد جنده وقهر المتآمرين وقبض عليهم ، ثم شنق بعضا ، وقطع رءوس بعض ، ووضع بعضا فى زكائب وقذف بهم فى اللوار . جاء فى سجل أخبار معاصر « لا شىء غير شنق الناس أو إغراقهم طوال شهر بأكمله ، حتى غطت الجثث نهر اللوار » (مارس ١٥٦٠)[١٢] . ودعى كونديه للمثول أمام المحكمة الملكية ليجيب عن تهم الاشتراك فى المؤامرة ، فذهب ، وأنكر التهم ، وتحدى كل من يتهمه بالاحتكام إلى السيف . ولم يقدم أى دليل ضده ، فأخلى سبيله .

وازعجت كاترين « فتنة أمبواز » هــذه ، وعلو مكانة المتآمرين ، ووحشية قمع الحركة ، وحمى الثأر التى أججت سخط الهيجونوت والنبلاء، فاقنعت الملك الضعيف والأخوين جيز ، الكارهين لرأيها هذا ، باتاحة الفرصة لتجربة التسامح . ودعت ميشيل دلوبيتال ليتقلد منصب المستشار (مايو ١٥٦٠) وطلبت إليه أن يهدئ من هياج فرنسا . وكان ميشليه قد تعلم خلال طلبه العلم فى إيطاليا أن يكون إنسانيا لا دجماطيا ، وقد عامل الكاثوليك والبروتستنت خلال توليه القضاء الإقليمى فى فرنسا معاملة المساواة فى الشفقة والاعتبار . لذلك اقترح الآن على البرلمان نفس الآراء التى أفضت إلى حرق دى بور : « كل إنسان صنع دينا لنفسه ، ولكن بعض الناس ... يودون أن يقبل دينهم هم ويطارد دين غيرهم ... فعلينا أن نترفق بعضنا ببعض . وأن نخترع طريقة للعيش معا[١٣] » وعملا بنصحيته دعت كاترين مجلسا للأعيان يتألف من الكاثوليك والبروتستنت ، انعقد فى فونتنبلو فى ٢١ أغسطس ١٥٦٠ . وقدم كولينى فى المجلس التماسا للملك مرفوعا من الهيجونوت أكدوا فيه ولاءهم له ، ولكنهم طلبوا حرية العبادة كاملة ودعا بعض الأساقفة إلى الاعتدال من الطرفين ، وحضوا الاكليروس على أن يصلحوا من أخلاقهم . وقرر المجلس أن المشاكل التى ينطوى عليها بحثه تقتضى دعوة مندوبين من كل الطوائف والطبقات فى فرنسا : فأمر الملك بعقد مجلس الطبقات هذا فى ١٠ ديسمبر ، وحظر أثناء ذلك أى

محاكمات على تهمة الهرطقة حتى يفصل المجلس الجديد فى أسباب الخلاف الأساسية التى تحدث الانقسام والفرقة فى البلاد .

أما البوربون الهيجونوت فقد رفضوا حضور مجلس الأعيان مخافة أن يقبض عليهم ، وإذ تشكك أمير كونديه وانطوان دبوربون فى إمكان التوفيق ، فانهما تآمرا لجمع جيش وإقامة دولة مستقلة تتخذ ليون عاصمة لها . ولكن الحكومة اعترضت طريق أحد سعاة كونديه ، وفضحت أوراقه المؤامرة ، فقبض على كونديه ، وحوكم ، وحكم عليه بالاعدام فى ١٠ ديسمبر . واستعاد الأخوان جيز سلطتهما الدكتاتورية .

وإذا الموقف يتغير فجأة بموت فرنسيس الثانى (٥ ديسمبر ١٥٦٠) وهو بعد فى السادسة عشرة . فخلفه أخوه شارل التاسع فى تقلد سلطته رسميا ، ولكن لما كان لا يتجاوز العاشرة ، فقد قبل وصاية أمه ، التى انضمت الآن إلى اليزابيث ملكة إنجلترة ، وفليب الثانى ملك أسبانيا ، فى توجيه الفوضى الأوربية نحو تحقيق مآربهم المتضاربة .

كاترين دى مديتشى

ما زالت هذه المرأة لغزا برغم انقضاء أربعة قرون من التفسيرات المتعارضة . كانت سليلة لورنزو الفاخر ، وحفيدة البابا ليو العاشر ، فهى إذن المديتشية النموذجية ، فى ميراثها الحكم ، وفى دمها الدهاء . ولدت فى فلورنسة (١٥١٩) لأبوين ماتا بالزهرى قبل أن تتم الشهر ، فظلت قطعة شطرنج عاجزة تحركها دبلوماسية أقربائها المتحفزين للعراك ، حتى زوجها عمها البابا كليمنت السابع وهى بعد فى الرابعة عشرة لهنرى الثانى ملك فرنسا المقبل . وظلت عشر سنوات عاقرا بينما كرس زوجها المكتئب نفسه لخليلته ديان دبواتييه . ثم انبعث الأطفال من بطنها كل سنة تقريبا حتى بلغوا العشرة عدا . وكانت تؤمل وتخطط لتنال لهم العروش . ومات ثلاثة منهم أطفالا ، وارتقى ثلاثة عرش فرنسا ، وأصبحت اثنتان منهم ملكات . وذاقوا كلهم تقريبا مرارة المأساة ، ولكنها كانت أكثرهم

فجيعة ، لأنها عمرت بعد موت زوجها وثلاثة من أبنائها الملوك واحدا بعد الآخر . وسواء كانت ملكة أو ملكة أما ؛ فقد احتملت صروف عهود ملكية أربعة ؛ وسلاحها بفضل ما أوتيت من حصافة وضبط للنفس ونفاق لا يتقيد بمادئ الشرف .

وصفها معاصر بأنها « امرأة جميلة حين يتوارى وجهها خلف القناع[١٤] » أى أن لها قواما جميلا ، ويؤكد لنا برانتوم أن صدرها « أبيض ممتلىء » وأن « فخذها غاية فى الجمال » وأن يديها وأناملها بديعة[١٥]. ولكن قسماتها كانت خشنة ، وعينيها أكبر وشفتيها أغلظ وفمها أوسع ممـا ينبغى . فإذا كانت قد آغوت الرجال فإنما عن طريق غيرها من النساء . وقد أرجفت الشائعات بأنها احتفظت من حولها بـ « سرب طائر » من الحسان اللاتى يغرين الرجال بتحقيق مآربها[١٦] ، ولكن يبدو أن هذه التهمة باطلة[١٧] . فقد جرح كرامتها تسلط ديان فى السياسة والحب جميعا ، ومن ثم وجدت بعد موت هنرى ثأرها بأن جعلت نفسها القوة الكامنة وراء العرش مدى ثلاثين عاما . وكان لزاما أن يعوض دهاؤها عن عجز أبنائها ؛ لقد كرهوا تدخلها ، ولكن اخفاقهم فى الملك فرض هذا التدخل . وإذ ألقيت فى دوامة الثورة الدينية ، وأحاط بها الأشراف المغامرون واكتنفتها الدهماء المتعصبة ، فقد حاربت بالأسلحة الوحيدة التى تملكها — وهى المال المديتشى والفطنة الإيطالية ، والدبلوماسية المكيافللية . لقـد أهدى مكيافللى كتابه « الأمير » لأبيها من قبل ، ولم تكن كاترين فى حاجة لتعليمه ، لأنها رأت مبادئه مطبقة فى كل مكان من إيطاليا وفرنسا . وقد بزت جميع رجال الدولة الملتفين حولها كما فعلت اليزابث ملكة إنجلترة ، وفاقتهم فى الكذب ، و « كان لديها من الخدع أكثر مما لدى جميع مستشارى الملك[١٨] » . وقد صرفت شئون الدولة بهمة وكفاية . قال مراقب إيطالى « لم يكن ليتم شىء دون علمها ، وقل أن وجدت متسعا لتناول طعامها[١٩] » — مع أنها بطريقة ما أصبحت بدينة . أما أخلاقياتها الشخصية فقد سمت فوق جيلها ، إذ

يبدو أنها كانت مخلصة لزوجها غير المخلص ، وفية لذكراه ، لبست الحداد عليه حتى نهاية حياتها . وقد ترفق فى الحكم عليها أعظم خلفائها هنرى الرابع فقال : —

« أسألكم ماذا كان فى استطاعة امرأة أن تفعل بعد أن تركها موت زوجها بخمسة أطفال صغار على ذراعيها ، وأسرتين فى فرنسا تفكران فى انتزاع التاج — أسرتنا (البوربون) وأسرة جيز ؟ ألم تكن مكرهة على أن تلعب أدوارا غريبة ، لتخدع الواحد أولا ثم تثنى بالآخر ، حتى تحمى أبناءها كما حمتهم ، وتيسر لهم أن يملكوا الواحد بعد الآخر بفضل السياسة الحكيمة التى اتبعتها هذه الأم الداهية ؟ انه ليدهشنى أنها لم تتصرف قط على نحو أسوأ مما فعلت[٢٠] » .

ولعلنا نرتضى هذا الحكم تقديرا منصفا لمسلك كاترين قبل عام ١٥٧٠ . فقد ضربت هذه الأسر والقوى المنافسة التى أحاطت بها بعضها ببعض . وكتبت تقول : « انى بمشيئة الله لن أسمح لنفسى بأن يتحكم فيها هـذا الفريق أو ذاك ، لأننى أيقنت للأسف أنهم جميعا يحبون الله ، والملك ، واياى ، أقل مما يحبون مكاسبهم . . . وإشباع أطماعهم[٢١] » . كان فيها من خلق إيطاليى النهضـة ما زهدها فى صرامة الهيجونوت الجبرية ؛ ثم إنها كانت تطلب قرضا من الكنيسة لتحول دون افلاس الدولة[٢٢] ، ومع ذلك ففى سبيل فرنسا كانت على استعداد لتزوج ابنتها مارجريت لهنرى نافار الهيجونوتى ، وابنها هنرى لاليزابث المحرومة من الكنيسة . ونظرت إلى الموقف فى صورته الأسرية والسياسية لا الدينية أو الاقتصادية . وكان عليها أن تحمى وطنها المقسم من تحالف أسبانيا والنمسا الهابسبورجى . وكانت معاهدة كاتو — كامبريزى قد تركت القوة الأسبانية متفوقة فى فلاندر ، ومتعدية تعديا خطيرا على شمال فرنسا الشرقى . وقد تشتعل الحرب القديمة بين أسرتى فالوا وهابسبورج من جديد فى أية لحظة ، وعندها تحتاج فرنسا

إلى دماء وسلاح الهيجونوت والكاثوليك على السواء — فالخطر من الخارج يتطلب السلام فى الداخل .

بهذا المزاج استعدت هى ومستشارها لوبيتال للاجتماع بمجلس طبقات الأمة فى أورليان . ولم تكن « أقاليم » بل كانت « طبقات » : النبلاء ، والاكليروس ، وبقية فرنسا ممثلة فى الطبقة الثالثة — وهى أساسا البورجوازية أو الطبقات الوسطى ساكنة المدن الكبيرة والصغيرة ، ولكنها تضم أيضا فى تمثيل متواضع الفلاحين والبرولتاريا الناشئة . ولم يكن للمندوبين نظريا أى سلطة تشريعية لأنهم انتخبوا بالقوى المحلية والطبقية لا بأى اقتراع واسع ، وكل ما كان لهم من حقوق هو حق إسداء النصيحة للملك ، على أن حاجته للمال عززت هذه النصيحة بعض التعزيز .

وافتتح لوبيتال الدورة (١٣ ديسمبر ١٥٦٠) بدعوة مثالية للتسامح من الفريقين . وقال مناشدا المجلس إن وظيفة الحكومة هى حفظ السلام والنظام والعدالة بين جميع المواطنين دون تحيز ودون نظر لآرائهم الدينية ، ومن المرغوب فيه أن يكون الفرنسيون جميعا على دين واحد ، لأن هـــذا من شأنه أن يعين على الوحدة والقوة القوميتين ، ولكن إذا لم يكن فى الاستطاعة بلوغ هذا الاتفاق العام بالوسائل السلمية ، فالتسامح إذن خير وأبقى . فمنـــذا الذى يعرف ما المرطقه وما الحق ؟ « أنت تقول إن دينك أفضل الدينين ، وأنا أقول كذلك عن دينى ، فهل اعتناق رأيك معقول أكثر من اعتناقك رأيى ؟ . . . فلننه إذن هذه الأسماء الشيطانيه ، وهـــذه البطاقات الحزبيه والشيع والتحريضات على الفتنه — اللوثريين ، والهيجونوت ، والكاثوليك ؛ دعونا نغير أسماءنا إلى مسيحيين[٢٣] ! »

ولكن الاستجابه لم تكن حارة . وطالب فقيه من لاهوتيى السوربون — وهى يومئذ كليه اللاهوت فى جامعه باريس — بالموت جزاء لكل المهرطقين ، ونصح مندوب البابا كاترين بأن تبدأ بحرق جميع المندوبين الهيجونوت ، ثم تثنى بجميع الهيجونوت فى أورليان[٢٤] . أما المندوبون الهيجونوت

فاقترحوا على الملكة الأم شتى الاصلاحات : أن يختار الشعب جميع رعاته الدينيين ؛ وأن يختار الرعاة وأشراف الأسقفيات أساقفتهم ؛ وأن يخصص ثلث الايرادات الكنسية لاعانة الفقراء ، وثلث آخر لبنـاء الكنائس والمستشفيات والمدارس ؛ وأن تقتصر تعاليم الكنيسة على الأسفار المقدسة[٢٥]. وكان فى هذا من التقدمية أكثر قليلا مما تطيقه كاترين ، مع حاجتها الماسة لأموال الكنيسة . فهدأت من ثائرة الهيجونوت بالافراج عن كونديه السجين وحض البابا بيوس الرابع على السماح بإزالة الصور والتماثيل الدينية من الكنائس ومناولة الأسرار المقدسة بالخمر كما تناول بالخبز[٢٦] . وفى ٢٨ يناير ١٥٦١ أفرجت عن جميع الأشخاص الذين اعتقلوا لـ « جرائم » دينية ، وأمرت بانهاء كل الاضطهادات بسبب الدين حتى إخطار آخر . وفى الحادى والثلاثين من يناير أجلت اجتماع مجلس الطبقات إلى مايو حين ينعقد ويسد حاجاتها للمال .

واغتبط الهيجونوت وتمددوا فى دفء هذه القرارات . ففى ٢ مارس عقدوا فى بواتييه مجمعهم القومى الثانى . وراح القساوسة البروتستنت يعظون دون تحرج فى مساكن كونديه وكولينى ببلاط فونتنبلو . وفى كاستر بجنوبى فرنسا خصت الانتخابات البلدية (١ يناير ١٥٦١) البروتستنت بجميع الوظائف ، وما لبث أن صـدر الأمر لجميع المواطنين بحضور الخدمات الدينية البروتستنتية[٢٧] ، وحظرت الخدمات الكاثوليكية ، وحكم على الصور والتماثيل الدينية رسميا بالاتلاف والتحطيم[٢٨] . وفى آجن ومونتوبن استولى الهيجونوت على الكنائس الكاثوليكية غير المستعملة . فشكل حاكم القلعة الهرم آن دمونمورنسى هو ودوق جيز ومارشال دسانت أندريه « حكومة ثلاثية » لحماية المصالح الكاثوليكية (٦ أبريل ١٥٦١) . وتفجر الشغب فى باريس ، وروان ، وبوفيه ، وغيرها . وأصدرت الملكة « مرسوم يوليو » (١٥٦١) الذى حظر العنف وخدمات الهيجونوت الدينية العلنية وتجاهل الهيجونوت المرسوم ، وهاجموا المواكب الكاثوليكية فى

مختلف المدن ، ودخلوا الكنائس الكاثوليكية وأحرقوا الآثار والرفات المقدسة وحطموا التماثيل[٢٩] . وفى مونبلييه ، فى خريف عام ١٥٦١ ، نهبت الكنائس والديورة الستون كلها ، وقتل كثير من القساوسة ، وفى مونتوبن أحرق دير « كلير الفقيرة » وشتت الراهبات ونصحن بأن يجدن لأنفسهن أزواجا[٣٠] . وفى نيم طرد الهيجونوت جميع القساوسة ، واستولوا على كل الكنائس الكاثوليكية أو دمروها ، وأحرقوا الكاتدرائية ، وداسوا القربان المكرس بأقدامهم (فبراير ١٥٦٢) [٣٢] . أما فى لانجدوك وجين فكان الهيجونوت عادة إذا ملكوا زمام الأمر يستولون على الكنائس والأملاك الكاثوليكية ويطردون الكهنة الكاثوليك . ولم يكن القساوسة الهيجونوت أقل تعصبا من نظرائهم الكاثوليك وان امتازوا عنهم فى فضائلهم الشخصية[٣٤] ، فقد حرموا الهيجونوت الذين عقدوا زواجهم على يد القساوسة الكاثوليك أو سمحوا لأبنائهم بالزواج من الكاثوليك[٣٥] . وهكذا لم ير أحد الطرفين أى معنى للتسامح .

واستأنف مجلس الطبقات جلساته فى أول أغسطس ١٥٦١ متخـذا بونتواز مقرا له هذه المرة . وقدم المال للحكومة مشترطا ضرورة موافقته بعد ذلك على أى فرض للضرائب الجديدة أو إعلان للحرب . أما الطبقة الثالثة ، التى أصبحت الآن المورد الأكبر للمال ، فقد أضافت طلبا جريئا — هو تأميم جميع أملاك الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، وأن تدفع الدولة رواتب الاكليروس ، وأن تخصص ٤٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه من الفائض الحاصل بهذه الطريقة وقدره ٧٢٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه لاستهلاك الدين الأهلى . وسارع رجال الدين الكاثوليك المروعين إلى مصالحة كاترين بأن عرضوا عليها ١٦٫٦٠٠٫٠٠٠ جنيه تدفع لها فى حذر على عشرة أقساط سنويا . فقبلت ، وحل مجلس الطبقات .

فى هذه الأثناء كان لوبيتال — بموافقة كاترين وبرغم احتجاج البابا — قد دعا رجال الدين الكاثوليك والبروتستنت للاجتماع وإيجاد صيغة لتهدئة

الخواطر . واجتمع فى بواسى ، على أحد عشر ميلا غربى باريس ، ستة كرادلة ، وأربعون أسقفا ، واثنا عشر لاهوتيا من السوربون ، واثنا عشر من كهنة الكاتدرائيات ، وعشرة قساوسة بروتستنت من فرنسا ، وواحد من إنجلترة ، وتيودور دبيز من جنيف ، وعشرون علمانيا بروتستنتيا ، فى « ندوة بواسى » المشهورة (٩ سبتمبر ١٥٦١) . وحضر الندوة الملك ، والملكة الأم ، وامراء البيت المالك ، ومجلس الدولة ، بكل مظاهر الجلال والكرامة . واستقبل بيز ، ممثل كالفن الشيخ ، بحفاوة تقرب من حفاوة الملوك ، وقام بخدمة دينية بروتستنتية ووعظ فى قصر كاترين . بدأ عظته معتدلا ، وسحر السامعين جميعا بفرنسيته الرائعة ، ولكنه حين قال إن « جسد المسيح فى القربان بعيد عن الخبز المكرس بعد السماء عن الأرض » ، صاح المندوبون الكاثوليك احتجاجا ، وتلا ذلك هياج كبير ، وألح الأساقفة فى نفى كل الوعاظ الذين يتشككون فى « الوجود الحقيقى »[٣٦] ، وارفضت الندوة والصراع على العقائد أشد مرارة وأبعد ما يكون عن الهدوء .

كان الهيجونوت يطربون حين يعقدون اجتماعاتهم فى ميدان عام مواجه لكنيسة كاثوليكية ويشوشون على القداس بترتيل صاخب لمزاميرهم ، أما الكاثوليك فكانوا يدقون جرس الكنيسة ليغرقوا صوت الترتيل . وفى باريس استحال استمرار اجتماع بروتستنتى تجاه كنيسة سان ميدار بسبب قرع عنيف صادر من برج الأجراس ، وقتل بروتستنتى داخل الكنيسة للاحتجاج ، فثارت ثائرة البروتستنت ونهبوا المبنى وحطموا التماثيل والصليب . وجرح ثمانون من المصلين فى المعركة التى تلت ذلك (٢٧ ديسمبر ١٥٦١) .

ورأت كاترين أن تهدئ خواطر الكاثوليك باصدار « مرسوم يناير » (١٥٦٢) ، الذى ألزم الهيجونوت بتسليم جميع المبانى الكنسية لأصحابها السابقين ويعقد اجتماعاتهم خارج أسوار المدن فقط . ووافق زعماء الكاثوليك

بين على أن هذا مرسوم تسامح فى حقيقته ، اعترف بالبروتستنتية دينا شرعيا فى فرنسا ؛ وقال زعماء البرلمان لكاترين صراحة إنهم يؤثرون الموت على تسجيل هذا المرسوم . فلما أدان مونمورنسى وسانت أندريه سياستها ، طردتهما من البلاط ؛ ولما انفجر غضب الكردينال دتورنون: عليها ألزمته عقر أسقفية . ورماها الوعاظ الكاثوليك بالفسق (مثل ايزابل امرأة آخاب) — وهو نفس النعت الذى كان يستعمله نوكس البرتستنتى تنديداً بملكة اسكتلنده الكاثوليكية .

وفى يوم الأحد أول مارس ١٥٦٢ ، بينما كان فرنسيس دوق جيز مارا بقرية فاسى التى تقع نحو أربعين ميلا شمال غربى ديجون ، ومعه فرقة من مائتى تابع مسلحين ، وقف بكنيسة هناك ليستمع إلى القداس . ولكن الصلاة شوش عليها ترتيل الهيجونوت لمزاميرهم فى اجتماع لهم بجرن قريب . فأرسل إليهم رسولا يطلب إليهم ارجاء تراتيلهم خمس عشرة دقيقـــة حتى ينتهى القداس . ولكنهم وجدوا فى هذا الطلب مضايقة شديدة . وبينما كان جيز يواصل صلاته تراشق بعض أتباعه بعبارات التحية المتعصبة مع الهيجونوت ، وجرد الأتباع سيوفهم ، وقذفهم الهيجونوت بالحجارة ؛ وأصاب حجر منها جيز وهو خارج من الكنيسة فأسال دمه النبيل ، وما هى إلا أن اندفع أتباعه هاجمين على اجتماع الهيجونوت الذى ضم خمسمائة بين رجل وامرأة وطفل — فقتلوا منهم ثلاثة وعشرين ، وجرحوا مائة[٣٧] . وأثارت « مذبحة فاسى » هذه حمى القتال فى البروتستنت الفرنسيين ؛ أما الكاثوليك ، لا سيما فى باريس ، فرحبوا بها أداة تهذيب جاءت فى أوانها لتؤدب هذه الأقلية المكابرة لصفو البلاد . وأمرت كاترين جيز بأن يحضر إليها فى فونتنبلو ، فرفض ومضى إلى باريس ، وانضم إليه مورنمورنسى وسانت أندريه فى الطريق ومعهم ألفا رجل . وأمر كونديه قواته البروتستنت بأن تتجمع بسلاحها فى مو . وزحف الثلاثى الكاثوليكى بالجند على فونتنبلو ، فاعتقلوا الملكة الأم والأسرة المالكة ، وأكرهوهم على البقاء فى ميلون على سبعة

وعشرين ميلا من باريس ، ثم شكلوا « مجلسا خاصا » جديدا ألف أكثر أعضائه من رجال جيز ، وأقصى عنه لوبيتال . أما كونديه فقاد محاربيه البالغين ١٦٠٠ إلى أورليان وناشد كل الجماعات البروتستنتية أن تمده بالجنود . وهكذا بدأت أولى « الحروب الدينية » (أبريل ١٥٦٢) .

٣ — حكم الدم : ١٥٦٢ — ٧٠

طلب الفريقان المعونة من الخارج وحصلا عليها ، الكاثوليك من أسبانيا ، والبروتستنت من إنجلترة وألمانيا ، فأرسلت اليزابث ٦٫٠٠٠ رجل إذ أغراها وعد البروتستنت بإعطائها كالية ، واستولى ٢٫٠٠٠ منهم على روان ، ولكن جيز انتزع المدينة ونهبها (٢٦ أكتوبر ١٥٦٢) ، ونهب جنده المتعطشون للغنيمة السكان الكاثوليك والبروتستنت وذبحوهم دون تحيز لأى فريق ؛ وفى هذه الاشتباكات جرح أنطوان دبوربون جرحا مميتا ، وكان قد اعتنق المذهب الكاثوليكى وانضم إلى القوات الكاثوليكية . وسيطر الهيجونوت على معظم المدن جنوبى فرنسا ، ناهبين الكنائس محطمين التماثيل بحماسة دينيـــة . وزحفت أهم قواتهم وعدتها ١٧٫٠٠٠ رجل يقودهم كونديه وكولينى على نورمانديا لينضموا إلى التعزيزات الإنجليزية . فقطع عليهم الزحف عند درو جيش كاثوليكى قوامه ١٧٫٠٠٠ يقوده الحلف الثلاثى ؛ وفى ١٩ ديسمبر خاض الفريقان معركة حامية خلفت ٦٫٠٠٠ صرعى فى الميدان ؛ وقتل سانت أندريه ، وجرح مونمورنسى وأسره الهيجونوت ، وجرح كونديه وأسره الكاثوليك . وتغلبت روح المجاملة الفرنسية حينا ، فعومل مونمورنسى معاملة الأبطال ، وهو الذى دأب على القتال جنبا إلى جنب مع جنوده وجرح فى سبع معارك مع أنه القائد الأعلى لجيوش الملك ، أما الدوق دجيز فقد احتفى بكونديه ضيفا مكرما ، وتناول معه الطعام ، وشاركه الفراش الوحيد الموجود فى المعسكر[٣٨] . وعقد النصر غير الحاسم للكاثوليك ، ولكن باريس والأسرة المالكة اعتقدا حينا أن الهيجونوت هم الغالبون . واستقبلت كاترين النبأ فى هدوء قائلة : « حسنا إذن ، سنصلى لله بالفرنسية »[٣٩] .

أما جيز فقد لقى منيته عقب الانتصار . فبينما كان ينشر قواته لحصار أورليان رماه فتى هيجونوتى فى التاسعة عشرة يدعى جان بولترو دميريه (١٨ فبراير ١٥٦٣) بطلق نارى من كمين . ومات الدوق بعد ستة أيام من الألم ، وأكد بولترو حين أحضر أمام كاترين أن كوليني استأجره على على قتل جيز بمبلغ كبير من المال ، وأن بيز وعده بالجنة ان وفق . وكتبت كاترين لكوليني تطلب جوابه عن التهمة ، فأنكر أى مشاركة فى خطة الاغتيال ، وقال إنه طالما حذر الدوق من القتلة ، واعترف بأنه سمع بولترو يجهر بنيته ، وأنه لم يفعل شيئا لمنعه ، وأنه نفحه بمائة كراون ، ولكن لأغراض أخرى ، وهو على أى حال غير آسف لنجاح المؤامرة ، « لأنه ليس فى استطاعة » القدر أن يضرب ضربة خيرا من هذه لصالح المملكة وكنيسة الله ، لا سيما وأنها لصالحى وصالح بيتى(٤٠) : » ومزقت الخيل أوصال بولترو فى ١٨ مارس ، وقد أعاد اتهامه لكوليني وهو يعانى سكرات الموت(٤١) . وأقسم هنرى أن يثأر لموت أبيه ، بعد أن أصبح الآن ثالث أدواق جيز .

وواصلت كاترين سعيها للسلام ، وقد وضح لها أنه لو أتيح النصر الحاسم لأحد الفريقين لنحاها وربما عزل ولدها . فأعادت لوبيتال لمنصبه مستشارا لها ، ورتبت لقاء بين مونمورنسى وكونديه ، وأقنعتهما بتوقيع مرسوم أمبواز الذى أنهى الحرب الدينية الأولى (١٩ مارس ١٥٦٣) . أما الشروط فكانت نصرا للنبلاء الهيجونوت وحدهم : فقد منحت حرية الضمير وممارسة الدين « المسمى مصلحا » « لجميع البارونات والسادة الاقطاعيين رؤساء القضاء فى بيوتهم ، هم وعائلاتهم وأتباعهم » و « للأشراف المالكين لاقطاعات بدون أتباع والعائشين على أراضى الملك ، ولكن لهم ولأسرهم شخصيا » . أما عبادة الهيجونوت فيسمح بها حيث مارسوها قبل ٨ مارس ١٥٦٣ ، وإلا تقصر على أطراف مدينة واحدة فى أى وكالة اقطاعية أو منطقة نفوذ الشريف . أما فى باريس فهى محظورة

اطلاقا . واتهم كوليني كونديه بأنه ضحى بجماهير الهيجونوت ليحمى طبقته .

وفى ١٥ سبتمبر أعلن بلوغ شارل التاسع رشده وهو لم يبلغ الرابعة عشرة ، ونزلت كاترين عن وصايتها ، ولكنها لم تتنزل عن قيادتها . ففى مارس ١٥٦٤ قادت الملك وحاشيته فى رحلة تخترق فرنسا ، من جهة لترى الأمة مليكها الجديد ، ومن جهة أخرى لتدعم السلام الهش . وأصدرت فى روستون مرسوما بالتسامح الجزئى ، داعية كلا من الفريقين إلى احترام حرية الآخر . وبعد أربعة عشر شهرا من الرحلة الملكية وصلت الجماعة إلى بايون (٣ يونيو ١٥٦٥) ، حيث رحبت كاترين فى ابتهاج بابنتها اليزابث التى أصبحت ملكة على أسبانيا ، واجتمعت مع الدوق ألفا فى مفاوضات سرية أزعجت الهيجونوت . فقد خامرتهم الظنون — بحق — فى أن ألفا أشار باتخاذ الإجراءات العنيفة ضدهم ، ولكن خطاباته المتخلفة لفليب تبين أن كاترين رفضت اقتراحاته ، وأبت أن تطرد لوبيتال ، وتشبثت بسياستها السلمية[٤٢] . وعقب عودتها إلى باريس (ديسمبر ١٥٦٥) استخدمت كل نفوذها لتصلح بين كوليني ، ومورنمورنسى ، وكونديه ، ودوق جيز .

وفى عام ١٥٦٤ دخل اليسوعيون فرنسا ، وأثارت عظاتهم حماسة الكاثوليك ، وحولوا فى باريس خاصة نفرا من الهيجونوت لمذهبهم . أما فى الأقاليم فقد ألغى رد الفعل الكاثوليكى كثيرا من المكاسب البروتستنتية . وانتهكت مراسيم التسامح المرة بعد المرة ، وأفرخت الهمجية فى ظل المذهبين . ولم يكن من غير المألوف أن يشنق حكام الأقاليم المواطنين لا لجريمة سوى أنهم هيجونوت[٤٣] . وفى نيم ذبح البروتستنت ثمانين كاثوليكيا (١٥٦٧)[٤٤] . وبين عامى ١٥٦١ و ١٥٧٢ اقترفت ثمانى عشرة مذبحة للبروتستنت ، وخمس للكاثوليك ، وأكثر من ثلاثين اغتيالا[٤٥] . واستقدمت كاترين الجنود المرتزقة من سويسرة ولم تعط كونديه جوابا

شافيا حين سألها عن قصدها من استقدامهم ، واعتقد كونديه وكوليني أن حياتهما فى خطر ، فحاولا مع أتباعهما المسلحين أن يقتلوا الملك والملكة الأم فى مو (سبتمبر ١٥٦٧) ، ولكن مونمورنسى أحبط المحاولة . وأصبحت كاترين تخشى كوليني خشيتها جيز من قبل .

وأحس كوليني وكونديه أن الحاجة ماسة لحرب ثانية ترد للهيجونوت ولو حقوقهم المحدودة . فاستقدما هما أيضا المرتزقة لا سيما من ألمانيا تعزيزا لقواتهما المستنزفة ، واستوليا على أورليان ولاروشل وزحفا على باريس وطلبت كاترين التعزيزات من ألفا ، فوافاها بها فورا ، وفى سان دنيس ، خارج العاصمة مباشرة ، قاد مونمورنسى ستة عشر ألف رجل ضد جيش كونديه فى معركة من أبشع معارك هذه الحروب وأقلها حسما . ومات مونمورنسى من جراحه . وراحت فرنسا مرة أخرى تتساءل أى دين هذا الذى يدفع الناس إلى مذابح كهذه ، واغتنم لوبيتال الفرصة ليرتب صلح لونجومو (٢٣ مارس ١٥٦٨) ، الذى رد التسامح المتواضع الذى منحه مرسوم أمبواز .

وندد الكاثوليك بالمعاهدة ورفضوا تنفيذ شروطها . واحتج كوليني لدى كاترين ، فدافعت عن نفسها بضعفها . وفى مايو ١٤٦٨ أبلغ خوان دى ثونيجال ، سفير أسبانيا فى روما ، أنه سمع من البابا بيوس الخامس أن الحكومة الفرنسية تنظر فى اغتيال كوليني وكونديه[٤٦] . ولعل مثل هذا النبأ قد نمى إلى الزعيمين البروتستنتيين ، فهربا إلى لاروشيل ، حيث انضمت إليهما جان دالبر وابنها ، الذى بلغ الآن خمسة عشر عاما وكان يتحرق للعمل . وتكون جيش هيجونوتى جديد ، وحشد أسطول ، وعززت الأسوار ، وصدت كل محاولات بذلتها قوات الحكومة لدخول المدينة . وقبلت المراكب الخاصة الإنجليزية تفويض كونديه ، ورفعت رايته ، وانقضت على كل ثروة كاثوليكية تقع فى يدها[٤٧] . وأصبح كونديه السيد المتصرف جنوبى اللوار .

أما كاترين فقد اعتبرت هذه الحرب الدينية الثالثة ثورة ، ومحاولة لقسم فرنسا إلى أمتين واحدة كاثوليكية والأخرى بروتستنتية . ولامت لوبيتال على فشل سياسات التوفيق التى أخذ بها ، فاستقال ، وأحلت مكانه فى منصب المستشار مشايعا متعصبا لآل جيز . وفى ٢٨ سبتمبر ١٥٦٨ ألغت الحكومة مراسيم التسامح وحظرت البروتستنتية فى فرنسا .

وأخذت القوات المتنافسة تتجهز لحرب فاصلة طوال ذلك الشتاء . وفى ٣ مارس ١٥٦٩ ، التحمت فى جارناك قرب أنجوليم . فهزم الهيجونوت ، واستسلم كونديه بعد أن أعيته إصاباته ، ولكنه ضرب بالنار من المؤخرة ومات . فتسلم كولينى القيادة وأعاد تنظيم الجيش لتقهقر منظم . وفى موكونتور هزم الهيجونوت ثانية ، ولكن كولينى استعاد ببراعة التخطيط ما خسره فى المعركة ، وزحف الهيجونوت الذين لا تفل لهم عزيمة ، برغم افتقارهم إلى الانتصارات ، وبلا طعام تقريبا ، حتى لم يبق بينهم وبين باريس غير مسيرة ساعات (١٥٧٠) . وعلى الرغم من الاعانات المالية التى أرسلتها روما وأسبانيا ، وجدت الحكومة مشقة فى تمويل جيوشها وحمل النبلاء الكاثوليك على البقاء فى ساحة القتال أكثر من شهر أو شهرين كل مرة . واجتاحت جحافل المرتزقة خلال ذلك البلاد تنهب الكاثوليك والبروتستنت على السواء وتقتل كل من يجرؤ على المقاومة .

وعرضت كاترين على كولينى تحديد معاهدة لونجومو ، فرفضها لأنها لا تفى بالغرض ، وواصل زحفه . هنا أكد الملك الفتى شارل التاسع سلطته فجأة وأبرم فى سان جرمان (٨ أغسطس ١٥٧٠) صلحا أعطى الهيجونوت الذين هربوا مرارا من قبل أكثر مما كسبوا فى أى وقت مضى ، أعطاهم حرية العبادة إلا فى باريس أو على مقربة من البلاط ، وحقهم الكامل فى تقلد المناصب العامة ، وحق الاحتفاظ بأربع مدن تحت حكمهم لمستقل مدى عامين ضمانا لاحترام تنفيذ هذه الشروط . واستشاط الكاثوليك غضبا وتساءلوا ، فيم الاستسلام بعد كل هذه الانتصارات ؟ واحتج

فليب والبابا » وصرفتهما كاترين بتأكيدها هما أنها إنما تترقب الفرصة المواتية *) .

ومع ذلك راحت تدعم الصلح الجديد بعرضها تزويج ابنتها مارجريت فالوا من هنرى ملك نافار ، الذى أصبح بعد موت كونديه الزعيم الرسمى للهيجونوت . وكانت هذه آخر ضرباتها وأجرأها . لا يهم كونها هى وجان دالبر خصمين لدودين ، ولا أن هنرى قتل فى الحروب من قتل من الكاثوليك . إنما المهم أنه صغير السن مطواع ، فلربما استطاع سحر أميرة جميلة مرحة أن يجتذبه بعيدا عن هرطقاته . إذن ستشهد باريس زفافا باهرا ، وسيدعى إليه الرجال والنساء من المذهبين ؛ وستبعث من جديد روح النهضة المرحة وسط مرارة الاصلاح البروتستنتى ؛ وسيكون هناك تعطيل لنشاط اللاهوت ، والحرب ، والقتل .

٤ — المذبحة

ولكن ، أترضى بذلك أم هنرى ؟ لقد كانت جان دالبر هيجونوتية دما ولحما . وحين جاءت إلى البلاط عام ١٥٦١ أعلنت أنها « لن تحضر القداس ولو قتلوها قتلا ، وأنها تؤثر أن تلقى بابنها وملكه فى البحر عن أن تستسلم[٤٨] » ، بل أنها دعت قسيسها الهيجونوتى ليعظها والأبواب مفتوحة على مصاريعها ، وتجاهلت فى تحد الاتهامات التى رمتها بها الجماهير الباريسية . وحين اعتنق زوجها الكاثوليكية تركته هو والبلاط (١٥٦٢) وعادت إلى بيارن وجمعت المال والجند لكونديه . وبعد موت زوجها فرضت البروتستنتية على إقليم بيارن (وكان يضم مدن بو ، ونيراك ، وتارب ، وأورتيه ، ولورد) ؛ وطردت الكهنة الكاثوليك وأحلت محلهم القساوسة الهيجونوت[٤٩] . ولم يسمع بعدها قداس فى بيارن طوال

(*) دافع اللورد أكتون ، المؤرخ الكاثوليكى ، بكفاية فى كتابة « تاريخ الحرية » (لندن ١٩٠٧) ص ١٠١ — ٤٩ ، عن الرأى القائل بأنها ظلت عامين قبل ذلك تنظر فى إمكان التخلص من زعماء الهيجونوت باغتيالهم .

حسين عاما(٥٠) . وحرمها البابا بيوس الرابع وأراد أن يعزلها ، ولكن كاترين ثلثه(٥١) ، ولعل جان ذكرت هذا حين قبلت عرضها بربط أسرتى فالوا وبوربون برباط الزواج ، وذكرت كفاح كاترين الطويل فى سبيل السلام . ثم ان أبناء كاترين معلولون . أفليس من المحتمل أن يموتوا كلهم ويتركوا عرش فرنسا لهنرى نافار ؟ أو لم يتنبأ العراف نوسترا داموسى بأن أسرة فالوا ستنقرض عما قليل ؟

أما أكثر أبناء كاترين سقاما ، وهو شارل التاسع ، فربما كان فتى محببا لولا نوبات طارئة من القسوة والغضب تشتعل أحيانا فتستحيل سورة تشرف على الجنون . وفيما بين هذه الغضبات كان قصبة تحركها الريح ، وإمعة لا رأى له . ولعله أضعف نفسه بالانهماك فى اللذات . كان زوجا لاليزابيث ابنة الامبراطور مكسمليان الثانى ، ولكن حبه الحرام الثابت كان لخليلته الهيجونوتية مارى توشيه . وكان حساسا للفن والشعر والموسيقى ، يحب أن يتلو غنائيات رونزار ، وقد كتب فى تكريم رونزار أبياتا جميلة جمال شعر رونزار :

كلانا يلبس تاجا ،
أما أنا فتلقيته ملكا ، وأما أنت فتهبه شاعرا ،
ان قيثارتك التى تسحر بأنغامها الحلوة ،
تخضع لك الأرواح ، التى لا أملك غير أجسادها ،
انها ترقق القلوب ، وتسترق الجمال ،
فى قدرتى أن أعطى الموت ؛ أما أنت فتعطى الخلود .

فلما انضم كولينى إلى البلاط فى بلوا (سبتمبر ١٥٧١) رحب به شارل كما يرحب الضعف بالقوة . هنا رجل مختلف كل الاختلاف عن الكثيرين الذين يتراقصون حول العرش : جنتلمان ، وارستقراطى ، ولكنه هادئ رزين ، يحمل نصف فرنسا فى قوة كلمته . وكان الملك الشاب يخاطب القائد المكتهل بـ « أبى » ، وعينه قائدا للأسطول ، ومنحه من جيب

الملك الخاص ٠٠٠ر١٠٠ جنيه تعويضا عن خسائره في الحروب. وانضم كوليني إلى مجلس الملك ورأسه في غيابه(٥٢) . وكان شارل دثم الغيرة والخوف من فليب الثاني ، كارهاً تبعية فرنسا الكاثوليكية لأسبانيا . و قترح عليه كوليني الرأى في حرب مع أسبانيا تعطى فرنسا قضية توحد صفوف الفرنسيين ، وتصحح ذلك الحد الشمالي الشرقي الذي تتعدى عليه أسبانيا ، ولقد آن أوانها لأن وليم أورنج يقود ثورة قامت بها الأراضي المنخفضة على سيدها الأسباني ، فما هي إلا دفعة قوية حتى تصبح فلاندر فرنسية . واستمع إليه شارل في تعاطف . وفي ٢٧ أبريل كتب إلى الكونت لوى ناسو الذي تزعم التمرد البروتستنتي في إينو يقول « إنه مصمم . . . على استخدام القوى التي أودعها الله في يده لتخليص الأراضي المنخفضة من الظلم الذي ترزح تحتـــه(٥٣) » . وعرض لوى وأخوه وليم أورنج تسليم فلاندو وأرتوا لفرنسا لقاء تقديمها المعونة الحاسمة ضد أسبانيا(٥٤) . وفي خريف تلك السنة تفاوض شارل مع أوغسطس ناخب سكسونيا لتأليف حلف دفاعي بين فرنسا وألمانيا البروتستنتية(٥٥) .

أما كاترين فقد حكمت على اقتراحات كوليني بأنها غير عملية إلى حد الحماقة . فمن الخرق أن تعود بهذه السرعة إلى اطلاق شياطين الحرب بعد أن ظفرت بالسلام الذي تفتقر إليه فرنسا أشد افتقار . صحيح أن أسبانيا مفلسة افلاس فرنسا ، ولكنها ما زالت أقوى دولة في العالم المسيحي ، ولقد كللت نفسها مؤخرا بالغــار حين هزمت الترك في ليبانتو ، وإذن فستكسب تأييد كل أوربا الكاثوليكية ، ومعظم فرنسا الكاثوليكية — لو دخلت فرنسا حلفا بروتستنتيا . وفي حرب كهذه سيكون كوليني القائد الأعلى ، وبفضل نفوذه على شارل الطيع سيكون هو الملك الفعلي ، وستنحى كاترين إلى شينونسو إن لم يكن إلى إيطاليا . وعلم هــنرى جيز وهنرى أنجو — أخو الملك — في فزع أن شارل سمح لكوليني بتجريد جيش للانضمام إلى لوى ناسو ؛ وقهر ألفا هذا الجيش بعد أن نبه إليــه أصدقاؤه في البلاط الفرنسي (١٠ يوليو ١٥٧٢) . واستمع اجتماع كامل

لمجلس الملك إلى كوليني يدفع عن مقترحاته للحرب مع أسبانيا (٦ — ٩ أغسطس ١٥٧٢) ، ورفضت كلها بالاجماع ؛ ولكن كوليني أصر عليها قائلا « لقد وعدت على مسئوليتي بمساعدة أمير أورنج ، فأرجو ألا يسوء الملك أن أوفى بوعدى عن طريق أصدقائي ، وربما بشخصي . » ثم قال للملكة « سيدتي ، إن الملك يتجنب اليوم حربا تعده بمنافع عظيمة ، وقانا الله نشوب حرب أخرى لا يقوى على تجنبها[٥٦] » . وانفض المجلس في غيظ شديد لما بدا كأنه تهديد بحرب أهلية ثانية . وقال المارشال دتافان « لتحذر الملكة من مشورات ابنها الملك وخططه وأحاديثه السرية ؛ ان الهيجونوت ظافرون به إن لم تأخذ حذرها[٥٧] » . وأخذت كاترين شارل جانبا ولامته على أنه أسلم عقله لكوليني ، فان أصر على شن الحرب على أسبانيا فستستأذنه في الانسحاب مع ابنها الآخر إلى فلورنسة . وطلب إليها الصفح ووعدها بطاعة الابن لأمه ، ولكنه ظل الصديق الوفي لكوليني .

في هذا الجو قدمت جان دالبر إلى بلوا لعقد الزواج الذى كان مزمعا أن يوحد فرنسا الكاثوليكية والبروتستنتية . وأصرت على أن يقوم الكردينال دبوربون بالمراسيم لا بصفة الكاهن بل الأمير ، لا داخل كنيسة بل خارجها ، وألا يصحب هنرى زوجته إلى الكنيسة ليستمع إلى القداس . ووافقت كاترين ، وان أفضى هذا إلى مزيد من النزاع مع البابا ، الذى رفض الحل لمارجريت بالزواج من الابن البروتستنتي لبروتستنتي محروم . ثم ذهبت جان إلى باريس تتسوق ، فرضت بذات الجنب ، وماتت (٩ يونيو ١٥٧٢) . وخامرت الهيجونوت الظنون بأنها ماتت مسمومة ، ولكن هذا الفوض لم يعد له محل[٥٨] ، وحضر هنرى نافار إلى باريس من بلوا في أغسطس على الرغم من شكوكه وحزنه ، مصحوبا بكوليني وثمانمائة من الهيجونوت ؛ ولحق بهم أربعة آلاف هيجونوتي في العاصمة[٥٩] ، من جهة ليشهدوا الاحتفالات ، ومن جهة أخرى ليحموا ملكهم الشاب . وأثار هذا السيل المتدفق وما رافقه من عشرات العظات

النارية حفيظة باريس الكاثوليكية[٦٠] ، فنددت بالزواج لأنه استسلام من الحكومة للقوة البروتستنتية . ومع ذلك تم الاحتفال (١٨ أغسطس) دون حل من البابا ، واتخذت كاترين تدابيرها لتمنع البريد من الاتيان بحظر بابوى . وقاد هنرى زوجته حتى باب نوتردام ، ولكنه لم يدخل معها . ان باريس لم تكن فى نظره تستأهل بعد أن يحضر قداسا من أجلها . ونزل مع مارجريت قصر اللوفر مؤقتا .

لم تجش باريس بمثل هـذا الانفعال من قبل إلا فيما ندر . واعتقد الناس أن كولينى يتأهب للذهاب إلى جبهة القتال لأنه ما زال مصرا على المعونة العلنية تبذلها فرنسا للأراضى المنخفضة الثائرة . وأنذر بعض الكاثوليك كاترين بأن الهيجونوت يخططون مرة أخرى لمحاولة خطفها هى والملك[٦١] . وكشف طرق السندانات فى أرجاء المدينة عن صنع السلاح على عجل . فى هذه الفترة الحاسمة وافقت كاترين ، فيما زعم ابنها هنرى ، على قتل الأميرال[٦٢] .

ففى ٢٢ أغسطس ، بينما كان كولينى يسير من اللوفر إلى بيته ، قطع عياران أطلقا من نافذة سبابة يسراه ومزق ذراعه حتى الكوع . واندفع رفاقه إلى المبنى ، ولكنهم لم يجدوا سوى قربينة مدخنة ، فقد هرب المعتدى من الخلف . وحمل كولينى إلى مسكنه . وحين نمى الخبر إلى الملك صاح غاضبا « ألا يتاح لى الهدوء أبدا ؟ » وأرسل طبيبه الخاص ، أمبرواز باريه الهيجونوتى ، ليعالج جراح كولينى ، وعين حراسا ملكيين على بيته ، وأمر الكاثوليك بأن يخلوا المساكن المجاورة وسمح للهيجونوت بشغلها[٦٣] . وحضرت الملكة والملك وأخوه هنرى لمواساة الجريح ، وأقسم شارل بـ « أغلظ الأيمان » لينتقمن لكولينى من هذا العدوان . وعاود كولينى حث شارل على دخول الحرب للحصول على فلاندر[٦٤] . وانتحى به جانبا وأسر إليه شيئا . وبينما الأسرة المالكة فى طريقها إلى اللوفر ، أصرت كاترين على أن يبوح الملك بالسر . فأجاب « حسنا إذن ، قسما بموت

الإله ، ما دمت تصرين على أن تعرفى ، فهاك ما قاله لى الأميرال : أن السلطة كلها تحطمت فى يديك ، وأن النهاية ستكون وبالا علىّ » . وفى سورة غضبه حبس الملك نفسه فى غرفته الخاصة . وراحت كاترين تجتر همومها فى غيظ وخوف(٦٥) .

وذهب هنرى نافار إلى كولينى وناقش معه إجراءات الدفاع : وأراد بعض حاشية الأميرال أن يمضوا لتوهم ويغتالوا الزعماء من آل جيز ، ولكنه نهاهم . وقال الهيجونوت « إذا لم تجر العدالة مجراها كاملا فهم لا بد مجروها بأنفسهم(٦٦) » . وراح الهيجونوت يحومون حول اللوفر طوال ذلك اليوم ، وقال أحدهم للملكة إنهم سيقتصون من الجانى بأيديهم إن لم يأخذ العدل مجراها سريعا(٦٧) . ومرت عصابات من الهيجونوت المسلحين المرة بعد المرة بأوتيل اللورين الذى يقيم فيه آل جيز وصاحت تهدد بالموت(٦٨) . ولجأ آل جيز إلى الملك طالبين الحماية وتحصنوا فى بيتهم . أما شارل فقد اشتبه فى أنهم استأجروا القاتل وقبض على نفر من خدمهم وهدد دوق جيز . واستأذن هنرى جيز وأخوه دوق أومال فى أن يغادروا باريس ، فأذن لهما ، ومضيا حتى بوابة سانت انطوان ، ثم انقلبا عائدين واتخذا طريقهما خفية إلى أوتيل اللورين .

وفى ٢٣ أغسطس اجتمع مجلس الملك للتحقيق فى الجريمة. وتبين للمجلس أن البيت الذى أطلق منه العياران تملكه (وان لم تشغله) دوقة جيز الأرملة ، التى أقسمت من قبل على أن تثأر لمقتل زوجها فرنسيس ؛ وأن القاتل هرب ممتطيا جوادا من مرابط أسرة جيز ، وأن السلاح كان ملكا لأحد حرس الدوق أنجو . ولم يقبض على القاتل قط . وفى رواية لأنجو بعد ذلك أنه هو وهنرى جيز قررا الآن أنه لا بد من قتل كولينى وبعض الهيجونوت الآخرين . وبينما كانت كاترين وبعض أعضاء المجلس مجتمعين فى التويلرى ، اندفع إلى الاجتماع عميل لأنجو يسمى بوشافان معلنا أن الهيجونوت فى بيت كولينى يخططون لفتنة عنيفة يقومون بها على الأرجح

فى المساء التالى(٦٩) . وأضيف الآن عامل جديد إلى كراهية كاترين للأميرال ، وغضبها مما لاح لها أنه أغواء منه للملك ليحرمه من إرشادها ، واقتناعها بأن سياسة الحرب مع أسبانيا ستكون وبالا على فرنسا وعلى أسرتها — ذلك هو الخوف على حياتها من خطر داهم ، وخشيتها أن تنتقل كل السلطة سريعا إلى أيدى كولينى وأصحابه . فوافقت على قتل زعماء الهيجونوت(٧٠).

ولكن موافقة الملك كانت أمرا مرغوبا فيه، ان لم يكن ضروريا ؛ وكان لا يزال يطالب بمحاكمة جميع من لهم علاقة بالهجوم على كولينى . وحوالى الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم (٢٣ أغسطس) أرسلت الملكة الأم الكونت رتز ليحذر شارل من الفتنة المزعومة ، وسرعان ما أحاطت كاترين ومستشاروها بالحاكم الشاب الذى شارف الآن على الجنون لفرط انفعاله : وأكدت له كاترين أن ثلاثين ألفا من الهيجونوت يخططون لاعتقاله فى الغد وخطفه إلى قلعة بروتستنتية حيث يظل أسيرا لا حول له ولا قوة ؛ أو لم يحاولوا من قبل أن يضربوا هذه الضربة مرتين ؟ فإذا تم لهم النصر قتلوها للشبهة فى اصدارها الأمر بالاعتداء على الأميرال أو السماح بهذا الاعتداء . وقيل للفتى ذى الثلاثة والعشرين ربيعا أن يختار بين حياة أمه أو حياة ستة من الهيجونوت . فلو أنه رفض الموافقة وتغلبت باريس الكاثوليكية على الثورة ، لنحى جانبا لأنه جبان أحمق . ولكنه قاوم هذه الحجج ؛ وسأل ، لم لا يكفى أن يقبض على زعماء الهيجونوت ويحاكموا قانونيا ، وأجاب المستشارون ان الوقت فات لتفادى الثورة بمثل هذا الإجراء . وهددته كاترين بأنها ستنسحب إلى إيطاليا وتتركه لمصيره . وأخيرا ، بعد أن قارب الليل أن ينتصف ، وفى نوبة من الانهيار العصبى والغضب ، صاح شارل ، « قسما بموت الإله ، ما دمتم تريدون قتل الأميرال ، فأنا موافق ، ولكن يجب أن تقتلوا جميع الهيجونوت فى فرنسا ، حتى لا يبقى منهم أحد ليلومنى . . . اقتلوهم جميعا ! اقتلوهم جميعا ! ! » وبعد أن لعن وجدف ، هرب من مستشاريه وحبس نفسه فى حجرته .

وإذا كان المتآمرون قد دبروا قتل نفر من الهيجونوت ، فانهم اغتنموا الآن فرصة هــذا الأمر المجنون الذى نطق به الملك ليستأصلوا شأفة الهيجونوت ما أمكنهم ذلك . وأصرت كاترين على حماية هنرى نافار ، واستثنى أمير كونديه الشاب — هنرى الأول — وآل مونمورنسى لأنهم أنبل أصلا من أن يسمح بقتلهم ، وأنقذ الملك الجراح أمبرواز باريه ؛ ولكن الأمر أبلغ لقواد أحياء باريس بأن يسلحوا رجالهم ويستعدوا للعمل بمجرد سماعهم أجراس الكنائس تدق فى الثالثة من صباح ٢٤ أغسطس ، وهو عيد القديس بارتولوميو . وأعطى دوقا جيز تفويضا مطلقا بانفاذ ثأرهما من الأميرال بعد أن طال إرجاؤه . وأرسل هنرى جيز كلمة إلى ضباط المليشيا بأن على رجالهم حالما يسمعون ناقوس الخطر يقرع أن يذبحوا كل هيجونوتى يعثرون عليه ؛ أما أبواب المدينة فتقفل لتمنع الهاربين من الهروب .

وبينما كان الظلام لا يزال مخيما قاد جيز نفسه ثلاثمائة جندى إلى المبنى الذى ينام فيه كولينى . وكان على مقربة منه باريه طبيبه ، وميرلان سكرتيره ، ونيقولا خادمه . وأيقظهم وقع أقدام جند مقبلين ، ثم سمعوا طلقات وصيحات — كان حرس كولينى يقتلون . واندفع صديق إلى الحجرة وهو يصيح « لقد قضى علينا ! » وأجاب الأميرال ، « إننى أعددت نفسى للموت منذ زمن طويل . فأنقذوا أنفسكم . لا أريد أن يلومنى أحباؤكم على موتكم . أستودع روحى لرحمة الله » . وهربوا . واقتحم جند جيز الباب فوجدوا كولينى راكعا يصلى . وطعنه جندى بسيفه وشق وجهه ؛ وطعنه آخرون ؛ ثم قذف من النافذة وهو حى بعد فسقط على الرصيف أسفلها عند قدمى جيز . وبعد أن تأكد الدوق من موت كولينى أمر رجاله بأن ينتشروا فى باريس ويذيعوا هذه العبارة « اقتلوا ! اقتلوا ! هذا أمر الملك . » وفصل رأس الأميرال عن جسده وأرسل إلى اللوفر — وقيل إلى روما[٧١] ، أما الجسد فسلم للجماهير التى مثلت به تمثيلا وحشيا .

فقطعت الأيدى والأعضاء التناسلية لتعرضها للبيع ، وعلقت بقيته من عرقوبيه[٧٢] .

وأرسلت الملكة خلال ذلك الأوامر لدوق جيز بوقف المذبحة لشعورها بشىء من الندم أو الخوف . وكان الجواب أن الأوان فات ؛ أما وقد مات كولينى ، فلا بد من قتل الهيجوت وإلا فهم لا محالة ثائرون . وخضعت كاترين وأمرت بقرع ناقوس الخطر . وتلت ذلك مذبحة ندر أن عرفتها المدن حتى فى جنون الحرب . واغتبطت الجماهير باطلاق دوافعها المكبوتة لتضرب وتوجع وتقتل . فاقتنصت وذبحت من الهيجونوت وغيرهم عدداً يتفاوت بين الألفين وخمسة الآلاف ؛ واستطاع من بيتوا نية القتل من قبل أن يقتلوا الآن خصومهم وهم آمنون من العقاب ؛ واغتنم الأزواج المعذبون أو الطامعون والزوجات الفرصة ليتخلصوا من زوجاتهم وأزواجهن غير المرغوب فيهم ، وذبح التجار منافسيهم ، ودل الورثة المتنظرون على أقربائهم الذين طال ترقبهم لموتهم واتهموهم بأنهم هيجونوت[٧٣] . وقتل راموس الفيلسوف بتحريض أستاذ حسود . واقتحم كل بيت اشتبه فى إيوائه الهيجونوت وفتش . وجر الهيجونوت وأبناؤهم إلى الشوارع وذبحوا ذبح الأنعام وانتزعت الأجنة من بطون أمهاتهم القتيلات وهشموا[٧٤] . وما لبثت الجثث أن تناثرت على أرصفة الشوارع ، وأخذ الصبية يلعبون ألعابهم فوقها . ودخل حرس الملك السويسريون المعمعة وراحوا يذبحون فى غير تمييز للذة الذبح الخالصة . وقتل رجال مقنعون الدوق دلاروشفوكو الذى لعب التنس مع الملك بالأمس ، وقد حسبهم جاءوا يدعونه إلى حفلة ملكية . ودعى النبلاء والضباط الهيجونوت الذين انزلوا قصر اللوفر باعتبارهم حاشية ملك نافار، إلى الفناء وضربوا بالنار واحداً بعد الآخر عند وصولهم . أما هنرى فكان قد خرج ليلعب التنس بعد أن استيقظ فى الفجر . وأرسل شارل فى طلبه هو وكونديه وخيرهما بين « القداس أو الموت » واختار كونديه الموت ، ولكن الملكة أنقذته . أما نافار فوعد بالامتثال فأبقى عليه . وأما عروسه

مارجريت النائمة نوما مضطربا فقد أيقظها هيجوتوتى جريح اندفع إلى حجرتها وفراشها ، فأقنعت مطارديه بألا يقتلوه . ذكر السفير الأسبانى فى تقريره « إنهم يقتلونهم جميعا وأنا أكتب هذا ، انهم يعرونهم .. ولا يعفون أحداً حتى الأطفال . فبارك الله ! (٧٥) » أما وقد أصبح القانون ذاته خارجا على القانون ، فقد انطلق السلب والنهب فى غير قيد ، وأبلغ الملك أن بعض حاشيته شاركوا فى نهب العاصمة . والتمس منه بعض المواطنين المروعين عند ما اقتربت الظهيرة أن يأمر بوقف المذبحة ، وعرضت جماعة من شرطة المدينة أن تعاون على استتباب الأمن . فأصدر الأوامر بوقف المذبحة ، وأمر الشرطة بأن يحبسوا البروتستنت حماية لهم ؛ ثم أنقذ بعض هؤلاء ، وأغرق غيرهم بأمره فى السين . وهدأت المذبحة هنيهة . ولكن حدث فى يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر ، ان شجيرات الشوك البرى أزهرت فى غير أوانها فى مقبرة الأطفال ؛ وهلل الكهنة للأمر حاسبينه معجزة ، وقرعت أجراس الكنائس فى باريس احتفالا به ، وظنت الجماهير أن هذا القرع دعوة إلى تجديد المذبحة ، فاستؤنف القتل من جديد .

وفى اليوم السادس والعشرين ذهب الملك فى موكب رسمى هو وحاشيته إلى قصر العدالة مخترقا الشوارع التى ما زالت الجثث مبعثرة فيها ، وشهد لبرلمان باريس فى فخر بأنه أمر بالمذبحة . وأجاب رئيس البرلمان بخطاب تهنئة طويل . وقرر البرلمان بأن ورثة كولينى يجب حرمانهم من حماية القانون ، وأن بيته فى شاتيون يجب أن يهدم ، وأن ما بقى من أملاكه يجب أن يصادره الدوق أنجو . وفى اليوم الثامن والعشرين زار الملك والملكة الأم والحاشية عدة كنائس فى احتفال دينى للشكر على تخليص فرنسا من الهرطقة ونجاة الأسرة المالكة من الموت .

وحذت الأقاليم حذو باريس بأسلوب الهواة ، فارتكبت المذابح الهيجونوتية بوحى الأنباء الواردة من العاصمة فى ليون ، وديجون ، وأورليان ، وبلوا ، وتور ، وتروا ، ومو ، وبورج ، وأنجيه ، وروان ، وتولوز

(٢٤ — ٢٦ أغسطس) . وحسب حاك دتو ٨٠٠ ضحية فى ليون ، و١٫٠٠٠ ضحية فى أورليان . أما الملك فقد شجع هذه الإبادة ، ثم نهى عنها ، ففى السادس والعشرين من الشهر أرسل تعليمات شفوية لحكام الأقاليم بأن يقتلوا كل زعماء الهيجونوت[٧٦] ، وفى السابع والعشرين أرسل إليهم أوامر مكتوبة بأن يحموا البروتستنت المسالمين الممتثلين للقانون . وفى الوقت ذاته كتب لممثله فى بروكسل أن يلتمس تعاون الدوق الفا :

« إن فى يد الدوق كثيرا من رعاياى المتمردين ، وفى قدرته أن يستولى على مونز ويعاقب (المحاصرين) فيها . فإن أجابك بأن المفهوم من هذا ضمنا قتل هؤلاء السجناء وتقطيع المحاصرين فى مونز ، فقل أن هذا ما يجب أن يفعله[٧٧] » .

ورفض ألفا الدعوة . ولما استولى على مونز سمح للحامية الفرنسية أن تغادرها دون أن يصيبها أذى . وكان بينه وبين نفسه يحتقر مذبحة القديس بارتلوميو لأنها وسيلة خسيسة للحرب ، ولكنه أمام الناس أمر بالاحتفال بالمذبحة انتصارا للدين المسيحى الحق دون غيره[٧٨] .

واستطاع بعض حكام الأقاليم أن يفرضوا على جماهيرهم ضبطا جديرا بالمتحضرين . فلم يكن هناك مذابح فى شمبانيا ، ولا فى بيكاردى ، ولا فى بريتنى ، وكان قليل منها فى أوفرن ، ولانجدوك ، وبرجنديا ، ودوفينى . وفى ليون ندد كثير من الكاثوليك بالمذبحة ، وأبى الجنود أن يشاركوا فيها ، وفى فين بسط الأسقف حمايته على البروتستنت ، وخبأت الأسر الكاثوليكية الهيجونوت المهددين بالخطر[٧٩] . أما فى تروا وأورليان فقد أرخى الأساقفة العنان للمذبحة[٨٠] ، وفى بوردو أعلن يسوعى أن الملاك ميخائيل قد أمر بالمذبحة ، وندد ببطء الحكام فى اصدار أوامر القتل . وأغلب الظن أن الأقاليم ساهمت بخمسة آلاف ضحية ، وباريس بنحو ألفين ، ولكن بعضهم يقدر جملة الضحايا بعدد يتفاوت من خمسة آلاف[٨١] إلى ثلاثين ألفا[٨٢] .

وأغضى الكاثوليك عموما عن المذبحة باعتبارها انفجارا للغيظ والثأر بعد سنين من اضطهاد الهيجونوت للكاثوليك(٨٣) . أما فليب الثاني فقد ضحك على غير عبوسه وجهامته المألوفة حين سمع النبأ، وحسب أنه لن يكون هناك خطر من تدخل فرنسا في الأراضي المنخفضة . أما الممثل البابوي في باريس فكتب إلى روما يقول : « أهنئ قداسة البابا من أعماق قلبي على أن الله جل جلاله شاء في مستهل بابويته أن يوجه شئون هذه المملكة توجيها غاية في التوفيق والنبل ، وأن يبسط حمايته على الملك والملكة الأم حتى يستأصلا شأفة هذا الوباء بكثير من الحكمة ، وفي اللحظة المناسبة حين كان كل المتمردين محبوسين في القفص(٨٤) » . وحين وصل النبأ إلى روما نفح كردينال اللورين حامله بألف كراون وهو يهتز طربا . وسرعان ما أضيئت روما كلها ، وأطلقت المدفعية من قلعة سانت انجلو ، وقرعت الأجراس في ابتهاج ، وحضر جريجوري الثالث عشر وكرادلته قداسا مهيبا لشكر الله على « هذا الرضى الرائع الذي أبداه للشعب المسيحي » ، والذي أنقذ فرنسا والكرسي البابوي المقدس من خطر عظيم . وأمر البابا بضرب مدالية خاصة تذكارا لهزيمة الهيجونوت أو ذبحهم(٨٥) — وعهد إلى فازاري بأن يرسم في الصالة الملكية بالفاتيكان صورة للمذبحة تحمل هذه العبارة — « البابا يوافق على قتل كوليني »(٨٦) .

أما أوربا البروتستنتية فقد دمغت المذبحة بأنها همجية كلها جبن ونذالة . وأخبر وليم أورنج المبعوث الفرنسي أن شارل التاسع لن يستطيع أبدا أن يغسل يديه من دم الجريمة . وفي إنجلترا أحدق المطالبون بالثأر بالزابيث ،

(•) حاول المؤرخ الكاثوليكي باستور — برغم عدم اعتذاره عن المذبحة — أن يعلل فرحة البابا بأنها شعور الارتياح بعد الخوف من أن يقضي انتصار كوليني على الكاثوليكية في فرنسا ، وأن يؤدي إلى اتحاد فرنسا مع انجلترا وهولندة واسكندناوه وشمال ألمانيا — وكلها بلاد بروتستنتية — في حرب لإبادة الكاثوليكية في كل مكان (كتلك التي دعا إليها لوثر(٨٧)) .

ونصحها الأساقفة بأن السبيل الوحيد لتهدئة غضب الشعب أن تعدم على الفور كل الكاثوليك الذين أودعوا السجون لرفضهم حلف يمين الولاء ؛ أو على الأقل يجب إعدام ملكة اسكتلندة فوراً (٨٨) . على أن اليزابث احتفظت بهدوئها . وارتدت ثياب الحداد الثقيل لتستقبل السفير الفرنسى ، وقابلت توكيداته بأن المذبحة فرضتها مؤامرة الهيجونوت الوشيكة بعــدم التصديق الواضح . ولكنها واصلت ضرب أسبانيا بفرنسا ، ومماطلة ألنسون فى الاستجابة لطلب يدها ، وفى نوفمبر وافقت على أن تكون عرابة لابنة شارل التاسع .

أما كاترين فقد خرجت من المقتلة مبتهجة منتعشة ؛ لقد خضع لهــا الملك الآن من جديد ، وبدا أن مشكلة الهيجونوت حلت . ولكنها أخطأت التقدير ، إذ تبين أن ارتداد الكثيرين من البروتستنت الفرنسيين الذين ارتضوا اعتناق الكاثوليكية بديلا عن الموت لم يكن غير ارتداد مؤقت . فما مضى شهران على المذبحة حتى افتتح الهيجونوت الحرب الدينية الرابعة . وأغلقت لاروشيل وعدة مدن أخرى أبوابها فى وجه جيش الملك وأفلحت فى مقاومة الحصار . وفى ٦ يوليو ١٥٧٣ وقع شارل صلح لاروشيل الذى منح الهيجونوت حريتهم الدينية . إذن فالمذبحة لم تحقق من الناحية السياسية شيئاً .

وانصرف الآن رجال الفــكر من الهيجونوت عن شارل التاسع فى اشمئزاز شديد ، وهم الذين أعلنوا من قبل ولاءهم له ، وراحوا يشككون لا فى حق الملوك الإلهى فحسب ، بل فى نظام الملكية ذاته . ونشر فقيه هيجونوتى يدعى فرانسوا أوتمان بعد سنة من فراره إلى سويسرة عقب المذبحة كتابا فيه هجوم عنيف على شارل سماه « الضجة التالية » ، وقال فيه إن جرائم ذلك الملك أحلت شعبه من يمين الولاء له ، وأنه مجرم لا بد

من عزله » وقبل أن ينصرم العام أصدر أوتمان من جنيف كتابه « غالة الفرنسية » وهو أول محاولة حديثة في كتابة التاريخ الدستورى ، وحجته أن الملكية الغالية — الفرنسية قامت على الانتخاب ، فالملك — إلى عهد لويس الحادى عشر — كان خاضعا لمجلس شعبي من نوع ما ، والبقايا الهزيلة التي تخلفت عن هذه السلطة الانتخابية هي هذه « البرلمانات » الذليلة ، ومجلس الطبقات الذى طال إغفاله ؛ وهذه السلطة منحت لتلك الهيئات بتفويض من الشعب . « فالشعب وحده صاحب الحق في انتخاب الملوك وعزلهم[٨٩] » . ثم طالب باجتماع مجلس الطبقات دوريا ، فهذه الهيئة دون سواها هي التي يجب أن يكون لها سلطة إصدار القوانين ، وتقرير الحرب أو السلم ، والتعيين في المناصب الكبرى ، وتنظيم ولاية العرش ، وعزل الملوك الفاسدين . فها هنا بداية هزيم الرعود التي انطلقت عام ١٧٨٩ .

على أن الحياة ذاتها هي التي أنزلت شارل التاسع عن عرشه بعد قليل . ذلك أن الخير والشر قد اصطرعا داخله حتى تحطم جسده السقيم بفطرته تحت وطأة الصراع . كان حينا يشعر بالارتياح الخبيث لجرأة جريمته وعنفها ، وحينا ينحى على نفسه باللوم لأنه وافق على المذبحة ؛ وظلت صرخات القتلى من الهيجونوت ترن في أذنيه وتطرد النوم عن اجفانه . وبدأ يؤنب أمه ويقول لها « من غيرك تسبب في هذا كله ؟ قسما بدم الإله إنك أنت السبب في كل ما حدث » . أما هي فكانت تشكو من أن ولدها مجنون[٩٠] . ورانت عليه الكآبة والحزن ، وبات نحيل الجسد شاحب الوجه . وكان فيه استعداد قديم للسل ، فلما ضعفت مقاومته هدّه المرض ، وما أقبل عام ١٥٧٤ حتى كان يبصق الدم . وفي الربيع اشتد نزيفه وعاودته رؤى ضحاياه ، وصاح بممرضته « أي سفك للدماء ، أي قتل ! يا لها من مشورة شريرة تلك التي اتبعتها ! غفرانك ربي ! . . .

إننى هالك ! (٩١) » . وأرســـل يوم وفاته — ٣٠ مايو ١٥٧٤ — فى طلب هنرى نافار . فعانقه فى حب وقال له « يا أخى ، انك فاقد صديقا وفيا . فلو أننى استمعت إلى كل ما قيل لى لما كنت الآن على قيد الحيـــاة . ولكننى أحببتك دائمـــا :.. وفيك وحدك أضع ثقتى بأن ترعى زوجتى وا بنتى . صل إلى الله من أجلى . وداعا » . ثم مات بعدها بقليل قبل أن يبلغ الرابعة و العشرين .

الفصل الرابع عشر

هنرى الرابع

١٥٥٣ – ١٦١٠

١ – الحب والزواج

كانت أم هنرى فى العماد مارجريت أنجوليم ، أميرة فالوا ونافار ، والأخت التقية الحساسة ، المحبوبة، لفرانسيس الأول ، الجرىء ، الأنيق ، عاشق النساء . أما أمه فجان دالبر المهرطقة ، العنيدة ، المتمردة ، وأما أبوه انطوان بوربون حفيد القديس لويس فكان وسيما ، شجاعا ، كيسا ، مغرورا ، ميالا إلى التذبذب من مذهب إلى مذهب . ولا بد أن هنرى حمل بين جنبيه – وهو يخرج إلى النور (١٤ ديسمبر ١٥٥٣) فى مدينة بو باقليم بيارن – كل صفات اسلافه إلا التقوى . وقد أقنع جده السعيد أمه جان وهى فى المخاض بأن ترتل للعذراء ترتيلة ، لثقته بأنها ستكون فألا حسنا ، ثم دعك شفتى الوليد بالثوم وسقاه النبيذ على سبيل العماد فى بيارن . أما البطل فقد استنفد لبن ثمانى مرضعات .

لم يستطب التعليم ، فقد كره الكتابة ، وهرب من النحو ، ولكنه تعلم كيف يكتب بأسلوب ساحر . وقرأ بلوتارخ كأنه إنجيل البطولة . وربى أكثر وقته فى الخلاء ، وبرز فى الجرى والوثب والمصارعة والركوب والملاكمة ، وأكل الخبز الأسود والجبن والبصل ، واستمتع بالصيف والشتاء بلذة سخرت من التشاؤم . نشئ هيجونوتيا ، ولكنه لم يسمح قط للدين بأن يعطل الحياة . وحين دعى فى التاسعة للعيش فى البلاط وتعلم آدابه وأخلاقه ، اعتنق الكاثوليكية فى غير تردد ، ولما عاد إلى بيارن فى الثالثة عشرة استأنف العقيدة الهيجونوتية كأنه يغير ملابسه وفقا لتغير المناخ.

وكان يتنقل بيسر أعظم من غرام إلى غرام — فأحب تجنوتفيل الصغيرة ، والآنسة مونتاجو ، وأرنودين ، ولاجارس (البغى) ، وكاترين دلوك ، وآن دكامبفور . لقد كان يطرح العقائد والخليلات دون أن يعذب ضميره أو يغير هدفه .

فأما هدفه فهو أن يتربع على عرش فرنسا . فلما ناهز التاسعة عشرة ، أصبح ملكا على نافار بعد أن مات أبوه ؛ ولكن هذا لم يكن سوى لقمة أثارت شهيته للملكية دون أن تشبعها ، وذهب إلى باريس ليزف إلى مارجريت فالوا ، فاستقبل استقبال وريث للعرش لايسبقه فى خط الوراثة غير دوق أنجو ودوق ألنسون . وعندما وقعت المذبحة عقب زواجه ، تمالك جأشه وأنقذ رأسه بالارتداد المؤقت عن مذهبه .

وأما عروسه « مارجو » فكانت أعظم نساء فرنسا فتنـــة وألينهن عريكة . فجمالها لا يرقى إليه شك ، وقد تغنى به رونسار ، ورتل برونتوم قصائد الغزل المشبوب فى بشرتها الطرية الناعمة ، وشعرها المتموج أو باروكاتها المتنوعة ، وعينيها اللتين ترشقان المرح أو الغضب أو الشيطنة ، وقوامها الممشوق كقوام محظية من محظيات القصور ، المهيب كقوام ملكة ، وقدميها الرشيقتين تقودان رقصات البلاط ، وفيض حيويتها فى جيل كله صراع وكآبة ، كل هذه المفاتن اجتذبت العدد الوفير من العشاق إلى مخدعها ، واتهمتها الشائعات بالاستسلام اللبق للغرام بل ولعشق المحارم(١). ولم يكن فى وسع هنرى أن يشكو وهو ذو العين الزائغة بين الحسان ، ولكن حين استأنفت مارجو ذبذباتها — وكانت تزوجته على غير ارادتها — بعد انحناءة قصيرة منه لزواج المرأة الواحدة ، بدأ يتساءل من ترى سيكون أبا لأطفاله . واتخذ له خليلة ، ثم مرض ، فلم تدخر جهدا فى تمريضه ، وإن عزت علته إلى « افراطه مع النساء » . ولكن سرعان ما باعدت بينهما الشكوك المتبادلة حتى لقد كتبت تقول « لم نعد ننام معا ، ولا يكلم أحدنا الآخر(٢) » .

وظل فى البلاط ثلاث سنوات على كره منه . وذات ليلة (١٥٧٥) بينما كان يصيد ، رمح بجواده خارج الحدود ؛ ثم هرب متنكرا عبر فرنسا ، وشق طريقه وسط الاخطار إلى نيراك ، وحكم بيارن وجين حكما تميز بالعدل والذكاء . وهجر الكثلكة ، ورد للبروتستنت سلطانهم فى بيارن ، وحماهم فى جين . وبعد ثلاث سنوات لحقت به مارجو ، وأعانها الملك الشاب – فى أوقات فراغه من الصيد أو قتال الكاثوليك – على جعل مباهج بلاطها الصغير تغطى على خياناتهما . وفى عام ١٥٨٢ ، وبعد أن تعبت من تقديم العون لخليلاته فى مخاضهن ، عادت إلى باريس ، ولكن مغامراتها هناك كانت صارخة بحيث أمرها هنرى الثالث بأن تعجل بالعودة إلى زوجها . وبعد أن قضت عامين آخرين فى بيارن اعتكفت فى آجن . ووافق الملكان – « الهنريان » الآن – على أن تعيش أشبه بالحبيسة فى قصر أوسون الريفى ، وقررا لها معاشا طيبا (١٥٨٧ – ١٦٠٥) . وحولت سجنها صالونا ، واستقبلت فيه الشعراء والفنانين والعلماء والعشاق ، وألفت مذكراتها الحافلة بالقيل والقال . وقد أطرى ريشليو أسلوبها ، وأهداها مونتنيى بعض مقالاته ، وأثنى الوعاظ على برها بالفقراء . وبعد اغراءات لا يستهان بها وافقت على فسخ زواجها ، وسمح لها بالعودة إلى باريس والبلاط (١٦٠١) . فاستأنفت هناك غرامياتها وصالونها ، ثم غلدت بدينة ، وتابت ، واتخذت فانسان دبول قسيسا لها ، وبنت ديرا ، ثم ماتت فى سلام وتقوى (١٦١٥) بالغة من العمر اثنين وستين عاما . وهكذا اختتمت حياتها ، كما قال معاصر لها ، « مرجريت ، البقية الباقية من سلالة فالوا ، أميرة كلها . . . نيات طيبة . . . لم تؤذ أحدا إلا نفسها[٣] » .

٢ – هنرى الثالث : ١٥٧٤ – ٨٩

بعد أن تربع الدوق أنجو فترة قصيرة على عرش بولندة عاد فى الرابعة والعشرين ليعتلى عرش فرنسا باسم هنرى الثالث ، آخر ملوك فالو الفرنسيين . وهو يطالعنا فى صورة له باللوفر لا يعرف مصورها ، فى

طويلا، نحيلا ،شاحبا،حزينا — رجلا ذا نية طيبة، شوشت عليه حياته الوراثة السيئة . كان ضعيف البنية ، قلق العاطفة، سريع الأعياء ، وكان عليه أن يجتنب الركوب والصيد ، ويلزم فراشه أياما إثر دقائق من الغرام النشيط . وقد شكا حكة فى جلده لا سبيل إلى برئها ، وصداعا فى رأسه ووجعا فى معدته ونزفا فى أذنه . أبيض شعره وسقطت أسنانه قبل أن يبلغ السادسة والثلاثين . أما غطرسته البادية فلم تكن فى حقيقتها سوى جبن ، وأما قسوته فخوف ، فإذا أرسل نفسه على سجيتها كان لطيفا حذرا . ولكنه لسوء الحظ كان شديد الولع بارتداء ثياب النساء . ظهر فى حفلة رقص مرتديا ثوبا انخفضت فتحة عنقه وأحاط برقبته عقد من اللآلئ ، وكان يلبس الجواهر فى أذنيه والأساور فى ذراعيه . وجمع من حوله اثنى عشر « غندورا » ، شباب جعدوا شعورهم الطويلة وصبغوا وجوههم ، وازدانوا بالثياب البهيـــة ، وضمخوا أنفسهم بالعطور التى نشرت أريجها حولهم . ومع أشباه الرجال هؤلاء ألف أحيانا — وهو متنكر فى ثوب امرأة — أن يعربد فى الشوارع ليلا ويلعب ألاعيبه على المواطنين . وقد أفرغ خزانة بلده المشرف على الافلاس والفوضى على أحبائه الذكور ، فأنفق أحـــد عشر مليونا من الفرنكات على زفاف أحدهم ، وضاعف ثمن المناصب القضائية ليشترى هدية زواج لآخر . على أنه أنفق بعض مال شعبه فى أغراض نافعة — فبنى البون نوف وحسّن اللوفر ، وانتشل بعض أجزاء باريس من قذارتها إلى حسن العمارة والنظافة . وأعان الأدب والمسرح . وبذل جهودا متقطعة للنهوض بالادارة . وتكفيرا عن كل سيئاته حج مرات راجلا إلى شارتر وكليرى ، وفى باريس مشى من كنيسة إلى كنيسة — وهو يعبث بمسبحات كبيرة ، وجمع فى حماسة الكثير من الصلوات الربانية والسلامات المريمية ، وسار فى مواكب « التائبين الزرق » الليلية الرهيبة وجسده فى غرارة بها ثقوب لقدميه وعينيه . ولم يعقب . أما أمه التى حلت إليه بذور الانحلال من أبوين مريضين فكانت تتطلع فى أسى إلى تدهور سلالتها وانقراضها الوشيك .

كان فى الموقف السياسى من الاضطراب مالا يرقى إليه ادراك هنرى ؛ فهو لم يخلق للحرب ، وكانت كاترين تتوق إلى السلام وقد تقدم بها العمر ؛ ولكن الهيجونوت ما زالوا ثائرين ، فهم يائسون ولكنهم لم يذلوا . وكان أخوه الدوق ألينسون يتودد إلى ملكة بروتستنتية تجلس على عرش إنجلترة ، وإلى ثوار بروتستنت فى الأراضى المنخفضة ، وإلى هنرى نافار فى بيارن . كانت أقلية من زعماء الكاثوليك ، سماهم نقادهم بـ « السياسيين » ، ... أفكار لوبيتال (الذى مات حزينا عام ١٥٧٣) ، فاقترحوا التسامح المتبادل بين المقتتلين ، ودافعوا عن فكرة مكروهة فى المعسكرين ، وهى أن فى استطاعة الأمة أن تحيا دون وحدة فى العقيدة الدينية . وقالوا إن على فرنسا ... حظر البابوات مثل هـــذا التوفيق بين الفريقين أن تقطع روابطها الدينية مع روما . فلما خاف هنرى التعاون بين هؤلاء السياسيين والهيجونوت ، وخشى غارات الجنود الألمان القادمين لتعزيز قوة البروتستنتية ، أنهى عام ١٥٧٦ الحرب الدينية الخامسة بتوقيعه « صلح الموسيو » فى يوليو ، واصداره مرسوم تهدئة — هو مرسوم يوليو — الذى منح الهيجونوت حرية العبادة فى كل مكان بفرنسا ، وحق اختيارهم لجميع المناصب ، وسمح لهم بثمانى مدن يكون لهم فيها كامل السلطة السياسية والعسكرية .

وصدمت هذه التنازلات الممنوحة لفريق ظن الناس أنه تحطم وانتهى معظم الكاثوليك الفرنسيين ، لا سيما جماهير باريس الشديدة التمسك بعقيدتها . وكان كردينال اللورين قد اقترح عام ١٥٦٢ « حلفا مقدسا » يقسم أعضاؤه على الدفاع عن الكنيسة بكل وسيلة أيا كانت ، وبأى ثمن كائنا ما كان . ونظم هنرى جيز مثل هذا الحلف فى شمبانيا عام ١٥٦٨ . ومن ثم ألفت الآن جماعات كهذه فى كثير من الأقاليم . وفى عام ١٥٧٦ أعلن الدوق جهارا تأليف « الحلف المقدس » واستعد لنزال يسحق به الهيجونوت سحقا .

ولا حاجة بنا لتتبع سير الحروب الدينية السادسة والسابعة والثامنة إلا

فى تأثيرها على مجرى الأفكار فى فرنسا . هنا دخلت الفلسفة ساحة الوغى مرة أخرى . ففى عام ١٥٧٩ أصدر مؤلف غير معروف الاسم — ربما كان فليب دوبليسى — مورنيه ، أحد مستشارى نافار — من بازل بيانا مثيرا سماه « دفاع (عن حقوق الشعب) ضد الطغاة » . كتبه باللاتينية ، ولكن سرعان ما ترجم إلى اللغات القومية . وقد دام أثره قرنا كاملا : واستخدمه الهيجونوت فى فرنسا ، والهولنديون ضد فليب ، والبيورتان ضد تشارلز الأول ، والوجز تبريرا لعزلهم جيمس الثانى . واتخذت النظرية القديمة ، نظرية « العقد الاجتماعى » الضمنى المبرم بين الشعب وحاكمه ، شكلا محددا فى هذا الكتاب ، وسنشهدها مرة أخرى فى هوبز ، ولوك ، وروسو . فالحكومة أولا هى ميثاق بين الله ، والشعب ، والملك ، لدعم « الدين الحق » والامتثال له — وهو البروتستنتية فى هذه الحالة ؛ وأى ملك يقصر فى هذا يحل عزله — والحكومة ثانيا هى ميثاق بين الملك والشعب ، الأول ليحكم بالعدل ، والثانى ليطيع مسالما . والملك والشعب على السواء خاضعان للقانون الطبيعى . أى قانون العقل والعدالة الطبيعية ، الذى يمثل القانون الأدنى الإلهى ، ويعلو على كل قانون « وضعى » (أى من صنع الإنسان) . أما وظيفة الملك فصيانة القانون الوضعى والطبيعى والإلهى ، فهو أداة القانون لا سيده . « والرعايا .... بوصفهم هيئة ، يجب اعتبارهم سادة المملكة وأصحابها المطلقين . » ولكن من الذى يقرر أن الملك طاغيـة ؟ لا الشعب فى جمهوره ، « ذلك الوحش الكثير الرءوس » ، بل ليقرر ذلك القضاة ، أو مجلس كمجلس الطبقات الفرنسى مثلا . ولا يصح أن يتبع كل فرد خاص ضميره ؛ فقد يحسب شهواته ضميره ، وهنا تأتى الفوضى ؛ ولكن إذا دعاه القاضى للعصيان المسلح فعليه أن يلبى الدعوة . على أنه يحل قتل الطاغية بيـد أى إنسان إذا كان مغتصبا(٤) .

واشتد صراع القوى والأفكار بعد أن مات دوق ألينسون (١٥٨٤) ،

واعترف هنرى الثالث بهنرى نافار وريثاافتراضياللعرش . وكف الهيجونوت بين عشية وضحاهاعن حديث الطغيان والعزل،وأصبحوا المؤيدين المتحمسين للشرعية لما توقعوا من قرب انهيار ملك فالوا المتهافت وتسليمه فرنسا لرجلهم البروتستنتى البوربونى . وإذا القوم يعرضون عن كتاب « الدفاع » الذى كان بالأمس القريب بيانا هيجونوتيا ، بل إن أوتمـان ذاته صرح بأن مقاومة هنرى نافار خطيئة (٥) . ولكن أكثر فرنسا كان يقشعر فرقا من فكرة ملك هيجونوتى يتربـع على عرشها . فكيف يمكن أن تمسح الكنيسه بالزيت المقدس بروتستنتيا فى مدينة رامس ؟ وهل يستطيع أحد بغير هذه المسحة أن يكون ملكا شرعيا لفرنسا ؟ أما رجال الاكليروس السنيون ، يتزعمهم اليسوعيون المتحمسون ، فقد نددوا بالوراثة وأهابوا بجميع الكاثوليك أن ينضموا إلى الحلف . وانضم إليه هنرى الثالث بعد أن جرفه هذا التيار ،وأمر جميع الهيجونوت بأن يعتنقوا الكثلكة أويرحلوا عن فرنسا . وناشد هنرى نافار أوربا أن تعترف بعدالة قضيته ، ولكن البابا سيكستوس الخامس حرمه ، وصرح بأنه لا يمكن أن يرث العرش لأنه زنديق سادر فى زندقته . وهنا أعلن شارل ، كردينال بوربون ، نفسه وريثا افتراضيا للعرش . وعاودت كاترين محاولتها فى سبيل السلام ، فعرضت أن تؤيد نافار إذا تخلى عن بروتستنتيته ، ولكنه أبى ، وامتشق الحسام على رأس جيش بعضه كاثوليكى ، واستولى على ست مدن فى ستة شهور ، وهزم جيشا للحلف يبلغ ضعف جيشه عند كوترا (١٥٨٧) .

وسيطر الهيجونوت الآن وهم لا يتجاوزون جزءا على اثنى عشر من السكان(٦) على نصف مدن فرنسا الكبرى(٧) . ولكن باريس كانت قلب فرنسا وهى مع الحلف قلبا وقالبا . ولم يرض الحلف بالتأيد الفاتر الذى لقيه من هنرى الثالث ، فأقام فى العاصمة حكومة ثورية تتألف من ممثلين للأحيـاء الستة عشر ، وتفاوضت حكومة « الستة عشر » مع أسبانيا لتغزو انجلترة وفرنسا ، وبيتت اعتقال الملك . وأرسل هنرى فى طلب حرس سويسرى ،

ودعت حكومة الستة عشر دوق جيز إلى تقلد السلطة فى باريس ، فمنعه الملك ، ولكن الدوق وصل ، وهتفت له الجماهير زعيما لقضية الكثلكة فى فرنسا . وفر هنرى الثالث إلى شارتر وقد شعر بالهوان وتوعد بالانتقام . ثم فقد أعصابه مرة أخرى ؛ فتبرأ من هنرى نافار ، وعين هنرى جيز قائدا أعلى للجيوش الملكية ، ودعا مجلس الطبقات للاجتماع فى بلوا .

فلما اجتمع المندوبون لاحظ الملك فى سخط مظاهر التكريم التى حظى بها جيز والتى تقرب مما يحظى به الملوك . وفى يوم تصميم مسعور أقنع بعض أعوانه بقتل الدوق . ودعاه إلى لقاء خاص ، وبينما النبيل الشاب يقترب من حجرة الملك طعنه تسعة من المهاجمين طعنات أودت بحياته ، وفتح الملك الباب وتطلع فى رضى يشوبه الانفعال إلى هدفه الذى تحقق (٢٤ ديسمبر ١٥٨٨) . ثم أمر بسجن زعماء الحلف وقتل الكردينال جيز أخى الدوق . وفى فخر ورعب أنهى إلى أمه بطولاته التى ناب فيها عنه غيره ، فعصرت يديها فى يأس وقالت له « إنك خربت المملكة » .

ولم يمض اثنا عشر يوما حتى ماتت فى التاسعة والستين وقد أضنتها المسئوليات والهموم والدسائس ، وربما تبكيت الضمير أيضا . ولم يكد أحد من الناس يتوقف ليحزن على موتها . ودفنت فى مقبرة عامة ببلوا ، لأن حكومة الستة عشر أعلنت أنها ستلقى جثتها فى السين إذا جىء بها إلى باريس . واتهم نصف فرنسا هنرى الثالث بالقتل ، وجاب الطلاب الشوارع مطالبين بعزله ، أما لاهوتيو السوربون يؤيدهم البابا فقد أحلوا الشعب من ولائه للملك ، ودعا القساوسة إلى المقاومة المسلحة له فى كل مكان . وقبض على مؤيدى الملك ؛ واحتشد الرجال والنساء داخل الكنائس مخافة أن يحسبوا من أنصار الملك . واعتنق مؤلفو كراريس الحلف الايديولوجية السياسية للهيجونوت ، فاعلنوا أن الشعب صاحب السيادة ، وله الحق فى خلع الطاغية عن طريق البرلمان أو القضاة ، وأى ملك فى المستقبل ينبغى

أن يخضع للقيود الدستورية ، وأن يكون واجبه الأول فرض الدين الحق — وهو الكاثوليكية فى هذه الحالة [٨] .

أما هنرى الثالث ، الموجود الآن فى تور مع بعض النبلاء والجنود ، فقد وجد نفسه بين نارين . فجيش الحلف يزحف عليه من الشمال بقيادة دوق ماين ، وجيش نافار يزحف من الجنوب فاتحا المدينة تلو المدينة ، إذن فاحدى القوتين قابضة عليه لا محالة . واغتنم هنرى الهيجونوتى فرصته ، فأوفد دوبليس — مورنى ليعرض على الملك محالفته وحمايته وتأييده . والتقى الهنريان عند بليسى — لى — تور وتعاهدا بوفاء كل منهما لصاحبه (٣٠ أبريل ١٥٨٩) . وهزم جيشاهما المتضافران ماين وزحفا على باريس .

وفى العاصمة المسعورة استمع راهب دومنيكى يدعى جاك كليمان فى حماسة إلى ما تردد من اتهام لهنرى الثالث بالاغتيال . وقد أكدوا له أن القيام بعمل عظيم فى سبيل قضية مقدسة سيمحو كل تبعة عن أوزاره ، وأثار ثائرته حزن كاترين دوقه مونبنسييه ، شقيقة الأخوين القتيلين جيز ، وحركة جمالها . فاشترى خنجراً ، وتسلل إلى معسكر الملك ، وطعنه فى بطنه ، فقتله الحراس ، ومات واثقاً من ثواب الجنة . أما هنرى فالوا فقد مات غداة طعنه (٢ أغسطس ١٥٨٩) وهو يتوسل إلى اتباعه أن يلزموا هنرى نافار . وانتشرت الفوضى فى جيش المحاصرين ، وتبدد أكثره ، وأجل الهجوم المقترح على باريس . أما فى داخل المدينة فقد بلغت فرحة الحلف وتابعيه حد الهذيان . ووضعت بعض الكنائس صورة الراهب فوق مذبحها [٩] ، وهلل الأتقياء لاغتيال الملك باعتباره أنبل عمل فى سبيل الله تم منذ تجسد المسيح [١٠] . واستدعيت أم كليمان من الريف ، فوعظت فى الكنائس ، واحتفل القوم بها بترتيل ترنيمة مقدسة : « طوبى للبطن الذى حملك ، وللثدى التى أرضعتك » [١١] .

٣ — الطريق إلى باريس (١٥٨٩ — ٩٤)

بلغ هنرى نافار الآن نقطة الحسم فى حياته . لقد وجد نفسه فجأة ،

بحكم القانون والتقليد ، ملك فرنسا ، ولكن نصف جنده تركوه بمثل هذه السرعة الفجائية تقريباً . أما النبلاء الموالون لهنرى الثالث فقد انطلقوا إلى ضياعهم ؛ واختفى معظم الكاثوليك الذين كانوا يحاربون فى جيشه . ورفض ثلثا فرنسا فكرة الملك البروتستنتى رفضاً باتاً . أما جماعة « السياسيين » فقد أسكتهم الاغتيالان برهة ؛ واعترف برلمان باريس بالكردينال بوربون ملكاً على فرنسا ؛ ووعد فليب ملك أسبانيا الحلف بذهب الأمريكتين ليحتفظ بفرنسا فى حظيرة الكاثوليكة . وكان التفسخ الذى أصاب إنتاج فرنسا وتجارتها قد جلب على البلاد من الدمار ما لم يبق لها معه إلا نشوة الحقد والكراهية القاتلة . وهو أمر لم يحزن فليب كثيراً .

كان محالا على نافار أن يهاجم مدينة كباريس تكن له العداء الشديد ، بجيش انفرط عقده وتقلص عدده . ومن ثم فقد عمد فى كفاية قيادية ، عطلتها خليلاته أكثر مما عطلها العدو ، إلى سحب قواته إلى الشمال ليتلقى المعونة من انجلترة ، وتبعه ماين بما أتاحت له بدانته من سرعة . والتقى الجيشان عند آرك جنوبى دييب مباشرة ، وعدة جيش هنرى ٧,٠٠٠ ، وجيش ماين ٢٣,٠٠٠ (٢١ سبتمبر ١٥٨٩) . ونستطيع أن نفهم نتيجة المعركة من رسالة هنرى إلى رفيقه فى السلاح كريون ، « اشنق نفسك أيها الشجاع كريون ، لقد خضنا المعركة عند آرك ، ولم تكن أنت هناك » وشدد الانتصار من عزيمة أعوان هنرى السريين فى كل مكان . ففتحت عدة مدن أبوابها له مغتبطة ، واعترفت به جمهورية البندقية ملكاً ، أما البزابث ، التواقة كالبندقية إلى الحيلولة دون سيطرة أسبانيا على فرنسا ، فقد أرسلت له ٤,٠٠٠ جندى ، و ٢٢,٠٠٠ جنيه ذهبى ، و ٧٠,٠٠٠ رطل من البارود ، وشحنات من الأحذية ، والطعام ، والنبيذ ، والجعة . ورد فليب على هذا بارساله تجريدة من فلاندر إلى ماين . والتقى الجيشان المعززان عند إفرى على نهر أور فى ١٤ مارس ١٥٩٠ . ورشق هنرى فى خوذته ريشة شرف كبيرة بيضاء - لا يكاد المرء يسميها ريشة طائر

بيضاء — وقال لجنده « إذا فرقكم وطيس المعركة لحظة فتجمعوا تحت أشجار الكمثرى تلك التي ترونها على يميني ، وإذا فقدتم أعلامكم فلا تغفلوا عن ريشتي البيضاء — ستجدونها دائماً في طريق الشرف ، وفي طريق النصر أيضاً كما أرجو » . وقاتل في المقدمة كما كان شأنه دائماً . وورم ذراعه الأيمن وتشوه سيفه من كثرة مقارعة العدو . وقد خدمه اشتهاره بالرأفة ، إذ استسلم له الآلاف من الجنود السويسريين الذين كانوا في جيش ماين واللذين لم تدفع لهم رواتبهم . وخلف انتصار هنري الخلف بغير جيش ، فزحف على باريس دون مقاومة تقريباً ليحاصرها .

ومن مايو إلى سبتمبر ١٥٩٠ عسكر جنده الجائعون المفلسون حول العاصمة وهم يتحرقون شوقاً لمهاجمتها ونهبها ، ولكن صدهم عن هذا رفض هنري الموافقة على مذبحة ربما كانت شراً من مذبحة القديس برتلميو ؛ وبعد شهر من الحصار كان الباريسيون يأكلون لحم الخيل والقطط والكلاب، ويغتذون بالعشب . ورق لهم قلب هنري فسمح للأقوات بأن تدخل المدينة . وجاء دوق بارما ، والي فليب على الأراضي المنخفضة ، لنجدة باريس بجيش حسن التجهيز من صناديد الاسبان ، وتقهقر هنري إلى روان بعد أن غلبته مناورات العدو ، وتبعه بارما في صراع الاستراتيجية . ولكن المرض أعجز الدوق ، وعاد جيش هنري يحاصر العاصمة من جديد .

وواجه الآن هذا السؤال الفاصل : أيستطيع ، وهو البروتستنتي ، أن يظفر بعرش بلد ٩٠ ٪ منه كاثوليك ، وأن يحتفظ بهذا العرش ؟ لقد كان الكاثوليك كثرة غالبة حتى في جيشه . ولا ريب في أنه لم يكن من همومه الصغيرة تناقص موارده المالية وعجزه عن دفع رواتب جنده بعد ذلك . ومن ثم دعا معاونيه واعترف لهم بأنه يفكر في اعتناق الكاثوليكية، فوافق بعضهم على الخطة لأنها السبيل الوحيد إلى السلام ، وندد آخرون بها باعتبارها تخلياً قاسياً شائناً عن الهيجونوت الذين أعطوه الدم والمال

أملا فى أن يكون لهم ملك بروتستنتى . هؤلاء أجابهم هنرى بقوله : « لو اتبعت نصيحتكم لما بقى فى فرنسا بعد قليل ملك ولا مملكة . أريد أن أمنح السلام لرعاياى والراحة لنفسى . فتشاوروا فيما بينكم ماذا تريدون ضماناً لأمنكم . وأنا على الدوام مستعد لإرضائكم (١٢) » . ثم قال « ربما لم تكن شقة الخلاف بين المذهبين واسعة إلا لما بين المبشرين بهما من حقد وعداء . وسأعمل يوماً باستعمال سلطتى على أن يستقيم هذا الأمر كله » .(١٣) ثم حدد صلب عقيدته بقوله « إن الذين يتبعون ضميرهم دون عوج هم على دينى ، وأنا على دين كل إنسان شجاع طيب(١٤) » . وهجر دوبليسى — مورنيه ، وأجريبا دوبنيه ، وكثير من زعماء البروتستنت الآخرين الملك ، ولكن الدوق صلى ، أصدق مستشارى هنرى ، الذى ظل بروتستنتيا وفياً ، وافق على قرار مولاه « أن باريس تستأهل قداسا (١٥) »(*) .

ففى ١٨ مايو ١٥٩٣ أرسل هنرى إلى البابا واكليروس باريس يبدى رغبته فى أن يدرس العقيدة الكاثوليكية . وكان جريجورى الرابع عشر قد جدد حرمه . ولكن الاكليروس الفرنسى الذى لم يدل أبداً لروما تأهب لإعداد التائب الجديد لأن يكون ملكا تقيا . على أنه لم يكن بالتلميذ السهل القياد . فهو يرفض أى تعهد بأن يشن حربا على الهرطقة ، وهو يأبى أن يوقع أو يؤمن بـ « هراء هو واثق كل الثقة من أن أغلبهم لا يؤمنون به(١٦) » ، ولكنه وافق فى سماحة على عقيدة المطهر لأنها « أعظم مصادر دخلكم(١٧) » . وفى ٢٥ يوليو كتب لخليلاته آنذاك « سأقفز القفزة الخطرة » ثم ذهب إلى كنيسة دير سان دنيس ، واعترف ، ونال الغفران ، واستمع إلى القداس .

ورماه الالآف فى المعسكرين بالنفاق . وأنكر اليسوعيون كثلكته وواصل زعماء الحلف مقاومتهم . ولكن موت دوق بارما والكردينال بوربون كان قد أوهن قوة الحلف ، وفقدت حكومة الستة عشر منزلتها فى أعين الوطنيين الفرنسيين لتأييدها خطة فليب الرامية إلى جعل ابنته ملكة

(*) Paris vaut bien une messe

على فرنسا . ومال كثير من النبلاء إلى هنرى بوصفه القائد الحربى الكفيل بكبح جماح فليب ، والحاكم الرحيم الذى يستطيع أن يرد العافية إلى وطن استشرت فيه الفوضى حتى كادت تمزق أوصاله . وأعربت مجلة ذكية تدعى « ساتير منيبيه » (١٥٩٣ — ٩٤) عن عواطف جماعة « السياسيين » والبورجوازيين ، وسخرت فى ظرف وتهكم باليسوعيين والحلف ، وأعلنت أنه « ما من سلام بلغ من الظلم ما يجعله لا يرجح أكثر الحروب عدلا[٨] ». وطلب الجميع السلام فى شوق ، حتى باريس المتعصبة . واستمرت الاشتباكات الصغيرة ثمانية شهور أخرى ، ولكن فى ٢٢ مارس ١٥٩٤ ، زحف هنرى إلى باريس ودخلها ولم يكد أحد يعترضه ، وعظم ترحيب الجماهير به حتى أنه حين أراد أن يدخل نوتردام لم يكن بد من رفعه فوق الرءوس . وثبت ملكاً فى ذلك اللوفر ذاته ، الذى كان فيه قبل اثنين وعشرين عاماً سجيناً قاب قوسين من الموت ، واستسلم للبهجة والفرح ، فأصدر بطريقته المرحة ، عفواً عاماً شمل حتى آل جيز وحكومة الستة عشر . واكتسب بعض أعدائه بالغفران عنهم دون تردد وبالمجاملة السمحة الكيسة ورشا البعض بمال اقترضه .

على أنه لم يكسب الجميع إلى صفه . ففى ليون اشترى بيير باريير مدية وشحذها ثم شد رحاله إلى باريس معلنا نية اغتيال الملك . فقبض عليه فى ميلون وشنق دون إبطاء . وقال هنرى « وا أسفاه ، لو علمت بالأمر لعفوت عنه . » وأرسل البابا كلمنت الثامن للملك حل الكنيسة ، ولكن اليسوعيين واصلوا مهاجمته فى مواعظهم . وفى ٢٧ ديسمبر هجم فتى فى التاسعة عشرة يدعى جان شاتيل على الملك بخنجر ولكن لم يصبه بأسوأ من قطع فى شفته وكسر فى سنه . ومرة أخرى رأى هنرى العفو عن هذا المتعصب ، ولكن رجال السلطة أوقعوا بشاتيل كل أنواع التعذيب التى نص عليها القانون ضد قتلة الملوك . وقد اعترف الرجل فى كبرياء برغبته فى قتل الملك لأنه زنديق خطر ، وأعلن استعداده لبذل محاولة أخرى فى

سبيل خلاص نفسه . وقال فى اعترافه إنه تلميذ لليسوعيين ، ولكنه أبى أن يورطهم بأكثر من هذا فى مغامرته . وقد رويث عن اليسوعى الأسبانى خوان دماريانا (الذى سنلتقى به ثانية) عبارات وأفق فيها على اغتيال الملوك الفاسدين ، لا سيما هنرى الثالث ، وتبين أن اليسوعى الفرنسى جان جينار كتب يقول إنه كان من الواجب قتل هنرى الرابع فى مذبحة القديس برتلميو ، وإذ يجب التخلص منه الآن « بأى ثمن وبأية طريقة[١٩] » . وفى بواكير عام ١٥٩٥ أمر برلمان باريس اليسوعيين بالرحيل عن فرنسا بناء على التماس من الاكليروس العلمانى فى السوربون .

٤ — الملك الخلاق : ١٥٩٤ — ١٦٠٠

تبين هنرى أن مهمة التعمير أشق من قهر القوة المسلحة . ذلك أن اثنين وثلاثين عاما من « الحروب » الدينية ، خلفت فى فرنسا من الخراب والفوضى ما خلفته حرب المائة عام فى القرن السابق . فبحرية فرنسا التجارية كادت تختفى من البحار ، وقد بلغ عدد البيوت التى دمرت ثلثمائة ألف ، وأعلن الحقد تعطيله للفضيلة ، وسمم فرنسا بشهوة الانتقام . وأغار الجنود المسرحون على الطرق والقرى سرقة وتقتيلا وتآمر النبلاء ليفرضوا استرداد سيادتهم الاقطاعية ثمنا لولائهم للملك ، وكانت الأقاليم التى طال تركها معتمدة على مواردها تقسم فرنسا إلى دويلات مستقلة ذاتيا ، وكان الهيجونوت يطالبون بالاستقلال السياسى والحرية الدينية ، والحلف لا يزال يحتفظ بجيش فى الميدان ؛ واشترى هنرى قائده ماين بالمال فارتضى الهدنة ثم الصلح فى النهاية (يناير ١٥٩٦) . وبعد أن وقعت الشروط ، اصطحب هنرى الدوق البدين فى مسيرة طويلة جعلته يلهث إعياء ، ثم أكد له أن هذا هو انتقامه الوحيد منه[٢٠] . ولما تزعم أحد قواده المدعو شارل جونتو ، دوق بيرون ، مؤامرة ضده ، عرض عليه هنرى العفو إذا ما اعترف ، ولكنه أبى ، فأمر بمحاكمته ، وأدين بالجريمة وقطع رأسه

(١٦٠٢) . وأدركت فرنسا الآن أن نافار ملك . وسمح له شعب فرنسا الذى أرهقته الفوضى — بل توسلت إليه طبقات رجال الأعمال — أن يجعل ملكية البوربون الجديدة مطلقة السلطان . لقد كانت الاستبدادية الملكية نتيجة للحرب الأهلية فى فرنسا بينما كانت فى إنجلترا سببا لها .

وجبى هنرى الضرائب لأن حاجة الحكومة الأولى كانت للمال . أما مجلس المالية الموجود فقد انبعث منه من نتن الرشوة والفساد قدر أكثر من المألوف . وولى هنرى صلى الجرىء رياسة المالية ، وأطلق يده فى تنقية الهواء واخلاء الطريق بين ما يدفعه الشعب من الضرائب وما يصل منها إلى الخزانة . كان مكسمليان بتون ، بارون روزنى ، دوق صلى ، صديق هنرى الوفى مدى ربع قرن ، قد قاتل جنبا إلى جنب مع هنرى خلال أربعة عشر عاما ؛ وهاجم الآن — وهو بعد فى السابعة والثلاثين — الموظفين المختلسين عديمى الكفاية بهمة لا تعرف الكلل ، حتى أصبح أعظم أعضاء مجلس الملك قيمة وأقلهم شعبية . وصورته التى رسمها له دمونستيية معروضة فى اللوفر ، يطالعنا فيها رأس كبير وجبين عريض وعينان مرتابتان حادتان . ها هنا العبقرية العملية التى لا غنى عنها لكبح الروح الرومانسية لملك شغله لعب دور كازانوفا عن لعب دور شارلمان كاملا . وجعل صلى من نفسه الحارس الرقيب على الإدارة الحكومية . وإذ كان مديرا للمالية والطرق والمواصلات والمبانى العامة والتحصينات والمدفعية ، ومأمورا للباستيل ، ومشرفا عاما على باريس ، فقد وجد فى كل مكان ، واشرف على كل شىء ، وأصر على الكفاية والاقتصاد والنزاهة ، وقد عكف على العمل خلال كل ساعات يقظته . وعاش عيشة التقشف فى حجرة بسيطة على جدرانها صور لوثر وكالفن . ثم رعى مصالح إخوانه الهيجونوت ، وثبت العملة ، وأعاد تنظيم البيرقراطية وهذبها ، وأكره لصوص الموظفين على أن يتقيأوا ما سرقوا . وقد استرد للدولة كل الأملاك والموارد التى تملكها الأفراد خلال الحروب . وألزم ٤٠٫٠٠٠ من المتهربين من الضرائب بدفع

ضرائبهم . وجد خزانة الدولة مدينة بمبلغ ٢٩٦٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، فسدد هذه الديون ، ووازن الميزانية ، وجمع فائضا بلغ ١٣٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه . وحمى وشجع كل نواحي الحياة الاقتصادية ، وبنى الطرق والكبارى ، وخطط للقنوات الكبرى التي أزمعت أن تربط الأطلنطي بالبحر المتوسط ، والسين باللوار[٢١] . وأعلن أن جميع الأنهار الصالحة للملاحة جزء من الأملاك الملكية ، وحظر وجود العوائق فيها ، وأعاد من جديد تدفق السلع داخل البلاد .

واستطاع هنرى أن يخلق فرنسا من جديد بمعونة وزراء أحسن اختيارهم كوزيره صلى . فرد للمحاكم و « البرلمانات » وظائفها وسلطتها الشرعية ، وإذا كان قد سمح للموظفين البيرقراطيين بتوريث مناصبهم لأبنائهم لقاء ثمن يؤدونه ، فإن الدافع له لم يكن مجرد جمع المال ، بل كفالة استقرار الإدارة والنهوض بالطبقات الوسطى — ولا سيما رجال القضاء « نبالة الرداء » — ليكونوا مقابلا وموازنا للارستقراطية المعادية . وقد درس هذا الملك ، الذى كان فيه من الحرص على الحياة والعمل ما لا يسمح له بقراءة كتاب أوليفييه دسير المسمى «مسارح الزراعة» (١٦٠٠) — درس هذا الكتاب بعناية ، وفيه اقتراحات لأساليب زراعية أكثر علمية ، وأرسى هذه التحسينات فى أراضى التاج لتكون نماذج وحوافز للفلاحين الخاملين . وكان يقول إنه يتوق لرؤية « دجاجة فى كل قدر يوم الأحد » [٢٢] . وحظر على النبلاء أن يركبوا خيلهم فوق الكروم أو حقول الغلال وهم منطلقون إلى صيدهم ، ومنع غارات الجند على أراضى الفلاحين . وألغى عشرين مليون جنيه من متأخرات الضرائب المستحقة على الفلاحين (ربما لأنه عرف أنه لن يستطيع جمعها أبداً) ، وخفض فرضة الرءوس من عشرين إلى أربعة عشر مليونا من الجنيهات . وسبق كولبير بحمايته الصناعات الموجودة بالرسوم الجمركية ، وإدخال الصناعات الجديدة كصناعة الخزف المصقول والزجاج وتربية دودة القز ، وزرع أشجار التوت فى حدائق التويلرى وفونتنبلو ، وأمر بأن

يزرع منها عشرة آلاف فى كل أسقفية ، وأعان ووسع مصانـع السجاد المرسوم التى يملكها آل جوبلان . ورغبة فى تفادى السياسات المقيدة التى فرضها معلمو الحرف على نقاباتهم ، أعاد تنظيم الصناعة الفرنسية على أساس تعاونى — فأصحاب العمل والعمال متحدون فى كل حرفة ، خاضعون للتنظيم الذى تفرضه الدولة . ولكن الفقر لم يبرح مخيما على البلاد ، من جهة بسبب الحرب والطاعون والضرائب ومن جهة لأن عدم التكافؤ الطبيعى فى القدرات ، وسط تساوى الجميع فى الجشع ، كفيل فى كل جيل بأن تستوعب قلة من الناس أكثر السلع . أما الملك فتوخى القصد فى عيشه ، إلا أن يسرف مع خليلاته . ورغبة فى شغل المتعطلين وتنقيـة الريف من قدامى المحاربين العاطلين النهمين ، مول عددا كبيرا من الاشغال العامة المختلفة : فوسعت الشوارع ورصفت ، وشقت القنوات ، وغرست الأشجار على الطرق العامة ، وفتحت المتنزهات والميادين — كالبلاس رويال (وهو اليوم بلاس دى فوج) والبلاس دوفين — لتتيح لباريس متنفسا . وأنشأ الملك مستشفى المبرة للعجزة . ولم يكتمل نضج هذه الاصلاحات كلها قبل موته المفاجىء ، ولكن حينما ختم حكمه كانت البلاد تتمتع برخاء لم تشهده منـذ أيام فرنسيس الأول .

وأهم من ذلك كله أن هنرى أنهى الحروب الدينية ، وعلم الكاثوليك والبروتستنت أن يعيشوا فى سلام . لافى مودة وصداقة ، لأن أحدا من غلاة الكاثوليك لم يكن ليسلم بحق هيجونوتى فى الوجود ، ولا كان أى هيجونوتى حار الإيمان لينظر إلى العبادة الكاثوليكيـة إلا على أنها عبادة أصنام . وقد وضع هنرى حياته على كفه وأصدر (١٣ ابريل ١٥٩٨) مرسوم نانت التاريخى ، الذى أباح الممارسة الكاملة للعقيدة البروتستنتية ، ومنح الصحافة البروتستنتية حريتها ، فى جميع مدن فرنسا الثمانمائة إلا سبع عشرة مدينة كانت فيها الكاثوليكية المذهب الغالب (كما فى باريس) . وثبت مبدأ صلاحية الهيجونوت للمناصب العامة ، وكان منهم فى مجلس الدولة

اثنان فعلا ، وتقرر تعيين تورين الهيجونوتى مارشالا لفرنسا . كذلك تقرر أن تدفع الحكومة رواتب القساوسة البروتستنت ونظار المدارس البروتستنتية وأن يقبل الأطفال البروتستنت فى جميع المدارس والكليات والجامعات والمستشفيات كالأطفال الكاثوليك سواء بسواء . أما المدن التى كان يسيطر عليها الهيجونوت مثل لاروشيل ، ومونبلييه ، ومونتوبان — فتظل على حالها وتنفق الدولة على جامعاتها وحصونها . على أن الحرية الدينية التى منحت على هذا النحو كانت لا تزال ناقصة ، فهى لم تشمل غير الكاثوليك والبروتستنت ، ولكنها كانت أكثر ألوان التسامح الدينى تقدما فى أوربا . لقد اقتضى تحويل « جلالة الملك المسيحى جداً » ، إلى مسيحى حقا ، رجلا ذا عقيدة مشكوك فى سلامتها .

وتصايح الكاثوليك فى طول فرنسا وعرضها بالسخط على المرسوم زاعمين أن فيه حنثا بما تعهد به هنرى من تأييد لعقيدتهم . وندد به البابا كلمنت الثامن « كألعن ما يمكن تصوره ، منحت به حرية الضمير للجميع ، وهذا أسوأ شىء فى الوجود (٢٣) . » وأعلن الكتاب الكاثوليك من جديد بأنه يحل خلع الملك الزنديق أو قتله ، أما المؤلفون البروتستنت أمثال أوتمان ، الذين دافعوا عن سيادة الشعب إبان حكم هنرى الثالث ، فقد أطروا فضائل الاستبدادية — فى ملك بروتستنتى (٢٤) . وأبى برلمان باريس طويلا أن يختم المرسوم بخاتم التسجيل الرسمى الذى اقتضاه العرف حتى يصبح أى مرسوم ملكى قانونا مقبولا . ودعا هنرى الأعضاء ، وبين لهم أن ما فعله لم يكن عنه غنى للسلام ولتعمير فرنسا . فأذعن البرلمان ، وقبل ستة من الهيجونوت بين أعضائه .

وسمح هنرى لليسوعيين بأن يعودوا إلى فرنسا (١٦٠٣) ربما ليسكت المعارضة الكاثوليكية ويسترضى البابا . وعارض صلى بقوة هذه الخطوة ، وقال إن اليسوعيين « رجال نابغون ، ولكنهم شديدو الخبث والدهاء » ، وإنهم ملتزمون بقضية الهابسبورج ، ومن ثم بقضية خصمى فرنسا — أى

أسبانيا والنمسا ، وأنهم متعهدون بالطاعة العمياء للبابا وميالون إليها ، وهو ليس إلا سجينا جغرافيا للهابسبورج وتابعا ماليا لهم ، فهم لا محالة مملون على هنرى سياساته إن عاجلا أو آجلا ،فإن اخفقوا فسيقنعون أحد المتعصبين بأن يقضى عليك بالسم أو بغيره . » وأجاب هنرى بأن مساندة اليسوعيين ستكون له عونا كبيرا على توحيد فرنسا ، وأن استمرار نفيهم وعدائهم أشد خطرا على حياته وسياساته من عودتهم إلى فرنسا(*) .وقبل اليسوعى بيير كوتون كاهن اعتراف له ، ووجده انسانا لطيفا وفيا ، ثم فرغ بعد ذلك لحكم فرنسا ولزعازع الحب العاتية .

٥ — زير النساء

فى متحف كونديه بشانتيى لوحه شائقة رسمها فرانس بوربى الابن ، يبدو فيها هنرى فى عنفوان قوته وعزته . رشيق البنية ، بسيط الملبس فى سراويل منفوخة وصدرة وجوارب سوداء ، ذراعه اليسرى على خاصرته ، وتحت لحيته الشيباء طوق مكشكش ، ثم أنف أشم ، وفم حازم ، وعينان فيهما تيقظ وتشكك ورحمة . ولقد خلعت عليه سنو الحملات الطوال مشية الجندى وخلقه وريحه : فهو قوى نشيط لا يكل ، له من شواغله ما يمنعه من الاسراف فى النظافة أو من تغيير ملابسه حين يجب تغييرها ؛ قال صديق إنه كان أحيانا «تفوح من جسده رائحة خبيثة كأنه الجيفة[٢٥]» ؛ كان بعد يوم من السير أو القتال يفاجئ معاونيه بتنظيم رحلة صيد . إنه مضرب المثل فى بسالته ، ولكن أمعاءه تجنح إلى الاسهال إذا دنت المعركة[٢٦] ، وقد عانى فى السنين السبع الأخيرة من حياته من الدوسنتاريا وعسر البول والنقرس . أما ذهنه ففى نشاط جسده ومرونته . وهو سريع فى تبين الزيف والهراء ، يلتقط لب الأمور للتو والساعة ، ويكتب الرسائل التى لا تزال تنبض بالحياة ، ويشرح بظرفه صدر فرنسا

(*) مذكرات صلى ، ١٠ — ١١ . ولا سبيل الى التحقق من صحة رواية هذا الحديث الخاص .

والتاريخ . حين عين لافيوفيل فى أحد المناصب قال الرجل متمثلا بعبارة وردت فى الإنجيل « مولاى ، لست مستحقا » أجاب هنرى « أعلم ذلك جيدا ، ولكن ابن أخى طلب إلى أن أعينك »[٢٧] . وذات يوم اعترضه صاحب حاجة وهو فى طريقه إلى الغداء وبدأ يقول فى لغة طنانة « مولاى الملك ، ان أجيسيلا ، ملك لاكيدعون — » وقال هنرى وهو يئن « ويحك ! لقد بلغنى نبؤه ، ولكنه كان قد تغدى ، أما أنا فلم أفعل »[٢٨] . يقول مؤرخ فرنسى « لقد كان أذكى ملك أنجبته فرنسا » .

ثم كان أحبهم إلى الناس . لم يكن بعد أكثرهم شعبية ، لأن نصف فرنسا ما زال يقبله على مضض ، ولكن الذين عرفوه معرفة حميمة كانوا لا يترددون فى أن يساقوا إلى الموت حرقا من أجله ، وبعضهم يفعل وهو آخذ كل شىء فى اعتباره ، فهو أقرب الحكام منالا ، لا ادعاء فيـــه ولا غرور ، يرسل نفسه على سجيتها ، طيب القلب ، بطىء الغضب ، سريع العفو دائما . شكت حاشيته من كرهه للظهور فى أبهة الملوك . وسمح للشعراء وكتاب المسرحيات بالسخرية منه ، وان أعجبه أكثر أن يمثله مالبرب ربا للفضيلة والحسن . وكان يذهب للتفرج على المزليات التى تهجوه ، ويوهن من شرها بضحكه . ولم ينتقم ممن عارضوه بالقول أو الفعل « لو اننى شنقت كل من كتبوا أو وعظوا ضدى لما وجدت فى كل غابات مملكتى ما يكفيهم من المشانق[٣٠] » . كان له حساسية الشاعر ، فهو يحس فقر الشعب برهافة إحساسه بجمال النســاء . لم يكن رواقيا ، فالتحكم فى عواطفه ليس من شيمه ؛ كانت له عيوبه الكثيرة ، فقد يكون وقحا دون قصد ، أو جلفا فى مرح وابتهاج . وكانت تسكنه روح رابليه ، فهو يستمتع بالقصص المكشوفة ويرويها بطريقة لا تبارى . يسرف فى لعب الورق ، ويخسر المبالغ الكبيرة ، ويغش أحيانا كثيرة ، ولكن يرد مكاسبه الحرام دائما[٣١] . وكان يهمل مطاردة عدو متقهقر ليطارد امرأة متقهقرة .

ولا حاجة بنا لأن نعدد غرامياته كلها . على أن ثلاث نساء على الأخص كن معالم طريقه إلى العرش . إنه يكتب الرسائل الغرامية الملتهبة إلى « كوريساند الجميلة » ويقول فى احداها « إنى ألثم يديك . . . وأقبل قدميك مليون مرة . . . انها لبقعة مقفرة حقاً تلك التى تحل فيها وجودنا معا[٣٢] » . ولكن لم يأت عام ١٥٨٩ حتى كان قد ملها ، واكتشف استر امبر دبوالامبر . وبعد عام ، حين كان فى السابعة والثلاثين ، ودون أن يعوقه مرض السيلان[٣٣] ، وقع فى غرام جابرييل دستريه ، وكانت يومها فتاه فى السابعة عشرة ، خلع عليها أحد الشعراء « الشعر الذهبى ، وعيون النجوم ، ونحر الزنبق ، وأصابع اللؤلؤ ، وثدى المرمر[٣٤] » . وصف حبيبها بلجارد فى لحظة طيش مفاتنها للملك فعدا هنرى بفرسه اثنى عشر ميلا وهو متنكر يشق أرض العـــدو ليراها . وضحكت على أنفه الطويل ، ووقع عند قدميها ، وانسحب بلجارد . واستسلمت هى لسحر المال والملك ، وولدت لهنرى ثلاثة أطفال . وكان يأخذها لبلاطه وفى رحلات صيده ، ويعانقها علنا ، ويفكر فى الزواج منها إذا ارتضت مارجو طلاقه . وتضافر الوعاظ الهيجونوت والكاثوليك فى التنديد به زانيا ضالا ، ووبخه صلى الشجاع على تبديده أموال الدولة على محظياته . فطلب المغفرة معتذرا بأنه وقد جاهد هذا الجهاد فى الحرب والحكم ، وأخفق هـــذا الاخفاق فى الزواج ، فإن له ما لكل جندى من الحق فى شىء من الترفيه[٣٥] . وأقام على حب جابرييل ثمانى سنين بكل الافتتان الذى فى طاقة روح شديدة التقلب والتنقل . ولكن جابرييل غدت بدينة حريصة على الاقتناء . وراحت تدس لصلى ، وتدعوه « التابع » ، وقال لها هنرى فى غيظه إن وزيرا مثله أثمن فى نظره من عشر محظيات مثلها ؛ ثم لان وعاد إلى حديث الزواج منها ، ولكنها ماتت فى ١٠ أبريل ١٥٩٩ وهى تلد طفلا ميتا . وبكاها بكاء مرا وكتب يقول : « لقد ماتت نبتة الحب التى فى باطنى[٣٦] » .

ولكن النبوءة انتعشت بعد شهرين حين التقى بهنرييت دنتراج ، ابنة ماري توشيه ذاتها التي كانت خليلة شارل التاسع . ومنها أبوها وأمها وأخوها لأبيها أن تستسلم إلا لخاتم الزواج ، فكتب لها هنري تعهدا بالزواج مشروطا بأن تنجب له ولدا ، ولكن صلى مزقه أمامه ، فكتب هنري تعهدا آخر وسلمه لها مع عشرين ألف كراون . وبرئ ضمير السيدة وأصبحت محظية الملك . ورأى بعض دبلوماسييه أنه قد آن له أن يستقر . فأقنعوا مارجو بقبول الطلاق شريطة ألا يتزوج هنري من خليلته . ووافق البابا كليمان الثامن على منح الطلاق بنفس الشروط ، واقترح ماريا مديتشي ابنة دوق توسكانيا الكبير عروسا لهنري ؛ واقترح المصرفيون والفلورنسيون إلغاء دين فرنسا الضخم لهم إذا جعل هنري ماريا مليكته[٣٧]. واحتفل بالزواج غيابيا في فلورنسة (٥ أكتوبر ١٦٠٠) . وانتزع هنري نفسه من ساحة قتال ليذهب إلى ليون ليحيي زوجته ، ووجدها طويلة بدينة متعجرفة ، وبذل لها كل مجاملة ملكية ، وأنجب منها لويس الثالث عشر ثم عاد إلى الآنسة دنتراج على أنه كان يقوم بواجباته الزوجية بين الحين والحين . وأنجبت له ماري دمديسي (كما كانت تسميها فرنسا) سبعة أطفال في عشر سنين . ورباهم هنري ، مع أبنائه من جابرييل وهنرييت ، في سان — جرمان — أن — لي .

وقدمت هنرييت إلى الملكة ، واسكنت قصرا بقرب اللوفر ، ولكنها بعد أن ولدت للملك ولدا أصرت على أنها هي ، لا ماري ، الملكة الشرعية . وتآمر أبوها وأخوها لأبيها ليخطفاها هي وابنها إلى أسبانيا ويجعلا فليب الثالث يعترف بالغلام « الدوفين » الشرعي لفرنسا (١٦٠٤) . واكتشفت المؤامرة وقبض على الأخ ، وأفرج عن الأب حين رد تعهد هنري بالزواج . وواصل هنري مطاردته لهنرييت كأنه الزير الجائع . وكانت تقابل ملاطفاته بالاشمئزاز والكراهية ، وتقبل الرشا من فليب الثالث ثمنا لتجسسها لحساب أسبانيا[٣٨] .

٦ — مصرعه

وسط هذه السخافات التى لا تصدق خطط الملك لكسر الحصار الذى طوق آل هابسبورج فرنسا به — ذلك النطاق الحديدى المؤلف من الأراضى المنخفضة ، ولكسمبورج ، واللورين ، وفرانش كونتيه ، والنمسا ، والممرات الفالتيليه ، وسافوى ، وإيطاليا ، وأسبانيا . وزعم صلى فى مذكراته أنه اقترح على هنرى وجيمس الأول ملك إنجلترة « خطة عظمى » تتحد بمقتضاها فرنسا ، وإنجلتره ، واسكتلنده ، والدنمرك ، والسويد ، والأقاليم المتحدة (هولنده) ، وألمانيا البروتستنتية ، وسويسرة ، والبندقية ، ضد الهابسبورج ، وتنتزع أمريكا من أسبانيا ، وتحرر ألمانيا من ربقة الامبراطور ، وتطرد الأسبان من الأراضى المنخفضة ، ثم يقسم المنتصرون كل أوربا — فيما عدا الروسيا وتركيا وإيطاليا وأسبانيا — إلى « جمهورية مسيحية » فدرالية من خمس عشر دولة مستقلة ذاتيا ، يتجر بعضها مع البعض دون رسوم جمركية ، وترفع سياساتها الخارجية إلى مجلس فدرالى مسلح بقوة عسكرية عليا[٣٩] . أما هنرى فيبدو أن الفكرة الفخمة لم تخطر بباله قط ؛ ولعل قصارى ما حلم به أن يمد فرنسا إلى « حدود طبيعية » عند الرين ، وجبال الألب ، والبرانس ، والبحر ، وأن يحررها من الخوف من أسبانيا والنمسا . وفى سبيل هذه الأهداف كان يلجأ إلى أى وسيلة متاحة له : فسعى إلى عقد الأحلاف مع الدول البروتستنتية ، وساعد الهولنديين فى ثورتهم على أسبانيا ، ودبر تأييد ثورة يقوم بها المسلمون فى بلنسيه ، وشجع الترك على مهاجمة النمسا[٤٠] .

وأتاح نزاع تافه إشعال شرارة هذا العداء البوربونى — الهابسبورجى ليصبح حربا أوربية . ذلك أن الدوق جون وليم ، حاكم إمارة يوليش — كليفس — بيرج الثلاثية الصغيرة القريبة من كولونيا ، مات فى ٢٥ مارس ١٦٠٩ دون أن يعقب . وادعى الامبراطور رودلف ، بوصفه السيد الاقطاعى الأعلى للامارة ، أن له الحق فى تعيين كاثوليكى لهذا العرش

الصغير . واحتج هنرى بأن المزيد من اخضاع الدوقية للهابسبورج سيعرض حدود فرنسا الشرقية للخطر . وانضم إلى براندنبورج والبالاتينات والأقاليم المتحدة فى تصميمها على تعيين خلف بزوتستنتى لجون وليم ، فلما احتل الأرشيدوق ليوبولد النمسوى يبليش بالجيوش الامبراطورية اتخذ هنرى أهبته للحرب .

وتوافق غرامه الأخير توافقا مثيرا مع الدعوة إلى هذه المعركة الفاصلة الكبرى . ذلك أنه برغم بلوغه السادسة والخمسين وما بدا عليه من اكتهال أحس تدريجا فى ١٦٠٩ بحنين طاغ لشارلوت مونمورنسى ذات الستة عشر ربيعا . وتأبت عليه ، ولكنها قبلت أمره بأن تتزوج أمير كونديه الجديد . وروى أن خليلته هنرييت وبخته ساخرة بقولها « ألست شريراً جدا لأنك تريد أن تضاجع زوجة ابنك ؟ فأنت عليم بأنك أخبرتنى بأنه (أى الأمير) ولدك . » وهرب كونديه بعروسه إلى بروكسل ، وتحرق هنرى شوقا إلى مطاردتها ، ونظم ماليرب هذا التحرق شعرا . والتمس فيلروا وزير خارجية هنرى من الأرشيدوق البرت حاكم الأراضى المنخفضة أن يعيد الأميرة إلى باريس ، ولكن الأرشيدوق رفض بتشجيع من فليب الثالث ملك أسبانيا . وهدد فيلروا بحرب « قد تشعل نارا فى أربع أركان العالم المسيحى[٤٢] » . وبدا لهنرى أن من توفيق العناية أن تقع بروكسل فى الطريق إلى يبليش : فهو إذن قاهر هذه السيدة — والأراضى المنخفضة الأسبانية — تمهيدا لتحطيم الامبراطورية واذلال أسبانيا . واستأجر المرتزقة السويسريين واستعد لجمع جيش عدته ثلاثون ألف مقاتل . ووعده جيمس الأول ملك إنجلتره بأربعة آلاف آخرين .

وروعت فرنسا الكاثوليكية ، فقد أسرفت فى تصديق الشائعات التى تواترت بأن مفاتن الأميرة هى سبب الحرب الحقيقى ، وأفزعها أن يكون حلفاء الملك وقواده أكثرهم من البروتستنت ، وتساءلت ماذا عساه يكون مصير الكاثوليكية والبابوية فى أوربا إذا انهزم جنوبها الكاثوليكى

على يد شمالها البروتستنتى ، وعلى يد ذلك الملك الذى كان بالأمس القريب هيجونوتيا . وهبطت الضرائب المفروضة لتمويل هـــذه الحرب المرهوبة بشعبية هنرى ، وهى أبداً قلقة لا ثبات لها ؛ وحتى بلاطه تحول عنه لأنه رأى فيه رجلا أعماه الحمق عن أن يدرك أنه لم يعد فى طاقته أن يجمع بين لوثاريو والاسكندر فى شخصه . وأرجفت التنبؤات بأنه مقتول عما قريب — وربما كانت تحريضات مشجعة لمن يتأثرون بها .

وسمع فرانسوا رافاياك بهذه التنبؤات ، وكان موطنه انجوليم . وقد أطال التأمل فى سجنه الذى أودعه لجريمة لم يقترفها ، ورأى الرؤى ، ودرس اللاهوت ، وقرأ الكتيبات التى تدافع عن قتل الطغاة . وإذ كان قوى الذراع ، ضعيف العقل ، فقد راح يداعب هذه الفكرة ، وهى أن الله اختاره لتحقيق التنبؤات ولانقاذ فرنسا من مصيرها البروتستنتى . فلما أفرج عنه انطلق إلى باريس (١٦٠٩) ، ونزل عند مدام دسكومان ، وهى صديقة لهنرييت دنتراج ، واعترف لها بأنه يفكر فى قتل الملك . وأرسل تحذير لهنرى ، ولكنه كان قد ألف مثل هـــذه الأنذارات إلفا جعله لا يعبأ بالتحذير . وبينما كان يخترق الشوارع حاول رافاياك أن يقترب منه ، وأوقفه الجند ، فقال إنه يريد أن يسأل الملك أصحيح أنه يدبر الحرب على البابا ، وأن الهيجونوت يستعدون لذبح الكاثوليك . ثم حاول أن يدخل ديرا وينضم إلى اليسوعيين ، ولكن طلبه رفض . فعاد إلى أنجوليم ليقوم بواجبه فى الفصح ، وتناول القربان ، وتسلم من أحد الرهبان حقيبة صغيرة قيل له إنها تحوى على شظية من الصليب الذى مات عليه المسيح . واشترى مدية ، ثم عاد إلى باريس . وأرسلت مدام دسكومان تحذيراً إلى صلى فأبلغ الملك به .

وكان هنرى يتأهب للحاق بجيشه فى شالون . ففى ١٣ مايو ١٦١٠ عين الملكة وصية خلال غيابه . وفى اليوم الرابع عشر رجاه ابنه غير الشرعى ، دوق فاندوم ، ألا يبرح بيته لأن التنبؤات بمقتله حددت هذه

اليوم نهاية لحياته . وفي العصر قرر أن يخرج في نزهة بعربته ، وأن يزور صلي المريض ، ويستمتع بـ « نسمة هواء . » وتفاديا لانتباه الناس صرف حرسه ، ولكن كان يرافقه سبعة من الحاشية . واقتفى رافاياك أثر العربة وكان يراقب اللوفر . وعند نقطة في شارع فيرونيري وقفت العربة لتشابك في المرور . وهنا قفز رافاياك على سلمها وطعن الملك طعنة نجلاء بلغ من عنفها أن السلاح اخترق قلبه ، فمات هنري للتو تقريبا .

وتحمل رافياك وزر جريمته كاملا حين عذب ، وأنكر أن له محرضين أو شركاء ، وأسف على عنف فعلته ، ولكنه صرح بثقته بأن الله غافرها كما يغفر للمذنبين في سبيل قضية مقدسة . ومرقت أربعة جياد أوصاله ، وأحرق جذعه في ميدان عام . واتهم الكثير من اليسوعيين بأنهم ألهبوا عقل القاتل ، وقيل إن كتاب ماريانا عن الملكية « دى ريجى » الذى يبرر قتل الطغاة كان يباع علناً في حوانيت باريس . ورد اليسوعيون بأن هذا الكتاب شجبه صراحة مجمع لليسوعيين عقد بباريس عام ١٦٠٦ . وحكمت السوربون على اليسوعيين بأنهم مسئولون عن التعاليم الخطرة وأحرقت كتاب ماريانا رسمياً(٤٣) . أما ماري مديسي فقد حمت اليسوعيين من الأذى بصفتها وصية ، وقبلت ارشادهم في الإيمان والسياسة .

وأصاب فرنسا الاضطراب والفرقة لمشروع هنري الأخير وموته المفاجئ . وارتفعت قلة هذا الاغتيال على أنه عمل إلهي في سبيل الدفاع عن الكنيسة . ولكن الكثرة العظمى ، من الكاثوليك والبرتستنت على السواء ، ناحت على ملك رجحت جهوده من أجل شعبه أخطاءه وحماقته وذنوبه رجحاناً كبيراً . ولم يكن قد غاب عن ذاكرة الفرنسيين كل ما ورثه مع العرش من فقر وخراب ، ومن اضطراب ديني ، ومن فساد وعجز حكوميين ؛ لقد رأوا الآن أمة نظيفة منظمة ، غنية برغم الضرائب المرتفعة ، لها من القوة ما يتيح لها أن تتحدى السيادة الأسبانية الطويلة . وذكروا في حنين ما طبع عليه هنري من بساطة في الملبس والمسلك والحديث ،

وذكروا روحه المرحة وطبيعته الرقيقة ، وبسالته المبّهجة فى الحرب ، وكياسته فى الصداقة والدبلوماسية ، وأغضى تراخيهم الخلقى عن تلك المغامرات الغرامية التى لم يبد فيها إلا رجلا على هواهم . لقد وصف نفسه بحق بأنه « ملك وفى ، أمين ، صادق[٤٤] » ، ولكنه كان إلى ذلك أعظم ملوك فرنسا إنسانيه ورحمة ، ثم إنه كان منقذ فرنسا . ربما بدت خطته فى الوصول بفرنسا إلى حدودها الطبيعية أمراً غير عملى ، ولكن ريشليو اتبعها بعد عشرين عاماً ، ثم حققها لويس الرابع عشر بعد ذلك . ولم يمض طويل زمن على موته حتى أجمعت أوربا على تلقيبه بهنرى الأكبر . وفى الثورة الفرنسية أدين جميع الملوك الفرنسيين من خلفائه ، إلا هنرى الرابع ، فقد ظل يتربع المكان الأول فى قلب الشعب .

الفصل الخامس عشر

ريشليـــو

١٥٨٥ — ١٦٤٢

١ — بين ملكين : ١٦١٠ — ٢٤

خلف موت هنرى الرابع المفاجئ فرنسا فى فوضى متجددة ، تأصلت جذورها الكثيرة فى صراع النبلاء مع الملكية ، والطبقات الوسطى مع الاستقراطية ، والكاثوليك مع الهيجونوت ، والاكليروس مع الدولة ، والملك الصغير لويس الثالث عشر مع أمه ، وفرنسا مع النمسا وأسبانيا . أما ذلك العبقرى الساحر ، الجبار ، الذى أحال كل هذه الفوضى نظاما ، وهزم الرجعية الاقطاعية ، وهدأ ثورة الهيجونوت ، وأخضع الكنيسة للدولة ، وأنقذ ألمانيا البروتستنتية من الانهيار ، وكسر شوكة الهابسبورج المحدقين بفرنسا ، ورفع الملكية الفرنسية إلى سلطانها المطلق فى الداخل وإلى أسمى مقام فى أوربا — هذا الرجل كان قسيسا كاثوليكيا ، وكان أعظم السياسيين فى تاريخ فرنسا ، وأشدهم دهاء ، وأقساهم قلبا .

إن بعض مأساة هنرى أن وريثه لويس الثالث عشر كان عند موته غلاما فى الثامنة لا حول له ولا قوة . وأن الأرملة التى ترك لها الوصاية عليه كانت امرأة فاقت شجاعتها ذكاءها ، على استعداد لتسليم الحكم لمحاسيبها الايطاليين ما دامت تستمتع بلذائذ الحياة فى وفرة عارمة . تخلت عن خطة هنرى فى حرب تشن على الهابسبورج حتى الموت ، بل إنها على العكس ألفت بين فرنسا وأسبانيا بتزويج أبنائها من أبناء فليب الثالث — فزوجت ابنها لويس لآن النمسوية ، وابنتها اليزابيث للفتى الذى أصبح فيما بعد فليب الرابع . على أن إرادة ريشليو ستكون أقوى من هذا الدم المخلط .

ترك هنرى وصلى ٠٠٠ ر٣٤٥ر ٤١ جنيــه فى خزانة الدولة ـ والتف كونشينو كونشيني ، وزوجته ليونورا جاليجاى ، ودوق ابيرنون ، وغيرهم من أفراد الحاشية المتعطشين للمال، التفوا حول هذا الكنز واستعدوا للاجهاز عليه . وعارض صلى ولـكنه غلب على أمره ، فاستمال ساخطا ، واعتكف فى ضياعه يكتب المذكرات عن مليكه المحبوب .

ورأى النبلاء فى عجز الحــكومة المركزية وفسادها الفرصة لاسترداد سيادتهم الاقطاعية القديمة . فطالبوا بدعوة مجلس الطبقات ظنا بأنه سيكون كما كان من قبل صوتهم وسلاحهم ضد الملكية ، وأجيب الطلب . ولكن حين التام شمل المجلس بباريس فى أكتوبر ١٦١٤ ، أقلقتهم قوة الطبقة الثالثة ومقترحاتها — هذه الكتلة الشعبية المجردة من النبالة والكهانة ، الممثلة يومها كما هى ممثلة اليوم فى المحامين ، والمعبرة عن قوة الطبقة الوسطى ورغباتها . أما النبلاء والاكليروس الذين وضعوا عراقة الأصل ومسحة الـكهانة فوق الثروة والقانون، فقد تحدوا نظام توريث المناصب القضائية الحديث ، وهو نظام آذن بخلق نبالة قضائية منافسة . وردت الطبقة الثالثة بطلب التحقيق فى المنح والمعاشات العريضة التى تلقاها النبلاء مؤخرا من الحكومة ، وطالبت باصلاح ما فسد فى الكنيسة ، وعارضت فى أن تطبق فى فرنسا الأوامر الصارمة التى أصدرها مجمع ترنت ، وطالبت بأن يخضع رجال الدين للقوانين والمحاكم التى يخضع لها العلمانيون ، وبأن تفرض القيود على اقتناء الكنيسة المعفاة من الضرائب مزيدا من العقارات ، وبألا يتقاضى القساوسة أجراً على قيامهم بشعائر العماد والزواج والدفن ، وأخيرا دافعت عن سلطة الملك وحقه الإلهى ضد دعاوى النبلاء فى حق الهيمنة عليـــه والبابوات فى حق خلعه . كانت تلك ثورة غير متوقعة . فهدئ المندوبون المشاغبون بالوعود وحل المجلس (مارس ١٦١٥) . ثم نسى أكثر هذه الوعود ، واستؤنف الاختلاس وسوء الادارة . ولم يدع مجلس الطبقات مرة أخرى إلا حين انهارت الملكية وطبقتا النبلاء والاكليروس على السواء عام ١٧٨٩ .

على أن الاكليروس الكاثوليكى الفرنسى اكتسب شرفا باصلاح ذاته اصلاحا مخلصا فعالا . ولم يكن المسئول دائما عن المفاسد التى أشاعت الفوضى فى الكنيسة ، لأن كثيرا من المفاسد نجم عن أن الأساقفة ورؤساء الديورة كان يعينهم الملاك أو النبلاء الذين يحيون حياة أشبه بحياة الوثنيين ، وأحيانا تساورهم شكوك العقيدة [١] . مثال ذلك أن هنرى الرابع منح صلى الهيجونوتى أربعة ديورة ليرتزق من دخلها ، وعين خليلته « كوريزاند » رئيسة لدير شاتيون — سير — سين . وخلع السادة النبلاء الأسقفيات ورياسات ديورة الرهبان والرهبات على أبنائهم الصغار، وأبنائهم غير الشرعيين، وجنودهم البواسل ، ونسائهم الاثيرات . وإذا كانت قرارات الاصلاح الصادرة من مجمع ترنت لم تقبل بعد فى فرنسا، فإن عدد الكليات اللاهوتية التى تعد القساوسة كان قليلا ؛ فكل شاب منذور يقرأ نص القداس اللاتينى ويتعلم مبادئ الطقوس يصلح لاختياره للكهانة ، وكثير من الأساقفة الذين كانوا رجال دنيا يعيشون على هواهم قبل أن يكافأوا بمنصب الأسقفية عينوا لرعاية الشعب رجالا حظهم من التعليم قليل ومن التقوى أقل. قال قسيس « لقد أصبح اسم القسيس مرادفا للجهل والفجور [٢] » . وقال سان فانسان ديول « ان أعدى أعداء الكنيسة هم كهنتها غير الجديرين بالكهانة » [٣] .

وقد حاول الأب بوردواز علاج الجانب الخلقى للمشكلة بانشائه « مجتمع القساوسة » (١٦١٠) وهو نظام تطلب من جميع قساوسة الأبرشية أن يعيشوا معا عيشة البساطة والوفاء بنذورهم . وفى عام ١٦١١ أسس الأب برول « جماعة المصلى » على غرار مؤسسة شبيهة أقامها القديس فليب نيرى فى إيطاليا ، وقد أصبحت مدرسة لاهوتية لتدريب شباب القساوسة على تعليم وتكريس أفضل وفى عام ١٦٤١ نظم الأب جان جاك أولييه الطريقة السلبيسية لاعداد الرجال للكهانة ، وفى عام ١٦٤٦ افتتح مدرسة القديس سلبيس اللاهوتية وكنيستها فى باريس وفى عام ١٦٤٣ ألف الأب جان (القديس يوحنا) أود « جماعة يسوع ومريم » لتأهيل الرجال

للكهانة والبعثات التبشيرية . وهكذا أعد أعلام من رجال الأجيال التالية كبوســويه ، وبوردالو ، ومالبرانش ، وأرسى أساس قوة الكنيسه وبهائها فى عصر لويس الرابع عشر .

وكشفت طوائف دينية جديدة عن تقوى الشعب ونفخت فيها حياة جديدة . فدخلت الراهبات الأورسوليات فرنسا حوالى عام ١٦٠٠ واضطلعن بتعليم البنات ، ولم ينقض قرن على دخولهن حتى كان لهن ٠٠٠ ر ١ بيت و ٣٥٠ جمهورا من العابدين . ورحبت مارى مديسى بدخول طائفــة « أخوة الرحمة » إلى فرنسا ، وهى التى أسسها (١٥٤٠) القديس يوحنا الإلهى فى أسبانيا ، وسرعان ما أعدت ثلاثين مستشفى . وفى عام ١٦١٠ أنشأت بارونة شانتال (القديسة شانتال) ، بمساعدة فرانسوا سال ، « طائفة السيدة العذراء للافتقاد » لرعاية المرضى والفقراء ، وما وافت سنة ١٦٤٠ حتى كان لها مائة دير ، وفى عام ١٧٠٠ كان لفرع واحد منها أربعمائة دير للنساء . وبلغت جملة الراهبات فى فرنسا عام ١٦٠٠ حوالى ثمانين ألفا (٤) .

وهناك رجلان يحتلان مكانا بارزا فى هذا الإحياء الكاثوليكى الذى حدث فى القرن السابع عشر . وأولهما فرانسوا سال الذى اتخذ جزءاً من اسمه من مسقط رأسه القريب من آنسى فى سافوا . درس القانون فى بادوا وأصبح موظفا فى مجلس شيوخ سافوا . ولكن الدين كان يجرى فى عروقه فرسم قسيسا ، واضطلع (١٥٩٤) بمهمة شاقة ، هى أن يرد إلى حظيرة الكاثوليكية إقليم شابليه الواقع جنوبى بحيرة جنيف ، وكان قد اتبع مذهب كلفن منذ عام ١٥٣٥ . ولم تمض خمس سنوات حتى تمت المهمة ، وساعد على ذلك نفى من لم يهتدوا ، ولكن أكثر الفضل فى اتمامها كان لما أوتى فرانسوا من تقوى وصبر وكياسة مقنعة . فلما رقى أسقفا كرس نفسه لتعليم الأطفال والكبار . وحين زار باريس أحبته نساء الطبقة العليا محبــة

الأكبار والتبجيل ، وأصبحت التقوى هي الزى الفاشى فى المجتمع حينا من الزمن .

أما حياة ثانى الرجلين ، وهو فانسان دبول ، فقد سلكت مسالك أقل اتباعا للتقاليد . ذلك أنه بدأ راعى خنازير ، ولكنه بطريقة ما وجد سبيله إلى كلية فرانسيسكانية بغسقونيا : وإذ كان أبوه — ككل أب كاثوليكى — تواقاً للظفر بثواب الآخرة لأسرته بتكريس أحد أبنائه للكنيسة ، فقد باع زوجا من الثيران ليرسل ولده إلى جامعة تولوز ليدرس اللاهوت : وهناك رسم فانسان قسا (١٦٠٠) . وفى رحلة على البحر المتوسط أسره القراصنة وباعوه عبدا فى تونس . ولكنه هرب ، وذهب إلى باريس ، وأصبح قسيسا خاصا لمارجو طليقة هنرى الرابع ، ثم أصبح المرشد الروحى لمدام جوندى . وبفضل المال الذى أعانته به هذه السيدة نظم البعثات التبشيرية بين الفلاحين ، وبعد كل بعثة تقريبا أسس « مبرة » لأغاثة فقراء الناحية ، ورغبة فى استمرار هذه المؤسسات نظم « جماعة قساوسة البعثة » — ويطلق عليهم أحيانا كثيرة اسم « اللعازريين » نسبة إلى دير القديس لعازر الذى استخدموه مقرا رئيسيا لهم فى باريس . ولما كان المسيو جوندى قومندانا لسفن تشغيل المجرمين الفرنسية فقد اضطلع فانسان بالتبشير للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة فى هذه السفن . وإذ روعته شدائدهم وأمراضهم ، فتح لهم المستشفيات فى باريس ومرسيليا ، وأيقظ ضمير فرنسا لتعامل المسجونين معاملة أفضل . ثم اقنع النساء الميسورات بأن يقمن بالخدمة فى المستشفيات بين الحين والحين ، وجمع المبالغ الطائلة لتوزيعها على شئون البر ؛ ورغبة فى التصرف فى هذه الأموال ، وفى إعانة جماعة وسيدات البر » التى نشأها ، نظم عام ١٦٣٣ جماعة « أخوات البر » (وكان يفضل أن يدعوهن بنات البر) — اللائى يخدمن الآن الانسانية وكنيستهن فى أصقاع كثيرة من العالم .

وقد كسب « مسيو فانسان » قلوب كل من عرفوه تقريبا برغم ما افتقر إليه من جاذبية الجسد ، وماارتداه من رث الثياب ، وما فى طلعته من شبه بمعلم ناموس يهودى ملتح مغضن الوجه ، وذلك بفضل جهاده فى سبيل الفقراء والمرضى والمجرمين . وقد جمع الأموال الكثيرة ، وأنشأ المستشفيات ، والملاجىء ، والمدارس اللاهوتية ، وبيوت الشيوخ ، ومعتكفات العلمانيين والقساوسة ؛ وقد تضخم حجم الحسابات التى تسجل خيراته . وخلال حرب الفروند التى نشبت بين عامى ١٦٤٨و١٦٥٣ ، وأثناء حصار باريس ، أشرف على إطعام خمسة عشر ألفاً من المعدمين ؛ على أن التشبث بالعقيدة هنا غلب نوازع الخير ، فقد تطلب اعتراف الشخص بالعقيدة الكاثوليكية شرطا لنيله الطعام (٥) . وانضم إلى الحملة على بور — رويال ، ولكنه حاول التخفيف من اضطهاد راهباتها (٦) . فلما مات ناح عليه نصف باريس ، وكان شعور الارتياح شاملا حين سلكته الكنيسة فى عداد قديسيها (١٧٣٧) .

وبفضل هذا الرجل ، وبفضل فرانسوا سال ، وبفضل اليسوعيين الذين لا يتطرق اليأس إلى نفوسهم ، وبفضل الخدمة الصادقة التى قدمتها نساء لا حصر لهن ، ولدت الكاثوليكية الفرنسية فى عهد لويس الرابع عشر ميلادا جديدا يتميز بالقوة والورع . فعادت الطرق الديرية إلى نظمها ، وأصلحت أديار الراهبات نفسها ؛ وبدأ الآن بور — رويال وقديسوه الجانسنيون . ووجد التصوف نفراً جديداً من الداعين والممارسين للاستغراق فى التأمل المباشر لله . أما الملك الشاب الذى انتقلت إليه حماسة العصر فقد وضع فرنسا فى إجلال تحت حماية مريم العذراء ، « حتى يكون الفردوس ثواب جميع رعاياه المخلصين . . . . لأن هذه مشيئته الطيبة ومسرة نفسه (٧) » على حد قول المرسوم الملكى . واستمر الحراس يوقظون الباريسيين كل صباح كما ألفت فرنسا أيام العصور الوسطى بنداء للصلاة من أجل الموتى الراحلين :

« استيقظوا أيها النائمـــون
وصلوا لله من أجل الراحلين[٨] »

ولكن صراع العقائد واصل طريقه فى مرارة . والتزمت مارى مديسى مرسوم نانت بأمانة على الرغم من تمسكها بعقيدتها . ولكن لا الكاثوليك ولا الهيجونوت كانوا يميلون للتسامح . وندد البابا وسفيره والاكليروس الكاثوليكى بالحكومة لتساهلها مع الهرطقة . وحيث كانت الغلبة للكاثوليك راحوا يشوشون على الخدمات البروتستنتية ويدمرون كنائس البروتستنت وبيوتهم وأحيانا حياتهم[٩] ، وأخذوا الأطفال عنوة من آبائهم الهيجونوت بحجة أنهم يحولون بينهم وبين تحقيق رغبتهم فى اعتناق الكاثوليكية[١٠] . وحيث كان البروتستنت أصحاب الكلمة العليا ردوا على هـــذا بمثله . فحظروا ترتيل القداس فى نحو ٢٥٠ مدينة خاضعة لهم[١١] ، وطالبوا بأن تحرم الحكومة المواكب الكاثوليكية فى البلاد البروتستنتية ، وكانوا يسخرون من هذه المواكب ويشوشون عليها وأحيانا يهاجمونها ، ومنعوا البروتستنت من حضور شعائر العماد أو الزواج أو المآتم الكاثوليكية ، وأعلن رعاتهم أنهم سيمنعون الآباء الذين يتزوج أبناؤهم من الكاثوليك من تناول القربان[١٢] . قال مفكر حر مشهور « بينما كان الكاثوليك نظريا أكثر تعصبا من البروتستنت ، أصـــبح البروتستنت أكثر تعصبا من الكاثوليك[١٣] » ، ونافس الوعاظ البروتستنت الكهنة الكاثوليك فى قمع الهرطقة وتكميم النقد ؛ فحرموا جريمى فيربيه (ولكنهم لم يحرقوه) و « أسلموه للشيطان » لأنه هزأ بالمجتمعات الكنسية ، وهاجمت كتاباتهم المذهب الكاثوليكى فى « كتب قل أن يكون لها نظير فى مرارة الشعور ، ويستحيل بالتأكيد أن تبزها كتب أخرى[١٤] . » وخشى الهيجونوت إلغاء مرسوم نانت ، وساءهم الحلف بين فرنسا وأسبانيا فناضلوا لكى يجعلوا نصيبهم من فرنسا مستقلا سياسيا ، آمنا حربيا ، له جيشه وقوانينه الخاصة .

وحين زار لويس الثالث عشر بو (١٦٢٠) صدمه ألا يجد كنيسة كاثوليكية واحدة يصلي فيها [١٥] . ونظر الملك الشاب في استياء وفزع إلى مذهب لم يهدد بأن يقسم روح فرنسا فحسب بل جسدها أيضا . وفتش في لهفة بين حاشيته عن رجل في دمه من الحديد ما يكفل تحويل هذه الفوضى — فوضى العقائد والقوى المفرقة — إلى أمة متحدة .

٢ — لويس الثالث عشر

لقد أيقن أنه هو ذاته يفتقر إلى صحة البدن وقوة الذهن التي تتطلبها هذه التحديات . ولد في السنة الثامنة والأربعين لأب ربما أوهن من قواه الافراط الجنسي ، لذلك كان يشكو السل ، والتهاب الأمعاء ، وتعثرا مربكا في منطقه . وكان في فترات طويلة أضعف من أن يمارس الرياضة ، إنه يعزف الموسيقى ويؤلفها ، ويزرع البازلاء للسوق ، ويسيج أرض الصيد ، ويساعد في المطبخ . لم تبق له الوراثة والمرض على أي جمال في القوام أو الوجه ، فهو نحيل نحولا خطرا ، ضخم الرأس والأنف ، تركت شفته السفلى المتدلية فمه مفتوحا دائما بعض الانفتاح ؛ ينسجم وجهه الطويل الشاحب مع ردائه الكابي عن عمد . ولم تكن معاناته من الطبيعة بأشد من معاناته من أطبائه ، فقد فصدوه في سنة واحدة سبعا وأربعين مرة ، وأعطوه ٢١٥ حقنة شرجية ، وألقموه ٢١٢ دواء [١٦] . على أنه احتفظ بالحياة بفضل ممارسته الرياضة حين يستطيع ، والصيد ، والانضمام إلى جيشه ، والنوم في الهواء الطلق ، وتناول طعام الجنود البسيط .

كان مدرسوه يضربونه مرارا ، لذلك اشتد بغضه للتعليم ، ويلوح أنه لم يقرأ قط كتابا ألا للصلاة . واعتاد أن يتلو صلوات العبادة السبع كل يوم ، وقبل في غير تشكك ذلك الايمان الذي لقنه في صباه ، وكان ينضم دائما إلى أي موكب يحمل القربان المقدس ويصاحبه إلى النهاية . وقد أفسدت مزاجه الرقيق بطبعه نزعة مريضة إلى القسوة تنتابه بين الحين والحين .

كان خجولا ، كتمة ، مكتئبا ، لا يستشعر الحب الشديد لحياة لم تحبه . واعتبرته أمه إنسانا ضعيف العقل ، فأهملته ، وفضلت عليه فى صراحة أخاه الأصغر جاستون ، واستجاب لذلك بكرهه إياها وعبادة ذكرى أبيه . ثم اكتسب تدريجا بغض النساء ، وبعد أن تأمل على استحياء جمال الآنسة أوتفور منح الشبان حبه . تزوج من آن النمسوية زواجا سياسيا ، فكان يساق إلى فراشها سوقا . وحين أسقطت جنينها لم يمسها ثلاثة عشر عاما . ونصحته بطانته بأن يتخذ له محظية ، ولكن كان له ميول أخرى . ثم حاول ثانية وهو فى السابعة والثلاثين . مذعنا لمطالبة فرنسا كلها بولى للعهد ، وأعطت آن الشاكرة العالم لويس الرابع عشر (١٦٣٨) . وبعد عامين ولدت فليب أورليان الأول . الذى واصل تقدير أبيه لمفاتن الذكور .

على أن لويس كان له بعض شيم الملوك . من ذلك أنه وهو بعد غلام فى السادسة عشرة ، وقد سئم وقاحة كونشيني واختلاساته المالية ، أصدر فجأة أوامره السرية باغتياله (١٦١٧) ، وحين احتجت الملكة الأم على هذا الختام لحياة محسوبها نفاها إلى بلوا واختار شارل دالبر وزيرا أول له ، وكان هو الذى اقترح عليه هذه الضربة ، ورقى الآن دوقا على لون . وتحت إلحاح الدوق والبابا بولس الخامس ، أمر لويس الهيجونوت برد كل الأملاك التى أخذوها من الكنيسة . فلما تجاهل إقليم بيارن المرسوم زحف عليه وفرض عليه الطاعة ووضع بيارن ونافار — مملكة أبيه الشخصية فيما مضى — تحت حكم الملك المباشر . ولم يقاوم الهيجونوت من فورهم ، ولكن جمعيتهم العامة المجتمعة فى لاروشيل أقوى مدنهم ، طالبت برد الأملاك المستعادة لأنها ملك للشعب لا للكنيسة ؛ ثم قسمت فرنسا ثمانى « دوائر » وعينت لكل منها مديرا عاما ومجلسا لجمع الضرائب والجند . وأعلن لويس أن فرنسا لا يمكن أن تسمح بدولة داخل الدولة . وفى أبريل ١٦٢١ قاد جيشا ، وزحف قواده الآخرون بثلاثة جيوش ، وجهت كلها ضد القلاع البروتستنتية ، فسقط عدد منها ، ولكن مونتوبان التى دافع عنها

هنرى دوق روهان ثبتت للهجوم . وترك القواد غير الأكفاء الحرب تتعثر عاما ونصفا . ومنعت معاهدة الصلح المعقودة فى ٩ أكتوبر ١٦٢٢ التجمعات البروتستنتية ، ولكنها تركت مونتوبان ولاروشيل فى أيدى الهيجونوت وفى خلال هذه الحملات مات لون (١٦٢١) ، وارتقى ريشليو إلى مركز القوة .

٢ - الكردينال والهيجونوت

كيف يشق إنسان طريقه إلى القمة ؟ فى تلك الأيام كانت تعينه على ذلك عراقة أصله . وكانت أم أرمان جان دبليس دريشليو ابنة محام فى برلمان باريس ، أما أبوه فهو السنيور دريشليو ، المدبر الأكبر لبيت الملك فى عهد هنرى الرابع وورثت أسرة بواتو العريقة الحق فى أن توصى الملك باختيار من ترشح لاسقفية لوسون . وقد عين هنرى أرمان بهذه الطريقة (١٦٠٦) وكان يومها فى الحادية والعشرين . وإذ كان أصغر من السن المشترطة للأسقفية بسنتين ، فإنه سارع إلى روما ، وكذب فى أمر سنه ، وألقى أمام بولس الخامس خطابا لاتينيا جميلا حمل البابا على أن يسلم له الأسقفية أما وقد تحقق له « الأمر الواقع » ، فقد اعترف ريشليو بكذبته ، وطلب المغفرة . وامتثل البابا وهو يقول « إن هذا الفتى سيكون محتالا كبيرا » (١٧) .

وصف الأسقف الشاب أسقفيته بأنها « أفقر وأقذر » الأسقفيات فى فرنسا ، ولكن كانت الأسرة تملك بعض المال ، فما لبث أن امتلك المركبة والآنية الفضية ولم يتخذ وظيفته منصبا شرفيا عاطلا ، بل فرغ لأداء واجباته فى اجتهاد ومثابرة ، ولكنه وجد الوقت لنتملق كل صاحب نفوذ ويسخر كل صاحب قوة . فلما اختار كهنة بواتو مندوبا لمجلس الطبقات (١٦١٤) كان أرمان رجلهم . وأعجب كل من كان بالمجلس، لا سيما مارى مديسى ، بوجهه الرزين ، وقوامه الفارع الممشوق ، وقدرته القانونية

تقريبا على تفهم الموضوعات تفهما واضحا وعرضها عرضا مقنعا . وعين سكرتيرا للدولة بنفوذها ونفوذ كونشيني (١٦-١) . وبعد عام قتل كونشيني وفقد ريشليو وظيفته . وبعد أن خدم الملكة الأم المنفية في بلوا فترة قصيرة عاد إلى لوسون . وبيتت ماري الهروب ؛ واشتبه في اشتراك ريشليو في المؤامرة ، فنفى إلى أفنيون (١٦١٨) ، وبدا أن مجرى حياته السياسية قد انتهى . ولكن الجميع — حتى خصومه — اعترفوا بقدراته ، ولما تدلت ماري ليلا من إحدى نوافذ قلعتها في بلوا وانضمت إلى قوة من النبلاء المتمردين ، استدعى لوين الأسقف الشاب وعهد إليه أن يرد الملكة إلى رشدها ويصلح بينها وبين الملك . فأفلح في مهمته ، وحصل له لويس على قلنسوة الكردينالية ، وعينه في مجلس الدولة . وسرعان ما وضح للعيان تفوق ريشليو عقلا وارادة ، فأصبح رئيسا للوزراء في أغسطس ١٦٢٤ وهو في التاسعة والثلاثين .

وقد وجد الملك فيه بالضبط تلك الصفات التي افتقدها في نفسه : الذكاء الموضوعي ، والهدف الواضح ، وصلابة الغايات ، ومرونة الوسائط ؛ وكان للويس من الحصافة ما جعله يتقبل ارشاد الكردينال في المهمة الثلاثية — مهمة اخضاع الهيجونوت ، والنبلاء ، وأسبانيا . قال ريشليو في مذكراته مقدرا له هذه الخلة « إن قدرة الملك العظيم على أن يسمح بأن يخدم (أي بأن يفوض غيره بالسلطة) ليست من أقل صفات الملك العظيم شأنا(١٨) » . لم يكن لويس متفقا مع وزيره في جميع الحالات ، وكان أحيانا يوبخه ، وكان دائما يغار منه ، وقد فكر بين الحين والحين في طرده . ولكن أنى له أن يرفض رجلا يجعله مطلق السلطة في فرنسا وصاحب الكلمة العليا في أوربا ، ويحصل له من الضرائب أكثر حتى مما كان صلى بجمعه ؟ :

وتجلت روح الكردينال أول ما تجلت في موقفه من الدين . فلقد قبل في غير نقاش عقائد الكنيسة ، وأضاف إليها بعض الخرافات التي يعجب المرء لأن عقلا أوتي مثل هذه القوة آمن بها . ولكنه رفض ما ذهب

إليه حزب « مؤيدى سيادة البابا المطلقة » من أن للبابوات كامل السيادة على الملوك ، وحافظ على « الحريات الغالية » للكنيسة الفرنسية ضد روما ، واخضع الكنيسة للدولة فى الأمور الزمنية بنفس المضاء الذى اخضعها به أى إنجليزى ، ونفى الأب كوسان ، الذى تدخل فى السياسة بوصفه كاهن الاعتراف الملكى ؛ ففى رأيه أن أى دين من الأديان يجب ألا يختلط بشئون الدولة . أما التحالفات التى أدخل فيها فرنسا فكانت مع الدول البروتستنتية والكاثوليكية على السواء .

وقد طبق مبادئه فى حزم على الهيجونوت المشتغلين بالسياسة : ذلك أنهم برغم صلح ١٦٢٢ جعلوا لاروشيل مدينة صاحبة سيادة من الناحية الفعلية ، يشرف عليها تجارها ووزراؤها وقوادها . ومن هذا الميناء الاستراتيجى أرسل التجار تجارتهم مع العالم ، وأقلع القراصنة ليقتنصوا أية غنيمة أو مركب ، حتى المراكب الفرنسية ؛ وكان فى استطاعة أى عدو لفرنسا أن يدخل البلاد من هذا الميناء إذا أذن له الهيجونوت . كذلك انتهك لويس ذاته المعاهدة ، فقد وعد بهدم « حصن لويس » الذى كان خطرا دائما على المدينة ، ولكنه بدلا من أن يهدمه زاده تحصينا ، وحشد أسطولا صغيرا فى ثغر لابلافيه القريب . فاسر بنيامين روهان (أخو هنرى) ، سيد سوبيز ، الذى قاد أسطولا هيجونوتيا ، هذا الأسطول الملكى وقطره ظافرا إلى لاروشيل (١٦٢٥) لذلك بنى ريشليو أسطولا آخر ، ونظم جيشا ، ورافق الملك فى حصاره للقلعة الهيجونوتية .

وأقنع سوبيز دوق بكنجهام بأن يرسل أسطولا ضخما قوامه ١٢٠ سفينة لحماية المدينة . فحضر الأسطول ، ولكنه عانى الويل من مدفعية الحصون الملكية القائمة على جزيرة رى . فاضطر إلى التسلل عودا إلى إنجلتره وهو يجرر أذيال الخزى والعار (١٦٢٧) . وكان ريشليو خلال ذلك قد استولى على جميع الطرق البرية المؤدية إلى لاروشيل (بوصفه قائدا للملكه المريض) . ولم يبق إلا حصارها من البحر . فأمر مهندسيه

وجنده أن يقيموا تلا من الحجر طوله ١٧٠٠ ياردة بعرض مدخل الميناء ، تاركين فتحة لحركة المد والجزر . وقد بلغ عنف هذه الحركة ، التي ارتفعت فيها المياه وهبطت اثني عشر قدما ، مبلغا جعل تنفيذ المشروع يبدو مستحيلا ، ففي كل يوم كان الماء يكتسح نصف الأحجار المبنية يومها . وملّ الملك هذه الحرب التي لم تسفك فيها دماء وانطلق إلى باريس ، وتوقع كثير من رجال الحاشية أنه طارد ريشليو لعجزه عن أخذ المدينة عنوة . ولكن التل اكتمل بناؤه أخيرا وبدأ مهمته المرسومة . ومات نصف سكان لاروشيل جوعا . ولم يستطع الحصول على القليل من اللحم غير أغنياء القوم ، فكانوا يدفعون خمسة وأربعين جنيها ثمنا للقط ، وألفى جنيه ثمنا للبقرة . أما جان جيتون عمدة المدينة فقد توعد كل من يجرى على لسانه حديث الاستسلام بالقتل بخنجره . ولكن المدينة استسلمت فى يأسها بعد ثلاثة عشر شهرا من المجاعة والمرض (٣٠ أكتوبر ١٦٢٨) . ودخلها ريشليو ممتطيا جواده ومن خلفه الجند يوزعون الخبز رحمة بالناس .

وتصايح نصف فرنسا مطالبا باستئصال شأفة الهيجونوت . ولم يكن فى وسعهم — بعد أن أضنتهم الحرب — إلا أن يتوسلوا . ولكن ريشليو فاجأهم بشروط صلح رأى فيها الكاثوليك تساهلا شائنا . صحيح أن لاروشيل فقدت استقلال بلديتها ، وحصونها ، وأسوارها ، ولكن أشخاص سكانها وأملاكهم لم تمس ، وسمح لمن بقى من الجنود الهيجونوت بالرحيل بأسلحتهم ، ومنحت حرية العبادة فى المدينة للبروتستنت والكاثوليك على السواء وتلقت مدن هيجونوتية أخرى مثل هذه الشروط بعد استسلامها . ووجب رد الأملاك الكاثوليكية التي انتزعها البروتستنت ، ولكن القساوسة الهيجونوت الذين فقدوا مأواهم مؤقتا عوضوا باعانة من الدولة بلغت ٢٠٠ر٠٠٠ جنيه ، وأعفوا من ضريبة الرءوس (التاى) شأن الاكليروس الكاثوليك(١٩) . ومنح عفو عام لجميع من شاركوا فى التمرد . وثبت مرسوم نانت الذى أصدره هنرى الرابع فى كل نصوصه الجوهرية ،

بمرسوم ريشليو المسمى « مرسوم العفو » (٢٨ يونيو ١٦٢٩) وفتحت وظائف الجيش والبحرية والحكومة أمام الجميع دون نظر للعقيدة . وأذهل أوربا أن ترى الكاثوليك الفرنسيين يتبعون ويبجلون قوادا من البروتستنت كتورين وشومبير وهنرى روهان . قال ريشليو « منذ ذلك الحين لم تمنعنى قط خلافات الدين عن أداء كل أنواع الخدمات للهيجونوت[٢٠] » . وقد تبين الكردينال العظيم ، فى حكمة افتقدها لويس الرابع عشر فيما بعد افتقادا مؤسفا ، قيمة الهيجونوت الاقتصادية الهائلة لفرنسا — كما سيتبينها كولبير . ومن ثم فقد أقلعوا عن الثورة ، وانصرفوا فى هدوء إلى التجارة والصناعة ، وأصابوا من التوفيق والفلاح ما لم يصيبوه فى أى وقت مضى .

٤ — الكردينال والأشراف

بمثل هذا المضاء ، وبتساهل أقل ، تناول ريشليو النبلاء الذين ما زالوا يرون فى فرنسا التعدد لا الوحدة . لم تكن الاقطاعية قد ماتت قط ، فلقد حاربت من قبل فى الحروب الدينية لتهيمن على الحكومة المركزية . وكان كبار النبلاء يحتفظون بقلاعهم المنيعة ، وقواتهم المسلحة ، وحروبهم الخاصة ، وبطاناتهم ، وموظفيهم القانونيين ، وبفلاحيهم تحت رحمتهم ، ويتقاضون الرسوم المعوقة على التجارة التى تخترق أملاكهم . ان فرنسا لم تكن بعد أمة لأن الاقطاع والدين قطعا أوصالها ، بل كانت مجموعة مضطربة قلقة من البارونات المغرورين ، أشباه المستقلين ، القادرين فى أية لحظة على تكدير السلام وتمزيق اقتصاد الدولة . وكان أكثر الأقاليم يحكمه الادواق أو الكونتات الذين يدعون لأنفسهم حق حكمها مدى الحياة ويورثونها أبناءهم .

ولاح لريشليو أن البديل العملى الوحيد لهذه الفوضى المضعفة هو تركيز النفوذ والسلطة فى الملك . ويخيل إلينا أنه ربما أمكنه أن يجاهد ليوازن هذا التركيز برد قسط من الاستقلال للبلديات . ولكنه لم يستطع رد كومون العصر الوسيط الذى اعتمد على نقابات التجار والصناع والاقتصاد المحلى

المحمى ؛ ذلك أن الانتقال من سوق المدينة إلى سوق الأمة قوض هـذه النقابات والكومونات ، وتطلب التشريع المركزى لا المحلى (*) . ولعل العقول التى تجمدت فى الأوضاع الحاضرة لا ترى فى السلطة الملكية المطلقة التى نشرها ريشليو غير استبدادية رجعية ؛ أما فى رأى التاريخ ، وفى رأى الكثرة الغالبة من الفرنسيين فى القرن السابع عشر ، فإنها كانت تقدما حرر البلاد من الطغيان الاقطاعى إلى الحكم الموحد . لم تكن فرنسا قـد نضجت بعد للديمقراطية ، فأكثر سكانها مفتقرون إلى الغذاء الطيب والكساء الجيد ، أميون ، رانت على عقولهم الخرافة وتوحشت نفوسهم بفعل التعصب للعقيدة . وكانت المدن يهيمن عليها رجال الأعمال الذين لا يستطيعون التفكير إلا فى كسبهم أو خسارتهم ، ولم يـكن هؤلاء الرجال ، الذين عرقلت الامتيازات الاقطاعية كل خطوة من خطواتهم ، ميالين إلى الاتحاد مع صغار النبـلاء كما حدث فى انجلترة لإقامة برلمـان يقف فى وجه السلطة الملـكية . ولم تـكن « البرلمـانات » الفرنسية برلمانات تمثيلية تشريعية ، إنما كانت محاكم عليا غذتها السوابق ورسختها ، ولم تكن منتخبة من الشعب ، وقد غدت قلاعا للمحافظة . وحبذت الطبقات الوسطى ، ومهرة الصناع ، والفلاحون ، سلطة الملك المطلقة بوصفها الحماية الوحيدة التى يرونها ضد سلطة النبلاء المطلقة .

فى عام ١٦٢٦ أصدر ريشليو باسم الملك مرسوما طعن الاقطاع فى الصميم ، فقد أمر بهدم جميع القلاع إلا ما كان منها على الحدود ، وحظر تحصين المساكن الخاصة فى المستقبل . وفى نفس العام (بعد أن مات أخوه الأكبر منه سنا فى مبارزة) اعتبر المبارزة جريمة كبرى ، فلما تبارز مونمورنسى بوتفيل والكونت دى شابيل برغم هـذا الأمر أعدمهما . وقد اعترف بأنه « يحس كدرا شديد فى روحه » لهذا الاجراء ، ولكنه قال لمولاه ،

(*) مثل هذا التطور أضعف « حقوق الولايات » فى الولايات المتحدة الأمريكية فى القرن العشرين .

« إن الأمر خيار بين القضاء على المبارزات أو على أوامر جلالتكم (٢١) »
وأقسم النبلاء أن ينتقموا من الوزير ، وراحوا يتآمرون على اسقاطه .

وقد وجدوا فى الملكة الأم حليفا مشوقا إلى الانتقام منه . فهذه الأم التى كانت يوما ما حامية ريشليو باتت تبغضه حين رأته يعارض سياستها ، ولما مرض لويس مرضا خطيرا (يوليو ١٦٣٠) مرضته هى والملكة حتى استعاد بعض صحته ، ثم طلبا إليه رأس الكردينال مكافأة لهما . وكررت مارى مديسى المطلب بالحاح شديد وهى فى قصرها — قصر اللكسمبورج — ظانة أن ريشليو بعيد جدا ، ثم اقترحت ميشيل د مارياك ، حامل الأختام ، بديلا راغبا فى الحلول محله . ولكن ريشليو الذى أتى بطريق ممر سرى ، دخل الحجرة فى غير إذن وواجه الملكة الأم ، واعترفت بأنها أخبرت الملك بأن عليه أن يختار بين أن تذهب هى أو هو — أى ريشليو . وانسحب الملك المرهق ، وانطلق راكبا إلى كوخ صيده فى فرساى . وتقاطرت الحاشية حول مارى فى اغتباط بفوزها المنتظر . ولكن لويس أرسل فى طلب ريشليو ، وثبته رئيسا للوزارة ، وأكد له مساندة الملك له ، ووقع أمرا بالقبض على مارياك . وأشاع « يوم المغفلين » هذا (١٠ نوفمبر ١٦٣٠) الفوضى والحنق فى صفوف النبلاء المتآمرين . وسمح لمارياك بالبقاء حيا ، ولكن أخاه الذى كان مرشالا لفرنسا اتهم بعد ذلك بالاختلاس وأعدم فى شىء من العجلة (١٦٣٢) . وأمر لويس أمه أن تعتكف فى قصرها الريفى بمولان وأن تنفض يدها من السياسة . ولكنها هربت إلى فلاندر بدلا من ذلك (١٦٣١) ، وجمعت لها حاشية فى منفاها ببروكسل ، وراحت تعمل لاسقاط ريشليو . ولم تقع عيناها قط على الملك بعد ذلك .

أما ولدها الثانى ، « مسيو » جاستون ، دوق أورليان ، فقد حشد جيشا فى اللورين وقاده فى تمرد صريح على أخيه (١٦٣٢) . وانضم إليه عدة نبلاء ، ومنهم أرفع شريف فى فرنسا — هنرى ، دوق مونمورنسى ،

وحاكم لانجلدوك . وانضوى الالآف من الطبقة الارستقراطية تحت لواء الثورة . وعلى مقربة من كاستلنودارى (أول سبتمبر) اشتبك مونمورنسى ، البالغ من العمر سبعة وثلاثين ربيعا ، مع القوات التى جردها عليه ريشليو . وقاتل حتى أسقطه سبعة عشر جرحا ، وتحطم جيشه هو وجاستون تحت وطأة الهجوم ، وكان جيشاغنيا فى الألقاب فقيرا فى النظام ، وأسر مونمورنسى . واستسلم جاستون ، ودل على شركائه ثمنا للعفو عنه . وأمر لويس برلمان تولوز بأن يحاكم مونمورنسى بتهمة الخيانة ؛ وكان الحكم هو الاعدام . وهكذا مات آخر أدواق مونمورنسى دون خوف أو تذمر وهو يقول « أننى أعد هذا الأمر الذى أصدره قضاء الملك أمرا أصدرته رحمة الله [٢٢] » . وأدان معظم فرنسا الكردينال والملك لهذه الصرامة المجردة من الشعور ، وأجاب لويس « ما أنا بملك لو كان لى شعور الأشخاص العاديين » . أما ريشليو فدافع عن الاعدام بأنه انذار ضرورى للنبلاء بأنهم هم أيضا خاضعون للقوانين قائلا « لا شىء يدعم القوانين كعقاب الأشخاص الذين تعظم رتبتهم عظم جريمتهم » [٢٣] .

بقيت عقبتان أخريان فى طريق سياسة ريشليو ، ولاة الأقاليم والبرلمانات. لقد ساء الكردينال فقدان إيراد الأقاليم بسبب ما شاب سلوك الولاة النبلاء والقضاة من البورجوازيين أو صغار النبلاء عن فساد ونقص فى الكفاية ، لذلك أوفد الكردينال لكل قسم «محافظين» للاشراف على إدارة المالية والقضاء وتنفيذ القوانين . واتخذ هؤلاء الموظفون الملكيون مكانا أعلى من الموظفين المحليين كائنة ما كانت رتبتهم ، واضمحل استقلال الأقاليم الذاتى ، وانتعشت الكفاية وزادت حصيلة الضرائب . ونظام المحافظين هذا الذى استبق هنرى رابع إليه بقدر ما ، والذى عطله النبلاء فى الفروند ، والذى دعمه لويس الرابع عشر ، ثم اقتبسه نابليون — هذا النظام أصبح من الملامح البارزة للبيرقراطية المحكومة مركزيا والتى أدارت منذ الآن قوانين فرنسا .

أما برلمان باريس فقد خيل إليه أن الفرصة فى ظل ملكية ضعيفة مواتية لتوسيع وظائفه من تسجيل القوانين وتفسيرها إلى دور المجلس الاستشارى للملك . ولكن ريشليو ما كان ليطيق مثل هذه المنافسة لمجلس دولته ، فدعا لويس زعماء البرلمان ، على الأرجح بتحريض منه ، مستعملا عباراته الحادة ، وقال لهم « لقد عينتم لا لشىء إلا لتقضوا بين زيد وعمرو من الناس ، فإذا تماديتم فيما أنتم فيه فانى مقلم أظافركم تقليما حادا تأسفون له[٢٤] » . وأذعن برلمـــان باريس ، وحذت برلمانات الأقاليم حذوه . واختزلت وظائفهم حتى التقليدى منها ، فأقام ريشليو « لجانا فوق العادة » لتنظر فى الدعاوى الخاصة . وأصبحت فرنسا دولة بوليسية ، وانتشر جواسيس الكردينال فى كل مكان حتى فى الصالونات ، وغدت « الأوامر المختومة » أداة مألوفة فى الحكم . وهكذا أصبح ريشليو الآن فى حقيقة الأمر وواقعه ملك فرنسا .

٥ — الكردينال صاحب الكلمة العليا

أما وقد ملكت يداه هذه السلطة المركزة ، فقد فعل كل شىء من أجل فرنسا ، ولم يفعل إلا القليل من أجل الشعب . كان يرى فرنسا دولة لا مجموعة من الأفراد الأحياء ؛ انه لم ينظر إلى الرجل العادى نظرة مثالية ، ولعله رأى « العذوبة واللباقة » فى أن يموت أمثال هؤلاء الرجال فى سبيل وطنهم ، فهو راغب فى التضحية بهم ليؤمن وطنه المستقبل من تطويق الهابسورج له . وكان يشقى ساعات الليـــل الطويلة فى تصريف شئون الدولة ، ولكن همه كان أكثر الوقت سياستها الخارجية . لم يكن لديه متسع من الوقت لتحسين الاقتصاد ، إلا أن يكون لتصيد المتهربين من الضرائب وجلب الدخل و « الأنباء » لباريس بقدر أقل من التسرب وهى فى الطريق . وفى عام ١٦٢٧ نظم البريد العام .

وكانت الضرائب ما زال يجمعها رجال المال الذين « أقطعوا » هـــذه الضرائب ، وكانوا يقتضون المثلين ، وأحيانا ثلاثة أمثال المبلغ الذى يؤدونه

للحكومة . وقد أعفى النبلاء ورجال الدين من الضرائب الهامة ؛ ووجد مهرة رجال الأعمال وثروات الموظفين المختزنة السبل للتهرب من الجباة أو استرضائهم ، أما المدن فكانت تدفع مبلغا صغيرا لتنجو من فرضة الرؤوس؛ ووقعت وطأة الضرائب على طبقة الفلاحين التى قصدها ريشلو حتى الفاقة ليجعل من فرنسا أقوى دولة فى العالم المسيحى . وكان كهنرى الرابع يؤثر أن يقهر أعداءه بالمال لا بالدم ، وكثير من المعاهدات التى خاض بها الحرب تضمن إعانات مالية للحلفاء ورشا للاعداء المحتملين . وكان أحيانا يقرض الخزانة من جيبه الخاص إذ أعوزه تدبير المال ، ومرة استأجر أحد المشتغلين بالكيمياء القديمة ليصنع له الذهب[٢٥] . وتضافر نظام الضرائب ، والسخرة الحكومية على الطرق ، مع الجفاف والمجاعة والطاعون وغارات الجنود ، لتدفع الفلاحين إلى حال من اليأس تقرب من الانتحار ، حتى لقد قتل عدد منهم أسرهم وأنفسهم ، وقتلت الأمهات الجائعات أطفالهن وأكلنهم (١٦٣٩)[٢٦] . وفى عام ١٦٣٤ ، فى رواية ربما بولغ فيها ، كان ربع سكان باريس يتسولون[٢٧] . وكان الفقراء ينتفضون فى فترات دورية وأوقات متفرقة انتفاضات قمعت فى غير رحمة .

واستخدم ريشليو الضرائب لبناء الجيوش والأسطول ؛ ذلك أن الحق فى رأيه لا يجد أذنا صاغية إلا إذا تكلم بالمدفع . ولما اشترى منصب الأميرال الأكبر ، قام بواجباته بعزيمة ماضية . فأصلح الموانئ وحصنها ، وأنشأ الترسانات ومخازن الذخيرة فى الثغور ، وبنى خمسا وثمانين سفينة ، وأسس مدارس لمرشدى السفن . ودرب أفواج الجنود البحريين . وجند مائة فوج من المشاة ، وثلاثمائة جندى من الخيالة ؛ ورد النظام إلى الجيش. ولم يخفق إلا فى جهوده لاقصاء مومسات الجيش . وبفضل هذه القوات الحربية التى بث فيها الحياة من جديد تصدى لفوضى العلاقات الخارجية التى خلفتها وصاية مارى مديسى ، وعاد إلى سياسة هنرى الرابع ، ووجه كل قواته لهدف واحد — هو تحرير فرنسا من نطاق القوة الهابسبورجية

فى الأراضى المنخفضة والنمسا وإيطاليـــا وأسبانيا .

كانت مارى قد ألفت بين فرنسا وأسبانيا — أى أنها فى رأى ريشليو خضعت للعدو ، وأقصت أولئك الذين اعتمد هنرى الرابع على صداقتهم وهم الانجليز ، والهولنديون ، وبروتستنت ألمانيا . ورأى ريشليو بعين القائد الاستراتيجية اللماحة أن الممرات الفاتيلية التى تربط النمسا بإيطـــاليا الأسبانية هى المفتاح لقوة أسبانيا والامبراطورية الموحدة فى تبادل المؤن والجنود . وكافح اثنى عشر عاما للظفر بهذه الممرات ، وقد صرفته عن هذا الهدف وهزمته حروبه مع الهيجونوت والنبلاء، ولكنه استرد بالدبلوماسية أكثر كثيرا مما خسر فى الحرب . ذلك أنه اكتسب « فرانسوا اوكلبرك دوترمبليه » خادما أمينا ، وكان قد اتخذ اسم جوزف حين أصبح راهبا كبوشيا . وأوفد « الأب جوزف » فى كل مكان فى بعثات دبلوماسية شائكة فأداها بمهارة ، وبدأت فرنسا تزاوج بين الراهب الرمادى العباءة الذى لقبته « صاحب القداسة الرمادى » ، وبين ريشليو ذى العباءة الحمراء الذى لقبته « صاحب القداسة الأحمر » . أما وقد ظفر الكردينال بهذا المعين ، فإنه أقسم أنه « مثبت للعالم أن عصر أسبانيا فى سبيل الزوال ، وأن عصر فرنسا قد أقبل [٢٨] » .

فى عام ١٦٢٩ بدا أن الصراع الطويل فى ألمانيا أوشك أن ينتهى بنصر الامبراطور الهابسبورجى الكاثوليكى نصرا مؤزرا على الأمراء البروتستنت. ولكن ريشليو قلب الأوضاع قلبا كاملا بالمال . ذلك أنه أبرم مع جوستاف أدولف (١٦٣١) معاهدة نصت على أن يغزو ملك السويد المغوار ألمانيا وينقذ الدويلات البروتستنتية ، يعينه على ذلك مليون من الجنيهات تدفعها له فرنسا كل عام . وندد أنصار السلطة البابوية المطلقة فى فرنسا بالوزير خائنا لدينه ، أما هو فكان رده أن الحياد خيانة لفرنسا . فلما مات جوستاف وهو ظافر فى لتزن (١٦٣٢) واستسلم معظم الأمراء الألمـــان

للامبراطور، دخل ريشليو الحرب فعلا . وزاد الجيوش الفرنسية من ٠٠٠ر ١٢ فى عام ١٦٢١ إلى ٠٠٠ ر ١٥٠ فى عام ١٦٣٨ . وأعان الثورة التى قام بها القتلونيون فى أسبانيا، وبفضل دبلوماسيته سيطر على كوبلنتز ، وكولمار ، ومانهايم ؛ وبازل ؛ واستولى جنوده على اللورين وشقوا طريقهم عنوة مخترقين سافوا إلى ميلان قلب القوة الأسبانية فى شمال إيطاليا .

ثم دار الحظ دورته وبدا أن كل هذه الانتصارات لا معنى لها . ففى يوليو وأغسطس ١٦٣٦ عبرت قوة كبيرة من الجيوش الأسبانية والامبراطورية الأراضى المنخفضة ودخلت فرنسا ، واستولت على اكس — لا — شابل (آخن) وكوربى ، وزحفت على أميان ، واجتاحت أودية السوم والواز الخضراء . وكانت جيوش ريشليو بعيدة جدا ، وأصبح الطريق إلى باريس مفتوحا عديم الدفاع أمام العدو . واغتبطت الملكة الأم فى بروكسل ، والملكة فى سان جرمان ، وحزبها الموالى لأسبانيا فى فرنسا ، وراحوا يعدون الأيام لسقوط الكردينال المنتظر . وازدحمت الجماهير الغاضبة فى باريس فى الشوارع منادية بموته — ولكن حين طلع عليهم بادى الهدوء فوق جواده المهيب ، لم يجرؤ أحد منهم على أن يمسه ، وابتهل الكثيرون لله أن يمنحه القوة لانقاذ فرنسا . وهنا لم تتضح شجاعته فحسب ، بل بعد نظره واجتهاده ؛ ذلك أنه كان قد نظم منذ أمد بعيد مواطنى باريس فى ميليشيا احتياطية ، واختزن السلاح والمؤونة لهم ، ومن ثم فقد نفخ الآن فيهم روح الحماسة فاستجابوا لندائه ، وأقر برلمان باريس والمجالس البلدية والنقابات الحرفية المال اللازم ، ولم تمض أيام حتى كان جيش جديد فى طريقه إلى القتال ، فحاصر كوربى . وتلكأ جاستون أورليان المتولى قيادة الجيش ، فحضر ريشليو ، وتولى القيادة ، وأمر بالهجوم . وفى ١٤ نوفمبر سقطت كوربى ، وتقهقرت الجيوش الهابسبورجية إلى الأراضى المنخفضة .

وفى عام ١٦٣٨ استولى برنارد ، أمير ساكسى — فيمار الذى قاد جيشا ألمانيا يموله ريشليو ، على ألزاس ، فلما مات بعد سنة أوصى بهـا

لفرنسا ، وأصبحت الرأس ولوثرينجن الالزاس واللورين ، وبدأت تتحول فرنسية . وفى عام ١٦٤٠ سقطت أراس . وفى عام ١٦٤٢ استولت قوة يقودها الملك والكردينال على بربنيان ، واقتطع إقليم روسيون المحيط بها من أسبانيا . وهكذا بدا ريشليو الآن فى كل مكان المنظم للنصر .

على أن النبلاء الذين ظلوا على خصومتهم ، والحزب الأسبانى فى البلاط ، والنساء النبيلات المغرقات فى الدس ، كل أولئك بذلوا آخر محاولة لأسقاط الوزير عن كرسيه . ففى سنة ١٦٣٢ مات المركيز إفيا بعد أن خدم الكردينال طويلا فى الدبلوماسية والحرب تاركا أرملة وغلاما وسيما فى الثانية عشرة من عمره يدعى هنرى كوافييه درووريه ، مركيز سانك — مارس . وبسط ريشليو حمايته على الصبى وقدمه للملك ، ولعله رأى بهذه اللعبة أن يصرف لويس عن الآنسة أوتفور التى كانت واحدة من « الدساسات » . وهذا ما حدث . فقد افتتن الملك بحسن الغلام وظرفه ووقاحته ، وعينه مشرفا على خيول الملك ورجاه أن يشارك الملك فى فراشه (٢٩) . ولكن سانك — مارس ، الذى نضج الآن إذ بلغ الحادية والعشرين ، آثر المحظية الحسناء ماريون ديلورم ، ومارى دجونزاج المتعاليه ، ملكة بولندة المستقبلة ، التى كانت الآن من أجمل خصوم الكردينال . ولعل الشاب ألح على لويس أن يدخله عضوا فى مجلس الملك ويجعله قائدا فى الجيش بإيعاز منها وإثارة من خلواتها الاستراتيجية. فلما لم يرض ريشليو عن هذه المقترحات التمس سانك — مارس من الملك أن يطرد وزيره . ورفض الملك ، فانضم الفتى إلى جاستون أورليان ودوق بويون وغيرهما فى مؤامرة لتسليم سيدان إلى الجيش الأسبانى ، واتفق على أن يدخل المتآمرون باريس وهذا الجيش من خلفهم ويعتقلوا الملك ، وتعهد جاستون بان يدبر اغتيال الكردينال فى طريقه إلى بربنيان . والتمس جاك أوجست دتو ، صديق سانك — مارس ، تعاون الملكة . ولكن آن النمسوية التى توقعت موت لويس القريب ووصولها إلى السلطة بوصفها

وصية أرسلت إلى ريشليو إشارة خفية بالمؤامرة : وتظاهر هذا بأن لديه نسخة من الاتفاق مع أسبانيا ، فصدقه جاستون واعترف ، ثم دل على شركائه كما هي العادة . وقبض على سانك — مارس، ودتو ، وبويون . وأيد بويون اعتراف حاستون ثمنا للعفو عنه . وحوكم الـابان أمام محكمة فى ليون ، فدينا بالاجماع ، وشرفا خيانتهما بموت رابط الجأش . وهرع الملك إلى باريس ليحمى قوته . أما ريشيليو ، المريض مرضا مميتا ، فقد حمل على محفة مخترقا بلدا يموت من الانتصـــارات ويصرخ طلبا للسلام .

٦ — رثاء

أى رجل كان هذا الكردينال الذى لم يكد يكون مسيحيا ، هذا الرجل. الـظيم الذى شعر أنه ليس فى وسعه أن يكون إنسانا طيبا ؟ لقد أسلمه فليب دشامبان إلى الأجيال التالية فى لوحة من أشهر اللوحات فى اللوفر . قوام فارع تنقذه أثوابه من مظهر السخف ، تخلع عليه السلطة عباءة وقبعة حمراوين ، يقف كأنه فى مرافعة قانونيه ، يعلن عن نبالته بقسماته الواسحة المحددة ويديه الرقيقتين،ويتحدى أعداءه بعينيه الحادتين ،ولكنه شاحب بفعل السنين المضنية ، محزون بوعيه بالزمن الذى لا يرحم . هنا دنيوية الـلطان يعارضها نسك التكريس .

كان عليه أن يكون قويا ليمنع عيوبه من أن تهزم مراميه . بدأ سيرته فى البلاط يتواضع متملق ، انتقم له بعد حين بكبرياء لا تعترف بغير سيد واحد دون غيره . فبينما كانت الملكة ترووه ذات مرة ظل جالسا — وهو خروج على الأدب لا يؤذن به إلا للملك . كان (كأكثرنا) مغرورا بمظهره ، شرها للألقاب ، كارها للنقـــد ، تواقا إلى الشعبية . كان يغــار من كورنيي ، فاشتهى أن يشتهر

هو أيضا كاتبا مسرحيا وشاعرا ، وقد كتب فعلا النثر الرائع كما تشهد بذلك مذكراته . وقد وفق فى غير تردد — كما وفق ولزى — بين اتباع المسيح ، والاهتمام الحذر بشيطان المال . رفض الرشا ولم يتقاض راتبا ، ولكنه استولى على دخل الكثير من الرتب الكنسية ، زاعما أنه فى حاجة إلى تمويل سياساته . وشيد لنفسه كما فعل ولزى قصرا بلغ من فخامته أنه رأى من الحكمة قبل موته أن يهديه إلى ولى العهد ؛ وهكذا أصبح الباليه كردينال الباليه رويال ؛ ولنا أن نفترض أنه مبنى للموظفين الإداريين وللمظهر الدبلوماسى أكثر من الترف الشخصى . لم يكن بخيلا ، وقد أثرى أقرباءه ، وكان فى وسعه أن يسخو بمال الدولة . وأوصى بنصف ثروته للملك ، ونصحه بأن يستعمله « فى الظروف التى لا تحتمل بطء الإجراءات المالية[٣٠] » .

أما ما يبدو لنا قسوة شديدة فيه فكان فى رأيه ضرورة من ضرورات الحكم ، فمن القضايا المسلمة عنده أن الناس — والدول بالتأكيد — لا يمكن أن يساسوا باللطف ، بل لا بد من تخويفهم بالصرامة . إنه أحب فرنسا ، ولكن الفرنسيين لم يبعثوا فيه حرارة الحب . وقد وافق كوزيمو دى مديتشى على أن الدولة لا يمكن حكمها بالصلوات الربانية ، ووافق مكيافللى على أن أخلاقيات المسيح لا يمكن اتباعها بأمان فى حكم الأمة أو صيانتها . كتب يقول « ان المسيح لا يسعه الإبطاء فى العفو عن الإساءة ، ولكن الحاكم لا يسعه الإبطاء فى عقابها إذا كانت جريمة ضد الدولة . . . . ولا بقاء للدول بغير هذه الفضيلة (فضيلة الصرامة) التى تصبح شفقة بقدر ما يمنع عقاب مجرم واحد ألف مجرم من نسيانه[٣١] » . وريشليو هو الذى روج عبارة « مبرر الدولة » ، أى أن القانون الأخلاقى يجب أن يخضع لمبررات الدولة[٣٢] . ويبدو أنه لم يخامره قط شك فى أن سياساته هى واحتياجات فرنسا شىء واحد ، ومن ثم اضطهد أعداءه الشخصيين بنفس الحزم الذى عاقب به أعداء الملك .

على أنه كان داخل قلعته وجبهته الدبلوماسية إنسانا ، يهفو إلى الصداقة ،

ويحس عزلة العظماء ووحشتهم . ويريدنا كتاب تالمان « أقاصيص » المملوء بالقيل والقال أن نصدق أن ريشليو حاول أن يجعل من مارى مديسى خليلة له ، وكانت تكبره بعشرين عاما(٣٣) ؛ ولكن هذا بعيد الاحتمال . وهناك أساطير أخرى عن علاقات الكردينال الغرامية السريه ، حتى مع نينون دلانكلو ؛ وما كان لينتهك عرف العصر أن يعزى رجل السياسة المرهق نفسه ببعض الانحرافات . بيد أن كل ما نعرفه عن عواطفه معرفة واضحة هو أنه كان شديد التعلق بابنة أخته مارى — مادلين دكومباليه. فقد أرادت أن تدخل ديرا بعد أن ترملت عقب زواجها ، ولكن ريشليو أقنع البابا بمنع هذا ؛ وأبقاها قريبة منه لتدير بيته ، واستجابت بالاخلاص له اخلاصا أشد حرارة من أكثر العلاقات الغرامية . وكانت تلبس لباس الراهبة وتخفى شعرها . وسلك ريشليو منها مسلك اللياقة الواجبة كله ، ولكن الملكتين رفضتا تبرئتها لفقدان الأدلة الكافية على إدانتها ، وسبقتا غيرهما إلى حديث الشائعات الذى أضاف وخزة لديدة لقصة الكردينال . إنه لم يحب « رجلا ، ولا امرأة أيضاً » وقد ثار كلاهما منه .

أما ما كان يملكه فوق كل شيء فهو الارادة . وقليل من الناس فى التاريخ كله من اجتمعت لهم هذه الوحدة فى الهدف ، وهذا المضاء والثبات فى السعى إليه ؛ وما كان لقوانين الحركة أن تكون أكثر ثباتا . ولا بد أن نعجب باخلاصة لواجباته ، وإفنائه نفسه فيها طول سنين من الجهد وليالى حرم فيها النوم . وقد كرس هذه الجهود لأولئك الذين يسر لهم النوم دون مخاوف مستظلين برعايته الساهرة . ولا بد أن نعترف له بالشجاعة الفائقة التى تصدت للنبلاء الأقوياء والنساء الدساسات ، وقاومتهم وصدتهم ، وقضت عليهم فى غير خوف ولا رهبة وسط المؤامرات المتكررة على حياته . وقد غامر برأسه المرة بعد المرة بسبب نتائج سياساته .

وقلما كان يشعر بالعافية . فقد عرضته الحمى التى ابتلته بها مستنقعات بيراتو لصداع متكرر كان أحيانا يلازمه أياما بطولها . ولعل جهازه العصبى

كان ضعيفا بالوراثة . أو مضرورا بالخلقة ، فقد كانت إحدى شقيقاته ضعيفة العقل ، وأحد إخوته مجنونا بعض الوقت ، وأرجفت شائعات القصر أن الكردينال ذاته تعتريه نوبات من الصرع وهلوسات جنونية[٣٤] . وكان يعانى من البواسير ، والبثور ، ومرض المثانة ؛ وكانت أزماته السياسية تزداد تعقدا أحيانا بحصر البول كما كان الشأن مع نابليون[٣٥] . وقد حملته علته على التفكير غير مرة فى الاعتزال ، ولكنه وهو حبيس إرادته كان يأخذ الزمام ثانية ويواصل النضال .

ولسنا نستطيع أن ننصفه إلا إذا نظرنا إليه فى مجموعه ، بما فيه من ملامح تتخذ شكلها ونحن ماضون فى الرؤية . لقد كان رائدا للتسامح الدينى ، رجلا واسع الثقافة حساسها ، ذواقة للموسيقى ، وجماعا خبيرا للفنون ، وعاشقا للدراما والشعر ، وصديقا معينا لرجال الأدب ، ومؤسسا للأكاديمية الفرنسية . ولكن التاريخ يذكر فيه بحق أولا وقبل كل شىء الرجل الذى حرر فرنسا من تلك السيطرة الأسبانية التى نجمت عن الحروب الدينية والتى جعلت من فرنسا ، بمقتضى الحلف ، دولة تتلقى من أسبانيا معاشا ، بل تكاد تكون تابعة لها . انه حقق ما كان فرنسيس الأول وهنرى الرابع يصبوان طويلا إليه وما أخفقا فى تحقيقه ، فقد كسر « النطاق الخانق » الذى طوقت به دولتا الهابسبورج فرنسا . ولا بد أن تفصل الصفحات التالية تلك الاستراتيجية البعيدة النظر التى حسم بها حرب الثلاثين سنة ، وأنقذ البروتستنتية الألمانية باعتبارها حليف فرنسا الكاثوليكية ، ويسر لمازران أن يصوغ صلح وستفاليا البناء . أما لفرنسا ذاتها فقد خلق وحدة وقوة على حساب دكتاتورية واستبدادية ملكية ولدت الثورة حين حان وقتها . وإذا كان أول واجبات رجل الدولة أن يجعل شعبه سعيدا حرا ، فإن ريشليو كان شديد القصور فى تحقيق هذا الهدف . وقد أدانه الكردينال ريتز — وهو قاض ذكى ولكنه لم يتجرد من التحامل — لأنه « أرسى أشنع وأخطر طغيان استرق دولة ربما فى التاريخ كله[٣٦] » . ولو

سئل ريشليو فى هذا لربما أجاب بأن على رجل الدولة أن يأخذ فى الاعتبار سعادة وحرية الأجيال القادمة لا جيله فحسب ، وأن عليه أن يقوى وطنه ليحميه من الغزو أو السيطرة الأجنبية ، وأن له فى سبيل هذا الهدف أن يضحى بحق جيلا حاضرا من أجل أمن الأجيال التالية . وبهذا المعنى رأى فيه أوليفاريس ، غريم ريشليو الأسبانى ، « أقدر وزير فى العالم المسيحى فى الألف السنة الأخيرة (٢٧) » . ورأى فيه تشسترفيلد « أكفأ رجل دولة فى عصره وربما فى أى عصر آخر (٢٨) » .

وكانت عودته من نصره النهائى فى روسيون موكب الجنازة لرجل ما زال على قيد الحياة . استقل زروقاً من تاراسكون إلى ليون على الرون ، ومكث فى ليون حتى حوكم سانك — مارس ودتو وأعدما ، ثم اضطر لضعفه من ألم تسبب عن ناسور شرجى أن يذهب إلى باريس على محفة حملها أربعة وعشرون من حراسه ، واتسعت لسرير الرجل المحتضر ، ومائدة ، وكرسى ، وسكرتير يملى عليه أوامر للجيش ورسائل دبلوماسية . واستغرقت مسيرة الموت هذه ستة أسابيع ، وعلى طول الطريق احتشد الناس ليلقوا نظرة خاطفة على الرجل الذى لم يكن فى قدرتهم أن يعطوه الحب ، بل الخوف ، والاحترام ، والتبجيل ، بوصفه التجسيد المهيب للكنيسة والدولة جميعاً ، ونائب الله والملك . فلما بلغ باريس نقل إلى قصره دون أن يبرح محفته . وأرسل استقالته لمولاه الذى رفض قبولها . وحضر لويس إلى فراشه ، ومرضه ، وأطعمه ، وتساءل ماذا عساه يفعل إذا توقفت هذه الإرادة المتجسدة عن الحياة . أما كاهن اعتراف الكردينال فقد سأله بعد أن ناوله القربان الأخير هل غفر لأعدائه ، فأجاب بأنه لم يكن له قط أعداء إلا أعداء فرنسا . وبعد يوم من الغيبوبة مات فى ٤ ديسمبر ١٦٤٢ ، وهو فى السابعة والخمسين . وأمر الملك بأسبوع كامل من مراسم الحداد ، وموت صفوف المشاهدين بجثمانه طوال يوم ونصف . ولكن الناس فى كثير من الأقاليم أشعلوا نيران الفرح شكراً لله على موت الكردينال الحديدى (٢٩)

واستمر يحكم فرنسا حينا . وذلك أنه أوصى بجوليو مازارينى خلفا له فى الوزارة ، ووافق لويس . وقد ترك عشرة مجلدات من المذكرات ، مسجلا فيها أعمال الدولة كأنها ليست أعماله بل أعمـــال الملك . وكان فى سنواته الأخيرة قد أهدى لويس « ميثاقاً سياسياً » « يصلح بعد موتى لإدارة مملكتك وسياستها . » هنا ، وسط بعض الملاحظات التافهة نجد قواعد دقيقة بليغة للحكم ، صيغت فى أسلوب يضارع أى أسلوب فى زمانه . إنه ينصح الملك بأن يجتنب الحرب ، باعتبارها شيئاً لا يصلح له جلالته بطبعه. « إن مصالحة عشرة أعداء أجدى وأدعى للفخر من القضاء على عـــدو واحد[٤٠] » ثم أسر إليه أن الفرنسيين قوم لم يخلقوا للحرب ، ففى بدايتها يكونون الشجاعة كلها والحماسة كلها ، ولكن يعوزهم الصـــبر ورباطة الجأش انتظاراً للحظة المواتية ، وبمضى الوقت « يفقدون الاهتمام ، ويغدون أضعف حتى من النساء[٤١] » . ويجب أن يكون للملك ، كالقائد ، شجاعة الرجال القادرة على مقاومة الميول العاطفية ، وعليه ألا يعطى النساء كلمة فى الحكومة ، لأنهن يتبعن نزواتهن وأهواءهن أكثر مما يستمعن لصوت العقل[٤٢] . على أن « الفكر » فى المرأة لا يناسبها « لأنى لم أر فى حياتى امرأة عالمة لم يفسدها علمها[٤٣] » . والنساء لا يستطعن كتمان السر ، « والكتمان روح السياسة[٤٤] » ، ورجل الدولة الحصيف قليل الكلام كثير الإصغاء[٤٥] » . وهو يحذر أن يسىء بكلمة غافلة ؛ وهو لا يتكلم بشر عن أحد إلا إذا اقتضى ذلك صالح الدولة[٤٦] . ومن واجب الملك أن يكون لديه معلومات عامة عن تاريخ جميع الدول ونظامها ، لا سيما دولته[٤٧] . » ثم يرجو المؤلف شيئاً من التفهم لوزارته وخلقه « إن عظماء الرجال الذين يعينون لحكم الدول أشبه بالمحكوم عليهم بالتعذيب ، مع فارق واحد ، هو أن هؤلاء يتلقون العقاب على سيئاتهم ، أما أولئك فعلى حسناتهم[٤٨] » .

وعاش الملك خمسة أشهر بعد موته . وقد ذكر الناس حـــكم لويس

القصير شاكرين ، لأنه أطلق السجناء السياسيين ، وسمح بعودة المنفيين ، وأتاح لفرنسا أن تتنفس . وكان يشكو من أن الكردينال لم يدعه يتصرف كما يشاء . كانت أمة قد ماتت قبل ريشليو ببضعة شهور ، فأمر بجلب جثمانها من كولونيا واحتفل بدفنها رسمياً ، وفى لحظاته الأخيرة توسل أن يغفر الله والناس له الخشونة التى عاملها بها .

ورأى نفسه يتهاوى ، ولكنه اغتبط بما كان عليه ولده البالغ من العمر أربعة سنين من عافية ووسامة . سأله معابثا « ما اسمك ؟ » فأجاب الصبى « لويس الرابع عشر » فقال الملك مبتسماً « ليس بعد يا بنى ، ليس بعد » . وأمر بطانته بقبول وصاية الملكة حتى يبلغ ابنه سن الرشد . ولما أخبروه أن قد حانت منيته قال « إذن فأنا راض من كل قلبى يا إلهى[٤٩] » ومات فى ١٤ مايو ١٦٤٣ وقد بلغ الحادية والأربعين . قال تالمان « ذهب الناس إلى مأتمه كأنهم يذهبون إلى حفل زفاف ، وظهروا أمام الملكة كأنهم فى مباراة رياضية[٥٠] » . وكان الكردينال الرهيب قد أعد كل شىء لمجىء « الملك العظيم » و « القرن العظيم » .

الفصل السادس عشر

فرنسا إبان الحروب

١٥٥٩ — ١٦٤٣

١ - الأخلاق

بدأ الدين ، الذى اتخذت ألوانه ذرائع كاذبة لحروب كثيرة ، يعانى من تسخيره فى السياسة ؛ وازداد المتشككون فى قداسة عقائد تحاج بالمباراة فى سفك الدماء ؛ وبدأت فى الطبقات العليا الشكوك حول الآداب المسيحية تختلط بالتشكك فى العقيدة . وكان من علامات الزمن أن يبين قسيس تقى مثل بيير شارون جدارة الغريزة الجنسية وجهازها المضحك بالاحترام[1].

أما الفلاحون فقد احتفظوا بإيمانهم ، وقدسوا الناموس المسيحى حتى وهم ينتهكونه ؛ لقد يقتلون بعضهم بعضاً فى غضبة عابرة ، وقد ينحرفون عن سنة الزواج بواحدة إذا واتتهم الفرصة ونامت أعين الرقباء ، ولكنهم فيما عدا ذلك يحيون حياة مهذبة إلى حد محتمل ، ويستمعون إلى القداس بانتظام ، ويتناولون جسد المسيح ودمه مرة فى العام على الأقل . وأما الطبقات الوسطى — سواء من الكاثوليك أو الهيجونوت — فقد ضربت خير مثال للفضيلة المسيحية . كان أفرادها يحتشمون فى لباسهم ، ولا يتزوجون غير مرة واحدة ، ويهتمون بأعمالهم وأطفالهم ، ويختلفون إلى الكنيسة ، ويعطون الدولة كهنتها وأطباءها ومحاميها وقضاتها واستقرارها . وكان هناك نساء مثاليات حتى فى الطبقة الارستقراطية ، وقد وصف شارل التاسع امرأته اليزابيث النمسوية بأنها أكثر نساء العالم فضيلة ؛ ولكن يمكن القول عموماً إن العلاقات الغرامية فى الطبقات ذات الفراغ فى العاصمة ، وفى الصناع المهرة فى المدن ، أخذ زمامها يفلت . كان عصر حوافز

جسدية لاخفاء فيها . وقد بقى أثر من الحب الأفلاطونى ، الذى تسلى به بيمبو وكاستليونى فى ليا ، ومرجريت نافار فى فرنسا ، فى ندوة مدام درامبوييه (وهى ذاتها إيطالية) ، ولكنه كان فى أكثره حيلة نسائية ، ومقاومة فى العمق لإضفاء المجد على القلعة .

كانت كاترين مديتى — على قدر علمنا — زوجة مخلصة وأما شديدة الاهتمام بأبنائها ، ولكن الشائعات اتهمتها بتدريب النساء الجميلات على إغراء أعدائها حتى يخضعوا[٢] ، وقد وصفت جان دالبير (وفيها بعض خلق المتحشمات) بلاط كاترين بأنه « أفسد المجتمعات قاطبة وألعنها[٣] » . وكان برانتوم مروجا للفضائح ، ولكن شهادته يجب أن تدخل الصورة : « أما نساؤنا الفرنسيات الجميلات . . . . فقد تعلمن فى السنين الخمسين الأخيرة قدراً كبيراً من اللطف والرقة ، وكثيراً من الجاذبية والفتنة فى ملبسهن ، وفى نظراتهن الجميلة وأساليبهن الفاجرة . . . بحيث لا يستطيع أحد الآن أن ينكر تفوقهن على جميع النساء من كل وجه . . . ثم إن لغة الحب اللعوب هى فى فرنسا أشد خلاعة وأكثر إثارة وأحلى منطقاً مما هى فى اللغات الأخرى . وفوق هذا كله ، فإن هذه الحرية المدركة التى أتيحت لنا فى فرنسا . . . تجعل نساءنا مرغوبات ، ساحرات ، لينات ، طيعات أكثر من جميع النساء ، يضاف إلى هذا أن الزنى لا يلقى عموماً من العقاب ما يلقاه فى أقطار أخرى . . . وباختصار فإن ممارسة العشق فى فرنسا شىء لطيف[٤] » .

وقد ضرب الملوك المثل فى الخلق الفاشى فى المجتمع. فقد مات فرنسيس الثانى قبل أوانه بسبب شهواته . وكان لشارل التاسع محظيته مارى توشيه . وانتقل هنرى الثالث من الغانيات إلى المرد . أما هنرى الرابع فثبت على عشق المرأة . ويبدو أنه لا هو ولا خليلته جابرييل دستريه اعترضا على تصويرها عارية حتى خصرها[٥]. ولما تزوجت ابنته هنريتا ماريا الفرنسية البالغة سبعة عشر ربيعاً ، من تشارلز الأول ،بلغت اتصالاتها الغرامية من

الكثرة مبلغاً حمل كاهن اعترافها على أن ينصحها بأن تتخذ المجدلية مثالا لها ، والمجلترة كفارة عن ذنوبها(٦) .

ولكن حتى مع هذه الأوضاع كان لطف النساء ولين جانبهن متخلفاً عن نهم الرجال ، وجهدت المومسات لإشباع الطلب المتزايد عليهن . وقد عرفت باريس منهن ثلاثة أنواع : « العنزة المصففة الشعر » للبلاط ، و « الطير الصداح » للبورجوازية ، و « الحجرية » التى تسد مطلب الفقراء وتسكن بدروما من الحجر . وكان هناك غانيات متعلمات لرجال الطبقة الارستقراطية ، مثل ماريون ديلورم ، التى اعترفت عشر مرات وهى تحتضر ، لأنها بعد كل حل ذكرت نفسها بخطايا لا حصر لها(٧) . وقد أصدر شارل التاسع وهنرى الثالث مراسيم بحظر المواخير ، ونص أمر أصدره لويس الثالث عشر (١٦٣٥) على أن كل بغى تضبط يجب أن « تضرب بالسوط ويجز شعرها وتنفى » وأن كل الرجال المشتركين فى هذه التجارة يجب أن يرسلوا إلى سفن تشغيل المجرمين مدى الحياة(٨) . واحتج عدة رجال ، ومنهم مونتينى وقسيس هيجونوتى ، على مثل هذه الإجراءات وطالبوا بإجازة المواخير صيانة للأخلاق العامة(٩) . وظلت هذه القوانين فى السجلات القانونية حتى أواخر القرن الثامن عشر ، ولكنها لم تكن تطبق إلا نادراً . وحاولت قوانين أخرى عبثاً أن تقضى على انحرافات الطبيعة ونزواتها ويروى مونتينى قصة فتاة تحولت رجلا فى الثانية والعشرين .(١٠) ووجد الأدب الفاحش سوقاً رائجة ، وعرضت نوافذ حوانيت المطابع صوراً فاجرة دون أن تلقى أى تدخل مما نعرفه اليوم .

وعانت الفضيلة الاجتماعية والسياسية من الحروب . وتوسع فى بيع الوظائف العامة حتى أوشك أن يكون رشوة شاملة . وكانت الإدارة المالية قبل أن يطهرها صلى فاسدة إلى حد الفوضى(١١) . ولم تكن الحرب تدمر تدميراً أعمى كما أصبحت بعد قليل فى عهد لويس الرابع عشر ، ومع ذلك نسمع بجيوش ، من الهيجونوت والكاثوليك على السواء ، تشتبك فى جرائم بالجملة من قتل ونهب واغتصاب وتعليق للمواطنين من أباهمهم أو اشعال

للنار تحت أقدامهم لانتزاع الذهب الذى يخفونه . وزاد انتشار المبارزة فى القرن السادس عشر ، ربما لأن السيف أصبح جزءا مألوفا من ملبس الرجال . وقد حرمها شارل التاسع بحض ميشيل لوبيتال ، ولكنها كادت تصبح وباء متفشيا فى عهد هنرى الثالث ، وكان ينتظر أن يشتبك الشاهدان كما يشتبك الخصمان الرئيسيان ؛ يقول مونتينى إن المبارزات غدت الآن معارك . واختلف مرسوم ريشليو الذى حرم المبارزة عما سبقه فى أنه نفذ تنفيذا صارما لا تحيز فيه . ولكن العادة انتعشت بعد موته .

وكانت الجريمة مألوفة . وكان أكثر باريس لا يضاء ليلا ؛ وأفرخت السرقة والقتل ، وأشاعت المشاجرات العنيفة الفوضى فى الشوارع ، وكان السفر فى الريف خطرا يهدد الحياة والأوصال . أما العقوبات فوحشية ، ولسنا على ثقة من أنها كانت معوقات ناجعة للجريمة ، ولكن لعل الجريمة كانت بدونها تستشرى . وأما السجن فكان لطيفا للسادة ، ففى استطاعة النبلاء نزلاء الباستيل أن يدفعوا ثمنا لمساكن مريحة تفرش بأثاثهم وتنزلها نساؤهم . أما عامة المجرمين فقد يزج بهم فى زنزانات خانقة أو يرحلون إلى المستعمرات أو يحكم بتشغيلهم فى سفن العبيد والمجرمين . وترجع آثار هذه العقوبة إلى عام ١٥٣٢ ، ولكن أول تشريع لها فى القانون الفرنسى يرجع إلى عام ١٥٦١ . وكان يحكم على نزلاء هذه السفن عادة بعشر سنين ، وتدمغ ظهورهم بالحروف الثلاثة الأولى لمجرمى السفن « جال » . وكانوا فى الشتاء يمكثون فى سفنهم حبيسين أو يحشرون كالأنعام فى السجون لاسيما فى طولون أو مارسيليا . وفى أثناء الحروب الدينية حكم على كثير من الهيجونوت الأسرى بالسجن فى هذه السفن ، وهناك يلقون من المعاملة الوحشية ما يحلو أمامه الموت . وتفجرت أوبئة الانتحار فى تلك السنين المرة ، وعلى الأخص بين نساء ليون ومارسيليا .

٢ — آداب السلوك

تحسنت آداب السلوك بينما انحطت الأخلاق . فقد جلبت كاترين دى

مديتشى معها الأدب الإيطالى ، واحساسا بالجمال ، وولعابالأناقة،ورهافة فى الأثاث والملبس . وكان من رأى برانتوم أن بلاطها أروع بلاط وجد، « فردوس أرضى حقيقى » يتألق « بثلاثمائة سيدة وآنسة على الأقل » (١٢) مرتديات أغلى الثياب وأفخرها . وأزاحت مراسم البلاط الفرنسى التى أرساها فرنسيس الأول المراسم الإيطالية من مكان الصدارة والقدوة لأوربا . وأنشأ هنرى الثالث منصب المدير الأكبر للمراسم الفرنسية ، وأصدر مرسوما يفصل مراسم السلوك فى البلاط وبروتوكوله ، ويحدد الأشخاص الذين يسمح بمثولهم بين يدى الملك ، وطريقة مخاطبته ، وخدمته فى يقظته وزينته ، وطعامه ، ونومه ، ومن يرافقه فى نزهته أو صيده ، ومن يحضر مراقص البلاط . وقد أصر هنرى الثالث ، الخجول النيق ، على هذه القواعد ، وانتهكها هنرى الرابع فى غير تحرج ، وتجاهلها لويس الثالث عشر ، وتوسع فيها لويس الرابع عشر حتى أصبحت طقوسا تنافس القداس المطول .

أما ملابس القصر فقد ازدادت غلاء وزخرفا . فقد ارتدى المرشال باسومبيير سترة قماشها من الذهب أثقلتها لآلىء تزن خمسين رطلا وثمنها أربعة عشر ألف إيكو (١٣) . ولبست مارى مديسى فى حفل عماد ولدها عباءة مرصعة بثلاثة آلاف ماسة واثنين وثلاثين ألف حجر كريم آخر (١٤) . وكان الرجل من رجال البلاط يعد نفسه فقيرا ما لم يملك خمسا وعشرين سترة من مختلف الطرز . وتعددت القوانين المقيدة للانفاق على الطعام والكساء ولكنها سرعان ما كانت تهمل . فحظر قانون منها أصدره هنرى الرابع « على جميع سكان هذه المملكة أن يلبسوا الذهب أو الفضة على ثيابهم ، إلا البغايا واللصوص (١٥) » . ولكن حتى هذا الربط الذكى كان عديم الجدوى . وشكا الوعاظ من المجازفة المبيته التى أقدمت عليها السيدات حين لم يسترن ما استدار من أعضائهن إلا بمقدار . ويزعم مونتينى ، الذى لم يكن كثير الوقوع فى خطيئة خداع النفس بالأوهام ، « أن سيداتنا

(وإن كن أنيقات رقيقات) يرين مرارا مكشوفات الصدر حتى السرة[١٦]».
ورغبة فى تأكيد بياض البشرة أو حمرة الخدود ، بدأت النساء فى القرن السابع عشر تزيينها ببقع أو رقع سماها أصحاب الأمزجة غير الشعرية « الموش » أو الذباب . وقسين مشداتهن بعظم الحوت وفردن تنانيرهن المطوقة بالسلك . ورفعن شعورهن فى العديد من الأشكال المغرية أما الرجال فأطلقوا شعورهم المجعدة طويلة مرسلة،وتوجوا رءوسهم بقبعات عريضة يزينها ريش مرح . وأفشى لويس الثالث عشر بدعة الشعر المستعار لما أصابه من صلع مبكر . وهكذا تبارى الجنسان فى غرور المظهر وخيلائه .

ولم تمنعهم آدابهم من تناول الطعام بأصابعهم . ولم تحل الشوك محل الأصابع ، حتى بين النبلاء ، إلا عام ١٦٠٠،وليس قبل عام ١٧٠٠ تقريبا فى غيرهم من الطبقات . وقد حقق مطعم عصرى يدعو لاتور دراجن الشهرة بتقديمه الشوك لزبائنه ، وكان هنرى الثالث يتغذى فيه وهو عائد من صيده ، وكان الفرنسيون يأكلون الضفادع والقواقع فى القرن السابع عشر . أما شرابهم المفضل فهو النبيذ . وقد بدأوا يستعملون القهوة ولكنها لم تكن بعد شرابا لا غنى عنه . وكان الكاكاو قد دخل فرنسا من المكسيك بطريق أسبانيا،وذمه بعض الأطباء زاعمين أنه ملين فى وقت غير مناسب ، ووصفه غيرهم دواء للأمراض التناسلية ، وروت مدام دسيفيني أن سيدة حاملا أسرفت فى شربه إسرافا جعلها تلد « ولدا صغيرا أسود كالشيطان » [١٧] .

وانعكس التحسن فى آداب السلوك على وسائل الانتقال والترفيه . فشاع الآن استخدام المركبات العامة فى غرب أوربا ، وبدأ الميسورون من الفرنسيين يسافرون فى عربات فخمة مجهزة بالستائر والزجاج . وفشت لعبة التنس ، وأولعت كل الطبقات بالرقص . ودخلت رقصة البافان من أسبانيا ، وقد اشتقت اسمها من كلمة « بافو » الأسبانية ومعناها الطاووس،

وأضفت عليها حركاتها الرشيقة المتعالية نزعة ارستقراطية ، وأعان التقبيل الذى كان جزءا منها على إثارة الدم فى العروق ، وفى عهد كاترين مديتشى أصبح البالية قمة أسباب الترفيه فى البلاط ، إذ جمع بين الموسيقى والرقص ليقص قصة بالشعر أو الإيماء (البانتوميم) ، وشاركت فيه أجمل نسائها ، فى ملابس ومشاهد صممت تصميما فنيا ، وقد أقيم حفل من حفلات الباليه هذه فى التويلرى غداة مذبحة القديس برتلميو .

وكان الموسيقيون أبطال الساعة العابرة . افتتن بهم الفرنسيون فتنة كبرى ، حتى أن رجلا من الحاشية كان يحضر حفلة موسيقية عام ١٥٨١ ضرب سيفه بيده وأقسم أنه متحد أول رجل يقابله للمبارزة ، وهنا قاد قائد الفرقة فرقته فى لحن رقيق هدأ من هياجه[١٨] . وظل العود الآلة المفضلة ، ولكن حدث فى عام ١٥٥٥ أن بلتازار دبوجوايو ، أول عازف كمان شهير فى التاريخ ، جلب فرقة من عازفى الكمان إلى بلاط كاترين وأشاع موسيقى الكمان . وفى عام ١٦٠٠ تبع أوتافيو رينوتشينى مارى مديسى إلى فرنسا ، وأدخل فيها فكرة الأوبرا . وكان الغناء لا يزال الموسيقى المفضلة ، وقد رأى الأب مرسين بحق أنه ليس فى الطبيعة صوت يضارع جمال صوت المرأة[١٩] .

واجتمعت الآن الموسيقى ، والأدب ، والسلوك المهذب ، والحديث المثقف — لتؤلف كلها إضافة من أهم الاضافات التى أغنت بها فرنسا الحضارة — وهى الصالون . وكانت إيطاليا ، الأم الراعية للفنون الحديثة ، قد مهدت له باللقاءات المهذبة ، كتلك المنسوبة لأوربينو فى كتاب كاستليونى « رجل البلاط » ، ومن إيطاليا انتقل الصالون إلى فرنسا — كما انتقل إليها الكمان ، والقصر الريفى (الشاتو) ، والباليه ، والأوبرا ، والزهرى . وقد ولدت مؤسسة الصالون بفرنسا فى روما (١٥٨٨) لجان دفيفون . السفير الفرنسى لدى البابا ، وجوليا سافيللى إحدى وريثات أورسينى . وتلقت كاترين دفيفون تعليما لم تألفه الفتيات فى القرن السادس

عشر . وحين بلغت الثانيه عشرة تزوجت من شارل دانجين ، وكان يشغل في عهد هنري الرابع ولويس الثالث عشر منصبا كبيرا بلقب المركيز رامبوييه . وشكت المركيزة الشابة من قصور لغة الحديث وآداب السلوك في فرنسا عنها في إيطاليا سلامة وتهذيبا ، ولاحظت في استنكار ذلك الفصل بين الطبقات المفكرة—من شعراءوأدباء وعلماء—وبين النبلاء .وفي عام ١٦١٨ صممت لأسرتها « الأوتيل درامبوييه » في شارع سان — توما — دلوفر بباريس . وفي غرفة منه علقت لوحات من المخمل الأزرق حواشيها من الفضة والذهب . في هذا « الصالون الأزرق » الفسيح استقبلت المركيزة ضيوفها في ما أصبح أشهر صالون في التاريخ . وقد حرصت على أن تدعو إليه رجالا ونساء ذوي آداب متجانسة وميول متنوعة : نبلاء مثل كونديه الكبير ولاروشفوكو ، وكنسيين مثل ريشليو وأويه ، وقوادا مثل مونتوسييه وباسومبيير ، وسيدات من ذوي النسب العريق كالأميرة كونتي ودوقتي لونجفيل وروهان ، وأديبات مثل مدام دلافاييت ومدام دسفني والآنسة دسكوديري ، وشعراء مثل ماليرب وشابلان وجي دبالزاك ، وعلماء مثل كونرار وفوجلا ، وظرفاء مثل فواتور وسكارون . هنا وعظ بوسويه عظة وهو في الثانية عشرة ، وقرأ كورنيي تمثيلياته . هنا تعلم النبلاء أن يهتموا باللغة والعلم والدرس والشعر والموسيقى والفن ؛ وتعلم الرجال من النساء آداب المجاملة ، وتعلم المؤلفون أن يخفوا غرورهم ، والفقهاء أن يهذبوا فقههم ، والتقى الظرفاء بذوي النسب ، وناقش القوم الكلام الصحيح واكتسبوه ، وأصبح الحديث فنا من الفنون .

وتناولت المركيزة هذه الأسد والنمر بلباقة قلمت مخالبها دون أن توجعها . ومع أنها ولدت سبعة أطفال ، إلا أنها احتفظت بجمالها فترة كفت لإلهام فولتير وماليرب العاطفة المشبوبة ، فكان الشاعران يلتهبان لكل ابتسامة، ولكنها برغم هذه النيران كانت محل احترام الجميع لوفائها لزوجها الخامل ؛ وبرغم ضعف صحتها ضربت لضيوفها المثل في البشاشة والذكاء المفعم بالحيوية ؛ وبرغم فقدانها ولدين اختطفهما الموت وثلاث بنات

اختطفهن الذين اسكتت حزنها حتى كتبت قبريتها . وفى جو من الإباحية الجنسية والحديث الجامح أشاعت من حولها جوا من الأدب واللياقة . وأصبحت « سلامة الذوق » جواز الدخول لصالونها . وكان القواد والشعراء يتركون سيوفهم ورماحهم فى البهو ، وخفف الأدب من حدة الخلافات ؛ وازدهر النقاش وأقصى الجدل العنيف .

وأخيرا أسرف القوم فى هذا التهذيب . لقد رسمت المركيزة قانونا يتوخى الدقة فى القول والفعل ، ولكن الذين طبقوه فى تزمت سموا « المتحذلقين » و « المتحذلقات » ، وفى عام ١٦٥٩ حين كانت المركيزة قد اعتزلت وأصبحت وحيدة ، انقض فولتير على هذه الرواسب الغريبة المتخلفة من فنها وقضى عليها بسخريته القضاء المبرم . ولكن حتى الاسراف كان له نفعه ، فهؤلاء « المتحذلقات » ساعدن على جلاء معنى الألفاظ والعبارات ومدلولها . وتنقية اللغة من الإقليمية ، والنحو الردىء ، والتقعر ؛ هنا بذرة الأكاديمية الفرنسية . وفى الأوتيل درامبوييه طور ماليرب وكونرار وفوجلا قواعد الذوق الأدبى التى أفضت إلى بوالو والعصر الكلاسيكى . وقد ساهمت « المتحذلقات » فى ذلك التحليل للعواطف الذى أطال الروايات الغرامية ، وفتن به ديكارت وسبينوزا ، وساعدن على توشية علاقات الجنسين باستراتيجية الانسحاب والتمنع ، وما يتبعهما من تصور الكتز الرواغ تصورا مثاليا ، مما أفضى إلى الحب الرومانسى . وبفضل هذا الصالون وما جاء بعده من صالونات أصبح التاريخ الفرنسى أكثر منه فى أى وقت مضى ثنائى الجنس . وارتفع مقام النساء ، وازداد أثرهن فى الأدب واللغة والسياسة والفن . وعظم احترام المعرفة والفكر ، وانتشر الاحساس بالجمال .

ولكن أكانت الصالونات والأكاديمية جاعلة رابليه مستحيلا ؟ أكانت موصدة العقل الفرنسى أمام فسيولوجية مونتينى المرحة ، وأخلاقياته السمحة ، وحذلقته المتزايدة ؟ أم كانت موجهه هذين العبقريين قسرا ورافعة إياهما إلى فن أكثر رهافة وعلوا ؟ .

ولكننا سرنا شوطا أبعد مما يجب . فحين فتحت مدام درامبوييه صالونها كان قد مضى على موت مونتيني ستة وعشرون عاما . فلنرجع فى مسيرتنا ونستمع ساعة إلى أعظم كاتب ومفكر فرنسى فى هذا الجيل .

٣ — ميشيل دمونتيني ١٥٣٣ — ٩٢

ا — تعليمه

وصف جوزف سكاليجر والد مونتيني بأنه بائع رنجة . ولكن هذا العالم الكبير قفز . لا ؛ ذلك أن الجد ، واسمه جريمون إيكيم ، هو الذى كان يصدر الأنبذة والأسماك المجففة من بوردو . وقد ورث هذه التجارة من جد ميشيل الأكبر ريمون إيكيم ، الذى جمع المال للأسرة بهذه الطريقة ، ثم اشترى (١٤٤٧) القصر والضيعة المعروفين باسم مونتيني على تل خارج المدينة . ووسع جريمون ميراثه بزواج حكيم . أما ابنه بيير إيكيم فقد فصل الحرب على الرنجة ، وانخرط فى الجيش الفرنسى ، وقاتل فى إيطاليا مع فرنسيس الأول ، وعاد بندوب وبآثار من النهضة ، وارتقى إلى منصب عمدة بوردو . وفى عام ١٥٢٨ تزوج أنطوانيت ، ابنة تاجر غنى من تولوز يهودى المولد ، مسيحى العماد ، أسبانى الثقافة . وولد ميشيل إيكيم ، الذى أصبح السيد الإقطاعى على مونتيني ، لبيير وانطوانيت ، وقد اختلط فى رأسه الدم الغسقونى واليهودى . ثم زاد أفقه اتساعاً أن أباه كان كاثوليكياً تقياً ، وأمه على الأرجح بروتستنتية ، وأخته وأخاه كالفنيين .

وكان لبيير آراء فى التعليم . يقول عنه ميشيل « إن هذا الأب الطيب أرسلنى حتى وأنا بعد فى المهد لأنشأ فى قرية فقيرة يمتلكها ، وأبقانى فيها طوال الرضاع وبعده بقليل ، لأتربى أفقر وأبسط تربية شائعة[٢٠] » . وبينما كان الصبى فى الحضانة عين له تابع ألمانى لم يكلمه بغير اللاتينية . « ناهزت السادسة وأنا لا أفهم من الفرنسية أكثر مما أفهم من العربية[٢١] »

فلما دخل كلية جيين كان أساتذته (فيما عدا جورج بوكانان) يكرهون التحدث إليه باللاتينية ، لأنه يتكلمها بطلاقة . وقد برز فيها إلى هذا الحد «دون كتب ، أو قواعد، أو نحو ، أو ضرب بالسياط ، أو أنين ونواح» .

ولعل الأب كان قد قرأ ما قاله رابليه في التعليم . فحاول أن ينشئ ولده على المبادئ التحررية ، مؤثرا الحب على القسر . واستطاب مونتيني هذا النظام وأوصى به في خطاب طويل عن التعليم[٢٢] ، صرح أنه كتبه إلى الليدي ديان دفوا ، ولكنه أنكره في مقال متأخر وأوصى بالعصا معينا مقنعا للمنطق[٢٣] . كذلك لم يحذ حذو أبيه في تفضيله اللاتينية أو الدراسات الكلاسيكية ومع أن ذاكرته كانت فياضة بالشواهد والمثل الكلاسيكية . إلا أنه استنكر الاقتصار على التعليم الكلاسيكي ، واحتقر التعلم من الكتب والمكبين على الكتب ، وآثر على هذا كله الاهتمام بتدريب الجسد لنيل الحكمة والفضيلة . «لسنا في حاجة إلا لقليل من التعليم لكي تكون لنا عقول سليمة[٢٤] » ، وقد نتعلم من مباراة في التنس أكثر مما نتعلم من خطاب لاذع ضد كاتلين . وينبغي أن يربى البدن على أن يكون جلدا شجاعا ، قادرا على تحمل الحر والبرد دون تذمر ، وعلى إساغة مخاطر الحياة التي لا مفر منها . كان مونتيني يستشهد بالكتاب الأثينيين ، ولكنه آثر طرق الأسبرطيين في العيش ؛ مثله الأعلى فضيلة رجولية ، تقريبا بالمعنى الروماني الذي جعل هذه العبارة نافلة — وأضاف إليه المثل الأعلى الإغريقي «لا إفراط» — الاعتدال في كل شيء ، حتى في الاعتدال ، فعلى المرء أن يشرب الخمر في اعتدال ، على أن يكون قادرا إن دعته المناسبة على الشرب الكثير دون أن يغيب عن وعيه .

وقد يكون السفر جزءاً هاماً من التعليم إذا تركنا أهواءنا وراءنا . «قيل لسقراط إن فلاناً لم يفده السفر مثقال ذرة ، فأجاب : أجل ، لأنه حمل نفسه معه في سفره»[٢٥] : فإذا استطعنا أن نفتح عقولنا وعيوننا وجدنا الدنيا خير كتاب نقرؤه ، لأن «الكثير جداً من الأمزجة الغريبة ،

والملل المتعددة . . . . والآراء المتنوعة ، والقوانين المختلفة ، والعادات الطريفة ، تعلمنا أن نصدر الحكم السليم على نظائرها عندنا [٢٦] » . ثم بعد السفر يأتى التاريخ أفضل معلم لنا ، وهو ليس إلا سفراً يمتد إلى الماضى . فالطالب «مستعيناً بكتب التاريخ يحيط بأفضل العقول فى خير العصور . . . فأى فائدة لا تجنيها . . . بقراءة « تراجم » بلوتارخ ؟ [٢٧] » وأخيراً يجدر بالطالب أن يتلقى بعض الفلسفة — لا « جدليات المنطق الشائكة » بل الفلسفة التى تعلمنا كيف نعيش . . . ومايجب معرفته وما لا يجب ، وما الشجاعه ، والاعتدال ، والعدل ؛ وأى فرق بين الطموح والجشع ، والرق والحرية ، وما العلامات التى يتبين الرجل بها القناعة الصادقة الكاملة ؛ وإلى أى حد يجب أن يخاف . . . الموت أو الألم أو العار . . . إن الطفل القادم من الحضانة أقدر على تلقى (هذه الدروس) من تعلم القراءة والكتابة [٢٨] » .

وبعد أن أنفق مونتينى سبع سنين فى كلية جيين دخل الجامعة ليدرس القانون . وما من شىء كان أقل من هذه الدراسة تجانساً مع عقله المستطرد وحديثه الواضح . فهو لا يمل من اطراء العادة وذم القانون . وقد لاحظ فى ابتهاج أن فرديناند الثانى ملك أسبانيا لم يبعث محامين إلى أمريكا الأسبانية مخافة أن يضاعفوا أسباب النزاع بين الهنود ، وتمنى لو أنه منع الأطباء أيضاً مخافة أن يخلقوا بعقاقيرهم أمراضاً جديدة [٢٩] . وعنـــده أن شر البلاد ما استكثر من القوانين ، وقدر أن بفرنسامنها « أكثر مما لدى بقية العالم » . ولم ير أى تقدم فى نزعة القانون الإنسانية ، وتساءل هل بين الهمج وحشية كتلك التى يمارسها القضاة ذوو العباءات، ورجال الكنيسة الحليقو الرءوس ، فى غرف التعذيب بالدول الأوروبية [٣٠]. وافتخر بأنه « حتى اليوم (١٥٧٨؟) أنا برىء من جميع الدعاوى القانونية [٣١] » .

ب — صداقته وزواجه

ومع ذلك نجده عام ١٥٥٧ مستشاراً فى محكمة الاعانات فى بيريجو ، وعام ١٥٦١ عضواً فى برلمان بوردو — وهو المحكمة البلدية . وهناك لقى

وأحب إتيين دلابويتى . وقد رأينا فى موضع آخر من هذا الكتاب أن هذا الاستقراطى الشاب كتب وهو بعـد فى الثامنة عشرة مقالا مشبوب العاطفة ولكنه لم ينشره ، واسمه « مقال عن الرق الاختيارى » ، وقد اشتهر باسم « كونتران » — أى ضد حكم الرجل الواحد . وقد دعا الشعب فيه بكل البلاغة التى أوتيها دانتون فيما بعد ، إلى الثورة على الحكم المطلق . ولعل مونتينى نفسه شعر ببعض الحماسة الجمهورية فى شبابه . على أى حال جذبه هذا المتمرد النبيل ، الذى بدا له — وكان يكبره بثلاث سنوات — آية فى الحكمة والنزاهة :

« لقد فتش الواحد منا عن صاحبه قبل أن يراه ، ومن الأخبار التى سمعها عنه . . . أظن أننا بأمر سرى من السماوات تعانقنا باسمينا . وعند أول لقاء لنا ، وكان بالصدفة فى وليمة كبيرة واجتماع مهيب لمدينة بأسرها ، وجدنا نفسينا مندهشين ، متعارفين ، . . . مرتبطين ، بحيث أن شيئاً من الأشياء لم يقترب منا بعد ذلك اقتراب كل منا من صاحبه [٣٢] » .

ما السر فى هذه الصداقة العميقة ؟ يجيب مونتينى « لأنه كان هو ، ولأننى كنت أنا [٣٣] » — لأنهما كانا مختلفين اختلافاً جعلهما يكمل الواحد منهما صاحبه . ذلك أن لابويتى كان المثالية كلها ، والاخلاص الحار ، والرقة والحنان ؛ أما مونتينى فكان فيه من الثقافة والحصافة وعدم التحيز ما يمنعه من التفانى إلى هذا الحد ، وقد وصفه هذا الصديق ذاته بأنه « يميل إلى الرذائل والفضائل البارزة على السواء [٣٤] » . وربما كانت أعمـق تجربة مر بها مونتينى فى حياته هى مشاهدته صديقه يحتضر . ففى عام ١٥٦٣ ، وخلال طاعون تفشى فى بوردو ، مرض لابويتى فجأة بالحمى والدوسنتاريا. وقد احتمل موته البطىء بجلد رواقى وصبر مسيحى لم يغب قط عن ذاكرة صديقه الذى ظل ملازماً لفراشه فى تلك الأيام الأخيرة . وورث مونتينى مخطوطة المقال الخطر وخبأها ثلاثة عشر عاماً ، ثم نشرت منه نسخة فى طبعة مسروقة (١٥٧٦) ، وهنا نشر الأصل ، وأوضح أنه تدريب فى البلاغة لصبى « فى السادسة عشرة » .

وجعلت هذه الصداقة كل علاقة إنسانية بعدها تبدو لمونتينى تافهة غثة . وقد كتب المرة بعد المرة أن نصفه مات مع لابويتى « لقد ألفت أن أكون دائماً أثنين ، ولم اعتد أن أكون وحدى قط ، حتى ليخيل إلى أننى لست إلا نصف نفسى[٣٥] » . وفى حرارة هذه الذكرى رفع الصداقة فوق الحب بين الوالد والولد ، والفتاة والفتى ، والزوج والزوجة . ويبدو أنه لم يكن يشعر بأى عاطفة رومانسية نحو أى امرأة . « فى شبابى عارضت الأفكار الشائعة عن الحب ، والتى أحسست أنها تغلبنى على أمرى ، وجاهدت لأقلل من متعتة مخافة أن . . . يسترقنى فى النهاية ويضعنى تحت رحمته[٣٦] » . ولا يعنى هذا أنه لم تكن له أويقات غرام ، فهو على العكس يعترف بعلاقات واسعة متعددة قبل زواجه[٣٧] . وقد وصف الحب الجنسى بأنه « ليس إلا لذة تدغدغ الجسم نتيجة إفراغ الأوعية المنوية ، أشبه باللذة التى تعطينا إياها الطبيعة فى إفراغ الأعضاء الأخرى ورى أنه من المضحك أن الطبيعة « خلطت لذاتنا وأوساخنا معاً[٣٨] » .

وقد وافق أكثر الفلاسفة على أن حافز الجماع ليس مبرراً للزواج . « لست أرى زيجات أسرع فشلا وأكثر كدراً من تلك التى تعقد من أجل الجمال ، أو تتم فى عجلة استجابة لرغبات الغرام[٣٩] » . فالزواج يجب أن يرتبه « طرف ثالث » ، وينبغى أن يرفض صحبة الحب (الجنسى) وشروطه « وأن يحاول » محاكاة شروط الصداقة » ؛ ويجب أن يصبح الزواج صداقة إن أريد له البقاء. وكان يميل إلى رأى المفكرين اليونان القائل بأن على الرجل ألا يتزوج قبل الثلاثين . وقد اجتنب هذا الرباط أطول ما استطاع . وإذ كان لا يزال أعزب وهو فى الثامنة والعشرين ، فإنه سافر إلى باريس ، وافتتن بها[٤٠] ، واستمتع بحياة البلاط حينا (١٥٦٢) ، ورأى الهنود الأمريكين فى روان ، وتردد بين مفاتن الحضارة والهمجية المتنافسة ، ثم عاد إلى بوردو ، وتزوج فرانسواز دشاسين (١٥٦٥) .

ويلوح أنه تزوج لأسباب منطقية تماما: هى أن يكون له بيت وأسرة،

وأن يورث الأسرة ضيعته واسمه . وفى صفحاته الخمسمائة والألف لا يكاد يذكر شيئا عن زوجته — ولكن لعل هذا من قبيل حسن الأدب — وهو يزعم أنه كان وفيا لها ، « مع أن الناس يذيعون عنى أننى إباحى ، إلا أننى (بنية صادقة) تقيدت بقوانين الزواج بدقة أكثر مما وعدت أو أملت (٤١) » . وكانت تغتفر استغراقات العبقرية فى ذاتها ، وتعنى بكفاية بالبيت والأرض وحتى بالحسابات ، لأنه لم يكن يميل إلى الأشغال التجارية . أما هو فقد أعطاها الاحترام كله ، وأمارة حب أو كلمته بين الحين والحين — كاستجابته الشاكرة لمساعدتها السريعة له بعد سقوطه من ظهر جواده ، وكأهدائه إياها طبعته للترجمة التى قام بها لابويتى لخطاب بلوتارخ « خطاب عزاء » . وكان زواجا موفقا ، وعلينا ألا نأخذ مأخذ الجد الشديد تلك السخريات الموجهة ضد النساء فى « مقالات » مونتينى ، فقد كانت بدعة فاشية بين الفلاسفة . وولدت له فرانسواز ستة أطفال ، كلهم بنات ، متن جميعا فى طفولتهن إلا واحدة ، يتكلم عنها فى حنان (٤٢) . وحين بلغ الرابعة والخمسين تبنى فى أسرته فتاة فى العشرين اسمها مارى دجورنيه « أحببتها حبا صادقا يفوق حب الأب لابنته واعتبرتها جزءا من خير أجزاء كيانى ، وهبت لى فى بيتى وعزلتى (٤٣) » . إنه لم يكن فوق مشاعر الانسانية المشتركة بين البشر .

جـ — مقالاته

فى عام ١٥٦٨ مات أبوه ، فورث ميشيل الضيعة بوصفه الابن الأكبر . وبعد ثلاث سنوات أو أربع استقال من برلمان بوردو ، واعتزل ضوضاء المدينة إلى ملل الريف . ولكن حتى فى الريف كان السلام قلقا ، لأن الحرب الدينية كانت تقسم فرنسا ومدنها وأسرها . فالجنود يغيرون على القرى ، ويدخلون البيوت ، ويسرقون ، وينتهكون الأعراض ، ويقتلون . « ذهبت إلى فراشى ألف مرة . . . وأنا أتخيل أنه قد يخوننى

من ائتمنت أو قد أذبح فى فراشى (٤٤) » . ورغبة فى ثنى القوم عن العنف كان يترك أبوابه غير موصدة ويأمر بأن يستقبل المغيرون إن أتوا دون مقاومة . على أنهم لم يأتوا ، وترك مونتينى حرا ليعيش فى ركنه الفلسفى بين صراع العقائد وصليل السيوف ، وبينما كانت باريس وغيرها من الأقاليم تقتل البروتستنتية فى مذبحة القديس برتلميو ، كتب مونتينى أجل أثر فى النثر الفرنسى .

وكان أحب الخلوات إليه مكتبته الكائنة بالطابق الثالث من البرج الذى يرتفع فى واجهة قصره الريفى (دمرت النار القصر عام ١٨٨٥ ولكن البرج باق) . وقد أحب مكتبته كنفسه ، فكانت ذاته الثانية .

« شكلها مستدير ، وليس فيها جانب مستو إلا مايصلح لمكتبى ومقعدى ، وهو وضع . . . يتيح لى بنظرة واحدة أن أشتمل ببصرى كل كتبى ... هناك كرسى ؛ هناك عرشى . وأنا أحاول أن اجعل حكمى فيها مطلقا ؛ وأن اختص بذلك المركز الوحيد دون صحبة زوجتى ، وأطفالى ، ومعارفى (٤٥) » .

وقل بين الرجال من استطاب مثله العزلة وهى أخوف ما نخاف :

« على المرء أن يفصل ويسترد نفسه من نفسه . . . علينا أن نحتفظ بمعين لأنفسنا . . . خاص بنا دون غيرنا ... نختزن فيه حريتنا ونرسيها . إن أعظم شىء للانسان فى العالم أن يعرف كيف يكون لنفسه » (٤٦) .

فى مكتبته تلك كان لديه ألف كتاب ، أكثرها مجلد مزخرف ، وكان يسميها « مواطن لذتى » ، فيها استطاع أن يختار صحبته ويعيش مع أحكمهم وأخيرهم . ففى بلوتارخ وحده « لأنه يتكلم الفرنسية » (فى ترجمة لآميو) استطاع أن يجد مائة عظيم يحضرون ويتحدثون إليه ،

وفى « رسائل » سنيكا استطاع أن يتذوق رواقية لطيفة صيغت فى عبارات رخيمة ؛ هذان (بما فيهما كتاب بلوتارخ « موراليا ») كانا أحب المؤلفين إليه ، «منهما أستقى مائى كما فعلت الدنايديات ، وأملأ دون توقف حالما يفرغ الماء (٤٧) ... والألفة التى نمت بينى وبينهما ، والعون الذى عداني به فى شيخوختى ، وكتابى الذى لم أصغه إلا مما غنمت منهما ، كل أولئك يلزمنى صيانة شرفهما (٤٨)» .

وهو لا يستشهد بالكتاب المقدس أبدا (ربما لأنه مشهور جدا) ، وإن اقتبس مرارا من القديس أوغسطين . وهو فى الأغلب يؤثر القدامى على المحدثين ، والفلاسفة الوثنيين على الآباء المسيحيين . كان « انسانى » الفلسفة بقدر ما أحب آداب اليونان والرومان وتاريخهم ، ولكنه لم يكن عابدا أعمى للكلاسيكيات والمخطوطات ؛ ورأيه فى أرسطو أنه سطحى ، وفى شيشرون أنه ثرثار دعى . ولم يكن مطلعا كل الاطلاع على آثار اليونان ، ولكنه استشهد بالشعراء اللاتين فى تبحر طواف ألم حتى بواحد من أخص ابجرامات مارشال . وقد أعجب بفرجل ، ولكنه فضل عليه لوكريتيوس . وقرأ « الأقوال المأثورة » لأرزم فى نهم . وكان فى مقالاته الأولى متحذلقاً ، يرصع كلامه بالعبارات الكلاسيكية المعادة . ومثل هذه الاقتباسات كانت تتفق وأسلوب العصر ، وقد استطاب القراء ممن لم تسعفهم قدراتهم على قراءة الأصول هذه النماذج باعتبارها نوافذ صغيرة يلمحون منها العالم القديم ، وشكا بعضهم من أنه لم يستكثر منها (٤٩) . ولكن من كل سرقاته الصغيرة خرج مونتينى هو هو على نحو فذ ، ضاحكاً من الحذلقة ، محدداً فكره وكلامه . فهو فى ظاهره أشبه بالمقص واللصوق ، ولكن مذاقه طيب كطعام الآلهة .

وهكذا ، على مهل ، صفحة فصفحة ، ويوما بعد يوم ، كتب

« المقالات » بعد عام ١٥٧٠(*) . ويلوح أنه اخترع الاسم (٥٠) Essais ، والنوع تقريباً ، ذلك أنه مع وجود « الأحاديث » discorsi و dsicours من قبل ، إلا أنها كانت شديدة الشكلية ، لا شبه بينها وبين أحاديث مونتيني الطبيعية ، الكثيرة التلافيف ، وقد نحا هذا الأسلوب المتمهل ، الذى يكره القارىء على الاستماع ، إلى طبع المقال بهـذا الطابع منذ موته ، فجعله نوعاً أدبياً تغلب عليه العصرية . يقول « إنى أتحدث إلى الورق كما أتحدث إلى أول شخص ألقاه (٥١) » . والأسلوب هو الرجل ، طبيعياً ، حميماً ، وثيقاً ، وإنها لراحة أن يتحدث إلينا أحد أئمة الفكر بهذه الألفة . افتح أى صفحة فى مقالاته ، تجده يمسك بذراعك ويسوقك معه دون أن تعرف ، وقلما يهمك ، إلى أين يمضى بك . كان يكتب جزءاً فجزءاً ، فى أى موضوع يخطر بباله أو يوافق مزاجه ؛ ويستطرد فى فوضى بعيداً عن الموضوع الأصلى أثناء تجواله ، فترى مقاله « عن المركبات » مثلا ينطلق مخترقاً روما القديمة وأمريكا الجديدة . وفى المجلدات الثلاثة ثلاثة تتألف من استطرادات . لقد كان مونتيني كسولا ، وما من شىء أشق من خلق النظام وحفظه فى الأفكار أو الرجال . وقد اعترف بأنه « متموج متنوع » ولم يقدس الثبات على الآراء ؛ فكان يغير آراءه كلما تقدم به العمر ، إنما الصورة المركبة النهائية هى مونتيني .

ووسط تدفق أفكاره المضطرب تجد أسلوباً واضحاً كأنه البساطة بعينها . ومع ذلك تراه يتألق باستعارات عجيبة كاستعارات شكسبير ، وبنوادر منيرة تحول المجرد فور الواقع . ويختطف فصوله الفاحص هذه الأمثلة أينما وجدها دون اكتراث لأى معوق خلقى . وهو يسلمنا فى عناية ملاحظة

(*) اشتملت الطبعة الأولى ، ١٥٨٠ ، على الكتابين الأول والثانى ، ووسعت الثانية الكتابين ، ١٥٨٨ ، وزادت كتاباً ثالثاً ، أما الطبعة الثالثة المحتوية على تنقيحه النهائى والتى نشرتها الآنسة دجورنيه فقد ظهرت عام ١٥٩٥ بعد موته ، وظهور تسع طبعات بين عامى ١٥٨٠ و ١٥١٨ شاهد على شعبيتها .

تلك المرأة التولوزية التى شكرت الله بعدأن غشيها عدة جنود «لأننى مرة فى حياتى ملأت بطنى دون أن آثم (٥٢) .

د ـ الفيلسوف

إنه يزعم أن لديه موضوعاً واحداً ـ هو نفسه . « إنى أنظر داخل نفسى ، ليس لى شأن إلا مع نفسى ، فأنا لا أكف عن النظر فى أمر نفسى . . . . وتذوقها (٥٣) » . وهو يعمد إلى دراسة الطبيعة البشرية مباشرة ، عن طريق دوافعه ، وعاداته ، ومحابه ، ومكارهه ، وأسقامه، ومشاعره ، وأهوائه ، ومخاوفه ، وأفكاره . انه لا يقدم لنا ترجمة ذاتية ، فهو لا يكاد يذكر فى المقالات شيئاً عن اشتغاله مستشاراً أو عمدة ، ولا عن أسفاره ، ر زياراته للبلاط ، وهو لا يكشف عن دينه أو مذهبه السياسى ، بل يعطينا شيئاً أثمن ـ ذلك التحليل الصريح النفاذ لجسمه وعقله وخلقه . وهو يبسط أخطاءه ورذائله فى لذة واسهاب. وتحقيقاً لهدفه يستأذن فى أن يتكلم بحرية ، فهو عامد إلى انتهاك أصول الذوق السليم ليعرض علينا إنساناً عارى الجسد والروح . تراه يتحدث فى صراحة صاخبة عن وظائفه الطبيعية، ويستشهد بالقديس أوغسطين وفيف فى موضوع التطل المخى (امتلاء البطن بالغازات) ، ويطيل التأمل فى الجماع :

« كل منا يجتنب رؤية إنسان يولد ، ولكن الجمع يهرعون لرؤيته يموت . فلهدمه نلتمس مكانا رحباً ونوراً قوياً ، ولكنا لبنائه نختبىء فى ركن مظلم ونعمل فى تكتم ما استطعنا (٥٤) » .

وحتى مع هذه الصراحة يزعم انه مارس شيئاً من التحفظ . « إنى أقول الحق ، لا كما أشتهى ، بل على قدر ما أجرؤ (٥٥) » .

وهو يقول لنا الكثير عن نفسه الجسدية ، ويرعى صحته من صفحة إلى صفحة . فالصحة هى الخير الأعظم « والشهرة أو المجد يشتريهما رجل فى مثل مزاجى بثمن غال ، باسم الله (٥٦) » ، وهو يسجل تقلبات أمعائه فى

تفصيل المحب لها . لقد بحث عن حجر الفلاسفة ووجده مستكناً فى مثانته . وكان يأمل أن ينزل هذا الحصى فى نشوة من الحب ، ولكنه بدلا من ذلك وجد أنه « يخونه إلى حد غريب (٥٧) » ويهدده بالعجز فى غير أوانه . وقد عزى نفسه بقدرة يفخر بها ، هى « أن أقبض مائى عشر ساعات كاملة (٥٨) » وأن يظل على سرجه ساعات طويلة دون أن يناله الاعياء الشديد . كان بدينا قوياً ، يأكل بنهم حتى كاد يعض أصابعه فى شرهه . وقد أحب نفسه فى لذة لا يعتريها الملل .

كان مغروراً بنسبه ، وبشعار نبالته (٥٩) ، وبثيابه الفاخرة ، وبما نال من تشريف حين أصبح أحد فرسان القديس ميخائيل — وكتب مقالا « فى الغرور » . وهو ينسب لنفسه أكثر الرذائل ، ويؤكد لنا أنه ان كان فيه فضيلة فإنها تسللت إليه خلسة . ومع ذلك فإن لديه الكثير من هذه الفضائل : الأمانة ، والطيبة ، وروح الفكاهة ، والاتزان ، والرحمة ، والاعتدال ، والتسامح . كان يقذف بالأفكار المتفجرة فى الهواء ، ثم يلقفها ويطفئها قبل أن تسقط . وفى عصر المذابح العقائدية توسل إلى إخوانه فى الإنسانية أن يعتدلوا فى تعصبهم على هذا الجانب من المقتلة ، وأعطى العالم العصرى مثالاً من أول أمثلته فى العقل المتسامح . ونحن نغتفر له عيوبه لأننا نشاركه فيها ، ونجد تحليله لنفسه ساحراً لأننا نعلم أننا نحن الذين يروى هذه القصة عنهم .

ولكى يحسن فهم نفسه درس الفلاسفة . وقد أحبهم على الرغم من دعاواهم المغرورة بأنهم يحللون الكون ويرسمون مصير الإنسان وراء القبر . ونقل عن شيشرون قوله « ما من شىء سخيف قيل إلا سبق أن قاله أحد الفلاسفة (٦٠) » . وقد امتدح سقراط لأنه « أنزل الحكمة البشرية من السماء حيث طال ضياعها ، ليردها إلى الإنسان من جديد (٦١) » . وردد نصيحة سقراط بدرس أقل للعلوم الطبيعية ، وأكثر للسلوك الإنسانى . لم يكن له « مذهب » بعينه يدين به ، فلقد كانت أفكاره فى تطور دائم الحركة بحيث استحال على أى تسمية أن تقيد تحليقه الفلسفى .

فنى بواكير تفكيره الجريئة اعتنق الرواقية . إن المسيحية التى تفرقت شيعاً يقتل فيها الناس إخوتهم ، ولطخت نفسها بدم الحرب والمذابح ، قد أخفقت بجلاء فى أن تعطى الإنسان قانوناً خلقياً قادراً على ضبط غرائزه ، لذلك اتجه مونتينى إلى الفلسفة ملتمساً مبدأ خلقياً طبيعياً ، وفضيلة لا ترتبط بقيام العقائد الدينية وسقوطها . وبد له أن الرواقية قريبة من هذا المثل الأعلى ، فهى على الأقل شكلت بعضاً من أعظم الرجال فى العصور القديمة . وجعلها مونتينى مثله الأعلى حينا ، فهو مدرب إرادته على التحكم فى نفسه ، وهو صادف عن كل العواطف التى تكدر سلامة سلوكه أو هدوء عقله ، وهو مواجه صروف الدهر بجأش رابط ، متقبل الموت ذاته على أنه نهاية طبيعية مغتفرة .

وبقى فيه عرق رواقى إلى النهاية ، ولكن روحه الجياشة وجدت بعد قليل فلسفة أخرى تبرر ذاتها . لقد تمرد على رواقية تبشر باتباع « الطبيعة » وتحاول مع ذلك قمع الطبيعة فى الإنسان . وقد فسر « الطبيعة » من خلال طبيعته هو ، وقرر أن يتبع رغباته الطبيعية ما دامت لا تحـدث أذى محسوساً . وسره أن يجد أبيقور مدافعا عاقلا عن المتع السليمة ، لا شهوانياً رخيصاً ، وأدهشه أن يكتشف قدراً كبيراً من الحكمة والعظة فى لوكريتيوس. فأعلن الآن فى حماسة شرعية اللذة . أما الخطيئة الوحيدة التى تبينها فهى الإفراط . « ان الإفراط هو الطاعون الذى يفتك باللذة ، والاعتدال ليس سوط اللذة ، بل الملطف لها[٦٢] » .

ومن تذبذب آرائه ، ومن انحطاط المسيحية المعاصرة فى فرنسا ، انتهى إلى الشكوكية التى اصطبغ بها أكثر فلسفته بعد ذلك . وكان أبوه قد تأثر بكتاب « اللاهوت الطبيعى » الذى ألفه اللاهوتى التولوزى ريمون سبوند (مات ١٤٣٧ ؟) والذى واصل جهد السكولستيين النبيل فى البرهنة على معقولية المسيحية . وطلب الأب إلى ابنه أن يترجم البحث ، ففعل ، ونشر الترجمة (١٥٦٩) . واستثار به السنيون الفرنسيون ، ولكن بعض

النقاد اعترضوا على حجج ريمون . وفى عام ١٥٨٠ أدخـــل مونتينى فى « الكتاب » الثانى من « مقالاته » فصلا ماتى صفحة فيه « دفاع عن ريمون سبوند » عمد فيه إلى الرد على الاعتراضات . ولكنه لم يفعل هذا إلا بالتخلى على هدف ريمون ، محتجاً بأن العقل أداة محدودة لا يوثق بها ، وانه خير لنا أن نرسى الدين على الإيمان بالكتب المقدسة وبالكنيسة الأم المقدسة ، وهكذا هدم مونتينى ريمون فى واقع الأمر حين يفهم منه ظاهريا أنه يؤيده . وقد رأى بعضهم ، مثل سانت بوف ، أن هذا « الدفاع » ليس إلا حجة ساخرة لتأيد عدم الإيمان (٦٣) . أيا كان الأمر ، فهو أشــد ماكتبه مونتينى هدماً ، وربمـا كان أكمل عرض للشــكوكية فى الأدب الحديث .

ويؤكد لنا مونتينى ، قبل لوك بزمن طويل ، أن « المعرفة كلها توجه إلينا بواسطة الحواس (٦٤) » . وأن العقل يعتمد على الحواس ولكن الحواس خداعة فى تقاريرها محدودة جدا فى رقعتها ، ومن ثم كان العقل لا يعتمد عليه . « أن باطن الانسان وظاهره مملوءان ضعفا وكذبا » (٦٥) . (هنا ، فى بداية عصر العقل ، وقبل بيكون وديكارت بجيل ، يسأل مونتينى ذلك السؤال الذى لا يقفان ليسألاه ، والذى سيسأله بسكال بعد ثمانين عاما ، والذى لا يتصدى له الفلاسفة حتى مجىء هيوم وكانط ، لم يجب أن نثق بالعقل ؟) بل إن الغريزة مرشد أسلم من العقل . فانظر كيف يحيا الحيوان بالغريزة حياة ناجحة — أحيانا على نحو أحكم من الانسان . « هناك فرق بين بشر وبشر أكثر كثيرا من الفرق بين البشر والحيوان (٦٦) » . وليس الانسان مركزا للحياة كما أن الأرض ليست مركزا للكون . ومن التبجح أن يظن الانسان أن الله يشبهه ، أو أن شئون البشر هى مركز اهتمام الله ، أو أن العالم وجد ليخدم الانسان . ومن السخف أن نظن أن فى استطاعة عقل الانسان أن يسبر طبيعة الله . « أيها الانسان الأحمق ، يا من تعجز عن خلق دودة ، ولكنك تريد أن تخلق أربابا بالعشرات ! » (٦٧) .

ويصل مونتيني إلى الشكوكية بطريق آخر — وهو التأمل فى تنوع وتذبذب الإنسان بالقوانين والأخلاق ، وبالعلم والفلسفة والدين ؛ فأى هذه الحقائق هو الحق ؟ وهو يفضل الفلك الكوبرنيقى على الفلك البطلمى ، ولكن « من يدرى ، فلعل رأيا ثالثا يأتى بعد ألف سنة قد يقلب هذين الرأيين » و « أليس أكثر احتمالا أن الجرم الضخم الذى نسميه الدنيا شىء آخر غير ما نحكم به عليه ؟ (٦٨) » و « ليس هناك علم » ، إنما هى فروض دعية لعقول مغرورة (٦٩). وخير الفلسفات قاطبة فلسفة پرو — وخلاصتها أننا لا نعرف شيئا. « أن أكبر مقدار فيما نعرفه هو أقل مقدار فيما نجهله(٧٠) » «وما من شىء يؤمن الناس به إيمانا أرسخ من إيمانهم بما يعرفونه أقل معرفة» و « ان الاقتناع باليقينية شاهد واضح على الحمق (٧١) » . وبعبارة موجزة ، ليس هناك وجود ثابت ، لا لكياننا ولا للأشياء . ونحن ، وحكمنا . وكل الأشياء الفانية الأخرى ، لا تكف عن الدوران ، والتحول ، ثم الزوال ، فلا شىء يمكن إثباته على التحقيق . وليس بيننا وبين الوجود اتصال(٧٢). إذن فشفاء لكل الجراح يختم مونتيني باعادة تأكيده لإيمانه المسيحى ، والإشادة بالإله الذى لا يمكن استكناهه (٧٣) .

بعدها طبق شكوكيته على كل شىء ، دائما مع المخناعة احترام للكنيسة. وأصبح شعاره « ماذا أعرف » ، محفورا على خاتمه ومكتوبا على سقف مكتبته . وزينت شعارات أخرى عوارض السقف المماثلة « الحجج المؤيدة والمعارضة كلاهما ممكن » ، « يجوز ولا يجوز » ؛ « لا أقرر شيئا ؛ لا أفهم الأشياء ؛ أعلق حكمى ؛ أمتحن (٧٤) . » وبعض هذا الموقف أخذه عن شعار سقراط « لا أعرف شيئا » ، وبعضه عن پرو ، وبعضه عن كورنيلبوس أجريبا ، وكثير منه عن سيكستوس امبريكوس . قال ، منذ الآن « سأقيد نفسى بما أرى وأمسك به ، ولا أذهب بعيدا عن الشاطئ » (٧٥) .

ورأى الآن النسبية فى كل مكان ، والمطلقات فى غير مكان ، وأقلها

فى مقاييس الجمال ، ويجد فيلسوفنا الشهوانى متعة بالغة فى ملاحظة مختلف الآراء بين مختلف الشعوب عن مقومات الجمال فى ثديى المرأة(٧٦) . وهو يعتقد أن كثيرا من الحيوان يفوقنا جمالا ،ويرى أننا كنا حكماء حين اكتسينا بالثياب . وهو يدرك أن دين الانسان وأفكاره الخلقية تقررها بيئته عادة . « إن طعم الخير أو الشر يتوقف إلى حد كبير على رأينا فيهما »، وهوما سيقوله شكسبير ،و « ان الناس تعذبهم آراؤهم عن الأشياء لا الأشياء ذاتها » (٧٧)، وقوانين الضمير لا تنبعث من الله بل من العادة . وما الضمير إلا القلق الذى نحسه حين ننتهك عرف قبيلتنا (٧٨) .

وكان لمونتيني من الفطنة ما منعه من الرأى بأن الأخلاق يصح إغفالها مادامت نسبية . فهو على العكس من ذلك آخر من يمس ثباتها واستقرارها . وهو يتكلم بجرأة عن الجنس ، ويطالب بكثير من الحرية — للرجال ، ولكنك إذا دققت النظر فيه وجدته فجأة متزمتا : فهو يوصى بالعفة للشباب ، وحجته أن الطاقة التى تبذل فى الجنس مصدرها مستودع القوة المشترك فى البدن ، وهو يلاحظ أن الرياضيين الذين كانوا يتدربون للألعاب الأولمبية «امسكوا عن جميع الأفعال الجنسية وامتنعوا عن ملامسة النساء»(٧٩)

وكان بعض مر . ن بمد شكوكيته إلى الحضارة ذاتها ، وأن يسبق فى ذلك روسو وشاتوبريان . أوحى إليه الهنود الذين رآهم فى روان بأن يقرأ تقارير الرحالة ؛ ومن هذه الروايات كتب مقاله «عن أكلة لحوم البشر» وعنده أن أكل الموتى أقل همجية من تعذيب الأحياء . « لست أجد فى هذه الأمة (أمريكا الهندية) شيئا همجيا ولا وحشيا ، إلا إذا سمى الناس ما لم يألفوه همجية » (٨٠) . وقد تخيل هؤلاء الوطنيين أصحاء لا يمرضون إلا نادرا ، سعداء دائما تقريبا ، عائشين فى سلام وطمأنينة دون قوانين(٨١) وامتدح فن الاراتكة وطرق الانكا . وأجرى على لسان هنود روان تنديدا بثراء أوربا وفقرها . « لقد ادركوا أن بيننا رجالا أتخموا بكل أنواع السلع فى حين يتضور غيرهم جوعا ، وعجبوا كيف تحمل الفقراء هذا

الظلم ولم يأخذوا بتلابيب الآخرين » (٨٢) . وقارن بين أخلاق الهنود وأخلاق فاتحي بلادهم، واتهم هؤلاء فقال إن المسيحيين المزعومين . . . جلبوا عدوى الرذيلة لنفوس بريئة تواقة للتعلم ، طيبة بطبيعتها (٨٣) » . ونسى مونتيني لطفه لحظة فتفجر فى غضبة مضرية للحق :

« ما أكثر المدن العامرة التى نهبت وسويت بالتراب ، وما أكثر الأمم التى دمرت أو أقفرت من أهلها . وكم من ملايين لا تحصى من الناس الأبرياء من الجنسين ، ومن جميع المراكز ، والأعمار ، قتلوا ونهبوا وأعمل فيهم السيف ؛ وأغنى بقاع الأرض وأجملها وأفضلها قلبت ظهرا على عقب وخربت وشوهت من أجل تجارة اللؤلؤ والفلفل ! إيه أيتها الانتصارات الآلية ، ويا أيها الغزو الوضيع ! (٨٤) » .

أكان احترامه للدين مخلصا ؟ واضح أن تنقيبه فى الكلاسيكيات قد فطمه منذ زمن طويل من تعاليم الكنيسة . لقد احتفظ بإيمان غامض بالله الذى تمثله آنا فى الطبيعة ، وآنا فى روح الكون ، ذلك العقل غير المفهوم للعالم . وهو أحيانا يحس إحساس لير فى مسرحية شكسبير ، « إن الآلهة تلعب بنا الكرة فتقذفنا علوا وسفلا (٨٥) » . ولكنه يتهكم بالألحاد لأنه « شيء غير طبيعي وبشع (٨٦) » ، ويرفض اللاأدرية باعتبارها نوعا آخر من الدجماطية ، فأنى لنا أن نعرف أننا لن نعرف أبدا ؟ (٨٧) . وهو ينحى جانبا كل محاولات بذلت لتعريف النفس أو تفسير علاقتها بالجسد باعتبارها محاولات باطلة كلها غرور (٨٨) . وهو راغب فى قبول خلود النفس بالإيمان ، ولكنه لا يجد دليلا عليه فى التجربة أو العقل (٨٩) ؛ ثم ان فكرة الوجود الأبدى تروعه (٩٠) . « لولا الإيمان لما صدقت المعجزات (٩١) » ، وهو يسبق حجة هيوم المشهورة ؛ « كم أجده أكثر طبيعية واحتمالا أن يكذب رجلان ، عن أن تحمل الريح رجلا فى اثنتى عشرة ساعة من الشرق إلى الغرب (٩٢) » (ولعله كان باحثاً عن مثل آخر اليوم) . وهو يسبق فولتير إذ يحكى قصة الحاج الذى حكم بأن المسيحية لا بد دين

إلهى لأنها حافظت على نفسها هذا الزمن الطويل برغم فساد مديريها[٩٣] . وهو يلاحظ أنه مسيحى بمحض الصدفة الجغرافية ، ولولا ذلك « لآثرت أن أكون أحد عباد الشمس[٩٤] » . وهو لا يتكلم على المسيح غير مرة واحدة ، على قدر ما يذكر أحد قرانه[٩٥]. ولم تستهو تلك القصة الجميلة ، قصة أم المسيح ، روحه غير العاطفية إلا بمقدار ، ومع ذلك نراه يعبر إيطاليا ليضع أربعة تماثيل نذرية أمام مزارها فى لوريتو . وكان يفتقر إلى ملامح الروح الدينية — وهى التواضع ، والاحساس بالذنب وتبكيت الضمير والتكفير ، والشوق إلى الغفران الإلهى والنعمة الفادية . لقد كان رجلا حر الفكر ، فيه حساسية ضد الاستشهاد .

على أنه ظل كاثوليكيا بعد أن كف طويلا عن أن يكون مسيحيا[٩٦] . وكما كان أى مسيحى فطن من المسيحيين الأوائل ينحنى لأحد الأوثان انحناءة عابرة ، كذلك فإن مونتينى ، أكثر المسيحيين وثنية ، يتحول بين الحين والحين عن أثرائه اليونان والرومان ليقدم الاحترام لصليب المسيح أو حتى ليلثم قدم أحد البابوات . فهو لم ينتقل كما انتقل باسكال من الشك إلى الإيمان ، بل من الشك إلى الطاعة . ولم يكن هذا بدافع الحذر فحسب ، فلعله أدرك أن فلسفته التى شلت حركتها تردداته وتناقضاته وتشككه قد تصلح ترفا لعقول هيئت من قبل للحضارة (بالدين ؟) ، وأن فرنسا ، حتى وإن أغرقت عقائدها فى الدم ، إلا أنها لن ترضى بديلا عنها متاهة فكرية ليس فيها شىء يقينى غير الموت . ورأى أن الفلسفة الحكيمة تصالح الدين :

« إن أصحاب العقول البسيطة ، الأقل فضولا ، والأقل حظاً من التعليم ، يجعلون مسيحيين طيبين ، وهم بالتبجيل والطاعة يحتفظون بإيمانهم البسيط ويلتزمون بالقوانين . والعقول متوسطة القوة والكفاية هى التى يتولد فيها خطأ الآراء ... أما خير العقول وأكثرها استقرارا وأصفاها نظرا فتخلق نوعا آخر من خيار المؤمنين ، الذين ينفذون بالبحث الطويل والتمحيص الدينى إلى معنى أعمق وأعوص فى الأسفار المقدسة ويكتشفون

الأسرار الخفية الإلهية للنظام الكنسى . . ان الفلاحين البسطاء قوم أمناء ، وكذلك الفلاسفة(٩٧) » .

وهكذا ، بعد كل لدعاته للمسيحية ، ولأن جميع الأديان على السواء إنما هي أستار تغطى جهلنا المرتعد ، ينصحنا بأن نقبل دين زماننا ومكاننا . أما هو ، ففى وفاته لجغرافيته ، عاد إلى شعائر آبائه ، فأحب الدين الطقسى العطر الحسى ، لذلك فضل الكاثوليكية على البروتستنتية . ونفره من الكلفنية اصرارها على الجبرية(٩٨) ، وإذ كان إرزمى الأرومة فقد مال إلى كرادلة روما العالمين اللطفاء دون لويولا جنيف (كالفن) أو أسد فنبرج (لوثر) . وأشد ما أسف له أن العقائد الجديدة كانت تقلد القديمة فى تعصبها . ومع أنه سخر من المهرطقين لأنهم حمقى يثيرون ضجة حول ميثولوجيات متنافسة ، إلا أنه لم يرأى معنى لحرق هؤلاء الخوارج . « على أى حال إنه تقدير عال لآرائنا أن نشوى الناس أحياء بسببها(٩٩) » أو أن نسمح للناس بأن يشوونا .

كذلك نراه فى ميدان السياسة يختم مسيرته محافظا مطمئنا إذ لا جدوى من تغيير أشكال الحكومة ؛ فستكون الحكومة الجديدة سيئة كالقديمة لأنها ستدار بأيدى البشر . فالمجتمع « اطار شاسع جدا » ، وجهاز شديد التعقيد من الغريزة والعرف والأسطورة والقانون ، يتشكل فى بطء بحكمة الزمن الحاصلة من التجربة والخطأ ، بحيث يستحيل على أى عقل مفرد مهما أوتى من قوة وذكاء أن يفصصه ثم يعيد تركيبه دون فوضى وعذاب لا حصر لهما(١٠٠) . وخير للناس أن يخضعوا لحكامهم الحاليين مع ما فيهم من سوء ، إلا إذا حاولوا أن يغلوا الفكر ذاته ، عندها قد يستجمع مونتيني شجاعته وينصبغ بالثورة ، لأن « عقلى لم يشكل لينحنى أو يذل ، أما ركبتاى فنعم(١٠١) » ، والعاقل من ابتعد عن المنصب وإن احترمه ، « أن أعظم وظيفة هى إنقاذ الدولة ونفع الكثيرين » ، « أما أنا فنصرفه عنها(١٠٢) » ، ومع ذلك فقد خدم الدولة فى فترتى منصبه .

وقد آحزنه أنه عاش نصف حياته خلال تدمير فرنسا(١٠٣) ، « فى جيل شديد الفساد وزمان مغرق فى الجهل . » « اقرأ كل القصص القديمة ، ما لم تكن من الفواجع ، فلن تجسد ما يعدل تلك التى نراها تمارس كل يوم(١٠٤) » . إنه لم يتخذ موقف الحياد فى الصراع الدائر حول فرنسا ، ولكن « ميلى لم ينسنى لا صفات خصومنا المحمودة ، ولا الصفات المعيبة التى وصمت من أؤيدهم(١٠٥) » . وهو يأبى أن يحمل بندقية ، ولكنه يجرد قلمه لمناصرة جماعة « السياسيين » ، هؤلاء الكاثوليك المؤثرين للسلام والذين نادوا بقدر من التوفيق مع الهيجونوت . وقد امتدح ميشيل دلوبيتال لاعتداله الأنسانى البعيد النظر ، واغتبط حين تقدم صديقه هنرى نافار إلى النصر على مبادئ لوبيتال . لقد كان مونتينى أعظم الفرنسيين تحضرا فى ذلك العصر الهمجى .

هـ — الحجر الدوار

لقد ضايقه حصى المثانة أكثر من حروب فرنسا . ففى يونيو ١٥٨٠ ، عقب نشر أول طبعة من « مقالاته » ، خرج فى رحلة طويلة فى أوربا الغربية ، من جهة ليرى الدنيا ، ومن جهة ليزور ينابيع المياه الطبية أملا فى تلطيف « المغص » (كما سماه) الذى كان يعطله بالألم المرة بعد المرة . وترك زوجته لتعنى بشئون الضيعة ، ولكنه اصطحب معه أخا أصغر ، وزوج أخت يسمى البارون استيساك وسكرتيرا أملاه شطرا من يوميته فى الرحلة ؛ فإذا أضفنا بطانة من الخدم وسائقى البغال ، لم نعد نعجب لفقر هذه المذكرات الفكرى . لقد قصد بها الذكرى أكثر مما قصد بها النشر ، فأخفاها مونتينى فى صندوق بعد رجوعه ، حيث اكتشفت بعد أن انقضى على موته ١٧٨ عاما .

وقصدت الجماعة أولا باريس ، حيث قدم المؤلف الفخور نسخة من مقالاته لهنرى الثالث ، ثم انطلقت على مراحل مريحة إلى بلومبيير حيث أخذ مونتينى نفسه بشرب نصف جالون من المياه الطبية كل يوم طوال

تسعة أيام، وأفلح فى التخلص من بعض الحصى الصغير بألم شديد[١٠٦]. ثم اتخذ سمته إلى سويسرة بطريق اللورين. جاء فى يوميته التى تحكى ذكرياته عن شخص غائب « لقد وجد لذة لا تعدلها لذة فى مشاهدة حرية هذه الأمة وحكومتها الصالحة[١٠٧] » . ثم استشفى بمياه بادن — بادن وواصل راحلته فى ألمانيا. وحضر الخدمات الدينية عند الكلفنيين واللوثريين كما حضرها عند الكاثوليك، وناقش اللاهوت مع رجال الدين البروتستنت. وهو يروى حديث قسيس لوثرى أقسم أنه يؤثر أن يستمع إلى ألف قداس عن أن يشارك فى تناول القربان على مذهب كالفن[١٠٨] — لأن الكلفنيين أنكروا الوجود الجسدى للمسيح فى سر القربان. وفى التيرول شعر بجلال الألب قبل روسو بزمن طويل. ومن إنزبروك صعدت الجماعة إلى ممر برينر، وتخلص مونتينى فى الطريق من « حصاة متوسطة الحجم » ، ثم من ترنت إلى فيرونا وفنشنزا وبادوا والبندقية، حيث أضاف إلى القناة العظمى « حصاتين كبيرتين » . ورأى أن المدينة ليست بالروعة التى توقعها ولا مومساتها بالجمال الذى انتظره. ومضى إلى فيرارا، حيث زار تاسو المختلط العقل (كما ذكرت المقالات لا اليومية) ، ثم إلى بولونيا وفلورنسة حيث تلقى نهر ارنو « حصاتين وكمية من الرمل[١٠٩] » ، ومن سيينا إلى روما حيث « أنزل حصاة كبيرة كبزرة الصنوبر[١١٠] » . ولعل هذه الإضافات المفرزة التى سجل أخبارها كانت فى مجموعها تبنى هرماً لا بأس بحجمه.

وفى روما زار مجمعاً يهودياً، وشهد ختانا، وناقش مع معلمى الناموس شعائر دينهم. وتبادل الفلسفات مع محظيات روما. ولم يكن (كما خيل لستندال) عديم الإحساس بالفن فى روما[١١١]. فقد راح يطوف اليوم تلو اليوم بين الآثار القديمة وعجبه لا ينتهى من بهائها. ولكن الحدث الكبير كان زيارته لجريجورى الثالث عشر. وكأى ابن للكنيسة ركع مونتينى ليلثم حذاء البابا، فتعطف البابا برفع حذائه تيسيراً للمهمة[١١٢]. ووجد موظفو الجمرك خلال ذلك نسخة من « المقالات »

سلموها لمحكمة التفتيش : ودعى مونتينى إلى الهيئة المقدسة ونبه فى رفق إلى أن فقرات فى مقالاته تشم منها رائحة الهرطقة ، أفلا يرى تغييرها أو حذفها فى الطبعات المقبلة ؟ فوعد « خيل إلى أننى تركتهم راضين عنى كل الرضا » ، وهذا حق ، بل لقد دعوه لحضور إلى روما والعيش فيها (ولكنه لم يبال بالوفاء بوعده ، وفى عام ١٦٧٦ أدرج كتابه فى قائمة الكتب المحظورة من الكنيسة) . ثم سافر عبر إيطاليا قاصداً مزار العذراء فى لوريتو وأهداها لوحة نذرية ، ربما ليطمئنهم ويطمئن نفسه . ثم عاد إلى عبور الابنين للاستشفاء بمياه لوكا .

وهناك (فى ٧ سبتمبر ١٥٨١) تلقى رسالة تقول انه اختير عمدة على بوردو . فطلب إعفاءه ، ولكن هنرى الثالث أمره أن يقبل ، ولم يستطع أن يتجاهل تقليد خدمة الدولة الذى خلفه له أبوه . على أنه لم يتعجل العودة إلى فرنسا ، فلم ير قصره الريفى إلا فى ٣٠ نوفمبر ، بعد سبعة عشر شهرا من بدء جولته . وكانت واجبات العمدة خفيفة ، ومكافأته التشريف دون الاجر . وقد أدى واجبات وظيفته على وجه مرضى ، لأن انتخابه أعيد (أغسطس ١٥٨٣) عامين آخرين . وفى ديسمبر ١٥٨٤ زاره هنرى نافار ومعه خليلة وأربعون تابعاً ، ونام ملك فرنسا المقبل فى فراش الفيلسوف . وقرب ختام فترة عمديته الثانية تفشى الطاعون فى بوردو ، فغادر مونتينى المدينة إلى الريف كما غادرها كل موظفى الدولة تقريباً . وفى ٣٠ يوليو ١٥٨٥ حول شارات منصبه لخلفه واعتزل فى بيته .

لم يكن قد جاوز الثانية والخمسين ، ولكن الحصى كان يعجزه فى فترات دورية ، وأحياناً يحصر بوله أياماً (١١٣) . وفى أوائل عام ١٥٨٨ بقى فيه من القوة ما يكفى للقيام برحلة ثالثة إلى باريس . وهناك قبض عليه بأمر من الحلف الذى كان آنئذ يسيطر على العاصمة لاتهامه بالولاء لهنرى الثالث ، وأودع الباستيل (١٠ يوليو ١٥٨٨) ، ثم أفرج عنه فى الليلة ذاتها بشفاعة كاترين دى مديتشى . وفى اكتوبر حضر اجتماع مجلس الطبقات

فى بلوا ولكنه عاد إلى بوردو فى الوقت المناسب للنجاة من التورط فى تقلبات هنرى الثالث عقب اغتيال الدوق جيز .

وفى آخر مقالاته وأروعها « فى التجربة » أورد وصفاً لانحلال جسده . فاسنانه مثلا وصلت فيما يبدو إلى « النهايةالطبيعية لبقائها (١١٤)» . وهو يحتمل « انطلاقه » دون مرارة ، فلقـــد عاش حياته كما رسمها ، واستطاع أن يكتب فى فخر : « راجع العالم القديم كله ، بجد مشقة فى اختيار اثنى عشر رجلا وجهوا حياتهم فى مجرى واحد . . . مستقر ، أكيد . وهو أجمل توجيهات الحكمة (١١٥) » . فلما أنبىء بقرب منيته ، جمع أهل بيته وورثته من حوله ،وأعطاهم بشخصه المبالغ أو الأشياء التى أوصى لهم بها فى وصيته. ثم تناول أسرار الكنيسة فى تقوى رجل لم يكتب قط كلمة شك أو ارتياب. ومات فى ١٣ سبتمبر ١٥٩٢ بالغاً من العمر تسعة وخمسين عاما .

وانتشر تأثيره طوال قرون ثلاثة وعم قارات أربعا . وقد قبل ريشليو فى ابتهاج إهداء الآنسة جورنيه إياه طبعه « المقالات » الأخيرة . وفى تاريخ مبكر (١٦٠٣)، نسقها صديقه وتلميذه شارون فى فلسفة شكلية منتظمة وجعلها فلوريو من عيون الأدب الانجليزى (١٦٠٣) ، ولكنه غطى بساطة المؤلف وإيجازه بالاطناب المفرط فى التفقه . ولعل شكسبير رأى تلك الترجمة فأعانته على تشكيل شكوكية مآسيه الكبرى وصوغ عباراتها ، وقد سجلنا من قبل ديونا يدين بها لمونتينى . وربما كان بن جونسون يعنى شيكسبير حين اتهم الكتاب الانجليز بالسرقة من مونتينى (١١٦) . وقد شعر بيكون بذلك التأثير ، ولعل ديكارت وجد فى « المقالات » الحافز لشكه العام الأول . أما بسكال فقد أشرف على الجنون وهو يحاول انقاذ ايمانه من تشكيكات مونتينى . ومن مونتينى انبثق بيل . وفوفنارج ، وروسو ، وديدرو ، وفولتير — أما روســو فمن اعترافات مونتينى ومقالاته « فى التعليم » و « فى أكلة لحوم البشر » ، وأما فولتير فمن باقى أعماله كلها . لقد كان مونتينى جــد حركة التنوير كما كان بيل أباها . وقالت مدام

دو ديفان ، أقل نساء جيلها اللامع أوهاما ، ان بودها أن « تلقى فى النار جميع مؤلفات الفلاسفة الضخمة إلا مونتينى ، الذى هو أبوهم كلهم[١١٧] » .
وبفضل مونتينى دخل تحليل العقل والخلق النفسى إلى الأدب الفرنسى ، من كورنيى وموليير ، ولاروشفوكو ولابروبير ، إلى أناطول فرانس . أما ثورو فقد نهل الكثير من هذا المورد ، كذلك استحم فيه إمرسون قبل أن يكتب « مقالاته » . ويمكن أن نقول فى مونتينى مالا يصدق إلا على قلة من المؤلفين قبل القرن الثامن عشر ، وهو انه مقروء اليوم كأنه كتب بالأمس .

وتبين العالم عيوبه واغتفرها له منذ زمن طويل . وقد اعترف بالكثير جداً منها حتى لقد استنفد أسلحة نقاده . كان عليما بأنه ثرثار مغرور ؛ وقد يصيبنا الأعياء حيناً بعد حين من شواهده الكلاسيكية ، ونقع لحظة فى ذلك الحكم الظالم الذى أصدره مالبرانش على « المقالات » إذ زعم أنها « ليست إلا نسيجاً من النوادر التاريخية ، والقصص الصغيرة ، والكلمات الطريفة ، والأشعار ، والأقوال المأثورة . . . . التى لا تدل على شىء[١١٨] » . وما من شك فى أن مونتينى يخلط بضاعته فى فوضى وكسل خلطا يقلل من تأثيرها ومغزاها ؛ وهو يناقض نفسه فى مائة موضوع ، فهو لا بد إذن مصيب ، لأنه يقول كل شىء ونقيضه . وفى الشكوكية الشاملة شىء يبتلى المرء بالشلل . فهى تحفظنا من قتل الناس باللاهوت ، ولكنها تثبطنا بما تسبقنا إليه من حجة وتستنزف جلدنا . ونحن نتأثر بمحاولة بسكال اليائسة أن ينقذ ايمانه من مونتينى ، تأثرا أعمق من تأثرنا برغبة مونتينى فى ألا يكون له ايمان على الإطلاق .

بيد أننا لا نستطيع أن نضع قلوبنا فى نقد كهذا ؛ فهو لا يقطع إلا مؤقتاً تلك البهجة التى نجدها فى الثقافة الضاحكة ، والفكر المرح المنبعث من هذا الثرثار الذى لا يمكن إسكاته وفى تفكيره السريع . فأين نجد مرة أخرى مثل هذا المركب المفعم بالحياة ، مركب الحكمة والفكاهة ؟ ان بين هاتين

الصفتين شبها دقيقا ، فكلتاهما منبثقة من رؤية الأشياء فى أوضاعها الصحيحة ، وهما فى مونتينى تصنعان رجلا واحداً . أما ترثرته فتعوضها طرافته ووضوحه ؛ وليس هنا عبارات ناصلة اللون، ولا سخف طنان رنان . ثم إننا مللنا اللغة التى يستعملها أصحابها لاخفاء الفكر أو إخفاء انعدامه ، بحيث نستطيع أن نغتفر الأنانية فى هذه الكشوف عن النفس . ويدهشنا من هذا المحدث اللطيف معرفته الحميمة بقلوبنا ، ويسرى عنا أن نجد حكيما مثله يشاطرنا أخطاءنا ، ثم يغتفرها لنا فى غير تردد . ومن بواعث العزاء أن نرى انه هو أيضاً يتردد ولا يعلم علم اليقين ، ويبهجنا أن يقال لنا ان جهلنا — إذا أدركناه — يصبح فلسفة . ثم ياله من تفريج أن نصادف ، بعد مذبحة القديس برتلميو ، رجلا لم تبلغ به الثقة بالعقيدة حداً يكفى لحمله على القتل !

وأخيراً ، وبرغم هجومه على العقل ، ندرك أن مونتينى يبدأ فى فرنسا عصر العقل كما بدأه بيكون فى إنجلترا . إن مونتينى ، ناقد العقل ، لم يكن شيئاً إن لم يكن هو العقل ذاته . وبرغم كل انحناءاته للكنيسة ، فإن هذا اللاعقلانى كان عقلانياً . ولم يرتض الطاعة إلا بعد أن بذر بذور العقل فى فكر فرنسا . وإذا كان قد حاول كبيكون أن يفعل هذا دون أن يقلق ايمان الفقراء المعزى ، فيجب ألا نأخذ حيطته أو ترفقه حجة عليه . إنه لم يخلق ليحرق . فلقد علم أنه هو أيضاً قد يكون مخطئاً ، ولقد كان رسول الاعتدال كما كان رسول العقل ، وكان فيه من النبل الكثير ما منعه من أن يشعل النار فى بيت جاره قبل أن يوفر له ملجأ آخر . لقد كان أعمق من فولتير ، لأنه تعاطف مع ما هدم .

وفى تقدير جيبون أنه « فى أيام التعصب تلك لم يكن سوى رجلين متحررين (يدينان بأفكار حرة سمحة) فى فرنسا : هنرى الرابع ومونتينى[116] » . أما سانت — بوف ، فبعد أن نظر إلى مونتينى نظرة غير

متعاطفة خلال عيني بسكال[١٢٠] ، ختم حديثه بأن حكم ، فى نوبة نادرة من الحماسة ، بأنه « أحد من عاش من الفرنسيين قاطبة[١٢١] » .

٤ — خالدون يوما واحـــداً

بعد مونتيني اعتمد الأدب الفرنسي على مجذافيه جيلا بأكمله . لقد أفلح تقريباً فى النجاة من الحروب الدينية،فأخفى نفسه فى نفسه حتى جاوزته الحروب. ولكن فى غير مونتيني ابتلى الأدب فى فرنسا بالحمى الحربية اللاهوتية ، وبين مونتيني وكورني تخلفت فرنسا عن إنجلتره وأسبانيا فى الأدب ، تماماً كما تخلفت إنجلتره عن فرنسا بعد الحرب الأهلية . وعبرت سماء الأدب سلسلة من الشهب الغازية التى لم تخلف وراءها نجوماً ثابتة . وقد حاول ريشليو أن يغذو النبوغ بالرواتب ، ولكنه عطله بالرقابة وأغراه بمديحه . فلما مات ألغى لويس الثالث عشر هذه الرواتب بجرة قلم ، « لن يزعجنا هذا الأمر بعد اليوم » ، وكان أكثر حفزاً للأدب تلك السهرات الأدبية فى الاوتيل درامبوييه . وإنشاء ريشليو للأكاديمية الفرنسية .

بدأت الأكاديمية باجتماعات للادباء والمؤلفين فى بيت خاص — هو بيت فالنتان كونرار ، وكان سكرتيراً للملك (١٦٢٧) . وعرض ريشيلو ، وهو اليقظ للأدب يقظته للحرب ، الغيور من أكاديميات إيطاليا وأدب أسبانيا ، أن يؤسس الجماعة بوصفها هيئة عامة يعترف بها الدولة. وعارض بعض الأعضاء الخطة باعتبارها رشوة للسنية ، ولكن الشاعر شابلان (الذى كان يتمتع بمعاش من الكردينال) ذكرهم بأن « عليهم أن يتعاملوا مع رجل يمضى فيما يريد دون تردد[١٢٢] » . وانتصرت حيطة شابلان ، وقررت الجماعة بالاجماع أن « تستجيب لمسرة نيافتة » ، وانشئت (١٦٣٥) باسم « الأكاديمية الفرنسية » وقد أعلنت قوانينها ما يأتى :

« يبدو نه لم يبق لاكتمال سعادة المملكة إلا أن تخلف هذه اللغة التى تتكلمها من قائمة اللغات الهمجية ... حتى يتسنى لها ، وهى اليوم أكمل

من أى لغة حية، أن تخلف أخيرا اللاتينية كما خلفت اللاتينية اليونانية لو أتيح لها من العناية أكثر مما تلقى إلى اليوم ؛ وإن وظيفة أعضاء الأكاديمية ينبغى أن تكون تنقية اللغةمن الشوائب التى شابتها سواء فى أفواه الناس أو فى حشود المحاكم ... أو بفعل عادات رجال الحاشية الجهلة »(١٢٣) :

وعهد إلى أحد الأعضاء الثلاثين الأول ، ويدعى كلود فوجلا ، بتصنيف قاموس ؛ وكان لا بد أن ينقضى ستة وخمسون عاما قبل أن ينشر لأول مرة (١٦٩٤) . ورفعت الأكاديمية أثناء ذلك مكانة الأدباء بشكل ملحوظ ، فأصبح انتماء انسان إلى « الخالدين » الأربعين (عددهم عام ١٦٣٧) شرفا يضارع شرف المناصب الحكومية العليا ؛ ولم تكرم أمة الأدب كما كرمته فرنسا . صحيح أن الأكاديمية ،وأكثر أعضائها شيوخ، كثيرا ما كانت كابحا محافظا يعطل التطورات الأدبية أو النمو الدنيوى . وكانت بين الحين والحين توصد أبوابها فى وجه العبقرية (موليير وروسو)؛ ولكنها رفعت رأسها فوق الأحزاب ، وعلمت أعضاءها أن يتسامحوا بأدب مع مختلف الأفكار ؛ وقد كافأتها فرنسا باستقرار ثبت لصدمات التغير فى الوقت الذى تهاوى فيه الكثير .

بعد أن جمع ريشليو الشعراء والأدباء وسيج من حولهم ، نظر بعينه اليقظة إلى الصحفيين . ففى مايو ١٦٣١ بدأ تيوفراست رينودو ، بمعونة من الكردينال ، نشر أول صحيفة فرنسية سميت فيما بعد « غازيتة فرنسا» . وكانت تظهر أسبوعيا فى هيئة فرخ يطوى ثمانى صفحات ، وتنشر من الأنباء الرسمية ما يسمح به ريشليو أو يمدها به ، وأضافت بعض صفحات من « الأخبار العادية » . وكان لويس الثالث عشر من كتابها المألوفين . ورد فيها على ناقدى الحكومة ودافع عن نفيه أمه ، وكان أحيانا يأخــذ الفقرات التى يكتبها بشخصه ليشرف على صف حروفها ، ولا عجب فالمرء — حتى إذا كان ملكا — يستهويه أن يجد كلامه مطبوعا . وكانت الصحافة الفرنسية منذ بدايتها أداة دعاية — وفى هذه الحالة وسيلة لشرح سياسات

الدولة للقلة القارئة . وسرعان ما فقد الناس ثقتهم فى الغازيتة وفضلوا أن يشتروا الوريقـات البذيئة التى يبيعهـا فى الطرق أجراء أعـداء الـكردينال .

أما أروج نتاج العصر الأدبى فقصة رومانسية . كانت روايات الفروسية آخذة فى الزوال ، لا لمجرد تهكم سرفانتيس وغيره من الكتاب عليها ، بل لأن الاقطاع الذى خضع الآن للملكية ، كان يفقد المزيد من امتيازاته ومكانته . وحل محل قصص الفروسية أيام ازدهارها روايات رومانسية أليمة عن الرغبة المعوقة . وهكذا قرأ كل من ألم بالقراءة وملك الفراغ فى عهد لويس الثالث عشر رواية « آستريه » (١٦١٠ — ١٩) التى ألفها أونوريه دورفيه . أما عبقرية المؤلف فانبعثت من جرح أصاب حبه . ذلك أن زوجته، التى سميت ديانا بحق ، آثرت عشرة الصيد على عشرة الزواج ، فكانت تؤاكل كلابها على مائدتها وتشاركها فراشها . وكانت تجهض كل سنة [١٢٤] . واعتكف أونوريه فى ضيعته واخفى سيرته الحزينة وراء رواية رومانسية رعوية . وقد وجد دواء الكلام هذا ناجعا ، فزاد روايته إلى ٥٠٠٠ ر ٥ صفحة فى خمسة مجلدات صدرت على فترات من ١٦١٠ إلى ١٦٢٧ . وفى قصة غرام الراعى كيلادون بالراعية آستريه نسمع صدى لا نهاية له لقصة مونتمايور « ديانا العاشقة » وقصتى سانازارو وسدنى « أركاديا » ، ولكن الصدى كان هنا شجيا ، وكان للرعاة والراعيات كل جمال البلاط الفرنسى وزينته، وحققت اللغة كل مطالب ندوة الأوتيل درامبوييه، ونافست تجارب العشق المتنوعة تجارب هنرى الرابع ، وابهجت عبادة المرأة ربات الصالونات اللائى جعلن الكتاب دستور سلوك للحب الأفلاطونى . هنا ذلك الينبوع الفوار الذى جرت منه الرومانسيات العاطفية التى كتبتها الآنسة سكودرى ، والأبيه بريفوست (انطوان بريفوست دجسيل) ، وصموئيل رتشاردسون ، وجان جاك روسو — الذى صرح بأنه كان يقرأ الكتاب مرة كل عام طوال أكثر حياته . وظل سادة القصور الفرنسية

والألمانية والبولندية وسيداتها ، قرابة قرن من الزمان ، يتخذون أسماء « لاستريه » ويلعبون أدوارها ، وكرس نصف النثر المكتوب فى فرنسا نفسه للرومانس .

أما النصف الآخر فاشتمل على بعض النثر الجدير بالذكر . فكانت « رسائل » جان لوى جى دبالزاك » (١٦١٤ وما بعدها) فى حقيقتها مقالات ، قصد بها أن تعجب « المتحذلقات » ، وشاركت فوجيلا ومالبرب فى تنقية اللغة ، وساعدت على إعطاء النثر الفرنسى شكل العصر الكلاسيكى ومنطقه ... أما بيير دبوردى دبرانتوم ، الذى عاش حياة مرحة فى الجيش والبلاط ، فقد ترك عند موته (١٦١٤) حزمة من المذكرات تفصل فى ذوق غراميات النساء الفرنسيات ، وفضائل كاترين مديتشى ، وجمال مارى ستيوارت ، وظرف مارجريت فالوا ؛ ومن المؤسف أن أروع قصصه لا يمكن التحقق من صحة نسبتها إليه . وكان يرى « أنه لا يحسن بالمرء أن يشيخ وهو فى ذات الخدر ، وما من إنسان شجاع فعل هذا قط ، وعلى المرء أن يغامر بجرأة فى جميع النواحى ، فى الحب كما فى الحرب » . وفى لحظة أكثر حكمة اعترف بأن « أعظم ما ينعم الله به علينا فى زواجنا هو الذرية الصالحة لا التسرى » ... وأما جاك أوجست دتو ، القاضى ومستشار الدولة أيام صديقه هنرى الرابع ،فقد ساعد فى صياغة مرسوم نانت والمفاوضة على إصداره ، وكرس نصف حياته لكتابة « تاريخ عصره » (١٦٠٤–٨)، وهو كتاب يتميز بعمق الدرس ، وبالحياد والشجاعة فى دمغ مذبحة القديس برتلميو لأنها « تفجر للجنون لا نظير له فى تاريخ أى أمة » . . . وألف الدوق صلى ، فى شيخوخته وبمساعدة سكرتيريه، كتابه المشهور «مذكرات عن الاقتصاديات الداخلية والسياسية والحربية ، الحكيمة ، الملكية ، لهنرى الأكبر ، الذى أهداه « إلى فرنسا، إلى جميع الجنود الطيبين ، وإلى جميع الشعب الفرنسى » . وفى آخر سنى لويس الثالث عشر بدأت جماعة من اليسوعيين الفلمنكيين يتزعمهم جان دبولان نشر كتاب « اكتا سانكتورم »

(أعمال القديسين) الذى أورد فى نقد حذر سير القديسين حسب الترتيب الذى تخلدهم به الكنيسة الكاثوليكية . وتابعت الجماعة هذا الجهد فى حماسة على الرغم مما اعترى جمعية اليسوعيين من غير ، حتى بلغت مجلدات الكتاب خمسة وستين عام ١٩١٠ . واحتج عليه بعض مروجى الأساطير ، ولكن الكتاب مفخرة لعلم أعظم الطوائف الدينية تفقها . وأخيراً يجب أن ندرج فى هذه القائمة للمرة الثانية ذلك الرجل المدهش كلى الوجود ، ريشليو ، الذى غمس قلمه فى كل ينبوع أدبى وترك لنا « مذكراته » — وفيها شىء من التحيز للكردينال ، ولكن مكانها رفيع فى ذلك الرتل الرائع من المذكرات الفرنسية التى لا ضريب لها فى أى لغة أخرى .

ولم يكثر صغار الشعراء مثل هذه الكثرة من قبل . فما زال الفرنسيون الأوفياء يقرءون ، ولو فى المدارس ، تيوفيل دفيو ، وفنسان فواتور ، وأونورا دبويل ، مركيز راكان . وقد جعلت غراميات تيوفيل الإباحية وشكوكه الفاضحة منه « فيون » عصره ، وقد حكم عليـه بالحرق ثم خفف الحكم إلى النفى . أما ذكاء فواتور المرح فقد جعـله أكبر ظرفاء الأوتيل درامبوييه (وقد أوشكنا أن نقول أكبر ساخريه) . وحين وعظ بوسويه وهو بعد فى الثانية عشرة من عمره فى ذلك الصالون فى منتصف الليل ، قال فواتور أنه لم يسمع فى حياته عظة تلقى مبكرة متأخرة كهذه .

وشرف هذه العهود الملكية شاعران كبيران . أما فرانسوا مالبرب فقد شرح المبدأ القائل بأن واجب كل عصر أن يرفض الماضى ويعكسه لكى يستمتع بنفسه . وكان رونزار العظيم لا يزال يغنى فى شباب مالبرب ، وكان هو وجماعة البلياد قد هذبوا الشـعر الفرنسى بتوجيهه صوب المثل والموضوعات الكلاسيكية ، ولكن خلفاءهما كانوا الآن يهدهدون فرنسا وخليلاتهم بسونيتات حافلة بالألفاظ الأثرية ، والعبارات الخيالية ، والشطحات الإيطالية ، والتقديمات والتأخيرات السقيمة ، والتلميحات الغامضة ، والأساطير العويصة . واستقر رأى مالبرب على أن الشعر الفرنسى قد أتخم بهذا كله .

وقد درس هذا الشاعر ، الذى ولد فى كان (١٥٥٥) ، فى بازل وهايدلبرج، وأنفق سنوات ° ٩سفار ، وكان قد بلغ الخمسين حين وصل إلى البلاط الفرنسى . وقد شق طريقه إليه برغم وقاحاته وكفرياته ، وأصبح الشاعر الأثير لدى هنرى الأكبر ، ولكن هذا على أى حال أعطاه « من التحيات أكثر مما أعطاه من المال (١٢٥) » . وعاش يبيع شعره لمن يدفع فيه أغلى الأثمان ، وروج لبضاعته بالإطاحة بمن سبقوه . فقد أعلن الحرب — كما أعلنتها متحذلقات صالون رامبوييه — على الألفاظ التى تشتم منها الخلافة الريفية أو عمليات البدن الأقل شاعرية ؛ فحرم التقديمات والتأخيرات ، والألفاظ الغامضة ، والتعبيرات العامية ، والكلمات الريفية والغسقونية شق هذا على الملك) والحشو ، وتنافر النغمات ، واللحن ، والدخيل واللاتينى والفنى من الألفاظ ، والجواز الشعرى ، والقوافى الناقصة . وقال إنه يجب أن يكون منذ الآن جلال فى الأفكار ، وبساطة ووضوح فى التعبير ، وتوافق فى الايقاع ، واتساق فى الاستعارات ، وترتيب فى العرض، وسنطق فى العبارة . والكتابة الجيدة يجب أن تذشر عبيرها وأن ترتاح لها الأذن ، والتقاء الحرفين الصوتيين جريمة سمعية ، ومرض تنفسى . وكان مالرب يجرب أشعاره على آذان خادمه (١٢٦) .

فلنستنشق عبير إحدى قصائده — وهى « تعزية » ، وجهها لصديق فجع بموت ابنته :

« ولكنها كانت ربيبة هذه الدنيا ، حيث تنتهى أجمل الأشياء أتعس نهاية . وردة عاشت كما تعيش الورود ، إشراقة صبح ... ان للموت أحكاماً لا شبيه لها ، وعبثاً نتوسل إليه ، فهذا القاسى يصم أذنيه ويتركنا نصرخ . يخضع لناموسه الفقير فى كوخه الحقير ، ولا يقف الحارس الساهر على أبواب اللوفر سداً بينه وبين ملوكنا (١٢٧) » .

على أن تطبيق مالرب كان أقل فاعلية من مبادئه ؛ وعانت أشعاره برودة الصقيع من قواعده ، ولم ير جى دبالزاك فى شعر مالرب إلا نثرا

جيداً ، وكان يحاول فى ذلك الوقت إصلاح النثر . ولكن الأوتيل دارمبوييه احتضنه ، واعتنقت الأكادمية مبادئه ، وورثها بوالو أساساً للأسلوب الكلاسيكى ، وقد أصبحت مدى قرنين قميصاً مقدساً صارماً من شَعر وزرد يلبسه شعراء فرنسا الغنائيون . وانتفخ ماليرب فى شيخوخته حتى أصبح إماما حقيقياً للشعر ، وحجة يستفتى فى مسائل اللغة والأسلوب ؛ وحياه بعض المعجبين بوصفه « أبلغ إنسان فى جميع العصور » . وقد وافق على أن « ما يكتبه ماليرب سيخلد إلى الأبد (١٢٨) » . وحين كان على فراش الموت (١٦٢٨) أيقظ نفسه من غيبوبته الأخيرة ليوبخ ممرضته على استعمالها فرنسية غير سليمة (١٢٩) .

أما ماتوران رينييه فقد رأى فيه شاعراً مملا ، وتجاهل قواعده ، وأطلق الشعر كما أطلقه فيون تيارا مندفعاً من حر المواخير . هذا الرجل الذى نذر للقسوسية ضيع نفسه فى فينوسبرج حتى شاخ ، وشاب قرناه وهو بعد فى شرخ شبابه . فنى الحادية والثلاثين عجزه النقرس والزهرى . وكان لا يزال يجد « كل امرأة تروقنى » ، ولكنهن كن أكثر منه تأنقاً فى الاختيار . وقد كتب بعضاً من أقوى الشعر فى اللغة ، فيه حديث مستهتر عن الجنس ، وهجو وحشى ، ومباراة مع هوراس فى الشكل ومع جوفينال فى المرارة ، وحركة تزخر بالأشخاص أو الأماكن بما يحس أو يرى . وقد هزأ بصفائية « المتحذلقات » اللغوية وصرامة ماليرب الكلاسيكية ، وبدا له أن الحرارة المشبوبة من شعلة باطنة أهم للشعر من التمسك بأصول النحو والبلاغة والعروض . هنا فى فجر العصر الكلاسيكى نشطت الرومانسية . وحتى العلم والفلسفة نالا منه ما يستحقان من قصاص وتوبيخ على تبجحاتهما :

« أيها الفلاسفة الحالمون ، تكلموا فى استعلاء ، وحلقوا فى النجوم وأنتم لا تتحركون من الأرض ، واجعلوا السماوات كلها ترقص على لحنكم ، وزنوا أحاديثكم فى ميزانها . . . واحملوا مصباحاً فى زوايا الطبيعة . . . واعرفوا من يعطى الزهور هذا اللون البديع . . . وحلوا ألغاز الأرض

والسماء ، إن عقلكم يخدعكم كما تخدعكم عيونكم (١٣٠) » .

وفى عام ١٦٠٩ أصبح شاعر البلاط لهنرى الرابع . وبعد أربع سنوات مات وقد أضناه فسقه المشجى ، بعد أن كتب قبريته . « لقد عشت دون ما تفكير ، تاركا نفسى أسير فى رفق ووفق قانون الطبيعة الطيب ، ولا أدرى لم يفكر الموت فىّ ، وأنا الذى لم أتنازل إلى التفكير فيه (١٣١) » .

٥ — بيير كورنى : ١٦٠٦ — ٨٤

كان بيير كورني نجم الأدب فى سماء ريشليو ، فى صحبته أصبحت التمثيلية الفرنسية أدباً ، وأصبح الأدب الفرنسى قرناً من الزمان تمثيلية فى أكثره .

وقد مهدت له الطريق تجارب كثيرة . فى عام ١٥٥٢ أخرج إتيين جوديل أول مأساة فرنسية . وتلتها تمثيليات مشابهة تقلد سنيكا ، وتقوم كلها على طريقته فى قصص العنف ، والدراسات النفسية ، وتدفقات البلاغة ، وقد جردت من الخورس الكلاسيكى ولكنها حشرت فى وحدات أرسطو المزعومة ، وحدة الحركة المعروضة على أنها تحدث فى مكان واحد وزمان يوم واحد . ولكن أرسطو (كما رأينا فى غضون نقاشنا للتمثيلية الاليزابيثية) كان قد اشترط وحدة الحركة أو الحبكة ، ولم يطلب وحدة المكان ، ولم يصر على وحدة الزمان . غير أن كتاب العالم جوليوس سيزار سكاليجر Poetices libriseptem « الكتب الشعرية السبعة » (١٥٦١) طالب جميع الكتاب المسرحين باتباع القوالب اليونانية واللاتينية ، وكرر جان شابلان هذا الطلب عام ١٦٣٠ . هذه الحجج التى تهاوت فى انجلترة أمام عبقرية رجل علمه باللاتينية قليل وباليونانية أقل ، انتصرت انتصارا كاملا فى فرنسا وريثة اللغة والثقافة اللاتينيتين ، وبعد عام ١٦٤٠ سيطر القالب السنيكى ذو الوحدات الثلاث على مسرح المأساة الفرنسية خلال كورنى وراسين ، وخلال فولتير والقرن الثامن عشر ، وخلال الثورة ،

والإمبراطورية ، وعودة الملكية ، إلى أن كسبت الدراما الرومانتيكية فى مسرحية هيجو « ايرنانى » (١٨٣٠) نصرها التاريخى المتأخر .

لم يكن للمسرحية الفرنسية وطن ثابت فى القرن السادس عشر ، فكان عليها أن تربى نفسها فى الكليات وتطوف من بلاط إلى بلاط ، ومن صالة إلى صالة . وفى عام ١٥٩٨ أنشئ أول مسرح فرنسى دائم فى الأوتيل دبورجون بشارع موكونسي . وفى عام ١٦٠٠ افتتح « التياتر دى ماريه » فى ما هو اليوم شارع « التامبل » القديم . وفى المسرحين كان الشكل قاعة طويلة فى الوسط ، حيث كانت الطبقات الأقل يسرا تقف ، وتاكل ، وتشرب ، وتقامر ، وتتشاجر ، وتشاهد التمثيل وتحرس جيوبها ، بينما صفت على الجدران صفان من الألواج يجلس فيها السادة الميسورون . وقبل عهد ريشليو لم يكن يحضر المسرحيات من النساء غير من لا يملكن شيئاً يخشين على فقده . أما المسرح الذى كان مرفوعاً عند أحد طرفى المستطيل فقد بعد عن نصف المشاهدين بعداً جعل تمثيل الفكر أو الشعور بتعبيرات الوجه أمراً عديم الجدوى تقريباً للممثلين ، لذلك شجعوا الخطابة التى تستطيع الوصول إلى أبعد الآذان . وكانت الحفلات تقام بعد الظهر ، من الخامسة إلى السابعة عادة ، واشترط القانون أن تنتهى قبل حلول الظلام ، لأن المسرحين كانا يقعان فى أحياء خطرة من المدينة . أما الممثلون فكانوا قبل موليير يستقدمون عادة من إيطاليا وأسبانيا . وكان النساء يؤدين أدوار المرأة . وفرضت الحاجة إلى الدخل الاتكاء الجرىء على الجنس فى التمثيليات الفكاهية . وحاولت الكنيسة والبرلمان عبثاً تنقية المسرح الفكاهى أو حظره . ونهض ريشليو بالمستوى الخلقى للدراما الفرنسية ببسط حمايته وإشرافه على بعض كتابها ، وبحضور الحفلات التمثيلية بشخصه ، وبالتعاون مع روترو ، وسكارون ، وغيرهما فى تأليف التمثيليات . وهكذا ، وتحت بصره الشامل ، مهد أسلاف كورني — وهم جارنييه وآردى وروترو — الطريق للنجاح التاريخى الذى حققته مسرحية « السيد » .

لقى كورنيى ما يلقاه كل مكافح فى طريقه إلى التفوق من تقلبات . ولد فى روان (١٦٠٦) ؛ وعوقته نشأته فى عاصمة اقليمية بمنأى عن حوافز باريس وفرصها الأدبية ، ولكن أباه كان قاضياً نابها استطاع أن يوفر لبيير أفضل ما أتيح من تعليم فى كلية اليسوعيين المحلية . وقد استخدم هؤلاء المربون الغيورون المسرحية أداة للتعليم . وعلموا الطلاب أن يمثلوا باللاتينية مسرحيات كلاسيكية وغيرها ، وقد أثر هذا التقليد اليسوعى فى المسرحية الفرنسية موضوعا وتقنيةً وأسلوباً . وبالطبع لم يقصد أحد ببيير أن يكون كاتباً مسرحياً ، فقد نشئ فى القانون ومارسه فترة ، ولعل فن الفصاحة القانونية واعتيادة عليها شاركا فى صوغ البيان الذى يجلجل فى مآسيه .

وحين ناهز الحادية والعشرين وقع فى غرام المرأة والشعر فى وقت معاً تقريباً ، ولكن السيدة صدته ، فوجد ملاذه فى القوافى . وقد خلف الجرح فيه اكتئاباً وإحجاماً دائمين ، فتمثل بالمداد المسرحيات التى حرمت على دمه . وانقضت إحدى عشرة سنة قبل أن يجد له زوجة (١٦٤٠) — ولم يجدها إلا بمساعدة من ريشليو ، ولكنه خلال ذلك تصور العدد الكبير من مآسى أو مهازل فيها تودد المحبين أو شهامة الأبطال . وفى عام ١٦٢٩ حمل إلى باريس أولى تمثيلياته « مليت » ، فمثلت فى الأوتل دبورجون ، وكانت رباعية سخيفة من الحب والدسيسة ، ولكن حوارها المفعم بالحياة أعانها على النجاح ، واصطلى كورنيى فى دفء الشهرة . وكلفه ريشليو هو وأربعة غيره بكتابة تمثيليات فى موضوعات وبطرق اقترحها الكردينال . غير أن كورنيى أدخل على هذه الخطة الموضوعة له تعديلات فى استقلال كثير . وعبس « صاحب النيافة الأحمر » ، فانسحب كورنيى غاضباً إلى روان ، ولكنه ظل يتسلم من ريشليو معاشا قدره خمسمائة كراون فى العام .

وحركه وجرح كبرياءه نجاح مأساة « سوفونيسب » التى كتبها ميريه ، فهجر التمثيلية الفكاهية ، ودرس سنيكا ، وحمل إلى باريس عام ١٦٣٥

تمثيلية « ميديه » . هنا ظهرت صفاته الجوهرية لأول مرة — وهى قوة الفكر وسمو الحديث . وراح منذ الآن ، مع بعض الاستثناءات ، يملأ مسرحه برجال ونساء رفيعى المقام ، ويضفى عليهم العواطف الرفيعة التى يعرب عنها فى لغة جزلة وحجة قوية . وحين استمع وولر ، الشاعر الإنجليزى المعاصر ، إلى « ميديه » نادى به إماما جديداً ، « فغيره ينظم الشعر . ولكن كورنيى هو الوحيد الذى يستطيع أن يفكر[١٣٢] » . — واسمى ضروب الفن ما أشرب بالفلسفة . ومن مسرحية الرومان واليونان الملحمية ، ومن معلميه اليسوعيين ، ومن تأملاته الحزينة الموحشة — هـذه الأبيات الجليلة ، السداسية التفاعيل ، تزحف زحف الجيش فى أحلامه — بلغ كورنيى مستوى من الفكر والأسلوب لم يعهد قط فى التمثيليات الفرنسية من قبل وندر أن عرف بعده .

يضاف إلى هذا أدب درامى آخر اجتذبه وشكله . إنه لم يستطع أن يستقى من المسرح الاليزابيثى غير القليل ، لأن هذا المسرح أغفل القواعد الكلاسيكية أغفالا لا يناسب قالبا كلاسيكيا . ولكن أسبانيا كانت فى هذا العصر مجنونة بالمسرح ، تغدق التكريم على لوبى دى فيجا وتيرسو دى مولينا وكالديرون دىلاباركا كأنهم الورثة الأكفاء الوحيدون لسوفوكليس ويوريبديس ، وتيرينس وسينكا . وفى المسرحية الاسبانية وجد كورنيى موضوعا دراميا بطبيعته — قانون الشرف أو العرض ، الذى فرض الموت جزاء لكل إهانة أو إغواء . فتعلم الأسبانية ، وقرأ « مغامرات السيد » لجيين دى كاسترو (١٥٩٩ ؟) ، واستعار الحبكة دون اعتذار أكثر من اعتذارات شيكسبير ، وكتب أشهر تمثيلية فى الأدب الفرنسى (*) .

(*) السيد . وهى كلمة « السيد » العربية كان اللقب الذى لقب به المسلمون السيد رودريجو دياز البطل شبه الأسطورى الذى اشترك ا حوالى عام ١٠٨٥) فى استرداد أسبانيا للمسيح .

ومثلت السيد عام ١٦٣٦ . وشعر النظارة أنه لم يظهر على خشبة المسرح الفالى بعد شيء بهذه القوة . قال معاصر « جميل جدا أنها ألهمت بالحب حتى أكثر السيدات بزودا ، فتفجرت عاطفتهن أحيانا في المسرح العام . وشوهد في الألواج ناس قل آن بارحوا قاعاتهم المذهبة ومقاعدهم المكسوة بالزنبق شعار الملكية(١٣٣) » . ولم يعرف الكثيرون أن فكرة المسرحية مستعارة مع أن كورني اعترف بهذا صراحة ، وتعجب الجميع من لطافتها المتشابكة . فشيمين الفتاة العريقة المولد ، ورودريج النبيل ، عاشقان متيمان . ولكن أبا شيمين . وهو الدون جوميز ، يتشاجر مع والد رودريج ويسبه وهو شيخ عليل ؛ ويتحدى رودريج جوميز للمبارزة ويقتله . وتشعر شيمين ، وهى مبقية على حب رودريج ، بأن داعى الشرف يدعوها لرجاء الملك فرديناند أن يقطع رأسه أو ينفيه ؛ وهذا الصراع الذى يعتمل فيها بين « واجب الشرف » ودعاء الحب يضفى على القصة وعواطفها المتشابكة قوة وحدة فائقتين . أما رودريج فيقدم سيفه لشيمين ويدعوها لقتله ، ولكنها لا تستطيع الانتهاء إلى قرار . فينطلق إلى محاربة المسلمين ، ويعود إلى إشبيلية وفى موكبه الملوك الأسرى وهالات المجد ، وتتغنى باسمه إشبيلية كلها ، ولكن شيمين لا تزال تطالب بموته . وحين يرفض فرديناند ، تعد بأن تتزوج أى رجل يتحدى حبيبها ويقتله . ويضطلع سانشو بالمهمة . ويقترح رودريج أن يدع سانشو يقتله . ولكن شيمين تندم على انتقامها ، وتتوسل إليه أن يدافع عن نفسه . فيهزم سانشو ، ولكنه يبقى عليه ، وأخيرا يتم استرضاء قانون الشرف ، وتقبل شيمين حبيبها ، وينتهى كل شيء نهاية سعيدة .

واحتفلت باريس طوال نصف موسم بجمال شيمين وناقشت سلامة عقلها . وسمعت نغمات سياسية صاحبت النقاش . ذلك أن ريشليو حرم المبارزات ، ولكنها تبدو فى التمثيلية جزءا من القانون الأعلى . أما النبلاء الكارهون لريشليو فقد تهللوا لتيل أرستقراطية ما زالت تتولى العقاب

بنفسها . كذلك لم يسر الكردينال كثيرا لنجاح رجل توقف عن تلقى توجيهاته الأدبية، فطلب إلى أكاديميته الوليدة أن تصدر نقدا منصفا للتمثيلية ، ولم يكد يخفى أمله فى أن يكون الحكم ضدها . وأطالت الأكاديمية مناقشاتها حتى تهدأ الأعصاب ، وأخيرا ، وبعد خمسة شهور ، نشرت رأيها ، وكان حكمها فى جملته معتدلا منصفا . فقد اعترضت على الاشادة الواضحة بالحب الرومانسى ، ورأت أن حل عقدة التمثيلية لا يحتمل التصديق ، ووجدت فى كلمات شيمين الأخيرة لرودريج وهو ماض إلى قتال سانشو بعض الحلاقة والغرور السخيف « عد ظافرا من قتال جائزته شيمين » . على أن هذا النقد لطفته الفقرة الختامية فى حكم الأكاديمية تلطيفا جميلا :

« يجب أن يغتفر الناس ، حتى العلماء منهم ، بعض الاغتفار شوائب عمل ما كان يحظى بإبهاج المجتمع إلى هذا الحد لولا ما فيه من مواطن جمال غير عادية .... وأن طبيعة عواطفه وعنفها ، وقوة الكثير من أفكاره ورقتها ، والسحر الفائق الوصف الذى يمتزج بكل عيوبه — كل أولئك قد كسب له مكانا عاليا بين القصائد الفرنسية التى من هذا النوع(١٣٤) » .

ولم تتخذ الأكاديمية صفة القاضى الأدبى بعد ذلك إطلاقا . أما كورنيى فقد لطف من الموقف باهدائه تمثيلية « السيد » عند نشرها إلى ابنة أخت الكردينال المحبوبة ، ورائعته التالية « أوراس » (١٦٤٠) للكردينال نفسه ، وكان ليفى قد روى هذه الأسطورة فى « تاريخه » . ففى اليوم ذاته ولدت أختان توأمان ، فى مدينتين مختلفتين ، كل منهما ثلاثة توائم ذكور — أبو الأولين هوراتيوس فى روما ، وأبو الآخرين كورياتوس فى ألبا لونجا . وبعد جيل ارتبطت الأسرتان برباط أوثق ، وذلك بزواج سابينا ابنة كورياتوس ، بأوراس وهو ابن هوراتيوس ، وبحب كاميللا ابنة هوراتيوس لأحد توائم كورياتوس . ولكن المدينتين تنزلقان إلى الحرب ، ويلتقى جيشاهما وجها لوجه . أما سابينا وكاميللا فترتعدان فى المعسكر الرومانى ، وتحدد سابينا الموضوع النسائى الذى تردده التمثيلية .

« انى وا أسفاه رومانية ما دام أوراس رومانيا ؛ فقد اتخذت لقبــه حين قبلت يده ، ولـكن هذا الرباط سيستّرنى لو حجب عن ناظرى مسقط رأسى — ألبا ، حيث بدأت أتنفس الحياة ، ألبا ، وطنى العزيز وحبى الأول ؛ انى حين أرى الحرب تنشب بيننا وبينك أخاف النصر خوفى من الهزيمة . فإذا شكوت يا روما من أن هذا خيانة لك ، فاصنعى لنفسك أعداء أستطيع أن أكرههم . فانّى لى وأنا أشهد من أسوارك جيشهم وجيشنا ، وأرى اشقائى الثلاثة فى جيش وزوجى فى الآخر ، أن أصوغ صلواتى وألح على السماء فى أن تسعدك دون أن يكون فى هذا خروج على الولاء[١٣٦] ؟ » .

وهكذا لا يعرض كورنيى موضوعا هو مجرد معركة سلاح ورجال ، إنما هو صراع الولاءات المشبوبة ، ومأساة الحق يصارع الحق ؛ فإذا تلقى قلمه هذا الإلهام . انطلقت منه عبارات محكمة القوة ؛ وأبيات تسير بخطى عسكرية وأنغام مجلجلة .

أما قائد ألبا فيذكر الرومان بأنهم هم وأهل ألبا أبناء دم واحد ووطن واحد (أكان فى ذهن كورنيى الكاثوليك والهيجونوت ؟) ، وأن من الاجرام تقطيع أوصال إيطاليا (فرنسا ؟) بالحرب الأهلية ، ويقترح انهاء الحرب بنزال ثلاثة من أهل ألبا مع ثلاثة من أهل روما . ويقبــل الاقتراح ، وتتاح للنساء ساعة من السعادة المرتجفة . ولـكن قائد ألبا يختار توائم كورياتوس الثلاثة ، ويختار القائد الرومانى توائم هوراتيوس . وتبكى النساء ، ويرق الأبطال لحظة لدموعهن ؛ ولـكن هوراتيوس الأب يوبخهم وهو يعلن الفكرة الرجولية ، لأنهم يضيعون الوقت مع النســاء بينما يدعوهم داعى الشرف :

« أدوا واجبكم ، واتركوا الباقى للآلهة[١٣٧] » .

ولـكن الآلهة تخطئ . فيقتل توائم كورياتوس ، ولا يبقى على قيد الحياة من توائم هوراتيوس سوى أوراس . وتعنفه شقيقته كاميللا لقتله

خطيبها ، وتندد بروما وبناموس شرفها وحربها . فيقتلها وهو بعد سكران بنشوة المعركة لأنها ليست جديرة بأن تكون رومانية . وتوبخه زوجته سابينا على قسوته ، وتبكى أشقاءها القتلى ، وتدعو أوراس ليقتلها هى أيضاً . أما هو فيحاول اقناعها بأن الوطنية أسمى من الحب .

وفكرة التمثيلية بالطبع لا تصدق ، ولكنها فى هذا لا تزيد عما فى شيكسبير . إن الدرامى بحكم تعريفه شاذ ؛ والمسرحية مقضى عليها إن هى وصفت الواقع فى غير تحيز . وهى ترتفع إلى مقام الفن إذا استطاعت بتجاهلها ما ليس متصلا بموضوعها واختيارها للمهم أن تزيدنا عمقاً بفهم أكمل للحياة . لقد ورث كورنى تمجيد النهضة لروما القديمة ، وأيد المفهوم الصارم للواجب أمام انحلالات الحب التى سيطرت على المسرح الفرنسى قبله ، فصمم ألا يكون أبطاله عشاقاً أولا ، بل وطنيين أو قديسين .

وقد اختار من التقويم الكاثوليكى قديساً يسيطر على تمثيلية أقوى حتى من هذه . يقول سانت — بوف : « كل الناس يعرفون « بوليوكت » ، ويعرفونها عن ظهر قلب[١٣٨] . والبناء فى هذه التمثيلية كلاسيكى على نحو صارم ، إذ يتقبل الوحدات كلها ، ولكنه يبنى داخلها مأساة معقدة ذات قوة مركزة . ولا يصلنا اليوم سوى فصاحة التمثيلية فى مكاتبنا ، ولكن يجب أن نسمعها منطلقة من أفواه الممثلين الفرنسيين يتحركون فى جلال على خشبة المسرح ، أو تحت النجوم فى فناء الانفاليد أو اللوفر ، وحتى مع توافر هذه الشروط يجب أن نملك ناصية الفرنسية وتكون لنا أرواح فرنسية . ويجب أن نكسو أنفسنا من جديد بإيماننا الشاب . أما الحبكة فتدور حول تصميم بوليوكت ، الرومانى المثقف ، المعتز بنفسه ، حديث العهد باعتناق المسيحية ، على تحطيم مذبح الآلهة الوثنيه . اما زمن التمثيلية فهو الاضطهاد الديشى (٢٤٩ — ٥١ م) ، وأما مكانها فليتين ، وهى عثفر أمامى رومانى فى أرمينيا ، ومشهد الدراما كلها قصر فيلكس الوالى الرومانى . وقد دعى المسيحيون جميعاً ، منذرين بالموت عقابا للمخالفين ،

أن يشتركوا فى صلاة تنتظم الإمبراطورية بأسرها وقربان للآلهة القديمة طلباً لتأييدها للجيوش الرومانية ضد الهمج المغيرين المحدقين بها . ويشتعل بوليوكت بغيرة المؤمن المهتدى ، فيبغى بعمل مثير أن يشجع المسيحيين على مقاومة الأمر الإمبراطورى . ويعوقه عن هذا حبه لزوجته بولين ، ابنة الوالى ، ولكنه يضحى بالحب فى سبيل الواجب كما يفعل أبطال كورنيى الصادقون . وفى حضرة فيلكس ذاته يقطع هو وصديق له الطقوس الوثنية، ثم يناشدان العابدين أن ينصرفوا عن جوبيتر الفاجر إلى إله المسيحيين ، « الملك الواحد القهار للأرض والسماء » ، ولكى يفضحا «المسوخ العاجزة» التى يتألف منها مجمع الآلهة الرومانى يرتقيان المذبح ويحطمان آنية الشعائر وتمثال جوبيتر . ويأمر فيلكس بالقبض على منتهكى هذه المقدسات . وتتوسل بولين إلى بوليوكت أن يتوب عن تدنيسه المعبد ، ولكنه يدعوها بدلا من ذلك إلى اعتناق دينه الجديد . وتناشد بولين أباها أن يعفو عنه فيأبى ، وتجهر هى باعتناقها المسيحية وتستعد لمرافقة زوجها إلى الموت . ويتأثر فيلكس تأثراً يحمله على اعتزال منصبه واعتناق المسيحية . ثم ينتهى الاضطهاد فجأة ، ويرد فيلكس إلى منصبه ، ولكن بوليوكت قاسى أثناء ذلك عذاب الاستشهاد .

وكل ما فى التمثيلية تحلية للتاريخ من قلم كورنيى ، فيما عدا الاستشهاد وتدنيس المذبح ؛ كذلك هو خالق وقاحة القديس المتعالية وعنف الفعل ؛ وحين قرأ المؤلف التمثيلية فى الأوتيل درامبوييه ، أدان عدد من السامعين ، ومنهم أحد الأساقفة ، بوليوكت لخشونته وتطرفه فى غير ضرورة . وفكر كورنيى حينا فى وقف التمثيلية ، ولكن نجاحها على المسرح رفعه إلى أوج حياته الأدبية (١٦٤٣) . وبقى له فى أجله آنذاك واحد وأربعون عاماً سنرى أنه أنفقها فى منافسة مع راسين ، ولكنه لم يؤت العلم بأنه قد كتب أعظم أعماله فى هذه المسرحيات الثلاث — بل يرى البعض أنها أفضل المسرحيات فى تاريخ المسرح الفرنسى كله . وهى تختلف عن الدراما

« الرومانسية ، التى شاعت فى انجلتره الاليزابيثية أو فرنسة القرن التاسع عشر اختلافاً يقتضينا إعانة التاريخ بالخيال لتعليل سلطانها على زمانها وعلى مسرح اليوم . إن فى كورنيى روحاً رومانسية أيضاً بقدر ما فى شيكسبير ، وعواطف مدروسة بأكثر من عناية ديكارت ورهافته ، ولكن اتباع مثل العصر الكلاسيكية اقتضى اخضاع العواطف — على ما فيها من تعبير قوى — « للعقل » — أو للحجة . والإسراف فى الحجج هو ثقل الموازنة لهذه التمثيليات ، بحيث قل أن تحلق التحليقات التى تكثر جـداً فى راسين . أما الحركة فتبعد عن خشبة المسرح ، فليس عليها سوى السرد ، والحض ، والفصاحة ، وكل شخوص كورنيى محاجون بارعون . أما الفرنسيون فتتلاشى فى نظرهم هذه العيوب فى بهاء الأسلوب وجلال الموضوعات . فإذا عن لنا فى أى عمل فنى أن نلتمس السمو ، أو نبحث عن فكرة أو شعور يرفعنا فوق ذواتنا وزماننا ، وجدنا هذا مردداً فى كورنيى . لقد كتب وكأنه يكتب للساسة والفلاسفة ، ونظم أبياته وكأنه يلحن موسيقى ، وتحت عبارات ما زالت ملازمة لذاكرة فرنسا . وامتزجت الآن الروح الكلاسيكية والاستقراطية — روح العقل يكبح العاطفة ، والشكل يسيطر على المضمون — بضبط النفس الرواقى ، وبالشرف الأسبانى ، وبالذكاء الفرنسى ، ليخرج من هذا كله مسرح بعيد عن المسرح الاليزابيثى بعد السماء عن الأرض ، وهو مع ذلك ، بفضل راسين وموليير أيضاً ، يعدله قيمة وتألقاً فى تراث البشرية .

٦ — العمـــارة

أكان انتصار المزاج الكلاسيكى ملحوظاً فى الفن كما فى الأدب ؟ إنه يطالعنا فى كل واجهة بناء فرنسى تقريباً فى ذلك العصر . لقد رممت بعض الكنائس القومية ترميما قوطياً ، مثل كاتدرائية أورليان ، ولكنا نجد فى الأكثر كنائس قديمة — ككنائس سان جرفيز وسانت — إتيين — دومون —

زينت من جديد بواجهات من طراز النهضة . وقد نلحظ فى الكنائس الجديدة طرازا إيطاليا جديداً يعمها كلها ؛ وهكذا صمم جاك لومرسييه كنيسة السوربون على غرار كاتدرائية القديس بطرس — أعمدة ، وقواصر ، وقبة . ففى العمارة ، كما فى الأخلاق ، والأدب ، والفلسفة ، أضفى الإحياء الوثنى على المسيحية وجهاً جديداً جريئاً .

وطوى تيار النهضة الكل حتى اليسوعيين ، وكانوا أسرع استجابة له لأنهم وهم طائفة دينية لم تقيدهم جذور من العصر الوسيط . ففى أجيالهم الأولى حين تزعمهم لويولا ولينيز ، كانوا مبشرين صارمين لا يخشون أحداً ، ومنافحين مخلصين عن المعتقد السليم والبابوات ، ولكنهم استبقوا قدراً من النزعة الكلاسيكية فى مجمع ترنت ، وكما جعلوا الدراسات الكلاسيكية لب برامج التعلم فى كلياتهم ، كذلك اختاروا فى العمارة الواجهات الشبيهة بالكلاسيكية لأهم معابدهم . ومن كنيستهم الرائعة فى روما ، « كنيسة يسوع » ، حملوا طراز الزخرف الفاخر عبر الألب وفوق البرانس . على أنهم لم يكونوا ملتزمين بدرجة متماثلة بالزخرفة الفياضة . من ذلك أن أشهر معمارييهم — الذى شيد واجهة جناح كاتدرائية أورليان — صمم كنائس وكليات متوخياً البساطة الشديدة التى تناسب خلقه وما تحت يده من مال . ولكن حين أثرت الطائفة بنت فى وفرة بهيجة . ففى عام ١٦٢٧ بدأت بناء الكنيسة الجميلة التى تعرفها باريس عادة باسم « الجزويت » — وواجهتها رومانية ، وداخلها مزين زينة أنيقة بالتيجان والأقواس والكرانيش ، وأقبية الخورس تلتقى فى انسجام لتدعيم قبة مضيئة ؛ وقد وصف جون افلين الذى كان يجوب باريس عام ١٦٤٤ هذه الكنيسة بأنها « من أكمل قطع العمارة فى أوربا (١٣٩) » . إنها لم تكن باروكا على نحو منفر ، ولم تحتو على أى شىء مشوه أو غريب . فالباروك فى فرنسا رصنه الذوق الاستقراطى — تماماً كما هذب رونزار وماليرب قباحات رابليه .

وتخلفت العمارة الدينية خلال الحروب الدينية ، وفى فترات السلام التى تخللتها نمت العمارة المدنية . فارتفعت قاعات المدن فى لاروشيل، وليون، وتروا ، ورانس . وفى باريس أرادت كاترين دى مديتشى أن تخلى قصر اللوفر لشارل التاسع ومليكته، فاستأجرت فيليبر ديلورم ليبنى لها ولمساعديها قصر التويلرى (١٥٦٤) — الذى اشتق اسمه من مصانع القرميد (التويل) الفخارى القريبة . وارتفع القصر الجديد ، الذى قامت فى واجهته العمد الكورنثية وفق طراز النهضة ، غربى اللوفر عند ميدان كاروسل الحالى ، وامتد ٨٠٧ قدما بطول السين . وقد أحرق فى فتنة الكومون عام ١٨٧١ ، ولم يبق منه سوى الحدائق — حدائق التويلرى اللذيذة .

واستعادت العمارة المدنية نشاطها سريعا فى عهد هنرى الرابع . وأصبح البون نوف ، الذى افتتح للمرور عام ١٦٠٤ ، أحب الجسور التى تمتد فوق السين . أما الأوتيل دفيل الذى أنجز فى السنة التى مات فيها هنرى ، فقد ظل إلى عام ١٨٧١ مفخرة للشعب تنافس النوتردام واللوفر . وكما فعل فرنسيس الأول ولويس الرابع عشر ، أظل هنرى الفنانين برعايته ، وفهمهم ونسق عملهم . فوسعوا له اللوفر بإضافة البافيون دفلور ووصلوا بينه وبين التويلرى بالرواق الكبير . وفى فونتنبلو بنوا المصلى ، ورواق الوعول ، والفناء والصالون البيضى ، والبورت دوفين ، ورواق ديان . ولقد كانت فونتنبلو فى عهد هنرى الأكبر ذروة النهضة الفرنسية .

أما أرملته مارى دمديسى ، فقبل أن تصطدم بريشليو، كلفت سالومون دبروس أن يصمم لها قصر لكسمبورج ، فى شارع فوجيرار جنوبى السين (١٦١٣ — ٢٠) . ولما تحرر لويس الثالث عشر وريشليو من نفوذها عهدا إلى لومرسييه أن يوسع اللوفر مرة أخرى بوصفه مقر الحكومة ، فأنجز الآن البافيون دلورلوج ، ووسع الجناحان الكبيران ، واتخذ البناء الفخم شكله الحالى فى أساسه . ومن تصميمات لومرسييه بنى ريشليو فى باريس « الباليه كردينال » الأنيق حيث جمع مجموعاته فى التصوير

والنحت وغيرهما من الفنون ، هنا كانت أعمال مانتينا ، ودافنشى ، وفيرونيزى ، و « عبيد » ميكلانجلو . وقد انتقل أكثر هذا الكنز إلى لويس الثالث عشر والرابع عشر ، ثم إلى اللوفر ، ثم إلينا .

أما فى عمارة البيوت فقد أعاد فرانسوا مانزار تشكيل أفق باريس بتطويره « سقف مانزار » — وهو سقف ذو منحدرين ، أسفلهما أحد من أعلاهما ، مما يتيح تصريف الثلج والمطر بسرعة ، ويفسح فراغا أكبر فى الطابق العلوى ؛ وكم من طالب أو فنان باريسى سكن هذا « المانزار » أو العلية . وصمم مانزار عدة كنائس فى باريس ، وعدة قصور ريفية فى فرنسا — وأنجحها فى حى يعرف اليوم بميزون لافيت ، وهو ضاحية من ضواحى العاصمة . وفى عام ١٦٣٥ عهد إليه « مسيو » جاستون دورليان أن يعيد بناء قصر الأسرة فى بلوا ؛ ولم ينجز مانزار سوى الجناح الشمالى الغربى ، وما زالت واجهته المبنية بطراز النهضة وسلمه الفاخر رائعة « أبرع معمارى أنجبته فرنسا فى تاريخها » (١٤٠) .

٧ — فنون كثيرة

وبهذا المزاج نفسه ، مزاج التقاليد الكلاسيكية التى يرقق منها الصقل الشعور الفرنسيان ، زين النحاتون الكنائس ، والقصور ، والحدائق ، ومقابر العظماء . وقد ورث جرمان بيلون رشاقة النهضة التى اتسم بها تشلينى ، وبريماتيكيو ، وجان جوجون ، ولكنه لم ينس المزيج القوطى من الرقة والقوة . أما روائعه فثلاث مقابر ، إحداها — وهى المقامة فى كنيسة دير القديس دنى — جمعت فى الموت بين كاترين دى مديتشى وهنرى الثانى ، زوجها لفترة ما — وقد أضفى الفنان على الملكة جمالا مثاليا كان خليقا بأن يدفئ قلبها الموحش . والثانية ، الموجودة الآن فى اللوفر ، كرمت رينيه دبيراج ، مستشار فرنسيس الثانى وشارل التاسع — وهى صورة للكبرياء الخاضعة للتقوى ، ومعجزة من الثياب الطبيعية التقطها المثال فى البرونز . وإلى

جوارها مقبرة زوجة رينيه ، فالنتين بالبيانى : وفى أعلاها ترى السيدة فى شرخ شبابها وقد خلعت عليها الحلال أرواب تعلوها الوجوه ، وفى أسفلها هذا الجمال ذاته منحوتا بغير رحمة فى هيئة جثة لهـا وجه وأيد وأرجل عجاف وصدر متغضن وثديان فارغان غائران ؛ إنها صيحة غضب قوية على الدهر وانتهاكه الساخر للجمال . وهذه المقابر وحدها كانت تكفى لرفع بيلون إلى مقام أعلى من مقام أى نحات فى عصره ، ولـكنه أضاف إليها العدد الوفير من التماثيل ، وكلها ذات محاسن أخاذة ، وأكثرها جمع فى اللوفر ، خزانة فرنسا التى لا ينضب لها معين .

وهناك أيضا ، وعلى بضع خطوات ، نستطيع أن نرى أعمالا لخلفاء بيلون : تمثالا بالحجم الطبيعى لهنرى الرابع من صنع بارتلمى ترمبليه ، وعلى فمه ابتسامة غامضة كابتسامة مونا ليزا ، ومقبرة آن دمونمورنسى التى نحتها بارتلمى بريور ، وتمثـالا حيا يسمى « الشهرة » لبيربريار — هو امرأة عارية تنفخ أنفاسها من خدين منتفخين وتكتب فى الهواء كأنها تضيف تحسينا إلى كلمات كيتس « هنا يرقد إنسان كتب اسمه فى الريح » . وفى مصلى شانتيى أثر يذكر للكردينال دبيرول صنعه جاك سارازان . وقد درس بعض هؤلاء النحاتين فى روما وجلبوا معهم من برنينى ميلا باروكيا للزخرف والحركة والعاطفة المسرفة ، ولكن هذا الاسراف سرعان ما تلاشى تحت نظرات ريشليو الباردة وذوق لويس الرابع عشر الكلاسيكى . ويبدأ ظهور ذلك الكمال الناعم الذى طبع « القرن العظيم » فى ميداليات جان فاران ، الذى وفد من لييج ليعيش فى فرنسا ، والذى بلغ فنه فى الصور الصغيرة التى رسمها لريشليو وماراران وآن النمسوية براعة لم يبزه فيها أى رسام ميداليات جاء بعده .

ولو لم تخلف لنا فرنسا أى نحت أو عمارة أو تصوير لحق لها برغم هذا أن تحوز احترامنا وحبنا لما أنجزته فى ميدان الفنون الصغيرة . فحتى فى هذه الفترة المضطربة بين حكم فرنسيس الأول وحكم لويس الرابع عشر ، نافست فرنسا — بل فاقت فى رأى البعض — إنتاج معاصريها من فلاندر إلى إيطاليا ، سواء فى الرسوم ، أو المحفورات ، أو اشغال المينا ، أو الصياغة ، أو قطع الأحجار الكريمة ، أو مشغولات الحديد أو الخشب ، أو المنسوجات ، أو السجاد المرسوم ، أو تصميم الحدائق . فرسوم جاك كاللو للغجر ، والشحاذين ، والمتشردين ، تحمل معها ريح الحياة ذاته ؛ أما سلسلة كلشيهات « آلام الحرب » فقد سبقت جويا بقرنين . وحسبنا حكما على براعة أشغال الحديد فى ذلك العصر حاجز القضبان المؤدى إلى قاعة أبوللو فى اللوفر . أما السجاد المرسوم فكان صنعه فنا لا يقل أهمية عن النحت أو التصوير . كان جان جوبلان قد افتتح مصانع للصباغة بباريس فى القرن الخامس عشر ؛ وفى القرن السادس عشر أضافت المؤسسة مصنعا للسجاد المرسوم ، وأنشأ فرنسيس الأول مصنعا آخر فى فونتنبلو ، وهنرى الثانى مصنعا ثالثا فى العاصمة . وحين ذهبت كاترين دى مديتشى للقاء المبعوثين الأسبان فى بايون أخذت معها اثنتين وعشرين سجادة نسجت لفرنسيس الأول لتعرض ثراء فرنسا وفنها . ثم اضمحلت هذه الصناعة التى جمعت بين الحرفة والفن فى عهد هنرى الثانى ، ولكن هنرى الرابع أصلح من شأنها بجلب جيل جديد من الرسامين والصباغين والنساجين الفلمنكيين لمصنع جوبلان فى باريس . وهناك خمسة نماذج ممتازة ترجع إلى عهده — موضوعها صيد ديانا — تزين مكتبة مورجان بنيويورك .

وأحست الزخرفة الداخلية تأثير الباروك يتسرب إليها من إيطاليا . فنقشت الكراسى ، والموائد ، والصناديق ، والبوفيهات ، والدواليب ، ومناضد الزينة ، والسرر — ونقشت فى بذخ ، ورصعت فى كثير من الحالات بالأبنوس أو اللازورد أو اليشب أو العقيق ، أو زينت بالتماثيـــل

الصغيرة . وفى عهد لويس الثالث عشر نجد الكثير من المقاعد بالمخمل ، أو أشغال الابرة ، أو النسيج المرسوم . وقد تنقش الجدران والكرانيش والأسقف أو ترسم بمهرجان من صور النبات والحيوان . وفقدت المدافئ بعض صرامة العصر الوسيط ، وحليت أحيانا بنقوش عربية فى ألوان متعددة .

أما فى الخزف فكان العصر قمة فن رجلين عجوزين : ليونارليموزان ، الذى استمر حتى عام ١٥٧٤ ينتج أشغال المينـــا التى أذاعت شهرته أيام فرنسيس الأول(*) ، ثم برنار باليسى الذى ولد عام ١٥١٠ وعمر حتى عام ١٥٨٩ . وكان باليسى مجنونا بالخزف ، فيه فضول قوى ينتظم ميادين الزراعة والكيمياء والدين ، وله ولع بكل شىء من تكون الأحجار إلى طبيعة الإله . درس كيمياء أنواع التربة المختلفة ليحصل على أفضل الطفل لقمينته ، وأجرى تجاربه سنين عديدة لينتج مينا بيضاء تتقبل الألوان الرقيقة وتحتفظ بها . وأحرق نصف متاعه وقودا لفرن حراراياته ، وقد روى القصة وكأنه يتحدى تشللينى . وكان يقوم بالعمل كله بنفسه لأن فقره أعجزه عن أن يستأجر من يساعده ، وكثيرا ما كانت يداه تمتلئان بالقطوع حتى قال « كنت أضطر لأكل حسائى ويداى مربوطتان بأسمال » . و« بعد أن مضيت فى مثل هذا عشر سنوات نحل جسمى حتى لم يبد على ذراعى وساقى أى عضلات ، وبلغ النحول بساقىّ مبلغا استحال معه على رباط جواربى أن يثبت فوقها ... . فإذا مشيت سقطت جواربى على حذائى البالى[١٤١] » . واتهمه جيرانه بأنه يمارس السحر ويهمل أسرته . وأخيرا ، وحوالى عام ١٥٥٠ ، وجد المزيج الذى ينشده ، وصنع مينا من طلاء متقزح اللون ، واستعملها فى تشكيل الآنية والتماثيل الصغيرة المزينة تزيينا بديعا بالسمك ، والسلاحف ، والأفاعى ، والحشرات ، والطيور ، والأحجار — كل غنى الطبيعة الوافر . وأبهج كاترين دى مديتشى أن تضع هـــذه المتحفرات الصناعية فى حديقتها وأحواض أزهارها ، ووهبت الخزاف

(*) لاحظ النماذج البديعة المحفوظة فى مجموعة والاس بلندن ومجموعة فريك بنيويورك .

العجوز مصنعا فى التويلرى ، فأضاف فى بيئته الجديدة الحوريات المختلفة لزخارفه . ومع أنه كان هيجونوتيا غيورا ، إلا أنه أعفى من مذبحة القديس بارتلميو ، لأن كاترين وحاشيتها بهرتهم زهرياته وكئوسه وأطباقه وشمعداناته وأفكاره الطريفة . ولكن فى عام ١٥٨٨ أمر الحلف الكاثوليكى بمحاكمة البروتستنت من جديد ، فأودع باليسى سجن الباستيل . قال أحد كتاب اليوميات فى عام ١٥٩٠ :

« فى هذا العام (عام ١٥٨٩ فى واقع الأمر) مات فى حجرات سجن سجن الباستيل الأستاذ برنار باليسى ، السجين بسبب دينه ، بالغا من العمر ثمانين عاما ، وقد خرّ تحت وطأة الألم ، وسوء المعاملة ، والحاجة . وحين ذهبت عمة هذا الرجل الطيب لتسأل عنه . . . قال لها السجان انها إن أرادت رؤيته فستجده جثة مع الكلاب على الأسوار ، حيث أمر بإلقائه كما يلقى كلب مثله[١٤٢] » .

٨ — بوسان والمصورون

كان التصوير الفرنسى لا يزال أسيرا لفلاندر وإيطاليا . فسيطر رسامو السجاد الفلمنكيون على فنهم فى باريس ، وزكا المصورون الفلمنكيون فى باريس ، وليون ، وتولوز ، ومونبلييه ، وبوردو . وكانت أفضل لوحات هذه الفترة من صنع الفلمنكيين فى فرنسا ، كصورة إليزابث النمسوية البديعة (الموجودة باللوفر) بريشة فرانسوا كلويه ، وصورة هنرى الرابع المعتز بنفسه (فى شانتيى) بريشة فرانز بوربى الابن ، وأهم من ذلك كله صورة ريشليو التى رسمها فليب دشامبين .

ولكن التأثير المسيطر على التصوير الفرنسى فى هذه الحقبة كان إيطالياً . كان طلاب الفن يذهبون إلى روما ، على نفقة الحكومة الفرنسية أحيانا ، ويعودون مترددين بين مثالية فنانى القرن السادس عشر الفلورنسيين ، وواقعية فنانى القرن السابع عشر البولونيين والنابوليين القاتمة . وقد وفق أحد الفنانين الفرنسيين واسمه سيمون فوييه ، وهو بعد فى الرابعة عشرة

(١٦٠٤) ، إلى إذاعة اسمه بين المصورين، حتى تنافست عليه ثلاث دول . وحاول تشارلز الأول أن يحتفظ به فى لندن ، ولكن بارون سانسى أخذه فى بعثة إلى القسطنطينية ، حيث رسم سيمون صورة رائعة للسلطان أحمد الأول ، بعد أن درس ملامحه خفية خلال ساعة مثل فيها السفير بين يديه . وفى عودته مخترقا إيطاليا ، وقع فوييه فى حب البندقية وفيرونيزى ، ثم أحب كارافادجو فى روما ، حيث بسط عليه أدواقها وكرادلتها من الرعاية ما أغراه بالبقاء فى إيطاليا خمسة عشر عاما . وفى عام ١٦٢٧ دعاه لويس الثالث عشر ليكون مصور البلاط ، وكان يجرى عليه معاشا سنويا قدره أربعة آلاف جنيه ، ثم أعطاه سكنا فى اللوفر . وسرعان ما تهافتت فرنسا كلها عليه . فزين مصلى قصر ريشليو الريفى ، ورسم لوحة مذبح لكنيسة سانت أوستاش ، وصمم رسوما للسجاد الملكى ، وصور لوحات للحاشية . وإذ اغرقته هذه المهام كلها فقد جمع حوله معاونيه فى مدرسة نمت حتى أصبحت الأكاديمية الملكية للتصوير والنحت ، وهناك درب واستخدم لوسويور ، وមينار ، واموتر ، وبوردون ، ولوبرن . ولا تكاد أعماله الباقية تبرر هذه الشهرة ، ولكن له فى تاريخ فرنسا مكانا خطيرا هو مكان إعداد مصورى عصر القمة .

أما الأخوة الثلاثة ، أنطوان ، ولويس ، وماتيولونان ، فقد أدخلوا تنويعا على لوحات عصرهم بتصوير حياة الفلاحين تصويرا تشيع فيه الشفقة المعتمة ، إذ وجدوا فيهم ذلك الفقر الصامت والقوة الشرسة التى اتسمت بها فرنسا فى القرن السابع عشر . كذلك وهب جورج دلاتور فرشاته للمساكين (وقد نبش عنه مؤخرا تقريظ النقاد) ، وصورتاه المقابلتان « فلاح » و « فلاحة » أقرب إلى قمة التصوير فى العهود الملكية التى نحن بصددها ؛ ونستطيع أن نحكم على شهرته السائرة من مبلغ الـ ٥٠٠ر٠٠٠ دولار أو أكثر التى دفعها متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك ثمنا لصورته « العرافة » (١٩٦٠) . وقريب من هذا التحول من القصر إلى الكوخ ،

ذلك الاتجاز الخاص الذى حققه التصوير الفرنسى فى هذا العصر — وهو تطوير المنظر الطبيعى بوصفه عنصرا كبيرا فى فن التصوير .

أما نيكولا بوسان فكان أبوه جنديا فى جيش هنرى الرابع . وبعد أن أسكن منزل نيكولا دليزمان عقب معركة إفرى ، تزوج ابنة نيكولا — وهى فلاحة لا تعرف كيف تكتب اسمها — وفلح مزرعة بقرب ليزانلديس فى نورمانديا . وتعلم ابنهما حب الحقول والغابات ، واقتناص لحظات يسجلها فيها بالقلم الرصاص أو الحبر . ثم وفد كنتان فاران على ليزانلديس ليزين كنيسة بها ، وراقبه الفتى نيكولا فى شغف وانتزع منـــه بالملاطفة دروسا فى الرسم والتصوير . فلما رحل فاران ، هرب نيكولا إلى باريس ليدرس الفن (١٦١٢) وكان يومهاق الثامنة عشرة . وهناك توجت الشهور التى كاد يتضور فيها جوعا بعثوره على محفورات ريموندى لأعمال رفائيل . هنا تكشف لنيكولا أمران أولهما أن الخط لا اللون أداة الفن ، وثانيهما أن روما عاصمة الفن . وظل ثمانية أعوام يكافح للوصول إلى تلك القلعة . ومرة وصل فى رحلته حتى فلورنسة ، ولكن الفقر واليأس والعلة ردته إلى باريس . ثم حاول ثانية ، ولكن دائنا عطله فى ليون ، فزحف راجعا ليدفع ديونه ويكسب قوته بأشغال تصوير صغيرة فى قصر اللكسمبورج . وفى عام ١٦٢٢ استخدمه الشاعر الإيطالى جوفانى باتيستا مارينى ، الذى وفد وقتها على باريس ، ليرسم له رسوما لقصيدته « أدونى » ، وظفرت رسوم بوسان باستحسان مارينى وببعض التكليفات . ورسم نيكولا صورا للأشخاص على مضض واقتصد فرنكاته فى حرص، وأخيرا اكتحلت عيناه برؤية روما فى عام ١٦٢٤ .

وأوصى به مارينى الكردينال فرانشسكو باربرينى : « ستجد هنا شابا فيه عنف شيطانى » — شاب « مجنون بالتصوير » (خلافا لتحليل ايروشيج لنفسه) . وكان مجنونا بإيطاليا أيضا ، غير أنه لم يجن بصور أئمة فنانى النهضة بقدر جنونه بكمال القطع المتخلفة فى الساحة الرومانية (الفورم) ، ولا جن

بالصور الجصية المتخلفة من العصور القديمة بقدر جنونه . بروما نفسها — بآفاقها ، وحقولها ، وأشجارها ، وتلالها ، وتربتها ذاتها . ولا بد أنه تساءل كما تساءل بعض المتحمسين لها ممن أتوا بعده . لِمَ لم يكتب الله له أن يولد فى إيطاليا ؟

وامتحنه الكردينال باربرينى بتكليفه برسم لوحة « موت جرمانيكوس »، فسرته النتيجة ، وسرعان ما اشتد الطلب على فن بوسان حتى جاهد لكى يلبيه . كان رعاته — سواء العلمانيون أو الكنسيون — يتوقون للصور العارية ، فاسترضاهم فترة بعروض لجسم المرأة كتلك التى نجدها فى « انتصار ربة الزهر(*) » التى رسمها للكردينال أوموديو ، وفى « منظر باخوسى » لريشليو . واتخذ مقامه فى روما ، وتزوج فتاة فى السابعة عشرة وهو يناهز السادسة والثلاثين ، وأنفق عشر سنوات سعيدة معها ومع ألوانه . ثم دعاه ريشليو ولويس الثالث عشر إلى باريس (١٦٤٠) . فقال بوسان « سأذهب كإنسان حكم عليه بنشر جسده نصفين(١٤٣) » ولقى هناك التكريم العظيم وتلقى معاشا من ألف كراون ، ولكنه لم يرتح لمنافسة الفنانين الباريسين المفعمة بالحقد ، فأسرع بالعودة إلى إيطاليا (١٦٤٣) مضحيا بمستقبل عريض . واشترى بيتا على التل البنسى بجوار بيت كلود لوران ، وهناك عاش حتى مات ، هادئا ، مهتما بأسرته ، مستغرقا فى فنــــه ، قانعا بحظه .

كانت حياته كصوره مزيجاً كلاسيكياً ، نموذجاً للنظام ، والاعتدال ، وضبط النفس . ولم يكن له من أمارات الفنان غير القليل. اللهم إلا أدواته. فلا هو بالعاشق النهم كرفائيل ، ولا برجل الدنيا كتيشان ، ولا بالعبقرى الشيطانى كميكلانجلو (برغم رأى مارينى فيه) ، إنما هو رجل بورجوازى يعنى بأسرته ويدفع ديونه . وحين رأى الكردينال ماسيمو بيته المتواضع قال له « كم أرثى لك ، لأنه ليس لديك خادم ! » فأجاب بوسان « وكم أرثى

(*) جميع صور بوسان المذكورة هنا محفوظة باللوفر إلا إذا نص على غير ذلك .

ذلك لأن لديك الكثير منهم ! (١٤٤) » . فى كل صباح يتمشى على تله ، ثم يرسم سحابة نهاره ، معتمداً على الجهد لا على الوحى . قال فى فترة لاحقة من حياته رداً على سائل سأله عن السرّ فى امتلاكه ناصية الفن « لم أهمل شيئاً (١٤٥) » .

وإذا أخذنا فى الاعتبار طرقه الكثيرة الجهد، التى لم يستعن فيها بأحد، وجدنا إنتاجه ضخماً . فلا بد أنه رسم أربعمائة صورة ، لأننا نعرف أن بعضها فقد ، وبقى منها ٣٤٢ ، أضف إلى هذا ألفاً وثلثمائة رسم تعتز قلعة وندزر بمائة منها لما تمتاز به من دقة ونقاء فى الخطوط . ولم يتفوق فى تنويع صوره . وكثيراً ما تكون صوره العارية تماثيل عديمة الحياة ، ولو كان فيها شهوانية أكثر لأسغناها . لقد كان نحاتاً يستعمل فرشاة ، ينحو إلى النظر للنساء على أنهن أشكال تصلح للنحت — ولو أنه أحياناً كان يرى فيهن الأصول الإلهية للفن . قال « إن الفتيات الجميلات اللائى نراهن فى شوارع نيم يبهجن عيوننا ونفوسنا بهجة لا تقل عن أعمدة « الميزون كاريه » البديعة ، لأن هذه ليست إلا نسخاً قديمة من تلك (١٤٦) » . كذلك لم ينطلق على سجيته فى موضوعات الكتاب المقدس . وقد أجاد تصوير بعضها — مثل « الفلسطينى صريعاً عند الأبواب » و « عميان أريحا » ، وما أجمل النساء، وأجلهن فى الوقت نفسه ، فى « اليعازر ورفقة » ! كان تفوقه يتجلى فى الأساطير الكلاسيكية، مصورة وسط الخرائب الكلاسيكية ومن خلفها منظر طبيعى ذو هدوء كلاسيكى . ولم يكن يرسم من نماذج حية ، بل من خيال أشرب بحب العالم القديم وتوهمه — العالم الذى كان فيه كل الرجال أقوياء، وكل النساء جميلات. تأمل ذلك الكمال الذى نراه فى الأنثى الوحيدة فى لوحته « رعاة أركاديا » التى رسمها بوسان للويس الرابع عشر تلبية لطلب كولبير . ولاحظ فى مرورك الكتابة المنقوشة على قبر الراعى : « أنا أيضاً كنت مرة فى أركاديا » ، أهذا بوسان يحلم بأنه هو أيضاً عاش فى اليونان القديمة مع أورفيوس والأرباب ؟

و « مأتم فوكيون » أقوى لوحات بوسان الأسطورية ، ولكن « أورفيوس ويوريديسى » أشدها وقعاً فى النفس ، ربما لأننا نتذكر ألحان جلوك اليائسة . ومما يزعج الروح الرومانسية أن تجد القصة تائهة فى المنظر الطبيعى على هذا النحو . فالحقيقة أن بوسان لم يحب الرجل ، ولا حتى المرأة ، بل المشهد المهذب للنفس ، مشهد الحقول والغابات والسماء المنبسطة — كل ذلك المنظر العريض المحيط باللوحة ، حيث يكون التغيير متمهلا ، أو خجلا أمام الدوام والاستمرار ، وحيث تذوب أوصال البشر فى منظورات المكان والزمان . لذلك كانت أعظم صوره هى مشاهد الطبيعة ، التى يكون الانسان فيها عرضا ضئيلا ، شأنه فى التصوير الصينى أو البيولوجيا الحديثة .

هذه المشاهد جليلة ، ولكنها رتيبة . ولولا أن بوسان أضاف هنا وهناك أشكالا مميزة أو عنوانا خطه فى إهمال لشق علينا أن نفرق بين الواحد منها والآخر . لقد أحب الخط فى حكمة ولكنه أسرف فى حبه ، وأهمل سلم اللون ، مستغلا اللون البنى فوق ما ينبغى ؛ لا عجب أن ار الفنانون الذين أتوا بعده على هذه « الصلصلة البنية » المتساقطة من أشجاره . ومع ذلك فإن هذه الآماق الخافتة الأضواء ، الخافتة الألوان ، التى لم يرض عنها رجل مثل رسكن افتتن بوهج تيرنر ، هى تفريج لنا بعد ما أصاب التصوير فى أيامنا من اهتياج وقلق أيديولوجى ، فهنا المفهوم الكلاسيكى للجمال بوصفه اتساق الأجزاء فى كل ، لا الفكرة الحديثة عن الفن بوصفه « تعبيرا » — قد يكون صورة طفل لم يتقن رسمها أو صيحة بائع متجول . وفى وسط اللازمية والباروك ، وفى معارضة لقوة التصوير الإيطالى فى القرن السابع عشر وعاطفيته ، تشبث بوسان بالمثل الكلاسيكى الأعلى ، الذى لا يغلو فى شىء ؛ فلا ألوان صارخة ، ولا دموع ، ولا إغراءات ، ولا مقابلات مسرحية بين الضوء والظل ، بل فن ذكورى أشبه بكورنيى منه براسين ، وبباخ منه ببيتهوفن .

والصورة التى رسمها لنفسه عام ١٦٥٠ تطالعنا منها عينان فيهما كلال ، ربما من الرسم أو القراءة على ضوء ضئيل . كان يقرأ كثيرا ، محاولا الالمام بحياة اليونان والرومان فى تفصيل مثابر ، ولم يصب فنان مثل هذا العلم منذ ليوناردو . فلما أقبل على شيخوخته وجد عينيه تضعفان ويده تهتز ؛ وقطع موت زوجته فى الحادية والخمسين (١٦٦٤) رباطا حيا ؛ فلم يعمر بعدها سوى سنة واحدة . كتب صديق يقول « مات أبيلليس » . وعلى المقبرة أو قربها فى كنيسة أبرشية سان لورينزو ، أقام شاتوبريان (١٨٢٩) نصبا من الرخام كتب عليه كما يكتب أحد الخالدين من البشر الفانين لآخر :

ف . أ . دشاتوبريان

إلى

نيكولا بوسان

لمجد الفنون وشرف فرنسا

وكان أكبر منافسيه فى تصوير مناظر الطبيعة جاره ، وصديقه . كلود جيلليه ، الملقب لوران نسبة إلى مسقط رأسه . وقد شعر هو أيضا بدافع يدفعه نحو إيطاليا ، وقبل أى وظيفة مهما حقرت ليصل إليها ويعيش فيها ، حيث تكشف كل لفتة للعين الباحثة عن أثر ما للفن المسيحى أو قطعة ملهمة من الفن القديم . وفى روما تتلمذ لأجوستينو تاسى ، ومزج له الألوان ، وطهى له طعامه ، وتعلم على يديه . وقد رسم على سبيل التجربة ألف رسم ، وحفر كلشيهات يقدرها اليوم الخبراء العارفون . وكان يشتغل ببطء وتدقيق ، وقد يستغرق أسبوعين فى تفصيل واحد . وأخيرا أصبح هو أيضا مصورا ، يرتزق من الطلب على صورة من الكرادلة والملوك الذين يقدرون فنه . وبعد قليل كان له بيته فوق التل البنسى ، وشارك بوسان فى اشباع الطلب الجديد للمناظر الطبيعية .

وكان يستجيب لهذا الطلب عن طيب خاطر ؛ لأنه أحب أرض روما وسماءها حبا دفعه أحيانا إلى الاستيقاظ قبل طلوع الفجر ليشهد بزوغ النور

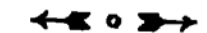
كل صبح ، ويقتنص تغيرات الضوء والظل التى تحدثها كل بوصة طالعة من الشمس . لم يكن الضوء عند كلود مجرد عنصر فى الصورة ، إنما كان موضوعه الأهم ، ومع أنه لم يحب — كما أحب تيرنر — أن ينظر فى عين الشمس ذاتها ، فإنه كان أول من درس ونقل غلاف الضوء المنتشر . وقد التقط حركة الهواء غير الملموســة على الحقول ، وورق الشجر ، والماء ، والغمام ؛ كانت كل لحظة من السماء جديدة ، وبدا أنه عقــد نيته على جعل كل لحظة سائلة تسكّن نفسها فى فنه . وقد أحب ارتعاش القلوع وهى تقابل الريح ، وجلال السفن وهى تمخر البحر . وأحس فتنة المسافات ، ومنطق المنظور وسحره والحنين إلى رؤية لانهائية الفضاء وراء المرئى .

كانت المناظر الطبيعيه لذته الوحيدة . ثم أدخل التراكيب الكلاسيكية فى صوره عملا بنصيحة بوسان — كالمعابد ، والخرائب ، وقواعد الأعمدة — ربما ليضفى وقار الشيخوخة على المشهد العابر . ووافق على إضافة بعض الوجوه البشرية إلى مشهد الطبيعة العريض ، ولكن قلبه لم يكن فى هذه الزوائد . فهذه الوجوه « أضيفت دون مقابل » ، فكان « يبيع مناظره الطبيعية ، ويهب وجوهه [١٤٨] » . وكانت العناوين والقصص التى توحى بها هذه الوجوه تنازلات منه للعقول التى لم تستطع الإحساس بمعجزة الضوء وسر الفضاء دون جمال الأسطورة المسيحية أو بغير بطاقة من القصص الكلاسيكية . أما الواقع فهو أن كلود كان له موضوع واحد لا سواه — عالم الصباح ، والظهر ، والمساء . وقد وهب متاحف أوربا تنويعات حبيبة من الصور ، لا تعنى أسماؤها شيئاً ، ولكن فى وحدة وجــودها تزاوج صوفى بين الشعر والفلسفة .

وقد نسلم لرسكن [١٤٩] بأن كلود وبوسان يرياننا الطبيعة على نحو خداع وهى فى حالاتها الأرق ، غافلين عن جلالها ، مغفلين نوبات تدمرها الرهيب . ولكن بفضل جهودهما أرسى تقليد عظيم فى رسم المشهد

الطبيعى . وسنرى أنه سينافس صور الأجسام والوجوه ، والمناظر الكتابية والأسطورية . لقد فتح الطريق لموكب الطبيعة من يعقوب وسليمان رويزدال إلى كورو .

وهكذا نجد أن ريشليو والوحدة القومية ، وكورني والأكاديمية ، ومونتيني وماليرب ، ودبروس ومانزار ، وبوسان ولوران — كل هذا لم يكن حصيلة تافهة أنتجها بلد مشتبك فى الحروب . وها هو لويس الرابع عشر يتأهب للوقوف فوق ذلك التراث الصاعد والتسيد على فرنسا فى أعظم عصورها .



المراجع

CHAPTER IX

1 Evelyn, Diary, I, 225.
2. Ibid , 87
3. Camb Mod. History, IV, 631.
4. Molmenti, Venice, Ib, 218.
5. Ranke, History of the Popes, II, 119.
6. Funk, Manual of Church History, II, 147
7. Hazlitt, W. C., The Venetian Republic, II, 221, Encycl Brit, XIX, 1002.
8. Symonds, J. A, The Catholic Reaction, II, 105
9. On the inaccuracies of both historians cf Ranke, Popes, III, 106-38.
10. Montaigne, Diary, 93; Shakespeare's England, I, 216.
11. Byron, Childe Harold's Pilgrimage, Canto IV, line 2
12. Molmenti, Ib, 181
13 Winckelmann, History of Ancient Art, II, 316
14. Taine, Italy Rome and Naples, 232.
15. Symonds, Catholic Reaction, II, 231
16. Ruskin, Modern Painters, II, 1, 7, 13
17. Evelyn, I, 160.
18. Ogg, Europe in the Seventeenth Century, 387.
19. Sitwell, Southern Baroque Art, 43.
20. Stirling-Maxwell, Annals of the Artists of Spain, III, 893.
21 Justi, Velázquez, 343.
22 Byron, Don Juan, XIV 71.
23 Pastor, XVIII, 121, 125.
24. Ranke, Popes, I, 286
25. Ibid., 273.
26. Pastor, XVII, 172
27. Lea, H C., Inquisition in Spain, II, 77.
28. Ranke, Popes, I, 322
29 Montaigne, Diary, 125.
30. Bacon, Fr, Apophthegm 60, in Phil, Works, 869
31 Sully, Memoirs, I, 218n.
32. Ranke, Popes, I, 341
33 Pastor, XXI, 83.
34 Ranke, I, 342
35 Lecky, History of European Morals, II, 97.
36 Sully, Memoirs, III, 29.
37. Camb. Mod History, IV, 687
38. Graves, F P, History of Education, 219
39 Monroe, Paul, Text-Book in the History of Education, 422.
40. Bacon, De Augmentis, vi, 4, in Phil. Works, 559
41 Ranke, Popes, II, 90
42. McCabe, Candid History, 97
43 Symonds, Catholic Reaction, II, 121.
44. Campbell, Thos, The Jesuits, 394.
45. Filmer, Patriarcha, in Locke, Two Treatises on Go-

vernment, 253
46. Campbell, 271
47 Symonds, Catholic Reaction, I, 218; McCabe, Candid History, 184
48. McCabe, 191
Secret of the Jesuits, 285.
49 Fülop-Miller, Power and Secret of the Jesuits, 285.
50 Ibid., 290
51. Ibid., 300-1
52 McCabe, 299
53. In Campbell, 445
54 Montaigne, Diary, 141.
55 Ibid, 159.
56 Molmenti, Venice, IIb, 27.
57. Montaigne, Diary, 151.
58 Symonds, Catholic Reaction, I, 268-74. The Cenci, by F. D Guerrazzi (Milan, 1872), is a novel
59 Evelyn, I, 172.
60 Ibid, 161.
61 Ibid., Nov 8, 1644
62. Burney, History of Music, II, 510; Grove's Dictionary of Music, III, 591, Brockway and Weinstock, The Opera, 1-3.
63. McKinney and Anderson, Music in History, 321.
64. Ibid., 334
65 Granett, Richard, Italian Literature, 269.
66. Ranke, Popes, I, 369
67 Encycl, Brit., III, 132b.
68. Johnoson, S., Lives of the Poets, I, 176.
69. Guarini, The Faithful Shepherd, p. 64
70. Ibid., 177
71. Hallam, Literature, II, 181.
72. Symonds, Italian Literature, II, 243
73. Tr by Leigh Hunt, in Van Doren, Anthology, 590
74 Symonds, Catholic Reaction, I, 367.
75 Boulting, Tasso, 172-3.
76. Ibid., 183, 174
77 Symonds, Catholic Reaction, II, 35; Encycl. Brit., XXI, 831a.
78 Symond,s I, 369.
79. Boulting, 212
80 Smith, History of Culture, I, 552.
81 Boulting, 259
82 Tasso, Gerusalemme liberata, xx, 1087.
83 Galileo, Opere, ed. nazionale, IX, 69. in Smith, P., History of Culture, I, 552.
84 Disraeli, Isaac, Curiosities of Literature, II, 444
85. Burckhardt, J, Recollections of Rubens, 8.
86. Pastor, XXII, 309.
87. Justi, Velázquez, 350.
88. Wittkower, Gian Lorenzo Bernini, 197.
89. Ibid., 2

CHAPTER X

1. El Greco, Phaidon ed, 7.
2. Weisbach, Spanish Baroque Art, 35.
3. Robertson, Freethought, II, 38, Hume, M., Spanish People, 416.
4. Lea, Inquisition in Spain, III, 441.
5 Prescott, Philip II, II, 498
6. Lea, Inquisition, IV, 253.

7 Cf Cervantes, Don Quixote, Part I, ch 28; Vol. I, 223.
8. Stirling-Maxwell, I, 45
9 Lang, P. H., Muisc ın Western Civilızatıon, 267.
10 Calvert, A. F, The Escorıal, 7
11 Ibid, 65, Calvert, Royal Palaces of Spaın, 4-6, El Gerco, Phaidon ed., 11
12 Stirlıng-Maxwell, I, 209
13 Davıes, Golden Age of Spaın, 120.
14. Froude, Elızabeth, I, 375
15 Motley, Rise of the Dutch Republic, I, 125.
16. Encycl, Brıt, XVII, 722c.
17 Motley, I, 125.
18 Hume, M, The Spanish People, 382, Motley, II, 12.
19 Trend, The Civilization of Spain, 128
20 Motley, I, 125.
21 Voltaıre, Works, XIVb, 278
22. Marıana, General History of Spaın, Supplement, p 30.
23 Blok, Hıstory of the People of the Netherlands, II, 289, 119; cf En. Br., XVII, 722 321; Armstrong, Emperor
24. Cf. Robinson, Readıngs, 321; Armstrong, Emperor Charles V, II. 376; Hume, M., Spaın : Its Greatness and Decay, 150.
25 Prescott, Philıp II, II, 431.
26 Davies, Golden Age of Spain, 150.
27 Perscott, Philıp, II, II, 451.
28. Altamıra, Hıstory of Spaın, 384
29. Madariaga, Spain, 36, Davıes, Golden Age, 194
30 Ibıd., 198, Hıstory Today, June 1954, p 427
31 Ibıd., Lea, Inquisition in Spain, IV, 254-272.
32 Trevor-Roper, Hıstorıcal Essays, 269, Altamıra, Hıstory of Spanısh Cıvılization, 133.
33 Davies, Golden Age 121
34 En Br., XXI, 132
35 Prescott, Phılip II, I, 68, 210, II, 26
36. Ogg, 170.
37 Davıes, 230
38. Ibıd., 233
39 Hume, M, Court, of Philip IV, 24; Spaın, 211, Camb. Mod. History, III, 542.
40. Don Quıxote, Part II, ch. 54.
41 Xımenes, Juan, Life and Virtues of Juan de Ribera, in Buckle, History of Cıvilization, II, 46.
42. Lea, Inquisition, III, 397, 407-8; Ogg, 364; Hume, M., Spain, 212.
43. Lea, III, 410.
44. Camb Mod. Hıstory, IV, 634.
45 Justi, Velázquez, 105.
46 Portrait in Hispanıc Society of America, New York.
47. Rooses, Rubens, 486
46. Stephens, H. M., Story of Portugal, 249.
49. Camões, Lusiads, Introd, xvii.

50. Penrose, Travel and Discovery, 72.
51. Camões, Lusiads, iv, 83.
52 Ibid., 89
53. Bell, Aubrey, Portuguese Literature, 183.
54 Camões, Introd xxix

CHAPTER XI

1 Preface to Galatea
2. Hallam, Literature, I, 53
3 Schevill, R., Cervantes, 7
4 Altamira, History of Spanish Civilization, 143
5 Fitzmaurice-Kelly, History of Spanish Literature, 338
6 Gracian, Art of Worldly Wisdom, 20.
7 Ibid., 29.
8 32.
9. 36
10 49
11. 71
12. 144.
13. 150.
14 In Davies, Golden Age, 282
15 Ticknor, History of Spanish Literature, III, 150; cf Fitzmaurice-Kelly, History, 274.
16 In Smith, P, History of Modern Culture, I, 552.
17 Bell, Aubrey, Cervantes, 54, Ticknor, II, 58
18. Ellis, H, Soul of Spain, 233.
19. Schevill, Cervantes, 134.
20 Lockhart, J. G., Introd. to Everyman's Library ed. of Don Quixote, p. xx.
21. Don Quixote, Part I, ch. xii.
22. I, xi.
23 I, xiii.
24. II, xxxii
25 I, iv
26. II, xxxii.
27. II, xix; I, xx; II, iv.
28 I, xxxix
29 I, xxxvi.
30 Cervantes, Exemplary Novels, 5
31 Ibid., 3
32 Don Quixote, II, xlv
33. Schevill, Cervantes, 353.
34 Powys, J. C., Enjoyment of Literature, 174
35. Ticknor, II, 42.
36. Don Quixote, I, xxi; Bell, Cervantes, 27.
37 Tr. by Churton in Fitzmaurice-Kelly, History of Spanish Literature, 281.
38. Quevedo, The Dog and the Fever, 52
39 Tr. by John Masefield in Van Doren, Anthology, 645.
40. Fitzmaurice-Kelly, History 254.
41. Id., Some Masters of Spanish Verse, 98.
42. Id., History, 249-50.
43. Ford, J D, Main Currents of Spanish Literature, 129.
44 Fitzmaurice-Kelly, Some Masters, 43.
45. Lope de Vega, The Star of Seville, in Matthews, B., Chief European Dramatists, 171.
46. Lewes, G. H., Lope de Ve-

ga, in Clark, Great Short Biographies, 596, Fitzmaurice-Kelly, Some Masters, 25.
47 Shelly, Poetical Works, 645.
48. Calderón, Life Is a Dream, II, ii, tr. D. F. McCarthy, in Matthews, 219.

CHAPTER XII

1. Stirling-Maxwell, Annals of the Artists of Spain, I, 349.
2. Dieulafoy, Art in Spain and Portugal, 243.
3. Mâle, Émile, Religious Art from the Twelfth to the Eighteenth Century, 170.
4 In the Escorial
5 In Calvert, Seville, 108.
6 Lassaigne, J., Spanish Painting from the Catalan Frescoes to El Greco, 131
7. En Br, XXII, 69.
8 Naples.
9. Lassaigne, 106, Guinard, El Greco, 54.
10. Goldscheider, El Greco, 10.
11 Caffin, C. H, Story of Spanish Painting, 72.
12 Guinard, 121
13. Meier-Graefe, The Spanish Journey, 145
14. Pacheco, in Guinard, 22.
15 Johnson in Prologue to Addisison's Cato,
16. Soria, M. S., The Paintings of Zurbarán, 30.
17 In Justi, Velázquez, 83.
18. Duke of Wellington Collection, London.
19 Boston Museum of Fine Arts
20. National Gallery, London.
21. Justi, 445.
22. Rouen.
23 New York , Frankfurt
24 Dresden Gallery
25 Modena
26. Earl of Radnor Collection.
27 Stirling-Maxwell, III, 847.
28. Justi, 360.
29 Cheney, World History of Art, 619
30 Vienna.
31 Washington
32 Wallace Collection, London
33. Vienna
34 Calvert and Hartley, Velázquez, 176
35 Ellis, H, Soul of Spain, 153.
36 Meier-Graefe, 151, 200-5
37 Stirling-Maxwell, III, 946
38 Guinard and Baticle, Histoire de la peinture espagnole, 170
39. Louvre
40 Dresden
41 Pliny, Natural History, xxxv, 36
42. Stirling-Maxwell, III, 1003.
43. Prado, Seville, Cádiz, Louvre, Leningard.
44 Dulwich.
45 Rome, Galleria Nazionale.
46 Prado
47. London.
48. Leningrad.
49 Altamira, History of Spanish Civilization, 137f.

CHAPTER XIII

1. Roeder, Catherine de' Medici and the Lost Revolution, 170
2. Sée, Modern Capitalism, 49.
3 Roeder, 250.
4. Guizot, History of France, III, 319.
5. Acton, Lectures, 156
6 Michelet, Histoire de France, III, 483.
7 Thieme, Women of Modern France, 38
8 Roeder, 309.
9. La Tour, Origines de la Réforme, IV, 255f.
10. Hearnshaw, Social and Political Ideas of .. the Renaissaance and Reformation, 29.
11. Walker, W., John Calvin, 381.
12 Guizot, France, III, 303.
13 Sichel, Catherine de' Medici and the French Reformation, 111.
14. Ibid, 24
15 Brantôme, Book of the Ladies, 51
16 Michelet, Histoire, III, 490
17 Sichel, 10
18 Brantôme, 59
19 Sichel, The Later Years of Catherine de' Medici, 116.
20 Sainte-Beuve in Brantôme, 88.
21 Roeder, 361.
22 Ibid., 386
23. Allen, Political Thought,
24 Roeder, 254-6
25 Ranke, Civil Wars .. in France, I, 278-80.
26. Sichel, Catherine de' Medici, 119.
27 Pastor, History of the Popes, XVI, 179
28 Batiffol, The Century of the Renaissance, 201.
29 Ibid, 198, Pastor, XVI, 167; Camb Mod History, II, 300.
30 Pastor, XVI, 179.
31 Ibid
32 Ibid, 180-1.
33 Allen, Political Thought, 305
34 Sichel, 191, 196-7.
35. Lea, Studies in Church History, 496
36. Pastor, XVI, 172
37. Micheler, IV, 418; Batiffol, 203.
38 Guizot, History, III, 334.
39 Ibid., 335.
40 Batiffol, 211; Sichel, 224.
41. Froude, Elizabeth, I, 346.
42 Ranke, Civil Wars, I, 336; Batiffol, 215, Roeder, 366-9; Sichel, The Later Years, 19; Pastor, XVI, 203.
43. Guizot, III, 328
44 Ibid, 330; Pastor, XVIII, 116.
45 Guizot, III, 331.
46. Pastor, XVIII, 154.
47 Froude, Elizabeth, II, 446
48 Sedgwick, H D., Henry of Navarre, 34
49. Ibid, 90
50 Batiffol, 241; Belloc, Richelieu 139n
51. Pastor, XVI, 195-6
52. Roeder, 428

53. Guizot, III, 380.
54. Janssen, J., History of the German People, VIII, 114.
55. Ibid
56. Guizot, III, 384.
57. Ibid. z
58. Camb Mod. History, III, 18.
59 Ibid , 19; Pastor, XIX, 485.
60. Michelet, III, 458
61. Batiffol, 227
62. Sichel, The Later Years, 160.
63. Michelet, III, 462
64. Sichel, The Later Years, 162
65. Ibid., 164.
66. Ibid., 161.
67 Ibid; Roeder, 453
68. Batiffol, 229; Sichel, The Later Years, 164
69. Ibid., 167; Batiffol, 230.
70 Ibid
71. De Thou in Robinson, Readings, 331, Sichel, Later Years, 180
72. Michelet, III, 468; Roeder, 473.
73. Micheler, III, 476
74 Ibid
75 Acton, 160, Roeder, 463.
76 Ibid., 477.
77. Ibid., 479
78 Ibid., 489.
79. Pastor, XIX, 488.
80. Michelet, III, 478.
81 Acton, 162; Pastor, XIX, 489
82. Michelet, III, 483.
83. Pastor, XIX, 509.
84. Roeder, 464.
85. Batiffol, 236; Sichel, The Later Years, 194.
86. Pastor, XIX, 507; Froude, Elizabeth, III, 411.
87. Pastor, XIX, 500-12.
88 Froude, Elizabeth, III, 419.
89 Roeder, 506
90. Sichel, Later Years, 205.
91 Guizot, III, 415.

CHAPTER XIV

1. Lacroix, History of Prostitution, I. 1170-1, 1276-91
2. Sedgwick, Henry of Navarre, 83
3 In Brantôme, Book of the Ladies, 212.
4. Brutus, Junius, Vindiciae contra tyrannos, 97, 109, 169; Carlyle, R W., History of Medieval Political Philosophy, 351f, Allen, Political Thought, 331
5 Ibid., 377.
6 Voltaire, Age of Louis XIV, 397.
7. Ranke, Civil Wars, I, 163
8 Allen, Political Thought, 347-50, Figgis, From Gerson to Grotius, 180.
9 Notes to Sully, Memoirs, I, 207.
10 Michelet, IV, 41.
11 Ibid., 21
12. Sedgwick, Henry, 223.
13. Michelet, IV, 60.
14 Maulde La Clavière, Women of the Renaissance, 469.
15 Sully, I, 299, 311-14, Michelet, III, 463; Guizot, III, 521
16. Ibid., 522.

17. Michelet, IV, 60.
18. Satyre Ménippée, 59-73
19. Guizot, III, 556, Campbell, The Jesuits, 217; Ranke, Popes, II, 55; Sully, I, 447; Fulop-Miller, Jesuits, 317.
20. Sully, I, 2
21. Kirby, Engineering in History, 141.
22 Guérard, Life and Death of an Ideal, 119.
23. Schaff, Swiss Reformation, II, 699
24 Laski, H, in Brutus, Vindiciae contra tyrannos, 9, 35
25 Lowie, R H., Are We Civilized ?, 241.
26. Tallement des Réaux, Miniature Fortraits, 9.
27 Ibid, 5
28. Sedgwick, 274
29 Batiffol, 287.
30. Sully, IV, 128n.
31 Sully, III, 365; Michelet, IV, 86.
32 Sedgwick, 130-5.
33. Lacroix, Prostitution, II, 1306.
34 Ibid., 1300
35. Sully, III, 31-2.
36. Sedgwick, 255
37. Ackerman, Phyllis, Tapestry, 262
38. Davis, Golden Age, 237
39. Sully, II, 404-10
40. Camb Mod History, III, 682, 684.
41 Janssen, History of the German People, X 439n
42 Sedgwick, 288-9
43. Fulop-Miller, Jesuits, 127; Gooch, English Democratic Ideas, 23,
44. Sedgwick, 306,

CHAPTER XV

1. Barine, La Grande Mademoiselle, 279.
2, Ibid, 278
3. Sanders, Bossuet, 54.
4. Michelet, IV, 197, Batiffol, 404
5. Michelet, IV, 370
6. Catholic Encyclopedia, XIV, 437.
7 Jackson, C C, Old Paris, 45
8. Belloc, Paris 311.
9. Boulenger, Seventeenth Century, 49
10 Michelet, IV, 200
11 Acton, Lectures, 171
12. Buckle, Ib, 399-406.
13. Ibid, 399.
14 405.
15. 403.
16. Boulenger, 37; Barine, 15.
17. Jackson, 56.
18. Richelieu, Oeuvres, 18.
19 Michelet, IV, 156.
20 in Guizot, IV, 131.
21, Ibid, 46
22. 63.
23. Richelieu, 173
24 Guizot, IV, 79
25. Michelet, IV, 295
26. Schoenhof, History of Money and Prices, 186.
27. Nussbaum, History of Economic Institutions, 108
28. In Acton, 179
29 Michelet, IV, 327
30 Guizot, IV, 173.
31 Richelieu, 152, 201.

32 Guérard, Life and Death of an Ideal, 123.
33. Tallement des Réaux, 63.
34. Belloc, Richelieu, 90
35. Michelet, IV, 286, Boulenger, 35.
36. Retz, Secret Memoirs, 97.
37. Hefele, K. J., Life and Times of Cardinal Ximenes, 565
38. Chesterfield, Letters, 28 (Oct. 16, 1747).
39. Lodge, Richelieu, 229
40 Richelieu, Memoirs, 168.
41. Ibid., 125.
42. 181, 40.
43 182.
44. 168
45 32.
46. 19
47. 30.
48 35.
49 Motteville, Mme de, Me-
50. Tallement des Réaux, 27
mois, 1, 67.

CHAPTER XVI

1 Charron, De la Sagesse, I, 24, In Haydn, Counter-Renaissance, 569
2. Sichel, Catherine de' Medici, 6; Lacroix, History of Prostitution, II, 1159.
3. Sedgwick, Henry of Navarre, 55
4. Brantôme, Lives of Gallant Ladies, 131-2.
5. Now in the museum of the Château d'Azay-le-Rideau.
6 Michelet, IV, 222.
7. Tallement, 132.
8 Sanger, Wm., History of Prostitution, 199.
9. Ibid.; Lacroix, Prostitution, II, 1350.
10. Montaigne, Diary, 6.
11. Sully, Memoirs, I, 482, 507.
12. Brantôme, Book of the Ladies, 79.
13. Wright, Womankind in Western Europe, 305
14. Lacroix, Arts of the Middle Ages, 164
15 Wright, Womankind, 302.
16 Montaigne, Essays, II, 12 34.
17. Lowie, Are We Civilized?,
18. Burney, Charles, General History of Music, II, 217.
19 Ibid., 466.
20 Montaigne, Essays, III, 365
21 Ibid., I, xxv, 185
22. I, xxv
23. III, xii, 300.
24 III, xii, 292
25 I, xxxviii, 252.
26 I, xxv, 165
27 Ibid., 163
28 Ibid., 166, 172
29. III, xiii, 324.
30. II, vi, 48
31 Dowden,Michel de Montaigne, 45
32 I, xxvii, 201.
33. Ibid.
34. Gide, A., The Living Thoughts of Montaigne, 14.
35 I, xxvii, 207.
36 III, x, 265
37 III, v, 119
38 Ibid, 105.
39. 73.
40. Cf. his paean to Paris in III, ix, 216

41. III, v, 76. &
42 II, viii, 71
43. Gide, 12.
44 III, ix, 213.
45 III, iii, 49.
46 I, xxxviii, 253-6.
47 I, xxv, 149
48 II, xxxii, 448
49 Sellery, G C., The Renaissance, 47.
50 Pater, Plato and Platonism, 174
51 In Dowden, Montaigne, 240
52 II, iii, 35
53 II, xvii, 385
54. III, v, 107.
55. III, ii, 24
56. II, xxxvi, 523
57 Ibid., 495
58 III, xiii, 354
59 Diary, 259
60 II, xii, 256, Cicero, De veritate, 11
61. III, xii, 291
62 III, xiii, 379
63 Sainte-Beuve, Port-Rayal, II, 440.
64 II. xii, 306.
65. Ibid., 317.
66. In Spencer, Theodore, Shakespeare and the Nature of Man, 36
67 II, xii, 237.
68. Ibid., 285-7.
69. 312.
70 202
71 250.
82. 324
73. 325
84 Sichel, E., Montaigne, 54.
75 II, xvii, 371.
76 II, xii, 180
77 I, xl, 269; Camb. Mod. History, II, 711
78 II, v.
79. II, viii, 72
80 I, xxx 219
81. II, xii, 198, 250.
82 I, xxx, 229
83. In Dowden, Montaigne, 63
84. III, vi, 144
85 III, ix, 201; v, 105
86 II, xii
87. II, xii, 204.
88 Ibid., 251.
89 225, 266.
90. I, xix, 90
91. III, v, 78
92 III, xi 285
93 II, xii, 130.
94 Ibid, 217.
95 133.
96 Sainte-Beuve, Port-Royal,
97 I, liv, 354; Tilley, A., Studies in the French Renaissance, 280.
98 II, xii, 225.
99 III. xi.
100. III, ix, 198.
101. III, viii, 173.
102 III, ix, 191.
103 III, xii, 301, ii, 26.
104 II xi, 121.
105. III, x, 263
106 Diary, 14
107. Ibid., 17
108 49
109. 107.
110 150.
111. Cf. Diary, 166-9.
112 Ibid., 123
113. Essays, III, iv, 59.
114 III, xiii, 368.

115. II, i 8.
116. Jonson, Volpone, III, ii.
117 Mme du Deffand, Lettres à Voltaire, 41; Jan 28 1759
118. Malebranche, De la Recherche de la vérité, III, v, p 264.
119. In Gide, 3
120 Sainte-Beuve, Port-Royal, II, 379-453.
121 In Frame, Montaigne, 139.
122. Guizot, IV, 194.
123. Van Laun, History of French Literature, II, 181.
124. Disraeli, I, Curiosities of Literature, I, 451.
125 Malherbe, in Sainte-Beuve, Portraits of the Seventeenth Century, II, 47.
126. Boileau in Malherbe, Racan, Maynard, Poésies Choisies, 9n.
127. Ibid, 24-7
128. Winegarten, French Lyric Poetry in the Age of Malherbe, 8, 18.
129. Boulenger,Seventeenth Century, 122.
130. Faguet, Literary History of France, 341.
131. Régnier, De Viau, etc., Poésies choisies, 50.
132 Guizot, Corneille and His Times, 148.
133. Corneille, Le Cid, V, i
134. Guizot, Corneille, 168
135. Livy, T L., History of Rome, i, 25.
136. Corneille, Horace, I, i.
137. Ibid., II, viii.
138 Sainte-Beuve, Port-Royal, I,124.
139. Evelyn, Diary, I, 48.
140. Blomfield, History of French Architecture, II, 143.
141. Bupal, Bernard Palissy, 43.
142. In Sichel, Catherine dè Medici, 318; Michelet, History de France, IV. 51.
143. Guizot, Histoire, IV, 571.
144 Sutro, E, Nicolas Poussin, 77.
145. Desjardins, Poussin, 71
146. Mousnier, Histoire générale des civilisations, IV. 218.
147. Ruskin, Modern Painters, II, ii, 18.
148. Craven, Treasury of Art Masterpieces, 172; Stranahan, History of French Painting, 45.
149. Ruskin, Modern Painters, II, i, 7-5; IX, v.

رقم الإيداع ٥٤٥١ / ١٩٧٦

مطابع الدجوى - القاهرة - عابدين

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

بداية عصر العقل

ترجمة
محمد علي أبو درة

مراجعة
علي أدهم

الجزء الثالث من المجلد السابع





بيروت



تونس

فهرس الجزء الثالث من المجلد السابع

الموضوع — الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

فهرس الصور

الفصل السابع عشر

ثورة الأراضى الوطيئة

١٥٥٥ — ١٦٤٨

١ — مسرح الأحداث

فى يوم ٢٥ أكتوبر ١٥٥٥ نقل الأمبراطور شارل الخامس مقاليد الحكم فى الأراضى الوطيئة إلى ابنه فيليب ، وفى السادس والعشرين ، وأمام الجمعية التشريعية فى بروكسل ، تلقى فيليب أيمان الولاء ، وأقسم بدوره أن يحافظ على حقوق المقاطعات السبع عشرة وإمتيازاتها ، وفق ماتقضى به التقاليد والمعاهدة والقانون ولقد هيأت هذه العهود والمواثيق المتبادلة المسرح لاحدى المسرحيات الكبرى فى تاريخ الحرية .

وكان المشهد معقدا . كانت الأراضى الوطيئة آنذاك تضم بلجيكا الحالية ومملكة هولنده القائمة الآن . ولم تكن الهولندية —وهى أصلا إحدى اللهجات الألمانية السائدة فى وهاد شمال ألمانيا والأراضى الوطيئة — هى اللغة التى تتحدث بها المقاطعات السبع الشمالية (وهى هولنده ، زيلنده ، أوترخت ، فريزلند ، جرونتجن ، أو فريجسل . جلدرلند ، فحسب ، بل كانت كذلك لغة أربع مقاطعات أخرى (هى فلاندرز ، برابانت ، مكلين . لمبرج) فى شمالى « بلجيكا » . على حين كانت « الوالون » — وهى إحدى اللهجات الفرنسية — هى اللغة التى يتحدث بها الأهالى فى ست مقاطعات جنوبية (هى أرتوا ، وألون ، فلاندرز ، كمبراى ، تورنى ، اينو ، نامور) . وكانت هذه المقاطعات كلها ، بالإضافة إلى دوقية لكسمبرج المجاورة ، تحت حكم آل هبسبرج «

وكانت الكاثوليكية[1] هى ديانة الأغلبية الساحقة من الأهالى فى ١٥٥٥

ولكن — كاثوليكيتهم — كانت من النوع العطوف الموسوم بالروح الإنسانية الذى نادى به أرزم قبل ذلك بنصف قرن من الزمان، والذى كانت تدين به رومه فى عصر النهضة بصفة عامة، وليست من ذلك النوع الكئيب المتشدد من الكاثوليكية الذى ساد فى أسبانيا لعدة قرون كانت تحارب فيها المسلمين «الكفار». وبعد ١٥٢٠ تسربت اللوثرية ومذهب القائلين بتجديد عماد البالغين ورفض عماد الأطفال من ألمانيا، تسربت بعد ذلك بشكل أكبر الكلفنية من ألمانيا وسويسرا وفرنسا. وحاول شارل الخامس أن يقضى على غارات هذه المذاهب الغريبة التى اقتحمت عليه كاثوليكيته، بإدخال محاكم التفتيش البابوية أو الأسقفية، وبنشر أعلانات تتوعد بأشد العقوبة أى إنحراف خطير عن الكاثوليكية الصحيحة. ولكن قل أن نفذت هذه العقوبات بعد أن أضعف صلح باسو ١٥٥٢ من قوته. وفى روتردام ١٥٥٨ تمكن حشد من الأهالى من إنقاذ عدد من أنصار تجديد العماد من الأعدام حرقا. لجزع فيليب لتفاقم الهرطقة وجدد نشر الأعلان عن العقوبات .. وساد الخوف من أنه يعتزم إدخال محاكم التفتيش الأسبانية بكل مافيها من قسوة ونكال.

كان مذهب كلفن يلتئم كل الالتئام مع عنصر الروح التجارية «المركنتلية» فى النظام الاقتصادى وكان ثغرا أنتورب وأمستردام هما المركز الرئيسى لتجارة شمال أوربا، وكانا ينبضان بالحياة بفضل التصدير والإستيراد والمضاربة وسائر ألوان المعاملات المالية، حتى أن التأمين وحده عاد بأوفر الثراء على ٦٠٠ من وكلائه [٢]. وجرت فى أنهار الراين وماس وأيسل — وشلدت ووال وليس إلى جانب مئات من القنوات — جرت فى هذه كلها مجموعة متنوعة كبيرة من سفن النقل؛ وأذكت التجارة روح البراعة من المهن والصناعات فى بروكسل وغنت وايبرس وتورنى وفالنسين ونامور ومكلين وليدن وأوترخت وهارلم. ونظر رجال الأعمال الذين تحكموا فى هذه المدن بعين الأجلال والأكبار إلى الكاثوليكية على أنها ركيزة دعمتها التقاليد للاستقرار السياسى والاجتماعى والروحى، ولكنهم لم يسيغوا سلطانها الكهنوتى بأبهته وفخامته. كما أحبوا

الدور الذى تهيئه الكلفنية لجمهور العلمانيين المتعلمين ، فى إدارة المجامع والسياسة الكلفنية . وكرهوا بصفة أخص الضرائب التى فرضتها الحكومة الأسبانية على اقتصاد الأراضى الوطيئة .

ووقع على الفلاحين أفدح الغرم وأصابوا أقل الغنم من الثورة . ذلك أن معظم الأراضى كان ملكا لذوى النفوذ والمكانة الذين كانوا أقرب شبها بأمراء الاقطاع فى ألمانيا وفرنسا ، وهؤلاء هم الذين نظموا الكفاح من أجل الإستقلال . فكان فيليب دى مونموارنسى ، كونت هورن ، يمتلك أراضى شاسعة فى المقاطعات الجنوبية . كما كان الكونت اجمونت لامورال ، ضياع واسعة فى فلاندرز ولكسمبرج ، فكان مركزه يخول له أن يطلب يد دوقة بافاريه، وحارب فى عدة حملات ببسالة فائقة حتى أصبح أثيرا لدى شارل وفيليب ، وهو الذي قاد جيش فيليب إلى النصر فى سانت كوبتن (١٥٥٧). وأظهر فى قصره الفخم من ضروب الإسراف والكرم الباذخ ماورطه فى الدين . ونظر مثل هؤلاء الرجال، ونبلاء كثيرون آخرون أقل منهم شأنا ، نظروا فى شره ونهم إلى ثروة الكنيسة ،وسمعوا والحسد يملأ قلوبهم بالبارونات الألمان الذين أثروا بالاستيلاء على أملاكها[٣] . و إتجه تفكيرهم إلى أن الملك يحسن صنعا لو أنه اقتطع من — أملاك الكنيسة أجزاء معقولة يخصصها لقيادات عسكرية «وبذلك يخلق، أسلحة فرسان رائعة... فى مكان هذه الجماعة الخاملة من الأبيقوريين المنغمسين فى ملذات الطعام والشراب والذين لاشغل لهم إلا التسبيح »[٤] .

أما أكثر كبار الملاك قدرة وكفاية وثراء فكان وليم ناسو ، أمير أورانج وكان للأسرة أملاك شاسعة فى المقاطعة الألمانية « هس ناسو » ، وفى الأراضى الواقعة حول ويزبادن ، وكذلك فى الأراضى الوطيئه ، على حين اشتق لقب الأسرة من امارة أورانج الصغيرة فى جنوب فرنسا . ولما كان وليم قد رأى النور فى دللنبرج الألمانية (١٥٣٣) فإنه نشأ على مذهب لوثر حتى بلغ الحادية عشر من عمره ، وحينئذ أنتقل إلى بروكسل وتحول إلى الكاثوليكية حتى يكون له الحق فى أملاك ابن عمه رينيه . وقد أعجب به شارل الخامس ، وزوجة من آخ

دوقة أجمونت (وارثة كونت بورن) وأختاره ليكون بين كبار من شهدوا تنازله التاريخي عن العرش (١٥٥٥) وأوفده فيليب — وكان وليم آنذاك شابا غض الأهاب لم يجاوز الثانية والعشرين ، ولكنه كان يتقن الفلمنكية والألمانية والأسبانية والفرنسية والإيطالية — بين مبعوثيه للمفاوضة فى عقد صلح كاتو — كمبرسينس ، وهناك تميز وليم بسداد الرأى وقوة الحجة وشدة الحرص فى الكلام حتى لقبه الفرنسيون « بالصامت » . وعينه فيليب عضوا فى مجلس الدولة ، وفارسا من فرسان الجزة الذهبية ، ونائبا للملك فى هولنده وزيلند وأوترخت . ولكن وليم اختط لنفسه نهجا لم يغتفره له فيليب قط .

ولقد نعم الأمير الشاب اليافع بمزايا فى شخصه كما نعم بوفرة المال ، وكان فارع الطول رياضيا نحيل القوام ، سحر بفصاحته وكياسته كل الناس إلا أعداءه . وكان الاخفاق حليفه قائداً عسكريا ، أما فى مجال التدبير أو التخطيط السياسى فإن إصراره المقرون بالمرونة وشجاعته الموسومة بالثبات خلقت منه برغم نقائصه ، شخصا آخر يقف فى وجه أعتى القوى السياسية والدينية فى أوربا . وساس الرجال أفضل مما قاد الجيوش ، وثبت على الأيام أن هذه موهبة أعظم . واتهمه أعداؤه بتغيير عقيدته الدينية وفق ما تقتضيه مآربه الشخصية أو السياسية[٥] . وربما كان هذا صحيحا ، ولكن كل الزعماء فى هذا القرن إستخدموا الدين — أداة للسياسة (*) .

وعاب عليه الكثيرون تعدد زيجاته . فإنه عند وفاة زوجته الأولى أجرى مفاوضات للزواج من « آن » أخرى ثرية ، هى ابنة موريس أمير سكسونيا البروتستانتى ، وعقد قرانه عليها وفق الطقوس اللوثرية فى ١٥٦١ ، ولكنه لم يعلن تحوله إلى البروتستانتية إلا عام ١٥٧٣ . وأصابت آن بعض لوثة من الجنون فى ١٥٦٧ ، فاحتجزت فى معزل مع بعض الأصدقاء ليرعوها .

(*) أن الأمراء الذين أقاموا العقيدة الدينية أو تولوا حمايتها أو غيروها ، قل أن كان لديهم فى قرارة أنفسهم شىء منها ، فولتير[٦] .

وكانت لا تزال على قيد الحياة حين حصـــل وليم من خمسة من القساوسة البروتستانت على إذن بالزواج من شارلوت البوربونية ، من الأسرة المالكة الفرنسية (١٥٧٥) ، وكانت قد هربت من دير للراهبات واعتنقت مذهب الاصلاح ، وتوفيت شارلوت ١٥٨٣ . ولبس وليم الحداد عليها لمدة عام ، تزوج بعده للمرة الرابعة من لويز دى كولينى ابنة أمير البحر الذى كان قد قضى نحبه فى مذبحة سانت برثلميو . وعلى الرغم من هذه الزيجات – وربما كان بسببها — كان وليم غنيا بما لديه من أراضى ، خاوى الوفاض من المال . وفى ١٥٦٠ بلغت ديونه نحو مليون فلورين[٧] . وغلبت عليه ذات يوم نزعة إلى الاقتصاد فطرد ثمانية وعشرين من طباخيه[٨] .

وتخبط فيليب بشكل هدام فى التعامل مع النبلاء فى الأراضى الوطيئة . أن أباه الذى نشأ وترعرع فى بروكسل ، عرف هؤلاء الرجال وتكلم لغتهم وساسهم فى حزم . على حين أن فيليب ترى فى أسبانيا فلم يتكلم الفرنسية ولا الهولندية، وعز عليه أن ينحنى لهؤلاء الأقطاب فى لباقة وسماحة ، ويحترم عاداتهم وديونهم . بل أنه عبس واستاء من أسرافهم وتبذيرهم وأدمانهم على الشراب ، وتبذلهم مع النساء ، وتهافتهم عليهن . وفوق هذا كله لم يتهم فيليب دعاواهم فى الحد من سلطانه . على أنهم بدورهم كرهوا منه كبرياءه الكئيب وولعه بمحاكم التفتيش وتعيينه الأسبان فى المناصب التى تدر ربحا فى الأراضى الوطيئة ، وتزويد مدنهم بحاميات أسبانية . وعندما طالب بدفع الأموال هؤلاء النبلاء ورجال الأعمال ، وهم الذين يشكلون الجمعية التشريعية ،استمعوا — عن طريق المترجمين — فى فتور إلى دعواه ودفاعه بأن والده وبأن الحروب الأخيرة قد خلفت فى الخزينة عجزا كبيرا ، وتولاهم الجزع لمطالبته بمليون وثلثمائة ألف فلورين ، وبضريبة أخرى قدرها ١ ٪ على العقارات ، و ٢ ٪ على الأموال المنقولة، ورفضوا التصديق على هذه الضرائب ، ولكنهم أقروا فقط مبالغ قدروا أنها تكفى لتغطية النفقات الجارية . وبعد ثلاث

سنوات من ذلك دعاهم إلى الاجتماع ثانية وطلب منهم ثلاثة ملايين جيلدر ، فوافقوا ، على شرط انسحاب القوات الأسبانية من الأراضى الوطيئة . فأقر هذا الشرط ، ولكنه محاما فى هذا التنازل من ترضية بالحصول على إذن من البابا بإنشاء أحدى عشرة أسقفية جديدة فى الأراضى الوطيئة ، على أن يعين فى هذه الأسقفيات رجالا يرتضون تنفيذ القوانين التى سنها والده ضد الهرطقة وعندما أبحر فيليب إلى أسبانيا فى ٢٦ أغسطس ١٥٥٩ — إلى غير رجعة إلى الأراضى الوطيئة — كانت قد تشكلت خطـــوط الصراع الاقتصادى الدينى الكبير .

٢ ـ مارجريت بارما

١٥٥٩ — ١٥٦٧

كان فيليب قد عين مرجريت دوقةبارما نائبة له . وهى ابنة شرعية لشارل الخامس من أم فلمنكية . وكانت قد نشأت وترعرعت فى الأراضى الوطيئة ، وعلى الرغم من طول مقامها فى إيطاليا ، فإنها استطاعت أن تلم بالفلمنكية . إن لم يكن بالهولندية كذلك . ولم تكن ضيقة الأفق ولا متعصبة ، ولكنها كانت كاثوليكية ورعة ، حرصت على أن تغسل فى الأسبوع المقدس من كل عام أقدام اثنتى عشرة من العذارى وتمنحهن مهور الزواج . وكانت مرجريت امرأة قديرة عطوفة ، ولكن عصفت بها بشكل مزعج رياح الثورة .

لقد حد المستشارون الذين عينهم فيليب من سلطان مرجريت . وكان أجمونت وأورنج من بين أعضاء مجلس الدوله لديها . ومذ رأى هذان العضوان أنهما ينهزمان دائماً أمام رأى الأعضاء الثلاثة الآخرين فى المجلس فإنهما امتنعا عن الحضور . وفى هذا الثالوث الناشىء برزت وسيطرت شخصية أنطوان برينو أسقف آراس . المعروف فى التاريخ باسم الكاردينال دى جرانفل . وكان رجلا كريم الخلق وفقا لفلسفته وتفكيره ، وكان ينزع ـ

كما تنزع مرجريت — إلى الوسائل السلمية فى معالجة الهرطقة ، ولكنه كان مخلصاً للكثلكة والملكية إلى حد تعذر معه أن يسيغ الانشقاق أو الخلاف الدينى . وقد غلت أيدى الكاردينال ومرجريت بإصرار فيليب على عدم اتخاذ أى إجراء هام إلا بموافقة الملك ، وكان وصول هذه الموافقة الملكية من مدريد إلى بروكسل يتطلب عدة أسابيع . وضحى الكاردينال بشعبيته فى سبيل طاعة الملك . وعارض تعدد الأسقفيات سرا، ولكنه خضع لإلحاح فيليب على أن أربع أسقفيات لا تكفى لسبع عشرة مقاطعة. ولحظت الأقلية البروتستانتية فى استياء وغضب أن الأساقفة الجدد ينشرون محاكم التفتيش البابوية ويتشددون فى إجراءاتها . وفى مارس ١٥٦٣ كتب أورانج وأجمونت وهورن — وهم أنفسهم كاثوليك — كتبوا إلى فيليب يتهمون جرانفل بانتهاك حرمة الحقوق الإقليمية التى تعهد الملك بالإبقاء عليها واحترامها ، ورأوا أن الكاردينال مسئول عن الأساقفة الجدد ، وحضوا على عزله من منصبه . ولم تستسغ مرجريت نفسها استيلاء الكاردينال على السلطة ، وتاقت إلى شىء من التراضى مع النبلاء الساخطين الذين كانوا ذوى أهمية لديها للمحافظة على النظام الاجتماعى ، وأخيرا فى سبتمبر ١٥٦٣ أوصت هى كذلك بنقل جرانفل إلى مكان آخر . وبعد مقاومة طويلة خضع الملك ، ودعا القسيس العظيم إلى التمتع بأجازة ينقطع فيها عن عمله . وغادر جرانفل بروكسل فى مارس ١٥٦٤ ، ولكنه ظل واحدا من أعظم المستشارين الموثوق بهم لدى الملك . وعاد النبلاء إلى مجلس الدولة الخاص بمرجريت ، وباع بعض موظفيهم المناصب وأحكام القضاء وأوامر العفو ، ويبدو أن نائبة الملك ، مرجريت ، شاركت فى الغنائم[٩] .

وانتشرت محاكم التفتيش ، وكان فيليب يراقبها وهو فى أسبانيا ، ويشجع على استمرارها ، ويبعث إلى مرجريت بأسماء الهراطقة المشتبه فيهم . وما كاد يمر يوم دون إعدام . وفى ١٥٦١ أحرق جلين دى مولر فى أودينارد ، وأحرق توماس كولبرج فى تورنى ، وقطع أحد أنصار تجديد العماد أربا حتى

الموت بسبع ضربات من سيف عتيق صدىء ، فى حضور زوجته التى قضت نحبها فزعا من هول المنظر[١] وأثارت هـذه الأعمال الوحشية حفيظة برتران لبلاس فهاجم كاتدرائية تورنى . أثناء قداس عيد الميلاد واندفع إلى المذبح وانتزع القربان المقـــدس من يد القسيس ووطئه بقدميه ، وصاح فى جمهور المصلين « أيها المضللون ، هل تظنون أن هذا هو المسيح إلهكم ومخلصكم ؟ » وعذب الرجل فأحرقت يده اليمنى وقدمه حتى لم يبق منهما إلا العظام ، وقطع لسانه ، وعلق فوق نار وشوى على محصل حتى لفظ أنفاسه ، وفى ليل أحرق روبرت أوجيبه وزوجته وأبناؤه لأنهم قالوا بأن عبادة القربان المقدس ليست إلا تجديفا وثنيا[١] .

أما توركيمادا[٢] الأراضى الوطيئـة أول قاض للتحقيق وعضو فى محكمة التفتيش فى أسبانيا « يضرب به المثـل فى القسوة والتعصب الذميم » . فهو بيتر تيتلمان الذى بلغت أعماله من التعسف والوحشية حداً اتهمه معـــه مجلس مدينة بريجز — وكله من الكاثوليك — لدى مرجريت ، بأنه متوحش انتزع الناس من بوتهم وحاكمهم دون أية ضوابط قانونية ، وأجبرهم على أن ينطقوا بما يريده هو ، وحكم عليهم بالإعدام ، كما أن القضاة فى الفلاندز وجهوا إلى الملك فيليب كتابا مثيراً يرجون فيه وضع حد لهذه الأعمال الشائنة . وطلبت مرجريت فى شىء من الجبن إلى هذا المحقق أن يتدرع « بالحزم والاعتدال » ، ولكن الإعدام لم يتوقف . وأيد فيليب تيتلمان، وأمر مرجريت أن تنفذ دون رحمه ولا ابطاء القرارات التى أصدرها أخيراً مجمع ترنت (١٥٦٤) . واحتج مجلس الدولة بأن عدداً من هذه القرارات انتهك حرمة الامتيازات المعترف بها للمقاطعات ، وأوقف نشرها .

---

(١) ليس لنا من مصدر لمثل هـذه الأحداث إلا المراجع البروتستانتية المقتبسة فى كتاب موتلى (قيام الجمهورية الهولندية) ١ — ص ٢٨٣ — ٢٩٠ .

(٢) Torquemada ١٤٢٠ — ١٤٩٨ راهب دومنيكانى .

وكان وليم أورانج تواقا إلى الأبقاء على الأراضى الوطيئة متحدة فى سبيل المحافظة على حرياتها السياسية التقليدية ، فاقترح انتهاج سياسة التسامح سابقة كثيراً لعصره وأوانه . فأعلن فى مجلس الدولة ، أن الملك يخطىء إذا ظن أن الأراضى الوطيئة سوف تحتمل وتساند هذه المراسيم الدموية بلا حدود .

ومهما كنت شديد التمسك بعقيدتى الكاثوليكية ، فانى لاأقر محاولة الأمراء أن يتحكموا فى ضمائر رعاياهم ، ورغبتهم فى أن يسلبوهم حرية العقيدة[١١] ، وانضم الكاثوليك إلى البروتستانت دمغ هذه المراسيم بالظلم والطغيان[١٢] وأرسل أجمونت إلى مدريد ليلتمس التخفيف من شدة هذه المراسيم ، وعززت مرجريت هذا المطلب سراً . ووجه أساقفه ايبرس ونامور وغنت وسانت أومر ملتمسا إلى فيليب (يونية ١٥٦٥) يرجون فيه أن يخفف الملك المراسيم ، وأن يوجه النصح إلى الشعب فى شىء من الرفق والحب الأبوى ، لابالقساوة الشرعية[١٣] ، ورد فيليب على كل هذه الاحتجاجات بأنه يؤثر أن يضحى بمائة ألف من الأرواح على أن يغير سياسته[١٤] . وفى أكتوبر ١٥٦٥ أرسل توجيهاته الصريحة إلى وكلاء محكمة التفتيش :

أريد فيما يتعلق بمحكمة التفتيش أن تطبق اجراءاتها وأحكامها .... كما كان الحال من قبل ، وكما تقتضيه كل القوانين وضعية كانت أو الهية . أن هذا يقع من نفس أحسن موقع . أريد منكم أن تنفذوا أوامرى . أعدموا كل المسجونين ، ولاتتركوا لهم بعد اليوم فرصة للافلات نتيجة تقصير القضاة وضعفهم وعقيدتهم الفاسدة ، وإذا قعد الجبن ببعضهم عن تنفيذ المراسيم فانى استبدل بهم رجالا أكثر جرأة وحماسة[١٥] .

وأذعنت مرجريت لفيليب وأصدرت أوامرها بتطبيق المراسيم تطبيقاً كاملا (١٤ نوفمبر ١٥٦٥) . وانسحب أورانج واجمونت ثانية من مجلسها . ورفض أورانج وغيره من النبلاء وكثير من القضاة تطبيق المراسيم : وانهالت نشرات البروتستانت واعلاناتهم التى يستنكرون فيها الاضطهاد . واشتم التجار

الأجانب رائحة الثورة فى الجو . فبدأوا ينزحون من الأراضى الوطيئة ، وأغلقت المخازن وكسدت التجارة ، وخيم شبح الموت على أنتورب وفر كثير من البروتستانت فى الأراضى الوطيئة إلى انجلترا وألمانيا . وفى انجلترا ساعدوا على النهوض بصناعات النسيج التى نافست « المقاطعات المتحدة » فى القرن السابع عشر ، وقادت الانقلاب الصناعى فى القرن الثامن عشر .

واعتنق كثير من صغار النبلاء المذهب البروتستانتى خفية . وفى ديسمبر ١٥٦٥ اجتمع بعض هؤلاء — لويس كونت ناسو (وهو الشقيق الأصغر لشهم اوليم) ، وفيليب فان مارنكس أمير سانت ألديجوند ، وأخوه جان فان مارنكس أمير تولوز ، وهندريك كونت برد رود ، وغيرهم لجتمعوا فى قصر كولمبرخ فى بروكسل ، وحرروا «وثيقة» يستنكرون فيها إدخال محاكم التفتيش إلى الأراضى الوطيئة ، وشكلوا عصبة تعهدت بإخراجها من البلاد . وفى أبريل ١٥٦٦ سار ٤٠٠ من صغار النبلاء إلى قصر مرجريت وقدموا لها «ملتمساً» بأن تطلب إلى الملك أن يضع حداً لمحاكم التفتيش والمراسيم فى الأراضى الوطيئة ، وأن توقف تطبيق المراسيم حتى يصل جواب الملك . وأجابت مرجريت بأنها سترسل ظلامتهم إلى الملك ، ولكن ليس من سلطتها أن توقف المراسيم ، وأنها ستبذل كل ما فى مقدورها للتخفيف من مفعولها . ولما رأى أحد أعضاء مجلسها شدة فزعها من عدد مقدمى الظلامة وقوة عزيمتهم طمأنها بقوله « عجبا ياسيدتى » هل تخشين ياصاحبة العظمة المتسولين ؟ وتقبل المتحالفون هذا اللقب تحديا . وارتدى كثير منهم البدلة الرمادية الخشنة ، وحملوا الحقيبة والطاس اللذين تميز بهما المتسولين آنذاك . وأصبحت عبارة « فليحى المتسولين » صيحة الحرب فى الثورة . ولمــدة عام كان هؤلاء النبلاء الصغار هم الذين قادوا الثورة وأذكوا نارها .

وأبلغت مرجريت نبأ « الملتمس » إلى فيليب ، كما أبلغته ما يلقاه من تأييد شعبى كبير . وجدت مساعيها لحمله على الاعتدال ، فكان جوابه يحمل فى

الظاهر معنى الترضية (٦ مايو ١٥٦٦) ، وعبر عن أمله فى إمكان قمع الهرطقة دون أراقة مزيد من الدماء ، ووعد بزيارة الأراضى الوطيئة فى موعد قريب وأرسل إليه مجلس الدولة فلورنت مونمورنس . والبارون مونتينى ، ومركيز برحون ، لتعزيز رجاء مرجريت . فأستقبلهم فيليب استقبالا حسنا . وفى ٣١ يوليه كتب إليها بموافقته على إلغاء محاكم التفتيش الأسقفية فى الأراضى الوطيئة ، وبأنه يصدر عفواً عاما عمن توصى هى بالعفو عنهم .

وانتهز الكلفنيون واللوثريون وأنصار تجديد العماد فى الأراضى الوطيئة فرصة هذا الهدوء فى العاصفة ليجهروا بعبادتهم ، وعاد اللاجئون البروتستانت أفواجا من إنجلترا وألمانيا وسويسرا ، وقام الوعاظ من مختلف الطبقات — الرهبان السابقون ، علماء اللاهوت ، صانعو القبعات ، مشطو شعر الخيل ، دباغو الجلود — يخطبون فى الجموع الغفيرة من النساء والرجال ، وكثير منهم مسلحون ، وكلهم يرتلون المزامير ويهتفون « فليحى المتسولون » . وبالقرب من ثورنى ، ألقى أمبروزويل الذى كان قد درس مع كلفن — ألقى موعظة فى ستة آلاف شخص (٢٨ يونيه ١٥٦٦) ، وبعد ذلك بيومين وفى نفس المكان . خطب قسيس آخر فى عشرة آلاف ، وبعد أسبوع واحد استمع لموعظته عشرون ألفا [١٦] . وبدأ أن نصف سكان الفلاندرز أصبحوا بروتستانت . وكادت الكنائس والمدن أن تخلو من الناس فى أيام الآحاد لأنهم هرعوا إلى جمعيات البروتستانت . وإذا سمع الناس فى مقاطعة هولندة بأن بيتر جبرييل الخطيب المفوه سوف يلقى موعظة فى أوفرين بالقرب من هارلم ، هرع آلاف البروتستانت إليه ، وهزوا أجواز الفضاء فى الحقول بمزاميرهم . وبلغت جموع البروتستانت بالقرب من أنتورب خمسة عشر ألفاً ، وقال بعضهم ثلاثين ألفاً ، وكان كل الرجال مسلحين تقريبا . وأمرت مرجريت حكام أنتورب بمنع هذه التجمعات لأنها خطر على البلد ، فأجابوا بأن قواتهم المسلحة غير كافية ولا يعتمد عليها ، ولم يكن تحت تصرف مرجريت نفسها قوات منذ رحيل الحاميات الأسبانية ح . وبلغ الاضطراب فى أنتورب حداً

ساءت معه الحياة الاقتصادية بشكل خطير . وطلبت مرجريت إلى وليم أورانج أن يشخص إلى المدينة لإجراء تسوية سلمية بين الكاثوليك والبروتستانت هناك . فعمل على تهدئة الأمور بحض الوعاظ على قصر اجتماعاتهم على الضواحى وإلا يحمل المجتمعون سلاحا .

وفى الشهر نفسه (يوليه ١٥٦٦) اجتمع بقيادة كونت لويس ناسوا ألفان من « المتسولين » فى سانت تروند ، فى أسقفية ليبج ، وسط هذا الصخب البهيج ، وضعوا الخطط للمضى قدما فى قضيتهم . وقرروا الاتصال بالبروتستانت الألمان ليشكلوا بينهم جيشا يهب لنجدة البروتستانت فى الأراضى الوطيئة إذا هوجموا . وفى ٢٦ يوليه قدم لويس وأثنى عشر آخرون ، وهم فى زى المتسولين ، إلى مرجريت ، طالبا بعقد الجمعية العمومية ، وأن تحكم هى نفسها فى نفس الوقت ، بتوجيه من أورانج وأجمونت وهورن ، ولما كان ردها ملتويا غير واضح فأنهم لمحوا إلى أنهم قد يضطرون إلى التماس مساعدة أجنبية ، ومن ثم شرع لويس ، بالتواطؤ مع أخيه الأحرص منه . وليم ، فى تجهيز أربعة آلاف من الخيالة وأربعين سرية من المشاة فى ألمانيا [١٧] .

وفى ٩ أغسطس وقع فيليب وثيقة رسمية يعلن فيها أن العرض الذى قدمه للعفو العام قد انتزع منه رغم إرادته ، وأنه لا يلزمه بشىء ، وفى ١٣ أغسطس أكد للبابا أن إيقاف محاكم التفتيش مرهون بموافقة البابا [١٨] . وفى ١٤ أغسطس اقتحمت جمهـــرة من البروتستانت بتحريض من الوعاظ الذين استنكروا الصور الدينية ، كنائس سانت أومر الواحدة بعد الأخرى فحطموا الصور والمذابح ودمروا كل الزخارف . وفى نفس الأسبوع قامت جموع شبيه بمثل هذه الأعمال فى ايبر وكورتراى وأودينارد وفالنسيان . وفى يومى السادس عشر والسابع عشر دخلت الجماهير الكاتدرائية الكبرى فى أنتورب وحطموا المذبح والزجاج الملون والصلبان وغيرها من الصور ، ودمروا الآلات الموسيقية والزخارف وكؤس القربان والأوعية المقدسة ، وفتحوا

الأضرحة وجردوا الجثث من حليها ، وشربوا النبيذ المقدس ، وأحرقوا كتب القداس الثمينة ، ووطئوا بأقدامهم التحف الفنية . وأرسلوا فى طلب السلالم والحبال ، فتسلقوا وجذبوا التماثيل من أماكنها وهشموها بالمطارق الثقيلة . واخترق الجمع أنتورب وهم يهتفون منتصرين ، وحطموا الصور والزخارف فى ثلاثين كنيسة وديرا ، وأحرقوا مكتبات الرهبان ، وأخرجوا الرهبان والراهبات من الأديار[١٩] ولما ترامت أنباء هذه «الضراوة الكلفنية» إلى تورنى إنطلقت نشوة تحطيم الصور المقدسة من عقالها هناك، وأعمل السلب والنهب فى كل الكنائس . وفى الفلاندرز وحدها جردت ٤٠٠ كنيسة من الصور . وفى كولمبرخ أشرف الكونت المبتهج المرح على أعمال التخريب وأطعم ببغاواته على القرابين المقدسة[٢٠] . وفى جهات أخرى قام بعض الكهنة السابقين بتحميص رقائق الخبز على شوكات[٢١] . ومن الفلاندرز أمتد الهياج إلى المقاطعات الشمالية ، إلى امستردام وليدن ودلفت وأوترخت ، ثم إلى جرونجن وفريزلاند . واستنكر معظم زعماء البروتستانت أعمال التخريب هذه . ولكن بعضهم ممن رأوا أن الأفراد لم يلحق بهم إلا أيسر الأذى والضرر . ذهبوا إلى أن تحطيم التماثيل والصور أقل أجراما من إحراق الأحياء « الهراطقة » .

وخارت قوى مرجريت بارما أمام العاصفة . فكتبت إلى فيليب تقول « أن أى شىء وكل شىء محتل فى هذا البلد فيما عدا العقيدة الكاثوليكية »[٢٢] . وبات فيليب يتحين الفرصة للانتقام . ولكن مرجريت التى تواجه الجماهير المسلحة والزعماء المغامرين أحست بأنها مرغمة على بعض التنازلات . فوقعت فى ٢٣ أغسطس ، مع ممثلى المتسولين ، إتفاقا تباح بمقتضاه العبادة الكلفنية فى الأماكن التى كانت تمارس فيها بالفعل ، بشرط عدم التعرض للطقوس الكاثوليكية ، وإلا يحمل البروتستانت سلاحا خارج بيوتهم . ووافق ممثلو المتحالفين على حل « عصبتهم » إذا أوفت الحكومة بهذا الاتفاق . وتوقف الاضطهاد وساد السلام لبعض الوقت .

ولكن أيا من وليم أورانج وملك أسبانيا لم يقنع بهدوء الحال . فإن وليم كان يرى فى البروتستانتية الثائرة أداة لتحقيق استقلال الأراضى الوطيئة ، وعلى الرغم من أنه كان لا يزال كاثوليكيا اسما فإنه تخلى عن كل مناصبه الحكومية ، ونظم وسائله الخاصة للتجسس ، وقصد (٢٢ أبريل ١٥٦٧) إلى ألمانيا يلتمس المدد من الرجال والمال . وبعــــد ذلك بخمسة أيام غادر دوق ألفا أسبانيا ، مفوضا من الملك فيليب ، فى جمع مايلزم من القوات لاستخدامها فى الانتقام من المشاغبين الكلفنيين ، والقضاء بلاهوادة على أية حال هرطقة وثورة وحرية فى الأراضى الوطيئة .

٣ — دوق ألفا فى الأراضى الوطيئة

١٥٦٧ — ١٥٧٣

هو فرناندو ألفارز دى توليدو ، دوق ألبا أو ألفا ، وكان آنذاك فى التاسعة والخمسين من العمر ، وكأنه صورة أبدعتها ريشة الرسام الجريكو : طويل القامة ، نحيل القوام ، ذو عينين سوداوين ، وبشرة صفراء ، ولحية بيضاء فضية ، وكان قد ورث ، وهو فى سن العشرين ، لقبه السلامع الذائع الصيت ، وضياعه الشاسعة ، وبدأ العمل العسكرى فى سن مبكرة ، وامتاز بالشجاعة والذكاء والقسوة . وألحقه فيليب بأخص مجالسه واستمع مغتبطا إلى مشورته وكان حكمه فى هذه الساعة العصيبة هو مايقضى به جندى درج على النظام الأسبانى والورع الأسبانى : اسحق الثوار العصاة دون شفقة ولا رحمة . فإن أى تنازل يقوى المعارضة . وأطلق فيليب يديه ومنحه كل السلطة ودعا له بالتوفيق .

شق ألفا طريقه إلى إيطاليا ، وهناك جمع أساسا من الحاميات الأسبانية فى نابلى وميلان صفوة الجند ليشكل جيشا قوامه عشرة آلاف رجل ، ألبسهم أفخر الثياب وزودهم بأحدث العدة والعتاد ، وأثلج صدورهم بألفين من بنات

الهوى أحسن اختيارهن وأعدادهن وقاد الجيش عبر جبال الألب ، وعبر برحندى واللورين ولكسمبرج. وفى ٢٢ أغسطس ١٥٦٧ دخل بروكسل وتلقاه اجمونت فى كل الخضوع والخشوع . وقدم له جوادين نادرين هدية . ولقيته مرجريت يعروها الأسى والأسف. وهى تشعر بأن أخاها حل محلها وفرض سلطانه عليها فى نفس الوقت الذى كانت قد أعادت فيه نظاماً إنسانياً . واحتجت مرجريت عندما أقام ألفا حاميات أسبانية فى كل المدن . وأجاب فى فتور « إنى على استعداد لاحتمال كل الخزى والوزر » .

واستأذنت مرجريت الملك فيليب فى الاستقالة من منصبها ، فأجابها إلى طلبها مع منحها معاشاً سخياً يضمن لها الهناءة. وفى ديسمبر رحلت عن بروكسل إلى موطنها فى بارما، وقد حزن من أجلها الكاثوليك الذين أجلوها واحترموها، والبروتستانت الذين تنبأوا بأنه سيتضح وشيكا أن أشد قساوتها كانت ليناً وإعتدالا إلى جانب وحشية ألفا المنتظرة .

وأقام نائب الملك الحاكم العام الجديد فى قلعة أنتورب ، وأعد نفسه لتطهير الأراضى الوطيئة من الهرطقة ، ودعا اجمونت وهورن إلى العشاء وأكرم وفادتهما. ثم ألقى القبض عليهما وأرسلهما فى حراسة مشددة إلى أحد الحصون فى غنت (٧ سبتمبر) وعين « مجلس القلاقل » الذى أطلق عليه البروتستانت الجزعون من جديد اسم « مجلس الدم » وكان سبعة من أعضائه التسعة من الأراضى الوطيئة واثنان من الأسبان، وكان لهذين العضوين فقط حق التصويت. واحتفظ ألفا لنفسه بالقرار الحاسم فى أى موضوع يعنيه بخاصة . وأمر المجلس بالبحث عن المشتبه فى معارضتهم للكنيسة الكاثوليكية أو الحكومة الأسبانية ، وإعتقالهم ومحاكمتهم سراً ، ومعاقبة من يحكم عليهم دون ترفق أو إبطاء. وانبث الوكلاء للتجسس، وشجع المخبرين على الغدر باقاربهم وأعدائهم وأصدقائهم وحظرت الهجرة ، وأعدم ربانية السفن الذين يساعدون ربانية عليها شنقاً (٢٣) . وحكم على كل مدينة عجزت عن قمع الثورة أو معاقبة

العصاة بأنها مذنبة، وأودع موظفوها السجن أو فرضت عليهم الغرامة. وأعتقل آلاف الأفراد. وذات صباح واحد قبض على نحو ١٥٠٠ فى مضاجعهم ونقلوا إلى السجون. وكانت المحاكمات قصيرة عاجلة، وكان الحكم بالإعدام يصدر أحياناً بالجملة، على ثلاثين أو أربعين أو خمسين دفعة واحدة (٢٤). وفى شهر واحد - (يناير ١٥٦٨) أعدام ٨٤ شخصاً من سكان فالنسيان. وسرعان ما كان من العسير أن تجد فى الفلاندرز أسرة غير حزينة على فرد منها قتل أو أعتقل بأمر من «مجلس القلاقل». وندر أن كان فى الأراضى الوطيئة من يجسر على الاحتجاج، فإن أيسر النقد كان يعنى الإعتقال.

وأحس ألفا بأن نجاحه قد تلطخ وتضاءل بعجزه عن إيقاع وليم أورانج فى حبائله. وأصدر مجلس المتاعب قرار بإتهام الأمير وأخيه لويس، وزوج أخته كونت فإن دن برج، والبارون مونتينى وغيرهم من الزعماء، بتشجيع الهرطقة والثورة. وكان مونتينى لا يزال فى أسبانيا، فأودعه فيليب السجن. وكان ابن وليم، وهو فيليب وليم كونت بورن طالبا فى جامعة لوفان، فاعتقل وأرسل إلى أسبانيا، وهناك نشىء تنشئة كاثوليكية متحمسة، وتبرأ من مبادىء أبيه. وصدر أعلان بأن وليم خارج على القانون، أحل لأى إنسان قتله دون التعرض لعقاب قانون.

وعمل وليم أورانج على تنظيم جيش، ووجه أخاه لويس إلى أن يحذو حذوه. والتمس العون من الأمراء اللوثريين فكم يتحمسوا للإستجابة له، ومن الملكة اليزابث التى أمسكت عن مساعدته فى حذر. وجاءته الأموال من أنتورب وأمستردام وليدن وهارلم وفلشنج، وأرسل إليه كل من الكونت فان دن برج وكولمبرخ وهو جستراتن ثلاثين ألف فلورين. وباع هو مجوهراته وأوانيه الفضية ومطرزاته وأثاثه الفاخر، وجمع نحو خمسين ألف فلورين، وتوافر الجنود، لأن المرتزقه الذين تفرقوا نتيجة بعض الهدوء فى الحرب الدينية فى فرنسا، عادوا إلى ألمانيا مفلسين. وكان لزاماً ان ينتهج وليم سياسة التسامح. فكان

عليه أن يكسب اللوثريين والكلفنيين تحت لوائه ، كما كان عليه أن يؤكد للكاثوليك فى الأراضى الوطيئة أن عبادتهم لن تمس بسوء بتحرير البلاد من ربقة أسبانيا .

ووضع أورانج خطة العمل لثلاثة جيوش فى وقت واحد ، قوة من الهيجونوت من فرنسا تهاجم أرتوا من الجنوب الغربى ، ويقود هوجستراتن جيشه ضد ماسترخت فى الجنوب ، ويقتحم لويس ناسو فريزلند من ألمانيا فى الشمال الشرقى . وصدت هجمات الهيجونوت وهو جستراتن ، ولكن لويس انتصر على الجنود الأسبان فى هيلجرلى (٢٣ مايو ١٥٦٨) . وأمر دوق ألفا بإعدام أجمونت وهورن (٥ يونية) ليطلق ثلاثة آلاف من الجنود كانوا يتولون حراستهما وحماية مدينة غنت ، ليستفيد منهم . وتقدم بهذه الإمدادات إلى فريزلند ، ودحر جيش لويس الذى أصابه الوهن فى جمنجن (٢١ يولية) وأودى بحياة ٧٠٠٠ رجل وهرب لويس سبحا فى مصب نهر امز . وفى أكتوبر قاد وليم جيشا قوامه ٢٥ ألف رجل إلى برابانت ، وقد عقد العزم على ملاقاة ألفا فى معركة حاسمة . ولكن ألفا بجيشه الأقل عددا والأحسن نظاما أحبط خططه ، وتجنب اللقاء فى معركة ، وعمد إلى تعويق عدوه بهجمات فى مؤخرته ورفض القتال جنود وليم الذين لم تدفع رواتبهم . فقادهم إلى مكان آمن فى فرنسا وسرحهم . ثم تنكر فى زى فلاح وشق طريقه من فرنسا إلى ألمانيا حيث تنقل من مدينة إلى مدينة ، فراراً من القتل . وبهذه الحملات المشئومة الممتلئة بالكوارث بدأت « حرب الثمانين عاما » التى خاضتها الأراضى الوطيئة فى ثبات ومثابرة لم يسبق لهما مثيل ، حتى قدر لها النصر فى النهاية فى ١٦٤٨ .

كان ألفا آنذاك سيد الموقف المزهو فى الميدان ، ولكنه كان خاوى الوفاض إلى حد بعيد . وكان الملك فيليب قد دبر مع أصحاب المصارف فى جنوة أن يمدوه بحراً بأربعمائة وخمسين ألف دوكات . ولكن القرصان الإنجليز أجبروا السفن على الاتجاه إلى ميناء بليموت ، وهناك وضعت اليزابث يدها على المال ،

مع أرق الإعتذارات ، حيث لم تكن تكره مساعدة وليم مقابل هذا الثمن . عندئذ دعا ألفا الجمعية العمومية المكونة من النبلاء وممثلي المدن للاجتماع في بروكسل ، واقترح عليهم (٢٠مارس ١٥٦٩)فرض ضريبة فورية قدرها ١٪ على الممتلكات وضريبةدائمة قدرها ٥٪على أية عملية نقل للعقارات، وضريبة دائمة قدرها ١٠٪ على المبيعات فاحتجت الجمعية بأنه لما كانت مواد كثيرة قد غيرت الملكية عدة مرات في العام الواحد فإنضريبة المبيعات هذه تقارب أن تكون مصادرة ، وأحالت المقترحات إلى جمعيات المقاطعات ، وهناك كانت المعارضة شديدة إلى حد اضطر معه ألفا إلى إرجاء ضريبة ال ١٠٪ إلى ١٥٧٢، والاكتفاء بضريبة الواحد في المائة، وبمنحة قدرها مليوني فلورين سنويا لمدة عامين. ولكن حتى ضريبة الواحد فيالمائة كانت جبايتها شاقة باهظة التكاليف ورفضت أوتوخت دفعها . فأطبقت فرقة منالجند على المنازل والممتلكات، واستمرت المقاومة ، ورمى ألفا كل الأقليم بالخيانة وألغى كل إعفاءاته وامتيازاته ، وصادر كل ممتلكات سكانه لصالح الملك.

وأن هذه الضرائب والإجراءات التي اتخذت لفرضها هي التي هزمت ألفا الذي لم يهزم حتىذلك اليوم. وبات كل السكان تقريبا، كاثوليك وبروتستانت، يقاومونه ،فياستياء يتفاقم أمره ، كلما عوقت وعرقلت ضرائبه نشاط الأعمال التي بنت عليها الأراضي الوطيئة ازدهارها ورخاءها . ولما كان ألفا أبرع في الحرب منه في شئون المال فإنه انتقم لإستيلاء البزابث على الأموال التي كانت في طريقها إليه من جنوة ، بالإستيلاء على الممتلكات الإنجليزية في الأراضي الوطيئة ، وحظر التجارة معانجلترا . وردت اليزابث علىهذا بمصادرة بضائع الأراضي الوطيئة فيانجلترا ، وتحويل التجارة الإنجليزية إلىهمبرج. وسرعان ماأحست الأراضي الوطيئة بوطأة الكساد الاقتصادي . فأغلقت المتاجر أبوابها ، وازداد التعطل ، وفكر رجال الأعمال الأقوياء الذين احتملوا في صبر وتجلد شنق البروتستانت ونهب الكنائس ، فكروا مليا وسرا فيالثورة

وأخيراً مولوها . وحتى رجال الدين الكاثوليك الذين خشوا إنهيار الاقتصاد الوطنى ، أنقلبوا على ألفا ، وحذروا الملك فيليب من أن الدوق يعمل على تخريب البلاد [٢٥] ، بل أن البابا — بيوس الخامس الذى كان قد اغتبط أيما اغتباط بانتصارات ألفا ، نراه الآن يشاطر الكاردنيال دى جرانفل أسفه لقساوة ألفا [٢٦]. ويوصى بالعفو العام عن العصاة والهراطقة النادمين التائبين — ووافق فيليب على هذا الاجراء وأبلغ به ألفا (فبراير ١٥٦٩) ، ولكن الدوق طلب التمهل ، ولم يعلن العفو إلا فى ١٦ يولية ١٥٧٠ .. وفى تلك السنة خلع البابا على ألفا القبعة والسيف المقدسين ، وأنعم « بالوردة الذهبية » على زوجته [٢٧] ؛ كما أعدم فيليب مونتينى الذى كان سجيناً — (١٦ أكتوبر ١٥٧٠) .

وفى نفس الوقت ظهرت على المسرح قوة جديدة . وذلك أنه فى مارس ١٥٦٨ قامت عصابة من اليائسين المستميتين عرفوا باسم « المتسولين المتطرفين » ، وجهوا همهم إلى نهب الكنائس والأديار وقطع أنوف القساوسة والرهبان أو آذانهم ، وكأنهم عقدوا العزم على مباراة « مجلس الدم » فى وحشيته وفظائعه [٢٨] . وفيما بين عامى ١٥٦٩ — ١٥٧٢ ظهرت جماعة أخرى أطلقوا على أنفسهم اسم « متسولى البحر » ، وضعوا أيديهم على ١٨ سفينة ، وتلقوا عمولة من وليم أورانج ، وأغاروا على شواطئ الأراضى الوطيئة ، ونهبوا الكنائس والأديار ، وسيطروا على المراكب الأسبانية ، وزودوها ثانية بالمؤن من الثغور الإنجليزية الصديقة — بل حتى من لاروشيل الثائرة — التى كانت فى يد الهيجونوت آنذاك . وأغار « متسولو البحر على أية مدينة ساحلية لا توجد بها حامية أسبانية ، واستولوا على المواقع الحصينة ، وبفضل قدرتهم على فتح السدود بات من أخطر الأمور على القوات الأسبانية أن تقترب منهم أو تصل إليهم . فلم يعد فى مقدور ألفا أن يتلقى أية امدادات أو مؤن من البحر وهكذا صارت المدن الرئيسية فى هولنده وزيلند وجلدرلاند وفريزلند آمنة محمية ،

ومن ثم قدمت ولاءها لوليم أورانج ، وقررت تزويده بالإمدادات من أجل الحرب (يولية ١٥٧٢) ونقل وليم مقر قيادته إلى دلفت وأعلن أنه « الأصلح الكلفنى » وهو لقب أصدق على رأسه منه على عقيدته ، وفى تلك الآونة كتب فيليب فان مارنكس أغنية « وليم ناسو » التى أصبحت ،ولا تزال ، الترنيمة الوطنية فى الأراضى الوطيئة .

ومنذ لقى وليم أورانج التشجيع على هـذا النحو جهز جيشا آخر وغزا برابانت . وفى نفس الوقت قام لويس ناسو ، بمعونة كولينى ، باعداد قوة فى فرنسا ، ودخل هيوت ، واستولى على فالنسيان ومونز (٢٣ مايو ١٥٧٢) . وتقدم ألفا ليسترد مونز ، وهو يأمل بذلك أن يثنى فرنسا عن مساعدة لويس. وتقدم وليم جنوبا لنجدة أخيه ، وأحرز بعض انتصارات يسيرة ، ولكن سرعان ما استنفد ما لديه من مال ، فتقاضى جنوده أجورهم بنهب الكنائس ، وتسلوا بقتل القساوسة [٢٩] . فثارت ثائرة الكاثوليك ، حتى أنه عندما اقترب جيش وليم من بروكسل وجد الأبواب موصدة والأهالى يحملون السلاح لمقاومته واستأنف الجيش سيره ، ولكن على مسافة فرسخ من مونز فوجىء الجند ، وهم نيام ، بستمائة جندى أسبانى ، قتلوا من جنود وليم ثمانمائة قبل أن يتمكنوا من تهيئة أنفسهم للدفاع . واستطاع وليم الهرب بشق النفس مع بقايا قواته ، إلى مكلين فى برابانت . وفى نفس الوقت قضى قتل كولينى ومذبحة سانت برتلميو على كل أمل فى العون من فرنسا . وفى ١٧ سبتمبر سقطت مونز فى يد ألفا الذى هيأ للويس وفلول جيشه أن يرحلوا دون أن يمسهم أذى . ولكن قائد جيش ألفا ، فيليب دى نوفارم ، شنق من تلقاء نفسه مئات من الأهالى ، وصادر ممتلكاتهم وباعها بثمن عال [٣٠] .

أن فشل استراتيجية وليم وافراط قواته التى يصعب قيادها ووحشية « المتسولين » وفظائعهم ، كل أولئك خيب آماله فى توحيد الكاثوليك والكلفنيين واللوثريين ليقاوموا جميعا طغيان ألفا . فان « المتسولين » ،وكانوا

كلهم تقريبا كلفنيين متحمسين أبدوا ضد الكاثوليك من ضروب الوحشية والضراوة ماأبدته محاكم التفتيش ومجلس الدم نحو الثوار والهراطقة . وفى كثير من الحالات لم يتركوا للأسرى الكاثوليك إلا الخيار بين الكلفنية أو الموت ، وكانوا يقتلون دون تردد ، وفى بعض الأحيان بعد تعذيب لا يصدق ، كل من تمسك بأهداب العقيدة القديمة (٣١) . وأعدم كل من طرفى النزاع كثيرا من أسرى الحروب . وكتب مؤرخ بروتستانتى يقول :

فى أكثر من مناسبة روئى الرجال يشنقون ... أخوتهم هم أنفسهم الذين وقعوا أسرى فى صفوف الأعداء ... ووجد سكان الجزر لذة وحشية فى ضروب القسوة هذه ، ولم يعد الأسبانى فى نظرهم فردا من بنى الإنسان . وذات مرة انتزع أحد الجراحين قلب سجين أسبانى ، وثبته بالمسامير فى مقدم السفينة ودعا الأهالى ليغرسوا أسنانهم فيه ، وفعل كثير منهم هذا فى ارتياح وحشى (٣٢)

أن هؤلاء « المتسولين » القساة القلوب هم الذين هزموا دون ألفا . وأخلد الدوق إلى شىء من الراحة بعد الحملات التى قام بها ، وورث أبنه دوق فدريجو ألفارث دى توليدو مهمة استعادة ومعاقبة المدن التى كانت قد أعلنت تأييدها لوليم أو استسلمت له . فبدأ ألفارث بمدينة مكلين التى أبدت أقل مقاومة ، حيث خرج القساوسة والأهالى فى موكب نادمين ، يرجون الصفح والابقاء على المدينة ، ولكن ألفا كان قد أمر بانتقام تكون فيه موعظة وعبرة . فظل جنود فدريجو لمدة أيام ثلاثة ينهبون البيوت والأديار والكنائس ، ويسرقون الحلى والأردية الثمينة من التماثيل المقدسة . ويطأون الفطائر المقدسة تحت الأقدام ، ويذبحون الرجال ويستبيحون النساء ، كاثوليك أو بروتستانت على حد سواء وفى طريق تقدمه إلى جلدرلند ، تغلب جيشه على الدفاعات الهزيلة فى زوتفن ، وقتل كل رجال المدينة تقريبا . وعلق بعضهم من الأقدام ، وأغرق خمسمائة منهم بربطهم زوجا زوجا ، ظهرا لظهر . والالقاء بهم فى نهر أيسل . واستسلمت بلدة ناردن الصغيرة بعد مقاومة قصيرة ، وحيث الأسبان الغزاة بموائد زخرت

بألوان الطعام ، فأكل الجنود وشربوا ثم اعملوا القتل فى كل الأهالى فى المدينة وتقدموا إلى هارلم ، وهى مركز كلفنى أبدى حماسا خاصا للثورة. وقد دافعت حامية قوامها أربعة آلاف رجل عن المدينة دفاعا مجيدا ، إلى حد أن دوق فدريجو اقترح الانسحاب منها ، ولكن ألفا هدد بأن يتبرأ منه إذا لم يستمر فى الحصار ، فتصاعدت أعمال العنف ، وعلق كل من الطرفين أسراه على أعواد المشانق فى مواجهة عدوه . وأثار المدافعون حنق المحاصرين بأن مثلوا على الأسوار الطقوس الكاثوليكية بطريقة تدعو إلى السخرية والضحك (٣٣) . وأرسل وليم ثلاثة آلاف جندى لمهاجمة جيش دوق فدريجو ، ولكنهم أبيدوا وأخفقت كل محاولة لتخليص هارلم بعد ذلك . وفى ١١ يولية ١٥٧٣ ، بعد حصار دام سبعة أشهر اقتات فيها الناس على الأعشاب والجلود ، استسلمت المدينة . ولم يبق على قيد الحياة سوى ١٦٠٠ رجل أعدم معظمهم . كما أعدم ٤٠٠ من المواطنين المتزعمين ، أما بقية الأهالى فقد أبقى على حياتهم بعد موافقتهم على دفع غرامة قدرها مائتان وخمسون ألف جلدر .

وكان هذا آخر انتصارات حكومة دوق ألفا وأبهظها تكلفة . وهلك أكثر من اثنى عشر ألفاً من أفراد الجيش الذى تولى الحصار متأثرين بالجراح أو بالمرض . واستنزفت الحرب كل ماحصل من ضرائب بغيضة . واكتشف فيليب الذى كان يعد النقود أكثر مما يحسب حساب الأنفس والأرواح ، أن ألفا لم يكن غير محبوب لدى الناس فحسب ، بل أنه كان كذلك ينفق أموالا طائلة، وأن أساليب قائده كانت تعمل على توحيد الأراضى الوطيئه ضد أسبانيا وأحس دوق ألفا بأن الرياح غير مواتية له ، وأن التيار قد انقلب ضده . فطلب تنحيته وتباهى بأنه قتل ١٨ ألف ثائر (٣٤) . ولكن الهراطقة كانوا فى مثل القوة التى كانوا عليها عندما جاء هو إلى الميدان ، بل أكثر من ذلك أنهم سيطروا على الثغور وعلى البحر ، وأن الملك فقد مقاطعتى هولنده وزيلنده تماما . وقدر أسقف نامور أن ألفا فى سبع سنين ، ألحق من الأذى بالكاثوليكية كثر مما ألحقه بها لوثر والكلفنية فى جيل بأسره (٣٥) . وقبلته

استقالة ألفا وغادر الأراضى الوطيئة (١٨ ديسمبر ١٥٧٣) وأستقبله الملك فيليب استقبالا حسنا . وقاد، وهو فى سن الثانية والسبعين الجيوش الأسبانية لغزو البرتغال (١٥٨٠) . ولدى عودته من هذه الحملة انتابته حمى متقطعة ، ولم يحفظ عليه حياته إلا ارضاعه اللبن من ثدى امرأة . وفاضت روحه فى ١٢ ديسمبر ١٥٨٢ ، بعد أن عاش عاما على اللبن . ونصف قرن على الدم .

٤ ـ ركويسانس ودون جوان

١٥٧٣ — ١٥٧٨

وأرسل فيليب دون لويس دى ركويسانس ليحل محل ألفا ، وهو الذى كان منذ عهد قريب نائب الملك فى ميلان . ودهش الحاكم الجديد لعدد الثوار والروح التى سادتهم ، فكتب إلى الملك : « لم أكن أدرك قبل وصولى كيف استطاعوا الاحتفاظ بمثل هذه الأساطيل الضخمة ، على حين أن جلالتكم لم تستطع الإنفاق على أسطول واحد فقط » . ومهما يكن من أمر ، فانه يبدو أن الرجال الذين يقاتلون من أجل حياتهم وديارهم وأملاكهم وعقيدتهم الزائفة ، وجملة القول عن قضيتهم ـ يقنعون بالطعام دون أجور[٣٧] . ورجا فيليب فى أن يرخص له فى أصدار عفو عام عن الجميع باستثناء الهراطقة العنيدين ، مع السماح لهم بالهجرة ، وإلغاء ضريبة العشرة فى المائة على البيوع . ولم ير وليم أورانج فى هذه المقترحات إلا لعبة لكسب الوقت ، ووسيلة جديدة لاستئصال البروتستانتية من الأراضى الوطيئة ، ولم يكن يقبل السلام إلا على أساس الحرية الكاملة للعبادة ، واستعادة امتيازات المقاطعات ، وانسحاب الأسبان من الوظائف المدنية والعسكرية . واستمرت الحرب . وفى معركة (١٣ أبريل ١٥٧٧) قضى نحبه كل من أخوى وليم : لويس فى سن السادسة والثلاثين ، وهنرى فى سن الرابعة والعشرين .

وثمة حادثان شدا من أزر الثورة فى هذه الآونة : أفلاس فيليب (١٥٧٥)

وموت ركويسانس فى أثناء حصار زيركزى (٥ مارس١٥٧٦) . عين الملك أخاه غير الشقيق ، دون جوان النمسوى ، فى هذا المنصب البغيض . ولكنه لم يصل إلى لكسمبرج إلا فى نوفبر . وفى هذه الأثناء وقع ممثلو هولنده وزيلنده ، فى دلفت (٢٥ أبريل) « قانون التهدئة » الذى خول وليم السلطة العليا فى البر والبحر ، وحق التعيين فى الوظائف السياسية . وعند الضرورة حق العهد بحماية الاتحاد إلى أمير أجنبى . وأهاب وليم ، من مركز السلطان الجديد ، بسائر المقاطعات أن تشارك فى طرد الأسبان من الأراضى الوطنية. ووعد بحرية الفكر والعقيدة للكاثوليك وللبروتستانت على حد سواء .

وربما لقى نداؤه بعض الاستجابة فى المقاطعات الجنوبية لولا أن الجنود الأسبان وقد خدعهم السلب والنهب فى زيركزى ، تمردوا (يولية) وبدأوا ، دون تمييز ، حملة من السلب والنهب والعنف أرهبت فلاندرز وبرابانت. ووجه إليهم مجلس الدولة فى بروكسل تأنيبا قاسيا ولكنهم تحدوه ، فأعلن المجلس أنهم خارجون على القانون، ولكن لم يكن لديه قوة يقاومهم بها . فعرض وليم أن يرسل قوات عسكرية لحماية هذه البلاد ، وجدد تعهده بالحرية الدينية . وتردد المجلس ، فأطاح به أهالى بروكسل ، وشكلوا مجلسا آخر تحت رياسة فيليب دى كروى الذى بدأ المفاوضات مع الأمير . وفى ٢٦ سبتمبر رحبت غنت بفرقة عسكرية أرسلها وليم لحماية المدينة من المتمردين الأسبان . واجتمع فى غنت فى١٩ أكتوبر ، ممثلون عن برابانت وفلاندرز وهينوت ، وكانوا يكرهون تحالف ولاياتهم مع الأمير المحروم من حماية القانون ، ولكن فى ٢٠ أكتوبر اجتاح المتمردون ماسترخت ، وفى ٢٨ منه ، وقع المجتمعون للبحث والتشاور رغبة فى حماية قوات وليم لهم ، « قانون التهدئة » الذى صدر فى غنت ، والذى اعترف بوليم حاكما على هولنده وزيلنده ، وأوقفوا كل اضطهاد للهرطقة ، واتفقوا على التعاون فى طرد الجنود الأسبان من مقاطعاتهم . ورفضت الجمعية العمومية للمقاطعات الجنوبية التى انعقدت فى بروكسل ، التوقيع على « قانون التهدئة » ، حيث اعتبرته اعلانا للحرب ضد الملك .

ودعم المتمردون مرة أخرى من حجج وليم ، ذلك أنهم فى ٤ نوفمبر ١٥٧٦ استولوا على انتورب ، وأعملوا فيها السلب والنهب ، على أسوأ شكل عرفه تاريخ الأراضى الوطيئة . وقاوم المواطنون ولكنهم غلبوا على أمرهم، وقتل منهم سبعة آلاف ، وأحرق ألف مبنى كان بعضها من روائع العمارة . وذبح الرجال والنساء والأطفال فى طوفان من الدماء بأيدى الجنود وهم يرددون الصيحات : « سان جيمس ، أسبانيا ، الدم . الموت . النار . السلب ، النهب» وطوال تلك الليلة عاث الجنود فى المدينة الغنية ، وسلبوا كل بيت فيها تقريبا ، ورغبـــة فى انتزاع الاعتراف بالذخائر المخبأة ، أصيلة أو زائفة ، عذبوا الآباء على مرأى من أطفالهم،وذبحوا الصبية وهم فى أحضان أمهاتهم ،وضربوا الزوجات بالسياط حتى الموت أمام أعين أزواجهن . واستمر هذا « العنف الأسبانى » يومين ، حتى أتخم الجنود بالذهب والحلى والملابس الثمينة ، وبدأ الواحد منهم يقامر الآخر بغنائمه فى الشوارع المكتظة بجثث الموتى . وفى ٢٨ نوفمبر صدقت الجمعية العمومية على « قانون التهدئة » الذى وضع فى غنت».

وكان هذا نصرا مبينا أحرزه الأمير فى الوقت المناسب . وعندما أرسل دون جوان من لكسمبرج يقول أنه على وشك أن يدخل بروكسل ، أجابت الجمعية العمومية بأنها لن تستقبله بوصفه حاكما إلا إذا وافق على « قانون التهدئة » وأعاد امتيازات المقاطعات، وطرد كل القوات الأسبانية من الأراضى الوطيئة . وقضى دون جوان، الباسل فى ميدان المعركة ، القليل الخبرة بالسياسة والذى أعوزه الرجال والمال ، شتاءه متلكئا فى لكسمبرج ، ثم وقع فى ١٢ فبراير ١٥٧٧ « المرسوم الدائم » الذى أدى به إلى التهـــدئة وحريات المقاطعات . وفى أول مارس دخل دون جوان بروسكل فى احتفال رسمى ، واغتبطت المدينة إذ رأت مثل هذا الحاكم الوسيم الأعزل الضعيف . ورحلت القوات الأسبانية . وساد السلام لفترة وجيزة ربوع البلاد المخربة .

وكانت أحلام جوان أكبر من إمكاناته المالية . وبعدمآثره وبطولاته فى ليبنتو وتونس أوهنت العظمة اليائسة العاجزة فورة الدم الهادر بأوهام

البطولة . وعلى مقربة منه كانت مارى ستيوارت الجميلة سجينة لدى اليزابث العملاقة الرهيبة . فلم لا يحشد جوان جيشا وأسطولا ، ويعبر البحر ، ويطيح بعرش ملكة ويتزوج الأخرى ، ويصبح ملكا على انجلترا واسكتلنده ، ويعيد هذه الأقاليم الغافلة إلى أحضان الكنيسة الأم ، أن فيليب الذى خشى الهوة بين الأموال والأحلام ، اعتبر أخاه ساذجا مخدوعا . وقدم جوان البرهان على ذلك ، فإنه غادر بروكسل فجأة (١١ يونية) ، على رأس فرقة من الوالون (سكان جنوب بلجيكا) الكاثوليك ، وأنكر « قانون التهدئة » . وبعد مفاوضات عقيمة مع جوان ، دعت الجمعية العمومية وليم إلى العاصمة، ولدى وصوله (٢٣ سبتمبر) رحب به جمهور كبير من المواطنين الكاثوليك على أنه الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يقود الأراضى الوطيئة إلى الحرية . وفى ٨ اكتوبر أبلغت الجمعية العمومية دون جوان أنها لم تعد تعترف به حاكما ولكن يمكن أن تقبل فى مكانه أميرا من الأسرة المالكة . وفى ١٠ ديسمبر ١٥٧٧ انضمت المقاطعات كلها — عدا نامور — إلى « اتحـــاد بروكسل » . وطلب الأعضاء الكاثوليك فى الجمعية العمومية ، الذين كانوا يخشون كلفنية وليم، إلى ماتياس أرشيدوق النمسا أن يكون حاكما على الأراضى الوطيئة . وقدم الشاب ابن العشرين وتقلد المنصب (١٨ يناير ١٥٧٨) ولكن أنصار وليم أغروا الحاكم الجديد بتعيين وليم نائبا له — ومن الوجهة الفعلية صاحب الأمر والنهى فى الإدارة والسياسة .

وكان يمكن للتسامح المتبادل فى الخلافات الدينية وحده إن يبقى على هذا الاتحاد أو الترابط ، ولكن التعصب مزقه . فإن الكلفنيين فى هولنـــده والكاثوليك فى أسبانيا اعتقدوا جميعا بأن الكفار وحدهم هم الذين يستطيعون أن يبدوا تسامحا . وقال كثير منهم صراحة بأن وليم أورانج ملحد[٣٨] ، واتهمه الواعظ الكلفنى بيتر داتينوس ، بأنه جعل من السلطة معبوده الوحيد، وأنه يغير عقيدته كما يغير الناس ملابسهم[٣٩] . وكان الكلفينون (وظلوا

حتى ١٥٨٧) يشكلون عشر السكان فقط فى مقاطعة هولندة ، ولكنهم كانوا نشيطين طموحين ومسلحين . وكانت لهم السيطرة على الجمعيات السياسية ، فأحلوا حكاما وقضاة بروتستانت محل الكاثوليك ، وفى ١٥٧٣ حظر مجلس المقاطعة العبادة الكاثوليكية فى هولندة[٤٠] ، على أساس أن أى فرد كاثوليكى يحتمل أن يكون خادما لأسبانيا . ولم تأت ١٥٧٨ . إلا وقد عمت الكلفنية زيلندة تقريبا ، وكانت من الوجهة السياسية — لا العددية — متسلطة فى فريزلند واكتسحت موجات تحطيم الصور المقدسة هولنده وزيلنده ١٥٧٢ ، ومقاطعات أخرى ، حتى الفلاندرز وبرابانت ، بعد ١٥٧٦ . وأنكروا أى ربط بين الدين والفن باعتباره عملا وثنيا دنسا . وجردت الكنائس من الصور والتماثيل والصلبان والزخارف ، وصهرت الأوانى الذهبية والفضية ، ولم يبق إلا الجدران العارية ، وعذب « المتسولون » القساوسة الكاثوليك . وأعدموا نفرا منهم[٤١] .

واستنكر وليم كل هذه التصرفات ، ولكنه تغاضى[٤٢] عن استيلاء الأقليات الكلفنية المسلحة على السلطة السياسية فى بروكسل وايبر وبروجز وكل شمال الفلاندرز[٤٣] . وفى غنت سجن الكلفنيون المنتصرون أعضاء المجلس ، ونهبوا الكنائس والأديار وأتلفوا أجزاءها الداخلية ، وصادروا أملاك الكنيسة ، وحرموا إقامة الطقوس الكاثوليكية ، وأحرقوا الرهبان فى فى ساحة السوق[٤٤] ، وأقاموا جمهورية ثورية (١٥٧٧) . وفى امستردام اقتحم الكلفنيون المسلحون دار البلدية (٢٤ مايو ١٥٧٨) ، وطردوا القضاة والموظفين ، وأحلوا محلهم كلفنيين ، وخصصوا الكنائس التى جردوها لمذهب الاصلاح . وفى اليوم التالى قامت ثورة مماثلة بمثل هذا العمل فى هارلم . وفى أنتورب التى كانت آنذاك مقر قيادة وليم أخرج البروتستانت القساوسة والرهبان من المدينة (٢٨ مايو) ، وأنب الأمير أتباعه تأنيبا شديدا على هذا العنف . وخصهم على السماح باستئناف الطقوس الكاثوليكية . ولكن فى ١٥٨١ حرمت كل عبادة كاثوليكية فى أنتورب وأوترخت . واتهم الكلفنيون

القساوسة بأنهم كانوا يخدعون الناس بالمخلفات الزائفة والكرامات التى يفتعلونها — عرض قطع من « الصليب الحقيقى »، وعظام قديمة للتعبد على أنها رفات القديسين، وإخفاء الزيت فى رؤوس التماثيل حتى ترشح فى الوقت المناسب[٢٥].

على أن وليم تولاه الحزن والأسى حين رأى سنوات كفاحه من أجل الوحدة تختتم بالفرقة والفوضى والبغضاء. إن الديموقراطية الكلفنية التى كانت قد استولت على جملة مدن تتردى الآن فى وهدة من الفوضى، بدأ معها الملاك البروتستانت والكاثوليك على حد سواء يتساءلون هل كان المذهب الجديد وكل ما يتصل به من دعايات أشد وبالا عليهم من الديانة القديمة. وسرى شعور الاستياء وواجه وليم هذه الرغبة المتزايدة فى إعادة النظام بالتفاوض مع فرنسوا دوق أنجو ليتولى منصب الحاكم العام بدلا من ماتياس العاجز التافه. ولكن اتضح أن أنجو خائن حقير. وزاد الطين بلة فى محنة وليم، أن جيشا أسبانيا جديدا قوامه عشرون ألفا من الجنود المدربين أحسن تدريب، كان يتجه شمالا بقيادة أقدر قواد العصر. ذلك أنه فى ديسمبر ١٥٧٧ قدم الساندرو فارنيزى دوق بارما بجيشه إلى دون جوان فى لكسمبرج. وفى ٣١ يناير ١٥٧٨ هزموا القوات التى كان يعوزها النظام، التابعة للجمعية العمومية، فى جمبلو. وفتحت لوفان واثنتى عشرة مدينة صغيرة أخرى، أبوابها أمام الفاتح الجديد، وفرت الجمعية العمومية للأراضى الوطيئة من بروكسل إلى أنتورب. إلا أن دون جوان الذى استشعر مجداً جديداً، انتابته حمى خبيثة، وقضى نحبه فى نامور، فى أول أكتوبر ١٥٧٨، وهو فى سن الثالثة والثلاثين. وعين فيليب دوق بارما حاكما عاما مكانه، وبدأ فصل جديد.

٥ - بارما وأورانج

١٥٧٨ — ١٥٨٤

السساندرو فارنيزى، الذى يبلغ الثالثة والثلاثين، هو ابن نائبة الملك السابقة مرجريت بارما . تربى فى أسبانيا وأقسم يمين الولاء لفيليب ، وحارب فى ليبنتو وقضى الأربعة عشر عاماً الأخيرة من حياته فى الإبقاء على الأراضى الوطيئة الجنوبية فى حوزة الملك فيليب . وفى ١٥٨٦ ورث دوقية بارما ولقبها ، ولكنه لم يجلس على عرش الدوقية قط . وكان له عينان حادتان ، ووجه أسمر ، وشعر أسود قصير ، وأنف كأنف النسر ، ولحية كثة ، كل أولئك كشف عن شيء يسير من مقدرته وشجاعته وبراعته . وجمع بين كل الفن العسكرى الذى امتاز به دوق ألفا ، مع إثارة من قسوته ، وقدراً كبير بكثير من المهارة فى المفاوضة والحديث . وبات القتال من أجل الأراضى الوطيئة ، آنذاك ، صراعاً بين دبلوماسية بارما وأسلحته تسانده أموال الكاثوليك وآمالهم . بين صمود أمير أورانج البطولى ، يموله التجار الهولنديون ويشدون أزره . ويعرقل جهوده ، فى وقت معا ، تعصب أصدقائه .

وفى ٥ يناير ١٥٧٩ شكل جماعة من النبلاء الكاثوليك ، من هينوت ودوا وأرتوا وليل ، بإيحاء من أسقف آراس ، شكلوا عصبة آراس لحماية عقيدتهم وممتلكاتهم وفى ٢٩ يناير شكلت مقاطعات هولنده وزيلندة وجرونتجن وأوترخت وجلدرلند ، « اتحاد أوترخت » للدفاع عن عقيدتهم وحرياتهم . وسرعان ما انضم إليها فريزلند ، وأوفريسل . ومن هذه « المقاطعات المتحدة » السبع تتكون اليوم الأراضى الوطيئة الهولندية ، وأصبحت المقاطعات الباقية هى « الأراضى الوطيئة الأسبانية » ، وصارت فى القرن التاسع عشر بلجيكا وحدد تقسيم المقاطعات السبع عشرة إلى أمتين على هذا النحو . سيطرة الكاثوليكية فى الجنوب والبروتستانتية فى الشمال ، من ناحية . إلى جانب الفصل الجغرافى بينهما ، لوجود الخلجان والأنهار الكبيرة التى هيأ اتساعها

وسدودها التي يسهل التحكم فيها ، ثغورا يمكن الدفاع عنها ، وتأوى إليها الأساطيل والأسلحة الأسبانية .

وفى ١٩ مايو وقعت عصبة آراس مع بارما اتفاقا ، التزمت فيه بألا تقبل غير الكاثوليكية مذهباً ، وارتضت بمقتضاه السيادة الأسبانية شريطة استعادة امتيازات المقاطعات والوحدات الإدارية الصغيرة (الكوميونات) وسرعان ما أعاد الدوق ، بالإغراء أو الرشوة أو القوة ، كل المقاطعات الجنوبية تقريبا إلى حظيرة أسبانيا ، وتخلى الزعماء الكلفنيون فى بروكسل وغنت وإيبر عن فتوحاتهم وولوا الأدبار إلى الشمال البروتستانتى . وفى ١٢ مارس ١٥٧٩ قاد بارما جيشا كبيرا ضد ماسترخت الواقعة فى موقع حصين على النهر المسمى باسمها . وأتى الفريقان كلاهما بالأعاجيب من أعمال البطولة وضروب الوحشية وحفر المهاجمون أميالا من الممرات تحت الأرض ليبثوا الألغام ويقتحموا المدينة ، كما حفر المدافعون — النساء والرجال جنبا إلى جنب — ممرات ليقابلوهم ، ودارت رحى القتال حتى الموت فى باطن الأرض . وصب الماء المغلى فى الأنفاق ، وأشعلت الحرائق لتملأها بالدخان . واحترق مئات المحاصرين المهاجمين أو اختنقوا حتى الموت . وانفجر أحد الألغام قبل أوانه فأودى بحياة خمسمائة من رجال بارما . وعندما حاول جنوده تسلق السور قابلتهم الجمرات المحترقة ، وقذفت حول أعناقهم أطواق النار الملتهبة . وبعد أربعة أشهر من الجهد المضنى والضراوة والعنف ، أحدث المحاصرون ثغرة فى السور ، نفذوا منها خفية فى الليل ، وفاجأوا المدافعين المنهوكين وهم نيام وذبحوا منهم ستة آلاف من الرجال والأطفال والنساء . ولم يبق من سكان المدينة البالغ عددهم ثلاثين ألفاً ، على قيد الحياة آنذاك سوى أربعمائة . وعمرها بارما من بعدهم بالموالين الكاثوليك .

تلك كانت كارثة عظمى حلت بالبروتستانت . ووجه اللوم فيها بحق إلى حد ما ، إلى وليم الذى حاول عبثا إنقاذ المدينة ، لعجزه وإبطائه . واتهمه

الآن نفس المتطرفين الذين أحبطوا سياسة التوحيد التي انتهجها ، بتعصبهم وعنفهم — اتهموه بخيانة قضيتهم في مفاوضاته مع دوق أنجو الكاثوليكي ، وأشاروا إلى أنه لم يؤد الشعائر الدينية طوال العام الماضي ، وانتهز الملك فيليب هذه الفرصة ليصب اللعنة على أورانج (١٥ مارس ١٥٨١) . وبعد أن أسهب فيليب في بيان عقوق الأمير وخيانته وزيجاته وجرائمه ، استرسل يقول:

ومن ثم ... بسببه الأعمال السيئة الشريرة التي رتبها وأنه يعكر صفو السلام العام ، وأنه شخص بغيض ، فإننا نحرمه من حماية القانون ، ونحظر على كل رعايانا أن يتعاملوا معه أو يتصلوا به في السر أو العلن ، أو أن يزودوه بالطعام أو الشراب أو الوقود أو غيرها من الحاجيات الضرورية . أننا نعلن على الملأ أنه عدو للجنس البشري . ونبيح ممتلكاته لمن يضع يده عليها . ورغبة في الإسراع في تخليص شعبنا من طغيانه وظلمه ، فإننا نعد ، وعد ملك خادم للرب ، أي فرد من رعايانا ، وأي من النخوة والشهامة ما يستطيع معه أن يجد الوسيلة لتنفيذ هذا المرسوم ، وتخليصنا من هذا الإنسان البغيض ، سواء بتسليمه لنا حياً أو ميتاً ، أو بإزهاق روحه على الفور ، نعد بأن نمنحه هو أو ورثته من الأرض أو المال ، وفق مشيئته ، ما قيمته خمسة وعشرون ألف كراون ذهباً . ولسوف نصدر العفو عن أية جريمة ارتكبها أياً كان نوعها ، وترفعه إلى مرتبة النبلاء إذا لم يكن نبيلا[٤٦] .

وكان جواب مجلس المقاطعات على هذا « الجرم » ، تعيين وليم حاكما عاما على هولنده وزيلنده (٢٤ يولية ١٥٨١) وبعد ذلك بيومين وقع ممثلو هولنده وزيلندرز وجلدرلند وأوترخت وفلاندرز وبرابانت ، في لاهاي « قرار الاستنكار » الذي طرحوا فيه بشكل مهيب ولاءهم لملك أسبانيا . وفي وثيقة مشهورة في التاريخ الهولندي ، شهرة وثيقة « إعلان الحقوق » التي أصدرها برلمان انجلترا ١٦٨٩ في التاريخ الانجليزي ، أعلنوا أن الحاكم الذي يعامل رعاياه معاملة العبيد ويقضي على حرياتهم ، يجب ألا يعتبر بعد اليوم مليكهم الشرعي ويحق قانونا

عزله (٤٧) . وكان رد وليم على هذا الحرمان فى صيغة دفاع حرره له قسيسه ، أرسل إلى الجمعية العمومية وإلى كل بلاط فى أوربا ، ورحب بالحرمان على أنه وسام شرف له . واتهم فيليب بسفاح ذوى القربى والزنى وقتل زوجته وابنه . وأبدى استعداده للتخلى عن كل مناصبه ومغادرة الأراضى الوطنية بل حتى للتضحية بحياته ، إذا كان هذا فى مصلحة بلده ، ومهر الوثيقة بشعاره « سوف أثبت » .

ولم يلبث فيليب طويلا حتى جنى ثمار « الحرمان » الذى أصدره (١٨ مارس ١٥٨٢) . فان جين جوريجى أغرته الجائزة الموعودة ، فتسلح بمسدس واستعان بالله ، ونذر للعذراء بعض الغنيمة . واتخذ سبيله إلى وليم أورانج فى أنتورب . وأطلق الرصاص على رأسه ، فدخلت الرصاصة تحت الأذن اليمنى ونفذت إلى الفم ، ثم إلى الخد الأيسر . ولقى القاتل على الفور حتفه بيد أتباع وليم ، ولكن بدا أن المهمة قد نفذت . ولعدة أسابيع بدا أن الأمير على شفا الموت . ودعا فارنيزى المقاطعات الثائرة ، وقد مات زعيمها العنيد ، إلى المصالحة مع مليكهم الرحيم . ولكن وليم تماثل للشفاء فى بطء بفضل سهر زوجته شارلوت على العناية به . وهى التى قضت نحبها فى ٥ يونية بسبب الإرهاق والحمى . وفى يولية وضع متآمران مغموران خطة لدس السم لأمير أورانج ودوق أنجو كليهما . واكتشفت المؤامرة واعتقل المجرمان وانتحر أحدهما فى السجن ، وأرسل الثانى إلى باريس وحوكم وأدين ، ومزق أربا بربطه فى أربعة خيول ، تتجاذبه فى كل اتجاه .

وفى أثناء عام ١٥٨٢ جمع انجو حوله بعض قوات فرنسية فى أنتورب . ولم يكن الدوق ليقنع بلقبه ، وداعبه الحلم بأن ينصب نفسه ملكا . وهب أتباعه فجأة فى ١٧ يناير ١٥٨٣ ، وهم يهتفون « فيلحى القداس » وحاولوا أن يسيطروا على المدينة . فقاومهم الأهالى . وهلك فى هذه « الثورة الفرنسية » قرابة ألفى شخص . وأخفقت هذه الثورة وهرب أنجو . وعانى وليم من

فقدان قدر آخر من شعبيته لأنه ظل طويلا يؤيد أنجو ويسانده . ووقعت في مارس محاولة أخرى للقضاء عليه . فلم يطمئن للاقامة في أنتورب ونقل مركز قيادته إلى دلفت . عندئذ عقدت مقاطعتا جرونتجن وجلدرلند الصلح مع بارما، ولم يبق مع وليم إلا اثنتين من المقاطعات « المتحدة » : وهما هولنده وزيلنده . ولكنهما اثبتتا ولاءهما بأن جعلتا منصب « الحاكم العام » وراثيا في أسرته (ديسمبر ١٥٨٣) ، وبهذا وضعت أسس بيت أورانج الذى كان يمكن أن يغزو وأن يرث نصف انجلترا في ١٦٨٨ .

وأصر القتلة ولم تفتر عزيمتهم . وفي أبريل ١٥٨٤ حاول هانز هانزون من فلشنج أن يودى بحياة الأمير ، ولكنه أخفق وأعدم . واستبد الحماس الديني ببلتازار جيرار من برجندى ، كما اشتد به التفكير في الخمسة والعشرين ألف كراون* وقصد إلى دوق بارما يعرض عليه قتل أمير أورانج ، ولكن الدوق قدر أن شابا في العشرين من عمره غير صالح للاضطلاع بهذه المهمة ، وأبى عليه المبلغ المتواضع الذى طلبه سلفا ، ولكنه وعده بالجائزة كاملة إذا حالفه التوفيق . وقصد جيرار إلى دلفت ، وتنكر في زى كلفنى مسكين تقى ، وتلقى من وليم اثنى عشر كراون صدقة . وصوب إلى جده ثلاث رصاصات (١٠ يولية ١٥٨٤) فصرخ وليم « يا الهى ، رحمتك بي وبالشعب المسكين » . وفاضت روحه في بضع دقائق . وقبض على جيرار وحوكم أمام قضاة المدينة ، وأبدى فرحه واغتباطه بنجاحه فيما قصد إليه ، ثم لقى أشد العذاب وقتل شر قتلة . وورى وليم التراب في دلفت ، بأسمى مظاهر التكريم بوصفه « أبا البلاد » . ولما كان قد ضحى بكل ما يملك في سبيل الثورة فإنه لم يخلف لابنائه الاثنى عشر شيئا تقريبا . وهذا شاهد صامت على ما درج عليه من نبل وشرف .

* أكد رانك في كتابه « تاريخ البابوات » (١ — ص ٤٧٢) أن أحد الجزويت شجع جيرارد على فعلته . كما أكده موتلى في كتابه « قيام الجمهوريه الهولنديه » ولكن أنكره باستور في كتابه : « تاريخ البابوات » (الفصل العشرون ص١٩—٢٠).

ودفعت الجائزة كاملة لأبوى جيرار ، وابتهج كاثوليك الأراضى الوطيئة ، قائلين أن الجريمة انتقام إلهى لانتهاك حرمة الكنائس وقتل القساوسة . وأرسلوا رأس القاتل إلى كولون باعتباره من المخلفات الثمينة ، ولمدة نصف قرن بذلوا أقصى الجهد لاعلانه قديسا . (٤٩)

٦ — النصر

١٥٨٤ — ١٦٤٨

وهنت بموت وليم روح من بقى من أتباعه فى الفلاندرز وبرابانت . واستولى بارما على بروجز وغنت وبروكسل ومكلين وأنتورب ، ولم ينته ١٥٨٥ حتى وقعت الأراضى الوطيئة جنوب نهر ماس — فيما عدا أوستند وسليز — فى يد الأسبان ، على أن « المتسولين » ظلوا يسيطرون على الثغور والبحر .

وكم أهابت المقاطعات الشمالية بالملكة اليزابث لنجدتهم . واستجابت الآن للنداء . فقد أدركت أن ثورة الأراضى الوطنية منعت أسبانيا من اعلان الحرب على انجلترا ، وما كان فى مقدورها أن توقف هذه الفرصة التى هيأتها العناية الإلهية — منع أسبانيا عن اعلان الحرب — هذا بالإضافة إلى أن الهولنديين سيطروا على سوق الصدف الإنجليزى . وفى ديسمبر ١٥٨٥ أرسلت إلى هولنده قوة كبيرة بقيادة ليسترو سير فيليب سدنى . وأخذ ليستر لنفسه ، باعتباره حاكما عاما للمقاطعات الثائرة ، كل سلطة الملك تقريبا . ومذ رأى أن المقاطعات الجنوبية تستورد كل الحاجيات الضرورية للحياة من المقاطعات الشمالية فإنه حرم كل اتجار مع الممتلكات الأسبانية ، ولكن التجار الهولنديين كانوا يعيشون على هذه التجارة ، وصدروا بضائعهم إلى أسبانيا أثناء حربهم معها . ومن ثم رفضوا الخضوع لما نهى عنه ليستر ، الذى حلت به الهزيمة فى زوتفن (٢٢ سبتمبر ١٥٨٦) فغادر هولنده مشمئزا ، شاعرا بالخزى والعار . وسادت الفوضى فى الشمال لمدة عام كامل . وأنقذت

الجمهورية الصغيرة بفضل اشتراك فيليب لدوق بارما في خطته لغزو انجلترا ، وبفضل هجمات بارما المضللة ضد هنرى نافار فى فرنسا ، وتحكم الهولنديين فى البحار ، وثروة التجار الهولنديين وصمودهم ، وعبقرية جان فان أولدنبار السياسية ، ثم بفضل ما أوتى موريس ناسو ، ابن وليم الصامت ، من عبقرية عسكرية .

وفور وفاة وليم الصامت اختير ابنه موريس حاكما عاما على هولنده وزيلنده وفى ١٥٨٨ ، وهو فى الحادية والعشرين ، عين قائدا عاما وأميرا للبحر فى المقاطعات المتحدة . وفى ١٥٩٠ أسلمته أوترخت وأفريسل وجلدرلاند مقاليد الحكم فيها . وأفاد موريس من محاضرات سيمون ستيفن فى الرياضيات فى ليدن . فطبق العلم الحديث على القذائف والهندسة والحصار . ودرب الجيش الهولندى على أساليب جديدة للالتحام والنظام . وفى سلسلة من الحملات التى اشتهرت بسرعة الحركة والاستراتيجية المفاجئة (١٥٩٠ — ١٥٩٤) استرد موريس زوتفن ودفنتر وتيميجن وجروتنجن . أما بارما الذى ضيع مهاراته وأمواله فى هجمات فيليب العقيمة على انجلترا وعلى هنرى الرابع ، فإنه قضى نحبه فى « سبا » بسبب الاعياء والجراح (٢٠ فبراير ١٩٥٢) .

وعين فيليب خلفا له الأرشيدوق ارنست النمسوى الذى لم يلبث أن أدركته المنية ، ثم الكاردينال الأرشيدوق البرت الذى تخلى عن منصبه الدينى ، وتزوج ايزابل كلارا أوجينيا ، ابنة الملك . وقبل وفاة فيليب (١٥٩٨) بفترة وجيزة ، منح البرت وايزابل حق السيادة على الأراضى الوطنية ، شريطة أن يعود هذا الحق إلى أسبانيا إذا ماتا دون عقب . وأثبت الاثنان أنهما حاكمان قديران رحيمان . عجزا عن اخضاع المقاطعات الشمالية ، ولكنهما أقاما فى الجنوب حكما متحصرا ازدهرت فى ظله الفنون الكنسية فى انسجام جميل مع صور روبنز العارية .

وظهر على مسرح الحوادث فى ١٦٠٣ شخصية جديدة . وكان البرت قد استمر يحاصر أوستند عامين كاملين دون أن يصيب أى نجاح ، وجاء أحد

رجال المصارف الايطاليين ، هو امبروزيودى سبينولا ، ووضع كل ثروته فى خدمة أسبانيا ، وجمع جيشا قوامه ثمانيه آلاف رجل ، وجهزه بالسلاح وبالعتاد ، وحاصر أوستند واستولى عليها . ولكن ثراءه العريض لم يعدل ثروة التجار الهولنديين ، الذين ثابروا على بناء وتجهيز الأساطيل التى أقضت مضاجع البحريه الأسبانية ، وهددت بقطع شريان الذهب الذى يتدفق بين أمريكا وأسبانيا . وإذا أرهق الحصار والقتل البرت وايزابل فانهما استحثا المفاوضات مع الهولنديين ، وأقرهما عليها الملك فيليب الثالث الذى أرهقه العسر والاملاق . وبرغم اعتراضات موريس حض أولدنبار نفلدت الهولنديين على المصالحة . وفى ١٦٠٩ عقدت هدنة هيأت للأراضى الوطيئة الراحة من عناء الحرب لمدة اثنى عشر عاما .

بيد أن الوئام فى الداخل شىء يختلف كل الاختلاف عن السلام الخارجى . لقد حنق موريس على أولدنبار نفلدت هيمنته على مقاليد الأمور فى الجمهورية . ومن الوجهة العملية كان لأكبر الموظفين راتبا فى هولنده السلطان والسيطرة على هذه المقاطعة وحدها ، ولكن مذ كانت ثروة هولنده والضرائب التى تدفعها للجمعية العمومية تعدل ما تملكه وما تدفعه سائر المقاطعات المتحدة مجتمعة ، فان أولدنبار نفلدت مارس فى الاتحاد سلطة تتكافأ مع تلك الثروة ، كما تتكافأ مع رجاحة عقله وشخصيته وخلقه . أضف إلى ذلك أن الملاك الذين حكموا المقاطعات والتجار والأغنياء الذين حكموا الكوميونات أحسوا بانعطاف نحو أولدنبار نفلدت الذى نبذ الديموقراطية مثلهم ، وقال « انه لمن الأفضل أن يحكمنى سيد مطلق من أن يحكمنى الرعاع »[٥٠] وولى موريس وجهه شطر الشعب ليحصل على تأييده ، ووجد أنه يمكنه أن يكسب الشعب إلى جانبه إذا جعل من القساوسة الكلفنيين أصدقاء له .

وكانت القضية الدينية التى أهاجت الجمهورية الآن قضية مثلثة الجوانب : فهناك المعارضة المتزايدة بين الكنيسة والدولة ، وهناك الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت ، وهناك أخيرا حرب النظريات بين البروتستانت

أنفسهم . وسعت المجامع الكنسية الكلفنية إلى أن تحدد النهج السياسى ، وتتخذ من الحكومة أداة لتقوية مدهبم . وارتابت الجمية العمومية فى المجامع الكلفنيه على أنها نماذج سيئة وبذور حطيرة لمؤامرة الديموقراطية . وقد جلب أولدنبار نفلدت على نفسه عداوات كثيرة حين أمر رجال الدين بأن يتركوا الحكومة للسلطات المدنية . وقد يكون غريبا أن نقول أن الغالبية الساحقة من السكان فى ١٦٠٩ كانوا من الكاثوليك حتى فى المقاطعات الشمالية(٥١) . كانت القوانين تحرم العادة الكاثوليكيه ، ولكنها لم تكن تنفذ ، وكان هناك ٢٣٢ قسيسا يتلون الشعائر الكاثوليكية(٥٢) ، وأمر مجلس المقاطعة فى أوترخت القساوسة أن يتزوجوا النساء اللائى يستخدمونهن فى إدارة شئون منازلهم ، ولكن الامتثال لهذا الامر لم يكن تاما ، ولم يلق اقبالا .

وحدث الصراع داخـــل المجموعات البروتستانتية بين الكلفنيين و « المتحررين » . وهم أقلية . وأطلق هذا الاسم على هؤلاء ، لا لأنهم أباحيون فى حياتهم . بل لأنهم حبذوا الحرية الدينية حتى للكاثوليك ، كما أيدوا تفسيرا إنسانيا متحررا للاهوت البروتستانتى . هؤلاء هم ورثة تقاليد ارزم (الذين كان ينتسب إليهم وليم أورانج) . وكان المتزمتون معتنقوا الكلفنية القديمة ، الذين تمسكوا بمذهب الجبرية الصارمة ، وأحسوا بأن عقيدتهم يجب أن تكون إجبارية فى كل المقاطعات المتحدة(٥٣) . نقول كان هؤلاء المتزمتون يرمون المتحررين بانهم « بابويون » فى الخفاء . ودافع ديرك كورنهرت الذى كان سكرتيرا لدى وليم أورانج . عن حرية العبادة فى كتاباته التى أرست أسس اللغة الأدبية فى هولندة . وانبرى واعظ من امستردام ، هو جكوبس أرمنيوس . لفنيد آراء كورنهرت ، ولكنه تحول إليها واعتنقها بينما كان يدرس ليرد عليها . وحينما عين أستاذا للاهوت فى ليدن ، صدم المتزمتين بارتيابه فى الجبرية ، وإثباته أن الإنسان تنقذه أعماله الصالحة بقدر ماينقذه إيمانه ، وهذا يخالف ماقال به لوثر وكلفن . وسلم بأن الوثنى المتمسك

بأهداب الفضيلة قد ينجو من الجحيم . وذهب إلى أن كل الناس فى النهاية سيخلصون ودمغه أستاذ زميل له فى الجامعة ، فرانسيسكس جوماروس ، بأنه مهرطق ماكر .

ومات أرمنيوس ١٦٠٩، وكان قد كسب إلى جانبه آنذاك أتباعا من ذوى النفوذ ، من بينهم أولدنبار نفلدت وهوجو جروتيوس أكبر موظفى روترذام وفى ١٦١٠ صاغ هؤلاء « المتحررون » احتجاجا على نظريات الجبرية والاصطفاء والرفض أو الإخراج من زمرة الأبرار ، واقترحوا عقد مجلس وطنى يضم رجال الدين وغيرهم من العلمانيين لإعادة تحديد عقيدة الاصلاح وتعريفها . وصاغ المتزمتون «احتجاجا مضادا » أكدوا فيه من جديد المذهب الكاثوليكى :

« إن الرب ، بعد خطيئة آدم ، حفظ نفرا معينا من البشر من الدمار ، وقدر لهم الخلاص فى المسيح ... وفى هذا الاصطفاء لم يعتبر الرب الإيمان أو الارتداد ، ولكنه يعمل كيف يشاء . وأرسل الرب ابنه يسوع لتخليص هؤلاء المصطفين وحدهم[٥٤] » .

وأصر أتباع جومارس على أن هذه القضايا لايعالجها إلا رجال الدين وحدهم ، وبذلك نجحوا فى دمغ المحتجبين بأنهم من أنصار البابا أو من أتباع بلاجيوس (الذين ينكرون نظرية الخطيئةالأصلية ويرون أن الإنسانمخير) أو من الموحدين (الذين لا يدينون بالتثليث » ، إلى حد أن أغلبية كبيرة من السكان البروتستانت انحازت إلى جانب المتزمتين ، وكان موريس ناسو يغفل شأن هذه المنازعات اللاهوتية احتقارا لها ، ولكنه تحرك الآن ليصادق مؤقتا جماعة المذهب القديم ، لأنهم يهيئون له ركيزة شعبية لمحاولة استعادة الزعامة الوطنية .

وأعقبت ذلك معركة بالخطب والعظات والنشرات قاربت أن تكون حربا. وعكرت الاضطرابات العنيفة صفو المدنة. وهوجمت بيوت المتحررين

فى لاهاى ، وأخرج الوعاظ الكلفنيون المتشددون من روتردام . وجهزت هولندة جيشا للدفاع عن دياناتها ، وسرعان ماتبعتها مقاطعات أخرى ، وبدأن الحرب الأهلية توشك أن تقضى على الجمهورية فى مهدها ، وفى ٤ أغسطس ١٦١٧ اتخذ أولدنبار نفلدت فى مجلس هولنده قراراً خطيرا — رآه موريس خطيرا حقا — يعلن فيه سيادة الدولة على الأمور الدينية ، ويوجه مدن المقاطعة إلى تسليح نفسها حماية لها من عنف أنصار الكلفنية ، وقصد إلى أوترخت حيث أقنع مجلسها بإعداد القوات لتأييد هولنده . وفى ٢٥ يولية ١٦١٨ دخل موريس ناسو بوصفه القائد الشرعى للجيش ، أوترخت على رأس قوة مسلحة . وأرغم الفرق المجندة حديثاً على أن يتفرقوا . وفى ٢٩ أغسطس أصدرت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة أمرا بالقبض على أولدنبار نفلدت وجروتيوس وغيرهما من زعماء المحتجين . وفى ١٣ نوفمبر اجتمع مجمع كنيسة الإصلاح فى دور درخت (دورت) ، واستمع لآراء اللاهوتيين المحتجين وحكم بأنهم مهرطقون ، وأمر بطرد قساوسة المحتجين من وظائف الكنيسة والتعليم . وصبت اللعنة على أنصار أرمنيوس — مثلهم فى ذلك مثل الكاثوليك — وحرم عليهم عقد الاجتماعات أو إقامة الصلوات العامة . وفر كثيرون منهم إلى انجلترا حيث أحسنت الكنيسة الرسمية استقبالهم ودعموا هم مركز الأنجليكانيين المتحررين .

وحوكم أولدنبار نفلدت أمام محكمة خاصة لم تهيء له أى سند قانونى . واتهم بأنه بطريقة مدموعة بالخيانة أشاع الفرقة فى الاتحاد وعرضه للخطر ، وبأنه سعى إلى تكوين دولة داخل الدولة . وفى خارج المحكمة انهال سيل من النشرات تذيع على الملأ أخطاء حياته الخاصة . ودافع هو عن نفسه دفاعا قويا بليغا إلى حد أن أبناءه أقاموا أمام سجنه عمود مايو المزدان بالأشرطة والزهور واحتفلوا بالإفراج المرتقب عنه ، وكلهم ثقة فى ذلك . وفى ١٢ مايو ١٦١٩ أقرت المحكمة إدانته ونفذ فيه حكم الإعدام فى اليوم التالى . وحكم على

جروتيوس بالسجن مدى الحياة ، ولكنه بفضل براعة زوجته هرب من السجن وعاش ليؤلف كتاباً يستحق الذكر .

وعلى الرغم من هذا الانتصار الذى أحرزه التعصب ، نمت الحرية فى المقاطعات . وبلغ الكاثوليك من الكثرة حداً يتعذر معه وقف نموهم . ولم يكن من المستطاع تنفيذ القرارات النظرية التى صدرت عن مجلس دورت . وفى عام ١٦١٩ نفسه أسس المنونايتيين (يعارضون حلف اليمين وعماد الأطفال والخدمة العسكرية وقبول الوظائف العامة) ، فى حرية تامة ، طائفة الطلبة الجامعيين ، وهى تشبه الكويكررز ، فى ريخنسبرج وقد وجد عندهم سبينوزا ملجأ آمناً . وفى ١٦٢٩ امتدح ديكارت حرية الفكر التى نعم بها فى امستردام ، وفى نهاية القرن السابع عشر أصبحت هولنده ملاذ المهرطقين الذين لجأوا إليها من بلاد كثيرة .

وفى ٩ أغسطس ١٦٢١ استؤنفت الحرب مع أسبانيا . ذلك أن الأرشيدوق ألبرت مات دون أن يخلف عقبا . فعادت المقاطعات الجنوبية إلى أسبانيا . وأغار سبينولا على المدن الهولندية الواقعة على الحدود . فسار إليه موريس ناسو ، ولكن سنوات النضال كانت قد أنهكت قواه ، فمات فجأة (١٦٢٥) وهو فى سن السابعة والخمسين . واستولى سبينولا على بريدا ، وبذلك فتح الطريق إلى امستردام ، وهيأ للمصور فيلاسكويز موضوع لوحة .

ونهض الهولنديون من كبوتهم واستردوا قوتهم فى إصرار وعناد . وأدهش فردريك هنرى الذى خلف أخاه فى منصب الحاكم العام ، الأعداء والأصدقاء على السواء ، بما كان يخفى حتى الآن من مواهب رجل دولة وقائد وبفضل دبلوماسية فرانسيس آرسنز استطاع أن يحصل من ريشيليو على منحة سنوية قدرها مليون ليرة ، وجمع جيشا جديدا ، وبعد حصار طويل استولى على هرتوجنبوخ وماسترخت وبريدا . ولحسن الحظ كان سبينولا قد استدعى إلى لومبارديا .

وفى نفس الوقت استخدام التجار الهولنديون أموالهم فى بناء السفن ، لأن كل انتصار فى البحر كان يعنى توسيع مجال التجارة . وفى عام ١٦٢٨ أسر أسطول هولندى صغير تحت أمرة بيبت هين أسطولا أسبانيا كان يحمل الذهب من المكسيك وهاجم أسطول هولندى آخر قوة أسبانية مكونة من ١٣ سفينة فى نهر سلاك ، فدمرها وأسر ٥٠٠٠ رجل (١٦٣١) . ولكن أروع هذه الانتصارات البحرية هى المعركة التى خاضها قائمقام أمير البحر مارتن هاربوتزون ترومب فى القنال الإنجليزى (بين دوفر وديل) وكان الأسبان قد عقدوا العزم على استعادة السيطرة على ثغور الأراضى الوطيئة من الهولنديين . فأعدوا أسطولا ضخما جديداً من ٧٧ سفينة عليها ٢٤ ألف رجل فلما أبصر به ترومب فى القنال . أرسل فى طلب المدد ، وفى ٢١ أكتوبر ١٦٣٩ أبحر ومعه ٧٥ سفينة حتى صار على مقربة من مواقع العدو ، فأغرق أو أعطب أو أسر كل الأسطول الأسبانى فيما عدا سبع سفن . وقتل ١٥ ألفا من الملاحين الأسبان فى المعركة أو أغرقوا . وتحتل معركة القنال الإنجليزى فى تاريخ هولنده نفس المكانة التى تحتلها هزيمة الأرمادا (١٥٨٨) فى تاريخ انجلترا . فقد وضعت حداً لكل دعاوى أسبانيا فى السيادة على البحار ، وقطعت شريان الحياة بين أسبانيا ومستعمراتها ، وأسهمت مع انتصار فرنسا على أسبانيا فى معركة روكروا (١٦٤٣) واختتمت الحقبة التى هيمنت فيها أسبانيا على أوربا .

مذ انهمكت أسبانيا انهماكا تاماً فى حرب الثلاثين عاما فإنها قررت أن تنزل للهولنديين عن كل شىء ، حتى تتفرغ للحرب مع فرنسا . وفى مونستر فى ٣٠ يناير ١٦٤٨ وقع المندوبون الأسبان معاهدة وستفاليا التى أنهت ثمانين عاماً من الحرب فى الأراضى الوطيئة . وأعلن أن المقاطعات المتحدة غير متقيدة بأى رباط مع أسبانيا . وتم الاعتراف بفتوحاتها . ولا تصل تجارة الراين إلى بحر الشمال إلا عن طريق الثغور الهولندية وحدها . وخول التجار الهولنديون حرية التجارة فى جزر الهند الشرقية والغربية . وهكذا انتهى أطول وأشجع وأقسى صراع من أجل الحرية فى التاريخ بأسره .

الفصل الثامن عشر

من روبنز إلى رمبرانت

١٥٥٥ — ١٦٦٠

١ — الفلمنكيون :

أنه لما يثير الدهشة أنه فى قطعةصغيرة من أوربا ، مثل الأرراضى الوطيئة نشأت ثقافتان متضادتان مثل الفلمنكية والهولندية ، وعقيدتان متنافرتان مثل الكاثوليكية والكلفنية ، وفنانان مختلفان كل الإختلاف فى المزاج والأسلوب مثل روبنز ورمبرانت ، وفانديك وهالس .

ولانستطيع أن نفسر التباين بإختلاف اللغة لأن نصف الفلاندز* ، مثل كل المقاطعات المتحدة ، تحدثوا اللغة الهولندية . وربما نبع بعض التباين من اقتراب هولنده من ألمانيا البروتستانتية واقتراب الفلاندرز من فرنسا الكاثوليكية . وربما ينجم جزء من الإختلاف من إرتباط أسبانيا الكاثوليكية الملكية الارستقراطية إرتباطا وثيقا ببروكسل وأنتورب . وورث أقليم الفلاندرز ديانةالعصور الوسطى وفنها وأساليبها ، على حين كانت هولندة أفقر ، حتى هذا الوقت ، من أن تكون لها ثقافة خاصة بها . ويمكن أن تكون الشمس المشرقة فى المقاطعات الجنوبية قد نزعت بأهلها إلى حياة شهوانية غير متمسكة بقواعد الأخلاق ، على حين أن الغيوم والمصاعب فى الشمال شجعت أهله على أعتناق عقيدة صارمة رواقية رزينة . أو على الأرجح ،

(*) نستخدم هنا ، تيسيرا ، لفظتا الفلاندرز والفلمنكين Flandrs , Flemish للدلالة على الأراضى الوطيئة الأسبانية ، ولفظتا هولندة والهولنديين Hoeenp Onteh للدلالة على المقاطعات الشماليه أو المتحدة .

أن الجيوش الأسبانية انتصرت فى الجنوب ، وأندحرت فى الشمال نتيجة الأنهار المعترضة والثروة الهولندية ؟

لابد أن أنتورب كانت جميلة عندما اكتمل صرح كاتدرائيتها بأبراجها وواجهاتها وفنها الزخرفى ، على حين على مقربة منها ضجت البورصة بكل حيوية التجارة وحيلها ، ورقصت المياه بكل سفن العالم . ولكن الحرب أندلعت بعد ذلك ، فإن ضراوة دوق ألفا ومحاكم التفتيش أخرجت الصناع المهرة والتجار البروتستانت إلى هولندة وألمانيا وإنجلترا ، وصرامة الكلفنية أتلفت الكنائس ، وعنف الأسبان نهب البيوت وأحرق القصور ، كما أن ضراوة فرنسا أفرغت عجزها فى الدماء ، والحصار الذى ضربه فانز لمدة أربعة عشر شهرا أمات الكاثوليك والبروتستانت جوعا على حد سواء . وأخيرا انصم الكاثوليك إلى البروتستانت فى الخروج من المدينة ، وانتقلت تجارة أنتورب إلى إمستردام وروتردام وهارلم وهمبرج ولندن وروان .

ولكن وحشية الإنسان متقطعة ، وسهولة التكيف عنـــده باقية . وقد يكون لنا بعض السلوى فى أن نتتبع كيف أن بعض الأمم والمدن استطاعت بسرعة أن تنهض من دمار الحرب وويلاتها . وتلك كانت حال الفلاندرز بعد ١٥٧٩ . بقيت صناعة النسيج ، وظل الطلب كبيرا على المخرمات الفلمنكية ، وظلت الأمطار تحيى الأرض وأضفى كدح الناس البهاء والفخامة على الحاشية . واستمتعت أنتورب وبروكسل ، تحت حكم الأدواق الذين أحبوا حياة الترف ولكن مع روح إنسانية ، ببعث ونشور جديرين بالذكر . وعادت الفلاندرز إلى كاتدرائياتها وأعيادها الدينية ومهرجاناتها الوثنية . وربما بالغ روبنز فى هذا فى « مهرجان اللوفر العاصف » ولكن استمع أيها القارىء إلى تقرير الكاردينال أنفانت فرديناند ، من أنتورب إلى فيليب الرابع ١٦٣٩ : « أقاموا بالأمس إحتفالهم الكبير ... أنتقل موكب طويل إلى الريف مع عربات كثيرة تحف بها مظاهر النصر . وبعد العرض هرع الناس إلى الطعام والشراب ، حتى شمل الجميع آخر الأمر ، وبدون هذا لايعتبرون أنه احتفال

أو عيد(١) ، بل أن الكاردينال نفسه عندما قدم من أسبانيا إلى بروكسل (١٦٣٥) استقبلوه بالمهرجانات التى دامت لعدة أيام ، وسط زخارف فخمة صممها روبنز نفسه . ووصف زائر إيطالى مدن الفلاندرز قبل الثورة بأنها « سلسلة لا تنقطع من الاجتماعات البهيجة والأعراس وحلبات الرقص ، مع أنغام الموسيقى والأغانى المرحة فى الشوارع(٢) » ، ولم تستسلم كل هذه الروح للحرب . فإن الألعاب التى صورها بروجل كانت لا تزال تقام فى الشوارع ، واستمعت الكنائس مرة أخرى للقداسات المتعددة النغمات والأصوات التى كانت قد جعلت المنشدين الفلمنكيين ، يوما ، مرغوبا فيهم فى كل بلاد . ودخلت الفلاندرز أبهى عصورها .

٢ — الفن الفلمنكى :

تضافرت الحاشية والكنيسة ، والنبلاء وأبناء الشعب فى البذل من أجل إحياء الفن الفلمنكى ، ورعى البرت وايزابل وشجعا كثيرا من الفنانين ، إلى جانب روبنز . وكانت أنتورب لفترة من الزمن مركز الفن فى أوربا ، واستعاد قماش بروكسل المزركش (النسيج المطرز بالكانفاه) امتيازه وتفوقه ، مستعينا برسوم روبنز البطولية . وكان صانعو الزجاج البنادقة قد جلبوا فنهم إلى الأراضى الوطنية فى ١٥٤١ ، وأنتج الصناع المهرة المحليون منه الآن قطعا هشة آية فى الإعجاز ، كان بعضها محل إعزاز وإعجاب إلى حد أنها غالبت قرونا من الفتنة والشغب فغلبتها ، وأبدع صناع المعادن أعاجيب من نسج أفكارهم وأيديهم ، مثل الآنية المعدنية الفاخرة التى تحفظ فيها الذخائر الدينية ، التى يمكن أن توجد فى الكنائس الكاثوليكية فى بلجيكا ، وألحت الارستقراطية التجارية فى طلب القطع الفنية : وجلسوا أمام المصورون ، وشيدوا قصورا فخمة ، ودورا للبلدية ، لمثل تلك التى شادها كرنيلى دى فرندت تمجيدا لأنتورب (١٥٦١ - ١٥٦٥) قبل العاصفة . ولما جرد المتعصب الذميم الكنائس من

آيات الفن ، بات هؤلاء التجار الأرستقراطيون يشدون من أزر المراسم ويرعونها فى لهفة وحماس ، يلحون فى طلب التماثيل واللوحات ليصوروا العقيدة للشعب .

ولم يزدهر فن النحت هنا ، لأن فرنسوا دوكيسنوى ، ابن بروكسل ، أنجز معظم أعماله فى رومه حيث نحت تمثالا ضخما لسانت أندروز بداخل كنيسة القديس بطرس، وإن نفراً قليلا من السائحين الذين يحرصون على رؤية «أقدم مواطنى بروكسل» ، نافورة مانكن بس Manneken Pis (١٦١٩) - تمثال برونزى لصبى يزبد فى مياه المدينة من موارده الخاصة - يعلمون أن هذا هو أبقى روائع دوكيسنوى على الزمن .

أما المصورون الفلمنكيون فإنهم يجلون عن الحصر ، وواضح أن كل بيت فى الأراضى الوطيئة كان عليه أن يقتنى لوحة أصلية ، وأكب ألف فنان فى مائة مرسم على تصوير الأشخاص والمناظر الطبيعية والحيوانات والمؤن والأساطير والعائلات المقدسة وصلب المسيح ، أما إسهامهم المتميز فى تاريخ الفن فهو صور جماعية للهيئات البلدية ، وصور تمثل الحياة المنزلية أو القروية وتأثر هؤلاء الفنانون فى أول الأمر بالطرز الإيطالية ، فقد أبحرت السفن الإيطالية كل يوم إلى أنتورب ، وافتتح التجار الإيطاليون متاجر لهم فيها . وجاء الفنانون الإيطاليون ليهزأوا ويسخروا فأقاموا ليرسموا ، وقصد كثير من الرسامين الفلمنكيين إلى إيطاليا للدراسة ، واستقر المقام ببعضهم هناك ، ومن هؤلاء جوستوس سوسترمانز أحد أبناء أنتورب ، الذى أصبح مصورا للأشخاص، مقربا وذا حظوة لدى أدواق تسكانيا العظام، وأن بعضا من أجمل اللوحات فى قصر بتى هى بريشة هذا الفلمنكى المفعم بالحيوية ، وعاد فرانس فلوريس من دراسته مع ميكلانجلو فى رومه ، وأطلق على نفسه بصراحة أنه «رومانى» ، واستساغ التشريح وأخضع اللون للخط ، وظل مرسمه فى أنتورب لمدة جيل (١٥٤٧ - ١٥٧٠) كعبة للتصوير الفلمنكى وذروته ، وقد يكون

جديرا أن تزور كاين اترى فى متحفها لوحته الرائعة الضخمة « زوجة صياد الباز » وعاش فرانس فى بحبوحة من العيش . وشاد لنفسه قصرا ، وأسرف فى العطاء وفى الشراب ، وبات فقيرا ، وكان كورنلس دى فوز أقدر أفراد أسرة كبيرة من المصورين ، وعندما كان يتزاحم ذوى المكانة أمام روبنز ليصورهم كان يرسل بعضهم إلى فوز ، مؤكدا لهم أنهم سيظفرون منه بمثل ما يرجون من روبنز نفسه ، ولا يزال فى مقدورنا أن نشاهد لوحة تمثل كورنلس وزوجته وابنتين جميلتين لهما ، معلقة فى متحف بروكسل .

وذبلت الفتنة الإيطالية حوالى نهاية القرن السادس عشر ، واستأنف الفنانون الفلمنكيون موضوعاتهم وأساليبهم المحلية . وعاد دافيد تنيبر الأكبر إلى أنتورب . برغم أنه درس فى رومه ليرسم «المطبخ الهولندى» و«مهرجان القرية[٣]» ، ثم علم ابنه حتى تفوق عليه ، وشكل سليل العجوز درول بيزانته بيتر بروجل أسرة من المصورين توفرت على تصوير المناظر الطبيعية المحلية والمشاهد الريفية ، ومنها ولداه بيتر بروجل «الجحيم» ، وجان بروجل «المخمل» ، وحفيداه جان الثانى وأمبروز . وحفيد حفيده أبراهام ، وحفيده الأكبر جان بابتست بروجل ، وقد امتد بالأسرة العمر قرابة قرنين من الزمان (١٥٢٥ — ١٧١٩) ، ولنوضح سجل أعمالهم هنا نقول بأنهم ورثوا عن سلفهم العظيم النزعة إلى المشاهد الريفية والمهرجانات القروية ، ورسم بعضهم خلفيات مناظر طبيعية لروبنز المثقل بالعمل .

وأخرج فنانو الأراضى الوطيئة الفن من الكنيسة والدير إلى البيوت والحقول والغابات ورسم دانيل سيجرز الأزهار والفاكهة فى تفصيل محبب إلى النفس ، وخص العذراء بأكاليله المصورة ، وانضم إلى الجزويت ، وبعث فرانس ستيدرز الحياة والتعبير فى جوانب العديد من المتاحف بمناظر الصيد المثيرة ، والمفزعة أحيانا ، وبالكثير من أطباق لحم الطرائد والفاكهة ،

ولا يزال ، كما وصفه روبنز ، أعظم مصورى الحيوان ، لم ينافسه أحد فى روعة تظليل فراء الحيوان أو ريش الطير .

وعاد أدريان بروور Brouwr إلى فلاحى بروجل ، فأبدعت فرشاته تصويرهم وهم يأكلون ، ويشربون ، ويغنون ، ويرقصون ، ويلعبون الورق ، والنرد ، ويقاتلون أو يعربدون فى احتفال صاخب ، أو يغطون فى النوم . ومر أدريان نفسه بأطوار كثيرة فى حياته التى لم تتعد اثنين وثلاثين عاما ، فإنه درس مع هالس لفترة وجيزة ؛ وفى سن الواحدة والعشرين أصبح أستاذا مسجلا فى نقابة الرسامين فى أنتورب ، وكان ينفق أكثر مما يحتمل دخله ، وسرعان ما غرق فى الديون ، وأودعه الاسبان السجن لأسباب غير معروفة الآن ، ولكنه كان يحيا فيه مترفه ، ثم استرد حريته وسدد ديونه بفضل صور صغيرة . زاخرة بالحياة ممتازة فنيا من ناحية الرسم الحسى وحركة الضوء الرقيقة ، إلى حد أن روبنز ابتاع منها سبعة عشرة رسما ، ورمبرانت ثمانية ، ولا يبدو فلاحوه سعداء قط إلا إذا ثملوا بالنبع القوى أو الخمور الرخيصة ، على أن بروور آثر فلاحا يغنى مع كأسه على أمير منافق يرفل فى الحرير ، وفى سن الثانية والثلاثين عثر عليه وقد فارق الحياة خارج باب إحدى الحانات .

وكان جاكوب جوردانز أكثر وقارا واتزانا ، نقش فى إحدى لوحاته « تحذيرا للظمأ » : « إن أشبه شيء بالمجنون هو المخمور » . واختار أن يرسم رجالا يستطعون احتساء الخمر دون هذيان أو خبل ، ونساء يرفلن فى حفيف الحرير فى إجلال وعظمة . ولد جاكوب فى ١٥٩٣ وعمر حتى الخامسة والثمانين مع كمال الوعى والإدراك . ورسم لنا شخصه فى لوحة « الفنان وأسرته »(٤) ، رجل منتصب القامة . واثقاً بنفسه ، رشيقاً ، ثرياً ، يمسك بمزهر ، وزوجته مطمئنة فى الطوق المكشكش الخانق حول رقبتها ، وابنة لطيفة بدأت لتوها ريعان شبابها كما تبدأ تتفتح أزهار الفلاندرز ، وبنتاً صغيرة سعيدة بالبيت الهادىء والمذهب المريح انظر إلى الصليب المتدلى على صدرها . وتحول جوردانز إلى البروتستانتية ، ولكن فى سن الثانية والستين . ورسم عدة لوحات دينية ،

ولكنه آثر مشاهد الحياة اليومية والأساطير ، وفيها يستطيع أن يبرز الرؤوس الضخمة والصور المتألقة التى كان قد رآها فى أروقة البيوت فى أنتورب ، مثل لوحة « الملك يحتسى الخمر[٥] » ، أو أفضل منها ارحة « قصة الخصب[٦] » ، وهنا ، وسط الفاكهة (التى رسمها سنيدرز صديق جاكوب) والفراشات تروعنا فتاة عارية فاتنة ، تشاهد من مسقط خلفى فقط ، ولكنها فى كل نضارة الشباب ورشاقته ، ترى أين عثر جوردانز على نموذج لهيفاء مثل هذه فى الفلاندرز على عهد روبنز ؟

٣ — روبنز

١٥٧٧ — ١٦٤٠

ولد أعظم المصورين الفلمنكيين فى ١٥٧٧ ، من سلسلة طويلة من رجال أعمال موفقين ، وتابع هو السلسلة . ودرس أبوه ، جان روبنز ، القانون فى بادوا ، وتزوج من ماريا بيبلنكس . وانتخب عضوا فى المجلس التشريعى فى أنتورب وهو فى سن الحادية والثلاثين واتهم بالبروتستانتية فاستبعد بالذات من العفو العام الذى صدر ١٥٧٤ ، وهرب مع زوجته وأطفاله الأربعة إلى كولين ، وهناك اختارته مستشارا قانونيا ، آن السكسونية (روجةوليم أورانج التى افترقت عنه) ، وارتكب معها الفحشاء ، فأودعه الأمير السجن فى ولنبرج ولكن ماريا غفرت لزوجها زلته وبعثت إليه برسائل رقيقة مؤثرة (*) ،

(*) مثال ذلك : زوجى العزيز الحبيب ، إن خطايا منك . . . أثلج صدرى ، لأنى علمت منه أنك واض عن صفحى عنك ، ولم يبدر بخلدى قط أنك اعتقدت أن هناك أية عقبة تحول دون ذلك من جانبى ، والحق أنى لم أعتقد إلى شىء من هذا . وكيف يطاوعنى قلبى أن أغضب عليك فى هـــذه المحنة ، فى الوقت الذى أضحى فيه بحياتى لأنقذك ؟ . . . وكيف تنجح أية كراهية مريرة ، بمثل هذه السرعة فى القضاء على حبنا العميق ، حتى تجعل من المستحيل أن أغفر لك هذه الخطيئة اليسيرة التى ارتكبتها ضدى ، على حين أنه يجدر بى أن أدعو الله أن يغفر لى الخطايا الجسام الكثيرة التى اقترفتها ضده فى كل حين[٧] .

وقدمت الالتماسات وكافحت من أجل الإفراج عنه ، حتى تم لها ذلك بعد عامين من المحاولة ، شريطة أن يبقى جان تحت المراقبة فى سجن فى وستاليا ولحقت به هناك فى ١٥٧٣ ، ومن المحتمل أن بيتربول رأى النور هناك ، وعمد الطفل وفق الطقوس اللوثرية ، ولكن . وهو لا يزال فى المهد ، تحولت الأسرة إلى الكثلكة . وفى ١٥٧٨ انتقل جان مع أسرته إلى كولون حيث اشتغل بالقانون وأثرى وازدهر ، وعند موته (١٥٨٧) قصدت ماريا مع أطفالها إلى أنتورب للإقامة فيها .

وتلقى روبنز تعليمه الرسمى حتى سن الخامسة عشر فحسب ، ولكنه زاد عليه بالدأب على القراءة وبالخبرة والتجربة . وظل لمدة عامين وصيفا فى خدمة كونتس لا لنج فى أودينار ، والمفروض أنه تعلم هناك الفرنسية والسلوك الرفيع الذى تميز به عن معظم فنانى عصره . ولما لحظت أمه ميله إلى الرسم ، ألحقته للتدريب على يد طوبيا فرهاخت ، ثم آدم فان نورت ، وأخيراً أوتوفاينوس ، وكان رجلا واسع الثقافة لطيف الحديث ، وبعد قضاء ثمان سنوات فى كنف هذا المعلم الممتاز ، قصد روبنز ، وهو الآن فى سن الثالثة والعشرين ، إلى إيطاليا ليدرس الروائع التى هزت شهرتها النفوس المتعلقة بالتصوير . وفى فينيسيا عرض أعماله الخاصة على رجل فى حاشية فنسنز وجونزاجا دوق مانتوا . وسرعان ما التحق روبنز بقصر الدوق فى مانتوا ، رساما للبلاط وهناك أبدع لوحتين قاربتا الكمال الفنى : « جوستوس لبسيوس وتلاميذه »[٨] وكان بين التلاميذ فيها بطرس وأخوه فيليب ، ثم لوحة تمثله هو نفسه[٩] ، أى روبنز ، وهو نصف أصلع فى الخامسة والعشرين . ولكنه ملتح جرىء يقظ . وقام برحلات قصيرة إلى روما لينسخ للدوق بعض الصور ، وإلى فلورنسه حيث شهد (ورسم فيما بعد بشكل مثالى) زواج ماريا مديتشى من هنرى الرابع الغائب . وفى ١٦٠٣ أوفده الدوق فى مهمة دبلوماسية إلى أسبانيا يحمل هدايا إلى دوق ليرما ، وتقبل الوزير الرسوم التى كان روبنز قد قام بنسخها على أنها لوحات أصلية ، وعاد الفنان إلى مانتوا دبلوماسيا ناجحا .

وفى رحلة ثانية إلى رومه استقر به المقام فيها مع أخيه الذى كان أمين مكتبة كاردينال ، وأبدع بيتر آنذاك عدة لوحات للقديسين ، منها لوحة « القديس جريجورى يصلى للعذراء[١٠] » . وقد اعتبرها أولى روائعه . وفى ١٦٠٨ سمع بمرض أمه ، فاستحث السير شمالا إلى أنتورب ، وتأثر أشد التأثر حين وجد أنها قد فارقت الحياة . وكان حبها الموسوم بالحكمة والصبر قد ساعد على خلق مزاجه المرح الذى سعدت به حياته . وفى نفس الوقت كان قد تعلم الكثير فى إيطاليا . فإن لون البنادقة المغرى البديع ، والشهوانية الحسية فى لوحات جيوليو رومانو الجصية فى مانتوا . والجمال الأخاذ الهادىء فى رسوم النساء التى أبدعتها يد كوريجيو فى بارما ، والفن الوثنى فى رومه الوثنية المسيحية معا وارتضاء المسيحية للاستمتاع بالخمر والنساء والغناء — كل أولئك امتزج بدمه وفنه . حتى أنه عندما عينه الأرشيدوق ألبرت مصور البلاط ، فى أنتورب ١٦٠٩ ، اختفت كل بقايا الفن القوطى فى التصوير الفلمنكى ، واكتمل انصهار الفن الفلمنكى والفن الإيطالى معا .

وكان ضربا من الحكمة على غير قصد منه أنه كان متغيباً عن الأراضى الوطيئة طوال ثمانية أعوام الحرب ، وأنه تلقى قرار تعيينه فى أول أعوام الهدنة ، ففى السنوات الإثنتى عشرة التالية على وجه التحديد استعادت أنتورب وبروكسل حياتهما الثقافية . ولم يكن روبنز بالعنصر اليسير فى هذا البعث . ويحصى مؤرخ سيرته ١٢٠٤ من اللوحات الزيتية و ٣٨٠ من الرسوم له[١١] ، ولا يستبعد أن كثيراً غير هذه وتلك لم يسجله التاريخ . وليس لهذا الخصب مثيل فى تاريخ الفن . ويكاد الأمريكون كذلك بالنسبة لتنوع الموضوعات وسرعة التنفيذ . وكتب روبنز يقول : « إن موهبتى من طراز معين ، ولم تروعنى معه أية مهمة مهما عظم حجمها أو تشعبت موضوعاتها[١٢] » — لقد أنجز فى خمسة وعشرين يوماً اللوحات الثلاث التى تمثل « النزول عن الصليب » لكاتدرائية أنتورب ، وفى ثلاثة عشر يوماً لوحة « عبادة الملوك » الضخمة الموجودة الآن فى متحف اللوفر . وبالإضافة إلى راتبه السنوى فى البلاط

وقدره ٥٠٠ فلورين كان يتقاضى أجراً عن كل إنتاج فردى . لأنه قبض مبلغاً ضخماً ، ٣٨٠٠ فلورين (٤٧,٥٠٠ دولار ؟) عن التحفتين السابق ذكرهما ، أى بمعدل أجر يومى قدره ١٠٠ فلورين (١٢٥٠ دولاراً ؟) . وذهب جزء من هذا المبلغ بطبيعة الحال إلى المساعدين العديدين الذين كان كثير منهم مسجلا فى نقابة الفنيين بوصفهم أساتذة . ورسم جان بروجل « المخمل » الأزهار فى لوحات روبنز ورسم جان ولدنز المناظر الطبيعية والحواشى الثانوية ، ورسم بول دى فوز المعادن والفاكهة ، أما فرانس سنيدرز فقد صور بطريقة نابضة بالحياة الرأس المستدق بشكل دقيق للكلب فى لوحة « ديانا عائدة من الصيد »(١٤) ولسنا ندرى نصيب سنيدرز ونصيب روبنز فى مناظر الصيد الهائلة فى قاعات درسدن وميونيخ ومتحف المتربوليتان فى نيويورك . وفى بعض الحالات رسم روبنز الأشخاص ، وترك لمساعديه الدهان . وكان روبنز يقدم لزبائنه بياناً صادقاً عن درجة إسهامه بنفسه فى اللوحات التى باعهم إياها(١٥) . وبهذه الطريقة وحدها استطاع أن يواجه الطلبات التى انهالت عليه . وأصبح مرسمه مصنعاً يعكس أساليب العمل فى اقتصاد الأراضى الوطيئة ، وأدى الخصب فى الإنتاج والسرعة فى الإنجاز إلى الحط من نوعيته ، ولكنه قارب الكمال إلى حد يصبح معه إله الفن الفلمنكى .

وأحس روبنز بالطمأنينة فتزوج فى ١٦٠٩ . وكانت إزابلا برانت ابنة محام وعضو المجلس التشريعى فى أنتورب ، ومن ثم كانت شريكة صالحة لابن محام وعضو فى المجلس التشريعى فى المدينة نفسها . وأقام روبنز فى بيت أبيها حتى يتم إعداد داره الفخمة المطلة على قناة وابنز . وفى واحـــدة من أجمل لوحاته(١٦) نرى بيتر وايزبللا تغمرهما سعادة الأيام الأولى من الزواج ، أما هى فتراها مكسوة بأردية فضفاضة مشدودة الخصر بصدار مزدان برسوم الأزهار ، وقد وضعت يدها على يده فى ثقة واستئثار ، وبرز وجهها المفعم بالحيوية من طوق رقبة مكشكش أزرق هائل ، وتوج رأسها بقبعة فارس ، أما هو فتراه مكتمل الرجولة والنجاح ، ذا ساقين قويتين ولحية بيضاء وملامح

وسيمة ، يرتدى قبعة مزدانة بالأشرطة . ولم تعمر إيزابلا بعد الزواج أكثر سبعة عشر عاماً ، ولكنها أنجبت له أبناء سهر على تربيتهم ورسمهم فى حب وإعزاز ، فهناك لوحة الولد الجعد الشعر فى متحف قيصر فردريك ، برلين ، وهو ممتلىء الجسم جميل سعيد ، يلعب بيمامة ، ويمكن أن نراه مرة أخرى فى لوحة « أبناء الفنان »[١٧] ، وقد كسته السنوات السبع التى سلختها من عمره بالرصانة ، وما يتسنى إلا لرجل فاضل بارع أن يرسم مثل هذه اللوحات .

وكان روبنز فى نفس الوقت وثنياً أساساً ، ولو عاد دون تورع أو خجل بجسم الإنسان ذكراً أو أنثى ، فى كل نشوة الفتوة عند الرياضى القوى ، أو فى هدوء المتقوس المنحنى ، وكان معروفا عن الفلاندرز أو رمزاً عليها أنها استمتعت بأساطير الوثنية الدنسة — طقوس وعادات الجسم الطليق — على حين رحبت الكنائس بتأويله للموضوعات الدينية أو تفسيره لها . ولم يستطع أن يفرق بين مريم العذراء وفينوس : ولعله لم يحس بأى تعارض بينهما ، فكلتاهما جلبت له المال . وفى لوحة « عبادة فينوس »[١٨] كان العنصر الوثنى غير مقيد — مجموعة من كاهنات إله الخمر باخوس ، يخفين فى تواضع وخفر معصما أو ركبة ، يعانقهن إلهة معربدون شهوانيون ، على حين يرقص إثنى عشر غلاماً حول تمثال إلهة الحب . ولو أن هذه الموضوعات الوثنية تعكس أثر مقامه فى إيطاليا ، إلا أن صور فينوس يعوزها الخط الكلاسيكى ، فهى لا تستيطيع الحياة فى الشمال ، على الشمس والهواء والخمر كما كان حالها فى الجنوب ، بل أنها يجب أن تأكل وتشرب لتتق المطر والضباب والبرد . والطبيعة البشرية التيوتونية ، مثل الويسكى البريطانى — انجليزى أو اسكتلندى — دفاع مناخى وكان عنوان إحدى لوحات روبنز - وفيها ثلاث نساء عاريات متورمات - « فينوس بلا خبز ولا نبيذ تشعر بالبرد والضعف[١٩] » ؛ وتلطف الفنان فلم يقل « بلا لحم ولا جعة » ، وكذلك لم ير مجافاة للياقة فى لوحته « راع يغازل »[٢٠] وهى تمثل راعيا يحاول أن يغوى فتاة بدينة تزن ثلثمائة رطل ، فليس ثمة حسن أو ردىء ، جميل أو قبيح ، ولكن البيئة هى التى تحدد هذا أو ذاك : وليس

فى لوحة « اغتصاب السابين »[٢١] الأكل ما يستطيع أن يفعله جباران قويان رومانيان ليرفعا على ظهر جواد امرأة تسحر اللب من أمرارهم . وحتى فى لوحة « عواقب الحرب »[٢٢] ليس ثمة ضعف . و « ديانا عائدة من الصيد[٢٣] » لم تكن إلهة أغريقية أنيقة طاهرة ، بل ربة بيت فلمنكية عريضة الكتفين قوية العضلات ذات مكانة اجتماعية ، وفى كل هذه الصورة الضخمة الممتلئة لا ترى تحيلا إلا الكلب . وغابات روبنز ملأى بآلهـــة يعتصرون أثقالا ، كما فى « أكسيون وهيرا[٢٤] » و « أربعة أركان الدنيا[٢٥] » ، وكما يمكن أن نكون قد توقعنا لم يكن « أصل المجرة[٢٦] » ـ فرضية مستديمة ، بل ربة بيت بدينة تفيض سيلا من اللبن من ثدى ممتلىء . أما « الربات الأخوات الثلاث[٢٧] » فهن نحيلات رشيقات ، نسبياً ، على أية حال . وفى « محاكمة باريس[٢٨] » (ابن ملك تروادة الذى خطف هيلانه ـ فى الأساطير اليونانية) ترى سيدتين فقط ـ يشا كل زيهما الأزياء المتأخرة ، وأخرى تعد من أجمل صور النساء فى الفن . وفى هذه الرسوم الوثنية عادة يوجد شىء أبعد كثيراً من الجسد ، فإن روبنز أسبغ عليها من فيض خياله الخصيب الممتلىء بالحيوية والمرح ، فهناك مائة من الملحقات الكمالية تملأ المنظر ، مخططة فى حرص ولكن دون دراسة ، تبهر عين الناظر إليها باللون والدفء والحياة . كما أنه ليس ثمة شىء يثير الشهوة فى العرض المنتفخ ، وأنه مجرد حيوية حيوانية ، فليس هناك رسم واحد يثير الشهوة الجنسية . أن روبنز نفسه كان يتحلى بسلوك قويم إلى حد غير قياسى ، بالنسبة لفنان شديد التأثر والحساسية بالضرورة للون والشكل ، وعرف عنه أنه زوج فاضل و « رب أسرة موثوق » ، لم تمسسه شائبة من التودد للنساء أو المخادعة[٢٩] .

واعترف رجال الكنيسة فى الفلاندرز ببراءة الناحية الحسية فى رسوم روبنز ، فلم يحسو بالحرج أو بوخز الضمير فى أن يطلبوا منه أن يصور ثانية قصص العذراء والمسيح والقديسين ، وقد أجابهم إلى سؤالهم ، ولكن بطريقته

غير المبتذلة ، ومن خلفائه الذين لا يحصى عددهم استطاع أن يصور فى خيال أوسع ، أو يرسم فى مهارة أدق ، الفكرة القديمة « عبادة الملوك * » ومن كان يجرؤ على تركيز العمل فى تشكيل البطن السمين للأثيوبى المعمم ذى اللون البرونزى ، وهو ينظر فى ازدراء واضح إلى الوجوه الشاحبة حوله ، ومن كان يحلم لأن الوثنى الذى يحدق النظر بعينه وبفرشاته إلى كل ركن وكل زاوية فى جسم المرأة ، يمكن أن يحب الجزويت وينضم إلى طائفتهم المرئية ، ويؤدى التمارين التى وضعها أجنات ليولا لتطهير النفس برؤى الجحيم(٣١) .

وفى مارس ١٦٢٠ تعاقد مع الجزويت على أن يضع قبل أن ينصرم العام ، تصميمات لتسعة وثلاثين رسما تغطى سقوف كنيسة الباروك الفخمة التى كانوا قد بدأوا تشييدها فى أنتورب فى ١٦١٤ . وأنجز روبنز الرسوم التى حولها فان ديك وآخرون معه إلى لوحات ، دمرت كلها تقريباً فى ١٧١٨ ، وقام روبنز نفسه بعمل صورتين عظمتين للمذبح الرئيسى : إحداها « أجنات يبرىء الذين مسهم الشيطان » ، والثانية « معجزات سانت فرانسيس » . وكلتاهما الآن فى متحف تاريخ الفن فى فيينا .

ومع ذلك فإن روبنز كان كاثوليكيا على النحو الذى كانت تعنيه الكثلكة فى عصر النهضة . ومسيحيا بحكم الموطن . وعاشت وثنيته فى ظل تقواه . ولم تكن مريماته (صور السيدة العذراء فى لوحاته) سوى نسوة داعرات غليظات يبدو واضحا أنهن أصلح لإيقاع الرجال فى حبائلهن . منهن لإنجاب إله . وفى لوحة « العذراء فى إكليل من الزهو(٣٢) » تمثل السيد المسيح صبيا أجعد الرأس ، ومريم فى زى ربة بيت فلمنكية ترتدى قبعة جديدة فى نزهة يوم الأحد فى أحـــد المتنزهات . وحتى فى لوحة « رفع الصليب » (الموجودة فى كاتدرائية أنتورب) نجد أن اهتمام روبنز بالتشريح يتغلب على الفكرة الدينية فالمسيح رجل رياضى مكتمل القوة والنشاط ، لا إلها يعانى سكرات الموت .

* بلغ ثمن هذه اللوحة ألف دولار فى مزاد علنى أقيم فى لندن ١٩٥٩ .

وفى « طعنة الرمح[٣٤] » مرة أخرى نجد التشريح هو كل شىء : فالمسيح واللصان شخوص ضخمة ، والنساء تحت الصليب يتخذن وضعاً خاصاً أمام فنان ، أكثر منهن مغمى عليهن من الحزن ، فإن روبنز لم يستشعر هول الموقف .

وفى خمس مرات على الأقل تحدى روبنز الرسام الفينيسى تيشيان فى « صعود العذراء » ، وفى أشهر هذه المحاولات[٣٥] ، تبدو العذراء ميتة لا حياة فيها ، والأفراد الأحياء هم المجدلية والحواريون الجزعون عند المقبرة الخالية ، وأجمل منها اللوحة الثلاثية[٣٦] التى أهدتها الأرشيدوقة إزابل إلى جمعية الدفونسو الدينية فى بروكسل : ففى الصورة الوسطى نزلت العذراء من السماء لتقدم لرئيس أساقفة توليدو . رداءاً من الجنة مباشرة ، والقديس فى خشوع تام « يلهث من العبادة » ، على حين أنه فى الصورتين الجانبيتين نرى إزابل وألبرت قد وضعا تاجيهما جانبا « وركعا للصلاة » ، وهنا فى هذه اللوحة الثلاثية . أضفى روبنز لوهلة قصيرة . بعض الحياة على التقوى أو صورها أحسن تصوير . وفى لوحة سانت أمبروزو الامبراطور تيودوسيوس[٣٧] » ـ أدرك روبنز ونقل إلى الصورة سطوة الكنيسة وسلطانها الخفيين : ففيها ترى رئيس أساقفة ميلان الذى لم يتسلح إلا بعدد من الكهنة وقندلفت (مساعد كاهن) ، ولكنه متسم بالجلال والعظمة ، يطرد من الكاتدرائية الأمبراطور الذى يحف به حرس رهيب ، ولكنه مثقل بالقساوة التى لا تغتفر وقلما أخفق روبنز مع كبار السن من الرجال ، ففيهم ، وبخاصة فى الوجه ، تبرز قصة حياتهم ، كأن الوجه يعرض الشخصية والخلق واضحين أمام الفن المدرك الواعى . انظر إلى رأس الأب فى لوحة « لوط وأسرته يغادرون سودوم[٣٨] » . وهى واحدة من أروع لوحات روبنز فى أمريكا .

وعاد فى حيوية بالغة إلى الموضوعات الدنيوية ، مختلطة بالأساطير ، عندما عرضت عليه مارى دى مديتشى أكثر العقود إغراءاً فى حياته ، ووقع

فى ١٦ فبراير ١٦٢٢ اتفاقية ، يرسم بمقتضاها ، فى مدى أربعة أعوام ، إحدى وعشرين صورة كبيرة وثلاث صور شخصية ، تخلد ذكرى الأحداث فى حياة مارى وزوجها هنرى الرابع ، ودعته الملكة للحضور ليعيش فى البلاط الفرنسى ولكن هداه تفكيره السليم إلى البقاء فى وطنه . وفى مايو ١٦٢٣ صحب معه إلى باريس اللوحات التسع الأولى ، وأحبت مارى هذه اللوحات . كما أعجب بها ريشليو . وأكملت المجموعة فى ١٦٢٤ ، وقصد روبنز بالبقية إلى باريس حيث رآها موضوعة فى قصر لكسمبرج . وفى ٢٨٠٢ نقلت اللوحات إلى اللوفر ، حيث انفردت تسع عشرة لوحة منها بقاعة خاصة بها . ولن ينكر كل من رآها أو درسها على روبنز العشرين ألف كراون (٢٥٠٠٠٠ دولار) التى تقاضاها فى مقابل عمله ، أو يحسده عليها ، ولا ريب أن مساعديه قاسموه فيها . وهذه اللوحات فى جملتها هى أسمى منجزاته . وإذا تجاوزنا عن بعض هنات السرعة ، وارتضينا القصة التى لا تصدق - كما نفعل فى أوفيد ، وشكسبير وفردى - فإننا سنجد هنا روبنز بكل سماته ، اللهم إلا تقواه العارضة . لقد أحب فخامة طقوس البلاط ، وجلال السلطة الملكية ، ولم يسأم قط النساء الممتلئات الأجسام ، والثياب الفاخرة ، والستائر وأغطية الأثاث البهية ، وكان قد عاش نصف أيامه مع الأرباب والربات فى الأساطير القديمة ، ونراه الآن يضم هؤلاء جميعاً فى قصص فياض ، مع قدرة فائقة على ابتداع الأحداث العارضة ، وغزارة فى اللون وبراعة فائقة فى التأليف والتصميم ، وبما جعل هذه المجموعة ملحمة وأوبرا فى تاريخ الرسم .

ولم يكن يعوز روبنز إلا مرتبتين اثنتين من مراتب الشرف ليبلغ ذروة التمجيد - التعيين فى الوظائف الدبلوماسية ، والحصول على براءة النبالة . وفى ١٦٢٢ أوفدته الأرشيدوقة إزابل ليفاوض ، على أمل تجديد الهدنة مع هولندة ، وكان لدى روبنز ما يحمله على توطيد السلام ، فإن زوجته كانت طموحة فى أن ترث عن عمها الهولندى مالا[٣٦] . وأخفقت هذه الجهود ، ومع ذلك أقنعت إزابل الملك فيليب الرابع بأن يخلع على روبنز النبالة (١٦٢٤)

وعينه « رئيس الديوان الخاص لصاحبة العظمة » . أى إيزابل نفسها . ولكن الملك اعترض بعد فترة من الوقت على استخدامها لمثل هذا الشخص الوضيع ذى المحتد غير الكريم ، فى استقبال البعثات الأجنبية ، وبحث مسائل على قدر كبير من الأهمية[٤٠] ، ومع ذلك أوفدت إيزابل روبنز بعد ذلك بعام (١٦٢٨) إلى مدريد ليساعد على عقد الصلح بين فيليب الرابع وشارل الأول . وأخذ الفنان معه بعض رسومه ، وعدل الملك من رأيه فى موضوع الحسب والنسب وجلس إلى روبنز ليرسم له خمس صور شخصية ، وكان الفنان الأسبانى فيلاكويز لم يقم بما يكفى الملك فى هذا الصدد . وتوثقت أواصر الصداقة بين الفنانين ، وأسلم الفنان الأسبانى ، وهو آنذاك فى التاسعة والعشرين ، القياد للفلمنكى العبقرى الأنيس ، وهو إذ ذاك فى سن الواحدة والخمسين . وأخيرا عين فيليب روبنز «الوضيع النسب » مبعوثا له فى انجلترا ، وفى لندن نجح روبنز فى عقد معاهدة صلح ، على الرغم مما دفع ريشليو من رشوة وبث من جواسيس لعرقلة الصلح . وفى لندن رسم روبنز بعض صور شخصية انجليزية دوق ودوقة بكنجهام[٤١] ، والوجه المهيب لتوماس هوارد أرل أروندل ولحيته ودرعه[٤٢] - وبعد أن مهد الطريق أمام فانديك عاد إلى أنتورب (مارس ١٦٣٠) وقد منحته جامعة كمبردج درجة علمية ، ومنحه شارل لقب فارس .

وفى الوقت نفسه كانت زوجة روبنز الأولى قد توفيت (١٦٢٦) وطبقاً للتقاليد الفلمنكية أقيمت للاحتفال بجنازتها مأدبة باذخة كلفت الدبلوماسى الفنان ٢٠٤ فلورينات (٢٥٠٠ دولار) أنفقها على « الطعام والشراب وأدوات المائدة[٤٣] » ، فالموت فى المجتمع الفلمنكى كان ترفا يورث الحرمان والفقر . وأغرق روبنز شعوره بالوحشة والوحدة فى الدبلوماسية . وفى ١٦٣٠ ، وكان قد بلغ الثالثة والخمسين ، تزوج من هيلينا فورمنت ذات الستة عشر ربيعا . أنه كان فى مسيس الحاجة إلى جو من الجمال يحيط به ، وكان له بالفعل من حقتها ودعتها مافاض على فنه وأحلامه . ورسمها المرة بعد المرة ، فى أى زى ، ودون ثياب : فى ثوب الزفاف[٤٤] ، وهى ممسكة بقفاز[٤٥] ، تعلوها ابتسامة السعادة

فى قبعة أنيقة[٤٦] ، وهى تخفى ركبها فقط تحت معطف من الفراء[٤٧] . أما أروع الصور فهى تلك التى تمثلها تتنزه مع روبنز فى حديقتهما[٤٨] — وهذه الأخيرة هى إحدى القمم فى التصوير الفلمنكى ، ثم صورها مع وليـــدهما الأول[٤٩] ، وبعد ذلك مع طفليهما[٥٠] — مبشراً بالفنان دنوار (مصور فرنسى ١١٤٩ — ١٩١٩) . وحدث ولا حرج عن اللوحات التى تمثلها فى وضع مثير للشهوة مثل فينوس ، أو متسم بالحشمة مثل « أم الإله — العذراء » .

ورسم بيرنز عاهليه المحبوبين البرت وإيزابل ، بغير ما نفاق ولا رياء . وإنا لنراها فى متحف فيناوبتى ، فى أغلب الظن كما كانا — يحكمان بلدا قلقا مضطربا ، بكل النيات الطيبة التى تلتئم مع المثل العليا الأسبانية ، لقد عثر الفنان فى الفلاندرز على أنماط ممتازة للرجال والنساء ، فرسمها فى تصويره لجان تشارلز دى كورد وزوجته الجميلة المتجهمة[٥١] . وفى صورة ميكائيل أو فوفيوس[٥٢] أسقف هرتوجنبوخ ، وترك لنا صورة ضخمة لاسبينولا الجبار[٥٣] . ولكن رسم الصور الشخصية لم يكن موطن التفوق والامتياز فى روبنز ، فهو لم يقدم لنا نظرات نافذة دقيقة أو إيحاءات صادرة من الأعماق ، كما فعل رمبرانت . وأعظم صور الشخصية هى تلك التى رسمها لنفسه فى ١٦٢٤ من أجل من صار فيما بعد شارل الأول[٥٤] : قبعه ضخمة ذات أشرطة ذهبية لا تكشف إلا عن جبهة عريضة لرأس أصلع ، مع عينين محدقتين فى نظرة فضولية . والأنف الطويل الحاد يبدو أنه يتفق مع العبقرية ، والشارب المتصاب الخشن واللحية الحمراء الجميلة ، وهذا يمثل رجلا يدرك كل الإدراك أنه فى ذروة البراعة فى حرفته ومع ذلك فإن شيئاً من حيويته الطبيعية . ومتعته الحسية وقناعته الهادئة ، مما أشرق وتألق فى صورته مع إيزابللا برانت (زوجته الأولى) قد ذهب على مر السنين . إن الإخفاق وحده هو الذى يرهق الإنسان ويفنيه بأسرع مما يفعل النجاح .

كان روبنز ثريا ، وعاش عيشة باذخة ، وكان بيته الفخم فى أنتورب أحد

مشاهد المدينة . وفى ١٦٣٥ اشترى بمبلغ ٩٣ ألف فلورين ضيعة واسعة وقصراً إقطاعيا فى مقاطعة ستين ، تمتد ١٨ ميلا ، واتخذ لقب لورد ستين ، وقضى الصيف هناك ، ورسم المناظر الطبيعية و جرب يده المتعددة المهارات فى رسم أحداث الحياة اليومية . ووسط ضروب الترف والرفاهية ، مع خادمات ثلاث وسائسين وثلاثة جياد ، استمر يبذل أقصى الجهد فى العمل ، وهو يجد سعادته فى أسرته وفى عمله . وأحبه زوجاته وأولاده ونصراؤه ومساعدوه لصفاء روحه وسخائه ومشاركته الوجدانية العطوفة(٥٥) .

ويجدر بمن هم أقدر منا أن يحللوا المزايا الفنية فى فنه ، ولكننا نستطيع مطمئنين أن نصفه بأنه نموذج رئيسى لتصوير الباروك : أى اللون الحسى ، والحركة التى لا تحصى ، والخيال الخصيب ، والزخرفة المنمقة المترفة ، على عكس ما عرف فى التصوير القديم من الهدوء وتقييد الفكر والخط . ولكن فى فوضى الجمال هذه ، يقول النقاد بأن هناك براعة فائقة فى التخطيط والتصميم وغذت صور روبنز مدرسة من الحفارين والنقاشين الذين صنعوا الطراز الأول من اللوحات المعروفة فى أوربا المسيحية ، كما فعل ريموندى مع رسوم رافائيل ، ومن يد روبنز أومن مرسمه خرجت الرسوم المشهورة إلى نساجى الأقمشة المزركشة فى باريس وبروكسل ، وصنعوا هدايا ملكية أو زخارف للويس الثالث عشر وشارل الأول والأرشيدوقة إيزابل .

وشهد العقد الأخير من سنى حياته نصراً مبينا عكره انحطاط قواه الجسمية ولم يضارعه فى شهرته الفنية سوى برنينى ، ولم يحلم أحد بأن ينازعه تفوقه فى الرسم وهرع إليه التلاميذ من كل الأنحاء ، ووفدت عليه بعثات البلاط من ست ممالك ، حتى من الحاكم فردريك هنرى عبر خطوط القتال . وفى ١٦٣٦ طلب إليه فيليب الرابع أن يرسم بعض مشاهد « متامور فوزس » للشاعر الرومانى أوفيد لقصر الصيد فى باردو . وأنجز مرسم روبنز خمسين صورة لهذه المجموعة ، منها واحد وثلاثون مشهدا فى متحف برادو ، وبدا للكاردينال

اتفانت فرديناند أن مشهدا منها هو « محاكمة باريس » أروع ما أبدعته يدا روبنز على الإطلاق[٥٦]. وقد نوثر عليه « المهرجان[٥٧] » الصاخب الذى كان قد صوره فى ١٦٣٦ ـ وهو مطاردة مسعورة ، ليس فيها امرأة عجوز أو بدينة إلا اختطفها رجل ما .

أما صورته الشخصية فى سن الستين[٥٨] فهى الوجه الآخر لخواتيم حياته رجل لا يزال مزهوا . يقبض بيده على سيف النبالة ، ولكن التحول يعرو وجهه النحيل ، ويتدلى جلده ، وتحيط التجاعيد بعينيه ـ وهو رسم أنيق أمين وفى ١٦٣٥ ألزمه داء النقرس الفراش شهراً . وفى ١٦٣٧ شل يده لفترة من الزمن ، وفى ١٦٣٩ عاقه هذا الداء عن التوقيع باسمه . وفى ١٦٤٠ ضلت كلتا يديه . وفى ٣٠ مايو ١٦٤٠ ، وقد بلغ الثالثة والستين ، قضى نحبه متأثرا بالتهاب المفاصل وتصلب الشرايين .

لقد كانت حياة روبنز تدعوا إلى الدهشة . أنه لم يكن النموذج الشامل للمثل الأعلى للنهضة الأوربية ، ولكنه حقق طموحه فى أن يلعب دورا فى الدولة وفى الرسم على حد سواء . ولم يكن فنانا شاملا مثل ليونارد وميكلانجلو ، فلم يخلف لنا نحتا ، ولم يصمم أى مبنى سوى داره . ولكنه فى الرسم بلغ ذروة الامتياز فى كل مجال . فإن الصور الدينية ، والصخب الوثنى والإلهة والإلهات ، والعساريات والمكتسيات ، والملوك والملكات ، والأطفال والعجائز ، والمناظر الطبيعية والمعارك ـ كانت كلها تنساب من فرشاته ، وكأنها معين متعدد الموارد لا ينضب من اللون والشكل . لقد وضع روبنز حداً لخضوع الرسم الفلمنكى للرسم الإيطالى ، ولكن بدون الثورة أو التمرد ، بل عن طريق الاستيعاب والاتحاد .

ولم يكن روبنز فى مثل عمق رمبرانت ، ولكن أوسع أفقا ، لقد نفر من الأعماق الخفية التى كشف عنها رمبرانت ، وآثر عليها الشمس والهواء الطلق ، وتراقص الضوء ، واللون ، ومتعة الحياة وسحرها ، وكافأ حظه السعيد

بالإبتسام للدنيا ، وإن فنه تعبير عن الصحة ، مثلما أن فننا اليوم يوحى باعتلال الفرد أو اعتلال الروح العامة . ويمكن ، إذا وهنت نفوسنا أو افترت حويتنا أن نفتح كتاب روبنز فى أى مكان لننتعش ونجدد قوانا .

٤ ـ فانديك

١٥٩٩ — ١٦٤١

لقد كان من عادة روبنز أن يرحب ويشجع الموهبة المبكرة النضج لدى الشباب اليافع لوسيم ، الذى التحق بمرسمه حوالى ١٦١٧ . وكان أنطونى فانديك قد بدأ تدريبه وهو فى سن الثامنة عند هندريك فان بالمن ، معلم سنيدرز . وفى سن السادسة عشرة كان له تلاميذه هو نفسه . وفى سن التاسعة عشرة سجل أستاذا فى نقابة الفنانين ، ولم يكن تلميذاً لروبنز بقدر ما كان مساعدا ذا قيمة كبيرة له . وقدر روبنز أحد أعمال فانديك الأولى بأنه يساوى فى قيمته لوحة « دانيال » التى أنجزها روبنز فى نفس العام . واحتفظ فى مجموعته الخاصة بلوحة فانديك « المسيح يتوج بالأشواك » ، ثم تنازل عنها فى وقت متأخر ، وهو كاره ، لفيليب الرابع . ليضعهـــا فى الأسكوريال[٥٩] . وتأثر فانديك فى شغف بالغ بروبنز ، ولكنه كانت تعوزه حيوية الفنان العجوز فى الحركة واللون ، ومن ثم قصر عن اللحاق به فى كل شىء ، فيما عدا رسم الأشخاص . وفى صورته الشخصية الأولى (١٦١٥)[٦٠] كشف عن الخصائص التى كان يجب أن تميز وتحدد عبقريته ـ رقة ورشاقة وجمال ناعم ، مما لا يكاد يليق برجل . وكان زملاؤه الفنانون سعداء بالجلوس إليه لتكون الصور التى يرسمها لهم ، سياجا إضافيا يحميهم من نسيان الناس لهم . وقد رسم صورا شخصية محببة لسنيدرز[٦١] ودوكونسوى[٦٢] وجان ويلدنز[٦٣] تروجان دى وال[٦٤] — وجسبارد دى كريير[٦٥] ومارتن بيبن[٦٦] ، وكان من صفات فانديك المحمودة الكثيرة أنه أحب منافسيه . وتوحى تلك الصور الشخصية فى مرسم روبنز بروح طيبة من الزمالة لا توجد دائما فى مملكة الفن .

وفى ١٦٢٠ تلقى أرل أروندل من أنتورب رسالة جاء فيها : « أن فانديك يقيم مع روبنز ، وتقدر أعماله بأنها تكاد تضارع أعمال أستاذه(٦٧) ». فدعا الفنان الشاب إلى انجلترا ، فذهب فانديك وهناك تقاضى من جيمس الأول معاشا زهيدا قدره مائة جنيه ، ورسم قليلا من الصور الشخصية ، وتمرد على ما طلبه منه الملك من نسخ حقير لصور أصيلة ، وطلب منحه أجازة لمدة ثمانية أشهر يتغيب فيها عن البلاد ، فأجيب إلى طلبه . ولكنه مد الغياب إلى إثنى عشر عاما . وفى أنتورب دبر لزوجته وطفلها سبل العيش ، ثم أسرع إلى إيطاليا (١٦٢١) .

وهناك لأول مرة أسرع الخطى وشمر عن ساعد الجد ، وترك صوراً شخصية رائعة فى كل مكان نزل به تقريبا ، وعكف على تأمل أعمال البنادقة العظام ، لا ليدرس اللون والضخامة لديهم ، كما فعل روبنز من قبل ، ولكن ليكتشف الأسرار الشاعرية فى الرسوم الشخصية عند جيورجيونى وتيشيان وفيرونيز . وقصد كذلك إلى بولونيا وفلورنسة وروما ، بل حتى إلى صقلية . وفى روما أقام مع الكاردينال جيد وبنتيفوجليو ، وكافأه بصورة شخصية(٦٨) وكره الفنانون الفلمنكيون الذين كانوا يتضورون جوعا فى إيطاليا ، من فانديك كياسته ، وإن شئت تملقه وتودده ، فنعتوه بأنه « مصور الفرسان » ، وأتوا بأعمال قبيحة ، إلى حد أنه رحل مسرورا بصحبة ليدى أروندل إلى تورين . وكان الترحيب به كبيرا بصفة خاصة فى جنوة التى تذكرت روبنز ، وكانت قد سمعت بميل فانديك إلى تمجيد النبلاء ، حتى ليجعل من كل جالس أمامه أميرا . وفى متحف متروبوليتان للفن فى نيويورك نموذج لهؤلاء الاستقراطيين الجنوبيين : « المركيزة دورازو » : وجه حساس ويدان رشيقتان ناعمتان (كما هو الحال دائما فى رسوم فانديك) ، كما يحتفظ المتحف الوطنى فى واشنجطن بلوحتى « المركيزة بالبى » و « المركيزة جريما لدى » - وهى مزهوة حبلى . وفى برلين ولندن نماذج أخرى . واستطاعت جنوه أن

تحتفظ فى قصر روسو فيها بلوحة « المركيز والمركيزة » برينولى سالى » وعاد فانديك إلى أنتورب (١٦٢٨) ، وقد امتلأت جيوبه وانتفخت أوداجه وتأنق فى مظهره .

وصرفه مسقط رأسه عن النبلاء إلى القديسين ، وحتى يبرىء نفسه لهؤلاء ندم على ما اقترف من فحشاء ، وأوصى بثروته الصغيرة لأختين من الراهبات ، وانضم إلى « الرابطة الجزويتية لغير المتزوجين » ، وتحول إلى الموضوعات الدينية . ولم يستطع أن ينافس روبنز فى هذا المضمار ، ولكنه تجنب مبالغات الأستاذ الغزير الإنتاج وتألقه الشهوانى ، وأضفى على رسومه هو لمسات من الأناقة التى تعلمها فى إيطاليا . وذهب رينولدز إلى أن لوحة فانديك « صلب المسيح » فى كاتدرائية مكلين واحدة من أعظم الصور فى العالم، وعلى أية حال ربما كانت هذه هى طريقة سيرجوشوا فى الوفاء بالدين .

وجرب فانديك يده فى صور الأساطير . وعلى الرغم من أنه لاحق نساء كثيرات فإنه لم يقبل على رسم الصور العارية ولم يبرع فيه . وكان موطن قوته وامتيازه فى الصور الشخصية . وفى هذه السنوات الأربع فى أنتورب أنقذ من زوايا النسيان ، بما رسم من لوحات « البـــارون فيليب لروى والكلب الأمين[٦٩] » و « الجنرال فرانسيسكو دى مونكادا وجواده[٧٠] » و « التكونت رودوكانا كس[٧١] الذى بدا كأنه سوينبرن » و « جان منتفورت » الذى بدا مثل فولستاف (إحدى شخصيات شكسبير) ، وأروع رسوم فانديك فى فيينا هى صورة « روبرت الشاب أمير البلاتين الفاتن » الذى سرعان ما خاض غمار الحروب دفاعاً عن شارل الأول فى انجلترا . ومن الرسوم الفاتنة كذلك صورة « ماريا لويزا أوف تاسيس[٧٢] » غارقة فى ثيابها الفضفاضة المصنوعة من الأطلس الأسود والحرير الأبيض . ولايقل روعة عن هذه الرسوم كلها لوحة فانديك لبيتر « الجحيم » بروجل (الأصغر) ، وهو رجل عجوز لايزال يضطرم قلبه بحيوية لم ينضب معينها فى أسرة تثير الدهشة .

وأخذ فانديك بعض هذه الصور إلى إنجلترا حين دعاه شارل الأول إليها ليجرب حظه فيها ثانية . وكان شارل — على عكس أبيه — ذواقة للفن . وظن أن هذا الفلمنكى الوسيم هو الرجل الذى يستطيع أن يصنع له ما كان يصنع فلاسكويز الأسبانى للملك فيليب الرابع . وذهب فانديك وسجل للأجيال القادمة صور الملك والملكة هنزيتا ماريا وأطفالهما ، وهى صور برزت فيها روعة فن فانديك بشكل لا يمحى أثره . وأشهر هذه اللوحات الملكية الخمس ، هى اللوحة الموجودة فى متحف اللوفر - وهى تمثل الملك المزهو العاجز مرتديا زى الفروسية ، واضعاً يده على خصره ، شاهرا سيفه ، وعلى رأسه قبعة أنيقة ، بالإضافة إلى لحية فانديك ، ولكن الجواد المنهوك الذى يقضم شكيمته أثناء فترات الصيد ، قد يشغف به الناظر إلى الصورة قبل أن يشغف براكبه . وتوجد فى درسدن وتورين لوحات تبارى هذه ، وهى تمثل أبناء شارل ، وهم بعد أبرياء ولا يخشى منهم أذى . وكان شارل أكثر إنسانية فى مخبره منه فى مظهره . وبرزت حرارة العاطفة عنده فى تعلقه بفانديك وإعزازه له ، فقد ضمه إلى طبقة الفرسان ، ووهبه دورا فخمة فى لندن وفى الريف ومنحه معاشا سنوياً قدره مائتا جنيه ، ومبلغا إضافيا عن كل رسم ، وعن كل زيارة للبلاط .

وعاشر الفنان السعيد حياة تتفق مع دخله ، فأولع بالثياب الأنيقة ، وكانت له عربته التى تجرها أربعة من الخيل ، وجياده الأصيلة وخليلاته ، وملأ بيوته بالموسيقى والفن . وبز توجيهات روبنز فى تفويض غيره فى العمل - فترك رسم الملابس لمساعديه ، وأنجز صورة شخصية فى ساعة واحدة من رسم تخطيطى تم فى جلسة واحدة وكان يسارع إلى اغتنام الفرص قبل فوات الأوان ويروى أن شارل الأول ، حين كان يعانى من تقتير البرلمان عليه ، سأل الفنان المبذر مرة : هل تعرف ماذا يقصد بقولهم أن الإنسان يعوزه المال ، فأجاب فانديك ، نعم يامولاى ، إذا مد المرء مائدة مفتوحة لأصدقائه ، وأغدق من كيس مفتوح على خليلاته ، فسرعان ما يصل المرء إلى قاع الكيس ليجده فارغا[٧١].

وإذا كان فانديك قد غرق فى الديون أحيانا ، فإن ذلك لم يكن لافتقاره إلى النصراء والمحبين ورعاة فنه . فقد انتظر الارستقراطيون الإنجليز دورهم فى الحصول على موافقته : مثل جيمس ستيوارت ، ودوق لينوكس[٧٥] ، الوسيم مثل كلبه ، وروبرت رتشى أرل ودروك[٧٦] ، ولورد دربى وأسرته[٧٧] وتوماس ونتورت أرل سترافورد[٧٨] الذى تحدى القدر . كذلك جاء دور الشعراء من كارو ، وكلجرو ، وسكلنج . وأخيرا جاء دور أولدبار[٧٩] الذى زعم أنه بلغ من العمر مائة وخمسين عاما ، وكان يبدو عليه ذلك . لقد رسم فانديك ٣٠٠ صورة شخصية فى انجلترا ، تميزت كلها تقريبا بالكياسة والوقار اللذين رآهما فى أحد اللوردات ، حتى ولو لم يوجد شىء منهما .

وتبارت خليلته مرجريت ليمون مع الارستقراطية فى توفير الخدمات له بما كلفه غاليا . واقترح الملك أن الزواج أيسر تكلفة ، وعاونه (١٦٣٩) فى طلب يد ليدى مارى روثفن وهى سليلة أسرة مشهورة فى تاريخ اسكتلنده ورسم الفنان لعروسه صورة جميلة[٨٠] ولكنها لا تقارن بالوجه الجميل الذى رسمه لنفسه فى « الصورة الشخصية للفنان »[٨١] التى يعرفها العالم كله ـ شعر غزير متموج ، وعينان حادتان ، وتقاطيع دقيقة ، ولحية مقصوصة ، وسلسلة ذهبية تنبىء بأنه فارس . هل كان فانديك يتملق سير أنطونى (نفسه) إذا كان الأمر كذلك ، فليس ثمة جدوى ، لأن صحته التى أسرف فى استنزافها ، بدأت الآن تتدهور ، وكره فانديك أن يذكر بمجرد رسم الصور الشخصية فحسب ، فطلب إلى شارل أن يسمح له برسم مناظر تاريخية على جدران قاعة الولائم فى قصر هويتهول ، ولكن الملك كان يعانى العوز . فعبر فانديك البحر إلى باريس (١٦٤٠) أملا فى تكليفه بتصوير القاعة الكبرى فى اللوفر ، وكان لويس الثالث عشر قد اختار بالفعل بوسان لهذه المهمة ، ولكنه تخلى عنها بعد فوات الأوان ، فقد مرض فانديك فأسرع إلى لندن حيث كانت تقيم زوجته وفاضت روحه (١٦٤١) ، بعد أحد عشر يوما من مولد ابنته ، ولم يكن قد بلغ بعد الثانية والأربعين .

لم يؤسس فاندايك مدرسة ، ولم يترك بصمات على الفن فى القارة ، ولكن أثره فى انجلترا كان بالغا . فإن الرسامين المحليين مثل وليم دوبسون ، وروبرت ووكر ، وصمويل كوبر ، أسرعوا فى تقليد أسلوبه المتملق الذى يدر ربحا . وعندما سادت موجة عارمة من الصور الشخصية بظهور رينولدز وجينزبرو فإن تراث فانديك كان مصدر كل تعليم وتثقيف وإثارة . ولم تكن الصور الشخصية التى رسمها فانديك عميقة . لقد كان متعجلا إلى درجة لم تتح له البحث عن الروح . وتوقف فى بعض الأحيان عند الوجه أو اللحية . إن الفرسان الذين أحاطوا بالملك شارل الأول اشتهروا بسلوكهم الجيد ، وما كان متوقعا أن يبدو كثير منهم وكأنهم شعراء ، وكان من المنتظر أن تصل إلينا ، من خلال عينى فانديك وفرشاته بعض أخيلة البطولة التى نجدها فى وقفتهم إلى جانب مليكهم . وليس من العدل أن نتوقع من هذا الشاب المزيل المحظوظ حيوية روبنز العارمة ، أو عمق رمبرانت المؤثر . ولكننا سنبقى على اعتزازنا بهذه الصور الشخصية الجنوسية والفلنكية والإنجليزية ، على أنها «معالم دقيقة ثمينة» متألقة فى تراثنا .

٥ ــ الاقتصاد الهولندى

أية قفزة تلك التى تنقلنا من اللوردات الإنجليز الذين يفوح منهم شذا العطر إلى مواطنى هارلم ولاهاى وأمستردام الإجلاف الأقوياء : هناك عالم فريد خلف السدود ، عالم ماء أكثر منه عالم أرض ، عالم سفن ومغامرات تجارية أكثر منه عالم قصور وبلاط وفروسية . ولا يكاد يوجد فى تاريخ الاقتصاد شىء أشد إزعاجا من ظهور الهولنديين باعتبارهم قوة دولية ، أو فى تاريخ الثقافة شىء يبعث على الرضا والارتياح أكثر من تحول هذه الثروة إلى فن .

وفى ١٦٠٠ بلغ عدد سكان المقاطعات المتحدة نحو ثلاثة ملايين نسمة ، كان نصفهم فقط يفلح الأرض ، وفى ١٥٢٣ أقام نصفهم فى المدن ، وصار كثير

من الأرض ملكا لملاك من سكان المدن الذين آمنوا بأن أرباحهم التجارية يمكن أن تزال رائحتها الكريهة باستثمارها فى الأرض . وحتى فى مجال الزراعة أحرز النشاط والبراعة الهولنديان قصب السبق على أوربا ، وكانت السدود والخزانات الجديدة تستصلح دوما الأرض من البحر ، وأخصبت القنوات المزارع وأنعشت التجارة ، وقامت فلاحة البساتين جنبا إلى جنب ، مع تربية الماشية ، وكلتاهما على نطاق واسع ، لتكمل كل منهما الأخرى . وفى أخريات القرن السادس عشر بلغ المهندسون الهولنديون بطاحونة الهواء ذروة الإتقان مثلما فعل الرسامون الهولنديون بالفن . وكان نصف الصناعة لا يزال يدويا اللهم إلا فى التعدين ومعالجة المعادن ونسج الأقمشة وتكرير السكر وصنع الجعة ، فإن هذه الصناعات كانت تتقدم على نطاق أكبر وأكثر ربحا وأقل إسعاداً للناس ، وأبحر فى كل عام من الثغور الهولندية ١٥٠٠ سفينة ذات صاريين لصيد السردين وكان بناء السفن من الصناعات الكبيرة . وفى أثناء الهدنة مع أسبانيا (١٦٠٩ - ١٦٢١) أرسلت الأراضى الوطيئه ١٦ ألف سفينة حمولة كل منها ٥٧ طنا فى المتوسط ، عليها من الملاحين نحو ١٦٠ ألفا - أكثر من انجلترا وأسبانيا وفرنسا مجتمعة[٨٣] .

وتلهف الربابنة الهولنديون على المنافذ التجارية والمواد الخام فارتادوا البحار المجهولة . وفى ١٥٨٤ وطد التجار الهولنديون أنفسهم فى أركنجل ، وتقدموا برغم الثلوج المتجمدة فى محاولة عقيمة للعثور على «طريق شمالى شرقى» إلى الصين ، ومن ثم يفوزون بجائزة قدرها ٢٥ ألف فلورين قدمتها الحكومة الهولندية . وإن الأسماء الهولندية فى الخرائط الحديثة لأرخبيل سبتسبرجن (فى النرويج) لتعيد إلى الذاكرة رحلات وليم بارنت الذى فقد حياته فى الشتاء على ثلوج جزر نوفايا زمليا (١٦٩٧) . وفى ١٥٩٣ أبحر الهولنديون المغامرون صوب أنهار غانة (ساحل الذهب) فى أفريقية ، وعقدوا أواصر الصداقة مع المواطنين هناك ، وبدأوا معهم تجارة واسعة نشطة .

وحتى ١٥٩١ كان التجار الهولنديون يشترون المنتجات الشرقية من أرصفة لشبونة ليعيدوا بيعها فى أوربا الشمالية . ولكن فيليب الثانى غزا البرتغال فى ذلك العام فحرم الاتجار مع الهولنديين ، ومن ثم عقدوا العزم على أن يقوموا هم أنفسهم برحلاتهم إلى الهند والشرق الأقصى . وكان اليهود اللاجئون من أسبانيا والبرتغال أو ذراريهم على علم تام بمراكز تجارة البرتغال فى الشرق ، فانتفع الهولنديون بعلمهم(٨٣) . وعبر التجار الهولنديون، حتى أثناء الحرب مع أسبانيا مضايق جبل طارق ، وسرعان ما اتجروا مع إيطاليا ، ثم مع العرب ، متجاهلين الفوارق الدينية فى أصرار وثبات . وشقوا طريقهم إلى القسطنطينية ، وعقدوا معاهدة مع السلطان ، وباعوا بضاعتهم إلى الأتراك وإلى أعدائهم الفرس ، على حـــد سواء ، ثم ساروا إلى الهند . وفى ١٥٩٥ قاد كورنيلس دى هوتمان حملة حول رأس الرجاء الصالح ومدغشقر إلى جزر الهند الشرقية . وفى ١٦٠٢ قامت خمس وستون سفينة هولندية برحلة العودة إلى الهند . وفى ١٦٠١ أسست شركة الهند الشرقية الهولندية برأس مال قدره ستة ملايين وستمائة ألف فلورين — خمسة أمثال رأس مال الشركة الإنجليزية التى أسست قبلها بثلاثة شهور(٨٤) . وفى ١٦١٠ بدأ التجار الهولندبون التجارة مع اليابان ، وفى ١٦١٣ مع سيام ، وفى ١٦١٥ سيطروا على جزر ملقا ، وفى ١٦٢٣ على فرموزا . أنهم فى جيل واحد فتحوا أمبراطورية من الجزر حكموها من عاصمة جاوة : جاكرتا التى سموها باتافيا . وفى هذه الحقبه أدت الشركة لحملة الأسهم ربحا سنويا قدره ٢٢٪ وكان الفلفل يستورد من جزر البهار ، ويباع فى أوربا بعشرة أمثال الثمن الذى يدفع للمنتجين المحليين(٨٥) .

وحسب الهولنديون أن الأرض ملك خاص لهم . فارسلوا سفنا للبحث عن طريق شمالى غربى إلى الصين . وفى ١٦٠٩ استأجروا ربانا انجليزيا هو هنرى هدسن ، ليرتاد نهر هدسن . وبعد ذلك باثنى عشر عاما كونوا شركة الهند الغربية الهولندية . وفى ١٦٢٣ أســسوا مستعمرة الإراضى الوطيئة الجديدة

وكانت تضم الولايات الحالية : كنكتيكت ونيويورك ونيوجرسى وبنسلفانيا ودلاوير . وفى ١٦٢٦ اشتروا من الهنود « أمستردام الجديدة » (منهاتان) مقابل بعض الحلى الصغيرة التى قدرت قيمتها بأربعة وعشرين دولارا . وكانوا جادين فى تطهير وتطوير هذه الأراضى ، ولكن كل ممتلكاتهم فى أمريكا الشمالية وقعت غنيمة فى أيدى الإنجليز (١٦٦٤) نتيجة للحرب ، وكذلك وقعت ممتلكاتهم فى أمريكا الجنوبية فى أيدى الأسبان والبرتغال ، ولم يتبق لهم إلا سورينام ، تحت اسم غيانا الهولندية .

وعلى الرغم من هذه الخسائر أسهمت الإمبراطورية الهولندية مع تجارة هولندة فى أوربا فى تهيئة دعامة مالية للسلطان السياسى للتجار الهولنديين ، ودورهم الفخمة ورعايتهم للفنون . وطوال النصف الأول من القرن السابع عشر عقد للمقاطعات المتحدة لواء الزعامة التجارية على كل أوربا ، وكانت ثروة الفرد فيها أكبر من مثيلتها فى سائر بلاد العالم . وقد انزعج رالى من تفوق الهولنديين على الإنجليز من حيث مستوى المعيشة والأعمال والمشروعات[٨٦] وقال أحد سفراء فينيسيا (١٦١٨) أن كل هولندى عاش فى رخاء ، ولكن يحتمل أنه لم يكن يعرف إلا القليل عن الطبقات الدنيا ، التى أدرك رمبرانت فقرها إدراكا تاما . أن أصحاب الملايين كثروا فى هولنده ، وقد جمع بعضهم ثروته من بيع النفايات والبضائع الرديئة إلى الجيش والأسطول الهولنديين اللذين يدافعان عن هولنده[٨٧] ، ومثل هؤلاء كانوا جاهدين للحيلولة دون إقرار السلام[٨٨] .

وتركزت معظم الثروة الهولندية فى مقاطعة هولنده التى كانت تجارتها فى المياه المجاورة أضعاف تجارة سائر المقاطعات الشمالية . وكان ثمة برجوازية مزدهرة فى عدة مدن فى مقاطعة هولنده - روتردام ، لاهاى ، هارلم ، أوترخت - ولكن أيا منها لم يجرؤ على مباراة أمستردام . وأن نمو عدد سكانها ليحكى قصتها ، فقد كان ٧٥ ألفا فى ١٥٠٠ ، وقفز إلى ٣٠٠ ألف فى ١٦٢٠ ، وهرع

إليها التجار والصناع المهرة وأصحاب المصارف أفواجا من أنتورب التى دمرتها الحرب . وبعد ١٥٧٦ نقل يهود أنتورب إلى أمستردام أنشطتهم المالية وتجارتهم وصناعة الحلى . ولا يزال صياغ الماس فى هذه المدينة يتزعمون هذه الصناعة فى العالم . وأباح حكام المدينة للتجار قدراً كبيراً من الحرية الدينية لأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لتشجيع التجارة مع الشعوب ذوات المذاهب المتباينة ، وكان بنك أمستردام الذى أسس ١٦٠٩ ، أقوى مؤسسة ماليه فى أوربا فى ذاك العصر . وكانت العمله الهولندية مطلوبه وموضع ثقه فى كل الأنحاء .

٦ - الحياة والأدب فى هولنده

اتهم الهولنديين منافسوهم بروح تجارية مسرفة وبحمى جمع المال ، وبطباع جافة خشنة ، ترتبط أحيانا بالانهماك فى الحياة الاقتصادية ، ويسلم المؤرخون الهولنديون بهذه المزاعم عن طيب خاطر[٨٩] . ومع ذلك فهل نستطيع أن نقول عن ثقافة بأنها تجارية ، مع أنها أولعت ولعا كبيراً بالنظافة والزنبق (التوليب) والموسيقى والفن . وشيدت مدرسة فى كل قرية ومحت الأمية ، وخلقت جوا فكريا مكهربا بالجدل والأفكار ، وأباحت حرية الفكر والكلام والصحافة ، حتى أن هولنده سرعان ما أصبحت ملجأ عالميا للعقول الثائرة ؟ المتمردة وقال ديكارت :

« ليس ثمة بلد غير هذا البلد ، فيه الحرية أكمل . والأمن أعظم ، والجريمة أندر ، وبساطة العادات القديمة أروع[٩٠] » . وفى ١٦٦٠ كتب فرنسى آخر :

ليس فى العالم مقاطعه تنعم بمثل هذا القدر من الحريه مثل ماتنعم هولنده وفى اللحظه التى يأتى فيها أى سيد إلى هـــذا البلد بأى أرقاء أو عبيد ، فإنهم يصبحون أحراراً ، ويستطيع أى فرد أن يغادر البلد متى شاء ويأخذ معه من الأموال ما يشاء . والطرق آمنة ليل نهار ، حتى لو سار الإنسان بمفرده . ولا يباح للسيد أن يحتفظ بخادم دون إرادته . ولا يضار إنسان بسبب دينه . وكل إنسان حر فى أن يتفوه بما يشاء » حتى عن الحكام[٩١] .

وكان أساس هذه الحرية هو النظام . ويعكس صفاء الذهن فى أناقة المنزل وحسن ترتيبه . وتميز الرجال بالشجاعة والجد والعناد ، كما تميزت النساء بالاجتهاد والبراعة الفائقة فى الأعمال المنزلية . ويتسم الجنسان كلاهما بهدوء الطبع وروح المرح . واعتزل كثير من رجال الأعمال الهولنديين العمل بعد جمع ثروة معقوله ، وانصرفوا إلى السياسة والأدب والجولف * والموسيقى والهناءة المنزلية . وكتب لود وفيكو جوتيشياردينى « إن الهولنديين يفزعون من الزنى ، وأن نساءهم على أكبر قدر من الحرص والحذر ، ومن ثم منحن قسطا كبيرا من الحرية ، فيخرجن وحدهن للقيام بالزيارات بل والرحلات ، دون أن يأتين بما يخدش سمعتهن . . . إنهن مديرات المنازل ، وإنهن يحببن بيوتهن[٩٣] . وكان ثمة نساء كثيرات ذوات ثقافة رفيعة ، مثل ماريا شورمان « منيرفا هولنده » (ربة الحكمة والمهارة الفنية والاختراع عند الرومان) التى قرأت إحدى عشرة لغة ، وتحدثت وكتبت بسبع لغات ، ومارست الرسم والنحت جيدا ، وبرعت فى الرياضيات والفلسفة . ونظمت ماريا تسلشيد شعرا جميلا فى مثل جمال شخصها . وترجمت قصيدة تاسو «تحرير أورشليم» ترجمة نالت ثناء العالم ، ورسمت ونحتت وحفرت ، وعزفت على القيثارة . وغنت فأطربت إلى حد أن ستة من الأعيان من بينهم قسطنطين هوجنز ، وجوست فان دن فوندل ، وجربراندبريديرو ، كانوا يركعون تحت قدميها متوسلين إليها أن تغنى لهم . وتزوجت قبطانا بحريا ، وأصبحت ربة بيت وأما مخلصة وفية . وتركت وراءها ذكريات لا زالت عزيزة لدى الهولنديين ، عن الذكاء والمآثر والنبل[٩٤] .

وكان حب الموسيقى أوسع انتشارا من تقدير الفن . إن جاك بيترزون سويلنك أحد أبناء أمستردام ، وأعظم عازف هولندى على الارغن هو الذى علم هنريج تسيديمان ، الذى علم بدوره جوهان آدم رينكن . وهذا الأخير هو الذى درس على يديه جوهان سبستيان باخ . ومع كل هذا التفوق والامتياز

(*) ربما كانت هذه اللعبة من أصل هولندى ، وانتقلت إلى اسكتلندة فى القرن الخامس عشر[٩١]

دب فى التجارة الهولندية بعض الفساد ، والإدمان على الخمر ، والبغاء ، والإقبال على الميسر بجميع أشكاله[٩٥] إلى حد المضاربة بأسعار الزنبق المستقبلة[٩٦] .

وكانت هارلم مركز زراعة الزنبق . وكانت الأبصال تستورد من إيطاليا وجنوب ألمانيا ، حوالى نهاية القرن الخامس عشر ؛ كذلك انتشرت الزهرة فى باريس وصارت بدعة محببة ورمزا للامتياز والسمو . حتى أنه فى ١٦٢٣ رفض أحد الهواة اثنى عشر ألف فرنك (٣٠ ألف دولار) ثمنا لاثنى عشرة بصلة من الزنبق[٩٧] . وفى ١٦٣٦ صار كل السكان تقريبا يضاربون فى أزهار الزنبق وقامت أسواق خاصة يمكن لأى إنسان أن يشترى أو يبيع فيها محصولات الزنبق الحاضره أو المستقبلة وكان للتوليب « انهياره » المالى ١٦٣٧ ، ففى تلك السنة بيعت نحو ١٢٠ زهرة توليب ثمينة فى مزاد علنى لمصلحة أحد ملاجىء الأيتام بمبلغ ٩٠ ألف فلورين .

وإلى هذا الجو البهيج جاء اللاجئون من فلاندرز وفرنسا والبرتغال وأسبانيا والتجار الأجانب من نصف أمريكا المعمورة بتشكيلة مثيرة من الأساليب الغريبة الدخيلة ، وضمت جامعات ليدن وفرانكر وهاردرفيك وأوترخت وجرونتجن مشاهير علماء العالم ، وأنجبت بدورها آخرين . فكان جوستوس لبسيوس وجوزيف سكاليجر ودانيل هنسيوس وجيرار فوسيوس يعملون جميعا فى ليدن فى النصف الأول من القرن من بداية افتتاحها (١٥٧٥ - ١٦٢٥) وما جاءت سنة ١٦٤٠ حتى كانت ليدن أشهر مركز للعلم والدرس فى أوربا . وكانت نسبة معرفة القراءة والكتابة بين جمهور سكان المقاطعات المتحدة أعلى منها فى أى مكان آخر فى العالم . وكانت الصحافة الهولندية أول صحافة حرة . وكانت صحيفة « الأخبار » الأسبوعية فى ليدن ، وصحيفة « الجازيت » فى أمستردام تقرآن فى سائر أنحاء أوربا الغربية ، لأنهما كانتا تتحدثان فى حرية تامة ، على حين كانت الصحافة فى تلك الأيام فى أية بقعة أخرى خاضعة لسيطرة الحكومة ورقابتها . وكانت الدهشة تتولى أى ملك فرنسى يطلب كبح جماح أى صحفى هولندى أو وقفه عند حده ، إذا علم أن هذا مطلب مستحيل تنفيذه[٩٨]

وكان رجال الأدب فى هولنده كثيرين ، ولكن كان من سوء حظهم

أنهم كتبوا باللاتينية التى كانت فى طريقها إلى الفناء ، أو بالهولندية التى ضيقت نطاق قرائهم . فإن الهولنديين لم يتسن لهم أن يجعلوا من لغتهم،على غرار بحريتهم وأسطه مشتركة لنقل الأدب والفكر . واعتقد ديرك كورنهرت وهيدريك سبيجل أن اللغه الوطنيه المفعمه بالحيويه أداة لنقل الفكر والادب ، وكافحا لتنقيتها من الإضافات الغريبه الدخيلة غير المتجانسه وغير الملائمة — وكان كورنهرت — وهو فنان ، وكاتب ، ورجل دولة وسياسه ، وفيلسوف - أول وأقوى شخصيه فى التفتح الثقافى الذى توج الثورة السياسيه . وبوصفه أمينا عاما للمدينه صاغ بيان ١٥٦٦ لوليم أورانج ، فأودع السجن فى لاهاى ، ثم هرب إلى كليفز وكسب قوته من مهارته فى الحفر على الخشب والمعادن ، وترجم الاوديسيه وأعمال بوكاشيو وشيشرون والعهد الجديد (الانجيل) . ولما عاد إلى هولندة كافح فى سبيل نشر التسامح الدينى ، ورمز إلى التاريخ الفكرى فى القرن التالى - السابع عشر - حين تخلى عن عقيدته التى رأى أنها قد تشوهت وتلوثت بالصراعات الداميه إلى حد كبير . وأصبح « لا أدريا » معترفا بأن الإنسان لم يستطيع أن يعرف الحقيقة(٩٩) ، وعرض فى كتابه الاساسى « فن الحياة الطيبه » مسيحيه بغير لاهوت ، أى منهجا أخلاقيا مستقلا عن المذاهب الدينيه . ونتيجه لشىء من الاغضاء أتيح له أن يموت ميتة طبيعية (١٥٩٠) .

وتميزت هولنده بأن رجال الاعمال فيها كثيرا ما خلطوا بين الادب وبين شئونهم الماديه ، من ذلك أن رومرفسكر . وهو تاجر ثرى فى أمستردام ، ساعد صغار الكتاب وأكرم وفادتهم ، وجعل من بيته منتدى (صالونا) يبارى منتديات فرنسا ، ونظم هو نفسه شعرا أكسبه لقب «الهولندى الشجاع» أما بيتر هوفت فقد جعل من قصره فى بيدون على الزيدرزى ملاذا لعصر النهضه فى هولنده ، فاستقبل بالترحاب فى « حلقه ميودين » الشعراء ورجال العلم والدبلوماسيين والقواد والأطباء . وفى العشرين سنة الأخيرة من حياته ، كتب هو نفسه « تاريخ الأراضى الوطنية » روى فيه قصة ثورة الأراضى فى نثر قوى رائع ، جعل هولنده تكرمه وتحتفل به وكأنه يمثل المؤرخ الرومانى « تاسيتس » فى هولنده .

ومن بين مائة شاعر فى هولنده سما ثلاثة باللغة العامية إلى ذروتها الأدبية. منهم جاكوب كاتس المتقاعد الكبير لمدة اثنين وعشرين عاما ، الذى بسط حكمة الأمثال السائرة فى شعر شعبي متبل بالحكايات الطريفة المفعمة بالحيوية، حتى ظلت كتابات « الأب كاتس » لعدة قرون ، من مقتنيات كل بيت يعرف أهله القراءة والكتابة فى هولنده ، أما جوست فان دن فوندل فقد تغلب على كل المحن وكل الأعداء ، حتى تبوأ مكانة عالية فى الأدب الهولندى . وكان أبوه صانع قبعات نفى من أنتورب بسبب آرائه المؤيدة لمذهب تجديد العماد . وولد جوست فى كولون . وفى ١٥٩٧ استقر بالأسرة المقام فى أمستردام ، وافتتح الوالد ، الذى تقلب من مذهب إلى مذهب ، محلا لصناعة الجوارب ، وورث جوست عمل أبيه ولكنه ترك إدارته لزوجته وابنه ، على حين عمل هو على تعويض ما فاته من التعليم الرسمى بدراسة اللاتينية والإيطالية والفرنسية والألمانية ، وكتب رواياته الثمان والعشرين وفق نماذج أغريقية وفرنسية ، وحرص فيها على اتباع نظام الوحدات بدقة . وسخر من فكرة الجبرية أو القضاء والقدر ومن الجدل بين الشيع البروتستانتية . وافتتن بجمال الشعائر الكاثوليكية ، وبماريا تسلكاد التى كانت كاثوليكية وجميلة معا . وبعد موت زوجها (١٦٢٤) وموت زوجته هو (١٦٣٥) توثقت أواصر الصداقة بينهما : وفى ١٦٤٠ اعتنق المذهب الكاثوليكى . واستمر ينتقد بشدة الأحقاد الدينية والمخادعات والحيل الاقتصادية والفساد السياسى ، وكسب قلوب الهولنديين بالتغنى بشجاعة الأراضى الوطيئة ومجدها . وفى ١٦٥٧ أفلست صناعة الجوارب التى أساء ابنه إدارتها ، وهرب الإبن إلى جزر الهند الشرقية ، وباع الشاعر كل ممتلكاته المتواضعة ليرضى دائنيه ، وظل لعشر سنين يكسب قوت يومه من العمل بوظيفة كاتب لدى مقرض نقود ، وأخيراً أجرت عليه حكومته معاشا ، وقضى فى هدوء الثلاثة عشر عاما الأخيرة من عمره الذى بلغ اثنين وتسعين عاما .

أما أعظم الشخصيات جاذبية فى أدب الأراضى الوطيئة فى هذا العصر ،

فهو قسطنطين هيوجنس ، وهو هولندى جمع بين كل مظاهر وجوانب النهضة فى إيطاليا . وكان أبوه كريستيان جنس سكرتير مجلس الدولة فى لاهاى أما ابنه كريستيان فكان أعظم رجال العلم فى القارة على عهد نيوتن ، وبين الوالد والولد حافظ قسطنطين على ما اشتهرت به الأسرة من قدرات ومواهب ولد قسطنطين فى لاهاى فى ١٥٩٦ . وتلقى فيها وفى ليدن وأكسفورد وكمبردج قسطا وافرا من التعليم، وكتب الشعر باللاتينية والهولندية ، وبرع فى الألعاب الرياضية، وأصبح موسيقيا وفنانا عظيما. وفى سن الثانية والعشرين التحق ببعثة دبلوماسية إلى انجلترا ، وعزف على العود أمام جيمس الأول ، وأحب جون دون الذى ترجم فيها بعد قصائده إلى الهولندية . وفى سن الثالثة والعشرين أرسل فى بعثة دبلوماسية إلى البندقية ، ولدى عودته كاد يفقد حياته عندما كان يرقى قمة برج الكاتدرائية فى ستراسبورج . وأصبح فى ١٦٢٥ سكرتيرا لطائفة من الحكام على التعاقب . وفى ١٦٣٠ عين فى المجلس المخصوص . وفى نفس الوقت أصدر عدة دواوين من الشعر تميزت بجزالة الأسلوب ورقه الشعور . وآذن موته فى سن التسعين (١٦٨٧) بانتهاء أزهى عصور الأراضى الوطيئة .

٧ — الفنون الهولندية

أحس الهولنديون البروتستانت بأن عمارة كنيسة العصور الوسطى وزخارفها كانت أشكالا تغذى النفوس بما يؤيد الأساطير ويدعمها ، وتثبط الفكر وتعوقه ، ومن ثم عقدوا العزم على أن يعبدوا الله بالصلوات والعظات . لا بالفن ، ولم يحتفظوا فى طقوسهم إلا بفن الانشاد . ولذلك كانت هندسة بناء الكنائس عندهم تكاد لا تهدف إلا إلى البساطة الصارمة المطلقة . بل إن الكاثوليك أنفسهم لم يشيدوا فى المقاطعات المتحدة كنائس جديرة بالذكر وفى القرن السادس عشر جلب تجار ما وراء البحار ، ربما من سوريا أو من

مصر ، فكرة القباب البصلية الشكل . وانتشر هذا الطراز من هولنده وروسيا إلى ألمانيا ، وأصبح أحد معالم عصر الباروك فى أوربا الوسطى .

إن رجال الأعمال ، لا رجال الدين ، هم الذين سيطروا على هندسة البناء . وعمدوا أول ما عمدوا إلى تشييد مساكن راسخة البناء لأنفسهم — تكاد تكون كلها متشابهة ، لا تبعث على الخوف مثل قصور فلورنسه ، ولا تثير الحقد والحسد ، لأن كل مظاهر البذخ والترف والفن كانت داخل جدران البيت ، وفى حدائق الزهور التى عنوا بها أكبر عناية . أما المنشآت المدنية فقد أباحوا فيها بعض الزخرف والأبهة . فنى دار البلدية التى شـــادها ليفن دى كى لمدينة أنتورب ، جمع فى انسجام تام بين عناصر من فرنسا ومن ألمانيا ومن عصر النهضة ، ودار نقابة القصابين فى هارلم ، التى شادها ليفن نفسه ، تضارع فى فخامتها وأبهتها أية كاتدرائية قوطيه . وتظهر دار البلدية فى هارلم كيف أن هولنده طوعت الطراز الكلاسيكى (القديم) تماما حتى بات يتمشى مع أهدافها ونزعاتها .

وكان ميكلانجلو هولنده فى العمارة والنحت فى ذاك العصر هو هندريك دى كيزر الذى أصبح وهو فى سن التاسعة والعشرين المهندس المعمارى لمدينة أمستردام (١٤٩٤) ، وهناك صمم الكنيسة الغربية وسوق المال ومبنى شركة الهندسة الشرقية فى طراز يجمع بين طرز إيطاليا وهولنده وعصر النهضة . وفى دلفت بنى دار البلدية والنصب التذكارى لوليم الأول ، وفى ١٦٢٧ فى روتردام ، صب من البرونز تحفته الرائعة . ألا وهى تمثال أرزم الرائع الذى قبع ساكنا لم يمس بأذى لعدة سنوات بين أنقاض الحرب العالمية الثانية . ودمر بعض من أجمل المنشآت الهولندية التى يرجع تاريخها إلى تلك الحقبة نتيجة الاخفاق فى إدارة شئون الدولة .

وتألقت صناعة الخزف بين الفنون الصغيرة . وفى روتردام ودلفت سما الذوق الرفيع بصناعة القرميد حتى جعل منها فنا . وأقبل الناس على

استخدام خزف دلفت المزخرف فى كل بيت فى الأراضى الوطيئة تقريبا . وحوالى ١٦١٠ ، فور افتتاح التجارة الهولندية مع الشرق ، بدأ خزافو دلفت فى تقليد الخزف الصينى ، وأنتجوا نوعا من السيوليق (خزف مزخرف مطلى بالمينا) الرقيق الأزرق أسموه « البورسلين الهولندى »[١٠٠] ، وسرعان ماعرض نصف أوربا الغربية خزف دلفت على الجدران أو على الأرفف .

أما أعظم الفنون جميعا فى الأراضى الوطيئة فكان الرسم . وليس فى التاريخ المعروف لدينا بلد غير هذه البلاد ـ ولا نستثنى من ذلك إيطاليا النهضة ـ حظى فيه أى فن يمثل هذه الشعبية العارمة . وتضم فهارس الفن فيما بين عامى ١٥٨٠ ــ ١٧٠٠ خمسة عشر ألف رسم هولندى[١٠١] ، وتأثر الفن الفلمنكى تأثرا شديدا بالفن الإيطالى ، ولكن فى المقاطعات الشمالية أثارت المقاومة الموفقة لسلطان أسبانيا روحا قومية وكبرياء قومية . لم تكونا تحتاجان إلا إلى الثروة المستمدة من التجارة فيما وراء البحار . لتحدثا انفجارا ثقافيا . فتحولوا بالفن إلى معارج جديدة من التطويع لحياتهم ومن الواقعية بعد أن كادت تتقلص عنه تماما الرعاية الكنسية والأرستقراطية ، وأصبح رعاة الفن وحماته الجدد هم التجار وعمـــد المدن والمحامون والمؤسسات والنقابات والكوميونات والمستشفيات ، بل حتى المنشآت الخيرية ، ومن ثم كانت الرسوم الشخصية والرسوم الجماعية ومشاهد الحياة اليومية . وكان لكل مدينة هولندية تقريبا مدرسة الفنانين الخاصة بها ، تحت رعاية محلية : هارلم ، ليدن ، أوترخت ، أمستردام ، دوردرخت ، دلفت ، لاهاى . أما المواطنون البسطاء الذين ربما كانوا فى بلاد أخرى أميين من حيث الفن ، عالة على الكنيسة ، فإنهم هنا زينوا بيوتهم بلوحات اشتروها أحيانا بثمن عال ، من ذلك أن خبازا أثبت سلامة ذوقه ، بدفع ٦٠٠ فلورين (٧٥٠٠٠ دولار ؟) ثمنا لصورة واحدة للفنان فرمير[١٠٢] ، وكادت النزعة الدنيوية أن تكون عامة شاملة ، فلم يعد للقديسين وجود فى الرسوم ، وجاء التجار ، وانتصرت رسوم البيت والحقل على الكنيسة وازدهرت الواقعية ، فنظر البرجوازى بشىء قليل من التقدير

إلى لوحة تمثله هو وزوجته ، ولكن السدود والكثبان الرملية وطواحين الهواء والأكواخ والسفن الشراعية والأرصفة الزاخرة بالبضائع ، كل هذه أحيت صورها على الجدران فى سرور بالغ ، ذكريات أشياء فعلية عامة . ولقيت مناظر السكارى المرحين ورواد الحانات بل حتى المواخير ، ترحيبا فى بيوت ربما كانت تعلق منذ قرن مضى صور الشهداء القديسين وأبطال التاريخ أو آلهة الوثنيين . ولم تكن الصور العارية من سمات هذا العصر ، حيث لم يبتهج لها الناس فى مثل هذا المناخ الرطب مع الأجسام الضخمة . وبدا فى هذه البيئة الجديدة أنه ليس ثمة محل لما تميز به الفن الإيطالى من عبادة الجمال والرقة والتهذيب والوقار ، حيث لم تتطلب هذه البيئة من الفن شيئا أكثر من إخراج الحياة اليومية والمشاهد المألوفة .

وثمة جانب كئيب حزين فى صورة الأمة التى أغرمت بالرسوم إلى حد الجنون . وذلك أن الفنانين الذين رسموا لها عانوا فى أغلب الأحيان من الفقر ولم يحظو إلا بأقل التقدير . على حين أن الأرشيدوق واللوردات والأساقفة فى الفلاندرز أجزلوا العطاء لمن اصطفوا من الفنانين . أما فى هولنده فكانت المنافسة بين الفنانين فردية ، فأنتجوا للسوق العامة ، ووصلوا فى معظم الأحوال إلى العملاء عن طريق وسطاء نشأوا بين المنتجين والمستهلكين المشترين ، وعرفوا كيف يشترون بثمن بخس ويبيعون بسعر عال . وقلما حصل الفنانون الهولنديون أثمانا عالية ، فإن رمبرانت فى ذروة شهرته لم يقبض إلا ١٦٠٠ جيلدر ثمنا للوحته « حراسة الليل » ولم يحصل فان جويين إلا على ٦٠٠ جيلدر ثمنا للوحيه « منظر لاهاى » ، وحصل الباقون على أقل من هذا بكثير ، فإن جان ستين رسم ثلاث صور شخصية مقابل ٢٧ جيلدر ، وباع ايزاك فان أوستاد ثلاث عشرة صورة مقابل مبلغ مماثل . وكان على الفنانين الهولنديين أن يلجأوا إلى مختلف الأعمال ليكسبوا قوت يومهم ، فباع فان جويين الزئبق ، واشتغل هوبيما بجباية الضرائب ، وأدار ستين نزلا

وكان الفنانون أنفسهم من الكثرة إلى حد أنهم أغرقوا سوقهم وأتخموها .
أن قائمة بأسماء مشاهيرهم لتملأ صفحات ، وأن ثبتا بأعمالهم المكنوزة ليزحم
كتابا ، فهلا أزجينا لهم الشكر فى الهامش(*) .

(*) ـ ألبرت كيب : رعاة يعزفون على المزمار (نيويورك)
ـ كارل فبريتوس : صورة شاب (روتردام)
ـ جان فان جويين ، وهو أعظم هذه المجموعة : مناظر طبيعيه غاية فى الروعة ، محفوظة فى كثير من المتاحف ، من بينها قاعة كوركوران فى واشنجطن .
ـ ديرك هالس ـ الأخ الأصغر لفرانس : الصحبة المرحة (لندن)
ـ جيرار فان هنثورست : حفلة موسيقية (لننجراد)
ـ توماس دى كيزر ـ ابن هندريك : صور شخصية جميلة فى درسدن ، نابلى ، اللوفر ، نيويورك وسبقت لوحته « درس التشريح للدكتور فريج » ١٦١٩ بزمن طويل ، لوحة رمبرانت « درس التشريح للأستاذ تولب » ١٦٣٢
ـ كارل فان ماندر : كتب فى ١٦٠٤ « كتاب رسامى الأراضى الوطيئـــة » الذى كاد ينافس النموذج الذى احتذاه فاسارى .
ـ ميشيل فان ميرفلت : صور شخصية فى كثير من المتاحف
ـ أدريان فان أوستاد : عازفو السكان المجاثر والمدخون (كلاهما فى نيويورك)
ـ ايزاك فان أوستاد : السوق (مجموعة ولاس)
ـ فرانس بوريس الأكبر : صورة سيد مهذب (مجموعة ولاس)
ـ فرانس بوريس الأصغر : صورة شاب (قاعة بتى)
ـ بيتر بوريس : وليمة مجازية (مجموعة ولاس)
ـ هركيوليز بيجرز : منظر ريفى (برلين)

٨ ـ فرانس هالس
(١٥٨٠ — ١٦٦٦)

عاش أسلافه لمدة قرنين من الزمان فى هارلم . وكان أبوه قاضياً هناك ، ولكن لأسباب غير معروفة ولد فرانس فى أنتورب، ولم يعد إلى هارلم ليقوم فيها إلا بعد بلوغه التاسعة عشرة من العمر . ولم نسمع عنه شيئا قط إلا فى ١٦١١، حيث سجلت إحدى كنائس هارلم تعميد هرمان بن فرانس هالس وزوجه آنك . أما ما عرف عنه بعد ذلك ، فكان من سجلات محكمة شرطه (١٦١٦) حيث تروى أن فرانس هالس قبض عليه بتهمة ضرب زوجته ضرباً مبرحا ، فأنب تأنيباً قاسياً ، ثم أفرج عنه بعد تعهده بأن يكون مهذباً وأن يتجنب صحبة السكارى . وماتت آنك بعد ذلك بسبعة شهور . وبعد خمسة أشهر أخرى (١٦١٧) تزوج فرانس من ليزبث رينيرز . وبعد تسعة أيام أنجبت له أول أولاده العشرة[١٠٤] . وقد خلف لنا لوحه رائعة تمثله مع زوجته الثانيه[١٠٥] التى عاشت معه طوال السنوات الأربع والسبعين التى بقيت فى حياته، واحتملت أملاقه وعوزه وسكره وعربدته . وليس ثمة ما يجذب الانتباه فيه إلا أنه كان رساماً عظيما ذا روح مرحة .

وكان قد بلغ السادسة والثلاثين حين حقق نجاحا هائلا فى لوحته « مأدبة نقابة رماة سانت جوربس[١٠٦] » ، وهى إحدى لوحات « دولين » الخمس التى هيأت لفرانس مكانته العالية ، ويقصد بلفظ « دولين » مقر المتطوعين ، الذين مارسوا الرماية وأقاموا المباريات وعقدوا الندوات الاجتماعية ، وكانوا بمثابة قوات نظامية فى الكوميونات . وكان ضباط مثل هذه النقابات أحياناً يأجرون فناناً ليرسم لهم صورة جماعية ، ولكن يصر كل واحد منهم على أن يتناسب بروزه فى الصورة مع رتبته فى الجماعه ومع إسهامه فى تكلفتها . فهنا هؤلاء الضباط فى أبهى حلة ، يتجمعون حول مأدبة ، ويرفع أحدهم علم فرقته الغنى بالألوان . وحصل هالس على أجره لأن كلا من هذه الرؤوس فرد يمثل شخصية قوية، تختلف عن الأخرى ، كما يمثل سيرة حياته وتحفة رائعة.

ولم نسمع عن مهمة مماثلة أخرى إلا بعد إحدى عشرة سنة من ذلك التاريخ، ولكن هالس أنتج فى هذه الحقبة رسوما تعد من روائع الفن الهولندى . من ذلك «بائع السردين»[١٠٧]، وهى مرة أخرى تاريخ يتمثل فى وجه، و« الثالوث المرح » « يونكر رامب وصديقته » وكلاهما فى نيويورك، واللوحة المشهورة « الفارس الضاحك»[١٠٨] » - تتجسد فيها الثقة بالنفس ، فى ثياب ذات أهداب مع طوق مكشكش حول العنق . وعلبة مزدانة بالأزهار ، وابتسامة تكاد تشبه ابتسامة الجيوكندا فى رقتها .وفى هذه الفترة (١٦٥٤ ؟) رسم فرانس « صورته الشخصية [١٠٩] » ، وجه قوى مليح ، وعينان حزينتان تنكران زهو الملابس الجميلة والذراعين المطويين. لقد كان الرجل منهوكا تتقاذفه اللهفة على الإتقان والكمال ، والظمأ إلى الخمر .

وفى ١٦٢٧ جاءت مجموعة دولين الثانية : لوحة أخرى « لنقابة ضباط سان جوريس [١١٠] »،ولم تكن فى صفاء وإشراق اللوحة الأولى ، فإن هالس تحول عمدا ، ولبعض الوقت ، عن البريق الهادىء للألوان القوية إلى التلاعب الأشق بالأساليب الثانوية - الألوان النصفية (لاداكن ولا فاتح) والظلال الرمادية ومخطوط الكفافية الرقيقة . وثمة لوحة دولين أخرى فى هذا العام « نقابة رماة سانت أوريان[١١١] » ، وهى كذلك فى أساليب مخففة . ولابد أن الرماة اغتبطوا لأنهم كلفوا هالس أن يرسم لهم لوحة أخرى [١١٢] . وهنا استرد الفنان ألوانه وأبرز عبقريته ليجعل من كل وجه شيئا ممتعا فريدا .وفى ١٦٣٩ رسم لوحة أخرى «لضباط نقابة سانت جوريس»[١١٣] ولكن فى هذه اللوحة ضاع الفرد فى زحمة المجموع . ولكن لوحات الدولن هذه فى جملتها أروع صور المجموعات فى كل العصور ، هى توضح انطلاق الطبقة الوسطى على مدارج الظهور الموسوم بالفخار والزهو .

وفى الفترة الثانية (١٦٢٦ - ١٦٥٠) رسم هالس صورا تنادى بتخليد ذكراها . منها « السكير المرح [١١٤] » ، يضع فوق رأسه قبعة كبيرة تكفى لتغطية

رؤوس حشد من السكارى : و« الذى يعدو فوق الرمال » [١١٥]، وهو أشعث أغبر ، فى أسمال بالية ، ولكنه فاتن ، و « المتشردة أو الغجرية » تبتسم وتنتفخ فى اللوفر ، و« المهرج » فى أمستردام « وبلتازار كريمان الوهمى » فى واشنجطن أما تحفة فترة ذروة النضج هذه ، فهى لوحة هالس البالغة الامتياز « القائمون على مستشفى سانت اليزابث [١١٦] » ، وهى تماثل ، أولا تماثل لوحة رمبرانت مندوبو نقابة تجار الأقمشة التى رسمت بعدها بإحدى وعشرين سنة .

أن إسراف هالس فى الشراب بغير حدود . ولو أنه يبدو أنه لم يسىء إلى فنه ، أضر بموقفه حتى فى بلد وفى عصر لجأ فيه الناس إلى الشراب بين الحين والحين ابتعاثا للمرح والفرح . وظل يرسم صورا ربما كانت كفيلة بأن ترفع أى فنان إلى قمة الشهرة : « ساحرة هارلم [١١٧] » ، و « ديكارت [١١٨] » الذى يحرر من الوهم ، فى حاجبين كبيرين وأنف ضخم وعينين تنمان عن الشك ، ثم رسم فى سن الثمانين صورة « شاب فى قبعة مترهلة [١١٩] » . ولكن فى الوقت نفسه تكاثرت الأرزاء على الفنان ، ففى ١٦٣٩ أرسل ابنه بيتر الى مصحة الأمراض العقلية على نفقة البلدية ، وفى ١٦٤١ وضعت ابنته الكبرى المتمردة فى إصلاحية الأحداث بناء على طلب أمها . وما جاء عام ١٦٥٠ حتى كان فرانس معدماً . وفى ١٦٥٤ أقام الخباز المحلى ضده الدعوى يطالبه بسداد مائتى جلدر وحجز على أدوات الرسام . وفى ١٦٦٢ توسل الشيخ الهرم المتهدم للحصول على معونة وأجيب إلى طلبه . وبعد ذلك بعامين قرر له مجلس مدينة هارلم معاشا سنويا ، ووهبه فورا ثلاثة أحمال من الخشب ليوقد مدفأته .

ويحتمل أنه رغبة فى منح فرانس مزيداً من الصدقات ، كلف فى هذا العام (١٦٦٤) برسم لوحتين : « مديروا ملجأ الفقراء » و« مديرات ملجأ الفقراء » . ويظهر فى لوحة الرجال أثر اليد المضطربة للفنان فى سن الرابعة والثمانين ، فإن معظم التقاطيع والملامح فيها ملطخة بشكل غامض ، على نقيض اللوحة الأخرى التى تمثل النساء ، فإنه مما يثير الدهشة أن المهارة القديمة عادت سيرتها الأولى :

فهنا خمس أنفس ارتسمت على خمسة وجوه ممثلة مذعنة ، خمس نساء عجائز أرهقتهن الأعمال غير العادية ، عابسات متجهمات متزمتات ، كما يقتضى نظامهن البيوريتانى ، وقد نسين مرح الشباب وبهجته . ومع ذلك . يتألق بشكل مافى هذه التقاطيع الكالحة عطف هادىء ومشاركة وجدانية حزينة. وهاتان الصورتان الأخيرتان هما آخر لمسات جرت بها يد الفنان أو ومضات لمعت فى فنه ، وهما الآن ، إلى جانب لوحات مجموعات « الدولين » ، موجودتان فى متحف فرانس هالس الذى شادته مدينة هارلم فى مكان ملجأ الفقراء .

مات هالس فقيرا معدما (١٦٦٦) ولكنهم احتفلوا بدفنه احتفالا مهيبا فى هيكل كنيسة سانت بافون فى المدينة التى اعتمدت شهرتها على الحصار الذى قاومته طويلا ، وعلى أعمال أعظم أبنائها . ولمدة قرنين من الزمان بعد وفاته كاد النسيان يجر عليه ذيوله ، وبيعت لوحاته بأبخس الأثمان ، أو فى المزادات ، أو بلا شىء مطلقا ، وإذا كان مؤرخو الفن قد تذكروه . فما ذاك إلا لأنهم تنبهوا إلى ضيق مجال فنه - فلم يكن ثمة صور دينية ولا أساطير ولا صور تاريخية ولا مشاهد طبيعية ولا صور عارية - أو إلى العجلة المدموغة بالإهمال والتهاون فى طريقة عمله ، حيث لم يكن ثمة مخططات تمهيدية ، بل لطخات من ألوان متناثرة اعتمدت على التخمين وعلى ذاكرة الرائى ليملأها بالتفاصيل . واليوم يتعالى الهتاف للفنان ، بشكل قد يكون مبالغا فيه ، مما يتوازن مع طول إغفال شأنه كما يعتبر ناقد كريم أن هالس ألمع رسام للصور الشخصية رآه العالم[٢٠] » . وما دام الزمن ، وهو أجدر القضاة بالثقة ، يتذبذب فى حكمه ، فلنقنع نحن بالإعجاب .

٩ — رمبرانت هارمنزفان رين

١٦٠٦ — ١٦٦٩

ولد فى ليدن لأب طحان ثرى . هو جريت هامنز الذى أضاف إلى اسمه « فان رين » ربما لأن بيته كان يطل على نهر الراين . ولابد أن الفنان أحب أباه حبا جما لأنه رسمه إحدى عشرة مرة أو أكثر ، فى قبعة وسلسلة ثمينتين (١١) وكصراف نقود (١٢٢) وكسلانى نبيل (١٢٣) — وجه قوى خشن التقاطع يحف به الوقار — ورسمه فى ١٦٢٩ رجلا علته السنون بالكآبة والإرهاق (١٢٤). كما رسم أمه اثنتى عشرة مرة ، أجدرها بالذكر لوحة « المرأة العجوز » فى متحف فيينا قلقة منهوكة وتراها فى متحف أمستردام منكبة على الكتاب المقدس . وإذا كانت الأم — كما يعتقد البعض — « منونية » (تنتسب إلى طائفة بروتستانتية متزمتة) فقد ندرك من هذا ميل رمبرانت إلى التوراة ، وصلته الوثيقة باليهود .

وفى سن الرابعة عشرة التحق بجامعة ليدن ولكنه أنعم النظر فى أشكال أخرى غير الأفكار أو الألفاظ ، وترك الجامعة بعد عام واحد ، وأقنع أباه بالسماح له بدراسة الفن . وخيرا ما فعل ، فإنه فى ١٦٢٣ أرسل إلى أمستردام ليتتلمذ على بيتر لاستمان الذى كان يعتبر آنذاك آبللز (رسام إغريقى) العصر وكان لاستمان قد عاد من رومه إلى هولنده بتوكيد كلاسيكى على الرسم الصحيح ويحتمل أن رمبرانت تعلم منه أن يكون مخططا ممتازا . ولكن بعد قضاء عام واحد فى أمستردام عاد الشاب القلق مسرعا إلى ليدن « متلهفا على الرسم بطريقته الخاصة . فرسم أو صور كل ما وقعت عليه عيناه تقريبا ، بما فى ذلك الحاقات الصاخبة والقذارات المخزية (١٥٢) ، وتابع النهوض بفنه عن طريق تجارب عزيزة لديه فى تصوير شخصه فكانت المرآة هى النموذج أمامه وترك لنا صورا شخصية (٦٢ على الأقل) أكثر مما ترك كثير من كبار الرسامين من صور . ومن بين هذه الصور الشخصية الأولى رأس جميل فى لاهاى : وهى لوحة تمثل رمبرانت فى الثالثة والعشرين ، وسيما مليحا بطبيعة الحال (وهذا هو

شأن كل المرايا ـ تظهرنا فى أجمل صورة) يتطاير شعره هنا وهناك دون مبالاة ، فى ترفع الشباب عن التقاليد والأعراف ، تنبىء عيناه عن اليقظة والزهو بما ثبت من قدرته وكفايته .

والحق أنه كان بالفعل قد وطد مركزه . وفى ١٦٢٩ نقده أحد الخبراء ١٠٠ فلورين اجراً لصورة ـ وهذا أجر مناسب لمنافس صغير فى بلد كان فيه عدد الرسامين كبيرا مثل عدد الخبازين ، ولكنهم لا يشبعون بطونهم مثلهم . وكانت موضوعاته ـ بعد شخصه ووالديه ـ مأخوذة من الكتاب المقدس . وفى لوحته « أرميا ـ يرثى لخراب أورشليم(١٢٦) » تجلت الحالة الصوفية التى تميزت بها لوحات رمبرانت الدينية . أما لوحة « سمعان فى الهيكل(١٢٧) » فإنها تعبر تعبيرا صادقا عن روح ما جاء على لسان هذا الشيخ فى الإنجيل : « الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام » (إنجيل لوقا ٥ : ٥٩) . وكلف من أمستردام بأعمال كثيرة إلى حد أنه عاد إليها فى ١٦٣٨١ . وقضى هناك بقية أيام حياته .

وفى خلال سنة من وصوله إليها رسم إحدى روائع الدنيا وهى « درس التشريح للأستاذ نيقولا تولب(١٢٨) » ، وكان ثمة تشريحات كثيرة فى التصوير الهولندى ، ولم تمتهن السوابق ، أو يخدش التواضع حين كلف الجراح الممتاز الذى كان أربع مرات عمدة لمدينة أمستردام ، رمبرانت أن يرسمه ، وهو يقدم عرضا فى التشريح فى قاعة نقابة الجراحين ، معتزما أن يهدى الصورة إلى النقابة تذكارا لأستاذيته ، وربما كان دكتور تولب هو الذى اختار سبعه من «الطلبة» ليكونوا معه فى الصورة ، وواضح أنهم لم يكونوا طلبة ، بل رجالا ناضجين من ذوى المكانة فى الطب أو فى مجال آخر ، وانتهز رمبرانت الفرصة ، كل الفرصة ، ليبرز الوجوه متألقة بالشخصية والذكاء . وتبدو الجثة منتفخة على نحو غير ملائمة ، واتخذ اثنان من المتفرجين وضعا تشهده الأجيال القادمه ، ويمضى دكتور تولب فى عمله فى هدوء رجل متمرس واثق . أما الرجلان اللذان

يحدقان النظر فوق رأس الجثة فكأنا يمثلان حب الاستطلاع والانتباه بأجلى معانيهما ، وكان التلاعب بالضوء على اللحم والأطواق إعلانا عن ميزة رمبرانت .

وانهالت الطلبات على رمبرانت ، حتى بلغت أربعين فى عامين . أما وقد امتلأت الآنجيوبه بالمال، واستبد به الظمأ إلى النساء «فقد حان الأوان للزواج (١٦٣٤) . وكانت ساسكيا أولنبرخ ذات وجه جميل وعينين راقصتين وشعر حريرى ناعم ذهبى اللون وقوام أهيف وثراء كاف ، وما أجمل صورة «ساسكيا» فى مدينة كاسل الألمانية ، وكانت الابنة اليتيمة لمحام وقاض ثرى . وربما كان عمها ـ وهو وسيط فى تجارة التحف الفنيه ـ هو الذى أغراها بالجلوس أمام رمبرانت ليرسمها ، وكانت جلستان فقط كافيتين للتقدم لطلب يدها . وقدمت العروس صداقا قدره أربعون ألف جيلدر، أصبح بذلك مفلس المستقبل واحدا من أغنى الفنانين فى التاريخ . وأصبحت ساسكيا زوجة صالحة على الرغم من ثروتها . وتحملت فى صبر وجلد عبقرية شريك حياتها المستغرقة فى العمل . وجلست إليه ليرسم لها صوراً كثيرة ، ولو أنها أبرزت جسمها الآخذ فى التفتح والامتلاء ، وكان يدثرها فى أزياء غريبة ليرسم لها «فلورا آلهة الأزهار» المشرقة الباسمة الموجودة الآن فى لندن ، و «فلورا» الحزينة ، الأبسط شكلا، الموجودة الآن فى نيويورك . وفى إحدى اللوحات فى درسدن نراه وقد غمرته السعادة ، وهو يمسك بها وهى جالسة على ركبته ، تفيض منه الابتسامة على اللوحه ، رافعا كأسا عالية ابتهاجا بموفور الصحه والمال .

وفى سنين اليسر هذه (١٦٣٤ — ١٦٤٢) أخرج الفنان التحفة تلو التحفة . واستمر يرسم نفسه . فنراه فى « صورة الفنان » (١٦٣٤) وهى الآن فى اللوفر ـ وسيما مبتهجا ، فى قبعة مزدانه بالجواهر . وسلسلة ذهبية على صدره، ورسم فى السنة نفسها « الضابط [١٢٩] » ـ وهو فيها جميل مهيب يضع على رأسه قبعة تغزو العالم ، ورسم لنفسه فى ١٦٣٥ صورة فى قبعة رائعة يكاد ريشها يداعب

السماء . وسعيا وراء الشخصية الأجمل ، (١٦٣٤ « السيدة العجوز » التى لاتبالى بنا وهى معلقة فى المتحف الوطنى بلندن فى وجه ملأته السنون بالتجاعيد . وبعد ذلك بعام واحد رسم « المرأه العجوز على الكرسى ذى الذراعين» وهى موجوده فى نيويورك . وعثر فى خرائب أمستردام على رجل فى الثمانينات ، ألبسه عمامة وثيابا ورسم له لوحة « رجل شرقى[١٣٠] » : وكان له ولع بجمع الثياب والجوهرات والسيوف والقبعات والأحذية الغريبة، تستطيع أن تراها جميعا، فيما عدا السيف فى لوحة « مارتن داى[١٣١] » ، بالأربطة والأشرطة على قفازه ، والأهداب على ثيابه والتروس فوق حذائه . والآن أيضـــا ، رسم موضوعات دينيه عتيقة فى صورة صادقة جديدة متخذا نماذجه من الرجال العجائز والشابات اللائى قابلهن فى الشوارع ـ كل منها تلفت النظر فى أسلوب من معالجة التفاصيل ، تأخذ بالألباب فى التلاعب بالضوء ، وتثير المشاعر بتدفق العاطفة فيها الى حد أن أية لوحة منها يمكن الدفع بأنها أبدع ما رسم الفنان ، ومثال ذلك لوحة « تضحية ابراهيم[١٣٢] » ، « الملاك روفائيل يهجر طوبيا[١٣٣] » . وجاءت هذه السنوات المباركة بعدد من أشهر الصور الشخصية مثل « السيدة ذات المروحة[١٣٤] » ، و « الرجل ذو القفاز[١٣٥] » ، وكلتاهما تجل عن الوصف ، وتقصر عنها أية ألفاظ .

وآخر الرسوم فى هذه الحقبة ، وربما أعظم انجازات رمبرانت على الاطلاق ، هى اللوحة الضخمة (١٤ × ١٢ قدما) تعرف فى التاريخ باسم « حراسة الليل » ، والأكثر احتمالا أن اسمها « جماعة كابتن كوك الرماة[١٣٦] (١٦٤٢) . ولا ينقص هذه الرقعة الهائلة أية تفاصيل ، وليس فيها أى ظل للظلام أو أى مسقط للضوء إلا حسب حسابه ، أو أى تباين فى اللون إلا وهو مدروس . ويقف الكابتن المزهو فى الوسط فى لون أسمر وأبيض وأحمر ، وإلى يساره قائمقام فى أحذية عالية وسترة وقبعة صفراء ذهبية اللون ، والسيوف تبرق والرماح تلمع والأعلام ترفرف ، وإلى يمين الكابتن فرقة

الناى والطبول . وتغادر الجماعة مقرها إلى مايبدو واضحا أنه عرض فى أحد المهرجانات . وتعاقد رمبرانت مع كل من الأشخاص الستة عشر الذين سيصورهم ، على أن يدفع كل منهم مائة فلورين . وأحس كثير منهم بأن المساواة فى الأجر لم تقابلها مساواة فى التألق والعظمة فى اللوحة ، وشكا بعضهم من أنه وضعهم فى الظل ولم يسلط عليهم الأضواء ، أو أنه قصر فى تحديد ملامحهم حتى يسهل على أصدقائهم التعرف عليهم. ولم يشتد الطلب بعد ذلك على الصور الجماعية فى مرسمه ، وبدأ نجمه يأفل .

ولابد أن المال كان وفيراً لديه فى ١٦٣٩ لأنه اشترى فى تلك السنة داراً فسيحة فى شارع جودن — بريد الذى كان يقطنه أثرياء اليهود . وكلفته الدار ثلاثة عشر ألف فلورين . وهو مبلغ ضخم لم ينجح قط فى دفعه كاملا . وربما قصد ألا تتسع لأسرته فحسب ، بل لتلاميذه ولمرسمه ومجموعته المتزايدة من التحف القديمة والأشياء الغريبة والفن . وبعد دفع نصف ثمن الشراء فى السنة الأولى من شغل الدار ، وبقاء النصف الثانى دينا عليه ، ارتفعت فائدته التى لم تدفع إلى حد جره إلى هاوية الافلاس .

وفى الوقت عينه كانت صحة حبيبته ساسكيا آخذة فى التدهور ، وكانت قد أنجبت له ثلاثة أولاد ، مات كل منهم فى سن الطفولة . وهدت ولادتهم العسرة ونهايتهم الأليمة من كيانها . وفى ١٦٤١ أنجبت له إبنا أسماه تيتوس ، وقد بقى على قيد الحياة ، ولكن أمه فارقت الحياة فى ١٦٤٢ . وأوصت بكل ما تملك إلى رمبرانت ، شريطة أن تؤول بقية التركة إلى ولدها إذا تزوج والده ثانية . وبعد سنة من وفاتها رسم لها رمبرانت صورة من الذاكرة العامرة بحبها . وكدرت هذه الخسارة صفو حياته . وبدأ منذ ذلك الوقت أن فكرة الموت تستبد به وتقلقه . وعلى الرغم من أنه كان شديد التعلق بأسرته، فإنه كان دائما يؤثر الوحدة على الرفقة ، أما « الآن فقد » آوى إلى عزلة كئيبة . وكان وهو يرسم يصرف المشاهدين الأغرار عنه قائلا « أن رائحة الطلاء

تضر بالصحة [١٣٧] » . ولم يكن رجل الدنيا المثقف أو المهذب مثل روبنز . وقرأ قليلا : ولم يكد يقرأ شيئا سوى الكتاب المقدس ، وعاش فى مملكة اللون والظل والضوء التى لا تنبض بنبت شفة . وهى متنوعة مثل دنيا الأدب ولكنها غريبة عنها فريدة . وكان من الصعب عليه أن يقوم بالواجبات الاجتماعية إذا قدم عليه من يجلسون أمامه ليرسمهم ، أو أن يتبادل معهم أحاديث قصيرة بقصد تسليتهم والاحتفاظ بسكونهم وهدوئهم . وقل المترددون عليه حين وجدوا أن رمبرانت مثل معظم أسلافه ، لم يكن يرضى أن يرسم لهم رسما تخطيطيا فى جلسة أو جلستين ، ثم يكمل الصورة من هذا الرسم التخطيطى ، بل آثر أن يرسم مباشرة على القماش ، الأمر الذى يتطلب جلسات كثيرة ، هذا فوق أنه كان له طريقة انطباعية فى أن يرسم ما يفكر فيه أو يحس به ، لا مجرد ما يرى ، ولم تكن النتيجة دائما مرضية .

ولم يكن عونا له أن تقع داره فى حى اليهود . وكان قد عقد منذ ذاك الوقت صداقات مع كثير منهم . وكان قد نقش صورة لمنسه بن إسرائيل (١٦٣٦) . والآن فى ١٦٤٧ حفر على الخشب الوجه الداكن للطبيب اليهودى افرايم بونس . ولما كان الفنان محاطا باليهود من كل جانب تقريبا ، وواضح أنه أحبهم ، فإنه وجد موضوعات تتزايد يوما بعد يوم ، بين اليهود الأسبان والبرتغاليين فى أمستردام . وربما تعرف على باروخ سبينوزا الذى عاش فى هذه المدينة من ١٦٣٥ . وذهب بعضهم إلى أن رمبرانت نفسه كان يهوديا . وهذا غير صحيح لأنه عمد ونشأ على المذهب البروتستانتى . وكانت ملامحه تنطق بأنه هولندى ، ولكن لم يعرف عنه أى تحيز ملحوظ بالنسبة للدين أو الجنس . وثمة عمق خاص لتفاهمه الموسوم بالعطف فى رسومه لليهود . لقد افتتن بشيوخهم ولحاهم التى تقطر منها الحكمة وعيونهم التى تشف عن الحزن والأسى . وإنك لتجد نصف العذاب النفسى عند العبرانيين ماثلا فى وجه « اليهودى العجوز » وهى اللوحة التى رسمها رمبرانت ١٦٥٤ والموجودة الآن

فى الارميتاج (لننجراد) ، وفى لوحة « الحبر » (الحاخام) (١٦٥٧) فى لندن وفى هذه اللوحة الأخيرة صورة الحبر الذى واسى رمبرانت بعد وقوعه فى الضائقة المالية وأمده بمعونة مادية .

ونراه فى ١٦٤٩ يرسم « هندريكا ستفلز فى المخدع » (١٣٨) ، وندرك أنه اتخذ خليلة . وكانت وصيفة ساسكيا ، وبقيت مع الفنان الأرمل وعنيت به عناية فائقة ، وسرعان ماسرت عنه بحرارة جسمها . أنه لم يتزوجها لأنه كره أن يتخلى عن تركة ساسكيا لابنه تيتس الذى كان بعد صبياً فى الثامنة من العمر . وعندما رسم هندريكا فى ١٩٥٥ (١٣٩) ، كانت جميلة بدرجة مقبولة ذات عينين تلازمهما لهفة مكتئبة ، وربما كانت هى التى جلست أمامه مرتين لتجربة أو دراسة فن رسم العاريات : فى ١٦٥٤ « باشيبا فى الحمام » (١٤٠) و « امرأة تخوض » (١٤١) وكلتاهما آية فى العظمة من حيث الألوان والاتساع . وفى يولية من هذا العام دعيت للمثول أمام شيوخ الكنيسة ، حيث أنبت تأنيبا قاسيا على اقترافها الزنى ، وحرمت من تناول القربان المقدس . وفى أكتوبر وضعت له طفلا اعترف رمبرانت ببنوته ، ودبر أمر تعميده بسلام ، وعرف كيف يحب خليلته حبا عميقا كما أحب زوجته ، وإلا كيف كان يتسنى له أن يملأ وجهها بكل هذه الرقة حين صورها ١٦٥٨ فى رداء أحمر يلتئم مع شعرها (١٤٢) . وكانت زوجة أب فاضلة لتيتس الذى أخذ يترعرع صبيا فاتنا . ويمكن أن تراه فى متحف متروبوليتان للفن ، وهو فى الرابعة عشرة ، جميلا كالبنت ، ذا عينين تتمثل فيهما حيرة الشباب ، تربكه الحياة ، يجد شيئا من الطمأنينة والأمان فى حب أبيه ، ونراه مرة أخرى فى مجموعة ولاس ، وقد سلخ عاما آخر من العمر . وقد نتصور كل التصور كيف أنه كان عزاء وسلوى لأبيه رمبرانت الذى انصبت على رأسه الكوارث المالية فى هذه السنة .

وبذل الفنان جهداً جباراً ليقتصد فى الإنفاق ويصل إلى الموازنة بين موارده ونفقاته . وثمة لوحات دينية عظيمة يرجع تاريخها إلى هذه الحقيقة — حقبة

الزنى والدّيون (١٦٤٩ — ١٦٥٦) منها « يعقوب يبارك حفدته [١٤٣] » ، و « المسيح عند النبع [١٤٤] » ، و « المسيح وامرأة سامرا [١٤٥] » ، و « النزول من الصليب [١٤٦] » . ومهما يكن من أمن فإن الصور الكنسية لم تكن مطلوبة فى هولنده البروتستانتية . ومن ثم جرب يده فى الأساطير ، ولكنه لم ينجح إلا حين استطاع أن يكسو الأشخاص . ولم تكن لوحة « داناى [١٤٧] » جذابة . أما « أتينا [١٤٨] » و « مارس [١٤٩] » ، فكانتا فريدتين فى بابهما . وظل يرسم صورا شخصية تأخــذ بمجامع الألباب . فإن صورة « نيقولا برونتيج [١٥٠] » ، قد التقطت فى لحظة مشرقة بالحياة والفكر . وصور « جان سكس [١٥١] » ، تمثل عمدة المدينة الهولندى فى ذروة قوته وأسعد أوقاته ، كذلك فإن رمبرانت رسم فى هذه الفترة بعض أشخاص غير ذوات أسماء، بعد دراسة عميقة : « الرجل ذو الخوذة الذهبية [١٥٢] » ، و « الراكب البولندى [١٥٣] » ، و « كوزيليوس قائد المائة [١٥٤] » ، وتبدو معظم اللوحات الشخصية الأخرى إلى جانب هذه ، ذات بريق سطحى .

وكان رمبرانت فى سن الخمسين حين وقعت الكارثة . أنه قلما اهتم بأن يحسب ماله وماعليه . واشترىدون مبالاة الدار والفن ، بل أسهم شركة الهند الشرقية [١٥٥] . والآن وقد تخلفت معونات نصرائه ورعانه كثيراً عن الوفاء بمتطلباته ، فإنه وجد نفسه وقد أثقلته الديون لدرجة تدعو إلى اليأس . وفى ١٦٥٦ ، ورغبة فى حماية تيتس ، نقلت « محكمة الأيتام » فى أمستردام. ملكية البيت الأبيض إلى الابن ، ولو أنه سمح للوالد فى الإقامة هناك لبعض الوقت . وفىشهر يولية أعلن افلاس رمبرانت، وبيع أثاثه ولوحاته ورسومه ومجموعاته فى عجلة كلفته كثيراً (١٥٦٧ - ١٦٥٨) . ولكن العائدات كانت أقل كثيراً من أن تفى بالتزاماته . وفى ٤ ديسمبر ١٦٥٧ طرد من الدار . فتنقل من بيت إلى بيت حتى استقر به المقام فى روزنبراخت فى « حارة اليهود » . وأنقذ من هذا الحطام نحو سبعة آلاف فلورين من أجل تيتس ،الذى كون مع هندريكا رغبة منهما فى حماية رمبرانت ، شركة أمكن بواسطتها بيع أعماله الباقية دون

أن تؤول إلى دائنيه . ويبدو أنهما أوليا الفنان الذى تتقدم به السنون ، عناية كبيرة .

واستمر رمبرانت وسط هذه البلايا والمحن ينتج الروائع : « رجل على ظهر جواد » ، وقد بيعت حديثا إلى المتحف الوطنى فى لندن مقابل ٤٠٠ ألف دولار ، واللوحة العجيبة « رأس رجل عجوز [١٥٦] » ـ وكأنه كارل ماركس فى الثمانينات متحرراً من الأوهام ، واللوحة الطبيعية المفعمة بالحيوية بدرجة مدهشة « امرأة تقص أظافرها [١٥٧] » ـ وربما تطلبت بعض الطقوس الدينية تنظيف الجسم كله ليلة السبت . وربما رسم آنذاك أيضا بعض صور مروعة للفنان نفسه مثل : « رمبرانت وكراسة رسومه التخطيطية » (١٦٥٧) ، وهى موجودة فى درسدن ، ثم اللوحة الأكثر شهرة التى يبدو فيها وجهه العابس المتجهم وجسمه البدين المدثر (١٦٥٨) وهى فى مجموعة فريك فى نيويورك ، وصورته بكامل جسمه (١٦٥٩) وهى فى فيينا ، وصورة الوجه الذى يعروه القلق والهموم (١٦٥٩) فى واشنجطن .

وفى العقد الأخير من عمره (١٦٦٠ - ١٦٦٩) سهر للابقاء على حياته ابنه وخليلته . ولكن كان مسكنه ضيقا ومرسمه سيء الإضاءة ، ولابد أن يديه فقدتا بعض اتزانهما وثباتهما نتيجة كبر السن والشراب ، فلوحة « القديس متى الإنجيلى [١٥٨] » غير مصقولة فى تركيبها ، ولكن الملاك الذى يهمس فى أذنه لم يكن ســوى تيتس الذى بلغ الآن العشرين من العمر ، ولا يزال جميلا كالعروس . ثم جاءت فى تلك السنة (١٦٦١) آخر روائع الفنان : « خبراء نقابة تجار الأقمشة [١٥٩] » ، فإن فاحصى القماش والمراقبين كلفوا الفنان بأن يخلد ذكرهم بصورة جماعية تعلق فى دار رابطتهم . وربما كنا نغتفر بعض التردد فى التركيب ، وبعض الفجاجة فى التفاصيل وبعض التقصير فى إسقاط الضوء ولكن النقد فى حيرة من الأمر ليعثر على غلطة فى الصورة . فإن أمامية الصورة وخلفيتها اللتين تمكن منهما الرسام جعلتا الشخوص الخمسة الرئيسية تقفز إلى

عين الرائى « كل منها شخص واحد منفصل »، ولكنهم جميعا التقطوا فى نفس اللحظة الحية التى التقى فيها تفكيرهم . وفى كثير من الوحات التى رسمت فى سنوات التهدم والتدهور هذه، يجد الخبراء علامات على انهيار الطاقه وانحطاط الأسلوب بساطة الألوان ، إهمال التفاصيل ، العجلة فى جريان الفرشاة وعدم الصقل . ولكننا ، حتى فى هذه الأيام نجد صورا أخاذة ، مثل « عود السخى[١٦٠] » - وهى تشخيص لاينسى للصفح المحبب إلى النفس ، و« العروس اليهودية[١٦١] » وتلك ثمرة عجيبة مدهشة تأتى من شجرة تذوى وتذبل .

ولكننا لم نذكر شيئا عن مناظر الطبيعة ورسومه وحفره . ولم يبرز أو يتفوق إلا القليل من المناظر الطبيعية ،ولكن الرسوم بلغت القمة بين مثيلاتها وثمة رسمان مشهوران : « مشهد أمستردام » بالقلم والحبر ، الموجود فى فيينا . و « المرأة العجوز جالسة » فى برلين . ويعد إنتاجه فى الحفر مضارعا لأحسن ما أنتج فى اوبمج هذا الفن الشاق المجهد . وعرف أحد أعماله فى هذا الفن « المسيح يشفى المرضى » ، باسم« القطعة ذات المائة جيلدر » لأنها اشتريت بثمن لم يسبق له مثيل (١٢٠٠ دولار ؟) . على أن نسخة منها على أيه حال قدرت فى ١٨٦٧ بمبلغ ٣٥ ألف فرنك (٣٠ ألف دولار ؟) .

أن ٣٠٠ من أعمال الحفر ، ٢٠٠ من الرسوم و ٦٥٠ من اللوحات منجزات رمبرانت لاتزال باقية ، تكاد تكون مشهورة مثل شهرة روايات شكسبير، وتكاد تكون متنوعة أصيلة عميقة مثلها . وكلها تقريبا من صنع يديه .فعلى الرغم من أنه كان له مساعدون ، فإن أحدا منهم لم يشاركه سره فى الكشف عما خفى ومالايرى[١٦٢] . وكانت بعض أعماله رديئة وبعضها منفراً ، مثل « الثور المسلوخ » فى اللوفر . وكان أحيانا يستنفد كل جهده فى الأسلوب الفنى وفى أحيان أخرى يتجاوزه من أجل الرؤيا ، أى رؤيا الفنان نفسه . . وكان، مثل الطبيعة ، يتخذ موقفا محايدا بين الجمال والقبح ، لأن الصدق عنده كان قة

الجمال، وإن الصورة التى تمثل القبح حقا وصدقا هى صورة جميلة . وأبى أن يضفى أشكالا مثالية على الشخوص فى لوحاته الدينية ، وارتاب فى أن يكون العبرانيون الوارد ذكرهم فى التوراه على مستوى جمال اليهود فى أمستردام ، فصورهم على هذا النسق، ومن ثم أنبعثوا من عالم الأساطير أو التاريخ إلى الحياة. وازداد شيئا فشيئا مع تقدمه فى السن ، حبه للبسطاء من الناس حوله ، لاحب من جردهم السعى وراء الكسب من الروح الإنسانية . وعلى حين أن بعض الفنانين ، مثل روبنز ، التمسوا موضوعاتهم بين أرباب الجمال أو السعداء أو الأقوياء وأصحاب السلطان ، فإن رمبرانت كان يسخو بفنه الحنون على المنبوذين والمرضى والتوساء ،حتى المشوهين ذوى العاهات ، وعلى الرغم من أنه لم يسخر من الدين أو لم يهزأ به ، فقد بدا أنه على غير وعى منه ، يجسد موقف السيد المسيح ووينان تجاه أولئك الذين أحتقروا، أو أبوا أن يشتركوا . فى صراع كل إنسان مع سائر بنى الإنسان .

ولدلنا نظرة أخيرة عليه فى صوره الشخصية فى شيخوخته . وليس هنا زهو أو خيلاء ، بل على النقيض ، أنها قصة حياة الفنان بمرشاته هو ، فى أيام الخيبة والهزيمة . أنه عندما صور نفسه ١٦٦٠ ،[١٧٣] كان لايزال يواجه الحياة بمزيج من الشجاعة والاستسلام ، فإن الوجه القصير السمين غير الحليق كان ساخرا ولم يكن حزينا ، وكان لايزال يتحرك قدما . ولكن فى صورة أخرى[١٧٤] فى نفس العام ، كانت ثمة نظرة قلقة حائرة تعتم الوجه وتكسوه بالتجاعيد حول الأنف الضارب للحمرة وفى ١٦٦١ رأى نفسه[١٧٥] فى نفس الحيرة والإرتباك . ولكنه لم يبال بالتجاعيد بطريقة فلسفية . وصور نفسه فى عامه الأخير[١٧٦]، وكأنما وجد الطمأنينة وهدوء البال فى إرتضاء قيود الحياة وحدودها ومرحها الساخر . وماتت هندريكا ١٦٦٢ ، ولكن ظل تيس يمتعه بمنظر الشباب ، وفى ١٦٦٨ ابتهج الشيخ العجوز بزواج ابنه . ولما لحق الابن بالخليلة فى هذا العام نفسه ، فقد الفنان قدرته على التشبث بالحياة . وجاء فى سجل

الوفيات فى الكنيسة الغربية فى ٨ أكتوبر ١٦٦٩ رمبرانت فان رين ـ الرسام… يترك طفلين ..

وكاد معاصروه ألا يلحظوا وفاته . ولم يحلم أحد منهم قط بوضعه فى مرتبة روبنز ، أو حتى فانديك . وكتب عنـــه معاصره ــ جويشم (يواقيم) فون ساندرات أن ما كان يعوزه أساساهو المعرفة بإيطاليا وغيرها من الأماكن التى تهيء الفرص لدراسة القديم ودراسة نظرية الفن . (ويبدو لنا الآن أن هذا هو سر عظمته) . ولو أنه عالج أموره بمزيد من الحزم والتعقل ، وأبدى مزيدا من اللباقة فى المجتمع ، فلربما أصبح أكثر ثراء ، ولقد عانى فنه من ميله إلى صحبة السوقة[١٦٧] . واتفق رسكين مع مؤرخ الفن الألمانى حيث قال : « أن الفظاظة والتبلد والتجرد من التقوى تعبر دائما عن نفسها فى الألوان السمراء والرمادية ، كما هو الحال مع رمبرانت. . . . أن هدف أحسن الرسامين أن يصوروا ماتقع عليه أعينهم فى وضح النهار أو فى ضوء الشمس ، ولكن رمبرانت كان يسعى إلى رسم أقذر الأشياء التى يراها وأبشعها ــ فى ضوء شمعة »[١٦٨] . ولكن يوجين دى لاكروا الذى عكس التطورات الديمقراطية فى فرنسا قال « ربما يأتى يوم نجد فيه رمبرانت رساما أعظم من رافاييل . وأنى لأكتب الآن ــ دون تحيز ــ هذا التجديف الذى لابد سوف يسبب إنتصاب شعر الأكاديميين غضبا ودهشة[١٦٩] . وينزع النقاد اليوم إلى رفع رمبرانت فوق مرتبة رافاييل وفلاكويز ومساواته فقط بالفنان الجريكو[١٧٠] وإنا لندرك أن « الصدق » هو وظيفة الزمن وتابعه .

أية سلسلة وأية هوة من روبنز إلى رمبرانت ـ بين الضوء البهيج والظل الكئيب ، بين الهاوية والحاشية ، بين نبيل أنتورب السعيد بانغماسه فى اللهو والفجور فى وطنه فى القصور مع الملوك ، ومفلس إمستردام الذى عرف أحط الأعماق ، ولازم الحزن والأسى . إنك إذ ترى هذين الرجلين على أنهما عنصرى

طباق فى تناغم قوى ، إنما تحس بطريقة أخرى بعظمة أمه صغيرة صارعت إمبراطورية عملاقة، كما تحس بتعقيد المدنية التى استطاعت أن تنتج ،فى ناحية، ثقافة كاثوليكية تزين إبتهاج مذهبها الذى لايرق إليه الشك ، بالأساطير وأضرحتها العزيزة عليها بالفن ، وفى الناحية الأخرى ثقافة بروتستانتية استطاعت أن تغذى وتربى أعظم فنان وأعظم فيلسوف فى ذاك العصر .

الفصل التاسع عشر

ظهور دول الشمال

١٥٥٩ - ١٦٤٨

١ ـــ الدنمرك دولة عظمى :

فلنلق نظرة على الخريطة . فإن الخرائط مثل الوجوه ، هى شارات التاريخ وتوقيعاته .

عندما ارتقى فردريك الثانى العرش ١٥٥٩ كانت الدنمرك من أقوى الدول وأكثرها امتدادا فى أوربا ، ولم تكن تعلمت بعد أنه من الحذق والحكمة أن تكون صغيرة . وفى الصراع الطويل الأمد بينها وبين السويد من أجل السيطرة على التجارة بين بحر الشمال والبلطيق ، كانت الدنمرك هى المنتصرة فى بداية الأمر ، حتى امتد حكمها عبر الاسكاجراك إلى النرويج ، وعبر الكاتيجات إلى ما هو الآن جنوب السويد . واستولت على المدن الاستراتيجية كوبنهاجن وهلسينور فى الجانب الغربى ، ودالمو وهلسنبورج فى الجانب الشرقى من الأوريسوند أو السوند ـــ أى المياه العاصفة التى لا يزيد اتساعها فى مكان واحد فقط على ثلاثة أميال ونصف الميل . والتى تفصل الآن الدنمرك عن السويد . واستولت فى أقصى الشرق ، فى معظم هذه الفترة . على جزر بورنهلم وجوتلفد وأوسل ، وبذلك تحكمت فى بحر البلطيق . وكانت تضم فى الجنوب دوقتى شلزويج وهولستين ، كما حكمت فى أقصى الشمال الغربى أيسلنده وجرينلند وكانت الضرائب والرسوم التى فرضتها الدنمرك على التجارة المارة عبر المضايق بين البحار هى المصدر الأساسى لموارد المملكة والسبب الرئيسى فى حروبها .

وكانت السلطة السياسية فى أيدى ثمانمائة من النبلاء ملكوا نصف الأرض

وجعلوا من الفلاحين أرقاء ، وانتخبوا الملك ، وحكموا البلاد عن طريق الريشستاغ أو الديت الوطني (الجمعية التشريعية) والريجستاد أو مجلس الدولة . وأفادوا من حركة الإصلاح الديني بامتصاص معظم الممتلكات التي كانت تابعة للكنيسة من قبل . وفي مقابل إعفائهم من الضرائب ، كان متوقعا منهم ولكنهم رفضوا في أغلب الأحيان ، أن يسلحوا فلاحيهم ويقودوهم إلى الحرب ، إذا استفزهم الملك . ولم يحظ رجال الدين البروتستانت المحرومين من الثورة إلا بمكانة اجتماعية هزيلة ونفوذ سياسي ضئيل ، ومهما يكن من أمر فإنهم سيطروا على التعليم وأشرفوا على الأدب ، ومن ثم لم ينتج إلا لاهوتا وتراتيل . ونعم جمهور السكان . وقد بلغ عددهم نحو مليون ، بالاسراف في الطعام والشراب ، حتى لقد نصح حلاق جراح عملاءه قائلا : « إنه لمن الأفضل للناس أن يشربوا الخمر إلى حد الثمل مرة في كل شهر ، وعندي لهذا أسباب قوية ، فإنه يقويهم ويساعدهم على النوم العميق ، ويسهل التبول والتنفس ويجلب السعادة والرفاهية عامة[1] .

وظهر في هذه الحقبة شخصيتان دنمركيتان من حقهما على التاريخ أن يذكرهما : تيكوبراهي أعظم الفلكيين في هذا الجيل ، وكريستيان الرابع الذي لم يكن ملكا على الدنمرك لمدة ستين عاما (١٥٨٨ - ١٦٤٨) فحسب، بل كان يمكن كذلك أن ينتزع الناس بصرف النظر عن الأصل الملكي . وإنا لنمر مرورا عابرا بوالده فردريك الثاني لنذكر أن المهندس المعماري الفلمنكي أنطونيوس فان أوبرجر صمم له (١٥٧٤ — ١٥٧٥) حصن قصر كرونبورج في هلسينور - « السينور هملت » .

وعندما مات فردريك ١٥٨٧ كان كريستيان صبيا في الحادية عشرة ، فتولى الحكم لمدة ثمان سنوات أربعة أوصياء من النبلاء ، ثم قبض كريستيان على زمام الأمور ، وطيلة نصف القرن التالي . نعم بحياة مترفة في بذخ وحيوية ونشاط متعدد الجوانب ، مما أدهش كل أوربا ، وبز الملك توجيهات الحلاق

الجراح سالف الذكر ، لأنه كان بانتظام فى حاجة إلى من يعاونه فى العودة إلى قصره بعد أمسية صاخبة مخمورة . وبلغ دنسه وتهتكه جدا لم يتفوق عليه فيه إلا لقليل من رعاياه . وخلق عدد أولاده غير الشرعيين مشكلة فى علم المحاسبة . وغض شعبه النظر عن هذه الأخطاء العادية ، وأحبوه لأنه كان يرقص فى أعراسهم واشترك فى أعمالهم وخاطر بحياته كثيرا لخدمتهم ، وأضاف إلى هذا كله معرفته باللاتينية والعلوم ، وتذوقا مثقفا للفن ، وعقيدة دينية ميسرة لم تثر أى جدل حول الجدير وغير الجدير بالتصديق والثقة ، أو أى وخز للضمير حول المزاح والهزل . وساعد فى أوقات فرغه على أن يجعل من كوبنهاجن (مرفأ التجار) أحدى العواصم الأكثر جاذبية وفتنة فى أوربا . وضاعف برنامجه للبناء من محيط المدينة[٢] وفى عهده شيد قصر روزنبورج ، وسرعان ماقامت بعده سوق الأوراق المالية (البورصة) بواجهتها الممتدة امتدادا كبيرا ، وارتفع برجها اللولبى عاليا . وأصلح كريستيان حكومة النرويج وطور صناعتها وأعاد بناء عاصمتها التى حملت اسمه لمدة ثلاثة قرون : « كريستيانا » (سميت أوسلو ١٩٢٥) . وفى الدنمرك أصلح الإدارة ونهض بالصناعات ونظم الشركات التجارية وأسس الكليات والمدن ، ورفع من مستوى الفلاحين فى الضياع الملكية .

وأضاع الطمع بالملك ، ذلك أنه كان يراوده حلم توحيد اسكنديناوه بأسرها تحت حكم رجل واحد ، أى تحت حكمه هو . ولكن النبلاء اعترضوا بأنه من المتعذر غزو السويد ، ولم يمنحوه تأييدهم وعونهم وشن بالجنود المرتزقة أساسا حرب الكلمار على السويد (١٦١١ — ١٦١٣) . وما أن قامت حرب الثلاثين عاما حتى وجد نفسه على كره منه ، متحالفا مع السويد ، دفاعا عن قضية البروتستانت . وبرغم هذا الخطر المحدق به استأنف الحرب مع السويد (١٦٤٣) ولو أنه كان فى السابعة والستين من العمر . وقاد قواته الهزيلة فى حماسة رومانتيكية . وفى معركة كولبرج البحرية (١٦٤٤) قاتل طوال يوم كامل على الرغم من أصابته بعشرين جرحا ، وفقد أحدى عينيه ،

وأحرز نصرا مؤقتا . وثبت فى آخر الأمر أن السويد أقوى ، وحررها صلح برومسبرو ١٦٤٥ من دفع الرسوم على تجارتها فى مياه السوند ، وتخلى لها عن جوتلند وأوزل وثلاث مقاطعات فى شبه جزيرة اسكنديناوه. وعندما مات كريستيان الرابع ، بعد خمسين عاما من أعمال بناءة وحروب هدامة كانت مملكته أصغر مما كانت عليه حين اعتلى العرش . ودالت دولة الدنمرك وسطوتها .

٢ — السويد : ١٥٦٠ — ١٦٥٤

١ — المذاهب المتصارعة : ١٥٦٠ — ١٦١١ :

فيما بين جوستاف فاسا مؤسس السويد الحديثة وجوستاف أدولف منقذ البروتستانتية ومخلصها ، تلبد تاريخ السويد بسحب الصراع بين الشيع الدينية من أجل السلطة السياسية . وكان المليك (الفاسا) الأول قد حرر السويد من نير الدنمرك . ووحد البلاد تحت حكم ملكية وراثية قوية . على حين أن أوليجاركيات النبلاء ساعدت على ضعف الدنمرك وبولندة وعلى الاقطاع فيهما . وكان الفلاحون فى السويد أحراراً ، وكانوا يمثلون فى مجلس الديت (الركسداج) مع النبلاء ورجال الدين وممثلى المـــدن . وكانت لفظه بوند Bonde التى كانت تعنى فى الدنمرك الرقيق ، تعنى فى السويد لقبا كريما للرجل الحر الذى يفلح أرضه الخاصة به . ولكن المناخ كان يحد من موارد الأرض بشكل قاس ، كما كان يحد منها قلة عدد السكان . وسيطرة الدنمرك على ثلاث مقاطعات فى شبه الجزيرة الاسكنديناوية وعلى مياه السوند . وامتلأت قلوب النبلاء غيظا بسبب خضوعهم من جديد للملك ، وكانت الكنيسة قد جردت من أملاكها فى السويد ، فدأبوا على تدبير المؤمرات للاستحواذ على الشعب واسترداد أملاك الكنيسة والاستيلاء على العرش .

ولم يكن أريك الرابع عشر ـ ابن جوستاف فاسا ـ (١٥٦٠ — ١٥٦٨)

مؤهلا لمواجهة هذه المشاكل . لقد كان يتحلى بالشجاعة والمقدرة ولكن طمعه العنيف أفسد عليه دبلوماسيته ، وأدى به إلى القتل والجنون . وأثار حفيظة النبلاء بقتل خمسة من زعمائهم ، قتل هو أحدهم بيده . وواصل ضد الدنمرك « حرب السنين السبع الشمالية (١٥٦٣ — ١٥٧٠) . ومهد يغزو ليفونيا لحروب مقبلة . ونفر منه أخاه جون باعتراض سبيله فى زيجة كان يمكن أن تجعل منه وريثا لعرش بولندة ، فلما تزوج جون ، رغم أنف أخيه ، من الأميرة كاترين جاجللون ، احتجزه أريك فى قلعة جريشولم . وجاءت كاترين لتشاطر جون ويلات السجن ، وأغرته باعتناق المذهب الكاثوليكى . وفى ١٥٦٨ أرغم أريك أخوته على التخلى عن العرش . وبعد ستة أعوام قضاها فى السجن أعدم بأمر من الديت والملك الجديد .

وعقد جون الثالث (١٥٦٨ — ١٥٩٢) صلحا مع الدنمرك ومع النبلاء ، وأذكى نار الخلاف الدينى من جديد . فإن زوجته كانت تغريه فى الليل ، أكثر منها بالنهار ، باعتناق الكاثوليكية . وبإذن منه دخل الجزويت إلى السويد متنكرين ، وأخذ أقدرهم ، وهو أنطونيو بوسيفون ، على عاتقه تحويل الملك إليها ، وكان وخز الضمير قاسيا كلما تذكر جون موافقته على قتل أخيه ، وأن عذاب النار هو العقاب الذى لامفر منه لخطيئة مثل هذه . ولكن بوسيفون أغراه بأنه لا منجاة من هذا الجحيم الذى ينتظره إلا بالاعتراف وطلب الغفران فى الكنيسة التى يعتقد الناس جميعا بأن السيد المسيح هو الذى أقامها . وأذعن جون وتناول القربان المقدس وفق الطقوس الكاثوليكية ، ووعد بأن يجعل الكاثوليكية دين الدولة شريطة أن يرخص البابا لرجال الدين السويديين فى الزواج ، وأن يقام القداس باللغة الوطنية ، وأن يقدم القربان المقدس بالنبيذ والخبز على السواء . وقصد بوسيفون إلى رومه ولكن البابا رفض الشروط . فعاد الجزويتى صفر اليدين . وأصدر جون أوامره إلى الجزويت بتناول القربان بكلا نوعية وبتلاوة القداس باللغة السويدية فرفضوا ورحلوا . وماتت كاترين الكاثوليكية فى ١٥٨٤ . وبعد ذلك بعام واحد

تزوج جون من سيدة بروتسانتية ردته ثانية إلى المذهب اللوثرى ، فى الليل أكثر منها بالنهار .

وفى أغسطس انتخب إبنه الكاثوليكى لعرش بولندة تحت إسم سجسمند الثالث . ووفقا لقانون كالمر اتفق الوالد والولد على أنه بعد وفاة جون يصبح سجسمند ملكا على بولندة والسويد معا . ولكن سجسمند آلى على نفسه أن يحترم أستقلال السويد السياسى والمذهب البروتستانتى . وعند وفاة جون (١٥٩٢) انعقد مجلس الديت تحت رياسة أخيه الدوق شارل فى مدينة أبسالا (٢٥ فبراير ١٥٩٣) وكان يضم ٣٠٠ من رجال الدين و ٣٠٠ من العلمانيين — النبلاء وممثلو المدن وعمال المناجم والفلاحين ، واتخذ مذهب أوجزبرج اللوثرى ١٥٤٠ مذهبا رسميا للكنيسة والدولة فى السويد . وأعلن هذا المجتمع التاريخى (مجمع أبسالا) أن الأمة لن تتقبل غير اللوثرية ولن تتسامح مع غيرها ، وألا يعين فى المناصب الكنسية أو السياسية إلا اللوثريون الأقحاح وألا يتوج سجسمند فى السويد إلا بعد قبوله لهذه المبادىء . وفى الوقت نفسه اعترفوا بالدوق شارل نائبا للملك عند غيابه عن العرش .

ولكن سجسمند الذى تلقى تعليمه على أيدى الجزويت ، كان يحلم بضم السويد وروسيا إلى حظيرة الكثلكة . ولما وطأت قدماه أرض ستوكهلم (سبتمبر ١٥٩٣) وجد كل الزعماء السويديين تقريبا مجمعين على طلب أوثق ضمان لإمتثاله لإعلان أبسالا . وظل خمسة أشهر يبحث عن حل وسط ، ولكن الزعماء بقوا على عنادهم ، وجمع الدوق شارل جيشا . وأخيرا أعطى سجسمند التعهد المطلوب ، وتوجه أسقف لوثرى فى أبسالا (فبراير ١٥٩٤) . ولكن سرعان ما أصدر سجسمند بيانا احتج فيه بأنه أكره على هذا التعهد تحت الضغط والتهديد ، وعين ستة من كبار الموظفين لحماية الكاثوليك الباقين فى السويد ، وفى أغسطس عاد أدراجه إلى بولنده .

وأعد الدوق شارل وأنجرمانوس رئيس أساقفة أبسالا العدة لتنفيذ

قرارات المجمع . ودعا مجلس الديت فى سودر كوبنج (١٥٩٥) إلى القضاء على كل عبادة كاثوليكية ، ونفى كل الطوائف المعارضة للمذهب البروتستانتى ، وأمر بأن يضرب بالعصا كل من يتخلف عن حضور الصلوات اللوثرية ، ووقع هو العقوبة بنفسه عند زيارته للكنائس[٣] . وأغلق كل ما بقى من الأديار ، وأزيلت كل الأضرحة الكاثوليكية .

وتوسل إلى سجسمند مستشاروه أن يغزو السويد بجيش كبير . ورأى هو أن خمسة آلاف جندى تفى بالغرض . وحط رحاله بهم فى السويد (١٥٩٨) واشتبك معه شارل فى ستجبرج فهزم . وفى اشتباك آخر فى ستانجبرو انتصر الدوق . ووافق سجسمند من جديد على إعلان أبسالا وعاد إلى بولنده . وفى يولية ١٥٩٩ خلعه الديت السويدى ، وأصبح الدوق شارل الذى ما زال نائبا للملك ، الحاكم الفعلى للدولة . وأقر مجلس الديت (١٦٠٤) قانون الوراثة الذى نص على ألا يتولى العرش إلا كل ذكر أو أنثى من أسرة فاسا يرتضى العقيدة اللوثرية المقررة وأن كل مخالف لها لا يحق له الإقامة أو التملك فى السويد . « فكل أمير ينحرف عن مبادىء أوجزبرج لابد بطبيعة الحال أن يفقد تاجه[٤] » ، ومن ثم كان الطريق معبدا لاعتلاء جوستاف أدولف ابن شارل عرش السويد ، ولتخلى حفيدته كريستينا . وفى ١٦٠٧ توج شارل التاسع ملكا .

وأصلح شارل الحكومة المختلة ، ونهض بالتعليم والتجارة والصناعة ، وأسس مدن كارلستاد فيلبستاد وماريستاد وجوتبورج ، وهيأت هذه الأخيرة للسويد منفذا طيبا إلى بحر الشمال ، متغلبة بذلك على سيطرة الدنمرك على المضايق . وأعلن كريستيان الرابع الحرب (أبريل ١٦١١) وغزا السويد . وتحدى شارل ، وهو فى الحادية والستين من العمر ، كريستيان لمبارزة فردية . فرفض هذا الأخير . ومات شارل فى أكتوبر ١٦١١ ، والقتال على أشده ، ولكن قبل موته وضع يده على رأس ابنه وقال « أنت لها » . وقد كان لها فعلا[٥] .

٢ — جوستاف أدولف ١٦١١ — ١٦٣٠ :

وكان أعظم شخصية رومانتيكية فى تاريخ السويد ، وهو فى سن السادسة عشرة آنذاك . وكانت أمه ألمانية ، ابنة الدوق أدولفوس هولتين جوتورب . ولقنه أبوه وأمه تعليما صارما فى اللغتين السويدية والألمانية وفى المذهب البروتستانتى . وما أن بلغ الثانية عشرة حتى كان قد درس اللاتينية والإيطالية والهولندية . والتقط بعد ذلك شيئا من الإنجليزية والأسبانية ، بل حتى البولندية والروسية ، وأضيف إلى هذا كله جرعة قوية من الأدب القديم انسجم مع تدريبه فى الألعاب الرياضية والشئون الغامة وفنون الحرب وبدأ فى سن التاسعة يشهد جلسات الديت ، واستقبل السفراء فى الثالثة عشرة وفى الخامسة عشرة حكم إحدى المقاطعات ، وفى السادسة عشرة اشترك فى القتال . وكان طويل القامة وسيما دمثا كريما رحيما ذكيا ، باسلا . وماذا يتطلب التاريخ أكثر من هذا فى الرجل ؟ وكانت له فى السويد شعبية عارمة إلى حد أن أبناء النبلاء الذين أعدمهم شارل التاسع بتهمة الخيانة ، سارعوا طائعين مختارين إلى خدمته .

ولم تبرز فى جوستاف أدولف نزعة آل فاسا إلى المزاج الفردى والعنف ولكنها برزت فى حبه للحروب . لقد ورث عن أبيه حرب الكلمر ضد الدنمرك ، فشن الحرب عليها فى حماسة بالغة ولكنه أحس بأن هذه الحرب تسلك سبيلا بعيدا عن الرشاد والسداد ، فدفع للدنمرك فى ١٦١٣ مليون طالير (عملة ألمانية قديمة — ١٠ مليون دولار) مقابل السلام بينهما ومقابل حرية السفن السويدية عبر المضايق ومياه السوند . وفى هذه المرحلة من نشاطه كان مهتما بإبعاد روسيا عن البلطيق ، فكتب إلى أمه يقول : « إذا أدركت روسيا قوتها فى أية لحظة ، فإنها لا تستطيع اجتياح فنلندة (وكانت آنذاك جزءا من السويد) من الجانبين فحسب ، بل تستطيع كذلك حشد أسطول فى البلطيق ، يعرض أرض الأجداد للخطر[٦] فأرسل أعظم قواده دهاء — جاكوب

دى لاجاردى — ليغزو انجريا ، وفى ١٦١٥ حاصر بنفسه بسكوف . وكانت المقاومة الروسية مرهقة ولكن بالتهديد بالتحالف مع بولنده ، استطاع جوستاف أن يقنع القيصر ميكائيل رومانوف بعقد صلح (١٦١٧) يعترف بسيطرة السويد على ليفونيا واستونيا وشمال غربى انجريا ، بما فى ذلك لننجراد الحالية . وسدت بذلك منافذ البلطيق أمام روسيا . وكان جوستاف يفخر بأن روسيا لا تستطيع تسيير سفينة واحدة فى البحر دون إذن من السويد .

ثم ولى وجهه شطر بولنده حيث كان مليكها سجسمند الثالث لا يزال يطالب بعرش السويد . وكانت الكاثوليكية آنذاك منتصرة فى بولندة ، ومتلهفه على فرصة تسنح للسيطرة على السويد ، وفوق ذلك كانت بولندة بما لها من ثغور قوية فى دانزج وممل وليبو وريغا . منافسا أقوى من روسيا ، فى السيطرة على البلطيق والتحكم فيه . وفى ١٦٢١ قاد جوستاف ١٥٨ سفينة و ١٩ ألف جندى لحصار ريغا التى كان يمر بها ثلث صادرات بولنده ، وكانت غالبيه سكانها من البروتستانت ، وقد لا يستاءون من غزو سيد أجنبى لها . فلما استسلمت دون مقاومة ، عاملها جوصتاف فى رفق ولين ليضمن وقوفها إلى جانبه ، وفى أثناء الهدنة التى استمرت ثلاث سنوات مع بولنده ، استطاع هو أن يقوى روح جيشه وضبطه ونظامه ، وجعل - مثل معاصره كرومويل - من التقى والورع أداة للخلق العسكرى . ودرس فن موريس ناسو العسكرى ، وتعلم كيف يمكن كسب المعارك بسرعة الحركة وبالاستراتيجية البعيدة النظر . واستقدم من هولندة خبراء فنيين ليعلموا رجاله تكتيك الحصار واستخدام المدفعية . وفى ١٦٢٥ عبر البلطيق مرة ثانية واستولى على دوربات ، وثبت سيطرة السويد على ليفونيا ، وأوصد البلطيق تماما فى وجه لتوانيا . وبعد سنة أخرى أخضعت جيوشه بروسيا الشرقية والغربية ، وكانتا خاضعتين للتاج البولندى . ولم تصمد سوى دانزج . وصارت الأقاليم المفتوحة مقاطعات سويدية ، وطرد منها الجزويت . وجعلت للوثرية المذهب الرسمى . وكانت

أوربا البروتستانتية ترنو إلى جوستاف ، على أنه منقذها المنتظر فى الحرب الكبرى التى كانت تجتاح ألمانيا آنذاك .

وفى أوقات السلم واجه جوستاف مشكلات الإدارة الداخلية بذكاء وحنكة أقل منهما فى الحرب . وكان أيام غيابه فى المعارك يعهد بحكومة البلاد إلى النبلاء وكان يبيح لهم ، ضمانا لولائهم ، احتكار المناصب وشراء أراضى التاج الشاسعة لقاء ثمن زهيد . ولكنه وجد فسحة من الوقت لتثبيت دعائم الموارد المالية وإعادة تنظيم المحاكم والخدمات البريدية والمستشفيات وتحسين أحوال الفقراء . وأسس المدارس المجانية وجامعة دوربات ، وأغدق بسخاء على جامعة أبسالا ، ونهض بالتعدين وعلم المعادن . ولم يكن نجاحا يسيرا ، من بين ما حققه من نجاح فى مجالات مختلفة ، أن السويد توافرت فيها الموارد والخبرات والمهارة لصناعة الأسلحة . وشجع التجارة الأجنبية عن طريق منح الاحتكارات ، ومنح شركة البحار الجنوبية السويدية امتيازا . وروع وزيره أوكسنستيرنا ، الذى عرف بهدوئه فى مواجهة الأزمات ، بطاقة مليكه ونشاطه فقال : « إن الملك يشرف على المناجم والتجارة ، والصناعات والجمارك ويوجهها كما يدير موجه الدفة سفينته[٧] » ، وتوسل إلى جوستاف أن يخفف من نشاطه ، فأجابه الملك بقوله : « لو كنا جميعا فى مثل برودتك لتجمدنا » ، فرد عليه الوزير بقوله « ولو كنا جميعا فى مثل حرارة جلالتكم لاحترقنا[٨] » .

وكان الآن لزاما أن تندس الحمى المدمرة التى تضطرم بين جنبى الفارس السويدى إلى « حرب الثلاثين » ، فقد قال : « إن كل حروب أوربا يعلق بعضها ببعض[٩] » ، وكان قد لحظ بقلق بالغ انتصارات ولنشتين وتقدم جيوش آل هبسبرج فى شمال ألمانيا وانهيار مقاومة الدنمرك ، وتحالف بولنده مع النمسا ، وهما كاثوليكيتان ، ومن ثم فسرعان ما قد تسعى قوات آل هبسبرج إلى السيطرة على البلطيق . وبذلك قد تصبح تجارة السويد وعقيدتها وحياتها تحت رحمة الإمبراطورية والبابوية . وفى ٢٠ مايو ١٦٢٩ أرسل جوستاف إلى مجلس الديت السويدى تحذيرا من خطط ولنشتين فى أن يجعل من البلطيق

بحيرة يتحكم فيها آل هبسبرج . وأوصى بالهجوم على أنه خير وسيلة للدفاع ، وأهاب بالأمة أن تهب لمساندته وتمويل دخوله فى معركة فاصلة (هر مجدون = سهل مجدو — العهد الجديد رؤيا يوحنا ١٦ : ١٦ — معركة فاصلة بين الخير والشر) تحدد مصير المذاهب اللاهوتية . وكانت السويد مثقلة فعلا بأعباء حملاته ، ولكن مجلس الديت والشعب إستجابا لندائه وبمعونة ريشليو أقنع بولنده بعقد هدنة مدتها ست سنوات (سبتمبر ١٦٢٩) . وقضى تسعة شهور فى جمع السفن والمؤن والجنود والحلفاء . وفى ٣٠ مايو ١٦٣٠ خطب فى الديت خطبة وداع مؤثرة بليغة ، وكأنما كان قلبه يحدثه بأنه لن يرى السويد ثانية . وفيما بين ٢٦ — ٢٨ يونية ألقت سفنه مراسيها على جزيرة على مسافة من شواطىء بوميرانيا ، وأنطلق جوستاف إلى ساحة المجد والموت معا .

٣ — الملكة كريستينا ١٦٣٢ — ١٦٥٤ :

عين جوستاف ، عندما كانت ابنته وريثة عرشه طفلة فى الرابعة — واحدا من أقدر رجال الدولة والسياسة فى هذا العصر الزاخر بالعباقرة . هو الكونت أكسل أوكسنسترنا، وصيا .وقد وصفته كريستينا فيما بعد بقولها: « لقد درس وتعلم كثيرا فى شبابه ، ودأب على الدرس فى زحمة العمل . وكانت قدرته ومعرفته بشئون العالم وأحواله عظيمتين جدا . وعرف مواطن القوة والضعف فى كل دولة فى أوربا . وكان طموحا ، ولكنه كان كذلك مخلصا غير قابل للافساد أو الرشوة ، ومن ناحية أخرى بطىء متوان بارد المزاج لايبالى ، إلى حد كبير »[١٠] . وعرف عن الكونت أنه «صموت» ، وأما عدم إفصاحه عن شىء . حتى وهو يتحدث، فهذا هو نصف فى الدبلوماسية. وعلى مدى عامين حكم الكونت السديد حكما صالحا حين كان الملك جوستاف يخرج للحرب فى أماكن بعيدة.ثم ، بوصفه وصيا على كريستينا، وجه جيوش السويد فى ألمانيا ، كما أدار دفة الأمور فى الداخل ، ولم تنعم أية دولة فى أوربا طيلة هذه الأعوام الاثنى عشر بحكومة أفضل من حكومة السويد .وفى ١٦٤٣ صاغ مايعرف « بشكل الحكومة » حدد فيه تشكيل كل فرع فى الإدارة وصلاحياته وواجباته . وهذا هو أقدم نموذج معروف لدستور مسطور .

وفى ١٦٤٤ أحست كريستينا ، وهى الآن فى ربيعها الثامن عشر ، أنها قادرة على حكم هذه الأمة الشديدة الحساسية النابضة بالحياة ، والتى بلغ عدد سكانها المليون ونصف المليون من الأنفس . والحق أنها تحلت بكل قدرات ومواهب رجل ذكى مبكر النضج . وقالت هى عن نفسها : « خرجت إلى الحياة وكل سلاحى شعرى ، وكان صوتى قويا خشنا ، مما جعل النساء يفكرن أنى صبى ، وعبرن عن فرحهن بهتافات ضللت الملك فى أول الأمر[11] » . وقابل جوستاف نبأ اكتشاف أنها أنثى فى رجولة مهذبة ، وأحبها حبا عميقا حتى بدا أنه راض عن أن تكون هى وريثة سلطانه وعرشه . على حين أن أمها ماريا اليونورا أوف براندنبرج لم تغفر لها قط كونها أنثى . وربما أسهم استياء الأم فى أن كريستينا صارت أكثر شبها بالرجل قدر ما كان يسمح لها جسمها وتكوينها بذلك ، فأهملت شخصها عن عمد ، واحتقرت التزين ، وأقسمت كما يقسم الرجال ، وأحبت أن تتزيى بزيهم ، واعتادت على ألعابهم ، وركبت منفرجة الساقين بأقصى سرعة ، واصطادت فى تهـــور واندفاع ، وجندلت فريستها من أول طلقة . ولكنها كانت تقول : لم أقتل مرة حيوانا إلا وأحسست بالشفقة نحوه[12] » .

وعلى الرغم من هذا كله ، تجلت فى كريستينا بعض مفاتن النساء . وفى ١٦٥٣ كتب بيرهيوت الذى أصبح فيما بعد أسقف آفرانش يقول : « وجهها دقيق جميل ، وشعرها ذهبى وعيناها براقتان ... يرتسم التواضع على وجهها ، ويبدو عندما تحمر وجنتاها خجلا لدى سماع أية لفظة نابية[13] » . وقال قسيس الاعتراف الجزويتى لدى السفير الأسبانى : « ولم تكن تطيق فكرة الزواج ، لأنها ولدت حرة طليقة ، ولسوف تموت حرة طليقة كذلك[14] » . ويبدو أنها كانت تحس أن الاتصال الجنسى ليس بالنسبة للمرأة إلا ضربا من المذلة والهوان . ولا ريب فى أنها أدركت — كما أدركت اليزابث ملكة انجلترا ، أن زوجها لابد أن يطمع فى أن يكون ملكا . وكانت تعى أخطاءها بشكل بالغ الحساسية وتعترف بها فى شجاعة وجرأة . « كنت قليلة الثقة بالناس ،

شكاكة طموحة إلى حد الافراط ، حادة الطبع ، نفورة مغرورة ، مزدرية للناس ، هجاءة ، لم أرحم أحدا ، مفطورة على الشك ، قليلة التعصب أو التحمس للدين[١٥] ، ولكنها كانت كريمة إلى حد الإسراف ، مخلصة فى عملها . ويقول القسيس الجزويتى «كانت لا تنام أكثر من ثلاث أو أربع ساعات ، فإذا استيقظت قضت خمس ساعات فى القراءة . ولم تشرب قط إلا الماء القراح ، ولم تسمع قط تتحدث عن طعامها أهو جيد أم ردىء الطهى ... وكانت تحضر إلى مجلسها بانتظام ... وانتابتها الحمى مرة لمدة ثمانية وعشرين يوما لم تهمل فيها قط شئون الدولة ... واتصل السفراء بها وتعاملوا معها مباشرة ، فلم يمروا قط يوما على سكرتير أو وزير[١٦] » .

ولم تتطلع إلى أن تنافس الشبان فى ألعابهم ورياضتهم ، ورجال البلاط فى مجال السياسة فحسب ، بل أنها أرادت كذلك أن تنافس العلماء فى علمهم ، لا فى اللغات والآداب وحدها ، بل فى العلوم والفلسفة أيضا . وما أن بلغت الرابعة عشرة حتى كانت قد درست الألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية وفى الثامنة عشرة درست اللاتينية ، وبعد ذلك بقليل اليونانية والعبرية والعربية ، وقرأت للشعراء الفرنسيين والإيطاليين وأحبتهم ، وحسدت فرنسا على مدنيتها التى تفيض حيوية ونشاطا ومرحا . وراسلت فى لهفة وحماسة ، الباحثين ، ورجال العلم والفلاسفة فى عدة بلاد ، وجمعت مكتبة ضخمة تضم مخطوطات قديمة نادرة ، هرع الطلبة للرجوع إليها والتزود منها من كل حدب وصوب . وعند وفاتها تأثر الخبراء بذوقها الرفيع الذى تجلى فى اقتناء اللوحات والتماثيل والقطع الفنية المزخرفة بالمينا والمنقوشة على الخشب والمعدن ، والتحف الأثرية . لقد جمعت العلماء ، كما جمعت روائع الفن . وتاقت إلى رؤية العلماء والنقاد والمفكرين يحيطون بها ، وجذبت إلى بلاطها كاوديوس سالما سيوس وايزاز فوسيوس . وهوجو جروشيوس ونيقولا هنسيوس ، وأجزلت لهم العطاء فى سخاء . ومن لم يستطع منهم الحضور أرسلوا إليها كتبهم مع شكرهم وتقديرهم — مثل سكارون وجى دى بلزاك ومد موازيل

دى سكود يرى . أما ملتؤن الوقور فإنه ـ على حين كان يشن هجوما عنيفا على سالما سيوس سالف الذكر ـ صرح بأنها « صالحة لحكم العالم بأسره ، لا أوربا وحدها [١٧] » . وأرسل إليها بسكال آلته الحاسبة مع رسالة بالغة الرقة يهنئها ويمتدحها بأنها متربعة على عرش مملكة العقل والحكم معا [١٨] » .

وكان غرامها شديدا بالفلسفة ، وراسلت جاسندى ، الذى هنأها ـ كما هنأها مائة غيره ، بأنها حققت حلم أفلاطون فى وجود ملوك فلاسفة . وجاء فيلسوف العصر المشهور ، رينيه ديكارت ، ورأى ، وعجب إذ سمعها تستنتج أفكاره الأثيرة لديه عن أفلاطون [١٩] . فلما حاول أن يقنعها بأن كل الحيوانات آلات ، ردت عليه بقولها أنها لم تر قط ساعة يدها تلد ساعات « أطفالا [٢٠] » أى ساعات صغيرة . ومثل هذا كثير فيما بعد .

ولم تهمل كريستينا المواهب المحلية . فقد كانت السويد متعددة جوانب الثقافة الحقة . فكان جورج ستجرنهلم عالما لغويا . متضلعا فى القانون ، من رجال العلوم ، رياضيا ، مؤرخا ، فيلسوفا ، أبا للشعر السويدى . ومركزا للحياة العقلية فى هذا العصر . وأعجبت به جوستاف أدولف فرفعه إلى مرتبة النبلاء . وعينته كريستينا شاعر البلاط ، حتى لحق بأعدائها [٢١] .

وفتنت بنظريات جون كومنيوس فى التربية ، فاستقدمته إلى ستوكهلم ليصلح نظم التعليم فى السويد . ومثلما فعلت إليزابيث بالنسبة لأكسفورد وكمبردج ، زارت كريستينا جامعة أبسالا لتشجع بحضورها الأساتذة والطلبة ، واستمعت إلى سترنهلم وغيره يحاضرون فى النص العبرى للتوراة . وشادت كلية فى دوريات وأهدتها مكتبة ، وأسست ست كليات أخرى . وطورت إلى جامعة ، الكلية التى كان أبوها قد أسسها فى آبو (توركو) فى فنلنده . وأرسلت الطلبة للدراسة فى الخارج ، وبعثت بنفر منهم إلى شبه جزيرة العرب ليدرسوا علوم الشرق . واستقدمت بعض الهولنديين المشتغلين بالطباعة ليؤسسوا دارا للنشر فى ستوكهلم . وشجعت رجال العلم السويديين على الكتابة باللغة

الوطنية ، حتى ينتشر العلم بين أفراد الشعب . ولا نزاع فى أنها كانت من أعظم الحكام المستنيرين فى التاريخ .

وهل وهبت هذه الملكة عقلا خاصا بها ، أم أنها كانت مجرد وعاء لا يميز تتدفق فيه كل التيارات العقلية والفكرية التى تدور حولها ؟ لقد انعقد الاجماع عن أنها فيما يتعلق بالحكومة كانت تتصرف بمحض تفكيرها ، وصنعت قراراتها بنفسها ، وحكمت وملكت سواء بسواء[٢٢] . وسنرى فى فصل لاحق كيف أنها اعترضت على سياسة أوكسنسترنا العسكرية ، وكافحت من أجل السلام ، وساعدت على انهاء حرب الثلاثين عاما . أن قصاصات مذكراتها فاتنة مفعمة بالحيوية ، وليس فى الحكم والأمثال التى تركتها بخط يدها شىء مبتذل ، ومثال ذلك :

إن قيمة المرء على قدر مايستطيع أن يحب .

ويجدر أن نخشى الحمق البلهاء أكثر مما نخشى الأوغاد .

إنك تسىء إلى الناس إذا لم تخدعهم .

المواهب الخارقة جريمة لا تغتفر .

هناك نجم يوحد بين الناس من الطراز الأول ، رغم أن العصور والمسافات تفرق بينهم .

أن الزواج ليحتاج إلى شجاعة أكثر مما تحتاج الحرب .

إن المرء ليرتفع فوق كل شىء إذا لم يخشى شيئا ، ولم يحسب لأى شىء حسابا .

إن الذى يغضب من الدنيا أشبه بمن تعلم كل ماتعلم دون هدف أو غاية .

إن الفلسفة لا تغير الناس ولا تصلحهم[٢٣] .

وأخيرا ، وبعد اختبار عدد من الفلسفات ، وربما بعد أن امتنعت عن أن تكون مسيحية ، أصبحت كريستينا كاثوليكية أنها متهمة بأنها رضعت

لبان الالحاد والكفر من طبيبها بورديلوت[٢٤] . وذهب مؤرخ سويدى — وكرر فولتير قوله[٢٥] — إلى أن تحولها إلى الكثلكة كان تمثيلية هزلية مقصودة ، وبناء على هذه النظرية ، تكون كريستينا قد انتهت إلى النتيجة التى تقول بأنه مادامت الحقيقة شيئا لا يمكن معرفته أو الوصول إليه ، فللمرء أن يختار الديانة التى تستهوى قلبه وتتفق مع فكرة الجمال أكثر من غيرها[٢٦] ، وتوفر أكبر قدر من الطمأنينة للناس . ولكن الارتداد إلى الكاثوليكية رد فعل صادق مخلص بعد التشكك المفرط ، فقد يحفر التصوف جذوره فى أعماق الشك . لقد كان فى كريستينا عناصر صوفية خفية ، فكل مذكراتها موجهة إلى الله فى إخلاص بالغ . إن الإيمان ثوب واق . وإن التجرد الكامل منه ليترك الإنسان فى حالة عرى فكرى يتطلع إلى الكساء والدفء . وأى ثوب أدفأ من كاثوليكية فرنسا وإيطاليا الحسية النابضة بالحياة ؟ وتساءلت الملكة : « كيف يكون المرء مسيحيا دون أن يكون كاثوليكيا[٢٧] ؟ » .

وفكرت كريستينا مليا فى هذه المسألة وفى المضاعفات التى ينطوى عليها ارتدادها فإنها إن تركت اللوثرية ، فلابد لها ، بمقتضى قوانين مملكتها ووالدها الحبيب — أن تتخلى عن عرشها ، وأن تغادر بلادها كذلك . وأية نكسة مروعة يكون هذا التحول فى العقيدة لدفاع والدها البطولى عن أوربا البروتستانتية ، ولكنها ضاقت ذرعا ولاقت نصبا من واجباتها الرسمية ومن خطب الوعاظ والمستشارين الرنانة ، ومن الثالوث المتحذلق من العلماء والأثريين والمؤرخين . وربما تعبت منها السويد وضاقت بها ذرعا كذلك . وقد أفقرها وهبط بمواردها تخليها من أراضى التاج وهداياها وهباتها السخية لذوى الحظوة لديها والقريبين منها . وتكتلت أغلبية النبلاء ضد سياستها . وفى ١٦٥١ كان ثمة هبة توشك أن تكون ثورة . ولكن زعماءها أعدموا على عجل[٢٨] . ولكنها خلقت وراءها امتعاضا شديدا ، ولكن انتابها المرض آخر الأمر ، لقد أضرت هى بصحتها . وربما كان السبب فى ذلك كثرة العمل والدرس .

وكم من مرة أصابتها الحميات الخطيرة ، مصحوبة بأعراض التهاب الرئتين . وكم من مرة غشيتها اغماءة ، وظلت فاقدة الوعى لمدة ساعة . واشتد عليها المرض فى ١٦٤٨ فقالت أنها « أقسمت أن تتخلى عن كل شيء وتصبح كاثوليكية إذا برئت من سقامها وحفظ الله لها حياتها[٢٩] » . إنها كانت إبنة البحر المتوسط فارتعدت فرائصها من برد الشمال القاسى فى الشتاء ، وتاقت نفسها إلى سماء ايطاليا ومنتديات فرنسا . فكم يكون جميلا أن تلحق بالنساء المثقفات اللائى بدأن مهمتهن الفذة فى رعاية الحياة الفكرية والعقلية فى فرنسا ، إذا استطاعت أن تحمل معها ثروة كافية !!

وفى ١٦٥٢ بعثت سراً إلى رومة بأحد الملحقين فى سفارة البرتغال ليطلب قدوم بعض الجزويت ليناقشوا معها اللاهوت الكاثوليكى، فجاءوا متنكرين. ولكن فت فى عضدهم وثبط من همتهم بعض الأسئلة التى وجهتها إليهم — هل يوجد إله حقا ، هل تبقى الروح بعد فناء الجسم ، وهل ثمة تمييز بين الصواب والخطأ إلا عن طريق المنفعة . فلما أوشكوا على الرحيل — يأسا — هدأت من روعهم بقولها « ماذا ترون لو أنى كنت أقرب إلى أن أصبح كاثوليكية مما تظنون ؟ » وقال أحد الجزويت تعقيبا على ذلك « فلما سمعنا هذا أحسسنا بأننا بعثنا من مرقدنا[٣٠] » .

وكان اعتناق الكثلكة قبل التخلى عن العرش أمرا محظورا قانونا . ولكنها رغبت قبل التخلى عن العرش ، فى الحفاظ على الطابع الوراثى للملكية السويدية ، عن طريق إقناع الديت بالتصديق على اعتبارها لإبن عمها شارل جوستاف . خلفا لها . ولكن طول المفاوضات أجل نزولها عن العرش حتى ٦ يونيه ١٦٥٤ . وكان الاحتفال الأخير مؤثرا قدر ما كان تخلى شارل الخامس عن العرش مؤثرا قبل ذلك بتسعين عاما . فإنها نزعت التاج عن رأسها ، وطرحت كل الشارات الملكية ، وخلعت العباءة الملكية ، ووقفت امام الديت فى ثوب بسيط من الحرير الأبيض ، وودعت بلدها وشعبها بخطاب فجر

بالدموع عيون النبلاء العجائز الرابطى الجأش ، ويمثلى المدن القليلى الكلام، ووفر لها المجلس الموارد للمستقبل . وأباح لها الاحتفاظ بحقوقها الملكية على حاشيتها .

وغادرت ستوكهلم عند الغسق ، بعد خمسة أيام من تخليها عن العرش . وتوقفت فى نيكوبنج لزيارة أخيرة لأمها . ثم مضت فى طريقها ، ولما لم تذق طعم النوم لمدة يومين ، فإنها مرضت بذات الجنب ، فلما برئت تابعت المسير إلى هامستاد . وهناك كتبت إلى جاسندى ، بأنها تمنحه معاشا وتبعث إليه بسلسلة ذهبية . وفى اللحظة الأخيرة تلقت عرضا بالزواج من الملك شارل العاشر الذى توج حديثا ، فرفضت فى عطف وكياسة وتنكرت فى زى رجل تحت اسم كونت دونا ، وركبت البحر إلى الدنمرك ، دون أن تدرى أنها لمدة خمس وثلاثين سنة أخرى ستلعب دورا فى التاريخ .

٣ — بولنده تكفر عن ذنبها : ١٥٦٩ — ١٦٤٨ :

فى هذا العصر عقدت بولندة أيضـــا أواصر السلام مع الكنيسة الكاثوليكية . وقد يكون من المفيد أن نرى كيف استردت الكاثوليكية بسرعة فى هذه المملكة تقريبا كل ما كانت قد فقدته من مكانة فى حركة الاصلاح الدينى، ولكن فلنمر أولا مرورا عابرا، كالمعتاد ، بالخلفية السياسية لهذا التطور الثقافى .

١ — الدولة :

تبدأ الفترة بحدث بارز تم إنجازه فى فن الحكم . كانت دوقية لتوانيا الكبيرة تقع إلى الجنوب الشرقى من بولندة ، يحكمها أدواقها ، وتمتد من البلطيق عبر كييف وأوكرانيا إلى أودسا والبحر الأسود . وكان نمو قوة روسيا يعرض استقلال لتوانيا للخطر . وعلى الرغم من توافق عقيدتها

الأرثوذكسية اليونانية إلى حد كبير مع ديانة روسيا ، فإنها أقرت كارهة أن الاندماج مع بولندة الكاثوليكية قد يكون أفضل للحفاظ على حكمها الذاتى من معانقة الدب الروسى . وميز سجسمند الثانى عهده بتوقيع « اتحاد لوبلين » التاريخى (١ يولية ١٥٦٩) . واعترفت لتوانيا بملك بولندة « دوقا أعظم » عليها . وبعثت بمندوبين أو ممثلين لها إلى البرلمان فى وارسو ، وارتضت أن يكون لهذا البرلمان حق السيطرة على علاقاتها الخارجية ، ولكنها احتفظت بعقيدتها وقوانينها وحق التصرف فى شئونها الداخلية . واتسعت أطراف بولندة وبلغ عدد سكانها الآن إحدى عشر مليونا من الأنفس ، من دانزج إلى أودســـا ، ومن البحر إلى البحر . فكانت إحدى الدول العظمى دون منازع .

وبموت سجسمند الثانى دون عقب ذكر (١٥٧٢) انتهت أسرة « جاجللون » التى كانت قد بدأت فى ١٣٨٦ ، وهيأت لبولندة خطا متصلا من ملوك اتسموا بالخلق والإبداع ، وحضارة قامت على التسامح الدينى واستنارة قوامها الروح الانسانية . وكان النبلاء يكرهون الملكية الوراثية . على أنها إهدار لحقوقهم وحرياتهم الاقطاعية ، فاستقر عزمهم الآن على الاحتفاظ بالسلطة فى أيديهم عن طريق ملكية انتخابية ، فأسسوا جمهورية من النبلاء وجعلوا ملوك بولندة القادمين خدما أو أتباعا للبرلمان . ولما لم يكن البرلمان يضم كبار النبلاء أو الأعيان فحسب ، بل كان يضم كذلك صغار النبلاء ، فقد بدا أن هذه الخطة تحقق المثل الأعلى لأرسطو فى حكومة تمتزج فيهـــا العناصر الملكية والأرستقراطية والديمقراطية ، فى قيود وضوابط متبادلة . ومهما يكن من أمر ، فإن الدستور الجديد ، فى نطاق ذاك العصر ، لم يكن يعنى إلا انتكاسة إقطاعية ، تفتيت السلطة والزعامة ، على حين كانت منافستا بولندة فى البلطيق — السويد وروسيا — تنصهران فى وحدات عسكرية بفضل الملكيات الوراثية التى كان يحق لها أن تفكر على اساس الأجيال . وبات انتخاب الملك الآن فى بولندة مزادا لأصوات النبلاء تعطى لمن يدفع أكثر من بين المرشحين

الذين تمولهم ، عادة الدول الأجنبية . وبذلك استطاع عملاء فرنسا بتوزيع العطايا والأموال باليمين وبالشمال ، شراء تاج بولندة المنحل المنحرف هنرى فالوا (١٥٧٣) ليعيدوه بعد ذلك بعام واحد ليحكم فرنسا حكما سيئاً فاسداً تحت اسم هنرى الثالث .

وأصلح مجلس الديت الذى يتولى الإنتخاب خطأه ، بعد فترة خلا فيها العرش وعمت الفوضى ، باختياره ستيفن باثورى ملكا (١٥٧٥) . وكان ، بوصفه أميراً على ترنسلفانيا ، قد اشتهر بالفعل فى مجال السياسة وميدان الحرب وكان عملاؤه فى وارسو قد وعدوا بأنه سيسدد ،إذا انتخب، الدين الوطنى، ويمد الخزانة بمائتى ألف فلورين . ويسترد الأراضى التى كانت بولندة قد نزلت عنها لروسيا ، ويضحى بحياته فى ميدان القتال ، إذا اقتضى الأمر من أجل شرف بولندة ومجدها ، ومن ذا الذى يستطيع أن يقف فى سبيل هذا العرض ؟ . وعلى حين أيدت قلة غنية من النبلاء ترشيح مكسميليان الثانى النمسوى ، نادى سبعة آلاف عضو من الديت المنتخب بباثورى ، فقدم ومعه ٢٥٠٠ جندى ، وكسب قلوب كثير من الناس بزواجه من أناجاجللون ، وقاد جيشا ضد دانزج (التى رفضت الإعتراف به) وأرغم الثغر المغرور على دفع غرامة قدرها مائتى ألف جولدن للخزانة الوطنية .

وعلى الرغم من كل هذا لم يستوثق النبلاء من أنهم يحبون الملك الجديد ، بعينيه الحادين النافذتين . وتفكيره الواقعى ، وشاربه المروع ، ولحيته التى توحى بالاستبداد والدكتاتورية. لقد احتقر الأبهة والمواكب والاحتفالات وارتدى ثيابا بسيطة ، بل لبس الملابس المرقعة ، وكان طعامه المفضل من لحم البقر والكرنب . ولما طالب بالمال لتجهيز حملة على روسيا أمده النبلاء بقدر غير كاف،وهم متذمرون.وتقدم معتمدا على معونات ترنسلفانيا،بجيش صغير ، وحاصر بسكوف ثالثة مدن روسيا آنذاك من حيث الحجم . وأحس إيفان الرابع على الرغم من أنه كان يرهب شعبه ، بأنه أكبر سنا من أن يلاقى عدوا فى مثل

هذه الحيوية والنشاط ، فطلب الصلح ونزل على ليفونيا لبولندة ، وسلم بأبعاد روسيا عن البلطيق (١٥٨٢) . وعندما أدركت إيفان المنية (١٥٨٤) اقترح باثورى على سكستس الخامس أن يغزو كل روسيا ويوحدها مع بولندة ، ويطرد الأتراك من أوربا ، ويعيد كل أوربا الشرقية إلى حظيرة البابا . ولم يعترض البابا . ولكن فى غمرة هذه الاستعدادات الشاقة لحملة صليبية ، فارق باثورى الحياة (١٥٨٦) . واعترفت بولندة، بعد مماته وبعدأن كف عن إرهاقها بأنه من أعظم ملوكها.

وبعد سنة من المساومة خلع الديت العرش على سجسمند الثالث ، الذى يمكن بوصفه وريثا لعرش السويد، أن يوحد البلدين لتسيطرا على مياه البلطيق ويعوقا توسع روسيا . وقضى سجسمند كما رأينا ، نصف مدة حكمه فى مجالات عقيمة لتثبيت سلطانه . وتدعيم المذهب الكاثوليكى فى السويد . وسنحت فرصة أخرى لسجسمند بموت بوريس جودونوف المفاجىء (١٦٠٥) ، حيث عمت روسيا حالة من الفوضى أصبحت معها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ودون استشارة البرلمان البولندى أعلن سجسمند ترشيح نفسه للعرش المسكوفى وسار بجيش إلى روسيا . وعلى حين قضى هو عامين فى حصار سمولنسك ، هزم قائده ستانسلاس زلكوسكى الروس فى كلوشينو وتقدم نحو موسكو ، واقنع النبلاء بقبول لادسوس بن سجسمند ملكا عليهم (١٦١٠) . ولكن هذا الأخير أنكر هذه الترتيبات ، فيجب أن يكون القيصر هو لا ابنه . فلما استولى آخر الأمر على سمولنسك (١٦١١) ، تقدم نحو موسكو ، ولكنه لم يصل إليها قط ، فقد أجل الشتاء بمعوقاته . وتمرد جنوده الذين لم يتقاضوا رواتبهم . وفى ١٢ ديسمبر ١٦١٢، أى قبل نابليون بقرنين من الزمان، تقهقر جيشه وسط سوء النظام والفناء ، من روسيا إلى بولندة . ولم يتبق من هذه الحملات الباهظة التكاليف إلا امتلاك سمولنسك وسفرسكى، بالإضافة إلى نفحة قوية من تأثير بولندة على الحياة الروسية .

وكانت بقية حكم سجسمند سلسلةمن الحروب الفاجعة ،فقد ورطه تحالفه مع آل هبسبورج — مما ابتهج له الأمبراطور — في صراع كلفه غاليا مع الأتراك لم تنج منه بولندة إلا بفضل مهارة قوادها وشجاعة جنودها . واستفاد جوستاف أدولف من انشغال بولنده في الجنوب في غزو ليفونيا . وبمقتضى صلح ألتمارك (١٦٢٩) سيطرت السويد على ليفونيا وعلى البلطيق . وقضى سجسمند نحبه محطما متهدما (١٦٣٢) .

وخلع الديت تاج بولندة على ابنه لادسلاس الرابع ، الذي كان الآن في السابعة والثلاثين ، وكان قد كشف عن نشاطه وهمته وجلده كقائد ، وكسب صداقات كثيرة بفضل خلقه الصريح المرح . وأساء إلى البابا بتسامحه مع البروتستانتية في بولنده ومع الأرثوذكسية في لتوانيا . وأباح في ثورن قيام حوار عام سلمي بين رجال الدين الكاثوليك واللوثريين والكلفنيين (١٦٤٥) وشجع الفن والموسيقى . واشترى لوحات روبنز وأقمشة جوبلان المزركشة وأقام أول مسرح بولندى دائم ، ومثل عليه الأوبرا الإيطالية ، وتبادل الرسائل مع جاليليو في سجنه ، ودعا العالم البروتستانتي جروشيوس إلى بلاطه وفارق الحياة (١٦٤٨) في الوقت الذي هددت فيه الدولة البولندية ثورة عارمة في القوزاق .

٢ — المدنية :

كان الاقتصاد البولندى لايزال يتسم بسمات العصور الوسطى . وكانت التجارة الداخلية في أيدى الباعة المتجولين ، والتجارة الخارجية مقصورة إلى حد كبير على دانزج وريغا ، ولم تكن طبقة التجار تتمتع بثراء يذكر ، وقلما سمح لأفرادها بعضوية البرلمان ، فإن النبلاء تحكموا في الديت وفي الملك وفي الاقتصاد ، وسيطروا على هؤلاء جميعا . وكان يفلح الضياع الواسعة مزارعون خاضعون لتنظيمات إقطاعية أقسى من بعض الوجوه مما كان عليه الحال في

مزارع فرنسا فى العصور الوسطى . وكان النبيل المالك يضع هذه التنظيمات بنفسه ، ويفرضها بقوة جنوده ، ويحرم على مستأجريه مغادرة نطاق ولايته دون موافقته ، وينقلهم من مكان إلى مكان ، ويزيد من الأرض أو ينقص منها وفق مشيئته ، ويفرض عليها فى كل عام أيام عمل لايتقاضون عنها أجرا ويرغمهم على أن يبيعوه أو يشتروا منه وحده ، وعلى أن يبتاعوا منه كل عام قدرا من الجعة الرديئة الصنع . وكان يستطيع تجنيد أبنائهم لخدمته فى زمن السلم والحرب . كان هؤلاء المزارعون أحراراً . « قانونا لهم » حق التملك والتوريث ، ولكن « الأب » الجزويتى سكارجا نعتهم بأنهم أرقاء[٣١] .

وكانت الحياة قروية فى معظمها . وكان النبلاء يتجمعون فى وارسو لإملاء إرادتهم الجماعية ، ولكنهم عاشوا فى ضياعهم ، يصطادون ويتشاجرون ، ويستمتعون بأطيب المتع ، ويتبادلون المآدب الباذخة ، ويتدربون على الحرب وكانت الزيجات تتم عن طريق الوالدين . وقلما سئلت البنت رأيها ، وقلما عارضت ، فالمفروض أن الحب الذى يولده الزواج والأبوة أقوى على البقاء والدوام من الزواج الذى ينشأ عن الحب . وكانت النساء متواضعات جادات نشيطات . وكانت آداب السلوك الجنسى مرعية كل الرعاية . ولم نسمع بقصص غرام خارج نطاق الزوجية قبل القرن الثامن عشر[٣٢] . وكان الرجال . لا النساء ، هم الذين يضعون قواعد السلوك . باستثناء سيسيليا ريناتا التى تزوجت من لاديسلاس الرابع ١٦٣٧ ، والتى أحيت الآثار الإيطالية التى استوردها الفنانون ورجال الدين فى أزمنة سابقة . ولويزمارى جونزاج التى تزوجها ١٦٤٨ ، والتى جلبت معها موجة من قواعد السلوك الفرنسية والكلام الفرنسى بقيت حتى القرن العشرين ، وكان فى الرقصات البولندية رقة مهيبة ، حدت برجل فرنسى فى ١٦٤٧ إلى التحدث فى إعجاب عن البولنديات .

ولم يقدر الفن البولندى أن يلاحق المستوى الذى كان قد وضعه فيت ستوس فى كراكاو ١٤٧٧ . لقد نسجت أقمشة سجسمند الثانى المزركشة فى الفلاندرز

وأقام مهندسون معماريون ونحاتون إيطاليون التماثيل لسجسمند وباثورى وآنا جاجللون فى كاتدرائية كرا كاو ، وكنائس الجزويت الباروكية فى كرا كاو ونيزويو وعامود سجسمند الثالث الشهير فى وارسو ، وأصاب الوهن التصوير فى بولندة تحت هجمات البروتستانت على الصور الدينية ، ولكن مارتن كوبر رسم صورة شخصية ملهمة للملك باثورى .

وعانى التعليم — كما عانت الفنون التخطيطية من الإضطراب الدينى . ومرت جامعة كرا كاو بفترة انحطاط عابر . ولكن باثورى أسس جامعة ولنو (١٥٧٨) ، وفى كرا كاو وولنو ويوزنان وريجا وغيرها أسس الجزويت كليات بلغ من امتيازها وتفوقها أن كثيراً من البروتستانت أثروها لتنشئة أبنائهم عقليا وخلقيا . وخير من كل هذه مدرسة طائفة « الموحدين » فى كراكاو التى جذبت إليها ألف طالب من مختلف الملل . وأعد جان ذا موسكى مستشار باثورى ذو النزعة الإنسانية ، فى زاموسك جامعة جديدة خصصت أساسا للدراسات الكلاسيكية .

وكانت ثمة وفرة فى الأدب فى بولندة . وكانت الخلافات الدينيــة فظة فى النعوت مهذبة معقولة فى الشكل ، ومن ثم فإن ستاتسلاس أورزيكوسكى الذي كان يدافع عن الكاثوليكية ، ناضل من أجلها بضراوة وتعصب عنيف ، « فى لغة بولندية رائعة ، تعد من أحسن ما كتب فى تاريخنا[٣٣] » ولم يكن يقل عنها شهرة فى الأسلوب « رجل البلاط البولندى » (١٥٦٦) الذى ألفه لوكاز جورنيكى وهو تعديل لكتاب كاستليونى « رجل البلاط » . وبرز الجزويتى بيترسكارجو فى الشعر والنثر والتعليم والسياسة . وانتقل من رياسة جامعة ولنو إلى منصب كبير الوعاظ فى البلاط الملكى وقضى فيه أربعة وعشرين عاما كان فيها « بوسويه » بولنده ، واستنكر فيها غير وهاب ولا وجل الفساد الذى رآه يستشرى من حوله . وتنبأ بأنه إذا لم تصل الأمة إلى حكومة أكثر استقرارا ومركزية فإنها لابد أن تقع فريسة للدول الأجنبيــة ، ولكنه نادى بملكيه مسئولية مقيــدة

ومحددة بالقانون . وظل شعر كوكانوسكى دون منافس فى مجاله وفى لغته حتى القرن التاسع عشر ، ولايزال شعبيا مألوفا حتى اليوم . وقد بلـغ الشاعر ذروة الأثارة والإلهام فى رثائه وحزنه على أبنته أورسولا التى ماتت فى نضارة الطفـولة .

وعوق الصراع الدينى كل نواحى الثقافة البولندية فى ذاك العصر . ففى النصف الأول من القرن السادس عشر بدا أن البروتستانتية قدر لها أن تسيطر على بولندة، وعلى ألمـانيا والسويد أيضا. وكسبت إلى جانبها كثيرا من النبلاء تمردا على سلطة الملك وفساد الـكنيسة ، ووسيلة لانتزاع أملاكها[٣٤] . ومنح سجسمند الثانى بلاده تسامحا دينيا واسع النطاق . وبعـد عام من وفاته صاغت لجنة من الديت (٢٨ يناير ١٥٧٣) «اتحاد وأرسو الـكونفدرالى» الذى يضمن الحرية الدينية لـكل الشيع والفرق بلا استثناء . فلما عرض المشروع للتصويت عارضه الأعضاء الأسقفيون فى المجلس . ولـكن أقره بالإجماع الأعضاء العلمانيون الثمانية والتسعون. بما فى ذلك واحد وأربعون كاثوليكيا[٣٥]،وهذا يمثل نقطة بارزة فى تاريخ التسامح ، لأن أى أعلان رسمى سابق من هذا القبيل لم يصل إلى هذا المدى . وأنتعشت فى ظل هذه الحماية العريضة عدة طوائف متباينة ، اللوثريون ، والـكلفنيون ، وأتباع زونجلى ، وأنصار تجديد العماد ، والأخوة البوهيميون ؛ وغير القائلين بالتثليث . وفى ١٥٧٩ قدم إلى بولنـدة فاوستس سوسينس، وبدأ يؤسس كنيسة قائمة على مذهب التوحيد ولـكن أهالى كراكاو أخرجوه من داره ودمروا مكتبته ، وكادوا يقتلونه لولا أن المدير الـكاثوليكى للجامعة هب لنجدته (١٥٩٨[٣٦])،واتحد الـكلفنيون مع اللوثريين فى المطالبة بطرد الموحدين أتباع سوسينس من بولندة . وأمر الديت فى ١٦٣٨ بإغلاق مدارس الموحدين ؛ وفى ١٦٥٨ نفى أفراد هذه الطائفة من البلاد . ففروا إلى ترانسلفانيا والمجر وألمـانيا وهولنده وانجلترا، وأخيرا إلى أمريكا، ليجدوا أعظم معبر عنهم فى شخص أمرسون .

أن التعصب الشعبي والتربية الجزويتية والنظام الكاثوليكي والسياسة الملكية والتشيع الطائفي البروتستانتي ، أجتمعت كلها بعضها إلى بعض لتقضى على البروتستانتية فى بولندة . فإن الطوائف الجديدة حاربت الواحدة منها الأخرى بمثل الضراوة التى حاربت بها المذهب القديم . وتعلق المزارعون بالمذهب القديم لمجرد أنه قديم ؛ حيث كان يمثل الارتياح إلى العادة والعرف المألوف ؛ ولما أنضم الملكان — باثورى وسجسمند الثالث — إليه ، وجد كثير من البروتستانت المرتدين وأبنائهم ، أنه من الأفضل لهم أن يعقدوا أواصر السلام مع الكنيسة وكان معظم الألمان فى بولنده — من البروتستانت ، وتلك حقيقة وجهت الشعور الوطنى إلى مناصرة الكاثوليكية ومعاونتها . وتعاونت الكنيسة تعاونا جادا مع هؤلاء الأعوان المتفرقين على استرداد بولندة إلى حظيرة البابا ، فأرسلت نخبة من أكثر الدبلوماسيين فيها رصافة ، وأكبر الجزويت المغامرين ، ليكسبوا إلى جانبها ، الملوك والنساء والأطفال ، بل حتى النبلاء البروتستانت أنفسهم . وحذر رجال الدولة الكنسيون ، مثل الكاردينال ستانسلاس هوسيوس والأسقف جيوفنى كومندون ، الملوك من تأسيس نظام اجتماعى أخلاقى سياسى مستقر على المذاهب البروتستانتية المائعة المتصارعة . وأثبت الجزويت قدرتهم على الدفاع عن الأمور التى كان الناس يتشككون فيها ولا يصدقونها ، ضد ما استحدث الآن من معتقدات وطقوس . وفى نفس الوقت فإن رجال الدين الكاثوليك الذين ألتزموا بقرارات مجمع ترنت ، خضعوا الآن لإصلاح دينى صارم مثير للأعجاب (٣٧) .

ولكن للكاثوليك أيضا مشكلة . ذلك أن اتحاد لتوانيا وبولندة عمل على إيجاد تلاحم مثير للغضب بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية وكان الخلاف بين الكنيستين طفيفا ولكن الصلوات الأرثوذكسيه اتبعت الطقوس السلافيه ، كما اتخذ القساوسة الأرثوذكس زوجات . وفى ١٥٩٦ ، وعن طريق « اتحاد برست ليتوفسك » ، شكل جان زاموسكى مجموعة وسطاً من

رجال الدين والعلمانيين فى « كنيسه موحده » ، اعتنقت فكرة زواج رجال الدين ، واتبعت الطقوس السلافية ، وفى نفس الوقت ارتضت المذهب الكاثوليكى الرومانى واعترفت بسيادة البابا . وراود زعماء الكاثوليك الأمل فى ان يؤدى مثل هذا الحل الوسط او التوفيق بين الكنيستين ، تدريجا ، إلى كسب الملتين اليونانيه والروسيه إلى جانب الأمتثال للبابا . ولكن الكنيسه الجديدة لاقت مقاومه مثيرة . وذبح أهل بولوك رئيس اساقفتها .

وظل ملوك بولندة طوال القرن السادس عشر ، يطبقون تسامحا دينيا أكثر تقدما منه فى أى بلد مسيحى آخر . ولكن السكان الكاثوليك كثيرا ماعادوا سيرتهم الأولى إلى سياسة العداء الشديد ، فانقضوا على كنيسة بروتستانتية فى كراكاو ، ونبشوا قبور البروتستانت (١٦٠٦ — ١٦١٧) . وحطموا كنيسة بروتستانتية فى ولنو ، وضربوا — وقيل قتلوا — قساوستها (١٦١١) وفى بورنات أحرقوا كنيسة لوثرية . وفضوا اجتماعا خاصا « بالاخوة البوهيميين »[٣٨] . ولم يشترك رجال الدين الكاثوليك فى هذه المظاهرات الدينية الشعبية ، ولكنهم أفادوا منها . وتعاونت كل الظروف على تأييد الكنيسة القديمة ، حتى تم لها النصر فى ١٦٤٨ .

٤ — روسيا المقدسة : ١٥٨٤ — ١٦٤٥

١ — الشعب :

قال نادزدين فى ١٨٣١ : « ماعليك ألا أن تلقى نظرة على خريطة العالم ليتولاك الرعب ازاء قدر روسيا وماقسم لها . » وكانت قد وصلت فى ١٦٣٨ إلى المحيط الهادى عبر سيبيريا ، وإلى بحر قزوين عبر نهر الفولجا ، ولم تكن على أية حال ، فقد وصلت بعد إلى البحر الأسود ، فقد اقتضى هذا حروبا كثيرة . ولم يجاوز عدد السكان عشرة ملايين فى ١٥٧١[٣٩] . وكان يمكن أن

توفر الأرض الغذاء لهذه الملايين فى سهولة ويسر ، لولا أن الفلاحة الطائشة المهمله أنهكت المزرعه تلو الأخرى ، فانتقل الفلاحون إلى أرض أقوى وأخصب .

ويبدو أن هذه النزعة إلى الهجرة أسهمت فى نشأة الرقيق . ذلك أن معظم المستأجرين كانوا يحصلون من النبلاء ملاك الأرض على سلفيات لتنظيف المزرعة وتجهيزها بالأدوات وأعدادها للزرع . وكانوا يدفعون على هذه القروض نحو ٢٠ ٪ (٤٠) . فلما عجز الكثير منهم عن سداد ما اقترضوا صاروا أرقاء لهؤلاء الملاك . لأن قانونا صدر فى ١٤٩٧ نص على أن يكون المدين المقصر فى الدفع عبدا لدائنه حتى يوفى الدين . وتفاديا لهذه العبودية هرب بعض الفلاحين إلى معسكرات القوازق فى الجنوب . وحصل بعضهم على حريته بالموافقة على استصلاح أراضى جديدة غير ممهدة. وبهذه الطريقة استوطنت سيبيريا، وهاجر بعضهم إلى المدن حيث اشتغلوا ببعض الحرف ، أو اشتغلوا فى المناجم أو صناعة المعادن أو صناعة الذخيرة، أو خدموا التجار، أو تجولوا فى الشوارع يبيعون السلع . وشكا الملاك من أن هجرة المستأجرين عن المزارع — دون دفع ديونهم عادة — قد عوقت الإنتاج الزراعى ؛ وجعلت من المتعذر على الملاك دفع الضرائب المتزايدة التى تطلبها الدولة . وفى ١٥٨١. وضمانا لاستمرار زرع الأرض ؛ حرم أيفان الرهيب على المستأجرين لدى طبقة الأوبرشنيكى — رجال الإدارة أن يتركوا المزارع دون موافقة الملاك؛ وعلى الرغم من أن هذه الطبقة كانت تفقد الآن مركزها الممتاز شيئا فشيئا. فقد بقى الرقيق الذى نشأ بهذه الطريقة يعمل فى ضياعها . وسرعان ما طالب النبلاء ورجال الدين الذين تملكوا الجزء الأكبر من أرض روسيا ؛ مستأجريهم بهذا . فكان الفلاحون الروس فى الحقيقة ؛ إن لم يكن بمقتضى القانون ؛ أرقاء مرتبطين بالأرض (٤١) .

وكانت روسيا لاتزال لاصقة بالهمجية . فالسلوك فظ غليظ ؛ والنظافه ترف نادر ؛ والأمية امتياز طبقى ؛ والتعليم بدائى، والأدب فى معظمه حوليات

رهبانية أو عظات دينية أو نصوص طقسية ، والكتب الخمسمائة التى نشرت فى روسيا بين عامى ١٦١٣ و١٦٨٢ كانت كلها تقريبا دينية[٤٢]. ولعبت الموسيقى دورا هائلا فى الدين وفى البيت . وكان الفن خادما للعقيدة الأرثوذكسية ، وشادت الهندسة المعمارية كنائس معقدة زاخرة بأماكن الصلوات والمعابد الصغيرة الملحقة بها . وبالمبانى الناشئة عنها ، وبالقباب البصلية الشكل ، مثل كنيسة عذراء الدون فى موسكو.وزين فن الرسم جدران الكنائس والأديار بالرسوم الجصية التى حجب الآن معظمها ، أو بالصور الدينية والأيقونات الغنية بالأبداع التصويرى لا المهارة الفنية[٤٣] ، كما هو الحال فى كنيسة معجزة سان ميكاييل فى كراكاو . وفى ١٦٠٠ لم يعد رسم الأيقونات فنا بل اصبح صناعة تنتج قطعا متماثلة على نطاق واسع، للتعبد والتبتل والتقوى داخل البيوت أما الإنتاج الفنى البارز فى هذا العصر فهو برج الناقوس الذى يبلغ أرتفاعه مائة متر — وهو برج ايفان فليكى (جون الأكبر) الذى أقامه أحد المهندسين الألمـــان فى ميدان الكرملين (حوالى ١٦٠٠) كجزء من برنامج بوريس جودونوف فى الأشغال العامة لتخفيف حدة التعطل .

وفى الكنائس الفخمة المتألقه بالزخارف الثمينه، المعتمه بالكآبه المتعمدة والتى تجلب النعاس بالطقوس المهيبة والتراتيل والصلوات الجهورية الرنانة ، طبع رجال الدين الأرثوذكس الناس على التقوى والطاعة والأمل المتواضع . وقل أن تعاونت عقيدة مامع الحكومة مثل هذا التعاون الوثيق .وضرب القيصر المثل فى التمسك المخلص الصادق بالدين وفى البر بالكنيسة ، ولقاء هذا أحاطته الكنيسة ، بدورها ، بهالة من القداسة الرهيبة ،وجعلت من عرشه حرمامنيعا لاتنتهك حرمته ، وغرست فى الأذهان أن الخضوع له وخدمته واجب يلتزم به الناس أمام الله . وأسس بوريس جودونوف البطريركية الروسية مستقلة عن القسطنطينية (١٥٩٨) ولمده قرن من الزمان نافس مطران موسكوا المقام السامى للقيصر ومكانته العالية ، وفى بعض الأحيان تحدى سلطانه . وفى ١٥٩٤ عندما أوفد البابا كليمنت الثامن إلى موسكو ، بعثة تقترح اتحاد الكنيسة

الأرثوذكيسة واللاتينية تحت زعامة البابا ، رفض بوريس الاقتراح قائلا : « أن موسكو هي الآن روما ذات المذهب القديم الحق (الأرثوذكسي) » . وجعل الجميع يوجهون الدعوات ويقيمون الصلو من أجله وهو وحده بوصفه « الحاكم المسيحي الوحيد على الأرض »[٤٤] .

٢ — بوريس جودونوف : ١٥٨٤ — ١٦٠٥

لم يكن بوريس في الواقع بعد إلا حاكما فقط . أما القيصر فكان فيودور الأول ايفانوفتش (١٥٨٤ — ١٥٩٨) ، الابن الهزيل لايفان الرابع الرهيب وآخر أفراد « آل روريك » (مؤسس روسيا) . وكان فيودور قد شهد موت أخيه الأكبر بضربة شيطانية من أبيه ، فلم يشأ أن يتشبث بارادته أو يعارض في شيء ، وانزوى هربا من مخاطر القصر ، منصرفا إلى العبادة والتبتل ، وعلى الرغم من أن شعبه لقبه « بالقديس » ، فإنه أيقن أنه كانت تعوزه القوة والصلابة ليحكم الرجال . وكان ايفان الرابع قد عين مجلسا لتوجيه الشاب وتقديم النصح والمشورة له . ولكن أحد أعضائه ، وهو أخو زوجة فيودور — بوريس جودونوف — سيطر وقبض على زمام الأمور ، وأصبح حاكم البلاد .

وكان ايفان الرابع قد خلف من زوجته السابعة والأخيرة ، ابنا آخر ، هو ديمتري ايفانوفتش الذي كان آنذاك (١٨٥٤) في الثالثة من عمره ، ورغبة من المجلس في أن يجنب الطفل أخطار الدسائس — بخلاف دسائسه هو ، أي المجلس — أرسل الطفل وأمه للاقامة في أوجليتش ، على بعد نحو ١٢٠ ميلا إلى الشمال من موسكو . وهناك في ١٥٩١ قضى ابن القيصر نحبه بطريقة لم يتم التحقق منها بعد . وقصدت إلى هذا البلدة لجنة للتحقيق في الحادث ، يرأسها الأمير فاسيلي شويسكي أحد أعضاء المجلس ، وجاء تقريرها يقول بأن الصبي قطع حلقومه في نوبة صرع ألمت به . ولكن أم ديمتري وجهت الاتهام بأنه قتل بأمر من جودونوف[٤٥] . ولكن جريمة بوريس لم تثبت قط ، ولا تزال مثار جدل بين بعض المؤرخين[٤٦] . وأجبرت الأم على الترهب ، ونفى أقرباؤها

من موسكو ، وأضيف ديمترى إلى قائمة القديسين الأرثوذكس ، وطواه النسيان إلى حين ..

وكان بوريس — مثل ريتشارد الثالث فى انجلترا — أكثر توفيقا فى الحكم أثناء وصايته على العرش ، منه بعد تربعه عليه فيما بعد . وعلى الرغم من إنه كان ينقصه التعليم الرسمى النظامى ، بل ربما كان أميا ، فقدأوتى بمقدرة جبارة ، وبدوانه بذل جهود مضنية لمواجهة مشاكل الحياة فى روسيا . فأصلح الإدارة الداخلية ، وحد من فساد القضاء ، وأولى الطبقات الدنيا والوسطى عطفا ورعاية ، وكلف الأشغال العامة بتهيئة فرص العمل للفقراء من سكان المدن ، وخفف من أعباء الأرقاء والتزاماتهم ، وكان — كما يقول أحد كتاب الحوليات المعاصرين — « محبوبا لدى كل الناس »(٤٧) . وحظى باحترام الدول الأجنبية وثقتها(٤٨) . ولما مات القيصر فيودور الأول (١٥٩٨) طلبت الجمعية الوطنية من جودونوف بالاجماع أن يتولى العرش. فقبلة مع تظاهره بالمعارضة خجلا من أنه غير جدير به ، ولكن ثمة شبهة بأن عملاءه كانوا قد مهدوا السبيل فى الجمعية الوطنية . ونازع جماعة من النبلاء من الذين كرهوا منه دفاعه عن طبقة العامة(٤٩) . نازعوا فى حقه فى اعتلاء العرش . وتآمروا على خلعه. فأودع بوريس بعضهم السجن ونفى آخرين. وأرغم فيودور رومانوف (والد أول قيصر من أسرة رومانوف) . على أن يدخل فى سلك الرهبنة . ومات نفر من هذه المجموعة المغلوبة على أمرها . فى ظروف مواتية لبوريس إلى حد اتهامه بتدبير قتلهم . ولما كان يعيش آنذاك فى جو من الشك والفزع . فإنه بث العيون والأرصاد هنا وهناك . وأبعد المشتبه فيهم وصادر أملاكهم. وإعدم الرجال والنساء . وانهارت شعبيته الأولى . وتركته السنوات العجاف من (١٦٠٠ — ١٦٠٤) ،بغير تأييد ومساندة من الأهالى الذين يتضورون جوعا فى مواجهة المكائد التى كان يديرها النبلاء فى تصميم وعناد .

وثمة مكيدة أصبحت ذات شهرة فى التاريخ، والأدب والموسيقى . ففى ١٦٠٣ ظهر فى بولنده شاب ادعى أنه ديمترى المفروض أنه مات . والوريث الشرعى

لعرش فيودور ايفانوفتش . واعتبر بوريس ، الواثق من نفسه (٥٠) ، أن هذا الشاب ليس إلا جريشكا أوتريبف الراهب الذى جرد من ردائه الكهنوتى ، والذى كان من قبل فى خدمة آل رومانوف . أما البولنديون الذين كانوا يخشون توسع روسيا ، فقد سرهم أن يجدوا بينهم وفى متناول يدهم ، من يطالب بالتاج المسكوفى ، وابتهجوا أكثر من ذلك بزواج « ديمترى » هذا من بنت بولندية ، واعتناقه الكاثوليكية . وتغاضى سجسمند الثالث الذى كان قد وقع لتوه (١٦٠٢) هدنة مدتها عشرون عاما مع روسيا ، عن حشد ديمترى لمتطوعين بولنديين . وناصر الجزويت بشده قضية هذا المدعى . وفى أكتوبر ١٦٠٤ عبر ديمترى نهر الدنيبر مع أربعة آلاف رجل . فيهم المنفيون الروس ، وجنود مرتزقة ألمان ، وفرسان بولنديون . وأيده النبلاء الروس سرا ، ولو أنهم تظاهروا بالحياد . وانضم الفلاحون الآبقين إلى القوات المتقدمة ، ورحب الشعب الجائع الذى طال انتظاره للتعلل بأمل كاذب ، بديمترى الجديد ، ورفع لواءه رمزا للملكية الشرعية والأمانى اليائسة . ووسط الهتاف تحرك الجمهور المتضرع نحو موسكو من الغرب ، وانقض من الجنوب القوزاق المستعدون دوما للنزال . وانقلبت الحركة إلى ثورة .

ولما رأى بوريس أن هذا بمثابة غزو بولندى ، بعث بجيشه إلى الغرب ، وهزم فصيلة من قوات ديمترى ، ولكنه لم يدرك البقية . ولم يتلق جودونوف وهو قابع فى قصر الكرملين إلا أنباء جمهور الرعاع الزاحف المتزايد عدده . والسخط الذى ينتشر ، والأنخاب التى يشربها البويار (النبلاء) حتى فى موسكو ، فى صحة ديمترى الذى أعلنوا على الشعب أنه ابن القيصر المقدس الذى اختاره الله ليكون قيصرا . وفجأة ، وبعد شكوك وآلام مبرحة معروفة لدى بوشكين وموسورجسكى ، ولا يعلم التاريخ عنها شيئا — مات بوريس (١٣ أبريل ١٦٠٥) وأوصى البطريرك بسمانوف والنبلاء بابنه خيرا . ولكن البطريرك والنبلاء تحولوا إلى المدعى . وقتل ابن جودونوف وأرملته ، وفى غمرة النشوة الوطنية رحب « بديمترى الزائف » وتوج قيصرا على روسيا بأسرها .

٣ — « زمن الشدائد » : ١٦٠٥ — ١٦١٤ :

لم يكن القيصر الجديد حاكما غير صالح ، كما هي شيمة الملوك ، ولم يكن ذا قوام يبعث على الرهبة ولا بهى الطلعة ، ولكنه كان برغم هذا وذاك قادرا على امتشاق الحسام وامتطاء الخيل ، مثل أى نبيل كريم المحتد وتحلى القيصر الجديد برجاحة العقل وسعة الادراك وفصاحة اللسان وحلاوة الشمائل ، وبساطة غير متكلفة صدمت قواعد السلوك والتشريفات فى حياة القصور . وأدهش موظفيه باهتمامه الجاد بالإدارة ، كما أدهش جيشه بتوليه تدريبه بنفسه . ولكن تعاليه على بيئته كان متعمدا واضحا أكثر مما ينبغى . فأبدى احتقاره صراحة لخشونة النبلاء وأميتهم وجهلهم ، واقترح ارسال أبنائهم لتلقى العلم فى الغرب ، وسعى إلى استقدام معلمين أجانب لتأسيس مدارس ثانوية فى موسكو . وسخر من للعادات الروسية ، وأغفل الطقوس الأرثوذكسية ، وأهمل تحية صور القديسين ، وتناول طعامه دون أن ترش مائدته بالماء المقدس ، وأكل لحم العجل الذى اعتبرته الطقوس نجسا . وأخفى — وربما لم يأخذ يوما بمأخذ الجد — تحوله إلى الكاثوليكية ، ولكنه أحضر إلى موسكو زوجته البولندية الكاثوليكية ، يحف بها أخوة فرنسيسكان وممثل البابا . وكان فى بطانته هو نفسه نفر من البولنديين والجزويت ، وأنفق فى سخاء من أموال الخزانة ، فضاعف رواتب ضباط الجيش ، وخصص لأصدقائه الضياع المصادرة من أسرة جودونوف . ولما كان لا يهوى السكون ، كما كان رجلا عسكريا فإنه دبر حملة ضد خان القرم وأعلن الحرب عمليا بإرساله سترة من جلد الخنزير إلى الحاكم المسلم . وربما كاد أن يخلى موسكو من الجنود تماما ، بإصداره أوامره اليهم بالتحرك نحو الجنوب ، وخشى النبلاء من أنه كان يفتح العاصمة لغزو بولندى .

وبعد اعتلاء ديمترى عرش روسيا ببضعة أسابيع تآمرت زمرة من النبلاء بزعامة شويسكى على خلعه . واعترف شويسكى بأنه لم يقرأ أو يعترف « بالمدعى » إلا لمجرد التخلص من جودنوف ، أما الآن فيجب ابعاد الأداة

التى اصطنعت لهذا الغرض ، واجلاس نبيل أصيل على العرش (٥١) . وكشف ديمترى المؤامرة ، واعتقل زعماءها ، وبدلا من الإسراع باعدامهم ، كما تقضى بذلك التقاليد ، منحهم الحق فى أن يحاكموا أمام الجمعية الوطنية التى اختير أعضاؤها لأول مرة من بين جميع الصفوف والطبقات . فلما أصدرت حكمها على شويسكى وآخرين بالاعدام خفف ديمترى الحكم إلى النفى ، وبعد خمسة أشهر أباح للمنفيين العودة . وكان كثير من الناس يعتقدون أنه ابن ايفان الرهيب ، ولكنهم شعروا الآن — بعد تصرفه على هذا النحو — أن مثل هذا الاعتدال أو الرفق غير التقليدى يلقى ظلالا من الشك على أبوته الملكية. وعاد المتآمرون المعفو عنهم إلى تدبير المؤامرات من جديد . واشتركت فيها أسرة رومانوف التى احتمى ديمترى بظل الانتساب إليها . وفى ١٧ مايو ١٦٠٦ اقتحم شويسكى الكرملين بأتباعه المسلحين . ودافع ديمترى عن نفسه دفاعا مجيدا ، وقتل بيده كثيرا من مهاجميه ، ولكنه فى النهاية غلب على أمره وذبح . وعرضت جثته فى ساحة الاعدام ، وألقى على وجهه قناع حقير ، ووضع فى فمه مزمار ، ثم بعد ذلك أحرقت الجثة ، وأطلق عليها مدفع حتى تذرو الرياح رمادها فلا تبعث بعد الآن .

ونادى النبلاء المنتصرون بشويسكى قيصرا تحت اسم فاسيلى الرابع ، وآلى على نفسه الا يعدم أحدا ولا يصادر أملاكا ، دون موافقة « الدوما » (مجلس النبلاء) . وأقسم فى كاتدرائية أوسبنسكى أغلظ الأيمان بأنه « لن يلحق بأى انسان أذى دون موافقة المجلس » أى الجمعية العمومية التى تضم كل الطبقات. وغالبا ما انتهكت هذه الضمانات ، ولكنها كانت على أية حال خطوة تاريخية على طريق تطوير الحكومة فى روسيا .

وأخفقوا فى تهدئة تلك العناصر الكبيرة من السكان التى تولاها الحزن والأسى لخلع ديمترى . فاندلعت ثورة فى الشمال ، ونصب زعيما لها « ديمترى » زائف آخر ، أمده سجسمند الثالث ملك بولنده بعون غير رسمى . فالتمس

شويسكى العون من شارل التاسع ملك السويد ، عدو سجسمند ، وأرسل شارل قوة سويدية إلى روسيا ، فأعلن سجسمند الحرب عليها ، واستولى قائده زلكوسكى على موسكو ، وخلع شويسكى (١٦١٠) وحمل إلى وارسو حيث أرغم على الترهب فى أحد الأديار . واتفقت زمرة من النبلاء على الاعتراف بلادسلاس — ابن سجسمند ، البالغ من العمر أربعة عشر عاما قيصرا على روسيا ، شريطة المحافظة على استقلال الكنيسة الأرثوذكسية ، ومساعدة الجيش البولندى للنبلاء فى اخماد الثورة الاجتماعية التى كانت تهدد الحكومة الارستقراطية فى روسيا .

وكانت الثورة فى بداية أمرها استنكارا دينيا ووطنيا لتنصيب قيصر بولندى ، ومنع هرموجنس بطريرك الأرثوذكسية الشعب من حلف يمين الولاء لملك كاثوليكى . وقبض البولنديون عليه ، وسرعان ما قضى نحبه فى سجنه ، ولكن نداءه جعل من المتعذر على لادسلاس أن يحكم البلاد . ودعا الزعماء الدينيون الشعب إلى طرد البولنديين بوصفهم كاثوليك مهرطقين. وبدا أن الحكومة تنهار ، وعمت الفوضى روسيا . واستولى الجيش السويدى على نوفجورود واقترح أن يتولى عرش روسيا أمير سويدى . ورفض الاعتراف بلادسلاس الفلاحين فى الشمال والجنوب ، والقوازق فى الجنوب ، واقاموا حكما خاصا بهم فى المقاطعات . وأعملت عصابات قطاع الطرق لسلب والنهب فى القرى والمدن ، ونكلت بكل من يقاوم . وتعطلت الزراعة ، ونقص انتاج الأغذية ، واختلت وسائل النقل ، وعمت المجاعة ، واضطر السكان فى بعض الأقسام إلى أكل لحوم البشر[٥٢] . ودخل جمهور ثائر موسكو ، وفى غمرة الفوضى والشغب أشعل الحريق فأتت النار على معظم المدينة (٩ مارس ١٦١١) وتقهقرت الحامية البولندية إلى الكرملين ، ترقب عبثا قدوم سجسمند لنجدتها .

وفى نزنى نوفجورد نظم قصاب يدعى كوزمامنين ، جيشا ثوريا آخر ، يحدوه الاخلاص للأرثوذكسية ، ودعا كل أسرة إلى التنازل عن ثلث ما عداك

بتمويل الهجوم على العاصمة . وتم هذا بالفعل ، ولكن الناس لن ينقادوا إلى زعيم غير ذى لقب . فدعا منين الأمير ديمترى بوجارسكى ليتولى القيادة ، فقبل المهمة ، وانطلق رجال الجيش الجديد إلى موسكو صائحين ضارعين ، وما أن وصلوا حتى حاصروا الحامية البولندية فى الكرملين . وصمدت الحامية إلى حد أنهم أكلوا الفيران ولحم البشر ، وكانوا يغلون المخطوطات اليونانية ليحصلوا على المرق ، ثم استسلموا وفروا (٢٢ أكتوبر ١٦١٢) وظلت ذكرى هذا العام حية عزيزة فى أذهان الروس على أنه عام التحرير ، وعندما أجلى الفرنسيون بعد ذلك بقرنين من الزمان ، عن موسكو التى جللها رماد الحريق مرة ثانية ، أقام الروس المنتصرون نصبا تذكاريا لمنين وبوجارسكى ، الجزار والأمير اللذين ضربا لها أروع مثل للبطولة فى ١٦١٢ .

ودعا بوجارسكى والأمير ديمترى تروبتسكوى ممثلين علمانيين ودينيين عن كل أجزاء الامبراطورية إلى مجلس لانتخاب ملك جديد . واستخدمت مختلف الأسرات نفوذها بطريقة خفيفة لتحقيق أغراض خاصة ، ولكن كانت الغلبة آخر الأمر لأسرة رومانوف ، واختار المجلس ميكاييل الذى لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر آنذاك ، وفى ٢١ فبراير ١٦١٣ نادى به قيصرا سكان موسكو الذين يمكن تجميعهم وتوجيههم بسرعة . وبعد أن أنقذ الشعب الدولة ، نسب الفضل فى ذلك ، تواضعا ، إلى النبلاء .

وقضت الحكومة الجديدة على الخلل الاجتماعى والثورة ، وثبتت دعائم الرق وتوسعت فيه وهدأت من روع السويد بالتخلى عن انجريا ، ووقعت مع بولندة هدنة مدتها أربعة عشر عاما ، وفكت الهدنة أسر فيودور رومانوف ، والد ميخائيل ، الذى طال أمد أسره . وكان بوريس قد أرغمه على الترهب ، وأطلق عليه اسم الراهب فيلارت . وعينه ابنه ميخائيل بطريرك موسكو ، ورحب به مستشارا له وبلغ من القوة والنفوذ حدا أطلق معه الشعب عليه اسم « القيصر الثانى » . وتحت الحكم المزدوج الذى شارك فيه الوالد والولد

وبرغم المزيد من الثورات والحروب ، حققت روسيا بعد جيل من الفوضى ، سلاما مزعزعا مقرونا بالضغط والاستياء . أن زمن الشدائد والمتاعب الذى بدأ بموت بوريس ، اختتم باعتلاء ديمترى العرش ، وهـذا بدوره كان ابتـــداء عهد أسرة رومانوف التى قدر لها أن تحكم روسيا حتى عام ١٩١٧ .

الفصل العشرون

الإسلام يتحدى

١٥٦٦ — ١٦٤٨

١ — الأتراك

فى غمرة الصراعات الداخلية — سياسية ولا هوتية — فى العالم المسيحى أحس بعض المفكرين بالانزعاج والقلق من أن العناية الإلهية أطلت، فى حياد ظاهر، على الصراع الأكبر بين المسيحية والإسلام. ولقد تم طرد الإسلام من أسبانيا، ولكن «دار الإسلام» (العالم الاسلامى) كانت لا تزال شاسعة مترامية الأطراف، ضمت أندونسيا وشمال الهند. والحق أن هذا كان عصر أسرة المغول الزاهر فى دلهى (١٥٢٦ — ١٧٠٧). وضم الإسلام أفغانستان وآسيا الوسطى وايران كلها، حيث آذنت عظمة الفن الفارسى بالغروب فى هذه الحقبة. وإلى الغرب من إيران كانت دولة الإسلام هى الامبراطورية العثمانية أو التركية - التى لم يكن ينافسها آنذاك فى أتساع أطرافها الا الامبراطورية الأسبانية، واحتفظت بالسيطرة على شواطىء البحر الأسود، وتحكمت فى مصبات الدانوب، والدنيبر والدينستر، وساعدت حلفاءها خانات التتار، على السيطرة على القرم ومصب نهر الدون. وأستولى الأتراك على أرمينيا وآسيا الصغرى وسوريا وبلاد العرب - الشرق الأدنى بأسره -. وهناك كان فى حوزتها أشهر مدن العالم القديم والوسيط. بابل، نينوى، بغداد، دمشق، أنطاكية طرطوس، أزمير، نيقية، مكة وبيت المقدس - حيث كان المسيحيون، بترخيص من المسلمين، يحجون إلى قبر المسيح. واستولوا فى شرق البحر الأبيض على الجزر العظيمة قبرص ورودس وكريت، وكانت الأغلبية الساحقة فى شمال افريقية

من المسلمين ، من البحر الأحمر إلى الأطلسى ، فكان يحكم مصر باشوات يعينهم السلاطين ، وكان يحكم طرابلس وتونس والجزائر ومراكش أسرات مسلمة محلية يختلف خضوعها للسلاطين باختلاف البعد بينها وبين الآستانة ، وكان هذ هو عهد أسرة السعديين (١٥٠٠ — ١٦٦٨) فى المغرب ، وكانت عاصمتها مراكش تعج بالتجارة وتتألق بالفن . وأمتدت الدولة العثمانية فى أوربا من البسفور عبر اليونان (بما فيها أثينا واسبرطه) والبلقان والمجر، على بعد مائة ميل من فيينا ، وعبر دالمشيا إلى أبواب البندقية، وعبر البوسنه والبانيا ، وما كان ثمة الأقفزة واحدة عبر الادرياتيك حتى تصبح فى إيطاليا البابوية . وهناك، وفى فيينا الواقعة تحت الحصار ، لم يكن الحوار الكبير بين البروتستانت والكاثوليك بل بين المسيحية والإسلام . وداخل هذا النطاق الإسلامى عاشت المسيحية حياتها الممزقة .

ومهما كان من أمر امتداد الإسلام غربا فإنه ظل شرقيا . وكانت القسطنطينية نافذة على أوربا ولكن جذور العثمانيين أمتدت كثيراً إلى الوراء ، إلى آسيا وبذلك استطاعت تركيا المزهوة المبتهجة أن تقلد أوربا . وفى بعض بقاع العالم الإسلامى قتلت حرارة الصحراء أو الحرارة المدارية روح الحيوية . وعوقت المسافات الشاسعة غير المسكونة التجارة ، ولم يجد الناس فى أنفسهم تحمسا إلى كسب المعرفة وتحصيلها مثل الأوربيين الغربيين ، فشجعوا الجمود وعدم التحرك ، وكانوا أكثر استعدادا للقناعة ولم يتصفوا بالطموح . وكانت الحرف والصناعات غير المتغيرة فى الإسلام متقنة ، ولكنها كانت تتطلب وقتا ، وكان يعوزها الذوق ، ولم تتجه إلى الصناعة على نطاق واسع وكانت القوافل مثابرة صابرة ، ولكنها لم تقو على منافسة الأساطيل التجارية التابعة للبرتغال وأسبانيا وانجلترا والأراضى الوطيئة التى كانت تجوب كل المسالك المـــائية إلى الهند . على أن بعض الثغور الواقعة على البحر المتوسط مثل أزمير، ازدهرت بفضل نقل البضائع بين السفن والقوافل . وينفخ الإسلام فى الناس روح

الشجاعة المفعمة بالأمل زمن الحرب ، ولكنه كان يغرس فى نفوسهم وقت وقت السلم روح التسليم بالقضاء والقدر التى تثبط من عزائمهم (*) وأغراهم بحلقات الذكر والأحلام الصوفيه . وعلى الرغم من أن الإسلام فى عصر الفتوة والشباب أجاز قدراً كبيراً من العلوم . فأنه هبط آنذاك بالفلسفة إلى حذلقة جوفاء قوامها التعاليم والأساليب التقليدية . وعمل العلماء من رجال الدين الذين سنوا القوانين على أساس القرآن القريم على تنشئة الأطفال على الدين القويم ، وحرصوا على كل الحرص حتى لا يطل عصر العقل برأسه على العالم الإسلامى . وهناك هيأ الصراع بين الدين والفلسفة نصراً حاسماً للدين .

أضف إلى ذلك أن هذا الدين تيسر له غزو البلاد التى اقتطعت من العالم المسيحى . فقد كان للكنيسة الشرقيه بطاركتها فى القسطنطينية وانطاكية ، وأورشليم والاسكندرية ، ولكن عدد المسيحين فيها كان يتناقص بسرعة ، وظل الأرمن فى آسيا الصغرى والأقباط فى مصر على عقيدتهم المسيحية ، ولكن الجماهير عامة فى آسيا وأفريقية والبلقان اعتنقت الإسلام . وربما كان لهذا أسباب عملية ، فلو أنهم بقوا على عقائدتهم المسيحية لحرموا من الوظائف العالية ، ودفعوا ضرائب باهظة مقابل اعفائهم من الخدمة العسكرية وسلموا واحداً من كل عشرة من أبنائهم ليربى تربية إسلامية تؤهله للانضمام إلى الإنكشارية ليعمل فى الجيش ، أو ليتولى الوظائف الحكومية .

وفيما عدا هذا ، تمتع المسيحيون فى العالم الإسلامى بتسامح دينى ما كان حاكم مسيحى ليحلم بمنحه للمسلمين فى أى بلد مسيحى . من ذلك ، على سبيل المثال ، أن المسلمين كان لهم فى أزمير ١٥ مسجداً ، وللمسيحيين ٧ كنائس وللبهود ٧ معابد[1] . وكانت السلطات فى تركيا والبلقان تتولى حماية الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية ضد أى تحرش أو ازعاج أثناء العبادة

(*) هذا كلام يدل على عدم التعمق فى فهم حقيقة الاسلام ؟ ولكنا نورده بنصه توخياً للامانة فى الترجمة — (المترجم)

والصلوات (٣) . وذهب صمويل بيبس فى يومياته إلى أن معظم المجر استسلم للأتراك لأن البلاد نعمت فى ظل الحكم العثمانى بحرية دينية أكبر مما نعمت به فى ظل الأباطرة الكاثوليك . وهذا حق كل الحق من جانب المسيحيين المهرطقين . فقد ذكر سير توماس أرنولد : « أن الكلفنيين فى المجر وترنسلفانيا والموحدين فى هذا البلد الأخير آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع تحت نير آل هبسبرج المتعصبين وأن البروتستانت فى سيليزيا تطلعوا إلى الأتراك ، وربما ارتضوا عن طيب خاطر أن يشتروا حريتهم الدينية مقابل الخضوع للحكم الإسلامى(٤) » ومما يلفت النظر أو يثير الدهشة أكثر من ذلك ، حكم السلطات المسيحية القيادية على تاريخ اليونان الحديث : —

إن كثيرا من اليونان ذوى المواهب العظيمة والخلق الرفيع كانوا أكثر إدراكا لتفوق المسلمين ، حتى أنهم ، حين نجوا من سوقهم إلى خدمة السلطان فى نطاق « ضريبة الأطفال » ، اعتنقوا الإسلام طواعية واختيارا . ولابد من التسليم بأن السمو الخلقى فى المجتمع العثمانى كان له دخل كبير فى هذا التحول إلى إسلام ، قدر ما كان للطموح الشخصى لدى الأفراد(٥) .

ولكن من الصعب تحديد هذا « السمو الخلقى » لدى أتراك القرن السابع عشر . فان تافرنيه الذى تجول واشتغل بالتجارة فى البلاد الإسلامية فى ١٦٣١ — ١٦٣٣ ، ١٦٣٨ — ١٦٤٣ وما بعدها ، قال : « فى تركيا لصوص كثيرون يتجمعون فى عصابات تقطع طريق التجار (٦) » ، وكان الأتراك معروفين بنزعتهم الهادئة إلى الخير ولكن نفس الديانة التى روضت دوافعهم غير الاجتماعية وقت السلم ، أطلقت لهم العنان فى ضراوة وعنف فى حربهم مع « الكفار » وكان استرقاق الأسرى المسيحيين مباحا . ووقعت غارات فى الأراضى المسيحية القريبة من الحدود العثمانية لاصطياد المسيحيين واسترقاقهم . ومهما يكن من أمر ، فإن اتجار العثمانيين فى الرقيق كان أقل بكثير ، عددا وقساوة ، من الحملات التى قام بها المسيحيون لجمع الرقيق فى القارة السوداء . وكان الانغماس فى الشهوة الجنسية فى العالم الإسلامى أشد

وأكثر أرهاقا منه فى العالم المسيحى ، ولو أنه كان عادة فى نطاق الحـدود المنظمة لتعدد الزوجات . وكان المجتمع التركى ، على وجه التحديد . مجتمع رجال ، ولما كان اتصال الرجال بالنساء محظورا خارج البيت . فقد أنس المسلمون بمعاشرة الغلمان ، عشرة عذرية (أفلاطونية) أو جسدية . وانتشر السحاق داخل الحريم (٨) .

وسادت حياة عقلية نشيطة ، ولو أنها مقيده ، بين أقلية كبيرة من المسلمين. وربما كانت نسبة معرفة الكتابه والقراءة فى تركية أوربا فى القرن السابع عشر أعلى منها فى العالم المسيحى وربما حكمنا على وفرة الكتب من ثبت جمعه حاجى خليفة (١٦٤٨) ، يضم أكثر من ٢٥ ألف كتاب فى اللغات العربيه والتركية والفارسية . وكانت هناك مئات المجلدات فى الدين والفقه والعلوم والطب والبلاغة والسير والتاريخ (٩) . وكان من أشهر المؤرخين أحمد بن محمد ، غالبا ما استندنا فى كتابتنا هذه إلى مؤلفه « تاريخ الأسرات الإسلامية فى أسبانيا » (نفح الطيب) . وقد عرفناه أساسا باسم « المقرى » ، وقد أشتق أسمه من اسم مسقط رأسه فى قرية فى الجزائر . ومعظم كتابه عبارة عن قطع منقولة أو مختصرة من كتب قديمة ، ومع ذلك فهو انتاج جدير بالذكر فى عصره ، لم يزودنا بأخبار السياسة والحرف فقط ، بل أمدنا كذلك بشىء عن الأخلاق والقانون والنساء والموسيقى والأدب والطب . وأحيا مدونته بالتفاصيل الممتعة والحكايات والنوادر التهذيبية .

ونظم الشعر كل من عرف القراءة والكتابة فى تركيا تقريبا . واشترك الحكام بحماسة فى هذه المباراة (كما هو الحال فى اليابان) . وألف محمد سليمان أوغلوا المعروف « بالفضولى » (وهو أسم أخف على السمع) ، أرق أغانى الحب فى ذاك العصر ، وربما بدت سخيفة ساذجة فى الترجمة . الإنجليزية الرديئة التى توفرت لنا ، ولكننا ندرك مراميه — تميزت غادات بغداد بالدفء والحرارة والطراوة ونعومة الملمس ، والخفر والرقه حتى

يتزوجن . أما محمود عبد الباقى (المتوفى ١٦٠٠) وهو أعظم الشعراء العثمانيين العثمانيين ، فانه بعد أن كان المغنى الأثير لدى سليمان القانونى ، ظل يشدو لمدة أربعة وثلاثين عاما بعد وفاة راعيه . وكتب نافع الذى عاش فى أرضوم ، هجاء لاذعا ، لابد أن شيئا منه صعد إلى السماء ، فانه بينما كان السلطان مراد الرابع يقرأ قصيدة منه نزلت صاعقة على قدميه، فمزق السلطان الكتاب ونفى الشاعر من القسطنطينية ، وسرعان ما أعيد إليها ، ولكن قصيدة هجائية أخرى لذعت الوزير بيرم باشا ، فأمر بقطع رأسه (١٠) .

وظل الفن العثمانى ينتج التحف والروائع ، فقد بنى مسجد أحمد الأول فى ١٦١٠ ليشرف على العاصمة بمآذنه الست المحلقة فى الجو . وسلسلة قبابه المنتفخة (البصلية الشكل) ، وأعمدته المحززة الضخمة فى الداخل ، وأقواس الفسيفساء ، والكتابات الفخمة والزخارف المتألقة . وبعد ذلك بخمسة أعوام أهدى السلطان لزوجته ذات الحظوة لديه مسجد يينى فالدى جاميسى الرائع . وبنى فى هذه الحقبة فى دمشق مسجدان فخمان . أما فى أدرنه فإن المهندس المعمارى الذى لا نظير له . سنان الذى كان قد وضع تصميم مسجد سليمان شاد للسلطان سليم الثانى مسجدا يعده بعض الناس أعظم من أى مسجد آخر فى القسطنطينية .

ولم تتفوق أية حضارة على الإسلام فى صنع تربيعات القرميد الجميلة التى نشاهدها ، على سبيل المثال فى مسجد أحمد الأول ، وأجمل منها تلك التى تزين مدخل ضريح سليم الثانى بالقرب من أيا صوفيا بباقات من الأزهار البيضاء والزرقاء وسط أغصان وأوراق خضراء وزرقاء وحمراء ، ولا يمكن أن تكون الزهور الحية أجمل من ذلك ، بل قد تحسد نظيراتها المصنوعة على طول بقائها . وكانت أزنيق — حيث رأس قسطنطين منذ ثلاثة عشر قرنا المجمع التاريخى الذى ثبت العقيدة المسيحية — نقول كانت مشهورة بتربيعاتها البراقة وثمة نماذج مقنعة منها فى متحف المتروبوليتان للفن .

وكان رسم المنمنمات فى تركيا يحاكى نظيره فى فارس التى سنتحدث عنها وشيكا أما الخط فقد ذاع صيته (يقال أن سطرا واحداً بخط مير عماد بيع بقطعة

من الذهب أثناء حياته)[١١] إلى حد أنه لم يطبع أى كتاب فى تركيا قبل عام ١٧٢٨ . وفى النسيج كذلك كان الأتراك تلاميذ الفرس ، ولكن لم يتفوق عليهم فيه إلا هؤلاء . ولم يبلغ السجاد التركى درجة الإيرانى فى رقة النسيج ودقة التصميم والرسم أو الثراء فى الألوان . ولكنهم يحتلون مكانة عالية فى تاريخ هذا الفن . وكان السجاد التركى فى القرن الخامس عشر قد كسب شهرته بالفعل فى الغرب لأننا نراه فى لوحات الرسام الإيطالى أندريا ما نتنيا ، وبعده فى بنتوريكيو ، وفى باريس بوردون وهولبين . وكسى كثير من قصور التيودور بالسجاد التركى ، بل إن كرومول المتصدد نفسه كان لديه اثنتان وعشرون قطعة منه[١٢] . وإننا لنجد هذا السجاد ممثلا فى قطع النسيج المزركش (الكانفاه ، الجوبلان) ، يوضح للناس حياة لويس الرابع عشر . لقد كان الغرب يدرك أن الشرق لديه الفنون والمدافع سواء بسواء .

٢ ـــ معركة ليبنتو

ومهما يكن من شىء ، فقد كان على حكام الغرب أن يرقبوا المدافع ، لأن سلاطين آل عثمان كانوا قد أعلنوا عن عزمهم على تحويل أوربا بأسرها إلى الإسلام . أن رصيدهم البشرى وثروات ممتلكاتهم الزاحفة فى كل مكان هيأت لهم أكبر جيش وأحسنه عتادا وعدة فى أوربا . وكان عدد الانكشارية وحدهم خمسين ألفا . وربما كان خلاص الغرب وخلاص المسيحية فى ترامى أطراف الإمبراطورية العثمانية على هذا النحو ، فما كانت المسافات البعيدة لتساعد على تجميع الموارد المبعثرة فى الوقت المناسب ، كما أن السلاطين ، ولو أنهم شكلوا أسرة حاكمة أبقى على الزمن من أية أسرة حاكمة مسيحية ، دب فيهم الفساد وانتابهم التدهور حيثما تهيأت « للحريم » فرصة لتحقيق مآربهن ، وكانوا يكلون أمور الحكم إلى وزراء مؤقتين سريعى الزوال، نزع بهم تزعزع مراكزهم إلى التخفيف من وطأة سقوطهم واعتزال مناصبهم ، بجمع الثروات أيام سطوتهم .

وهكذا كان سليم الثانى الذى خلف سليمان القانونى ١٥٦٦ ، حاكما منحلا خاملا ، لم تتجل عبقريته إلا فى أنه عهد بالإدارة والسياسة إلى وزيرة القدير محمد سوكللى . وانقطعت غارات الأتراك على الإمبراطورية الرومانية المقدسة لأن الإمبراطور مكسيمليان الثانى اشترى السلام مقابل جزية سنوية قدرها ٣٠ ألف دوكات . وحول سوكللى وجهه شطر فريسة أقرب . فقد احتفظت بلاد العرب من قبل ، باستقلالها الدينى ، ولكن تم الآن للباب العالى فتحها (١٥٧٠) وكانت ممتلكات البندقية لاتزال متناثرة فى بحر ايجه ، تعوق أساطيل تركيا وتجارتها . وقصد لا لا مصطفى على رأس ٦٠ ألف مقاتل لمهاجمة قبرص وأهابت البندقية بالدول المسيحية لنجدتها ، فلم يستجب لندائها إلا البابا وأسبانيا . فإن بيوس الخامس لم يكن قد نسى أن الأسطول التركى فى ١٥٦٦ هدد أنكونا ثغر البابا وقلعته على الإدرياتيك . كما علم فيليب الثانى أن عرب الاندلس استصرخوا السلطان لإنقاذهم من ويلات الحكم الاسبانى (١٥٦١) وأن السلطان رحب بمبعوثيهم إليه . وكان الموقف الدبلوماسى مواتيا . ذلك أن الإمبراطور لم يكن يشترك فى الحرب ضد تركيا ، لأنه كان قد وقع من فوره معاهدة سلام معها ولم يكن من الشرف ولا فى مصلحة أمنه أن ينقضها . وعارضت فرنسا أية خطة تزيد من قوة أسبانيا وترفع من شأنها . ووثقت عرى الصداقة مع الاتراك عونا لها على مواجهة الإمبراطور . وخشيت انجلترا مغبة الدخول فى مغامرة مشتركة مع فيليب الثانى يجعلها تحت رحمة أسبانيا الكاثوليكية فى حالة انتصارها . وساور البندقية بعض القلق من أن الانتصار قد يأتى بالقوات الأسبانية إلى الأدرياتيك . فتقضى على احتكار البندقية لهذا البحر وسيطرتها عليه . وقضى بيوس عاما كاملا فى التغلب على هذه الحيرة والتردد . وكان عليه أن يرضى باستخدام البندقية وأسبانيا لأموال الكنيسة . وأخيرا فى ٢٠ مايو ١٥٧١ انضمت القوى الثلاث فى « عصبة مقدسة » واستعدت للحرب .

وفى أثناء هذه المفاوضات تقدم الهجوم التركى على قبرص . مع خسائر

جسيمة تكبدها الطرفان . وسقطت نيقوسيا بعد حصار دام خمسة وأربعين يوما . وأعدم بحد السيف عشرون ألفا من سكانها ، وقاومت فاماجوستا زهاء عام . وعندما سقطت (٦ أغسطس ١٥٧١) سلخ البطل المدافع عنها ، مارك أنطونيو براجادينو ، حيا ، وحشى جلده بالقش وأرسل إلى القسطنطينية تذكارا للنصر .

وكانت الظروف تستحث العصبة المقدسة على العمل ، فجمعت قوانها . وأسهمت بالسفن والرجال ، كل من فلورنسة وبارما ولوكا وفراما وأوربينو وجنوه ، عدو البندقية القديم . وفى نابلى تسلم دون جوان النمسوى لواء العيادة فى احتفال مهيب من الكاردينال دى جرانفل . وفى ١٦ سبتمبر ، بعد أن تناول البحارة والجنود القربان المقدس من يد الجزويت والكبوشيين الذين التحقوا بالحملة ، أبحر الأسطول الضخم (الأرمادا) من مسينا إلى جزيرة كورفو فى محاذاة جنوبى إيطاليا ، عبر مضيق أوترانتو . وهناك ترامت أنباء المذابح والفظائع التى اقترنت بسقوط قبرص . وتعالت صيحات «النصر النصر» فليحى المسيح ، عندما أصدر دون جوان أوامره بالانطلاق إلى القتال .

وفى ٧ أكتوبر ١٥٧١ تحرك الأرمادا عبر خليج بتراس إلى خليج كورنث . وكان الأسطول التركى ينتظر بعيدا عن ثغر ليبنتو ، وهو يضم ٢٢٢ سفينة شراعية كبيرة ، و ٦٠ سفينة صغيرة ، و ٥٧٠ مدفعا ، و ٢٤ ألف جندى ، و ١٣ ألف ملاح ، و ٤١ ألف مجدف . وكان لدى المسيحيين ٢٠٧ سفن شراعية ، وست سفن شراعية فينيسية ضخمة تحمل المدافع ، و ٣٠ سفينة صغيرة و ١,٨٠٠ مدفع . و ٣٠ ألف جندى و ١٣ ألف وتسعمائة ملاح ، و ٤٣ ألف مجدف[١٣] . ورفع الأسطول المسيحى علم المسيح مصلوبا . ورفع الأسطول التركى علم السلطان يحمل لفظ الجلالة « الله » موشى بالذهب . وتراجع جناح المسيحيين الأيمن أمام الأتراك ، ولكن الجناح الأيسر الذى كان يقوده البنادقة حول المقاومة الضارية إلى هجوم منظم ، وأودت مدفعيتهم

بحياة آلاف من الأتراك . وأصدر دون جوان أمره بأن تتحرك سفينة قيادته قد مانحو سفينة أمير البحر التركى موسيناد على . فلما التقت السفينتان ، قفز ثلثمائة من جنود دون جوان الأسبان المحنكين إلى السفينة التركية بقيادة راهب كبوشى ، يلوح بالصليب عاليا . وتقرر مصير المعركة ، عندما أسرت السفينة ، ورفع رأس على المفصول عن جسده فوق سارية عليه[١٤] . وانهارت الروح المعنوية لدى الاتراك . وهربت ٤٠ من سفنهم ، وأسرت ١١٧ أخرى ، كما أغرق أو أحرق خمسون سفينة . ولقى حتفه فى المعركة أكثر من ثمانية آلاف رجل من الاتراك ، وأسر عشر آلاف ، ووزع معظمهم رقيقا على المنتصرين . وحرر نحو ١٢ ألفا من الأرقاء المسيحيين الذين كانوا يقومون بالتجديف على المراكب التركية . وفقد المسيحيون ، وقتل منهم ٧٥٠٠ رجل من بينهم أفراد من أعرق وأشهر الأسرات فى إيطاليا . ولا نزاع فى أن معركة ليبنتو كانت أعظم معركة بحرية فى التاريخ الحديث . ووصفها سرفنتيز الذى كان من بين الجرحى المسيحيين البالغ عددهم ٧٥٠٠ بأنها «أعظم حدث بارز جدير بالذكر شهدته العصور الخوالى أو العهود الحاضرة . وقد لا يكون له نظير فى المستقبل(*) »[١٥] .

وكان يجدر أن تكون هذه أكبر معركة فاصلة فى التاريخ الحديث ، لولا أن استنزاف المجدفين والأضرار التى لحقت بالأسطول المنتصر ، وهبوب عاصفة عنيفة ، حال دون تعقب الاتراك . فقد ثار النزاع بين المسيحيين حول اقتسام المجد والغنائم . ولما كانت أسبانيا قد أسهمت فى القتال بنصف السفن والنفقات ، والبندقية بثلثها والبابا بالسدس ، فقد وزعت الغنائم بقدر هذا الاسهام . ووزع الأسرى الاتراك بهذه النسبة ، فخص أسبانيا ٣٦٠٠

(*) على بعد نحو مائة ميل إلى الشمال الغربى ، قرب أكتيوم . على خليج آرتا الحالى ، انتزع اكتافيوس بأربعمائة سفينة حربية السيادة على عالم البحر المتوسط القديم من أنطونيوس وكليوبطره ، وسفنهما الحربية الخمسمائة (٢ سبتمبر ، ٣١ ق . م) .

عبد مكبلين فى الأصفاد ، ومن نصيب البابا منح دون جوان ١٧ عبدا مكافأة شرفية لقاء خدماته(١٦) . ورغب بعض الزعماء المسيحيين فى الاحتفاظ بالارقاء المسيحيين الذين حرروا من السفن التركية ، ولكن البابا بيوس الخامس حرم هذا التصرف(١٧) .

وابتهجت أوربا الكاثوليكية بأسرها حين وصلت أنباء النصر . وازدانت البندقية بأكاليل الزهر والتحف الفنية ، وتبادل الرجال القبلات فى الشوارع ، ورسم تيشيان وتنتورتو وفيرونيز لوحات ضخمة عن المعركة ، واحتفل بالقائد الفينيسى سباستيان فنييرو أياما وليالى كثيرة ، وأخيرا اختير لتولى منصب « الدوج » (القاضى الأول فى جمهورية البندقية) . أما فى رومه ، حيث قضى رجال الدين وعامة الناس ساعات كل يوم فى الصلوات وأحر الدعوات منذ غادر الارمادا مسينا ، فقد تعالت صيحات « الشكر للرب » فى مرح وابتهاج وارتياح ، وكاد البابا بيوس الخامس ، منظم النصر ، أن يرفع دون جوان إلى مرتبة القديسين وأطلق عليه عبارة الإنجيل « هناك رجل أرسل من عند الله اسمه يوحنا » (انجيل يوحنا ، ١ : ٦) وتليت القداسات وأطلقت الألعاب النارية ، ودوت طلقات المدافع . ورجا البابا من المنتصرين أن يحشدوا أسطولا آخر ، وتوســـل إلى حكام أوربا أن ينتهزوا الفرصة ليتحدوا فى حرب صليبية لطرد الأتراك من أوربا، ومن الأرض المقدسة . وأهاب بشاه إيران ، وبأمير اليمن السعيد أن ينضما إلى المسيحيين للانقضاض على الاتراك(١٨) . ولكن فرنسا الحاقدة على أسبانيا اقترحت على السلطان ، عقب ليبنتو مباشرة ، تحالفا مباشرا ضد فيليب الثانى(١٩) * .

(*) فى عام ١٥٣٦ حصلت فرنسا من تركيا على أولى « الامتيازات » . وجددت فى ١٥٦٩ ولم تكن تنازلات بل معاهدة اتفق بمقتضاها ، أساسا ، على أن يعامل الرعايا الفرنسيون فى الأراضى التركية ، ويحاكموا وفق القانون الفرنسى « القضاء خارج أراضى الدولة » ووقعت تركيا مثل هذه الامتيازات مع انجلترا فى ١٥٨٠ ، ومع المقاطعات المتحدة (فى الأراضى الوطيئة) فى ١٦١٣

واشتركت أنباء هذا العرض مع عوامل أخرى فى ثنى فيليب عن عزمه على القيام بعمل جديد ضد القوة العثمانية الرئيسية . وتورط فى النزاع مع انجلترا ، وفى المأزق الذى أوقعه فيه دوق ألفا فى الأراضى الوطيئة ، كما استاء من إصرار البندقية على احتكار التجارة فى الأدرياتيك ، وخشى من أن انتصار ثانيا على الأتراك قد يبعث القوة والحياة فى امبراطورية البندقية المتداعية ، فتصبح منافسا قويا لأسبانيا . أما بيوس الخامس الذى أرهقته الانتصارات والهزائم معا ، فإنه لقى ربه فى أول مايو ١٥٧٢ ، وماتت معه العصبة المقدسة .

٣ — اضمحلال السلاطين

وفى نفس الوقت ، وبنشاط أفزع الغرب ، بنى العثمانيون أسطولا آخر ، فى مثل ضخامة الأسطول الذى كاد أن يدمر عن آخره . وفى بحر ثمانية أشهر بعد معركة ليبنتو ، كان ثمة أسطول تركى مكون من ١٥٠ سفينة يجوب البحار بحثا عن الأسطول المسيحى الذى بلغ من سوء النظام حداً لم يجرؤ معه على الخروج من مكمنه . وشجع الجميع البندقية على استئناف الحرب ، ولكن أحداً لم يمد لها يد المساعدة ، ومن ثم فإنها عقدت مع السلطان (٧ مارس ١٥٧٣) صلحا لم تتنازل بمقتضاه عن قبرص فحسب ، بل دفعت كذلك للسلطان تعويضا يغطى ما تكبده من نفقات فى فتح الجزيرة . لقـــد خسر الأتراك المعركة ولكنهم كسبوا الحرب . ويبدو كيف أنهم لم يصبهم أى وهن ، من العرض الجرىء الذى تقدم به سوكوللى إلى البندقية (١٥٧٣) ، وهو أنها إذا انضمت إلى الأتراك فى حربهم ضد أسبانيا ، فلسوف يساعدونها فى غزو مملكة نبلى لتكون تعويضا سخيا لها عن ضياع قبرص . ورفضت البندقية هذا العرض لأنه يشجع السيطرة التركية على إيطاليا والعالم المسيحى . وفى أكتوبر أحيا دون جوان مجده بالاستيلاء على تونس لحساب أسبانيا ، ولكن فى بحر عام واحد استطاع الأتراك بأسطول ضخم آنذاك (٢٥٠ سفينة) استعادة المدينة

وذبح الأسبان الذين كانوا قد استوطنوها حديثا . وعلى سبيل الاحتياط أغاروا على سواحل صقلية . ومات سليم الثانى فى ١٥٧٤م، ولكن ظل صوكوللى يتولى شئون الدولة ويدير دفة الحرب .

وقد يدعو إلى حيرة الفلاسفة أن يرى المؤرخون اضمحلال الدولة العثمانية فى عهد مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥) على حين أنه كان يحب الفلاسفة . ولكنه كان مولعا بالنساء كذلك . وأنجب مائة وثلاثة أطفال من عدد غير كبير من الزوجات . وكانت «بافو» الزوجة ذات الحظوة لديه ، وهى أمة من أسرى البندقية ، أسرته بمفاتنها ، وتدخلت فى شئون الدولة ، واشترى نفوذها بالمال ، وتقلص نفوذ سوكوللى ، ولما اقترح بناء مرصد ثارت ثائرة الشعب ضده فى نعرة تعصب ذميم ، فقتلوه (١٥٧٩) ، وربما كان هذا بأمر السلطان مراد . وعمت الفوضى ، وانخفضت قيمة العملة ، وتمرد الانكشارية لهبوط قيمة أجورهم لأنهم يتسلمون نقداً رديئا ، وأفسدت الرشوة الموظفين ، بل أن أحد الباشوات كان يفاخر بأنه رشا السلطان . وانغمس مراد فى ملذاته الجنسية ومات متأثراً بالإفراط فيها .

وسيطرت «بافو» على أبنها محمد الثالث (١٥٩٥ ١٦٠٣) قدر سيطرتها على والده . وبدأ حكمه بالعملية التقليدية ، فقتل تسعة عشر من أخوته ، إغراء وحثا لآل بيته على أن يركنوا إلى الهدوء والمسالمة ، ولكن اخصاب مراد . أو ذريته الكبيرة ، جعلت من هذا السلام المنشود مشكلة عسيرة ، فإن كثيراً من أبناء السلطان بقوا على قيد الحياة تحدق بهم الأخطار . وانتشر الفساد وسادت الفوضى . وضيعت الهزيمة فى الحرب مع النمسا وفارس قيمة الانتصارات التركية . رواجه أحمد الأول خطر ظهور الشاه عباس الأول حاكما قوياً فى فارس ، فقرر حشد قواته على الحدود الشرقية ، ورغبة فى التخفيف منها فى الغرب ، أمر السلطان وكلاءه بتوقيع صلح «زتفانوروك» (١٩٠٦) ، وهى أول معاهدة تنازل الأتراك المزهوون بتوقيعها خارج القسطنطينية . ودفعت النمسا للسلطان مائتى ألف دوكات ، ولكنها أعفيت من أية جزية

بعد ذلك . وقبلت ترنسلفانيا السيادة التركية طواعية واختيارا ، كذلك عقدت فارس الصلح (١٦١١) ، وأعطت تركيا مليون رطل من الحرير ، تعويضا عن الحرب . وتميز هذا العهد فى جملته بالتوفيق والسلامة لولا ما شابه من استمرار الانكشارية فى تمردهم . وكان السلطان أحمد رجلا تقياً حسن النية ، وبذل للجهد ، ولكنه أخفق فى القضاء على قتل الإخوة أخوتهم فى الأسرة المالكة .

وأقترح عثمان الثانى (١٦١٧ — ١٦٢٢) تنظيم الانكشارية والإصلاح من شأنهم ، ولكنهم اعترضوا وقتلوه ، وأجبروا أخاه الأبله المعتوه مصطفى الأول على اعتلاء العرش ، ولكن مصطفى أوتى من رجاحة العقل ما جعله يتخلى عنه (١٦٢٣) لابن أخيه مراد الرابع البالغ من العمر أثنى عشر عاما (١٦٢٣ — ١٦٤٠) . واختار الانكشارية كبار الوزراء ، وكانوا يذبحونهم كلما لاح لهم أنه قد آن الأوان لأحداث تغيير . واقتحموا القصر الملكى وأجبروا السلطانة قسيم على أن تفتح لهم أقبية الكنوز استرضاء لهم . وفى ١٦٣١ عادوا إلى القصر ثانية ، وتعقبوا السلطان الشاب إلى جناحه الخاص وطالبوا برؤوس سبعة عشر موظفاً . وقدم أحدهم — حافظ — نفسه للجماعة ، فداء للباقين ، فمزقوه إربا . وقابلهم مراد ، وهو لايزال بعد غض الإهاب ، بما بدا أنه تهديد هين لين : « إنى لأرجو أن يمدنى الله بعون من عنده : يا رجال الدم ، يا من لا تخشون الله ، ولا تستشعرون الخجل أمام رسوله ، سيحل عليكم أشد الانتقام[٢٠] » وانتهز الفرصة الملائمة ليشكل قوة موالية له ، ودبر قتل الواحد تلو الآخر من زعماء التمرد . وسحقت محاولات أخرى للثورة والعصيان ، بقسوة شديدة . وفى بعض الأحيان ، شارك السلطان بنفسه ، مثل — بطرس الأكبر — فى تنفيذ أحكام الأعدام . وقتل كل أخوته فيما خلا واحداً ظنه أبله لا يخشى منه شيء . وفى نشوة سلطته الملكية فرض عقوبة الأعدام على تناول التبغ أو القهوة ، والأفيون أو الخمر . وقيل أن جملة من أعدموا فى عهده مائة ألف شخص ، باستثناء من لقوا حتفهم فى

الحرب[٢١] . واستتب لبعض الوقت النظام الاجتماعى ونزاهة الإدارة .
ولما أحس الآن بأنه فى مأمن إلى حد معقول ، استأنف الحرب مع فارس ؛
وقبل أن يتحداه محارب فارسى فى نزال فردى ، فأرداه قتيلا ، واستولى على
بغداد (١٦٣٨) ، وجاد بصلح على نصر ، ولدى عودته إلى القسطنطينية
استقبله أهلوها استقبال المنتصر الظافر . ومات بعد ذلك بعام واحد متأثرا
بداء النقرس الذى سبب له الادمان على الخمر . وكان فى الثامنة والعشرين
من العمر .

وبعد وفاة مراد الرابع ، عاد اضمحلال تركيا سيرته الأولى . فإن ابراهيم
الأول نجا من موت محقق بيد أخيه ، لكونه مخبولا ، أو لتظاهره بالخبل ،
وتجددت الفوضى والفساد فى ظل حكمه الضعيف الطائش . وشن الحرب على
البندقية وأرسل حملة إلى كريت . وسد البنادقة منافذ الدردنيل . وتضور
أهالى القسطنطينية جوعا . وثار الجيش وشنق السلطان . وعادت إلى ذاكرة
الغرب المسيحى قصة الحرس البريتورى فى رومه ، وانتهوا إلى أنه لم يعد ثمة
مبرر لأن يرهبوا قوة الأتراك وفى بحر خمس وثلاثين سنة أخرى كان
الأتراك على أبواب فيينا من جديد .

٤ — الشاه عباس الأكبر : ١٥٨٧ — ١٦٢٩

انه لمن حسن حظ الغرب المسيحى أنه فيما بين عامى ١٥٧٧ و ١٦٣٨ ،
حين كانت فرنسا أولا ، ثم ألمانيا من بعدها ، قد شلت حركتها الحروب
الدينية ، أن الأتراك الذين كان يمكن أن يمدوا حدودهم الغربية إلى فيينا ،
وجهوا كل همهم وطاقتهم إلى فارس . وهنا أيضا كان الدين مبررا يستتر وراءه
شهوة السلطان والسيطرة . فإن الأتراك الذين كانوا يتبعون المذهب السنى ،
رموا الفرس بالمروق لأنهم اتبعوا مذهب الشيعة ، ودمغوا كل من ولى
الخلافة بعد على ، وهو زوج بنت الرسول ، بأنه مغتصب لها . وكانت ذريعة

الحرب بطبيعة الحال دنيوية أكثر منها دينية — وهى الرغبة فى حكم الأقليات طمعا فى مزيد من الأراضى والموارد والسكان الذين يمكن أن تفرض عليهم الضرائب . ونتيجة لسلسلة من الحروب المتواصلة تقدم الأتراك نحو الفرات والقوقاز وبحر قزوين ، مستحوذين على العاصمة الفارسية الجديدة تبريز ، والعاصمة العربية القديمة بغداد، التى وصفها بيدرو تكسيرا (١٦١٥) بأنها مدينة غنية عامرة بالأتراك والفرس والعرب واليهود ، الذين يعيشو فى ٢٠ ألف بيت من الآجر ، تزحمها حركة الثيران والجمال والخيل والحمير والبغال المحملة ، والرجال نظيفى الثياب ، وكثير من النساء المليحات الوسيمات ، وعيونهن ، كاهن تقريبا ، جميلة تحدق فوق خمرهن أو من خلالها ،[٢٢] . وقد كلف أحد الموظفين بالسهر على حماية الغرباء هناك .

وإلى الشرق من بغداد والفرات كانت تقع الولايات الفارسية الممزقة ، وتمتد إلى القوقاز وبحر قزوين فى الشمال الغربى ، وإلى تركستان فى الشمال الشرقى ، وإلى أفغانستان شرقا ، وإلى المحيط الهندى جنوبا ، وإلى خليج العرب (الخليج الفارسى) فى الجنوب الشرقى ، وكأنها أجزاء مبعثرة لجسم واحد ، تنتظر أن تحل فيها روح تضم شتاتها .

وكان عباس الأكبر خامس شاه ، أو ملك ، من الأسرة الصفوية التى كان قد أسسها إسماعيل الأول فى تبريز ١٥٠٢ . وفى عهد الشاه الثانى طهماسب الأول الذى امتد حكمه طويلا (١٥٢٤ ــ ١٥٧٦) تعرضت الدولة الجديدة لغارات كبيرة من الأتراك . وبعد موته فتح الأتراك الولايات الفارسية : العراق ولورستان وخوزستان وضموها إلى أملاكهم . وفى نفس الوقت جاء الأزابكة من بلاد فيما وراء النهر ، واستولوا على هراة ومشهد ونيسابور ، واجتاحوا الولايات الفارسية الشرقية . ولما ارتقى عباس العرش (١٥٨٧) وهو فى الثلاثين من العمر ، دون أن يكون له عاصمة ، عقد الصلح مع الأتراك ، وتقدم شرقا ليقابل العدو الأصغر شأنا وأقل نفرا . وبعد حروب دامت أعواما استرد هراة وطرد الأزابكة من فارس ، ومات بعد ذلك متلهفا

على ملاقاة الاتراك . ولكن الخسائر والأحقاد القبلية كانت قد استنزفت جيشه الذى كان كذلك تعوزه أحدث وسائل الفتك والتدمير .

وحوالى هذه الفترة (١٥٩٨) وصل من انجلترا إلى فارس فى بعثة تجارية انجليزيان مغامران هما سير أنطونى شيرلى وأخوه الأصغر روبرت ، يحملان هدايا ثمينة وخبرة عسكرية . وكان برفقتهما خبير فى صنع المدافع . وتمكن الشاه عباس بمساعدتهما من إعادة تنظيم جيشه ، وزوده بالبنادق والسيوف معا ، وسرعان ما توافر لديه ٥٠٠ مدفعاً . وقاد قواته الجديدة ضد الأتراك وطردهم من تبريز (١٦٠٣) ، واسترد اريفان وشروان وكادن . فأرسل عليه الأتراك جيشا عرمرما قوامه مائة ألف رجل ، هزمه عباس بستين ألفا فقط (١٦٠٥) ، واسترد بذلك أذربيجان وكردستان والموصل وبغداد وامتد حكم عباس من الفرات إلى السند .

وحتى قبل هذه الحملات الشاقة ، كان الشاه عباس قد شرع (١٥٩٨) فى تشييد عاصمة جديدة ، أبعد منالا على الغزاة من تبريز ، وأقل تدنسا بذكريات الأجانب واقدام السنين ، كانت أصفهان موغلة فى القدم لمدة ألفين من السنين (ولو لم تكن تحمل هذا الاسم) ، وكان عدد سكانها ثمانين ألفا . وعلى مسافة نحو ميل من المدينة القديمة أقام مهندسوه رقعة مستطيلة اسمها ميدان الشاه أو الميدان الملكى ، طولها ١٦٧٤ قدما وعرضها ٥٤٠ قدما ، وتحوطها الاشجار وعلى جانبين منها متنزهات مغطاة اتقاء المطر والشمس . وفى الناحية الجنوبية شيد مسجد الشاه أو المسجد الملكى ؛ وإلى الشرق بنى مسجد لطف الله والقصر الملكى ؛ وشغلت بقية المساحة بالحوانيت والخانات والمدارس . وإلى الغرب من الميدان شق طريق باتساع مائتى قدم « شاهار باغ » (البساتين الأربعة) تحف به الأشجار والحدائق تزينه البرك والنافورات وعلى جانبى هذا الطريق المزدان بالأشجار قامت قصور الوزراء . وجرى عبر المدينة نهر زاياند الذى بنيت عليه ثلاثة جسور ، كان أحدها « الله فردى خان » تحفة

جميلة فى فن البناء ، يمتد ١١٦٤ قدما مع طريق عريض ممهد ؛ ويمر مقنطر على الجانبين للمشاة ؛ وكانت المدينة الجديدة تروى وتبترد بواسطة القنوات والخزانات والنافورات والشلالات . وكان التصميم فى مجموعة قطعة رائعة فى تخطيط المدن ، تضارع أروع ما عرفه ذاك العصر فى أى مكان آخر (٢٣) .

وعندما زار الرسام الفرنسى سيمون شاردان أصفهان (١٦٧٣) دهش عند رؤية حاضرة على مثل هذا النسق فى الإدارة والتجارة والصناعات والفنون ، تحوطها ١٥٠٠ قرية ، ويسكنها ٣٠٠ ألف نسمة . وكان بالمدينة وضواحيها ١٦٢ مسجداً و ٤٨ كلية و ٢٧٣ حماما عاما و ١٨٠٠ خان (فندق صغير) . ووصف تافرنييه أصفهان عندما رآها فى ١٦٦٤ بأنها تضارع باريس فى الاتساع ولكن سكانها يبلغون عشر سكان العاصمة الفرنسية ، لأن كل أسرة فى أصفهان كان لها بيتها وحديقتها ، وأن الأشجار بها كانت كثيرة إلى حد أنها بدت « غابة لا مدينة » (٢٤) أنها صورة جميلة لولا أن تافرنييه يستطرد فيقول : « وأمام كل بيت حوض تلقى فيه كل أسرة فضلات بطونها . ثم يأتى الفلاحون يومياً ليحملوها ليستخدموها فى تسميد أراضيهم ، ولا بد أن تقابل فى كل البيوت فتحات فى الجدران تطل على الشارع . يقبع فيها الناس ، ولا يخجلون من المخاط والتبول على مرآى من الدنيا بأسرها »(٢٥) .

وكان الشاه عباس يدرك تمام الإدراك أن أوربا الغربية تحمد له شغله الأتراك فى الشرق ، فأرسل سير أنتونى شيرلى فى بعثة لاقامة العلاقات بينه وبين الحكومات المسيحية ، وفتح الطريق أمام صادرات فارس من الحرير دون تدخل الوسطاء الأتراك . وعندما قدم المندوبون الأوربيون إلى أصفهان أكرم وفادتهم وأباح لهم الحرية الدينية . وكان قد أسر خمسة آلاف من الأرمن أثنـــاء حروبه مع تركيا ، فلم يستعبدهم ، ولكن أباح لهم النهوض بمقرهم فى جولفا بالقرب من أصفهان ، وأفاد من نشاطهم التجارى ومن مهاراتهم . وهناك شادوا كنيستهم الخاصة بهم وزينوها بخليط من الصور المقدسه

المسيحية والزخارف الإسلامية ولعبت برأس الشاه عباس فكرة صهر الأديان كلها فى دين واحد « وفرض السلام على السموات والأرض »[٢٦] . وبطريقة أكثر واقعية استغل الشاه الحماس الشيعى لدى الفرس كأداة لرفع معنوياتهم وروحهم القومية ، وشجع شعبه على الحج إلى مشهد على أنها مكة مسلمى فارس ، وسعى هو بنفسه ثمانمائة ميل من أصفهان إلى مشهد ليؤدى المناسك ويوزع الهبات والصدقات .

ومن ثم فإن العمارة التى جعل أصفهان تتألق بها ، كانت دينية أساساً ، مثل كنيسه العصور الوسطى فى الغرب . فكان يحول أموال الفقراء إلى أماكن للعبادة تكون عظمتها وجمالها وهدوءها مفخرة وملكاً للجميع . وكان أعظم ما يثير الاعجاب فى مبانى العاصمة الجديدة مسجد الشاه الذى بنـــاه عباس (١٦١١ — ١٦٢٩) . وكان « الميدان » مدخلها الرائع وطريقها الفاخر ، وبدأ الميدان كله وكأنه يؤدى إلى البوابة التى ترحب بالداخلين إليها . وأول ما يبهر العين المآذن التى تطوق المدينة بأبراجها النائته المخرمة التى يوحد المؤذنون فيها الله ، والخزف اللامع الذى يكسو أطار الأبواب ، ثم الأفريز وما عليه من عبارة منقوشة . يتقرب بها عباس إلى الله بهذا الضريح . حتى حروف الهجاء فى فارس كانت فنا . وكانت الحوائط داخل العقود مزدانة بعناقيد موشاة بزهور بيضاء . ثم الساحة الداخلية المكشوفة للشمس ، ومنها عبر أقواس أخرى إلى الحرم المقدس تحت القبة الكبرى . ويجدر بالمرء أن يقصد إلى الخارج مرة أخرى ليتفحص القبة ، والخط الكوفى الرائع عليها . وشكلها المنتفخ ، وهى مع ذلك رشيقة جميلة ، مغطاة بالتربيعات المطلية بالميناء ، فى لون أزرق وأخضر فى زخرفة عربية بديعة فوق أرضية لا زوردية . وعلى الرغم من جور الزمان فإن هذه « حتى فى يومنا هذا من أجمـــل المبانى فى العالم »[٢٧] .

وثمه مسجد قد لا يثير الاعجاب بمثل هذا القدر ، ولكنه أدق وأرق ،

وهو الذى شاده الشاه عباس تخليداً لذكر والد زوجته ، وهو من أولياء الله الصالحين ، وهو مسجد الشيخ لطف الله ، وله باب رشيق ، وحرم ومحراب من الفسيفساء الفاتنة ، وفوق كل هذا ، فإن جماله من الداخل يجل عن الوصف ، وأبعد عن التصديق — الزخارف العربية ، والأشكال الهندسية والزهور والحليات الدرجية فى رسم متقن موحد . وهذا هو فن تجريدى ، ولكن فى منطق وتكوين واتساق لا يربك العقل أو يشوش الذهن ، بل فى نظام يسهل إدراكه ، يبعث فى النفس الارتياح والهدوء .

وفى الجانب الشرقى من الميدان بنى الشاه عرشاً مكشوفاً تحت قوس كبير « الباب العالى ». وفيه استقبل الناس أو شهد سباق الخيل أو مباريات البولو فى الميدان (*) . وخلف هذه البوابة كانت تقع الحدائق الشاهانية ، وهى تضم عدة قصور استخدمها الشاه لأغراض خاصة . ولا يزال أحد هذه القصور موجوداً ، ولكن نال منه الزمن كثيراً . أربعون عموداً ، قاعة الاستقبال ، حجرة العرش قائمة على عشرين عموداً من شجر الدلب ، مكسوة بالمرايا ، وقاعة طويلة تزينها رسوم زيتية تحكى أحداث عصر الشاه . وكانت أبواب القصر مصنوعة من الخشب المصقول المزدان بمناظر الحدائق ومجموعات الزهر . وفى متحف المتروبوليتان للفن يوجد اثنان من هذه الأبواب . ولا تزال قائمة فى مكانها الزخارف الجصية اللامعة ، مذهبة ، وفى ألوان أخرى ، من سقف قاعة الاستقبال . وهنا أيضاً نجد الفن التجريدى ، وقد بلغ حد الكمال فى المنطق وفى التصميم .

ووجه الشاه عباس من قصوره المتعددة ومن معسكره حيـاة مملكته الآخذة فى الاتساع . لقد اهتم ، مثل معظم الحكام العظام ، بكل الجوانب فى حياة شعبه . فبنى الطرق والجسور ، ومهد الأميال الكثيرة من الطرق ورصفها

(*) لا تزال أعمدة المرمر الرخامية قائمة فى الميدان . وجاءت لعبة البولو إلى أوربا من فارس .

بالحجارة . وشجع الصناعات والتجارة الخارجية وإستخراج المعادن من بطن الأرض . وبنى السدود ، وتوسع فى رى الأراضى ، وأمد المدن بالماء النقى . وجدد المدن التى لحقت بها أضرار — مشهد ، قزوين ، تبريز ، همذان قال تافرنييه : « كثيراً ما تنكر الشاه وجاب أنحاء أصفهان ، كأى مواطن عادى ، مدعياً أنه يبيع ويشترى . وكل همه أن يكشف عن التجار المطففين الذين يستخدمون موازين ومقاييس زائفة ...... فرأى اثنين مجرمين منهم ، فأمر بدفنهما أحياء »(٢٨) تلك هى الطريقة الشرقية لغرض إحترام القانون وتدعيمه وعند قصور الإشراف والرقابة والشرطة ، يكون الهدف من صرامة العقوبة كبح جماح النزعة الطبيعية فى الإنسان إلى التحلل من القانون أو خرقه . وربما كانت الحياة الحافلة بالحروب هى التى جنحت بالشاه عباس إلى اللجوء إلى هذه القسوة أداة لكبح جماح الناس أو للانتقام . فقتل أحد أبنائه وسمل عينى آخر(٢٩) . ومع ذلك فإن هذا الرجل نفسه نظم الشعر ، وقام بكثير من أعمال البر والاحسان ، ورعى كثيراً من الفنون .

وبموت الشاه عباس (١٦٢٩) أنقضى العصر الذى بلغ فيه الحكم والفن فى ظل الأسرة الصفوية ذروة المجد . ولكن النظام الذى أرسى دعائمه نشاطه المتصل فى كل الميادين ، ظل سائداً قرابة قرن من الزمان بعده . وعلى الرغم من تعاقب عدد من الملوك الضعاف أحتفظت الأسرة الصفوية بالعرش حتى دهمها غزو الأفغان المفاجىء العنيف لبلاد الفرس (١٧٢٢ — ١٧٣٠) وعلى الرغم من فترة الانحلال السياسى هذه ، ظل فن الصفويين محتفظاً بمكانته بين أعظم نتاج لذوق الانسان ومهارته .

٥ — فارس تحت حكم الأسرة الصفوية : ١٥٧٦ — ١٧٢٢

والآن نلقى بنظرة على عهد الصفويين ، من وفاة طهماسب الأول (١٥٧٦) ، حتى نهايته (٢٢ ، ١) ، لأن هذا تطور ثقافى لا يمكن اقتطاعه ، تمشياً مع تسلسل الأحداث فى أوربا . لقد ترك لنا كثير من السائحين الغربيين بيانات مشرقة عن

هذا العصر فى فارس . منهم بدرو تكسيراً الذى كان هناك فى ١٦٠٠ والأب الجزويتى كرسنسكى الذى أقام فى أصفهان من ١٧٠٢ — ١٧٢٢ وكتب « تاريخ الثورة فى فارس » وهو يتناول الأسرة الصفوية بأسرها ، وجان تافرنييه الذى وصف بالتفصيل رحلاته (١٦٣١ — ١٦٦٨) فى تركيا وفارس والهند وجزر الهند الشرقية ، وجان شردان الذى دون فى عشرة مجلدات أنباء إقامته فى فارس (١٦٦٤ — ١٦٧٧) فإنه على الرغم مما لاقاه من ريح السموم بالقرب من الخليج ، وقع فى غرام فارس ، وآثر أصفهان على باريس وقت الصيف ، ووجد فى أصفهان من « الروعة والجمال » ما جعله يقول « أنا نفسى لا أستطيع أن أنساها أو أمسك عن ذكرها لكل إنسان » . وقال أن سماء فارس الصافية كان لها أثرها على الفن الفارسى فأضفت عليه بهاء ورواء ولونا براقاً . كما كان لها أثرها الطيب على أجسام الفرس وعقولهم [٣٠] (*) واعتقد أن الفرس أفادوا من إختلاطهم بأهل جورجيا والقوقاز الذين أعتبرهم أجمل وأشجع أهل الأرض — ولكنهم لا يضارعون الجياد الفارسية فى رشاقتها وجمالها [٣١] .

ولكن هذه البلاد التى كانت يوماً جنة عدن ، ومقر الخلفاء الذين ازدانوا بالجواهر الثمينة ، والشعراء الذين نظموا اعذب الشعر ، دمرتها غارات المغول وتمزق الحكومة ، واهمال الترع وهى شرايين الحياة ، وامتلاؤها بالطمى ، وتحول طرق التجارة ، فإن اكتشاف طريق مائى فى كل أجزاء من غرب أوربا إلى الهند والصين قد أصاب تجارة فارس بالكساد . على أن بعض التجارة أنتقل عبر الأنهار إلى الخليج . وفى ١٥١٥ استولى البرتغاليون على هومز وهى أهم الثغور على الخليج ، وظلوا فيها لمدة قرن . وفى ١٦٢٢ طردهم منها جيش الشاه عباس بمعونة سفن شركة الهند الشرقية الانجليزية ،

(*) أنظر شيشرون حيث يقول : « ان هواء أثينا الطيب يقال أنه ساعد على توقد الذكاء عند أهل أتيكا »

وبنى الشاه بالقرب منها مرفأ تجاريا آخر هو بندر عباس (ثغر عباس) ، فساعدت التجارة التى نمت فيه على تمويل الفن والبذخ فى عهده . وظلت القوافل تسير من الغرب إلى الشرق عبر فارس ، وخلقت شيئا من الثراء فى المدن الواقعة على طريقها ، ووصف تكسيرا حلب بأنها مدينة تضم ٢٦ ألف بيت ، كثير منها مبنى من الحجر المصقول ، وبعضها يليق لسكنى الأمراء ، كما تضم المسلمين والمسيحين واليهود جنبا إلى جنب ، كما كان بها حمامات عامة نظيفة جميلة ، وعدة شوارع مرصوفة بالبلاط المصنوع من الرخام[٣٢] .

ولم تكن الصناعة قد تجاوزت بعد طور الصناعات اليدوية — صناعة العصور الوسطى التى تتسم بالمثابرة على بذل الجهد والتذوق الرفيع مع الأناة والبطء — ولكن كان فى حلب مصنع للحرير ، وكان التبغ يزرع فى كل مكان ويقول شاردان أنه كان للفرس طريقة فى ترشيح التبغ ، فكان الدخان يمر بالماء ، ومن ثم « ينقى التبغ من كل العناصر الزيتية والضارة[٣٣] » وأصبح التدخين ضرورة ملحة لدى الفرس ، « فكانوا يغفلون الطعام ولا يغفلون النرجيلة[٣٤] » وكان الشاه على النقيض من ذلك ، فكره عادة التدخين ، وحاول أن يشفى منها رجال حاميته بحيلة . فأتى بروث الخيل وجففه ، ووضعه بدلا من التبغ فى الأوانى التى يملأون منها الأراجيل ، وأوضح لهم أن هذا تبغ غالى الثمن أهداه همذان ، فدخنوه ، وبالغوا فى إمتداحه . وأقسم أحد الضيوف أن له رائحة تعدل عبير ألف من الزهور . فصاح الشاه « بئس هذا العقار ، أنه لا يمكن التمييز بينه وبين روث الخيل[٣٥] » .

وكان أى رجل وهبه الله المقدرة والكياسة يستطيع أن يحتل مكانا فى حاشية الشاه ، فلم يكن هناك اعتبار لأرستقراطية المولد ، أو الحسب والنسب[٣٦] . فثياب الجنسين من كل الطبقات كانت فى أساسها واحدة . رداء يصل إلى الركبتين ، ذو أكمام ضيقة ، وحزام عريض (مصنوع أحيانا من الحرير الموشى بالزهور) حول الخصر ، وقميص من القطن أو الحرير تحت الرداء ، وسروال مضموم عند رسغ القدمين ، وعمامة تتوج هذا كله . وكتب تافرنييه:

« كانت ملابس النساء ثمينة ، وفيما عدا هذا لايفترقن عن الرجال فى شىء كثير ، فارتدين السراويل مثلهم »(٣٧) . وأقمن فى عزلة فى الحريم ، وقلما غادرن البيت ، فإذا فعلن فنادرا ماسرن على الأقدام . وكان ثمة ثلاثة أجناس ، فكان الرجال يوجهون كثيرا من شعر الغزل إلى الغلمان . ورأى توماس هربرت ، وهو انجليزى فى بلاط الشاه عباس — « سقاة من الغلمان فى صدرات من الذهب ، وعمامات مزدانه باللمع (الترتر) ، وأخفاف فاخرة ، تتدلى خصلات الشعر على أكتافهم ، عيونهم يقظة تحوم فى كل زاوية ، ووجناتهم متوردة »(٣٨) .

ولحظ شاردان نقصا فى السكان فى زمانه ، ونسبه إلى :

أولا : النزعة النكراء لدى الفرس إلى اتيان الفعلة البغيضة ، ضد الطبيعة مع الجنسين كليهما .

ثانيا : الترف المفرط (الحرية الجنسية) السائد فى البلاد ، فالنساء هناك يبدأن الحمل فى سن مبكرة ، ويستمر الإنجاب لفترة قصيره ، وما ان يجاوزن سن الثلاثين حتى ينظر إليهن على أنهن عجائز تقدمت بهن السنون . ومن ثم يسرع الرجال إلى التردد على نساء فى ميعة الصبا والشباب ، فى إفراط شديد ، وعلى الرغم من أنهم يستمتعون بعدد كبير من النساء ، فانهم لاينجبون منهم مزيدا من الأطفال قط . وهناك كذلك نساء كثيرات جدا يعمدن إلى الإجهاض ، ويلجأن إلى مختلف أنواع العلاج ضد الحمل ، لأنهن إذا بلغن الشهر الثالث أو الرابع من الحمل ،ينصرف عنهن أزواجهن إلى نساء أخريات حيث يرون أنه ينافى اللياقة أن يقربوا امرأة تقدمت بها أيام الحمل إلى هذا الحد .

وكان هناك ، على الرغم من تعدد الزوجات ، عاهرات أو بغايا كثيرة وانتشر شرب الخمر انتشارا واسعا ، رغم تحريم الاسلام للخمر . وكثرت المقاهى واشتق اللفظ الأوربى من نظيره العربى « قهوة » . وكانت النظافة

أكثر شيوعا فى المظهر منها فى الحديث . وكانت الحامات منتشرة ،وكانت أحيانا مزخرفة بشكل جميل . ولكن كثر هناك الابتذال والفحش . وقال عنهم تافرنييه « انهم مخادعون مراءون كبار ، ويقول شاردن أنهم اعتادوا كثيرا على الغش ، ولكنه يضيف أنهم ألطف الناس فى الدنيا » ، متسامحون كرام ، أساليبهم جذابة غاية الجاذبية ، وطباعهم لينة غاية اللين ، وحديثهم ناعم غاية النعومة ... وهم فى مجموعهم أكثر الشعوب تمدنا فى الشرق وكانوا مولعين بالموسيقى وكان شعراؤهم ، فى العادة يغنـــون — القصائد التى ينظمونها .

ويمكن أن نحكم على تفوق الشعراء الفارسيين من مبلغ شعبيتهم وحظوتهم فى بلاط المغول فى دلهى ، ولكن لم يتهيأ لأحد منهم فى تلك الحقبة مترجم مثل فتزجرالد لينقل إلى أسماع الغرب قصيدهم . وانا لنعلم أن (عرفى الشيرازى) كان على رأس الشعراء فى القرن السادس عشر . وكان يرى أنه أعلى مكانة من (سعدى) على الأقل ، ولكن من منا ، نحن المحليين فى تفكيرنا واهتماماتنا سمع عنه ؟ . وكان شعره أحب إلى الناس من شخصه ،كما نستخلص من (الأصدقاء) الذين جاءوا ليستمتعوا بعلته القتالة .

لقد انحطت قواى إلى هذا الحد ، ووقف أصدقائى الفصحاء كالمنابر حول فراشى ووسادتى . واحد منهم يداعب لحيته بيده ، وينصب رقبته ويقـول . (وا أبتاه) . لمن دامت الدنيا ؟ (سبحان من له الدوام) .

جدير بالإنسان ألا يتعلق قلبه بالمراتب الزائفة والثروة الزائلة . أين امبراطورية جامشيد وأين الأسكندر ؟ .

ثم يأتى آخر ، ويمسح بأكمامه عينيه المبللتين بالدموع ، ويقول فى صوت رقيق ولفظ حزين : « أيتها الحياة كلنا يسير على هـذا الطريق لنرحل عن هذه الدنيا . كلنا مسافرون نعبر عليه ، ويمضى بنا الزمن » .

وآخر ينمق كلامه بألفاظ أرق فيقول : استجمع قواك ، وهون عليك فانى ، لهدف واحد ، سوف أجمع أشعارك ونثرك وبعد نسخها وتصحيحها ، أقدمها عقوداً من الدر تعزز من شأنك وترفع من قدرك .. فلعل الله يمن على بالشفاء فأسترد عافيتى . ولسوف ترى كيف أصب جام غضبى على رؤوس هؤلاء المنافقين التعساء .

وكان منافس « عرفى » فى الشعر هو « صائب الأصفهانى » الذى أخذ بسنة الهجرة إلى دلهى ، كما هاجر الفنانون الفرنسيون والفلمنكيون فى ذلك العصر إلى رومه . ولكنه عاد بعد عامين إلى أصفهان ، وأصبح شاعر البلاط لدى الشاه عباس الثانى (١٦٤٢ — ١٦٦٦) ، وكان ينحو قليلا نحو الفلسفة ، فنظم أبياتا تفيض بالحكمة :

أن الحديث عن الكفر والإيمان كليهما يؤدى فى النهاية إلى نفس المكان والحلم هو الحلم ، ولكن المفسرين هم الذين يختلفون .. وإن العلاج الوحيد لهذه الدنيا التى لاتستقيم أمورها ، هو إغفالها وتجاهلها ، فإن اليقظ فيها هو الذى يستغرق فى سبات عميق .

وأن الموج ليجهل الطبيعه الحقة للبحر . وكيف يدرك الفانى العابر حقيقه الخالد الباقى ، أن أشد مايقض مضجعى حول يوم البعث هو إنه لزام علينا أن نرى ثانية وجوه البشر .

وإذا فاتنا أن ننعم بموسيقى الشعر الفارسى ، فنى مقدورنا أن نستمتع بفن فارس فقى الفن . حديث يمكن استيعابه وفهمه ، فان البراعة والأناقة والذوق ، أى كل ماتشكل فى فارس على مدى ألفى سنة . أينع وأتى أكله الآن فى العمارة والخزف والتذهيب والخط وحفر الخشب وأشغال المعادن والنسيج والأقمشة المزركشة والسجاد .وكل أولئك روائع تزدان بها متاحف العالم اليوم . وقد علمنا من قبل أن أحسن عمارة هذا العصر شيدت فى عهد الشاه عباس الأول فى أصفهان . وهناك بنى عباس الثانى (مسجد الأشرف

(١٦٤٢) ، وهناك فى غروب شمس الصفويين شاد الشاه حسين (مدرسة أم الشاه) التى قال عنها لورد كيرزون أنها من أفخم أطلال فارس ، وثمة مدن أخرى كانت تفاخر بمنشآت جديدة : مثل مدرسة الخان فى شيراز ، والضريح الضخم لخوجة ربيع فى مشهد ، والمقبرة المخربة الآن ، ولو أنها لاتزال جميلة، وهى مقبرة (قدم جاه) فى نيسابور ، والجامع الأزرق فى اريفان .

وأسس الشاة عباس فى أصفهان أكاديمية للرسم ، كان مطلوبا من الطلبة فيها — كجزء من برنامجهم ، وأن ينسخوا أشهر المنمنمات حيث يغلب جمال التصميم ودقة الرسم على الموضوعات والأشخاص . والآن ، وواضح أنه نتيجة لأثر أوربا ، استباح الرسامون العلمانيون التحول عن التقليد الإسلامى، برسم منمنمات يبرز فيها إنسان على أنه الفكرة الرئيسية والتسلسل هنا قلب الطراز الإيطالى رأسا على عقب . ففى الرسم فى عهد النهضة أهملت المناظر الطبيعية أول الأمر ، ثم أصبحت خلفية ثانوية ، (وربما باضمحلال النزعة الفردية فى ظل الإصلاح المضاد) طغت على الأشخاص . ولكن فى التصوير الإسلامى كانت رسوم الأشخاص مستبعدة أول الأمر ، ثم أبيحت على أنها شىء ثانوى عارض ، وفى المراحل المتأخرة فقط (ربما بنمو النزعة الفردية نتيجة للثروة) طغت رسوم الأشخاص وبرزت فى الرسم . ومثل هذا فى « مدرب الباز »(٤٦) : رجل عظيم يرتدى ثوبا أخضر يعبث بطائر على معصمه مع خلفية أقل بروزا من زهور ذهبية اللون . وفى « شاعر يجلس فى الحديقة(٤٧) تكشف كل التفاصيل عن الرشاقة الفارسية المتميزة ، وثمة ابتداع آخر فى الرسوم الحائطية ، التى رأينا مثالا لها فى « شهيل سوتون » . ولكن الأساتذة العظام تخصصوا فى زخرفة القرآن الكريم،أو تذهيب الآثار الأدبية القديمة مثل الشاهنامة للفردوسى ، أو جولستان لسعدى ، التى ذهبها « مولانا حسن » البغدادى بماء الذهب .

وتفوق فى الرسم فى هذه الفترة الصفوية الثانية ، رضا العباسى . الذى أضاف

إسم الشاه إلى إسمه تقديرا واعترافا بالرعاية الملكية . وفاقت شهرته شهرة بهزاد لمدة جيل . وتدهور بعده الفن ، فإن حساسية الفن وصفاء الرسم أو دقته ، انتهيا إلى إفراط مخنث . وفى نفس الوقت فإن الطراز الفارسى الذى تأثر بالفن الصينى ، أثر بدوره فى رسم المنمنمات فى بلاط المغول ، بل حتى فى عمارتهم . وذهب حروسيه إلى أن «تاج محل» لم يكن إلا فصلا جديدا فى فن أصفهان[٤٨].

وظل الخط فنا رئيسيا فى فارس . وكاد مير عماد لنسخه الدقيق للمخطوطات القديمة ، أن يظفر بمثل الحب الذى حظى به لدى الشاه عباس رضا العباسى من أجل منمنماته . وكانت الكتب موضع إعزاز وحب لشكلها قدر ما هى لمحتوياتها . فالتجليد الرائع يبهج العينين واليدين كما تفعل الزهرية الرقيقة ووقع الفنانون تجليدات الكتب بمثل الفخر الذى وقعوا به الصور ، فنقش على جلدة كتاب مذهبة من أوائل القرن السابع عشر ، «من صنع محمد صالح التبريزى»[٤٩] . وثمة غلاف آخر مصنوع من الورق المعجن ، وعليه رسوم «بورنيش اللك» ، موقع عليه باسم على رضا . ومؤرخة فى ١٧١٣[٥٠] وكلاهما جميل إلى حد مغر .

إن التربيعات المحلاة بالرسوم فى المدن الفارسية لتبهر الأنظار ، بعد القباب أو عليها ، إن طول عمرها ليثير الدهشة من فن صناعة الخزف ، الذى يهيء طول البقاء لمثل هذا البريق . وإطالة عمر اللون بتزجيجه بالنار كانت من المهارات القديمة فى فارس . لقد كانت التربيعات المزججة فى سوسة عاصمة دارا الأول ملك الفرس (٤٠٠ ق . م .) فريدة من نوعها بالفعل . وكانت سبائك الذهب والفضة والنحاس وسائر المعادن تصهر لتخرج ألوانا أكثر لمعانا ، وخاصة الأحمر الياقوتى والأزرق الفيروزى ، وكانت مضاعفة الأحراق تزيد من صلابة الصلصال والتزجيج ليقاوم فعل الزمن . ويحتمل أن يكون الأرمن قد استخدموا الخزافين الفرس لصنع التربيعات فى كنيستهم المسيحية فى جولفا وهى تبلغ فى دقتها دقة المنمنمات . وربما كان أجمل منها ، التربيعات المحلاة

بالرسوم فى مجموعة كوركيان ، المنسوبة إلى أصفهان فى النصف الثانى من القرن السابع عشر (٥١) .

واستمر الخزافون فى أصفهان وكاشان وغيرهما ، يبدعون أشكالا من الخزف — القنانى والزبديات والأباريق والأطباق والفناجين ، مطلية تحت التزجيج بألوان مختلفة على أرضيات متنوعة . وأصبح الخزف المزخرف الفسيفسائى مادة أثيرة لتغطية الجدران فى المساجد والقصور . واستورد الشاه عباس الخزف الصينى ، وحاول خزافوه أن ينسخوه طبق الأصل ، ولكن أعوزتهم الطينة والمهارة . ومرة أخرى بفضل استحثاث الحاكم وتشجيعه بذلت المحاولات فى أصفهان وشيراز لمنافسة زجاج البندقية . وتفوق صناع الأشغال المعدنية فى نقش النحاس وتطعيمه ، وثمة نموذج جميل منها يرجع إلى ١٥٧٩ شمعدان موجود فى متحف متروبوليتان للفن ، وفى الارميتاج فى لننجراد غمد سيف من الذهب مرصع بقطع كبيرة من الزمرد دقيقة الصنع .

وكانت صناعة النسيج صناعة رئيسية وفنا . وشغل الرسامون والنساجون والصباغون حيزا كبيرا فى اصفهان . وكانوا يعدون بالآلاف . وكان إنتاجهم هو السلعة الرئيسية فى تجارة الصادرات . كما أنه أكسب فارس شهرة عالمية فى أقمشة الأطلس والمخمل والتفته والمطرزات والحرائر . وكان الشاه عباس كلما أراد أن يقدم هدية خاصة ثمينة ، اختار بعض التحف من إنتاج الأنوال الفارسية . ويقول شاردان « أن الثياب التى أهداها بهذه الطريقة لا حصر لها »(٥٢) والثياب التى كان يرتديها الشاة ورجال حاشيته من الحرير والأقمشة المقصبة والمطرزة كانت رائعة الجمال إلى حد ذهب معه شاردان إلى أنها لا مثيل لها فى ملابس أى بلاط فى أوربا . وكتب يقول « إن فن الصباغة أدخل عليه فى فارس تحسين أكثر منه فى أوربا ، فكانت الألوان أكثر ثباتا ولمعانا ، ولا تحول بسرعة »(٥٣) . ولم يكن لمخمل كاشان نظير فى أى مكان آخر . ولا تزال بعض قطع منه من أروع المعروضات فى متاحف بوسطن ونيويورك

وسان فرانسسكو وواشنجطن . ومن بين التحف التى استولت عليها القوات المسيحية بعد ارتداد الأتراك عن فيينا بساط من المخمل الحريرى المقصب ،من الواضح أنه صنع فى اصفهان فى عهد الشاه عباس[٥٤] .

وبلغ النسيج الفارسى ذروته فى التصميم وصنع الجلد ، وشهد عصر الشاة عباس غاية مجد هذا الفن فى فارس . وكاد السجاد أن يكون ضروريا للفارسى قدر حاجته إلى الملابس ، وقال توماس هربرت فى القرن السابع عشر : «كان فى بيوت الفرس قليل من الأثاث والأدوات المنزلية ، اللهم إلا السجاجيد وبعض أشغال النحاس . . . وكانوا يتناولون الطعام وهم متربعون على السجاد على الأرض ، مثل حائكى الملابس . وليس ثمة إنسان مهما قل شأنه إلاجلس على سجادة ثمينة أو غير ثمينة . وكل الدار أو الحجرة . . .مغطاة بالسجاد[٥٥] وساد آنذاك اللون القرمزى القاتم أو الأحمر الخمرى الداكن ، ولكن التصميم أو الرسم كان هادئا مريحا للنظر ، بغية أحداث التوازن بين هذه الوفرة التى تزخر بها السجادة ، لو أنها صممت لإبراز موضوع رئيسى بمنطق مقبول . وقد يكون هذا التصميم هندسيا ، وهنا تكون متنوعات لا حصر لها ، تضفى على أقليدس جمالا وبهاء . وكثيرا ما قام التصميم على الأزهار ، وهنا تستمتع العين بتشكيلة غنية من الأزهار ، ولكنها منسقة تنسيقا جميلا ، تمثل النتاج المحبب إلى الناس فى حدائقهم : أزهار مصفوفة فى أحصص ، أو منثورة هنا وهناك ، أو أزهار يصورها الخيال ولا تراها العين ، مع زخارف عربية تنساب هنا وهناك فى رشاقة وروية . وفى بعض الأحيان كانت الحديقة نفسها تزود بالتصميم : الأشجار والشجيرات والمزاهر ، والمياه الجارية ، رتبت كلها فى شكل هندسى ، وقد يتركز التصميم حول رسم كبير نافر تتدلى منه نتوءات فى كل الأطراف ، وقد يعرض الزخارف الحيوانية أو مناظر الصيد .

ويأتى بعد ذلك الجهد المضنى والصبر الطويل : مد الخيوط طولا فى اللحمة على النول ونسجها مع خيوط السداة العرضية ، وحيا كة عقد صغيرة من

الصوف أو الحرير الملون فى اللحمة ، لتلوين « الوبر » والرسم ، وقد يكون فى البوصة المربعة ١٢٠٠ عقدة ، أو ٩٠ مليوناً من العقد فى سجادة مساحتها ٢٣ قدما مربعا[٥٦] . ويبدو أن العبودية قد نسجت هذا الفن أو ارتبطت به ، ولكن العامل كان يتيه عجباً بدقة وجمال ما أخرجت يداه ، محولا هذه التشكيلة العجيبة من المواد إلى كل منتظم متناسق متسلسل الأجزاء . وكان هذا السجاد يصنع فى أثنى عشر مركزاً فى فارس وأفغانستان والقوقاز ليضفى رواء وبهاء على القصور والمساجد والبيوت ، أو ليقدم هدايا ثمينة إلى الملوك والأصدقاء .

ومر السجاد الفارسى والتذهيب الفارسى بتطورات مشابهة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتأثرا « بأشرطة السحاب » وغيرها من الرسوم من الصين . وكان لهما بدورهما أثر على الفنون فى تركيا والهند . وبلغا ذروة التفوق والامتياز على عهد الصفويين وما أن جاء عام ١٧٩٠ حتى أنتج السجاد الفارسى على أساس الكم ، فتسرعوا فى تصميمه ونسجه لسوق أوسع وأقل إلحاحا على البراعة والإتقان ، وبخاصة السوق الأوربية . ومهما يكن من أمر ، فإنه حتى فى هذه الحقبة ، كانت هناك قطع نادرة فريدة ، لا نظير لها من حيث النسيج واللون والرسم فى أى مكان آخر فى العالم .

وهكذا كانت فارس ، وهكذا كان الإسلام فى آخر ازدهار لسلطانهما وفنهما — حضارة تختلف اختلافا عميقا عن حضارتنا فى الغرب ، وفى بعض الأحيان معادية عداء مقرونا بالازدراء ، تدمغنا بأننا مشركون ماديون ، وتسخر منا أخذنا بنظام الزوجة الواحدة وهو أشبه ما يكون بنظام الأمومة ، وأحيانا انقضت علينا تقتحم أبوابنا كالسيل الجارف ، وما كان ينتظر منا أن نتفهمها أو نعجب بفنها حين كان الجدل شديداً بين المسلم والمسيحى ، ولم يكن قد ثار بعد بين دارون والمسيح ، ولم تنته المنافسة بين الثقافتين بعد ، ولكنها فى الكثير الغالب توقفت عن سفك الدماء ، ولكل منهما مطلق

الحرية فى الامتزاج بالأخرى عن طريق التأثير المتبادل ، فالشرق يأخذ عنا صناعاتنا وأسلحتنا ، ويصبح غربيا . ولقى الغرب نصبا من الثراء والحرب ، وبات يلتمس شيئا من هدوء البال وطمأنينة النفس . وربما ساعدنا نحن الشرق على التخفيف من الفقر والخرافة ، وأعاننا الشرق على التواضع فى الفلسفة والتهذيب فى الفنون . فالشرق غرب ، والغرب شرق ، ولا بد عاجلا أن يلتقى الإثنان .

الفصل الحادي والعشرون

« هرمجدون »

أو

الحرب الإمبراطورية الفاصلة

١٥٦٤ — ١٦٤٨

١ — الأباطرة

في عام ١٥٦٤ كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة — برغم أنها ، كما قال فولتير ، لم تكن ، لا إمبراطورية ، ولا رومانية ، ولا مقدسة — ، خليطا رائعا من دول نصف مستقلة : ألمانيا ، ولكسمبورج ، وفرانس — كونتيه ، واللورين ، وسويسرا ، والنمسا ، وبوهيميا ، ومورافيا ، وجزء من المجر . وكانت هذه كلها تدين بالولاء والسلطان للإمبراطور مكسمليان الثاني سليل بيت هبسبرج العريق ، الذي حكم الإمبراطورية منذ ١٤٣٨ وسيواصل حكمها حتى ١٨٠٨ . وبعد أن اعتزل شارل الخامس الملك (١٥٥٥ — ١٥٥٦) اقتسمت الأسرة نصف أوربا بين فرعيها ، فحكم الهبسبرج النمسويون الإمبراطورية ، أما الهبسبرج الأسبان فحكموا أسبانيا وولاياتها . وندر في التاريخ أن تسلطت أسرة واحدة حقبة هذا طولها على أناس هذا عددهم .

وكان حكم آل هبسبرج أكثر تحررا في الامبراطورية في أسبانيا ، لأن الدول التي تألفت منها الامبراطورية كانت تختلف أشد الاختلاف سواء في الحكومة ، أو اللغة ، أو الدين ، أو الصفات العرقية ، بحيث عجزت حتى

سلطة آل هبسبرج وهيبتها عن منع هـذه القوى المندفعة بعيدا عن المركز من أن تحيل الامبراطورية إلى رابطة واهية عن وحدات تحكم ذاتها في عزة وكبرياء أما الديت الامبراطوري ، الذي لم يكن يلتئم شمله الا بين الحين والحين ، فقد وجد أن الحد من سلطان الامبراطور أيسر من تشريع قوانين تقبلها كل دولة ، وأما الناخبون الامبراطوريون السبعة الذين كانوا يختارون الامبراطور ، فقد سيطروا عليه بالعهود والمواثيق التي انتزعوها منه ثمنا لانتخابه . وهؤلاء الناخبون هم ملك بوهيميا ، وحكام سكسونيا ، وبراندنبورج ، والبالاتينات ، و « الناخبون الروحيون » ـ أي رؤساء أساقفة كولونيا ، وترير ، وماينز . ولم يحكم الامبراطور حكما مباشرا سوى النمسا ، واستريا ، وكارنثيا ، وكاربولا ، والتيرول ، وأحيانا بوهيميا ، ومورافيا ، وسيليزيا ، وغرب المجر . وكانت موارده المستقلة ثابتة من هـذه الأقطار ، فاذا أراد مزيداً من الموارد فعليه أن يتخذ سمته وقبعته في يده ، إلى الديت الامبراطوري الذي بيده مفاتيح المال .

حين مات فردیناند الأول (أخو شارل الخامس) في ١٥٦٤ ، نقل الناخبون التاج الامبراطوري لولده مكسمليان الثاني ، الذي ظفر من قبل بتاجي بوهيميا والمجر . وكان محببا للناس إلى حد لا يناسب امبراطورا . فقط اصطفى الجميع في دفء طبعة الطيب وروحه المرحة ، ولطفه وأدبه مع كل الطبقات ، وعقله وفؤاده المفتوحين ، فاذا أضفت إلى ذلك كله ذكاءه وتسامحه وتشجيعه للعلم والموسيقى ، والفن ، اجتمعت لك صورة سيد مهذب « جنتلمان » لم يصدق الناس أنه توج . وكان قد عرض تبوأه العرش للخطر حين آثر الوعاظ اللوثريين على نظرائهم الكاثوليك ، وأصر على تناول الأسرار المقدسة بالخمر وبالخبز ، ولم يمتثل للطقس الكاثوليك ، أمتثالا ظاهريا الا حين أكره على الخيار بين الرجوع إلى حظيرة الكنيسة الرومانية أو أعتزال الحياة العامة على أنه حمى البروتستنت خلال ذلك من الاضطهاد . وقد ندد بمذبحة القديس برثلميو وقال انها قتل بالجملة [١] ، وسمح لوليم أورنج بتجنيد جيش في ألمانيا

لقتال دوق ألفا فى الاراض المنخفضة . وفى هـذا العصر الذى ساده التعصب والحرب ، ضرب لدول الامبراطورية وعقائدها مثالا رائعا فى تسامح برىء من اللامبالاه ، وسلام لم يشبه الجبن . وحين حضرته المنية (١٥٧٦) أبى أن يتقبل آخر الشعائر من كنيسة رومه ، ولكن الامبراطورية بأسرها أجتمعت على الترحم عليه .

وكان قد أقنع الناخبين بقبول ولده رودلف خلفا له ، برغم مارآه فيه — بلاريب — من طباع أو آثار تعليم خطرة على الوفاق الدينى . فلقد كان رودلف الثانى بطبعه شكاكا مكتئبا . وكان من الجائز أن يصبح الوريث لفيليب الثانى لذلك بعث به إلى أسبانيا ليتلقى جزءا من تعليمه المدرسى ، فقضى اليسوعيون هناك على كل ميل فيه للتسامح . وما لبث عقب ارتقاء العرش أن فرض القيود الصارمه على حرية العبادة البروتستنتية وعمل على الحد من انتشارها زاعما — وله بعض الحق [٢] — أن عنف الجدل الدينى ، وتعصب الشيع البروتستنتية فيما بينها ، يقوضان سلام الامبراطورية واستقرارها . على أنه لم يكن خلوا من الفضائل التى حببت الناس فى أبيه فقد عاش فى بساطة وتواضع دون تكلف لأبهة الامبراطورية . وحين انتقد أحد أخوته رفعه الكلفة مع الفقراء والوضعاء أجاب : « ينبغى ألا ينسينا سمونا فوق الناس بمكانتنا وعراقة محتدنا أننا مرتبطون مع سائر البشر بنقائصنا وعيوبنا[٣] » .

والحق أنه آثر أن يكون عالما على أن يكون امبراطورا . تعلم ست لغات ، ومارس كل علم وفن تقريبا ، واقتنى مجموعات ثمينة من الصور والتماثيل وأنواع النبات وعينات الحيوان . وأعان الشعراء والمؤرخين ، وأنشأ الكثير من المدارس . وحذق الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والطب وكذلك الكيمياء القديمة والتنجيم ، وأمد بالمال البحوث الفلكية التى اضطلع بها تيكوبراهى وكبلر اللذان أهدياه جداولهما الرودلفية للنجوم . وإذ ليستغرقه العلم وهو فى قصرة ببراغ — التى اختارها عاصمة له — فانه لم يجد

وقتا للزواج ، ولم يتسع له الوقت الكثير للحكم . فلم يحضر أى اجتماع للديت بعد ١٥٩٤ ، ورفض أن يوقع أوراقا رسمية بعد ١٥٩٨ وفوض بالسلطة نوابا ذوى حظوة لديه ، ولكن تعوزهم الكفاية . ولما تقدم به العمر انحدر عقله لا إلى درك الجنون ، بل إلى حال من العزلة يشوبها الاكتئاب وطول التفكير ويلازمها خوف الاغتيال . فانه رأى فيما يرى النائم — أو لعل تيكو براهى قد طالع فى النجوم(٤) — أن قاتله سيكون راهبا فانتهى به الأمر إلى الارتياب فى رجال الدين الكاثوليك ولا سيما اليسوعيين (٥) ، ثم أكرهته الضغوط الداخلية والخارجية على التخلى لأخيه الأصغر ماتياس فى ١٦٠٨ عن حكم النمسا والمجر ومورافيا ، وفى ١٦١١ عن عرش بوهيميا وكل ما بقى له من سلطات . ومات فى ١٦١٢ .

أما ماتياس فكان قد بلغ الخامسة والخمسين، بعد أن أقعدته الحملات الحربية عن الاستمتاع بالحكم النشيط . لذلك عهد بالحكم والسياسة جميعا إلى ملشيور كليزل أسقف فيينا القدير الحى الضمير . ولكن كليزل أغضب الكاثوليك بما قدم للبروتستنت من تنازلات ، وأغضب البروتستنت لأن هذه التنازلات كانت دون ما يبتغون . وأعتقل فرديناند ، أرشيدوق استيريا، وابن عم ماتياس ، الأسقف كليزل (١٦١٨) ، وظفر بانتخابه إمبراطورا عقب موت ماتياس (١٦١٩) . وهنا كانت هرجدون قد أندلع لهيبها .

٢ — الإمبراطورية

لم تكن سويسره جزءاً من الإمبراطورية إلا صوريا ، وتركت الانتصارات المؤزرة التى أحرزتها البلاد على الأباطرة وكبار الأدواق، الولايات السويسرية (الكانتونات) حرة فى التناحر فيما بينها . فانضمت سافوى وأسبانيا إلى الولايات الكاثوليكية التى تزعمتها لوسرن ، فى جهود دبلوماسية أو حربية لأرجاع الولايات البروتستنتية إلى حظيرة الكنيسة الرومانية . وبدأ اليسوعيون

من كليتهم يلوسرن فى ١٥٧٧ حملة من التعليم والوعظ والدس . وأصلح ممثلوا البابا فى سويسرة الفساد فى رجال الدين الكاثوليك ، وقضوا على التسرى بين الكهنة ، وصدوا التأثيرات البروتستنتية المنبعثة من زيوريخ وجنيف وبرن.

وكانت جنيف تفيق ببطء من سلطان كلفن . فقد خلف تيودور دى بيز أستاذه (١٦٦٤) زعيما لجماعة « الرعاة » الموقرة والمجمع الكنسى « للرعاة والعلمانيين » ، وعن طريقهم وأصل عمل الكنيسة المنصلحة فى لباقة وكياسة لم يقو على إحباطهما سوى « الكراهية اللاهوتية » وسافر فى أرجاء فرنسا ليحضر المجامع الكلفنية ، وقد شهدناه يدافع عن قضية البروتستنتية فى مؤتمر بواسى . وكافح فى وطنه ، وإن لم يوفق كل التوفيق فى كفاحه ، ليحافظ على الفضيلة الصارمة التى فرضها كلفن على الناس . فلما إنحرف كبار رجال الأعمال أكثر فأكثر عن هذه الجادة ، قاد بيز رجال الدين فى حملة للتنديد بالربا ، والاحتكار ، والإستغلال ، وحين اقترح مجلس المدينة أن يقتصر الوعاظ فى وعظهم على مسائل الدين ، أجاب بيز بأنه يجب ألا يقصى أى شأن من شئون البشر عن دائرة الدين[٦] . وهو من بين كبار زعماء الاصلاح البروتستنتى الوحيد الذى أدرك القرن السابع عشر ، وقد مات فى ١٦٠٨ بالغا التاسعة والثمانين .

أما دور النمسا فى الإمبراطورية فكان مركزيا . ذلك أنها كانت عادة وطن الأباطرة ، وكانت حصن الحضارة الغربية الحصين فى وجه الأتراك الطامعين ، للاصلاح الكاثوليكى . ومقر القوة الكاثوليكية فى حرب الثلاثين . ومع ذلك فقد أتى عليها عهد كانت تتذبذب فيه بين الكاثوليكية والبروتستنية بل بين المسيحية والكفر . ففى عهد فرديناند الأول (١٥٥٦ — ١٥٦٤) قررت معظم الأبرشيات النمسوية كتاب التعليم المسيحى اللوثرى . وكانت اللوثرية المذهب السائد فى جامعة فيينا ، وأباح الديت النمسوى تناول القربان بالخمر وبالخبز ، وزواج رجال الدين . « كان الناس يعدونها علامة من علاماته

العقل المستنير أن يحتقر صاحبه عادة الدفن المسيحى . وأن يدفن الميت دون مساعدة من قسيس .... وبغير صليب . ، وفى تقدير أحد الوعاظ فى ١٥٦٧ « أن الألوف وعشرات الألوف فى المدن — أجل . بل فى القرى — لم يعودوا يؤمنون بالله[٧] . » فلما خشى الإمبراطور فرديناند أنهيار الدعم الدينى للحكومة النمسوية وسلطة آل هبسبرج . دعا بطرس كانيسيوس وغيره من اليسوعيين إلى جامعة فيينا . وبدأت الكاثوليكية تستعيد مكانها بفضل زعامتهم، لأن هؤلاء الرجال المتمرسين جمعوا بين العقل المرهف الصابر، وبساطة العيش التى وقعت أفضل موقع فى النفوس . فما وافى عام ١٥٩٨ حتى غدت كنيسة رومه سيدة الموقف .

ومثل هذا التغيير طرأ على المجر المسيحية . فقد دان ثلثا المجر للحكم التركى منذ ١٥٢٦ ، وكانت الحدود التركية تبعد عن فيينا بأقل من مائة ميل ، ولم يقو الأباطرة على المحافظة على السلام مع تركيا إلا بدفع جزية سنوية للسلاطين حتى عام ١٦٠٦ .. وكانت ترانسلفانيا الواقعة إلى الشمال الشرقى من المجر التركية تؤدى مثل هذه الجزيه ، ولكن حدث فى عام ١٦٠٦ أن أوصى أميرها ستيفن بوكسكاى بالإقليم لآل هبسبرج قبيل موته دون عقب .

أما ديت المجر النمسوية فكان منذ ١٥٢٦ يؤيد حركة الإصلاح البروتستنتى، فقد هيمن عليه النبلاء الطامعون فى الاستيلاء على أملاك الكنيسة الكاثوليكية[٨] . وفى ظل الحرية الدينية التى صانوها ظفرت البروتستنتة بمكان السيادة بين الطبقات المتعلمة . ولكن سرعان ما أنقسمت شيعا لوثرية ، وكلفنية ، وتوحيدية ، وتفرق التوحيديون مللا أصغر لاختلافهم على صواب توجيه الصلوات إلى المسيح . ولم ير النبلاء بعد أن استتب لهم الأمر فى ممتلكاتهم مبررا بعد ذلك للبروتستنتية . لذلك رحبوا ببطرس بازمانى وغيره من اليسوعيين، وقبلوا التحول «المثالى» إلى الكاثوليكية، وطردوا «الرعاة» البروتستنت[٩]. واستبدلوا بهم القساوسة الكاثوليك . وفى عام ١٦١٨ أصبح فرديناند أرشيدوق

استيريا ملكا على المجر ، فعزز حركة الإصلاح الكاثوليكى تعزيزا نشيطا . وفى ديت ١٦٢٥ إستعاد الكاثيك أغلبيتهم . وأصبح بازمانى كردينالا وكاتبا من أبلغ مؤلفى العصر المجريين ، مع أنه ابن رجل كالفنى المذهب .

وأما بوهيميا والاقاليم التابعة لها — وهى مورافيا وسيليزيا ولوزاتيا — فكانت تغلب عليها البروتستنتية عام ١٥٦٠ . واعترفت الولايات الأربع بملك بوهيميا سيدا عليها ، غير أنه كان لكل ولاية مجلسها القومى وقوانينها وعاصمتها — براغ ، وبرون (برنو) ، وبرسلاو ، وبوتزن ، وكانت براغ فى ذلك الحين من أجمل مدن أوربا وأكثرها أزدهارا . ولم يكن مسموحا بالتصويت فى الديت البوهيمى الا لملاك الأرض البالغ عددهم ألفا وأربعمائة ولكن كان من بين أعضائه ممثلون لسكان المدن والفلاحين ، أتاح لهم سلطان المال نفوذا جاوز مجرد الكلام . وكان معظم النبلاء لوثريين ، ومعظم مواطنى المدن لوثريين أو كلفنيين ، ومعظم الفلاحين كاثوليكا . ولكن قلة منهم كانت «أوتراكية» ، تخلوا فى عام ١٥٨٧ عن تقاليدهم الهسية (مذهب المصلح الدينى البوهيمى ، والشهيد جون هس ١٣٦٩ - ١٤١٥) ، ولم يتمسكوا الا بتناول القربان بالخبز وبالخمر ، وأخيراً تصالحوا مع كنيسة روما (١٥٩٣) . أما أكثر الطوائف الدينية اخلاصا فكانوا «الأنيتاس فراتروم» — وهم الاخوان البوهيميون أو المورافيون — الذين أخذوا موعظة المسيح على الجبل مأخذ الجد ، وعزفوا عن كل الحرف والمهن الا الزراعة ، وعاشوا فى بساطة كبساطة تولستوى المسالمة .

وفى عام ١٥٥٥ جلب فرديناند الأول اليسوعيين إلى بوهيميا . فأنشأوا كلية فى براغ وربوا «كادرا» من الكاثوليك الغيورين ، واكتسبوا الكثيرين من النبلاء الذين تزوجوا بنساء كاثوليكيات . ثم أصدر رودلف الثانى مراسيم . نفى فيها الاخوان البوهيميين أولا ، ثم الكلفنيين ، غير أن الوسائل أعوزته لتنفيذ هذه المراسيم . وفى عام ١٦٠٩ أقنعة البروتستنت بأن يوقع

الميثاق الملكى « الشهير » الذى كفل حرية العبادة للبروتستنت فى بوهيميا .
وبعد عامين نزل رودلف عن العرش لماتياس ، ونقل هذا قضية الامبراطورية إلى فيينا ، وترك براغ مغيظة ثائرة . وفى عام ١٦١٧ اعترف الديت البوهيمى بالارشيدوق فرديناند الاستيرى ملكا على بوهيميا ، وكان عدد الكاثوليك يتكاثر فى هذا الديت برغم أن البلاد مازال أغلب أهلها من البروتستنت[11] وكان فرديناند هذا قد تعلم على يد اليسوعيين وأقسم ان يستأصل شأفة البروتستنتية أن حكم . واتخذ بروتستنت بوهيميا أهبتهم للحرب .

أما المانيا فكانت أخلاطا من الأمم داخل كيان معقد ، كانت إسما لا شعبا ومزيجا من امارات تتفق فى لغتها واقتصادها ، وتتباين أشد التباين فى عاداتها ، وحكمها ، وعملاتها وعقائدها (*) . ولم تعترف أى من هذه الوحدات بسيد عليها الا الامبراطور فقط ثم هى تتجاهله خمسين أسبوعا فى السنة . وقد وجد بعض الأجانب عزاءا فى انقسام المانيا على هذا النحو فكتب سير توماس أوفريرى فى ١٦٠٩ يقول .لو أنها كانت كلها خاضعة لنظام ملك واحد لكان ذلك

(*) كانت ألمانيا فى القرن السادس عشر مقسمة إلى سبع دوائر ادارية :
١ — فرانكونيا : وتشمل ورزبرج ، بمبرج ، بايريت .
٢ — بافاريا : وتشمل ميونخ ، ورحنزبرج (راتسبون) وسالسبرج .
٣ — سوابيا : وتشمل بادن ، ستتجارت أو جزبرج ودوقية ورتمبرج .
٤ — الراين الأعلى : ويشمل فرانكفورت (آم مين) وكاسل ودرمستاد ويزبادن ومقاطعة ناسو واقليم هس ودوقية اللورين وجزء من لاراس .
٥ — الراين الادنى : ويشمل وستفاليا جوليش وكليف والبلاتينات وأسقفيات كولون وترير ومانيز .
٦ — سكسونيا السفلى : ويشمل مكلنبرج وبريمن ومجد برج ودوقيات برنزويك ولونبرج وهولشتين .
٧ — سكسونيا العليا : وتشمل ليبزج وبرلين ودوقية بوميرانيا النربية ومقاطعتى سكسونيا وبراندنبرج .

أمرا رهيبا بالنسبة لباقي أوربا (١٢) لا بل أن هذا الوضع أرتاحت اليه ألمانيا من وجوه كثيرة . صحيح أنه أضعفها فى المنافسة السياسية والحربية مع الدول الموحدة ، ولكنه أعطاها حرية محلية ، وتنوعا دينيا وثقافيا قد يفضله الالمان بحق على أرستقراطيات متمركزة مضنية كارستقراطيات فيليب الثانى فى أسبانيا ولويس الرابع عشر فى فرنسا . فلم تكن هنا باريس تطغى وتعج بسكانها وتمتص دم الحياة من قطر بأ كمله بل كوكبة من مدن مشهورة لكل منها طابعها وحيويتها .

على أن المانيا لم تعد تحظى بذلك التفوق الاقتصادى الذى كان لها فى شمال أوربا قبل لوثر ، برغم هذه التشكيلة من المدن العظيمة والبلاطات الصغيرة . ذلك أن كشف طريق بحرى خالص من غرب أوربا إلى الهـــند ، وفتح الاطلنطى للتجارة ، أفادا البرتغال وأسبانيا أولا ، ثم إنجلترا والأراضى الوطيئة بعدهما ، وقد أضر بإيطاليا التى هيمنت من قبل على تجارة الشرق ، وشاركت فى اضمحلال إيطاليا تلك الأنهار والمدن الألمانية التى كانت تنقل التجارة من إيطاليا إلى الشمال . فأخذت ثغور الأراضى الوطيئة فى بحر الشمال، وثغور الدنمرك وبولندة فى البلطيق ، معظم التجارة والمكوس . أما عصبة الهانسا فكانت قد فقدت تفوقها الماضى منذ زمن طويل ، ودمرت لوبك فى حربها الطويلة مع السويد (١٥٦٣ — ١٥٧٠) . ولم تحتفظ بثرائها غير فرانكفورت على الراين ، وظلت سوقها السنوية أحفل أسواق أوربا بالقصاد ، وقد أحالت المدينة إلى مركز لتجارة ألمانيا الداخلية والمالية الدولية .

أما إقبال الناس على المال فظل على حاله . وتهرب الناس فى كل مكان من المراسيم التى حرمت تقاضى فائدة تربو على ٥ ٪ . قال قسيس فى ١٥٨٥ « إن رذيلة الربا الكافرة يمارسها الآن المسيحيون فى حرص أشد من حرص اليهود فى الماضى ، وشكا واعظ فى ١٥٨١ من أن « ولعا غير مسيحى بالذهب

قد تسلط على كل الناس من جميع الطبقات . فكل من ملك شيئا يغامر به ، يفكر فى الإثراء ... بشتى أساليب المضاربة ، والتعامل فى النقود ، وعقود الربا ، بدلا من القيام بعمل أمين شاق »[١٣] . واستثمر المئات من العاملين مدخراتهم مع أحد بيوت فوجر ، أو فيلزر ، أو هوخشتيتر المالية ، ثم خربت بيوتهم فى افلاسات متكررة . وفى عام ١٥٧٢ أفلس بنك إخوان لوتيز بعد أن جمع أموالا طائلة من صغار المستثمرين ، فأفقدهم بذلك مدخراتهم بل بيوتهم[١٤] . أما بيت فوجرز فقد جلب عليه الخراب افلاس فيليب الثانى ودوق ألفا اللذين شارك هذا البيت فى تمويلهما[١٥] . كذلك أفلس بيت فيلزر فى ١٦١٤ و بلغت ديونه ٥٨٦,٠٠٠ جولدن . ولعل الخوف من التضخم دفع الناس إلى مثل هذه الاستثمارات ، لأن كل أمير ألمانى تقريباً كان يسرق من شعبه بتخفيض العملة ، ولأن الذين زيفوا العملة أو اقتطعوا حوافها تكاثر عددهم . فما وافى عام ١٦٠٠ حتى كانت العملات الألمانية تتردى فى فوضى شائنة.

وزاد عدد السكان بينما تخلف الإنتاج ، ودفع برد الشتاء الناس إلى شفا الثورة . وأكره الفلاحون فى جميع الأقاليم — باستثناء سكسونيا وبافاريا على أن يصبحوا أقنانا . وفى بومرانيا وبراندنبورج وشلزويج وهولشتين وميكلنبورج شرعت القنية (رق الأرض) فى سنة ١٦١٦ أو بعدها[١٦] وقد تساءل كاتب فى سنة ١٥٩٨ « ترى فى أى أرض ألمانية ما زال الفلاح الألمانى يتمتع بحقوقه القديمة ؟ وأين يتاح له أى انتفاع أو ربح من الحقول أو المراعى أو الغابات المشاعة ؟ وأين يتوقف عدد الخدمات أو الالتزامات الإقطاعية ؟ وأين يجد الفلاح محكمته الخاصة ؟ ألا فليسبغ الله عليه رحمته »[١٧] وذهب الكثير من الفلاحين للعمل فى باطن الأرض ، ولكن أرباح التعدين وأجوره الحقيقية تضاءلت حين دخلت الفضة الأمريكية ألمانيا لتنافس المعدن المستخرج بشق الأنفس من عروق معدنية مستهلكة . أما فى المدن فإن زمالة النقابات القديمة أفسحت الطريق لاستغلال أرباب الصناعات لعمال اليومية . وكان يوم العمل فى بعض الصناعات يبدأ فى الرابعة صباحا وينتهى فى السابعة مساء ، يتخلل ذلك

« فترات لتعاطى الجعة » ، وقد انتزعت نقابة النحاسين من العمال فى عام ١٥٧٣ أسبوع عمل بلغت جملة ساعاته اثنتين وتسعين[١٨] . ومنذ عام ١٥٧٩ نسمع بإضرابات ضد استخدام الآلات فى صناعة النسيج بألمانيا[١٩] . وهكذا لم يبق إلا نشوب الحرب حتى يصبح الفقر المدقع كارثة لا نظير لها .

٣ ـ الأخلاق وآداب السلوك

إذا صدقنا مزاعم الأخلاقيين فى نصف القرن الذى نحن بصدده ، كانت صورة الأخلاق لا تقل قياما عن صورة الاقتصاد . فقد شكا المدرسون من أن الصغار الذين يعهد إليهم بتعليمهم ليسوا مسيحيين بل همج . وكتب ماتياس بريدينباخ عام ١٥٥٧ يقول : « أن الناس يربون أبناءهم تربية بلغت غاية السوء بحيث أصبح واضحا للعلدين المساكين ... أن عليهم أن يتعاملوا ... مع وحوش ضارية »[٢٠] وقال آخر عام ١٥٦١ « يبدو أن كل نظام أصبح فى خبر كان ، إن التلاميذ جاوزوا الحدود فى العصيان والوقاحة »[٢١] . وفى معظم مدن الجامعات كان المواطنون يترددون فى الخروج ليلا خوفا من الطلاب الذين يهاجمونهم أحيانا بمداهم المفتوحة[٢٢] . كتب ناتان كترانسين فى ١٥٧٨ يقول : « لاشك أن من أهم أسباب انحلال أخلاق الطلاب الذى عم الآن هو تدهور التربية المنزلية . فلا عجب ، بعد أن خلعنا عن أعناقنا نير القوانين والشرائع القديمة ... أن نشهد بين الشطر الأعظم من شبابنا مثل هذه الإباحية المطلقة ، والجهل المطلق ، والوقاحة المستعصية ، والإلحاد الرهيب[٢٣] . ورأى غير هؤلاء « أن التمثيليات الهزلية والعروض والمسرحيات ليست من الأسباب الهينة التى ألقت بالشباب فى مهاوى الرذيلة والفجور »[٢٤] .

أما الكبار فقد قال الوعاظ فى وصفهم أنهم منافقون ، مشاكسون ، نهمون سكيرون ، زناة[٢٥] . وشكا الراعى يوهان كونو فى ١٥٧٩ من أن « الرذيلة بأنواعها استشرت حتى ليرتكبها الناس دون حياء ، لا بل أنهم يفاخرون بها مفاخرة اللوطيين ، وأصبحت أقبح الكبائر وأغلظها تعد فضائل . . . فمن

الذى ما زال يرى، اوتكاب الفجهاء خطيئة ؟(٢٦) كتب الراعى برتلماسو رنجفالت فى ١٥٨٥ يقول : « هذا الزمان آخر الأزمنة التى نكب بها العالم ، وأشدها فسادا(٢٧) وأصبح التجديف و تدنيس المقدسات شائعا بين كل الرجال تقريبا من جميع المذاهب(٢٨) واستشرى الافتراء على الناس . وكتب كونت أولدنبورج فى ١٥٩٤ يقول : شكا لى ملاحظ أعمالى من الطريقة التى أساء بها الدكتور بيزل فى بريمن إلى سمعته و فترى عليه فى أحد كتبه ، إذ زعم أنه ينفق نهاره فى الشره والسكر والفجور ، وأنه ... ذئب مفترس للحملان ، وأفعى ، وتيس ، وسقط جهيض .. وأنه يجب التخلص منه أما بشنقه أو إغراقه أو سجنه ، وإما بدولاب التعذيب أو بحد السيف » . ووجد واعظ بلاط أمير سكسونيا الناخب أنه « فى طول ألمانيا وعرضها تقريبا اشيع كذبا » أننى أكسب أقداحا مذهبة كبيرة فى مباريات الشراب . . . وأننى أفرط فى شرب النبيذ . . حتى ليضطر القوم إلى مساعدتى ودفعى على عربة جر كأننى عجل أو خنزيرة مخمورة(٢٩) » .

وكان تناول الطعام والشراب شغلا شاغلا للناس ، فنصف نهار الألمانى الميسور ينفقه فى دفع الطعام من إحدى طرق القناة الهضمية إلى طرفها الآخر وكان أهل المدن يفخرون بشهيتهم الطيبة التى تفصح عن ثرائهم كما تفصح عنه ثياب زوجاتهم . وقد ذاع صيته أحد لاعبى السيرك فى أرجاء ألمانيا كلها لأنه أكل فى وجبة واحدة رطلا من الجبن ، وثلاثين بيضة ، ورغيفا كبيرا من الخبز — وهى مهمة خر بعدها صريعا . ولم يكن من الأمور الشاذة أن يتصل الغذاء أو العشاء سبع ساعات يتخللها شرب أربعة عشر نخبا . أما حفلات الزفاف فكانت فى أكثر الأحيان قصفا صاخبا يحفل بالنهم والسكر وقد ألف أمير مرح أن يوقع رسائله بهذه العبارة (كن معافى وأسكر) . وقد أسرف كرستيان الثانى أمير سكسونيا الناخب فى تعاطى الخمر حتى أودت بحياته ، ولما يجاوز السابعة والعشرين . وكافحت جمعية الامتناع عن السكرات لمقاومة هذه الرذيلة ، ولكن أول رئيس لها مات من السكر(٣٠) . وقد أكد

بعضهم أن البطنة قصرت أعمار الناس ، وكتب إرزمس فنتر فى ١٥٩٩ يقول « إن الإسراف فى الطعام والشراب قلل من عدد المعمرين ، وندر أن ترى رجلا فى الثلاثين أو الأربعين لا يشكو مرضا ، سواء كان الحصى ، أو النقرس ، أو السعال ، أو السل ، أو غيره » (٣١) .

ولكن علينا ألا نأخذ هذه الشكاوى المعاصرة مأخذ الجد الشديد . فأغلب الظن أن كثرة الشعب كانوا قوما مجدين ، صابرين ، يخافون الله بالمعنى الحرفى للعبارة . إلا أن الفضيلة لا ينوه بها التاريخ كما لا تنوه بها الصحف — وهذا دليل عن أنها أمر عادى مألوف . فقد كانت زوجات أهل المدن يلزمن بيوتهن فى عزلة متواضعة مستغرقات فى عشرات الواجبات التى لا تترك لهن فراغا لارتكاب ذنوب أفدح من الثرثرة بالشائعات ، وكانت الكثيرات من نساء الطبقة العليا — مثل أنا زوجة أغسطس الأول أمير سكسونيا الناخب — مثلا يحتذى فى الولاء الصادق للأسرة . ولم تخل ألمانيا الصاخبة تلك من الجوانب السارة . محبة الأطفال والبيت ، وكرم الضيافة ، والرقص الطروب والموسيقى الجميلة ، والألعاب والمهرجانات المرحة ، وأول شجرة ميلاد فى التاريخ المدون كانت جزءا من احتفال أقيم بألمانيا فى ١٦٠٥ ، والألمان هم الذين أحاطوا « عيد ميلاد المسيح » بالمظاهر البهية التى تخلفت من ماضيهم الوثنى :

وكانت الرقصات والأغانى الشعبية تلد أشكالا من الموسيقى المعزوفة ، وكانت التراتيل بسبيلها إلى أن تصير كورالات ضخمة . وغدا الأرغن أثرا فنيا يدخل فى فن المعمار ، أما البيان القيثارى ، والعود وغيرهما من الآلات الموسيقية ، فكانت وليدة فى التغنى بالحب . وحليت كتب الترانيم أحياناً ، لا سيما فى بوهيميا ، بزخارف رائعة . أما الترانيم البروتستنتينية فكثيرا ما كانت تعليمية أو جدلية ، وضحت فى هذا السبيل برقة ترانيم العصر الوسيط المقدسة ، ولكن الكورالات البروتستنتينية كانت بشيرا بمقدم يوهان سبستيان باخ . وفرض التعليم الموسيقى على المدارس من جميع المذاهب ، وكان مقام الـ « كانتور » ـ أى معلم الموسيقى ـ لا يعلو عليه إلا مقام المدير

أو الناظر فى سلم المراتب المدرسية واشتهر عازفو الأورغن يومئذ شهرة عازفى البيان الآن ، وذاع صيت يعقوب هاندل فى براغ . أما الأخوة هاسلر — وهم هانز ، وكاسبار ، ويعقوب — فقد انتشت جماهير المصلين بموسيقاهم التى كانت من وضعهم فى كثير من الأحيان ، فى درسدن ، ونورمبرج ، وبراغ وقد نحا النوع الموسيقى إلى الظهور مرارا وتكرارا فى الأسرة الواحدة ، لا بفضل أية وراثة خفية ، بل نتيجة لعدوى البيت ، وهكذا! اتخذ حشد حقيقى من آل شولتز اسم « بريتوريوس » ، ولم يكتف ميخائيل بريتوريوس بوضع مجلدات فى الموسيقى ، بل وضع فى كتابه « أصول الموسيقى » (١٦١٥ — ١٦٢٠) موسوعة شاملة رفيعة لتاريخ الموسيقى وآلاتها وأشكالها .

أما أعظم الأسماء فى هذا العصر وهذا الميدان فهو هنريخ شوتز ، الذى أجمع الكل على الإشادة به « أبا للموسيقى الألمانية الحديثة . وقد ولد لأسرة سكسونية فى ١٥٧٥ ، قبل قرن تماما من مولد باخ وهاندل ، وأرسى دعائم الأشكال والروح الموسيقية التى أوصلها هذان الفنانان إلى ذروة الكمال . وحين بلغ الرابعة والعشرين اتخذ سمته إلى البندقية ، حيث درس على جوفانى جابرييلى . فلما عاد إلى ألمانيا تردد بين الموسيقى والقانون ، ولكنه استقر آخر الأمر على العمل مديرا للموسيقى فى بلاط يوحنا جورج ، أمير سكسونيا الناخب ، بمدينة درسدن . وراح منذ ١٦١٨ يتدفق ألحانا كورالية مهدت السبيل كل التمهيد للعدد الكبير من الموسيقيين من آل باخ بفضل ما فيها من تناول بارع للكوارس (مجموعات المنشدين) وللأصوات المنفردة وللآلات الموسيقية ، ومن مقابلة بين هذه كلها ، ولأول مرة أذيب وخفف مزج الألحان الكورالى الألمانى الثقيل بأسلوب « التوزيع » الأكثر اتساقا ، والذى جمع بين الأصوات والآلات . واحتفالا بزفاف ابنة الأمير الناخب (١٦٢٧) لحن شوتز أولى الأوبرات الألمانية ، واسمها دافنى على أساس أوبرا بيرى التى تحمل هذا الاسم ، والتى أديت بفلورنسة قبل ثلاثة وثلاثين عاما . وتأثر شوتز

برحلة ثانية إلى إيطاليا ، فأعطى مزيدا من الوضوح للأصوات المنفردة والآلات الموسيقية فى « سيمفونياتة المقدسة » (١٦٢٩) إذ وضع موسيقى لنصوص لاتينية من المزامير ونشيد الانشاد . وفى ١٦٣١ غدت سكسونيا مسرحا نشيطا للحرب . فضرب شوتز فى الأرض متنقلا من بلاط إلى بلاط ؛ حتى أنه رحل إلى الدنمرك ، بحثا عن فرق المرتلين والتماسا للرزق ، ولم يرد إلى وظيفته فى درسدن إلا فى ١٦٤٥ ، وفى ذلك العام ابتكر أسلوب موسيقى « آلام المسيح » الألمانية بوضعه موشحة دينية « أوراتوريو » سماها « كلمات المسيح السبع على الصليب » ، هنا بدأت فكرة إعطاء كلمات شخص منفرد لنفس الصوت المنفرد ، ثم يسبق الصوت أو يقفوه بنفس الأنغام فى الآلات ، وقد اقتبس باخ من بعده هذه الطريقة فى موسيقى « آلام القديس متى » . ثم شق شوتز طرقا جديدة مرة أخرى ، إذ نشر فى ١٦٥٧ « الأنغام الألمانية » وهى « كانتاتات » (قصص موسيقية تنشدها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل) تضعه مع كاريسيمس فى مقام المنشىء المشارك للأناشيد الدينية الدرامتيه وقد هيأ لحنه « نشيد عيد الميلاد » (١٦٦٤) لباخ هدفا آخر يستهدف فيما بعد . ثم بلغ قصاراه بعد عام فى « آلام ربنا ومخلصنا يسوع المسيح وموته » . وهو نشيد وضعه بصرامة للأصوات وحدها دون أن يخفف بالألحان . وما لبث عقب هذا أن فقد سمعه ، فاعتكف فى بيته ، ومات فى السابعة والثمانين بعد أن لحن فقرة من المزمور ١١٩ تقول : « ترنيمات صارت لى فرائضك فى بيت غربتى » .

٤ — الآداب والفنون

كان أبرز إنتاج أدبى للامبراطورية فى هذا العهد ترجمة الكتاب المقدس قام بها الإخوان البوهيميين (١٥٨٨) ، وملحمة Zriny**ias** (١٦٤٤) التى نظمها ميكلوس زرينيى . وخلفت ألمانيا الآن (حوالى ١٦٠٠) إيطاليا بوصفها أروج سوق لنشر الكتب ، لا سيما فرانكفورت وماين .. ففى ١٥٩٨

بدأت سوق فرانكفورت للكتاب تنشر كل نصف عام قائمة بالمطبوعات ، وشجعت الجماعات الأدبية الشعر والدراما . ولكن الأدب كانت تخنقه الرقابة المدنية والكنيسة . فقد أجمع القادة اللوثريين والكالفنيون والكاثوليك على أن المؤلفات التي تعد ضارة بالحكومة . أو المذهب الرسمي ، أو الآداب العامة . يجب حظرها . ومن عجب أن مجموع الكتب التي حرمتها السلطات البروتستنتية فاق تلك التي أدانتها كنيسة رومه (٣٢) . واضمحل العلم لأن الحقيقة شوهتها حدة الجدل . وآية ذلك أن ماتياس فلاكيوس الليريكوس ومساعديه صنفوا تاريخا للكنيسة المسيحية في ثلاثة عشر مجلدا من القطع الكبير . ولكن « قرون مجد بورخ » ، وهو الاسم الذي انتهى الناس إلى إطلاقه على كتاب « تاريخ الكنيسة المسيحية » (١٥٥٩ — ١٥٧٤) نسبة إلى مكان تأليفه وإلى تقسيمه حسب القرون — هـــذا الكتاب كان متحيزا للكتب التاريخ الكاثوليكية الصادرة في ذلك العهـــد ، يوم كان كل كتاب سلاحا في القتال . مثال ذلك أن البابا جريجورى السابع صوره هؤلاء المقاتلون أشد وحشية من كل ما ولد من وحوش . وزعموا أنه قتل عدة باباوات قبل أن يرتقي « كرسي الوباء » (٣٣) . أما أروع التواريخ الرسمية الألمانية - في جيله فكتاب يوهان سلايدانوس الذي روى قصة الإصلاح الديني : « الأحوال الدينية والمدنية في عهد الإمبراطور شارل الخامس » (٥٥٥) ، وقد بلغ من الإنصاف مبلغا لم يترك مجالا — حتى لملانكثون — أن يغتفر له أي تحامل فيه .

وبعد الكتب المحشوة بالمطاعن كانت الدراما أكثر أشكال للأدب شعبية وقد استخدم البروتستنت والكاثوليك المسرح لبث الدعوه ! فسخرت التمثيليات البروتستنية بالبابا سخرية مريرة ، واختتمت عادة بزجه في الجحيم . وأخرج معلمو الموسيقى بسويسرة تمثيليات عن آلام المسيح والقيامة . والدينونة الأخيرة ابتداء من ١٥٤٩ ، وشارك في التمثيل أحيانا ٢٩٠ ممثلا .

ومثلت مسرحية آلام «أوبرامير جاو» أول مرة فى ١٦٣٤ وفاء بنذر نذر خلال طاعون ١٦٣٣ . وكانت تعاد كل عشر سنوات ، ويستمر عرضها من الساعة الثامنة والنصف صباحا إلى السادسة مساء ، يتخلل ذلك إستراحة ساعتين فى الظهيرة . وقد دخل الممثلون الإيطاليون ألمانيا عام ١٥٦٨ ، ثم تلاهم الهولنديون والفرنسيون والإنجليز . وسرعان ما أحلت هذه الفرق التمثيلية عروض المحترفين محل العروض الخاصة ، وقد أثارت الكثير من الشكاوى بسبب فحشها الذى در عليها الربح الوفير .

وحظى بشعبية فاقت حتى شعبية الممثلين ناقد ألزاسى هجاء ، فيه فحولة وله كفايات متعددة ، يدعى يوهان فيشارت فبعد أن تقمص فى مرح روح عصره ، أصدر سلسلة من التقليدات الساخرة ضد الكاثوليكية ، بلغت فى تدميرها الذكى مبلغا جعله بحق قابل أروج كاتب فى ألمانيا ، ففى كتابه « خلية النحل الرومانية المقدســــة الهائلة » هاجم (١٥٧٩) تاريخ الكنيسة ، وعقيدتها ، واحتفالاتها ، وكهنتها ، فى كاريكاتور عنيف ، فكل الأديار الكاثوليكية عنده مراتع للفجور والاجهاض ، والكنيسة فى زعمه قضت بأن « للكهنة » أن يستعملوا زوجات غيرهم فى غير حرج ، وقد وجدت ستة آلاف من رؤوس الأطفال فى بركة قرب دير الراهبات ، وهكذا دواليك[٣٤] . وفى هجاء آخر سماه « القبعه اليسوعية الصغيرة » سخر من قبعة اليسوعيين ذات الزوايا الأربع وندد بكل أساليبهم وأفكارهم . وفى عام ١٥٧٥ ، نشر فيشارت ، بعنوان مرح فى ثمانية سطور ، ترجمة مزعومة ، هى فى حقيقة الأمر تقليد وتوسيع لكتاب رابليه « جارجانتوا » ، وقد هزأ الكتاب بجميع نواحى الحياة الألمانية — كظلم الفقراء ، وسوء معاملة التلاميذ ، ونهم الألمان وسكرهم ، وزناهم وفسقهم ، كل ذلك فى خليط من الأساليب ومن اللهجة الألزاسية ، متبل بالبذاءة والظرف . ومات فيشارت فى الثالثة والأربعين بعد أن أفرغ ما فى جعبته من ألفاظ .

ولا يقل عن فيشارت حيوية رجل آخر مات فى نفس السنة ، ١٥٩٠ ، بالغا نفس العمر ، هو نيقوديموس فريشلين . الذى عاش أكثر من عشرة أعمار فى عمر واحد . ففى العشرين كان أستاذا للتاريخ والشعر فى توبنجن ، ونظم الشعر اللاتينى فى رقة تذكرك برقة هوراس ، وكتب شروحا علمية لفرجيل . وفى الخامسة والثلاثين طرد لهجائه النبلاء . وبعدها عاش عيشة الاستهتار والمرح ، فأسرف فى الشراب ، زاعما أن الخمر لا غنى عنها للعبقرية ، وأن أشعار الزاهدين فى الخمر هزيلة هزالا حقيرا ، وقد اتهم بإفساد فتاة وتسميم أخرى ، وإذ كان مهددا بالمحاكمة الجنائية لعدوانه على الفضيلة ، فقد ظل يفر من بلد إلى بلد ، وأهدى محاضرة منشورة إلى أحد عشر رجلا من الأعيان المختلفين ، الذين وزعهم توزيعا جغرافيا ، ليوفروا له ملجأ يلوذ به فى أى مكان ، ولكنه مات أثر كبوة قبل أن ينتهى من إبداء رأيه فى أعدائه . وجريا على عادة ذلك الزمان نعتوه بأنه : « شاعر قذر حقير ، وسقط للشيطان كذاب لئيم[٣٥] » . ولكنه كان ألمع شاعر استطاعت ألمانيا أن تنجبه فى ذلك الجيل الشقى .

أما الفن فقد أضر به عزوف البروتستنت عن الصـــور والتماثيل ، واضمحلال الكنيسة بوصفها راعية للفن ، وإفساد التأثير الايطالى الغريب على ألمانيا للطرز الوطنية ، وتدهور الذوق نتيجة لخشونة الأخلاق وعنف الجدل ، ثم نار الحرب الآكلة بعد ذلك . وأعجب العجب أن تنتج الحرفية الألمانية ، برغم هذه المثبطات ، فى العقود الستة السابقة للحرب ، عدة قصور فخمة ، ودور للبلدية بهية ، وتنجب مصورا قديرا ، وتبدع بعض التحف الثمينة فى الفنون الصغيرة . وكانت مجموعات الامبراطور رودلف الثانى والدوق ألبرت الخامس أمير بافاريا نواة لمتحف ميونخ الشهير « قاعة الفن القديمة » وكان ألبرت نفسه « مديتشيا ألمانيا » ، فأحال بلاطه جنة « للفنانين ، وجمل

عاصمته بالعمارة ، وجمع التماثيل فى « الانتكواريوم » * ، — وهو أول متحف للتماثيل القديمة شمال الألب .

وفى ١٦١١ — ١٦١٩ بنى معمارى هولندى للدوق مكسمليان الأول فى ميونيخ « المقر » الذى ظل قرونا بيتا لأدواق بافاريا وناخبيها وملوكها . وقد أسف جوستاف أدولف لأنه لم يستطع أن ينقل إلى استكهولم ذلك المثال المحبب من عمائر فترة الاصلاح البروتستنتى المتأخرة فى ألمانيا . أما اليسوعيون فقد شيدوا بطراز الباروك ، على طريقتهم التى تعنى بالزخرفة والتنميق ، كنائس بديعة فى كوبلنز . وديلنجن ، وكنيسة هوف (كنيسة القديس ميخائيل) بميونيخ وصمم سانتينو سولارى كاتدرائية سالزبورج ، على طراز أكثر بساطة وفخامة ، قبيل اندلاع حرب الثلاثين ببضع سنين .

وإذ كان الأمراء قد استولوا على معظم الثروة الكنسية فى ألمانيا البروتستنتية ، فإن العمارة فيها لم تعد كنيسة بل مدنية ، وأحيانا عمارة قصور . وبنيت القلاع الضخمة ، كقلعة هايلينجبرج فى بادن ، المشهورة بسقفها المصنوع من خشب الزيزفون المنقوش ، فى قاعتها المعروفة بالريترزال (أى صالة الفرسان) ، وقلعة أشافينبورج على الماين ، وقلعة هايدلبيرج ، التى ما زالت مشهدا من مشاهد ألمانيا الكبرى . وأقيمت دار بلدية « راتهاوس » الفاخرة لتضم إدارة البلدية فى لوبك وقلاع بادريون ، وبريمن ، وروتنبورج واجزبورج ونورمبرج وجراتز . وعهد تجار المنسوجات فى أجزبورج إلى الياس هول ، كبير معمارى المدينة ، ببناء قاعتهم « تزويج هاوس » أى قاعة الأقمشة . كذلك بنت بريمن قاعة للغلال « كورنهاوس » ، وفرانكفورت قاعة للملح « زالتسهاوس » لتجار الغلال والملح على التوالى ، ولكن من كان يتوقع أن يبنى الخل لنفسه بيتا رفيع الذوق يظله كقاعة الخل « ايسيجهاوس » ؟

---

* هذا المتحف وغيره من المنشآت الموسومة بعلامة نجمية فى هذا القسم دمرت أو لحق بها ضرر بليغ فى الحرب العالمية الثانية .

وارتفعت الآن ، وفى الأعوام المائة والخمسين التالية ، القصور فى كل مكان بألمانيا لتأوى الأمراء الظافرين ، وقد بنيت بطراز الباروك اللولبى البهيج . من ذلك أن حاكم « أنسباخ بايرويت » أنفق ٢٣٧٠٠٠ فلورين (٣٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار ؟) على قصر بلاسنبورج الذى يملكه ، فى إمارة من أفقر إمارات الامبراطورية . وأرفع من هذا القصر ذوقا « القصر الأميرى الذى أعد لرؤساء أساقفة ماينز . وتبدو عمارة بيوت هذه الفترة بهية إلى حد خلاب سواء فى تقاليدها أو رسومها . غير أن طبيبا ساخطا وصف البيوت الألمانية فى ١٦١٠ بأنها تتألف من حجرات قذرة مظلمة خبيثة الرائحة قل أن يدخلها الهواء النقى[٣٦] ، ومع ذلك فإن داخل البيت فى المدينة كان الموطن الحقيقى لفنون ألمانيا الصغيرة ، فقد حفل بالزخارف التى أبدعتها أيد ماهرة كالحشرات الخشبية والسقوف المنقوشة ، والأثاث المتين المنقوش والمطعم ، والدرابزينات الحديدية المشغولة ، والأقفال والقضبان المنصوبة فى أشكال فخمة ، وتماثيل العاج الصغيرة ، وأقداح الشراب الفضية أو الذهبية . لقد كان ساكن المدينة الألمانى لا يشبع من الزخارف فى بيته .

وازدهر الحفر ، لا سيما على النحاس ، فى ألمانيا حتى خلال الحروب . واستهل لوكاس كيليان وأخوه فولفجانج ، حوالى ١٦٠٠ ، عهد أسرة موهوبة من الحفارين اتصل نشاطها طوال القرن السابع عشر بفضل ولدى فولفجانج ، وهما فيليب وبرتلماوس ، وامتد حتى ١٧٨١ بفضل أبناء حفدة فيليب . على أن النحت الألمانى أضرت به المحاولات التى بذلها النحاتون لتقليد الأشكال الكلاسيكية الدخيلة على الطبيعة والمزاج الألمانيين . وكان الحفارون الوطنيون ، إذا أرسلوا أنفسهم على سجيتها ، يبدعون تحفا من أرفع طراز ، مثال ذلك مذبح الكنيسة الأوسط ، والمذبحان الجانبيان ، التى حفرها فى الخشب هانزدبجلر لكنيسة أولتريش فى أوجزبورج ، أو التماثيل السبعون التى نقشها ميخائيل هونيل لكاتدرائية جورك بالنمسا . ومن المعالم البارزة فى هذا العصر

نافورات الماء العجيبة التى استلهمت المثل الايطالية . كنافورة « فيتلسباخر » المقامة أمام الرزيدنتز « بميونيخ و « نافورة الفضيلة » (توجندبرونن) ، أمام كنيسة لورنز فى نورمبرج .

حين نمى إلى روبنز أن آدم الزهايمر قد مات لتوه (١٦١٠) وهو بعد فى الثانية والثلاثين قال « خليق بهذا الخطب أن يغرق مهنتنا فى حزن عميق . فلن يكون من السهل تعويضه، إذ محال فى رأيى أن يكون له نظير فى (رسم) الصور الصغيرة والمناظر الطبيعية، وأشياء أخرى كثيرة[٣٧]. وقد ولد آدم هذا فى فرانكفورت ثم قصد إيطاليا وهو فى العشرين، وبعد أن أقام فى البندقية ردحا من الزمن اتفق ما بقى من عمره فى روما. وقد تضرع روبنز إلى الله «أن يغفر لآدم خطيئة الكسل»، ولكننا لا ندرى أهو الكسل « الذى جعل الزهايمر يقصر فنه على الرسوم الصغيرة على الأطباق النحاسية . إذ لا يمكن أن يكون الكسل هو الذى جعله يضفى على مناظر الطبيعة ذلك الصقل الدقيق الذى نراه فى «الهروب إلى مصر[٣٨]» أو ذلك التجسيد للضوء والهواء الذى جعل منه على حدوده المتواضعة، « رمبرانتا » قبل رمبرانت . ويلوح أنه كان يجزى جزاء طيباً على فنه ، ولكنه جزاء لا يكفى لإشباع حاجاته وميوله . وقد أفلس ، وسجن بسبب دينه ، ثم مات عقب الإفراج عنه .

كان الرسم على الزجاج فناً أثيراً فى هذا العصر . فى زيوريخ ومازال أولا ، ثم فى ميونيخ ، وأوجزبورج ، ونورمبرج ، وأصبحت النوافذ فى الأديار والمنازل غنيه بالألوان كأنها نوافذ كنيسة من العصر الوسيط وظهر نقش الزجاج فى بواكير القرن السابع عشر فى نورمبرج وبراغ . واشتهرت أسرة هيرشفوجل بنورمبرج بالزجاج والخزف الفنيين . وأدفأت كولونيا وزيجبورج قلوب الألمان بالأباريق والكيزان الأنيقة النقوش ، وكثيراً ما كانت المواقد تحاط بفخار مزجج بالألوان . ولم يكن للألمان قريع فى أشغال الخشب والعاج والحديد والأحجار الكريمة والمعادن النفيسة . وكان

لنجارى الأثاث مكان مرموق ، حتى أن واحداً منهم حكم عليه بالشنق عقاباً على السرقة صدر العفو عنه لأنه كان « نجاراً فنياً ، ماهراً جداً » . والدرابزين الحديدى المحيط بمقبرة الامبراطور مكسمليان الأول فى انزبروك رائع جداً . وقد صنع أنطون آيزنهوت فى ١٥٨٧ آنية للطقوس الكنسية من فضة بلغت من دقة الرسم وغنى الحلية ما يضعها إلى اليوم فى قمة الآنية التى من نوعها . وكان الصاغة الألمان مطلوبين فى كل مكان ، ووجدت أشغالهم سوقاً أوربية لها فى غير عناء . وصنعت كئوس الشراب، والأقداح ،والأباريق الفضية فى عشرات الأشكال المضحكة ، وكان فى وسع الألمان أن يترنحوا بالخمر يشربونه من طواحين الهواء ، والفوانيس ، والتفاح ، والقردة ، والخيل ، والخنازير ، والرهبان، والراهبات. لقد كانوا يخوضون الحرب اللاهوتية حتى فى كئوسهم المتصارعة .

٥ — المذاهب المتصارعة

كان ديت أوجزبورج (١٥٥٥) قد وصل بالصراع الدينى إلى هدنة جغرافية حول مبدأ « الناس على دين ملوكهم » ، « إقليمه دينه » — أعنى أن دين الحاكم فى كل دور يفرض ديناً على رعاياه ، وعلى المخالفين أن يرحلوا . وكان الاتفاق يمثل قدراً ضئيلا من التقدم ، لأنه أحل الهجرة محل الإعدام ؛ ولكنه اقتصر على اللوثرية والكاثوليكية ، وكان من آثار اقتلاع عائلات كثيرة من جذورها اقتلاعا أليما زادت الفوضى والمرارة فى ألمانيا . وكان ينتظر من السكان أن يغيروا مذهبهم إذ خلف حاكم يدين بأحد المذهبين حاكما يدين بالمذهب الآخر . وبات الدين مطية وضحية للسياسة والحرب

أما وقد انقسمت ألمانيا فى اللاهوتية على هذا النحو ، فإنها لا تقدم قبل حرب الثلاثين حريطة دينية بسيطة : ويمكن القول عموماً بأن الشمال كان بروتستنتيا ، والجنوب وأرض الراين كاثوليكيين ، ولكن بما أن مبدأ

أوجزبورج لم يمكن فرضه فرضا دقيقاً ولا سريعاً ، فقد بقى الكثير من البروتستنت فى مناطق كاثوليكية،والكثير من الكاثوليك فى بلاد بروتستنتية. وقدأتيح للكاثوليك ميزتان هما التقاليد والوحدة ، أما البروتستنت فقد تمتعوا بقسط أوفر من حرية العقيدة ، وانقسموا إلى لوثريين وكلفنيين وقائلين بتجديد العماد وموحدين ، وحتى فى صفوف اللوثريين نشبت حرب عقائدية بين أتباع ملانكتون المتحرر وخصومه . وفى ١٥٧٧ صاغ اللوثريون عقيدتهم فى « كتاب الوفاق » ، وبعد هذا التاريخ طرد الكلفنيون من الدويلات الألمانية اللوثرية . ولكن أمير البالاتينات الناخب ، فردريك الثالث ، رعى الكلفنية وجعل جامعة هايدلبرج معهدا لاهوتيا للشباب الكلفينى . وهناك ، فى ١٥٦٣ وضع اللاهوتيون الكلفنيون كتاب « التعليم المسيحى » فى مفهوم هايدلبرج، وقد صدم الكاثوليك واللوثريين جميعا برفضه عقيدة الحلول الحقيقى للمسيح فى خمر العشاء الربانى وخبزه . وسمح للكاثوليك بالعيش فى البالاتينات شريطة أن يقصروا عبادتهم على بيوتهم ، أما الموحدون فقد قمعوا بشدة . وفى ١٥٧٠ نازع رجلان فى ربوبية المسيح ، أو ضيقا حدودها ، فأعدما أثر أصرار الأساتذة الكلفيين فى جامعة هايدلبرج على أعدامهما . على أن الامير الناخب لويس ابن فردريك ، آثر المذهب اللوثرى وفرضــه ، ولكن أخاه يوحنا كازيمير ، أثناء وصايته (١٥٨٣ — ١٥٩٢) ، فضل الكلفنية وفرضها ، ثم وطد الامير الناخب فردريك الرابع (١٥٩٢ — ١٦١٠) تلك السياسة . وتزوج أبنه فردريك الخامس (١٦١٠ — ١٦٢٣) اليزابيت ستيوارت (ابنة جيمس الاول ملك انجلترة) . وطالب بعرش بوهيميا، وعجل بنشوب حرب الثــــلاثين .

وكان الصراع بين اللوثريين والكلفنيين لايقل مرارة عنه بين البروتستنت والكاثوليك ، وقد أضر بتعاون البروتستنت خلال الحرب لأن تعاقب النصر والهزيمة على الفريقين كليهما ، تارة هذا وتارة ذاك ، ومن ثم اضطهاد المنتصر

للمنهزم كان يخلف ميراثا من الكراهية ، مثال ذلك أنه في ١٥٨٥ طرد الكونت فولفجانج حاكم أيزنبورج رونيبورج جميع الموظفين اللوثريين في إقليمه وأحل الكلفنيين محلهم ، ولكن أخاه وخليفته الكونت هنرى أنذر الوعاظ الكلفنيين في ١٥٩٨ بأن عليهم أن يرحلوا خلال أسابيع برغم البرد القارس ، وفي ١٦٠١ ولى الحكم الكونت فولفجانج ارنست ، فطرد الوعاظ اللوثريين وأعاد المذهب الكلفيني . وحدث مثل هذا الاحلال للكلفنيين محل اللوثريين في أنهالت (١٥٩٥) ، وهاناو (١٩٥٦، وليبي (١٦٠٠) . وفي بروسيا الشرقية أعدم يوهان فونك المتهم بميوله الكلفنية في سوق كونيجزبرج وسط تهليل الجماهير (١٥٦٦) [٣٩] . كذلك أعدم المستشار نيقولا كريل في درسدن (١٦٠١) لتوجيهه الطقوس اللوثرية وجهة كلفنية ، ولتأييده للهيجونوت الفرنسيين [٤٠] .

وفي ١٦٠٤ أعتنق الشريف موريس حاكم هيس — كاسل المذهب الكلفيني ، ثم فرضه في ١٦٠٥ في هذا الاقليم وفي هيس العليا ، وهزم جنوده حشدا من اللوثريين المقاومين وحطموا الصور الدينية في الكنائس ، أما الوعاظ الذين أبوا التحول من المذهب اللوثرى إلى الكلفنى فقد نفوا [٤١] . وفي أمارة براندنبورج الناخبة قام نزاع عنيف بين اللوثريين والكلفنيين حول خبز القربان المقدس ، وهل يتحول حقيقة بعد تقديسه إلى جسد المسيح وأخيراً قضت الحكومة بأن الكلفنية هي المذهب الحق (١٦١٣ وما بعدها) [٤٢] .

ووسط تذبذبات الحقيقة هذه احتدم ذلك « السعار اللاهوتى » كما سبق أن سماه ملانكتون — احتداما لم يعرفه التاريخ من قبل ولا من بعد ، ألا فيما ندر . من ذلك أن راعيا لوثريا يدعى نيفاندر (١٥٨٢) عدد أربعين خصيصة من خصائص الذئاب ، وزعم أنها بالضبط السمات المميزة للكلفنيين ثم وصف الميتات الرهيبة التى لقيها أعداء اللوثريين ، وقال بأن

زونجلى حين خر صريعا فى المعركة ، « قطع جسده سيورا ، واستعمل الجنود شحمه ليشحموا به أحذيتهم، لأنه كان رجلا بدينا[٤٣]» . وجاء فى نشرة لوثرية فى ١٥٩٠ « إن أراد أحد أن يقال له فى بضع كلمات أية مادة من مواد الايمان تقاتل عليها جانس الأفاعى الكلفنية الشيطانى ، كان الجواب، كلها بلا استثناء... ذلك لأنهم ليسوا مسيحيين ، بل يهود ومسلمون معمدون [٤٤]» . وفى سوق فرانكفورت كتب ستانسلاوس رسكيوس (١٥٩٢) « لقد لاحظنا منذ سنين أن الكتب التى يؤلفها البروتستنت ضد البروتستنت ثلاثة أمثال تلك التى يؤلفها البروتستنت ضد الكاثوليك[٤٥]» . وقال كاتب بروتستنتى فى ١٦١٠ فى معرض الرثاء لهذه الحال ، « أن هؤلاء اللاهوتين المسعورين قد جعلوا الحرب المدمرة الناشبة بين المسيحيين المنشقين على البابوية من الهول والاتساع بحيث لا تبدو بارقة أمل فى أن يكف كل هذا الصراخ والقذف والشتم واللعن والحرم قبل مجىء اليوم الآخر[٤٦]» .

ولكى نفهم هذا « السعار اللاهوتى » ، علينا أن نتذكر أن جميع أطراف النزاع أجمعوا على أن الكتاب المقدس كلمة الله المعصومة ، وإن الحياة بعد الموت ينبغى أن تكون أهم شغل للناس فى هذه الدنيا . كذلك لابد أن تفسح الصورة مكانا للتقوى الصادقة التى أورثت الكثيرين من اللوثريين والكلفنيين والكاثوليك الاتضاع والتسامى فوق حمى المذاهب وهذيانها . فقد هرب « أهل التقوى » هؤلاء من المنابر اللاهوتية والتمسوا فى خلوتهم شيئا من الحضرة الإلهية المطمئنة . وما زال مؤلف يوهان آرنت « حديقة الفردوس الصغيرة » يقرأ فى ألمانيا البروتستنتية باعتباره كتيبا للتأمل الورع . وانتهى يعقوب بومى بهذه النزعة إلى فكرة الوحدة الصوفية لروح الفرد مع إله تصوره ينبوعا كونيا ، وأساسا لكل الأشياء ، ينتظم كل «شر» وكل «خير» وزعم بومى أنه رأى « كائن الكائنات كلها ، ورأى جهنم ، كما رأى مولد الثالوث الأقدس[٤٧]» ولا يجد العقل غير المتعاطف مع الصوفية فى كتاب بومى « فى شارة كل الأشياء » ١٦٢١ « إلا دوامة من السخافات » ، ومن بواعثه

العزاء أن نعرف أن صوفيا آخر ، هو يوحنا وميسلى ، وصفه بأنه « هراء رفيع[٤٨] » . وأفضل من التراتيل البسيطة الحسية التى ألقها التقى اليسوعى فردريك فون سبي .

واليسوعيون هم الذين قادوا الحملة الصليبية الكاثوليكيه لإسترداد الأرض المفقودة فى ألمانيا كما فعلوا فى كل مكان فى أوربا ، وقد بدأوا بمحاولة إصلاح الاكليروس الكاثوليكى . كتب اليسوعى بطرس فابر من فورمز فى ١٥٤٠ يقول : « اسمح اللهم بأن يكون فى هده المدينة ولو كاهنان أو ثلاثة ليس لهم علاقات غرامية حرام ، أولا يعيشون فى خطايا معروفة أخرى[٤٩] » . على أن أهم خططهم كانت اصطياد الشباب ومن ثم فتح اليسوعيون الكليات فى كولونيا ، وتريير ، وكوبلنز ، وماينز ، وشبيير ، وديلجن ، ومونستر ، وفورتسبورج ، واينجولستات ، وبادربورن ، وفرايبورج ، وقد طاف بطرس كانيسيوس ، الرأس المفكر والروح والحركة لهذه الحملة اليسوعية ، بكل أرجاء ألمانيا تقريبا على قدميه ، منشئا الكليات ، موجها المجادلات اليسوعية العنيفة ، شارحا للحكام الألمان مزايا المذهب القديم . وقد حث الدوق ألبرت الخامس على أن يستأصل بالقوة شأفة البروتستنتية بأسرها من بافاريا[٥٠] . وبفضل اليسوعيين ، والكبوشيين ، وإصلاح الاكليروس ، وغيرة الأساقفة ، ودبلوماسية البابوات وسفرائهم ، استعيد إلى حظيرة الكنيسة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر نصف الأرض التى كسبتها البروتستنتية الألمانيـــة فى النصف الأول منه . وقد استعملت بعض ألوان الاكراه هنا وهناك ، غير أن الحركة كانت فى جملتها سيكولوجية سياسية ، ذلك أن جماهير الشعب ملت طول الشك والجدل والجبرية ، ورأى حكامهم فى الكاثوليكية التقليدية سندا للحكومة والنظام الاجتماعى أقوى من سند بروتستنتية غارقة فى فوضى الانقسام ، محفوفة بالمخاطر التى تكتنف كل مذهب جديد .

فلما أدرك البروتستنت آخر المطاف أن انقساماتهم الداخلية أشبه بعملية انتحارية . وجهوا منابرهم وأقلامهم ضد عدوهم الروماني. ومهدت حرب الكلام والمداد لحرب المدافع والدم ، وتفاقم التقاذف بالمطاعن حتى قارب نشوة القتل. ودخلت قاموس اللاهوت ألفاظ كالروث ، والنفاية ، والحمار ، والخنزير ، والبغي ، والقاتل. فنى عام ١٥٦٥ اتهم الكاتب الكاثوليك يوهان ناس اللوثريين بممارسة القتل ، والسرقة ، والكذب ، والغش ، والشره ، والسكر ، ومضاجعة المحارم ، والجريمة ، دون ما خشية ، لأن الايمان فى زعمهم يبرر كل الأشياء»، ورجح أن تكون كل امرأة لوثرية مومساء(٥١). وقد اعتبر الكاثوليك هلاك البروتستنت الأبدى إحدى بديهيات اللاهوت ، ولكن الواعظ اللوثرى أندرياس لانج كتب (١٥٧٦) بثقة مماثلة « أن البابويين كغيرهم من الترك واليهود والوثنيين هم خارج نطاق الرحمة الالهية ، ومغفرة الخطايا ، والخلاص . فلقد كتب عليهم العويل والبكاء وصرير الأسنان إلى الأبد فى نار الجحيم المشتعلة وكبريتها (٥٢) . وراح الكتاب من الجانبين يتبادلون الافتراءات على نحو ما يفعل الآن فى حرب العقائد السياسية . وراجت أسطورة «البابة» (امرأة) يوانا فى الأدب البروتستنتى . وكتب أحد رجال الدين البروتستنت فى ١٥٨٩ يقول: «ما أشد نفاق هؤلاء اليسوعيين الأوغاد السفلة إذ يلجون فى إنكار هذه الحقيقة، وهى أن البغى الانجليزية آجينس كانت « بابة » فى روما وأنها ولدت غلاما خلال أحد المواكب العامة (٥٣) » . وجاء فى إحدى المواعظ أن البابوات كانوا وما زالوا بلا استثناء واحد ، لوطيين ومستحضرى أرواح وسحرة ، وأن الكثيرين منهم يستطيعون أن يبصقوا النار من أفواهم .. « كثيرا ما ظهر الشيطان بصورته المرئية للبابوات ... واشترك معهم فى لعن صليب المسيح ووطئه بالأقدام ، ثم الرقص رقصات عارية فوقه ، وهى التى سموها خدمة مقدسة (٥٤) » . وكانت جماهير العابدين ترتشف هذه المسكرات بشغف . قال قسيس بروتستنتى فى ١٥٨٤ ، « لقد تعلم الأطفال فى الشوارع أن يلعنوا عدو المسيح الرومانى وأتباعه الملاعين (٥٥) » .

وكان اليسوعيون أهدافاً محبية. فرموا فى مئات الرسوم الهزلية، والنشرات، والكتب، والقصائد، باللواط، والزنى، والبهيمية وفى أحد الكليشهات الخشبية الألمانية، وتاريخه ١٥٦٩ (ومازل محفوظاً فى مجموعة جوته بفايمار) صور البابا على شكل خنزيرة تلد رهباناً يسوعيين فى هيئة خنازير صغار. وفى ١٥٩٣ نشر اللاهوتى اللوثرى بوليكارب الايزر تاريخاً للرهبنة اليسوعية باللاتينية. وصف اليسوعيين بأنهم يقارفون أقبح الرذائل مطمئنين إلى رضى البابا وعفوه الكاملين[٥٦]. وأخبرت «صحيفة جديدة صادقة» ١٦١٤ «قراءها بأن الكردينال اليسوعى باللارمين ارتكب الفاحشة ٢٫٢٣٦ مرة مع ١٦٤٢ امرأة، ثم استطردت لتصف عذاب الكردينال على فراش موته، مع أنه لم يمت إلا بعد سبع سنوات[٥٧].

وقد رد اليسوعيون أول الأمر فى ضبط للأعصاب. ونضح كانيسيوس باستعمال لغـــة بريئة من العنف، وكذلك فعل الراعى البروتستنتى يوهان ماتيسيوس، ولكن الجمهور كان يؤثر الطعن على الاعتدال. واتهم المجادلون البروتستنت المتطرفون خصومهم اليسوعيين بقبولهم عقيدة اليسوعى ماريانا التى تدافع عن قتل الطغاة من الحكام، ورد أحد اليسوعيين الألمان بأن هذه هى بالضبط العقيدة التى يجب تطبيقها على الأمراء الذين فرضوا البروتستنتية على رعاياهم. ولكن يسوعيين آخرين أكدوا للحكام البروتستنت أنهم يعتبرون أمراء شرعيين، وأن شعرة واحدة من رءوسهم لن تمس. ونشر اليسوعى كونراد فيتر (١٥٩٤ — ٩٩) عشر كتيبات استعمل فيها أقبح ألفاظ الشتم، معتذراً بأنه إنما يحذو فى ذلك حذو اللاهوتيين اللوثريين، وكان الجمهور يتهافت على شراء هذه الكتيبات بمجرد طبعها. وأعلن يسوعيو كولونيا أن «المراطقة العنيديين الذين يبثون الانشقاق فى كل مكان» فى الأقاليم الكاثوليكية»

«يجب أن يعاقبوا كما يعاقب اللصوص والسارقون والقتلة»

لا بل بأشد مما يعاقب به هؤلاء المجرمون ، فهؤلاء لايؤذون سوى الجسد، أما أولئك فيزجون بالنفوس في الهلاك الأبدى.. ولو أن لوثر أعدم أو أحرق قبل أربعين عاما ، أو لو أن نفرا من الناس نخفف العالم من وجودهم ، لما نكبنا بمثل هذه الانشقاقات اللعينة ، ولا بمثل هذه الملل والنحل التى تكدر صفاء العالم كله[٥٩] .

وبمثل هذه الروح ناشد الكلفن داود باريئز، استاذ اللاهوت بهايد لبرج (١٦١٨) ، جميع الأمراء البروتستنت أن يشنوا حربا صليبية على البابوية ، وفى حملة كهذه يجب « ألا يتحرجوا من أى ضرب من ضروب القسوة أو العقاب[٦٠] » . وبلغ هذا السيل الدافق من الكتيبات ذروته بطبع ١٫٨٠٠ نشرة فى سنة واحدة (١٦١٨) ، وهى أول سنى الحرب .

فلما قوى بأس الكاثوليك واشتد غضبهم ، ألف عدد من الأمراء البروتستنت « اتحادا من الأقاليم الانجيلية » (١٦٠٨) أو اتحادا بروتستنتيا ليتبادلوا الحماية . ووقف ناخب سكسونيا بمعزل عن الاتحاد ، ولكن هنرى الرابع ملك فرنسا بدأ على استعداد لمديد المعونة لأية مغامرة ضد الإمبراطور الهابسبورجى. وفى ١٦٠٩ ألف عدد من الحكام الكاثوليك يتزعمهم مكسمليان الأول دوق بافاريا ، اتحادا كاثوليكيا ، عرف بالحلف الكاثوليكى ، وما وافى أغسطس من عام ١٦١٠ حتى كانت كل دويلات الامبراطورية تقريبا قد انضمت إليه ، ثم عرضت أسبانيا أن تقدم له المعونة الحربية . ووافق الاتحاد البروتستنتى (فبراير) على أن يساعد هنرى الرابع على الاستيلاء على دوقية يوليس — كليفز ، ولكن مصرع الملك الفرنسى (١٤ مايو) حرم البروتستنت من أقوى حليف لهم . وسرى الخوف فى ألمانيا البروتستنتية ، ولكن الحلف لم يكن على استعداد العمل . وفى يناير ١٦١٥ أنذر موريس حاكم هيس - كاسل الاتحاد البروتستنتى بأن « الحلف الكاثوليكى ، الذى يحميه البابا ، وملك

أسبانيـــا ، وبلاط بروكسل ، والامبراطور . . . أرسل فى طلب السلاح والذخيرة . . . رغبة . . . فى استئصال شأفة ـ المذهب الانجيلى[٦١] » . وزاد انطين بلة أن كاسبار سكيو بيوس حذر الكاثوليك واللوثريين من أن الكلفنيين يعتزمون تدمير الديانة والسلام العام والاطاحة بالامبراطورية الرومانية المقدسة بأسرها، ومحو مبدأ أوجزبرج والمذهب الكاثوليكى من الامبراطورية[٦٢] سواء بسواء ، وربما كان هذا محاولة لاشاعة مزيد من الفرقة بين الشيع البروتستانتية . وأضعف النزاعات الاقليمية بين النمسا وبافاريا العصبة الكاثوليكية فى ١٦١٦ . . وراود الناس من جديد حلم السلام !

ولكن فى براغ ناشد الكونت هنريك فون ثورن زعماء البروتستانت منع الكاثوليكىّ المتحمس الأرشيدوق فرديناند من اعتلاء عرش بوهيميا . وكان الامبراطور ماتياس قد عين خمسة نواب ليتولوا حكم البلاد فى أثناء غيابه . واستبد هؤلاء الحكام بالبروتستانت فى النزاع حول بناء كنيسة فى كلوسترا جراب ، وأرسلوا المعترضين إلى السجن وفى ٢٣ مايو ١٦١٨ قاد ثورن حشداً بروتستانتيا غاضبا إلى قلعة أوسكين ، وصعدوا إلى الحجرات التى كان يجلس بها أثنان من هؤلاء الحكام ، وألقوا بهما من النافذة مع سكيرتير كان يتحمس لهم ، وسقط ثلاثتهم نحو خمسين قدما ، ولكنهم وقعوا على كومة من الاقذار فنجوا أكثر مما أوذوا . فكان هذا « الالقاء من النافذة » تحديا مثيرا للامبراطور وللأرشيدوق وللعصبة المقدسة . وطرد ثورن رئيس الأساقفة والجزويت ، وشكل حكومة مديرين ثورية . وربما شق عليه أن يدرك أنه بذلك أطلق كلاب الحرب من عقالها أو أنه أشعل نارها .

٦ ـــ حرب الثلاثين سنة

١ — طور بوهيميا : ١٦١٨ — ١٦٢٣ :

أرسل الامبراطور ماتياس إلى حكومة المديرين سالفة الذكر عرضا

بإصدار عفو عام ، والدخول فى مفاوضاته ، ولكن هذا العرض رفض[٦٣] .
وأنفذ الإرشيدوق فرديناند ، متجاهلا الامبراطور ، جيشين لغزو بوهيميا .
وحرض فردريك الخامس ناخب البالاتينات شارل عمانويل دوق سافوى
المعادى لآل هبسبرج ، على أرسال قوة لنجدة بوهيميا ، بقيادة القائد القدير
بيتر ارنست فون مانسفيلد وأستولى مانسفيلد على بلسن ، معقل الكاثوليك
فى بوهيميا ، وتقهقرت جيوش فرديناند . واقترح كريستان دون برنزويك
مستشار فردريك على المديرين أنهم إنما يقوون دفاعهم ويستبعدون فرديناند
عن العرش ، إذا عرضوا العرش على فردريك . وفى ٢٠ مارس ١٥١٩ مات
ماتياس ، تاركا فردريك الملك الشرعى على بوهيميا ، ووريثا افتراضيا للتاج
الامبراطورى . وفى ١٩ أغسطس أعلن مجلس الديت فى بوهيميا خلع فرديناند
عن عرش بوهيميا ، وفى السابع والعشرين نادى بفردريك أمير البالاتينات
ملكا على بوهيميا . وفى الثامن والعشرين أعلن ناخبو الامبراطور أرشيدوق
استيريا امبراطورا تحت اسم فرديناند الثانى .

تردد فردريك فى قبول هذا المنصب الجديد ، ذلك أنه أدرك أنه بوصفه
من زعماء الكلفنية لا يمكنه أن يعتمد على تأييد اللوثريين ، على حين أنه قد
يواجه معارضة الامبراطورية والبابوية وأسبانيا . وأهاب بوالد زوجته
جيمس الأول ملك إنجلترا أن يمده بجيش ، ولكن بدلا من ذلك ، زوده
الملك الحذر البعيد النظر بالنصيحة — أن يرفض عرش بوهيميا . ولم تغره
أو تحثه زوجته المرحة الجريئة على قبول العرش ، بل وعدته أن تقاسمه عن
طيب خاطر كل ما قدر له أن يلقى ، نتيجة لما يقع عليه اختياره ، وكانت عند
وعدها . ونصح كريستيان أمير برنزويك بقبول العرش . وفى ٣١ أكتوبر
١٦١١ ، دخل الملك الجديد والملكة براغ ، ورحب بهما الديت والاهالى
ترحيبا حارا .

وكان فردريك بعد شابا فى العشرين من العمر ، يتحلى بحسن الخلق والشهامة

والكياسة ، ولكنه لم يكتمل نضجه إلى درجة يتولى معها شئون السياسة والحكم . وكان أول عمل له بعد تولية منصبه فى براغ ، أنه أمر بإزالة المذابح والصور من كنيسة سانت فيتوس ، وهى الحرم الوطنى المقدس ، وسرعان ماعمد أتباعـــه بالمثل إلى تجريد سائر المزارات المقدسة فى بوهيميا . واستنكرت الاقلية الكاثوليكية هذا التصرف، واستاء منه اللوثرون البوهيميون ونظرت ألمانيا اللوثرية بفتور إلى هذا الكلفنى المتحمس وفى ٣٠ أبريل ١٦٢٠ أعلن فرديناند أن فردريك مغتصب للعرش ، وأصدر إليه الأمر بمغادرة الامبراطورية فى أول يونية ، وإلا اعتبر خارجا على القانون وصودرت أملاكه . وعرض الامبراطور أن يضمن عدم تعرض الويات البروتستانتية الالمانية للهجوم ، إذا هى قطعت مثل هذا العهد للولايات الكاثوليكية . وفى معاهدة أولم (٣ يونية ١٦٢٠) قبل هذا العرض واحتج الأمراء البروتستانت بان فردريك عرض حريتهم للاخطار بتحديه فرديناند . وانحاز الناخب جون جورج أمير سكسونيا بولايته اللوثرية إلى الامبراطور الكاثوليكى .

وفى أغسطس عبر جيش أمبراطورى قوامة ٢٥ ألف رجل ، التمسا إلى بوهيميا بقيادة قائد مكسيمليان البافارى وهو جوهان تسركليس ، كونت تللى الذى تعلم التقوى على يد الجزويت ، وتلقى فن الحرب من دوق بارما وبالقرب من الجبل الأبيض ، إلى الغرب من براغ ، التقى هـذا الجيش بالبوهيمين وهزمهم هزيمة منكرة (٨ نوفمبر) . وفر فردريك واليزابث وحاشيتهما إلى سيليزيا . وعجز الملك والملكة عن جمع جيش هناك ، فالتمسا مأوى فى براند برج الكلفنية . وفى اليوم التالى للمعركة أحتل مكسيمليان أمير بافاريا براج . وسرعان ما أعبدت الكاثوليكة ، وأعيد وضع الصور فى الكنائس، وأستدعى الجزويت ، ووضع التعليم تحت أشراف الكاثوليك ولم يبح إلا الديانة الكاثوليكية والديانة اليهودية ، وألغى العشاء الربانى بالخبز وبالنبيد على حد سواء ، وكان يرم القديس جون هس من قبل عيداً وطنيا فجعل يوم حداد تغلق فيه كل الكنائس ، وقبض على ثلاثين من زعماء العصاة وأعدم

منهم سبعة وعشرون . ولمدة عشر سنين ظلت اثنتى عشرة جمجمة تطل متجهمة غاضبة من برج جسر شارل على نهر ملدو (٦٤) وحرمت الهجرة على كل العصاه والمتمردين ، وصودرت أملاكهم — لجانب الملك فرديناد الذى باعها بيع السلعة للكاثوليك ، وقامت طبقة نبلاء كاثوليك جديدة على أكتاف رقيق الأرض . وكادت الطبقات الوسطى والتجارية أن تختنق .

وعلى حين كان مكسيمليان أمير بافاريا يقهر الكلفنية فى بوهيميا على هذا النحو ، فان سبينولا أثناء الهدنة فى الأرض الوطيئة ، قاد قوة كبيرة من الفلاندرز للاسيلاء على البلاتينات ، وأعد بعض صغار الأمراء البروتستانت قوة لمقاومتة وأنضم فردريك إليهم ، تاركا زوجته فى لاهاى . فلما أستدعى سبينولا إلى الأرض الوطيئة عند تجدد الحرب بين هولنده وأسبانيا ، حل محله تلى ، وهزم البروتستانت (١٦٢٢) وأستولى على هيدلبرج ، وأعمل فيها السلب والنهب وشحنت مكتبة الجامعة العظيمة فى خمسين عربة ونقلت إلى رومة هدية من مكسيمليان الباقارى إلى البابا جريجورى الخامس عشر . ولما عاد مكسيمليان منتصرا منح البلاتننات ميزتها الانتخابية ، لقاء ما أدى للامبراطور من خدمات . وأصبح للولايات الكاثوليكية الآن الأغلبية فى مجلس الديت الناخب .

أن مدى النصر الكاثوليكى وكماله وشموله أقلق بال الملوك الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء . فان تزايد هيبه فرديناند الثانى وسلطانه كان يهدد حريات ، الأمراء الالمان ، كما أن مكسيمليان قلق حين وجد أنه قد سمح له بالاستيلاء على البلاتينات وبافار مع بقاء تبعيتهما للامبراطور . وتعاطف البابا أربان الثامن مع وجهة النظر الفرنسية القائلة بأن آل هبسبرج أصبحوا من القوة بحيث باتوا خطرا على حرية البابوية وأغضى عما عمد إليه ريشليو من فرض ضرائب على الكاثوليك فى فرنسا لمساعدة الألمان البروتستانت وعن مساعدته بعد ذلك لملك سويدى ضد أمبراطور كاثوليكى . وفى ١٦٢٤ حول الكاردينال المدهش المنظر السياسى فجأة ،

بسلسلة متعاقبة من الضربات الدبلوماسية . ففى ١٠ يونيه وقع تحالفامع هولندة البروتستانتية ضد الفلاندرز وأسبانيا الكاثوليكيتين . وفى ١٥ يونية ضم إنجلترا البروتستانتية إلى الحلف ، وفى ٩ يوليه ضم إليه السويد والدنمرك ، وفى ١١ يوليه أقنع سافوى والبندقية بالانضمام اليه فى محاولة لقطع خط الامدادات والقوات الأسبانية النمسوية عبر ممرات الفالتللين فى جبال الألب الايطالية السويسرية . وفى ١٦٢٥ جاء كريستيان الرابع ملك الدنمرك بعشرين ألف رجل للانضمام إلى قوة مانسفياد المكونه من أربعة آلاف رجل فى سكسونيا السفلى. وتولى الجزع مسكسيمليان ، فحث الامبراطور على أرسال نجدة إلى تللى الذى تناقص عدد جيشه من ١٨ ألفا إلى ١٠ آلالف بسبب الجو والجوع والمرض واستجاب فرديناند باستدعاء فالنشتين من بوهيميا .

٣ — فالنشتين : ١٦٢٣ - ١٦٣٠ :

كان أسمه الحقيقى ألبرخت فون فالنشتين ، وهكذا كان يوقع أسمه دائما [٦٥] . وكانت اسرته من أعرق الاسرات النبيلة فى بوهيميا . ولد فى ١٥٨٣، وتلقى تعليمه أولا على يد « الأخوة البوهيميين » ثم على يد الجزويت، وتزوج من أرملة غنية طواها الردى سريعا ، تاركة له ثروتها.وضاعف منها بشراء ثمان وستين ضيعة بثمن بخس ، بفضل خفض قيمة العملة البوهيمية ، من الاملاك التى صادرها فرديناند . وكان مالكا ذكيا تقدميا، فحسن طرق الزراعة والإنتاج ومول الصناعة ونظم المدارس والخدمات الطبية وأعانات الفقراء ، وأدخر بعض الفائض ليقدم الغذا. لشعبه زمن القحط . ولم يؤثر فى فى معاصرية بعبقريته العسكرية فحسب ، بل بجسمه الفارع النحيل ، ووجهه الشاحب الصارم ، وقلقه العصبى ، وزهوه وغطرسته وطبعه الحاد المسيطر . وجعلته « عفته التى لم يتحول عنها[٦٦] » يبدو وكأنه فوق مستوى البشر . وكانت ثقته بالتنجيم أقوى من إيمانه بالمسيح .

وملك قلب فرديناند وظفر بحبه ، بالوقوف إلى جانبه ومساندته فى كل

للمراحل التى رقى فيها الأرشيدوق إلى صولجان السلطان. ومن ١٦١٩ ومابعدها أقرض الامبراطور مبالغ ضخمة تكاد تسد نفقات العرش — على سبيل المثال مائتى ألف جلدن فى ١٦٢١ ، وخمسمائة ألف فى ١٦٢٣ . ولم يحصل على أية ضمانات لهذه القروض ، ويكفيه أنه كان يملك ربع بوهيميا ، ويستطيع أن يحشد جيشاً من شاء ، ويتولى قيادته بمهارة فائقة . وفى ١٦٢٤ عندما تحكم الفرنسيون والبنادقة فى ممرات فالتللين ، ولم يعد فى مقدور الجنود والمؤن الأسبانية الوصول من أيطاليا إلى النمسا ، عرض فالنشتين تجنيد خمسين ألف رجل ووضعهم فى خدمة الإمبراطور . فتردد فرديناند لما يعلم من غرام فالنشتين بالقوة والسلطة ولكن تاللى فى ١٦٢٥ تعالت صيحاته يطلب المدد فكلف فرديناند فالنشتين بتجنيد عشرين ألف رجل . وفى سرعة مذهلة سار هذا الجيش إلى سكسونيا السفلى ، كامل العتاد ، حسن النظام والانضباط ، يحب قائده إلى حد العبادة ، ويعيش على مايسلبه من الريف .

وصد فالنشتين مانسفيلد فى دسو ، وهزم تللى كريستيان الرابع فى لتر (١٦٢٦) وقضى منسفيلد نحبه ، ووجد كريستيان جيشه الذى يتناقص عدده عاجزا متمردا . وأنفصمت عرى التحالف الكبير الذى كان ريشليو قد شكله نتيجة لحقد جوستاف أدولف على كريستيان الرابع ، وأعلان انجلترا الحرب على فرنسا ، وحملة بكنجهام لمساعدة الهيجونوت فى لاروشيل . فكان على ريشليو أن يسحب قواته من ممرات فالتللين ، التى عادت الآن مفتوحة أمام النمسا وأسبانيا . وتقدم فالنشتين الذى يزداد جيشه عددا يوما بعد يوم ، إلى براندنبرج وأرغم ناخبها جورج وليم على أعلان الولاء للامبراطور ، واندفع نحو دوقية كريستان نفسه . وهى هولستين ، وتيسر له القضاء على كل مقاومة فى غير عناء . وفى نهاية ١٦٢٧ كانت الأجزاء الداخلية من الدنمرك فى قبضته .

ووسع هواء البلطيق الملح من خطط فالنشتين، فالآن وقد دان كل الساحل الشمالى الألمانى تقريبا ، ومعظم أرض الدنمرك ، للامبراطور، فلم لا يبنى بحرية

امبراطورية ، ويحمي « الهانسا » ، وبالتحالف مع بولندة الكاثوليكية يمد سلطان الإمبراطور على بحر البلطيق وبحر الشمال ، ومن ثم لا يعود الهولنديون والانجليز قادرين على الاتيان بالخشب من ثغور البلطيق عبر مياه السوند ليشدوا أساطيلهم ؛ ويتحكموا فى بحر الشمال وتجارته ويسدوا القنال فى وجه الأسبان أن امتلاك الامبراطور للبلاتينات بمكنة من السيطرة على نهر الراين . ومن ثم يكون الطريق مسدودا أمام الهولنديين فى النهر والبحر. فتنهار قوتهم وثروتهم العتيدة . ولسوف يصبح جوستاف أدولف محصورا فى شبه جزيرة اسكندينافه وفى ١٦٢٧ كان فالنشتين بالفعل يعد نفسه ليكون أمير البحر فى المحيط وفى البلطيق .

ولم ينظر الأمراء الألمان بعين الرضا إلى انتصارات فالنشتين . ذلك أنهم رأوا أنه بينما نقص جيش العصبة الكاثوليكية بقيادة مكسيمليان البافاري وكونت تللي إلى نحو ٢٠ ألف رجل ، فإن فالنشتين تولى أمرة قوات بلغ عددها ١٤٠ ألفا . كما أنه لا يعترف بأية مسئولية إلا أمام الأمبراطور وحده ومادام الأمبراطور مطمئنا إلى وجود جيشه من خلفه ، ففي مقدوره أن يحد من « حريات » الأمراء . والحق أن فالنشتين ربما كانت تراوده فكرة القضاء على الملكيات الاقطاعية وتوحيد ألمانيا بأسرها فى دولة قوية واحدة . كما كان يفعل ريشليو فى فرنسا ، وكما كان على بسمارك أن يفعل بعد ذلك بمائتين وأربعين عاما .

ولدى اجتماع الناخبين الأمبراطوريين فى مولهاوزن . فى شتاء ١٦٢٧ - ١٦٢٨ ، تبادلوا الرأى فيما يراودهم من آمال ومايساورهم من مخاوف . ومال الناخبون الكاثوليك إلى تأييد فالنشتين ، ثقة منهم بأنه سوف يقتلع البروتستانتية من جذورها ويقضى عليها فى مهدها الأول . ولكن عندما أطاح فرديناند بدوق مكلنبرج البروتستانتى ، ونقل الدوقية إلى فالنشتين (١١ مارس ١٦٢٨) فإن الأمراء الكاثوليك أنفسهم تولاهم الجزع من استئثار الأمبراطور بسلطة

خلع الأدواق وتعيينهم وفق مشيئتههو وحده . وما كان أمام الأمراء الاورقة واحدة يلعبون بها أمام فرديناند، فإنه كان على وشك أن يطلب إليهم ضمان اعتلاء ابنه العرش الامبراطورى . وفى ٢٨ مارس أبلغوه أنه مادامت جيوشه تحت امرة فالنشتين . فإنهم لن يقدموا ضمانا مثل هذا . كما حذره مكسيمليان البافارى ، من أنه إذا لم ينتقص من جيش فالنشتين ومن سلطاته وقوته ، فلا بد يوما من أن يملى هذا القائد سياسة الامبراطورية .

وكأنما لحظ فالنشتين هذا التحذير ، فإنه شرع ، وواضح أنه على مسئوليته الخاصة ، فى إجراء مفاوضات سرية مع كريستيان الرابع ، انتهت بصلح لوبك (٢٢ مايو ١٦٢٩) . ولدهشة أوربا كلها ، أعاد إلى ملك الدنمرك جتلند وشلزويج والقطاع الملكى من هولشتين . ولم يفرض تعويضا ، بل أنه طلب فقط تخلى كريستيان عن أسقفياته الألمانية وسلطته العسكرية ، ولكن ما الذى دفعه إلى هذا الكرم ، إنه من ناحية، الخوف من ائتلاف الغرب ضد السيطرة الإمبراطورية على البلطيق والمضايق ، ومن ناحية أخرى الاعتقاد بأن جوستاف أدولف كان يخطط لغزو ألمانيا ، وأخيرا ، تنبأ فالنشتين بأن القضية ستكون بينه وبين جوستاف لا كريستيان .

وربما أقلق استحواذ فالنشتين على السلطة الدبلوماسية بال الإمبراطور، ولكن كان لزاما عليه أن يخفى شكوكه وحقده المتزايدين ، لأنه كان الآن يخطط أجرأ حركة فى تاريخه ، وقد يكون فى حاجة ماسة إلى مساندة قوات فالنشتين فى كل مرحلة من مراحل هذه اللعبة الخطرة . أن مستشاريه الجزويت طالما ناشدوه الاستعانة بقوته الجديدة وبقرار إمبراطورى، لتسترد الكنيسة الكاثوليكية ، بقدر الإمكان ، أملاكها ومواردها التى اقتطعت منها منذ بداية الإصلاح الدينى ، أو على الأقل منذ ١٥٥٢ . ورأى فرديناند الكاثوليكى الشديد التمسك بعقيدته فى هذا المطلب شيئا من العدالة ، ولكنه لم يقدر كل التقدير صعوباته العملية ، فقد بيعت منذ ١٥٥٢ ممتلكات كثيرة من تلك التى كانت ملكا للكنيسة،ودفع ملاكها الحاليون ثمنها . ولتنفيذ هذا ، أى استرداد

الكنيسة لأملاكها ، لابد من تجريد آلاف من الملاك من ممتلكاتهم ، والمفروض أن يتم هذا عنوة ، وقد تؤدى الفوضى الناتجة عن هذا بألمانيا إلى ثورة . وكان مكسيمليان أمير بافاريا يوما يحبذ هذه الفكرة ، ولكنه الآن فزع لمداها ومضاعفاتها ، وحث الإمبراطور على إرجائها حتى يدرسها مجلس الديت دراسة مستفيضة . وخشى فرديناند أن يرفضها الديت . وفى ٦ مارس ١٦٢٩ نشر « قرار إعادة أملاك الكنيسة » ، وجاء فيه « لم يبق أمامنا إلا أن تأخذ بيد الجماعة المظلومة ، ونبعث بموظفينا ليطلبوا إلى الملاك الحاليين غير المفوضين قانونا أن يعيدوا كل الأبرشيات والأسقفيات والأديار ، وسائر الممتلكات الكنيسية التى صودرت منذ معاهدة باسو ١٥٥٢ . وكان هـــذا «الإصلاح المضاد» المقترن بالانتقام وكان كذلك توكيداً للسلطة الإمبراطورية المطلقة . وهى سلطة مطلقة ربما تردد حتى شارل الخامس نفسه فى انتحالها لشخصه .

وقوبل القرار باحتجاجات صارخة على نطاق واسع ، ولكنه نفذ . وحيثما وجدت أية محاولة لمقاومته استدعى جنود فالنشتين وأخمدوها فى كل مكان باستثناء مجد برج التى نجحت فى مقاومة حصار فالنشتين لها . وعادت مدن بأ كملها أوجزبرج ، روتنبرج ، دورتمند ، وثلاثون بلدة صغيرة إلى أيدى الكاثوليك ، وكذلك عاد إليهم خمس أسقفيات ومائة دير ، ونظمت من جديد مئات الأبرشيات الكاثوليكية ، ولما طبق المالكون قاعدة « الناس على دين ملوكهم » . متطلبين من الرعايا أن يتقبلوا مذهب الحاكم ، اضطر آلاف البروتستانت أن يرتدوا أو يهاجروا . ومن أوجزبرج وحدها نفى ثمانية آلاف ، بما فيهم الياس هل الذى كان قد فرغ لتوه من بناء دار البلدية الضخمة وهام القساوسة البروتستانت المنفيون على وجوههم فى طول البلاد وعرضها يسألون الناس الخبز، حتى أن القساوسة الكاثوليك الذين حلوا محلهم استصرخوا الحكومة أن تغيثهم[٦٧] . وما حال دون النجاح النهائى للقرار وللاصلاح المضاد فى ألمانيا ، إلا قدوم جوستاف أدولف .

وإذ استنفذ فرديناند غرضه فى استخدام فالنشتين فى تنفيذ القرار . ولم يجد أية قوات بروتستانتية فى الميدان ، فإنه لم يعد حريصا على الاحتفاظ بقائده . فطلب إليه فى مايو ١٦٣٠ أن يتخلى عن ٣٠ ألفا من جنوده للخدمة فى إيطاليا، فاعترض فالنشتين محتجا بأن ملك السويد يخطط لغزو ألمانيا، فغلب أمره ، وأرسل الثلاثون ألف جندى إلى إيطاليا . وعاد الناخبون فى يوليه واقترحوا عزل فالنشتين . ووافق الإمبراطور، وفى ١٣ سبتمبر أبلغ ضباط الجيش بأن مكسيمليان أمير بافاريا قد حل فى منصب القيادة العليا محل قائدهم وعاد فالنشتين فى سلام إلى ضياعه فى بوهيميا ، وهو يعلم أن جوستاف قد دخل الأراضى الألمانية ، وأن الإمبراطورية لابد أن يكون وشيكا فى حاجة إلى قائد .

٣ — قصة جوستاف البطولية : ١٦٣٠ — ١٦٣٢ :

ينبغى ألا نصور العاهل العظيم فى صورة « جالاهاد » أى فى صورة رجل نبيل طاهر ، تقدم لإنقاذ الديانة الحقة من الوثنيين . كانت مهمته أن يدعم ويحافظ على استقلال السويد السياسى ونموها الاقتصادى ومن أجل هذين الهدفين قاتل بولندة الكاثوليكية وروسيا الأرثوذكسية والدنمرك البروتستانتية فإذا تجاسر الآن ، بموارده المتواضعة على الدخول فى مباراة ضد الامبراطورية والبابوية وأسبانيا ، مجتمعة ، فما ذلك بسبب الكثلكة ، بل لأنهم هـــددوا بتحويل بلاده إلى تابع ذليل لملوك غرباء معادين . وأحس بأن خير دفاع ضد مثل هذا الخطر المحدق ، هو إقامة معاقل محصنة سويدية فى الداخل . وترددت سكونيا البروتستانتية ، وانساقت فرنسا الكاثوليكية إلى التحالف مع جوستاف ، لأنها أدركت أن القضية لم تعد نظرية فى اللاهوت بل كفاحا من أجل الأمن عن طريق القوة . ومهما يكن من أمر ، فإن العقيدة ، على الرغم من أنها دافع ضئيل لدى القادة والزعماء ، حافز مثير قوى لدى الشعب ، ويجب أن تضاف طاقتها إلى الروح الوطنية ، لتدفع بالناس إلى ميدان القتال .

وهكذا نزل جوستاف بقواته البالغ عددها ١٣ ألفا فى بوميرانيا، وتقدم إلى الولايات الألمانية الشمالية بوصفها منقذة البروتستانتية ومخلصتها، وإلى فرنسا بوصفها سيفا مصلتا ضد أسرة هبسبرج المنتفخة. وانتظر المدد من السويد والدنمرك وبراندنبرج وبولندة حتى تجمع لديه نحو ٤٠ ألف جندى فى أحسن نظام، مسلحين ببنادق حديثة الطراز، مدربين على سرعة الحركة بمدفعيتهم الخفيفة. ولم يزل القائد بعد شابا فى السادسة والثلاثين، ولكن على الرغم من حملاته فقد اشتد عوده وقوى جسمه، ودوخ جياده كما دوخ أعداءه، وعلى الرغم من ذلك، كان غالبا ما يتقدم الصفوف، سائرا بلحيته الذهبية نحو النصر. وأحبه جنوده لا لأنه منصف. وعلى حين تبع الجيوش الألمانية أفواج من البغايا بلغ من كثرتهن تخصيص بعض الضباط لحفظ النظام بينهن، فإن جوستاف لم يسمح بمحظيات أو مومسات فى معسكره، ولو أن الزوجات سمح لهن بالقيام بخدمة أزواجهن من الجنود[٦٨]. وكانت كل كتيبة تؤدى الصلوات فى الصباح وفى المساء، وتستمع إلى عظة كل يوم أحد. وهنا كان نظام رجال كرومول الحديديين قبل وقوع حروب كرومول بعشر سنين وحرم جوستاف، كما حرم كرومول، الارتداد عن الدين قسرا، وحيثما دخل فاتحا ترك الديانة حرة.

وقضى جوستاف بقية عام ١٦٣٠ فى بسط سلطانه على بوميرانيا، وفى البحث عن حلفاء. فاذا تيسر له أن يجمع كل أعداء آل هبسبرج فى حرب صليبية واحدة، لاجتمع له مائة ألف جندى صالحين لملاقاة جيش فلنشتين. وفى ١٣ ديسمبر ١٦٣١ وقعت فرنسا والسويد ميثاقا يحصل الملك بمقتضاه على الرجال، ويدفع الكاردينال (ريشيليو) ٤٠٠ ألف تالر (٤ ملايين دولار ؟) سنويا لحملة مدتها خمس سنوات، ولا تعقد أى من الدولتين صلحا دون موافقة الأخرى. والتزم جوستاف بألا يتدخل فى أمر ممارسة العقيدة الكاثوليكية ودعا ريشليو مكسيمليان للانضمام إلى هذا التحالف، ولكن الدوق انتخب بدلا من ذلك أرسل القائد تللى ليعوق تقدم الجيش السويدى. واستولى تللى

على نيوبراند نبرج (١٩ مارس ١٦٣١) وذبح حاميتها المكونة من ٣٠٠٠ رجل . وفى ١٣ أبريل أخذ جوستاف فرانكفورت وذبح حاميتها المكونة من ألفى رجل ، وبينما قضى الملك وقته فى بذل الجهد لضم جون جورج ناخب سكسونيا إلى الحلف ، حاصر تللى وكونت بابنهايم مجدبرج التى كانت لا تزال تقاوم «قرار اعادة أملاك الكنيسة» . وفى ٢٠ مايو وبعد صمود لمدة ستة أشهر ، سقطت المدينة ، وأعمل الجنود المنتصرون فيها السلب والنهب لمدة أربعة أيام . وقتل فى هذه الحروب عشرون ألف رجل ، لا الحامية المكونة من ثلاثة آلاف فقط ، ولكن قتل كذلك ١٧ ألفا من سكان المدينة البالغ عددهم ٣٦ ألفا ، وأحرقت المدينة عن آخرها فيما عدا الكاتدرائية . ووصف هذا المنظر فقال : —

> لم يعد هناك شيء الا الضرب والحرق والسلب والنهب والتعذيب والقتل وحرص كل فرد من الأعداء، بصفة خاصة، على الحصول على أكبر قدر من الغنائم . وتحت التهديد بالضرب أو الرمى بالرصاص أو الذبح أو الشنق ، أرهب الاهالى المساكين وفزعوا ، فلو تبقى لديهم شيء لأحرجوه لوكان مخبأ فى ألف حرز مكين . وفى حمأة الغضب المسعور ، إجتاحت ألسنه النيران المدينة العظيمة الفخمة التى قامت وسط الأرض كعروس جميلة وعذب وأعدم آلاف الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال . وسط ضجة رهيبة من صيحات وصرخات تمزق الفؤاد ، بطريقة وحشية مخزية ، تقصر أية كلمات عن وصفها . وأية دموع عن ندبها والتوجع لها (٦٩) .

وبذل تللى ، وهو الآن شيخ هرم فى الواحدة والسبعين ، كل ما فى وسعه لوقف المذبحة . وتنبأ بحق بأن الولات البروتستانتية «دون ريب سوف تشتد كراهيتها» بسبب تخريب واحدة من أجمل مدنهم .

وفى ٢٢ يوليه ١٦٣١ وضع ناخب براندنبرج كل موارده تحت تصرف جوستاف وفى ٣٠ أبريل ألف جون جورج بين سكسونيا والسويد . وفى ١٧ سبتمبر سحقت الجيوش السويدية والسكسونية المجتمعة قوات تللى عند بريتنفليد بالقرب من ليبزج وكان هذا أول نصر برتستانتى هام فى الحرب، وقد أحيا روح السكان البروتستانت . وأصبح شخص ملك السويد الذى كان يقاتل دون درع فى قلب المعركة يعلوه الغبار ، ويتصبب منه العرق ، يوجه ويقود رجاله غير هياب ولا وجل ، نقول أصبح رمزا يشد من عزم شعب كان منذ عهد قريب بئرة عاجز يرهب جيش فالنشتين . واستردت مكلنبرج ، وأعيد الدوق المخلوع إلى عرشه ، ودخلت الولات ، الواحدة تلو الأخرى ، الحلف السويدى وسرعان ماسيطر جوستاف على خط يمتد عبر ألمانيا من الأودر إلى الراين واتخـــذ مقر قيادته فى ماينز فى قلب إقليم كاثوليكى عادة . وفى نوفمبر سار جون جورج بجيشه السكسونى إلى براج دون أن يلقى أية مقاومة ، وكان حريصا على عدم مهاجمة صياع فالنشتين فى طريقة .

والان وقد بقى فرد يناند بلا حليف اللهم الا أسبانيا الفقيرة المعدمة ، وبلا قائد سوى تللى العجوز ، فانه فى تواضع ذليل ولى وجهه شطر فالنشتين (ديسمبر ١٦٣١) وطلب اليه أن يجهز جيشا لانقاذ بوهيميا وحماية النمسا . ووافق القائد المزهو المغرور ، ولكن بشروط غريبة شاذة أن تكون له القيادة العليا على كل القوات الامبراطورية ، وتكون له سلطة التفاوض وتوقيع المعاهدات إلا مع جوستاف ، ويكون له فى البلاد التى يفتحها حق مصادرة الأملاك واصدار العفو وفى أبريل ١٦٣٢ قبلت هذه الشروط جميعها . وجمع فالنشتين جيشا ، كما جمع الأموال اللازمة له ، وعرض على جون جورج صلحا منفردا واستعاد براج دون طلقة واحدة . وانسحب الجش السكسونى إلى سكسونيا .

وفى الوقت نفسه أستأنف جوستاف القتال ، وهزم تللى عند « رين » (١٥ أبريل) . ومات تللى بعد ذلك بأسبوعين متأثرا بجراحه . واحتل

جوستاف ميونيخ ، وسار فالنشتين بجيشه من بوهيميا وأنضم إلى جيش مكسيمليان (وهنا تفوقت هذه القوات على جيش جوستاف عددا ، إلى حد بعيد ، وأوتاب حلفاؤه فى أن له أطماعا أمبراطوية، فانتابهم القلق وأصبحوا لايعتمد عليهم ، كما أن قواته كانت على شفا الموت جوعا ، فأعملت السلب والنهب فى البروتستانت والكاثوليك وتفرتهم منه ، على حد سواء . وأعرب جون جورج ، وقد لعبت الخمر برأسه يوما عن تلهفه على التخلص من ملك السويد وكان جوستاف يأمل فى الاستيلاء على فيينا ، ولكنه كان يخشى إنحياز جون جورج إلى فالنشتين ، فتحول إلى الشمال . وفى نورمبرج ، وهو يدرك تمام الادراك أن الريح غير مواتية له ، أرسل تعليماته الأخيرة إلى أوكسنستيرنا ليتولى شئون الحكومة السويدية والحرب . وفى أرفورت ودع زوجته ، وفى ١٦ نوفمبر ١٦٣٢ ، فى لوتزن بالقرب من ليبزج ، التقى القائدان العملاقان فى ذلك العصر ، وجها لوجه ، وجيش جوستاف ٢٥ ألفا ، وجيش فالنشتين ٤٠ ألفا . واقتتل الجيشان طول اليوم ونزفا ، وأضطربا ثم التأما ، وأضطر فالنشتين إلى التراجع ، ولكن بابنهيم قلب الهزيمة رأسا على عقب، إلى أن أصابته طلقة فى رئته فاختنق بالدم وقضى نحبه . أما جوستاف فانه رأى قلب جيشه يتقهقر ، فقام بنفسه ، على رأس كتيبة من الفرسنان ، وقاد هجمة ضارية ، ولكن رصاصة أصابت يده اليسرى ، وأخرى أصابت جواده فسقط عنه ثم نفذت رصاصة إلى ظهره . فتجمع الفرسان الدارعون الامبراطوريون حول وسألوه من يكون ، فأجابهم : أنا ملك السويد الذى قد ختمن عقيدة الأمة الألمانية وحريتها بدمه [٧٠] فانهالوا عليه بسيوفهم مرة ومرة ، ثم أعلنوا بأعلى أصواتهم نبأ موته ، وتولى القياده بعده برنهازد دوق ساكس ويمار . وأحرز السويديون الذين جن جنونهم بفقدمليكهم، أنتصارا باهرا واستخلصوا جثمان جوستاف الذى شوهته الطلقات والطعنات . وفى تلك الليه ابتهج المنهزمون فرحا ، واغتم المنتصرون حزنا ، لأن أسد الشمال قضى نحبه .

٤ – انحلال (١٦٣٣–١٩٤٨)

ومن ذلك الحين اختفت عظمة الحرب، وتولى ريشليو زعامة البروتستانت الالمان ونفذ أوكسنستيرنا وصيه سيده المتوفى فى دبلوماسية حكيمة . وقاد برنارد دوق ساكس ويمار الفرنسيين ، وبانير وتورستنون السويديين إلى إنتصارات جديدة . ولكن الأمجادوات ولم يبق الا الذعر والفزع . وتنفس الأمراء البروتستنت الصعداء إلى حدما ، بموت جوستاف، وتذمروا من الثمن الباهظ الذى أجبروا على تقاضيه لقاء تخليصهم من فرديناند ، وفى هذه العملية اتلفت الأطراف المتنازعة مزارعهم ودمرت مدنهم ، وقاد ملك أجنبى الالمان ضد الالمان ، وبلغ عدد الضحايا مائة ألف .

وبيدو أن فالنشتين فقد أعصابه مذ ذاق طعم الهزيمة لأول مرة . وبعد لوتزن عاد إلى بوهيميا وجهز فى أناة وروية جيشا آخر، ولكنه أيضا ، وقد بلغ الآن الخمسين ، سئم الحرب وتمنى بعض الفراغ ليعالج داء النقرس . فتفاوض ، مستقلا ، مع زعماء البروتستانت ، حتى مع ريشليو[٧١] ولابد أن فرديناند يكون قد علم أن المنفيين البوهيميين ، بموافقة أكسنستيرنا ، كانوا يتآمرون لاجلاس فالنشتين على عرش بوهيميا[٧٢] . وعندما قاد برنارد دوق ساكس ويمار جيشا إلى بافاريا توسل مكسيمليان وفرديناند إلى فالنشتين أن يسرع لنجدتهما . ولكنه أجاب بأنه ليس فى مقدوره أن يعد الرجال لعمل من هذا القبيل . لقد وزع جيشه العاطل على الضياع الامبراطورية فى بوهيميا، وطلب إليه الامبراطور أن يخفف الأعباء المفروضة على هذه الأراضى الامبراطورية فأبى .

وفى ٣١ ديسمبر ١٦٣٣ قرر فرديناند ومجلسه أنه لابد من عزل قائدهم الأعظم ، وتناثرت الشائعات فى جيش فالنشين تقول بأنه يتآمر لينصب نفسه ملكا على بوهيميا ولويس الثامن ملكا على الرومان . وفى ١٨ فبراير وزعت

أوامر امبراطورية على الجيش تحله من قيادة فالنشتين، وبعد ذلك بأربعة أيام، ولى هاربا من بلزن، ومعه ألف رجل. وفى اليوم الخامس والعشرين انقض على غرفته فى إيجر نفر من الجنود الطامعين فى المكافأة، فوجدوه وحيدا أعزل. وأشبعوه طعنا بسيوفهم، ويقول أحد المعاصرين «وفى الحال جروة من قدميه، يصطدم رأسه بكل درجة من درجات السلم»[٧٣]، وأسرع القتلة إلى فيينا حيث نالوا ترقية ومالا وأرضا. أما الامبراطور الذى قضى ليالى وأياما، يستبد به الخوف، يتعبد ويتهجد، فقد حمد الله على معاونته سبحانه.

واستمرت الحرب تجر أذيالها أربعة عشر عاما أخرى. وحل ابن فرديناند وسميه البالغ من العمر ستا وعشرين سنة، محل فالنشتين فى منصب القائد الأعلى للجيوش الامبراطورية. وكان شابا جديرا بأن يحب، متعلما، عطوفا كريما، يحب الفلسفة، ويكتب الموسيقى، ويحفر العاج، ومع ذلك لم يكن جاهلا بفنون الحرب. ودحر بمساعدة القواد القدامى، برنارد فى نوردلنجن، وهى أعظم المعارك الامبراطورية حسما فى الحرب. وكادت القوات البروتستانتية أن تنهار تماما، لولا أن أوكسنستيرنا أنقذ الموقف بعقد معاهدة كومبين (٢٨ أبريل ١٦٣٥) التى هيأت لريشليو إسهاما كاملا فى الصراع. ولكن الأمراء البروتستانت فى ألمانيا لم يستسيغوا مشهد كردينال فرنسى يتحكم فى مصيرهم. وتبعوا، الواحد منهم يتلوا الآخر، جون جورج أمير سكسونيا فى عقد الصلح مع الامبراطور الذى رحب بهم، حيث ألفى نفسه تواجهه الجيوش والأموال الفرنسية معاً. وبمقتضى معاهدة براغ (٣٠ مايو ١٦٣٥) وافق الامبراطور على وقف العمل بقرار إعادة أملاك الكنيسة لمدة أربعين عاما. وفى مقابل ذلك وعد معظم الأمراء البروتستانت بمساعدته وحلفائه على استرداد الأراضى التى فقدوها منذ مجىء جوستاف أدولف. ولما كانت هذه الأراضى تشمل اللورين. فإن المعاهدة فى الواقع كانت موجهة ضد فرنسا والسويد، وكانت توكيدا جديدا للوحدة الألمانية ضد الغزاة. وتوارت المشكلة الدينية عن ميدان القتال. وفى نهاية عام ١٦٣٥ كان جيش سكسونيا

البروتستانتية يقاتل السويد البروتستانتية فى ألمانيا الشمالية حيث كان بانير وتورستنسون يناضلان ، بعبقرية عسكرية جديرة بجوستاف ، من أجل الاستيلاء على بعض مواقع قارية من أجل أمن السويد .

وفى الغرب وقف برنارد بشجاعة فى وجه القوات الامبراطورية المتزايدة وفى ١٦٢٨ أمدته فرنسا بالأموال ، وأفضل منها بألفى جندى بقيادة تورن الذى صعد نجمه آنذاك كقائد . وشن برنارد ، بعد أن وصلته الامدادات على هذا النحو ، حملة جديرة بأن تسجلها حوليات الحرب ، من أجل التشبث بالهدف ودقة الاستراتيجية ، وهزم الامبراطوريين فى ويتنوير . وأجبر قلعة بريساخ العظيمة على الاستسلام ، وأنهكت قواه وهو فى الرابعة والثلاثين فقضى نحبه (١٦٣٩) وذهب جيشه وفتوحاته ، بما فيها اللورين . إلى فرنسا .

وفارق الامبراطور العجوز الحياة ، وخلا منه المسرح ١٦٣٧ . وورث فرديناند الثالث إمبراطورية تعانى فقرا وحرمانا لا سبيل للخروج منهما ، يكاد أن يكون من المستحيل معهما الإتفاق على جيوش تقف فى وجه ريشليو الذى ما زال قادرا على ابتزاز الفرنكات من فرنسا المعدمة . وفى ١٦٤٢ وصل تورستنسون بجيش السويد إلى مسافة ٢٥ ميلا من فيينا ، وأحرز نصرا مبينا فى معركة برتينفيلد الثانية ، حيث فقد الإمبراطوريون نحو ١٠ آلاف رجل ، مما حدا بالأرشيدوق المنهزم ليوبولد وليم ، أخى الإمبراطور الشاب إلى محاكمة ضباطه أمام مجلس عسكرى ، بتهمة الجبن والخور . وقطع رؤوس ذوى الرتب الكبيرة ، وشنق من هم أقل منهم رتبة ، وأطلق الرصاص على عشر الباقين على قيد الحياة من سائر الرتب[٧٤] .

وبدا الآن أن كل عام يأتى بضربات جديدة تنصب على رأس الامبراطور الجديد . ففى ١٦٤٣ تحطمت أسبانيا بانتصار دوق انجين فى ركروا . وفى ١٦٤٤ غزا انجين وتورن أراضى الراين حتى شمال ماينز ، وفى ١٦٤٥ تقدم تورستنسون حتى صار على أبواب فيينا تقريبا ، وانتصر الفرنسيون فى معركة دامية عند الليرهيم ، واجتاح جيش سويدى بقيادة كونت هانس كريستوف

فان كونجز مارك سكسونيا واستولى على ليبزج ، وأرغم جون جورج على الخروج من الحرب . وكان الجيش البافارى قد طرد من البالاتينات فى ١٦٣٤ أما الآن ، فى١٦٤٦ فقد غزا تورن بافاريا نفسها وخربها ، وتوسل مكسيمليان الذى كان قد ركبه الغرور يوما ، إلى عقد الصلح ، والتمس من الامبراطور أن يفاوض فرنسا من أجل الصلح . ولم يكن فرديناند الثالث صلبا لا ينثنى ، مثل أبيه ، وكانت تصل إلى مسامعه صرخات الإمبراطورية المنهوكة ، فأرسل أقدر مفاوضيه إلى وستفاليا ، سـعيا وراء شيء من التوفيق بين العقائد وبين الأسرات .

كان الإمبراطور الشلب أصغر من أن يدرك أن المذبحة والخراب ربما كانا أفظع ما اقترفته أيدى البشر فى جيل واحد فى أى بلد من قبل . فلم يكن هناك جيشان ، بل ستة جيوش ـ الألمانى والدنمركى والسويدى واليوهيمى والأسبانى والفرنسى معظمها من الجيوش المرتزقة أو الأجانب الذين لا تربطهم أية صلة بالشعب أو التراب أو التاريخ الألمانى، يقودهم عسكريون مغامرون يقاتلون من أجل أية ملة نظير أجر ، وهى جيوش تعيش على استسلاب الحبوب والفاكهة والماشية من الحقول ، تقيم أو تأوى فى الشتاء إلى مساكن الشعب ، جزاؤها هو حقها فى السلب والنهب ، وابتهاجها بالقتل والغصب . وكان مبدأ مقبولا مسلما به لدى كل الأطراف المتحاربة ، أن تذبح أية حامية كانت قد رفضت الاستسلام ، بعد أن أصبح الاستسلام أمرا لا مناص منه ، وأحس الجنود أن المدنيين فرائس أو ضحايا مشروعة ، فأطلقوا الرصاص على أقدامهم فى الشوارع ، وجندوهم لخدمتهم . وخطفوا أطفالهم من أجل الحصول على الفدية وأشعلوا النار فى مخازن التبن وأحرقوا الكنائس لمجرد التسلية واللهو . لقد قطعوا أيدى وأرجل قسيس بروتستانتى لأنه قاوم تحطيم كنيسته ، وربطوا القساوسة تحت العربات ، وأجبروهم على الزحف على أيديهم وأرجلهم حتى خارت قواهم من الإعياء[٧٥] ، وكان حق الجندى فى اغتصاب النساء أمراً مسلما به ، فإذا طلب والد أن يحاكم جندى اغتصب ابنته وقتلها ، أبلغه الضابط

المختص بأنه لولم تكن ابنته ضنينة بعذريتها إلى هذا الحد لبقيت على قيد الحياة[٧٦] .

وعلى الرغم من الاختلاط المتزايد تناقص عدد سكان ألمانيا بسرعة أثناء الحرب ، وكان التناقص مبالغاً فيه وكان مؤقتاً ، ولكنه كان فاجعاً . وتقول التقديرات المعتدلة بأن عدد سكان ألمانيا والنمسا هبط من ٢١ إلى ١٥ مليونا[٧٧]. وقدر الكونت فون لوزو أن عدد سكان بوهيميا هبط من ثلاثة ملايين إلى ٨٠٠ ألف [٧٨] . وبين ٣٥ ألف قرية في بوهيميا ١٦١٨ ، هناك نحو ٢٩ ألف قرية هجرها أهلوها أثناء الصراع[٧٩] . وهناك في مختلف أنحاء الامبراطورية مئات من القرى لم يبق فيها ساكن واحد، وقد يقطع المرء في بعض الأقاليم ستين ميلا دون أن يرى قرية أو بيتاً[٨٠] ، وكان في ١٩ قرية في ثورنجيا في ١٦١٨ نحو ١٧١٧ بيتا ، لم يتبق منها في ١٦٤٩ سوى ٦٢٧ بيتا ، لم يكن كثير منها آهلا بالسكان[٨١] .

وتركت آلاف الأفدنة الخصيبة دون فلح أو زرع بسبب نقص الرجال أو الدواب أو البذور ، أو لأن الفلاحين لم يكونوا على ثقة من أنهم سوف يحصدون نتاج ما زرعون . واستخدمت المحصولات لإطعام الجيوش ، وكان ما تبقى يحرق لئـــلا يستفيد منه الأعداء . واضطر الفلاحون في كثير من الأماكن إلى أكل الفضلات المخبأة ، أو الكلاب أو القطط أو الفيران ، أو جوز البلوط أو الحشائش ،وقد وجد بعض الموتى وفي أفواههم بعض الحشائش وتنافس الرجال والنساء مع الغربان والكلاب على لحم الخيول الميتة . وفي الالزاس انتزع المعتدون المشنوقين من المشنقة ، تلهفا على التهام جثثهم . وفي أراضي الراين كانت القبور تنبش وتباع الجثث لتؤكل . واعترفت امرأة في زويبروكن بأنها أكلت طفلها [٨٢] . وتعطلت وسائل النقل إلى حد تعذر معه نقل الفائض في جهة إلى جهة أخرى بعيدة محرومة . وتهدمت الطرق بسبب المعارك ، أوبات من الخطر إرتيادها بسبب قطـــاع الطرق ، أو ازدحمت بالمهاجرين واللاجئين .

وعانت المدن الصغيرة أقل مما عانت القرى . وهبط عدد سكان كثير منها إلى نصف ما كان عليه من قبل . وأصبحت المدن الكبرى أطلالا خربة — مجدبرج ، هيدلبرج نورمبرج ، نيو ستاد ، بايريت . وتدهورت الصناعة لعدم وجود المنتجين والمشترين والحرفيين ، وكسدت التجارة . وصار التجار الذين كانوا يوما أثرياء يتسولون أو يسرقون ويسلبون من أجل لقمة العيش . وامتنعت الكوميونات عن دفع ديونها بعد أن أعلنت أفلاسها . وأحجم الممولون عن الإقراض خشية أن تتحول القروض إلى هبات أو منح . وأفقرت الضرائب كل الناس ، اللهم إلا القواد والجباة والقساوسة والملوك ، وبات الهواء ساما بسبب الفضلات والنفايات والجثث المتعفنة فى الشوارع . وانتشرت أوبئة التيفوس والتيفود والدوسنطاريا والاسقربوط بين السكان المذعورين ، ومن بلدة إلى أخرى . ومرت القوات الأسبانية بمدينة ميونيخ فتركت وراءها طاعونا أودى بحياة عشرة آلاف ضحية فى أربعة شهور[٨٣] . وذوت وذبلت فى أتون الحرب الفنون والآداب التى كانت تضفى على المدن شرفا ومجداً .

وانهارت الأخلاق والروح المعنوية على حد سواء ، فإن اليأس المقرون بالإيمان بالقضاء والقدر دعا إلى الوحشية المقترنة بالسخرية . واختفت كل المثل الدينية والوطنية بعد جيل ساده العنف ، وكان البسطاء من الناس يكافحون الآن من أجل الطعام أو الشراب ، أو يقاتلون بسبب الكراهية . على حين عبأ سادتهم عواطفهم فى التنافس على اقتناء الأراضى التى يمكن أن يجمعوا منها الضرائب ، وعلى السلطة السياسية . وهنـــا وهناك ظهرت بعض النواحى الإنسانية ، فكان الجزويت يجمعون الصدقات ليطعموا الأطفال الذين لا عائل لهم ، كما كان الوعاظ يطلبون إلى الحكومات وضع حد لسفك الدماء وللدمار . وكتب أحد الفلاحين فى مذكراته اليومية « اللهم أنا نتوسل إليك أن تضع نهاية لما نلاقى ، اللهم أما نتوسل إليك أن تعيد لنا السلام . يا إله السموات أنزل علينا السلام[٨٤] » .

٧ — صلح وستفاليا

كان الحكام ورجالهم الدبلوماسيون منــذ ١٦٣٥ يجسون النبض ويتحسسون الرأى من أجل السلام . وفى تلك السنة اقترح البابا أربان الثامن عقد مؤتمر لبحث شروط المصالحة ، واجتمع المندوبون للتفاوض فى كولون. ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة . وفى همبرج فى ١٦٤١ صاغ ممثلو فرنسا والسويد والامبراطورية اتفاقية مبدئية لينعقد مؤتمر مزدوج فى وستفاليافى ١٦٤٢ ، ففى مونستر تلتقى فرنسا مع الامبراطورية لمعالجة مشاكلهما فى ظل وساطة البابا والبندقية، وفى أوسنابروك، على بعد ثلاثين ميلا، تلتقى فرنسا والامبراطورية مع السويد لإجراء المفاوضات فى ظل وساطة كريستيان الرابع ملك الدنمرك . وكان هـذا الفصل « المطهر » ضروريا بسبب عدم رغبة المندوبين السويديين فى الاجتماع تحت رياسة ممثل البابا ، ورفض ممثل البابا أن يجلس فى صعيد واحد مع « الزنادقة » .

وجاء التأخير نتيجة إجراءات الأمن وقواعد البروتوكول . واستحث انتصار تورستنسون فى بريتنفيلد الامبراطور إلى الوعد بأن مندوبيه سيصلون فى ١١ يولية ١٦٤٣ ، وتلكأ المندوبون الفرنسيون بينما كانت فرنسا تدبر التحالف مع المقاطعات المتحدة (فى الأراضى الوطيئة) ضد أسبانيا . وافتتح مؤتمر وستفاليا شكلا فى ٤ ديسمبر ١٦٤٤ ، وضم ١٣٥ عضوا بما فيهم رجال اللاهوت والفلاسفة . وانقضت منذ ذاك اليوم ستة شهور فى تحديد نظام الأسبقية فى دخول المندوبين إلى القاعات وجلوسهم وما كان السفير الفرنسى ليدخل فى المفاوضات إلا إذا خوطب بلقب « صاحب الفخامة » . وعندما وصل السفير الأسبانى تجنب السفير الفرنسى ونأى بنفسه عنه ، لأن أيا منهما لا يعترف للآخر بالأسبقية ، واتصل كل منهما بالآخر عن طريق شخص ثالث . ورفضت فرنســا الاعتراف لفيليب الرابع بلقب ملك البرتغال وأمير قطالونيا . كما رفضت أسبانيا الاعتراف بلقب ملك نافار للويس الرابع

عشر . وتنازع المندوبون السويديون فيما بينهم وأضاعوا الوقت حتى صدرت إليهم أوامر الملكة الشابة الجريئة كريستينا بأن يصلحوا فيما بينهم. ثم يعقدوا مع العدو . وفى الوقت نفسه كان الرجال يذهبون إلى الحرب ليلقوا حتفهم .

وعلى قدر ما كانت جيوش كل فريق منتصرة أو مقهورة ، تلكأ المندوبون فى المفاوضات أو عجلوا بها ، وشغل المحامون أيما شغل بخلق الصعوبات أو إبتداع الحلول الوسط ووسائل التوفيق، يحلون العقد أو يزيدونها تعقيدا . وكان قواد فرنسا يسيرون بخطى واسعة ، ومن ثم فإنها أصرت على تمثيل كل أمراء ألمانيا فى المؤتمر ، على الرغم من أن معظمهم كان قد عقد الصلح مع الامبراطور منذ أمد طويل . وطاب إلى الزمن أن يتوقف حتى يرسل كل الناخبين والأمراء والمدن الامبراطورية ممثليهم ، ورغبة فى إضعاف مركز فرنسا ، عمدت أسبانيا (٨ يناير ١٦٤٨) إلى توقيع صلح منفرد مع المقاطعات المتحدة - التى كانت لتوها قد وعدت فرنسا بعدم توقيع صلح منفرد ، ولكن الهولنديين لم يكونوا ليضيعوا الفرصـــة التى لاحت لهم ليكسبوا بجرة قلم ما قاتلوا من أجله طيلة ثمانين عاما . فكان جواب فرنسا على هذا أنها رفضت عقد الصلح مع أسبانيا ، واستمرت الحرب بينهما حتى صلح البرينز فى ١٦٥٩ .

وكان يمكن أن ينفض المؤتمر دون نتيجة ، لولا اجتياح تورن لبافاريا ، وهجوم السويد على براغ (يولية ١٦٤٨) وهزيمة الأسبان فى لنز (٢ أغسطس) فإن هذه الأحداث كلها أقنعت الامبراطور بالتوقيع ، على حين أن ثورة الفروند فى فرنسا (يولية) أكرهت مزران على تقديم بعض التنازلات التى تطلق يده للحرب فى الداخل . وعلى هذا ، وقعت آخر الأمر معاهدة وستفاليا فى مونستر وأوزنابروك معا فى ٢٤ أكتوبر ١٦٤٨ - واستمر سفك الدماء تسعة أيام أخر ، حتى وصلت الأنباء إلى جبهات القتال ، وتعالت صيحات « الشكر لله » خاشعة مبتهجة ، من ألف قرية ومدينة .

ولابد من التسليم بأن المفاوضات واجهت من مشكلات التوفيق ما هو أكثر تعقيداً من أية مشكلات واجهها مؤتمر صلح قبل القرن العشرين ، وأنها عملت على تسوية المطالب المتعارضة بحكمه ، قدر ماسمحت الكراهية والغرور والكبرياء والقوة والسلطة بين المجتمعين . ولا بد من تلخيص بنود هذه المعاهدة التي أعادت تشكيل أوربا من جديد ، لأنها أوجزت وأخرجت قدرا كبيرا من التاريخ .

١ — حصلت سويسرا والمقاطعات المتحدة على اعتراف رسمي باستقلالهما .

٢ — حصلت بافاريا على البالاتينات العليا (الجنوبية) ، مع صوتها الانتخابي .

٣ — أعيدت البالاتينات الدنيا (الشمالية) ، بوصفها موطنا انتخابيا ثامنا ، إلى شارل لويس بن فردريك المتوفى .

٤ — حصلت براندنبرج على بوميرانيا الشرقية وأسقفيات مندن وهالبرستاد وكامين ، ووراثة أسقفية مجدبرج . وعاونت فرنسا أسرة هوهنزلرن الناشئة في الحصول على هذه الثمار اليانعة ، بفكرة إقامة قوة أخرى ضد آل هبسبرج ، وما كان منتظرا من فرنسا أن تتنبأ بأن براندنبرج ستصبح بروسيا التي سوف تتحداها على عهد فردريك الأكبر ، ثم توقع بها الهزيمة على يد بسمارك .

٥ — ونالت السويد ، بفضل انتصارات جيوشها أساسا ، وبفضل مساندة فرنسا لها في المؤتمر ، بشكل جزئي ، أسقفيتي بريمن وفردن ، ومدينتي ويزمار واستتن ، ومنطقة مصب نهر الأودر ، ولما كانت هذه كلها اقطاعيات امبراطورية ، فقد حصلت السويد على مقعد في الديت الامبراطوري ، ولما استولت بالفعل على ليفونيا وأستونيا وأنجريا وكاريليا وفنلنده فقد أصبحت الآن في عداد الدول العظمى ، وسيدة البلطيق حتى جاء بطرس الأكبر .

٦ — واحتفظت الإمارات الألمانية بما كان لها قبل الحرب من «حريات» فى مواجهة الأباطرة .

٧ — وكان على الامبراطور أن يقنع بالاعتراف بحقوقه الملكية فى بوهيميا والمجر . ومن ثم اتخذت امبراطورية النمسا والمجر شكلها على أنها حقيقةواقعه فى هيكل الامبراطورية الرومانية المقدسة . لقد أنهارت اقتصاديات الامبراطورية المعمرة ، من جهة بسبب نقص السكان وتدهور الصناعة والتجارة أثناء الحرب ، ومن جهة أخرى بسبب مرور المنافذ النهرية الكبيرة إلى دول أجنبية من منافذ الأودر والألب إلى السويد ، والراين إلى المقاطعات المتحدة .

٨ — وكان أكبر الغنم لفرنسا التى مولت ثرواتها السويديين المنتصرين ، وفرض قوادها الصلح فرضا . فسلمت إليها الألزاس فعلا ، مع أسقفيات متزوفردون وتول وحصن بريزاك على الجانب الألمانى من الراين . وسمح الآن للويس الرابع عشر بالاستيلاء على فرانشن كونتية واللورين ، وفق هواه وتحقيق هدف ريشليو — الذى كان الآن قد فارق الحياة — كسر شوكة آل هبسبرج ومد حدود فرنسا ، وتمكين وحدة فرنسا ودفاعها ، والإبقاء على فوضى الإمارات فى الامبراطـــورية ، وعلى الصراع بين الأمراء والامبراطور ، وعلى النزاع بين الشمال البروتستانتى والجنوب الكاثوليكى ، مما يحمى فرنسا من خطر ألمانيا موحدة . وحلت فرنسا محل أسبانيا ـ أو احتلت أسرة البوربون مكان آل هبسبرج بوصفها قوة عظمى مسيطرة على أوربا ، وسرعان ما علا لويس الرابع عشر إلى منزلة الشمس .

أما الضحية الخفية للحرب فهى المسيحية ، لقد كان على الكنيسة الكاثوليكية أن تتخلى عن قرار إعادة أملاك الكنيسة ، وأن تعود سيرتها الأولى إلى الوضع الذى كانت عليه ممتلكاتها فى ١٦٢٤ ، وترى الأمراء مرة أخرى يقررون عقيدة رعاياهم . ومهما يكن من أمر ، فإن هذا مكن الكنيسة من إخراج

البروتستانتية من بوهيميا موطن إصلاح هس . لقد قضى على الإصلاح المضاد ، ومثال ذلك أنه لم يكن محل نزاع أن تقيم بولندة المذهب الكاثوليكى فى السويد البروتستانتية ، بضعف ما كان عليه من قوة من قبل . ورفض ممثل البابا فى مونستر أن يوقع المعاهدة . وفى ٢٠ نوفمبر ١٩٤٨ أعلن البابا انوسنت العاشر « أنها غير ذات قوة شرعية ملزمة ، ملعونة بغيضه ، ليس لها أى أثر أو نتيجة على الماضى أو الحاضر أو المستقبل »[٨٥] . وتجاهلت أوربا هذا الاحتجاج . ومنذ تلك اللحظة لم تعد البابوية قوة سياسية عظمى ، وانحط شأن الدين فى أوربا .

وكذلك احتج بعض البروتستانت ، وخاصة أولئك الذين فقدوا مساكنهم فى بوهيميا والنمسا . ولكن المعاهدة فى جملتها ـ وهى ثمرة جهود كاردينال توفى وآخر حى ـ كانت نصرا للبروتستانتية التى أنقذت فى ألمانيا . لقد ضعفت فى الجنوب وفى الراين ، ولكنها فى الشمال قويت عن ذى قبل ، واعترفت المعاهدة رسميا بكنيسة الاصلاح أو الكنيسة الكلفنية . وبقيت خطوط التقسيم الدينى التى أقرت فى ١٦٤٨ ، دون تغيير جوهرى حتى القرن العشرين ، حين بدأ التغاير فى معدلات المواليد أو نسب تزايد السكان ، يوسع من رقعة الكثلكة بطريقة تدريجية سليمة .

ولكن على الرغم من إن الإصلاح الدينى قد أنقذ ، فإنه عانى ، مع الكاثوليكية ، من التشكك الذى شجعته بذاءة الجدل الدينى ، ووحشية الحرب ، وقساوة العقيدة . وأعدم أثناء المعمعة آلاف من الساحرات . وبدأ الناس يرتابون فى المذاهب التى تبشر بالمسيح وتقترف قتل الأخوة بالجملة . وكشفوا عن الدوافع السياسية والاقتصادية التى تسترت تحت الصيغ الدينية ، وارتابوا فى أن حكامهم يتمسكون بعقيدة حقة ، بل أنها شهوة السلطة هى التى تتحكم فيهم ـ ولو أن فرديناند الثانى غامر بسلطانه المرة بعد المرة ، من أجل عقيدته . وحتى فى أظلم العصور الحديثة هذه ، ولى كثير من الناس وجوههم

شطر العلم والفلسفة للظفر باجابات أقل اصطباغا بلون الدم من تلك التى سعت العقائد أن تفرضها فى عنف بالغ . وكان جاليليو يفرغ فى قالب مسرحى ثورة كوبرنيكس . وكان ديكارت يثير الجدل حول كل التقاليد وكل السلطة . وكان برونو يشكو إلى أوربا آلامه المبرحة وهو يساق إلى الموت حرقا . لقد أنهى صلح وستفاليا سيطرة اللاهوت على العقل فى أوربا ، وترك الطريق إلى محاولات العقل واجتهاداته ، غير معبد ، ولكن يمكن المرور فيه .

الكتاب الثالث

اجتهادات العقل

١٥٥٨ — ١٦٤٨

الفصل الثانى والعشرون

العلم فى عصر جاليليو

١٥٥٨ — ١٦٤٨

١ — الخرافة *

قد تولد الديانات ، وقد تفنى ، ولكن الخرافة باقية أبد الدهر . وسعداء الحظ هم الذين يحتملون العيش بدون أساطير ، والكثير منا يعانى فى جسمه وفى أعماق نفسه . وأفضل عقار مسكن فى « الطبيعة » جرعة مما هو فوق الطبيعة . وحتى كبلر ونيوتن مزجا علمها بالأساطير . وآمن كبلر بالسحر . وكتب نيوتن فى العلم أقل مما كتب عن « سفر الرؤيا » .

وكانت الخرافات الشعبية أكثر مما يحصيه العد . فآذاننا تلتهب عندما يتحدث عنا الآخرون . ولا تكون الزيجات التى تتم فى شهر مايو سعيدة . وتشفى الجراح إذا مسح السلاح الذى أحدثها بالزيت المقدس . وتستأنف الجثة نزف الدم فى حضور القاتل . وإن الجنيات والجن الصغير المؤذى والغيلان والأرواح الشريرة والشياطين لتحوم فى كل مكان . وثمة طلاسم معينة (مثل تلك التى وجدت عند كاترين دى مديتشى بعد وفاتها) تضمن الحظ السعيد ، وتمائم وتعاويذ تقى من التجاعيد ومن العنة ومن شر الحاسد ومن الطاعون . ويمكن أن تبرىء لمسة من الملك المصاب بسل الغدد اللمفاوية فى العنق . وللأرقام والمعادن والنباتات والحيوانات خصائص وقوى سحرية .

(*) يمكن الرجوع إلى الفصل السابع (الجزء ٢٨) الذى يعالج الخرافة والعلم والفلسفة فى انجلترا فى تلك الحقبة .

وكل حادث علامة على رضا الله أو غضبه ، أو من عمل الشيطان . ويمكن التنبؤ بالأحداث من شكل الرأس أو خطوط الكف . وتختلف الصحة والقوة والقدرة الجنسية باختلاف منازل القمر ، أهو بدر أم فى المحاق . وقد يسبب ضوء القمر الجنون أو يشفى الثؤلول . وتنذر المذنبات بالكوارث . إن العالم (فى الكثير الغالب) يسير إلى نهايته[١] .

وكان التنجيم لا يزال سائدا . على الرغم من تزايد استنكاره ونبذه لدى من يعرفون القراءة والكتابة . وفى ١٥٧٢ انقطع تدريسه فى جامعة بولونا . وفى ١٥٨٢ استنكرته وشجبته محاكم التفتيش الأسبانية . وفى ١٥٨٦ حذر البابا سكستس الخامس الكاثوليك منه . ولكنه ظل بين الأبقاء والإلغاء فى جامعة سالامنكا حتى ١٧٧٠ . وكانت الغالبية العظمى من الناس ، وكثير من أفراد الطبقات العليا ، يستنبئون البروج عن المستقبل من مواقع النجوم ، وكانوا يكشفون عن « طالع » أى طفل مهما كان شأنه بمجرد ولادته ، وقد اختبأ أحد المنجمين بالقرب من مخدع آن النمسوية عند ولادة لويس الرابع عشر[٢] . وعندما ولد جوستاف أدولف طلب أبوه شارل التاسع إلى تيكوبراهى أن يكشف عن طالعه ، فتنبأ المنجم فى حرص وحذر بأنه سوف يصبح ملكا . وكان كبلر ينظر إلى التنجيم بعين الريبة والشك ، ولكنه كان يداهن فيقول : « كما أن الطبيعة هيأت لكل حيوان من الوسائل ما يحصل به على العيش ، فقد هيأت التنجيم للمنجم لتمكينه من العيش » . وفى ١٦٠٩ أجزل فالنشتين العطاء لمن أتاه بطالع سعيد ، وكان دائما يصطحب معه فى رحلاته وجولاته منجما[٤] ، وربما قصد بذلك تشجيع قواته . وكم من مرة استشارت كاترين دى مديتشى وحاشيتها المنجمين[٥] . وحظى جون دى بشهرة فائقة فى التنجيم ، حتى اكتشف أن النجوم تأمره أن يتبادل الزوجات مع أحد تلاميذه[٦] .

وكان التصديق بأفانين السحر آخذا فى التقلص ، باستثناء واحد مخز حقير

ذلك أن تلك الفترة كانت ذروة التخلص من السحرة بالقتل المشروع بحكم القضاء . إن المعذبين ومن ينزلون بهم العذاب ، على حد سواء ، صدقوا بإمكان الحصول على معونة القوى الخارقة للطبيعة بالرقى والتعاويذ أو بوسائل مشابهة، وإذا كان من المستطاع الحصول على شفاعة قديس بالصلوات ، فلم لا نلتمس معونة الشيطان بملاطفته والتودد إليه . وثمة كتاب صدر فى هيدلبرج ١٥٨٥ تحت عنوان « بعض الأفكار المسيحية حول السحر » ، جاء فيه كحقيقة ثابتة مقررة : « أن كل مكان فى العالم بأسره ، فى الداخل والخارج ، فى البر والبحر ، يعج بالعفاريت والأرواح الشريرة غير المرئية[٧] » ، وساد الاعتقاد بأن كل الكائنات البشرية يمكن أن « تلبسها » الشياطين وتحل فيها . وفى ١٥٩٣ « ساد الذعر الرهيب فريدبرج المدينة الصغيرة حيث قيل أن الشيطان قد حل بأجسام أكثر من ستين شخصا ، وعذبهم عذابا أليما ... بل أن القسيس نفسه استحوذ عليه الشيطان وهو يلقى عظته[٨] » . وتصور قصة : «قطيع الخنازير (انجيل متى ٨ : ٢٧ - ٣٤) » كيف أن المسيح أخرج الشياطين من أجسام الذين حلوا بهم ، ألم يمنح أتباعه القدرة على أخراجهم باسمه (انجيل مرقس ١٦ : ١٧) . وكان الناس يلجأون إلى القساوسة لعمل تعاويذ مختلفة — لإزالة النباتات والحشرات الضارة من حقولهم ، أو لتهدئة الأعاصير فى البحر ، أو تطهير المبانى من الأرواح الشريرة ، أو تطهير كنيسة أصابها بعض الدنس ....وفى ١٦٠٤ أصدر البابا بول الخامس منشوراً بمثل هذه الخدمات الكهنوتية . واستنكر الكتاب البروتستانت مثل هذه الرقى والتعاويذ المقدسة على أنها ضروب من السحر . ولكن كنيسة إنجلترا اعترفت بقيمة التعاويذ على أنها طقوس شافية معافية[٩] . وهنا، كما هو الحال فى كثير من الطقوس، كان الأثر النفسى عليها طيبا .

وكما أخذ الناس بزمام المبادرة فى طلب التعاويذ ، فإنهم كانوا كذلك أول من طالب بمحاكمة السحرة ، فقد ساد الذعر من قوتهم ومقدرتهم . وجاء فى

أحدى النشرات ١٥٦٣ « أن الدخول فى علاقات مع الشيطان ، فيكون فى متناول يدك فى الخواتم أو البللورات ، فتستحضره أو تحالفه ، وتقوم معه بمئات من أفانين السحر ، أكثر الآن شيوعا عن ذى قبل ، بين الطبقات العليا والدنيا . وبين المتعلمين وغير المتعلمين » . وانتشرت « كتب الشياطين » التى توضح كيفية الاتصال بالنافع منهم ومن معرضين اثنين فى ١٥٦٨ اشترى أحد الأفراد ١٢٢٠ كتابا من هذه الكتب(١٠) . وفى بعض الحالات نصح ضباط محاكم التفتيش قساوسة الأبرشيات « أن يظهروا الناس على أضاليل السحرة وخرافاتهم » وأشاروا بعدم التصديق « بسبب السحرة » ، وأوصوا بعزل قسيس كان يصغى فى سذاجة إلى اتهامات السحرة(١١) . وطالب البابا جريجورى الخامس عشر فى ١٦٢٣ بعقوبة الإعـدام لنفر من الناس تسببت شعوذتهم فى الموت ، ولكن البابا أربان الثامن فى ١٦٣٧ أدان المحققين الكاثوليك « لأنهم حاكموا المشعوذين محاكمة ظالمة تعسفية ... وانتزعوا من المتهمين إعترافات لا قيمة لها . . . وعاقبوهم دون بينة كافية(١٢) » وأصدر الإمبراطور مكسيمليان الثانى (١٥٦٨) قراراً بإختبار صحة اعترافاتهم بتحديهم بأن يأتوا بأعمالهم السحرية علنا ، وأن يكون النفى أقصى عقوبة يحكم بها عليهم بعد إدانتهم ثلاث مرات . ولكن الأهالى المذعورين طالبوا بالصرامة فى الإختبارات وبالتعجيل بتنفيذ الأحكام .

أن السلطات المدنية والدينية التى كانت تشارك الناس خوفهم من السحر ، أو ترغب فى التخفيف من حدته ، عمدت إلى أقسى الإجراءات فى محاكمة المتهمين وعذبتهم لتنتزع منهم الإعترافات . وكان لمجلس مدينة نوردلنجن مجموعة خاصة من آلات التعذيب ، كان يعيرها للبلاد المجاورة مع التوكيد بأنه « بفضل هذه الآلات ، وبوجه أخص آلة الضغط على الإبهام ، يمن علينا الله بكرمه بإظهار الحق ، أن لم يكن لأول وهلة ، ففى آخر الأمر على أية حال(١٣) أما التعذيب بإبقاء المتهم يقظا لا يذوق طعم النوم ، فكان وسيلة معتدلة

خفيفة . وكان التعذيب عادة هو طريق الوصول إلى الإقرار المرغوب فيه . وكانت الإعترافات غـير الموثوقة التى لا يعتد بها . هى التى تحير القضاة أحيانا .

وكان الإضطهاد فى أسبانيا أقل قساوة . ففى مقاطعة لجرونو وجهت محكمة التفتيش الإتهام إلى ٥٣ شخصا من المشتغلين بالسحر ، وأعدمت منهم ١١ شخصا (١٦١٠) ورفضت الإتهامات الأخرى عادة لأنها وهمية أو إنتقامية . وكان الحكم بإعدام السحرة نادرا . وفى ١٦١٤ أصدرت رياسة محكمة التفتيش إلى ضباطها تعليمات بأن ينظروا إلى إعترافات السحرة على أنها تضليلات جنونية أو عصبية ، وأن يستعملوا الرأفة فى العقوبة[١٤] .

واجتاحت جنوب شرقى فرنسا فى ١٦٠٩ موجة عاتيه من الذعر من السحرة ، وأعتقد مئات من الناس أن الشياطين حلت فيهم . وظن بعضهم أنهم تحولوا إلى كلاب وأخذوا فى النباح وعينت لجنة من برلمان بوردو لمحاكمة المشتبه فيهم وأبتدعت طريقة لإكتشاف المواضيع التى دخل منها الشياطين إلى جسم المتهم ، ذلك بعصب عينيه وغرز الأبر فى لحمه ، وأى مكان لا يحس فيه بوخز الأبر ، كان هو المكان الذى دخل منه الشيطان . وطمعا فى العفو عنهم اتهم المشتبه فيهم بعضهم بعضا . فحوكم منهم ثمانية وهرب خمسة ، وأحرق ثلاثة . وأقسم جمهور النظارة فيما بعد أنهم شاهدوا العفاريت على هيئة ضفادع تخرج من رؤوس الضحايا[١٥] . وفى اللورين أحرق ٨٠٠ شخص بتهمة السحر على مـدى ١٦ عاما . وأحرق فى ستراسبورج ١٣٤ شخصا فى أربعة أيام (أكتوبر ١٥٨٢)[١٦] . وفى لوسرن الكاثوليكية ، أعدم ٦٢ شخصا فيما بين ١٥٦٢ — ١٥٧٢ . وفى برن البروتستانتية أعدم ٣٠٠ فى السنوات العشر الأخيرة من القرن السادس عشر ، و ٢٤٠ فى العقـــد الأول من القرن السابع عشر[١٧] .

وفى ألمانيا تسابق الكاثوليك والبروتستانت فى إعدام السحرة حرقا . وثمة رواية يمكن الاعتماد عليها , ولو أنها لا تكاد تصدق، بأن رئيس أساقفة ترير أمر بإحراق ١٢٠ شخصا فى فالزفى ١٥٩٦ بتهمة أنهم أطالوا فترة الجو البارد أكثر من المألوف بطريقة شيطانية[١٨]. ونسب طاعون الماشية فى إقليم سكونو فى ١٥٩٨ إلى السحرة . وحث مجلس بافاريا المخصوص فى ميونيخ المحققين « على إظهار مزيد من الجدية والصرامة فى الإجراءات » ، فكانت النتيجة إحراق ٦٣ ساحراً ، كما طلب من أقارب الضحايا دفع نفقات المحاكمة[١٩] » . وفى هاينبرج بالنمسا أعدم ثمانون بتهمة الشعوذة فى عامى ١٧ — ١٦١٨ وقيل أنه فى ١٦٢٧ — ١٦٢٩ أعدم أسقف وورنبرج ٩٠٠ من السحرة[٢٠] . وفى ١٥٨٢ أصدر الناشرون البروتستانت من جديد ، وبموافقة منهم «مطرقة السحرة» التى كان المحقق الذى منكان جاكوب سبرنجر قد نشرها فى ١٤٨٧ ، وهى عبارة عن توجيهات وإرشادات تفيد فى الكشف عن السحرة وفى محاكمتهم . وأصدر أوغسطس ناخب سكسونيا فى ١٥٧٢ قراراً بإحراق السحرة حتى الموت حتى ولو لم يؤذوا أحداً . وفى اللنجن أحرق ١٥٠٠ من السحرة فى ١٥٩٠ ، وفى اللوانجن ١٦٧ فى ١٦١٢ ، وفى وسترستتن ٣٠٠ فى عامين[٢١] . وكادت ثمة موجات مماثلة فى أوسنابروك ١٥٨٨ ، ونوردلنجن ١٥٩٠ ؛ وفى ورتمبرج ١٦١٦ . على أن هذه الإحصاءات الأخيرة مأخوذة عن نشرات صحفية معاصرة معروفة بعدم الدقة . ويقدر الباحثين الألمان جملة من أعدموا بتهمة السحر بمائة ألف فى ألمانيا فى القرن السابع عشر[٢٢] .

وارتفعت أصوات قليلة تدعو الناس إلى العقل . وقد رأينا فى مكان آخر إحتجاجات يوهان ويرور يجنالد سكوت، كما رأينا كيف حول مونتينى مرحه المتشكك إلى هذه الحمى (حمى قتل السحرة) فى مقاله « الأعرج أو الكسيح » : « كم هو طبيعى ومقبول أن أجد رجلين يكذبان ، أكثر من أن رجلا يمكن فى أثنتى عشرة ساعة أن تحمله الريح من الشرق إلى الغرب ... أو أن يحمل

أحدنا على مكنسة .... خلال مدخنة[٢٣] ، أن من يؤمنون بهذا أحوج مايكونون إلى الدواء والعلاج ، لا الموت ، « حتى إذا ماانتهى كل شيء ، فما هي إلا مغالاة في قدرة المرء على الحكم عن طريق الحدس والتخمين مما يؤدي إلى أحراق المرء حيا »[٢٤] . وهاجم كورنليوس لوس ، الأستاذ الكاثوليكي في ماينز ، مطاردة السحرة في كتابه « بين السحر الحقيقي والزائف » (١٥٩٢) ، ولكنه قبل أن يتمكن من نشره ، أودع السجن واضطر أن يعترف علنا بأخطائه[٢٥] . وثمة جزويتي آخر ، هو الشاعر الورع فردريك فون سبي ، فإنه بعد أن عمل كاهن اعتراف لمائتي شخص متهمين بالسحر . استنكر الاضطهاد في كتاب جريء «Cautio Criminalis» . (١٦٣١) ، سلم فيه بوجود السحرة ، ولكنه رثى للقبض عليهم لمجرد شبهات لا أساس لها ، ولبعد المحاكمات عن شرعة الانصاف ، وللتعذيب الغاشم الذي كان يمكن أن يجبر ، حتى فقهاء الكنيسة وأساقفتها على الاعتراف بأي شيء[٢٦] .

ولكل خصم من هذا القبيل أثنى عشر محاميا ينبرون للدفاع عن الظلم ، فإن رجال اللاهوت البروتستانت مثل توماس أراستوس في ١٥٧٢ ، ورجال اللاهوت الكاثوليك مثل الأسقف بنزفلد (١٥٨٩) اتفقوا على أن السحر حقيق وأن السحرة يجب أحراقهم . وأقر الأسقف التعذيب ، ولكنه أوصى بشنق السحرة التائبين قبل أحراقهم[٢٧] . وأيد المحامي والفيلسوف الكاثوليكي جين بودين الاضطهاد والتعذيب في كتابه « حمى العفاريت » ١٥٨٠ ، وبعد عام واحد ترجم الشاعر البروتستانتي يوهان فسكارت هذا الكتاب ووسع فيه مع تقدير بالغ له ، وانضم إلى بودين في الحث على أخذ السحرة بشدة لا ترحم ولا تلين[٢٨] .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الحمى خفت حدتها ، فعندما أصبحت حرب الثلاثين حربا سياسية بشكل صريح سافر ، لم يعد الدين يحتل مكانا هاما في كراهيات الناس وحزازاتهم . وانتشرت الطباعة وكثرت الكتب ، ونهضت

المدارس ، وفتحت الجامعات ، وأسهم المكافحون الصابرون سنة بعد أخرى ، بوضع لبنة فى البناء الناشىء ، بناء العلم والمعرفة . وفى مائة من المدن عكف المحبون للاطلاع على اختبار الفروض بالتجارب . وتقلص نطاق ماهو خارق للطبيعة ببطء ، ونما نطاق ماهو طبيعى ودنيوى . أنه تاريخ موضوعى مجرد قاتم ، مؤلف من شظايا ، وهو أعظم مسرحية فى الأزمنة الحديثة .

٢ — انتقال المعرفة

إن الأبطال الأولين هنا هم الطابعون الناشرون الذين غذوا مجرى المداد الذى تدفقت منه المعرفة من عقل إلى عقل ، ومن جيل إلى جيل . واستأنفت داراستين الكبيرة للنشر ، نشاطها فى جنيف على يد هنرى استين الثانى ، وفى باريس بفضل روبرت استين الثالث . ونشأت أسرة مثل هذه (نحو ١٥٨٠) فى ليدن كان على رأسها لويس الزفير ، ونهض أبناؤه الخمسة وحفداؤه وابن لأحد حفدته ، بالعمل ، وحملت اسمهم طريقة معينة للطباعة . وفى زيوريخ اكتسب كريستوفر فروشير شهرة فى تاريخ الطباعة والثقافة بطبعاته الدقيقة للكتاب المقدس .

وهيأت دور الكتب مأوى جديدا للذخائر القديمة . ولقد عرفنا مكتبة بودليان فى أكسفورد ومكتبة الاسكوريال ، ومكتبة امبروزيانا فى ميلان (١٦٠٦) . وضمت كاترين دى مديتشى كثيرا من المجلدات والمخطوطات إلى مايعرف الآن بالمكتبة الوطنية . وبدا لافلين أن مكتبة الفاتيكان الجديدة التى أسسها البابا سكستس الخامس (١٥٨٨) « هى أفخم وأجمل وأحسن مكتبة أثاثا فى العالم »[٢٩] .

وبدأ ظهور الصحف : ففى ١٥٠٥ كانت صحيفة « الأخبار » تطبع فى ألمانيا ، فى ورقة واحدة ، بشكل متقطع . وما جاء عام ١٥٩٩ حتى كانت

هناك ٨٧٧ نشرة من هذا النوع ، وكلها غير منتظمة . وأقدم صحيفة منتظمة معروفة فى التاريخ هى صحيفة Avis Relation oder Zeitung الأسبوعية التى أسست فى أوجزبرج ١٦٠٩ ، وكانت تضم تقارير لوكلاء منتشرين فى مختلف أنحاء أوربا، ينقلها التجار والصيارفة، واستمرت فى الظهور حتى١٨٦٦، صحيفة « بريد فرانكفورت» التى أسست فى ١٦١٦ . وبدأت صحف أسبوعية مماثلة فى الظهور فى فيينا ١٦١٠ ، وفى بازل ١٦١١ . وسرعان مابدأ فيشارت يسخر من الجمهور « الذى يصدق الصحف » ومن تلهفه الساذج على الأخبار . أن النقل المفرض غير الملائم للأنباء فوت على الجمهور أى أسهام رشيد مخطط فى السياسة ، ومن ثم جعل الديمقراطية أمرا بعيد المنال .

وكانت الرقابة على المطبوعات عامة شاملة بطريقة عملية ، فى العالم المسيحى بأسره : الكاثوليك والبروتستانت ، ورجال الدين والعلمانيون على حد سواء وفى ١٥٧١ شكلت الكنيسة « لجنة من الكرادلة لتحديد الكتب المحظورة » ، لحماية المؤمنين من الكتب التى تعتبر مسيئة للكثلكة . ولم تكن الرقابة البروتستانتية بمثل قوة الرقابة الكاثوليكية وصرامتها ، ولكنها جادة مثابرة مثلها . وقد نشطت فى انجلترا واسكتلندة واسكندناوة وهولندة وألمانيا وسويسرا[٣٠] . وهيأ تباين التعاليم فى مختلف الدول للهراطقة أن يتغلبوا ، بشكل أو بآخر ، على الرقابة بنشر كتبهم فى الخارج ، وإدخال بعض النسخ منها سراً . والأدب الحديث مدين للرقابة ببعض ما يتسم به من سخرية وظرف وبراعة .

وفى مختلف الترجمات ، ظل الكتاب المقدس يفسر بأنه « كلمة الله » ، وواصل رسالته بوصفه أعظم الكتب شعبية وانتشارا ، وأعظمها أثرا فى العقيدة واللغة ، بل حتى فى السلوك ، فإن أسوأ الأعمال الوحشية ـ الحروب والاضطهادات ـ عمدت إلى اقتباس النصوص المقدسة لتبرير ارتكابها . ومذ انحسرت الروح الإنسانية التى تميز بها عصر النهضة ، قبل قيام الإصلاح

الدينى ، فإن التعبد بالكتاب المقدس حل محل الإعجاب الأعمى بالآداب الوثنية القديمة . وثارت فتنة واضطراب حين اكتشف العلماء أن الإنجيل (العهد الجديد) لايكتب باللغة اليونانية الكلاسيكية بل بلغة الناس ، ولكن علماء اللاهوت أوضحوا أن « الروح القدس » استخدم الأسلوب العام المشترك حتى يتيسر للناس فهمه وأصاب الناس غم جديد عندما خلص لويس كابل - الأستاذ البروتستانتى للعبرية واللاهوت فى « سومور » ، إلى أن الحروف اللينة وعلامات النطق فى النص العبرى الذى اعتمدته الكنيسة للعهد القديم (التوراه) ، إن هى إلا إضافات أضافها إلى النصوص الأقدم عهدا ، يهود طبرية المازوريون فى القرن الخامس ق . م . أو بعده . وأن الحروف المربعة فى النص المعتمد كانت آرامية بديلة عن الحروف العبرية . وتوسل جوهانس بوكستورف الأكبر ، أعظم علماء عصره . إلى كابل أن يطوى هذه الآراء عن الجمهور ويحتفظ بها لنفسه ، حتى لا تسىء إلى إيمان الناس بالإيحاء اللفظى للكتاب المقدس . ومع ذلك نشر كابل آراءه فى ١٦٢٤ ، وحاول يوهانس بوكستورف الأصغر أن يدحضها ويفندها ، محتجا بأن النقط وعلامات النطق موحى بها من عند الله كذلك . واستمر الخلاف طوال القرن وتخلت الأرثوذكسية آخر الأمر عن النقط ، ومن ثم اتخذت خطوة متواضعة نحو اعتبار الكتاب المقدس أعظم أسلوب أو تعبير مهابة وجلالا لدى الشعب .

وينتمى إلى هذه الحقبة نفر من أشهر العلماء أو الباحثين فى التاريخ . منهم جوستوس لبسيوس ، الذى تردد على جامعتى لوفان وليدن ، وتأرجح بين الكاثوليكية والبروتستانتية وذاع صيته فى أوربا بفضل طبعاته المصوبة لكتب تاسيتس وبلوتس وسنكا ، وتفوق على كل الأجروميات السابقة فى كتاب « فن الأجرومية » (١٦٣٥) . ورثى لفناء المدنية الأوربية الوشيك ، ولكنه هدأ من روعه واستبشر خيرا « بسطوع شمس امبراطورية جديدة فى الغرب » - يعنى « الأمريكتين »[٣١] .

وورث جوزيف جوستوس سكاليجر « وربما كان أعظم أستاذ فذ فى

سعة المعرفة والاطلاع ظهر فى العالم[٣٢] » ، تقول ورث عن أبيه الشهير يوليوس قيصر سكاليجر ، عرش البحث العلمى فى أوربا . ففى آجن فى جنوب غربى فرنسا ، اشتغل بكتابة ما يمليه عليه هذا الوالد . ونهل العلم والمعرفة طوال حياته . فقرأ هوميروس فى ثلاثة أسابيع ، ووفق فى قراءة كبار الشعراء والمؤرخين والخطباء الإغريق . وتعلم العبرية وثمان لغات أخرى . وتجرأ على دراسة الرياضيات والفلك و «الفلسفة» (التى كانت آنذاك تشمل الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والبيولوجيا) ودرس القانون لمدة ثلاثة أعوام . وربما ساعدت دراسته للقانون على شحذ ملكة النقد عنده ، لأنه فى الطبعات التى أصدرها للمؤلفين القدامى مثل كاتوللوس وتيبوللوس وبروبرتيوس وغيرهم أثار نقدا متعلقا بالنصوص لأحداس عشوائية لقوانين الإجراءات والتأويل أو التفسير . وكان ينظر بعين الاحترام الرشيد للتاريخ أو تحديد الأزمنة فى دراسة التاريخ . وفى أعظم مؤلفاته « فى تصحيح التواريخ » (١٥٨٣) ، وازن لأول مرة بين التواريخ التى أوردها المؤرخون اليونان واللاتين ، وتلك التى وردت أو حددت فى التاريخ أو التقاويم أو الأدب فى مصر وبابل وفلسطين وفارس والمكسيك . وجمع ورتب فى كتابه « تسلسل التواريخ » . (١٦٠٦) كل مادة تاريخية فى الأدب القديم ، وعلى هذا الأساس ألف أول تسلسل زمنى على أساس علمى للتاريخ القديم . وهو الذى قال بأن السيد المسيح ولد فى العام الرابع ق . م . وعندما ترك جوستوس لبسيوس ليدن فى ١٥٩٠ عرضت الجامعة على سكاليجر كرسى « الأبحاث القديمة » فقبله بعد أن ظل ثلاث سنوات مترددا فى قبوله . ومنذ تلك اللحظة حتى وفاته ١٦٠٩ ، كانت ليدن مقر العلماء .

وكان سكاليجر ، مثل أبيه مزهوا بما يزعم من تحدر أسرته من أمراء دللاسكالا فى فيرونا . وكان ناقدا لاذعا لزملائه العلماء والباحثين ، ولكن فى ساعة تغاض وصفح قال إن إيزاك كازوبون «أعظم الأحياء علما»[٣٣] . وإن حياة كازوبون لتكشف عن مزايا المحن . لقد رأى النور فى جنيف لأن أبويه

كانا من الهيجو نوت الذين هربوا من فرنسا ، وعادا إليها وهو فى سن الثالثة وعاش لمدة ستة عشر عاما فى ظل المخاطر والإرهاب أيام الاضطهادات . وكان أبوه يتغيب لفترات طويلة للخدمة فى جيوش الهيجو نوت . وغالبـــا ما اختفت أسرته فى الجبال لتكون بمنأى عن بطش الكاثوليك المسلحين . وتلقى إبزاك أول دروس فى اليونانية فى أحد الكهوف فى جبال دوفينى وفى سن التاسعة عشرة التحق بأكاديمية جنيف . وفى سن الثانية والعشرين صار أستاذا فى اليونانية ، وتولى هذا المنصب لمدة خمسة عشر عاما وسط العوز والفقر والحصار . وعاش بشق النفس على راتبه . ولكنه كان يقتر فى طعامه ليشترى الكتب . وكان يخفف من وحشية العزلة والعكوف على العلم ، بما يتلقى من رسائل سكاليجرا العظيم . ونشر طبعات لمؤلفات أرسطو وبللينى الأصغر ، وتيوفراستوس ، سحرت الألباب فى دنيا العلم والمعرفة ، لا بمجرد تصويب النصوص ، بل كذلك بالتعقيبات البارعة على الأفكار والطرق القديمة . وفى ١٥٩٦ عندما أخمد هنرى الرابع الصراع الدينى ، عين كازوبون أستاذا فى مونبلييه . ودعى بعـــد ذلك بثلاثة أعوام إلى باريس . ولكن الجامعة أوصدت أبوابها فى وجوه غير الكاثوليك ، فأحاطه هنرى برعايته ، كأمين للمكتبة الوطنية ، براتب محترم قدره ١٢٠٠ جنيه فى العام . وقال رجل الاقتصاد سلى للعالم كازوبون إنك تكلف الملك كثيرا ياسيدى . إن راتبك يفوق راتب قائدين ، ولا نفع يرجى منك لبلدك[٣٤] . فلما مات هنرى العظيم ، رأى كازوبون أنه قد حان الوقت لقبول دعوة من انجلترا . ورحب به جيمس الأول بوصفه رفيق علم وبحث ... ومنحه راتبا سنويا قدره ٣٠٠ جنيه انجليزى . ولكن الملكة الفرنسية الوصية على العرش رفضت أن تذهب مؤلفاته فى أثره وأزعجه الملك بالأبحاث ، ولم يغفر له المفكرون الإنجليز فى لندن عدم تحدثه بالإنجليزية وبعد أربعة أعوام قضاها هناك ترك المعترك (١٦١٤) فى سن الخامسة والخمسين . ودفن فى وستمنستر .

وكان لقب « العالم » فى ذاك الزمان أكثر احتراما وتشريفا من الشاعر

أو المؤرخ . فإن العالم كان ينظر إليه بعين الإجلال والإكبار لأن دراسته الدؤوبة حافظت على مواطن الحكمة والجمال الكامنة فى الآداب والفلسفة القديمة وعملت على تنقيتها وتوضيحها . ودخل سكاليجر جامعة ليدن دخول « الأمير الفاتح » ولقى هناك ترحيبا كبيرا . وكانت ثمة أمم كثيرة ترغب فى أن تحوز كلود دى سوميز الذى عرفته الدنيا « عالما » من أمثال سالاميوس وبعد موت كازوبون أجمع العالم بأسره على أنه «أعلم الأحياء فى ذلك الزمان» ، وأنه بصفة عامه معجزة الدنيا(٣٥) . فماذا فعل هذا العالم ؟ إنه ولد فى برجندى ، وتلقى تعليمه – وتحول إلى الكالفنية – فى هيدلبرج . وفى سن العشرين تألق نجمه فى نشر طبعة دقيقة محققة لمؤلفات اثنين من كتاب القرن الرابع عشر عن سلطة البابوات العليا المتنازع عليها ، وبعد ذلك بعام واحد ، نشر « خلاصة عن النبات » . وتوالت الكتب بعد ذلك ، حتى بلغت فى جملتها ثلاثين كتابا تميزت كلها بسعة الاطلاع وتناول كل ألوان المعرفة . وبلغ الذروة فى كتاب ضخم مكون من ٩٠٠ صفحة على نهرين بعنوان « أمثلة فى تعدد جوانب الثقافه والمعرفة» (١٦٢٩) . وكان سولينوس ، وهو أحد النحاة فى القرن الثالث – قد جمع فى موسوعة تاريخ البلاد الأوربية الكبرى وجغرافيتها وأعراقها البشرية واقتصادها ونباتها وحيوانها ، وجاء بعد ذلك ناشر متأخر فأطلق عليه « ثقافة متعددة الجوانب» ، ثم جاء سالماسيوس فدون على هذا النص تعليقات واسعة تشمل كل رومه الإمبراطورية . وكان امامه أن يختار بين اثنى عشرة دعوة وجهت إليه ، فاختار الأستاذية فى ليدن ، ثم عين فى الحال رئيسا لكلية عظيمة وسارت الأمور سيرا حسنا ، حتى كلفه شارل الثانى ملك انجلترا الذى كان متغيبا آنذاك فى هولنده ، بأن يكتب عن إدانة كرومويل بقتل شارل الأول وظهر الدفاع عن الملك شارل الأول فى نوفمبر ١٦٤٩ بعد إعدام الملك بنحو عشرة أشهر . ولم يرق الكتاب فى عينى كرومويل ، واستأجر أعظم شعراء انجلترا للرد عليه . وسنعود للكلام عليه مرة أخرى . وكتب سالماسيوس ردا على ملتون ، ولكنه مات (١٦٥٣) قبل أن يتمه . ونسب إلى ملتون ... ل القضاء عليه .

وحظيت قلة ضئيلة بمثل هذا القدر الكبير من العلم والمعرفة ، بينما ظل ٨٠٪ من سكان أوربا الغربية أميين . وقضى جون كومنيوس أربعين عاما يكافح فى سبيل النهوض بخطط التعليم فى أوربا . ولد كومنيوس فى مورافيا (١٥٩٢) وارتقى إلى مرتبة أسقف الأخوة المورافيين ولم يتزعزع قط إيمانه بأن الدين هو أساس التعليم وغايته ، فإن رأس الحكمة مخافة الله . وعلى الرغم من أن الأحقاد الدينية فى زمانه جعلت من حياته سلسلة متصلة من المحن والبلايا ، فإنه بقى على إخلاصه لفلسفة التسامح فى الوحدة الأخوية .

> نحن أبناء عالم واحد ، يجرى فى عروقنا دم واحد . وأنه لمن أشد الحماقة أن نضمر البغض والكراهية لإنسان لأنه ولد فى قطر آخر ، أو لأنه يتحدث بلغة مختلفة عن لغتنا . أو لأن له رأيا مخالفا لنا فى هذا الموضوع أو ذاك . إنى لأتوسل إليكم أن تكفوا عن هذا ، فإننا بشر متساوون فى الإنسانية فليكن لنا جميعا هدف واحد وغاية واحدة ، هى خير الإنسانية جمعاء ، ولنطرح جانبا كل الأنانيات والأثرة القائمة على أسس من اللغة أو القومية أو الدين[٣٦] .

وبعد تدوين كثير من النصوص التربوية ، لخص كومنيوس مبادئه فى التربية المثلى (١٦٣٢) وهو من أهم الكتب فى تاريخ التربية . أولا : يجب أن يكون التعليم عاما ، بصرف النظر عن الجنس أو مستوى المعيشة . فيجب أن يكون فى كل قرية مدرسة ، وفى كل مدينة كلية ، وفى كل مقاطعة جامعة ، ويجدر أن يكون التعليم العالى متاحا لكل من يثبت القدرة على متابعته ، وينبغى أن تتولى الدولة الإنفاق على الكشف عن مواهب وقدرات المواطنين فيها ، وتدريبها والإفادة منها . ثانيا : يجب أن يكون التعليم واقعيا ، بحيث تربط الأفكار فى كل خطوة بالأشياء الملموسة ، كما يجب تعليم الألفاظ باللغة الوطنية أو بأية لغة أجنبية ، عن طريق مشاهدة الأشياء التى تمثلها أو لمسها أو استخدامها

ويجب أن يتأخر تعليم النحو (الأجرومية) . ثالثا : يجب أن تكون التربية بدنية وعقلية وأخلاقية . وأن يتلقى التلاميذ تدريبات على الصحة والقوة والنشاط عن طريق ممارسة الحياة والألعاب فى الهواء الطلق . ورابعا : ينبغى أن يكون التعليم عمليا ، وألا يكون حبيسا فى سجن التفكير النظرى ، بل مقرونا بالعمل والممارسة ، وأن يمهد ويعد للنهوض بمهمة الحياة . خامسا : يجب تدريس العلوم تدريجيا ، بتقدم الطالب فى العمر ، ويجب افتتاح مدارس البحث العلمى فى كل مدينة أو مقاطعة . سادسا : ينبغى توجيه كل التربية وكل المعرفة إلى تحسين الخلق وبث التقوى فى الفرد ، وإلى إشاعة النظام والسعادة فى الدولة .

وكان ثمة شيء من التقدم . فإن الأمراء الألمان جدوا فى تأسيس مدرسة ابتدائية فى كل قرية . ونادى دوق ساكس — ويمار فى ١٦١٩ بمبدأ التعليم العام الإلزامى لكل البنين والبنات من سن السادسة إلى الثانية عشرة[٣٧] ، مع عطلة مدتها شهر فى موسم الحصاد . وما وافى عام ١٧١٩ حتى عم هذا النظام ألمانيا بأسرها . وكانت المدارس الثانوية لا تزال موصدة أمام الأناث ، ولكنها تضاعفت وحسن مستواها . وفتحت فى هذا العصر اثنتان وعشرون جامعة جديدة * . وكانت جامعة أكسفورد سائرة على طريقة التقدم والنجاح كما وصفها كازوبون فى ١٦١٣ ، وقد تأثر بما رآه من رواتب الأساتذة ومكانتهم الاجتماعية ، بالمقارنه بنظرائهم فى القارة . ففى ١٦٠٠ كانت رواتب الأساتذة فى ألمانيا ضئيلة إلى حد أنهم لجأوا إلى بيع الجعة والنبيذ احتيالا على العيش ، وكان الطلبة فى جامعة فينا يشربون ويلهون فى حانات يديرها الأساتذة[٣٨] . وتدهورت الجامعات الأسبانية بعد فيليب الثانى ، وساءت

(*) فى فينا ١٥٥٨ ، جنيف ١٥٥٩ ، ليل ١٥٦٢ ، ستراسبورج ١٥٦٧ ، ليدن ١٥٧٥ هلمستد ١٥٧٥ ، ولنو ١٥٧٨ ورزبرج ١٥٨٢ أدنبره ١٥٨٣ فرانكر ١٥٨٥ جراز ١٥٨٦ ، دبلن ١٥٩٦ ، لوبين ١٥٩٦ ، هردريك ١٦٠٠ ، جيسن ١٦٠٧ ، جرونتجن ١٦١٤ ، أمستردام ١٦٣٢ . دوربات ١٦٣٢ ، بودابست ١٦٣٥ أوترخت ١٦٣٦ توركو ١٦٤٠ بمبرج ١٦٤٨ .

أحوالها تحت وطأة محاكم التفتيش ، فى الوقت الذى أسست فيه عدة جامعات أسبانية فى مستعمرات أسبانيا فى أمريكا — فى ليما ١٥٥١ ، فى مدينة المكسيك ١٥٥٣ ، أى قبل افتتاح كلية هارفارد (١٦٣٦) بزمن طويل . وافتتح الهولنديون الموسرون ست جامعات فى تلك الحقبة . وعندما نجحت ليدن فى مقاومة الحصار الأسبانى (١٥٧٤) ، وجهت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة الدعوة لأهالى البلدة ، ليدن ، ليروا رأيهم فيما يمكن أن يكافأوا به ، فطالبوا بإنشاء جامعة ، وكان لهم ما أرادوا . وكانت السلطات الدينية تسيطر على أمور التعليم فى الأقطار الكاثوليكية والكلفنية . وفى انجلترا والبلاد اللوثرية كان رجال الدين يديرون معظم التعليم تحت إشراف الدولة . وفى كل الجامعات تقريبا ، باستثناء بادوا ، كان مطلوبا من المعلمين والطلبة أن يعتنقوا المذهب الرسمى ، وكانت الدولة والكنيسة كلتاهما تحد من الحرية الجامعية بدرجة كبيرة . وقضت الخلافات الدينية على الصبغة العلمية للجامعات ، فانحصر الطلبة الأسبان فى أسبانيا ، ولم يعد الطلبة الانجليز يلتحقون بجامعة باريس . وظلت أكسفورد حتى ١٨٧١ تفرض على طالب الدرجة الجامعية ، الموافقة على مواد الكنيسه الرسمية التسع والثلاثين . ومال الفكر الأصيل الخلاق إلى الاختفاء من الجامعات ، والتمس ملجأ فى الأكاديميات الخاصة والدراسات غير النظامية أو غير النمطية .

وهكذا قامت فى هذا العصر أكاديميات خاصة ، لارقيب عليها ، للدراسة والبحث ، وخاصة فى مجال العلوم . وفى رومه ، فى ١٦٠٣ أسس فدريجو سيزى ، مركيز مونتشللو « أكاديمية ذوى البصر الحاد » التى التحق بها جاليليو ١٦١١ ، وحدد دستورها هدفها :

> إن جامعة ذوى البصر الحاد تتطلب من أعضائها الفلاسفة أن يكونوا تواقين إلى المعرفة الحقة ، وأن ينصرفوا بكليتهم إلى دراسة الطبيعة ، وبخاصة الرياضيات ، ولن تهمل فى الوقت

نفسه أو تزيف مناهجها بالآداب والدراسات اللغوية الجميلة التى يزدان بها ، بوصفها حليا وجواهر كريمة ، نطاق العلم بأكمله ، وليس فى خطة هذه الأكاديمية أن تفسح المجال للخطب والمجادلات وبجدربها أن تغضى فى هدوء وصمت عن كل الخلافات السياسية . وعن أى لون من المهاترات الكلامية(٣٩) .

وحلت هذه الجامعة ١٦٣٠ ، ولكن فى ١٦٥٧ واصلت السير على نهجها أكاديمية دل شيمنتو (التجربة والبرهان) . وسرعان ما تأسست جمعيات مماثلة فى انجلترا وفرنسا وألمانيا . حتى يتسنى للروح العلمية الملهمة فى العلوم أن تضع الأسس الفكرية والتكنولوجية للعالم الحديث .

٣ ـ أدوات العلم ومناهجه

كان لزاما ، منذ البداية ، أن تكون هناك آلات علمية . فما تستطيع العين المجردة أن تبصر بوضوح كاف ، على مسافة بعيدة ، أو بأشياء بالغة الدقة . إلى الحد المطلوب ، وما يستطيع الجسم أن يمس بدقة تامة ضغط الأشياء أو حرارتها أو وزنها . وما يستطيع العقل أن يقيس المسافه والزمن والكمية والنوعية والكثافة دون أن يخلط بين توازنه الشخصى وبين الحقائق ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى المجهر (الميكروسكوب) ، والمقراب (التلسكوب) ، وبميزان الحرارة (الترمومتر) ومقياس الضغط (البارومتر) . ومقياس الثقل النوعى للسوائل (الهيدرومتر) وإلى ساعات أدق وإلى موازين أكثر حساسية .

كتب جامباتستا دللابورتا فى « سحر الطبيعة » (١٥٨٩) بالعدسة المقعرة تبدو الأشياء أصغر ولكن أوضح ، وبالعدسة المحدبة تراها أكبر ولكن أقل وضوحا فى معالمها ، فإذا عرفت على أية حال ، كيف تجمع بين النوعين على نحو سليم ، لأمكنك أن ترى الأشياء على البعد والقرب كبيرة واضحة معا(٤٠)

تلك كانت القاعدة التى بنى عليها المجهر ومنظار الميدان ومنظار الأوبرا ، والمقراب ، أى أنها مجموعة من المخترعات ، وكلها متنوعة الأنسجة . وكان المجهر البسيط . أى العدسة المحدبة الواحدة ، معروفة لأمد طويل . أما الاختراع الذى حول البيولوجيا فهو الميكروسكوب المركب الذى يجمع بين عدة عدسات لامة . ونمت صناعة شحذ العدسات وصقلها بصفة خاصة فى الأراضى الوطيئة وعاش سبينوزا عليها ومات بها . وحوالى ١٥٩٠ جمع صانع النظارات المدعو زخارياس جانس ، فى مدلبرج ، بين عدسة مزدوجة مقعرة وأخرى مزدوجة محدبة ، ليضع أقدم مجهر مركب معروف : وبفضل هذا الاختراع ظهرت البيولوجيا الحديثة والطب الحديث .

وجاء بعد ذلك تطبيق آخر لهذه القواعد لحول علم الفلك . ذلك أنه فى ٢ أكتوبر ١٦٠٨ قدم صانع نظارات آخر فى مدلبرج ، هو هانز لبرشى . إلى الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة (التى مازالت فى حرب مع أسبانيا) وصفا لآلة يمكن بها رؤية الأشياء من مسافة بعيدة . إن لبرشى وضع عدسة مزدوجة محدبة «العدسة الشيئية» على الطرف البعيد من أنبوبة ، وعدسة مزدوجة مقعرة «العينية» على الطرف القريب . وأدرك المشرعون القيمة العسكرية لهذا الاختراع فكافأوا البرشى بتسعمائة فلورين . وفى ١٧ أكتوبر أثبت رجل هولندى آخر — جاكوس متيوس ، أنه كان قد صنع من تلقاء نفسه ومن وحى تفكيره هو ، آلة مماثلة . وما أن سمع جاليليو بهذه التطورات حتى صنع آلة التلسكوب (المقراب) الخاصة فى بادوا (١٦٠٩) ، التى كبرت الأشياء إلى ثلاثة أمثالها ، وتلك هى الآلات التى كبر بها العالم . وفى ١٦١١ أقترح كبلر أنه يمكن الحصول على نتائج أفضل ، إذا عكست أوضاع العدسات فى اختراع جاليليو ، باستخدام العدسة المحدبة فى «العينية» ، والمقعرة فى «الشيئية» . وفى ١٦١٣—١٦١٧ صنع الجزويتى كرستوف شينر ، على هذا الأساس ، مقرابا «تلسكوب» أفضل ، بيد أنه أدخل شيئا من التحسين على ما كان معروفا من قبله[٤١] .

وفى الوقت عينه ، وعلى نفس الأسس التى كانت معروفة لدى « هيرو » السكندرى فى القرن الثالث الميلادى أو قبله ، كان جاليليو قد اخترع (حوالى ١٦٠٣) مقياسا للحرارة (ترمومتر) . بأن وضع الطرف المفتوح لأنبوبة زجاجية فى وعاء من الماء ، وكان طرفها الثانى عبارة عن بصيلة زجاجية (منتفخ الترمومتر) فارغة ، عمد إلى تسخينها بملامستها ليديه . فلما سحب يده بردت البصيلة ، وارتفع الماء فى الأنبوبة . وفى ١٦١٣ قسم جيوفنى ساجريدو ، صديق جاليليو ، الأنبوبة إلى مائة درجة .

وجاء أفانجلستا تورشللى ، أحد تلاميذ جاليليو ، فأحكم سداد أحد طرفى أنبوبة طويلة ، وملأها بالزئبق ، وأوقفها بطرفها المفتوح مغمورة فى وعاء به الزئبق ، فلم يفض زئبق الأنبوبة إلى الوعاء . وأرجع علماء الفيزياء هذه الظاهرة إلى « اشمئزاز الطبيعة من الفراغ » . وأرجعها تورشللى إلى ضغط الهواء المحيط على الزئبق فى الوعاء . وعللها بأن الضغط الخارجى لابد أن يرفع الزئبق فى الوعاء إلى الأنبوبة الخالية المفرغة من الهواء . وأثبتت التجربة صحة ما ذهب إليه . وأوضح أن التغييرات فى ارتفاع الزئبق فى الأنبوبة يمكن استخدامها مقياسا للتغيرات فى الضغط الجوى ، ومن ثم صنع فى ١٦٤٣ أول مقياس للضغط الجوى (البارومتر) الذى لا يزال الآلة الأساسية فى الأرصاد الجوية .

ومذ تزودت العلوم بهذه الأدوات الجديدة ، فإنها اتجهت إلى الرياضيين تسألهم طرقا أفضل للحساب والقياس وللتدوين بالعلامات والرموز واستجاب نابيير وبيرجى — كما عرفنا — لهذا النداء باللوغاريتمات ، وأوترد بالمسطرة الحاسبة ، ولكن كانت ثمة نعمة أكبر باختراع الطريقة العشرية وكانت بعض آراء أو مقترحات اجتهادية قد مهدت الطريق ، كما هى العادة . فإن الكاشى السمرقندى (المتوفى ١٤٣٦) كان قد أوضح أن النسبة التقريبية بين محيط الدائرة وقطرها هى : ٣,١٤٩٢٦٥٣٥٨٩٨٧٣٢ ، وهـــذا كسر عشرى — مستخدما مسافة

بياضا بدلا من النقطة ، أى العلامة العشرية بين الكسر والرقم الصحيح . ثم جاء فرانسسكو بللوس من مدينة نيس ١٤٩٢ فاستخدم النقطة العشرية وشرح سيمون ستيفينوس الطريقة الجديدة فى رسالة تعتبر فاتحة عصر جديد ، هي « الطريقة العشرية » (١٥٨٥) عرض فيها كيف « تعلم بسهولة لم يسمع بها من قبل أن تؤدى كل المسائل الحسابية بالأعداد الصحيحة دون كسور ، ونفذ « النظام المترى » فى قارة أوربا أفكاره فى قياس الأطوال والأحجام والعملة . ولكن الدائرة والساعة أقرتا بفضل الرياضيات البابلية ، فاحتفظتا بالقسمة الستينية .

وفى ١٦٣٩ نشر جيرارد دسارج رسالة ممتازة عن القطع المخروطى . وأحيا فرانسوا فيير الباريسى دراسة علم الجبر التى كانت قد ضعفت، باستخدام الحروف للدلالة على مقادير معروفة أو مجهولة على حد سواء واستبق ديكارت فى تطبيق الجبر على الهندسة ، وأنشأ ديكارت الهندسة التحليلية فى ومضة من ومضات الالهام ، حين اقترح التعبير على الاعداد والمعادلات بأشكال هندسية والعكس بالعكس (ومن ثم يمكن ايضاح التناقص المستمر فى قيمة العملة فى فترة معينة فى رسم بيانى احصائى) ؛ وأنه من معادلة جبرية تمثل شكلا هندسيا ، يمكن جبريا استخلاص نتائج تثبت صحتها هندسيا ، ولذلك يمكن استخدام الجبر لحل المسائل الهندسية العويصة . وافتتن ديكارت باكتشافاته إلى حد أنه ذهب إلى أن هندسته أسمى من هندسة اسلافه قد رسموا فصاحة شيشرون على حروف الهجاء عند الأطفال (٤٢) . أن هندسته التحليلية ونظرية كافا ليرى عن « غير القابل للانقسام أو التجزئة » (١٦٢٩) وتربيع ليلر التقريبى للدائرة . وقياس روبرفال للخط المنحنى، وتورشللى وديكارت، إن كل أولئك عبدوا الطريق أمام ليبنتز ونيوتن لاكتشاف التفاضل والتكامل .

وباتت الهندسة الآن هدف كل العلوم بقدر ما هى أداتها . ولحظ كبلر أن العقل إذا هجر « مملكة الكمية » فانه يهيم فى متاهات الظلام والشك[٤٣]. وقال جاليليو عن الفلسفة وهو يقصد « الفلسفة الطبيعية » أو العلوم :

> ان الفلسفة مدونة فى هذا السفر الضخم،ألا وهو الكون الذى يقف دوما مكشوفا أمام أعيننا نحملق فيه كيف نشاء . ولكن لن يتسنى لنا فهم هذا الكتاب إلا إذا تعلمنا، أول الأمر، كيف نعى اللغة ونقرأ الحروف التى تتألف منها . أن هذا السفر مكتوب بلغة الرياضيات[٤٤] ،

وتتطلع ديكارت وسبينوزا إلى تحويل الميتافيزيقا (علم ما وراء الطبيعة) نفسها إلى صيغة رياضية .

وبدأ العلم الآن يحرر نفسه من أغلال أمه وهى الفلسفة . لقد هز كتفيه لأرسطو غير مبال به . وأدار ظهره للميتافيزيقا متجها نحو الطبيعة ، وطور وسائل التمييز لديه ، وسعى لتحسين حياة الانسان على الأرض . أن هذه الحركة تنتسب إلى قلب عصر العقل ، ولكنها لم تؤمن كل الايمان ولم تثق كل الثقة « بالعقل الخالص » — أى العقل المستقل عن التجريب والاختبار . وكم من مرة ضل مثل هذا التفكير ، ونسج خيوطا واهية مضللة . أن العقل والتقاليد والسلطة يجب الآن ضبطها وكبح جماحها بدراسة الحقائق المتواضعة وتسجيلها . ومهما قال المنطق، فيجدر بالعلم ألا يتقبل الا ما يمكن قياسه كميا ، والتعبير عنه رياضياً ، واثباته بالتجربة

٤ — العلم والمادة

اندفعت العلوم خطوات إلى الأمام فى تسلسل منطقى، خلال التاريخ الحديث:

الرياضة والفيزياء فى القرن السابع عشر، والكيمياء فى الثامن عشر، والبيولوجيا فى التاسع عشر، وعلم النفس فى القرن العشرين.

والشخصية البارزة فى تلك الحقبة هى جاليليو. ولكن ثمة أبطال كثيرون أقل شأنا جديرون بالذكر فقد أسهم ستيفينوس فى تحديد قوانين البكرة والرافعة، وأجرى دراسات قيمة فى ضغط الماء، ومركز الجاذبية، ومتوازى أضلاع القوى، والمستوى المائل. وحوالى ١٦٩٠ فى دلفت، استبق جاليليو فى تجربته المزعومة فى بيزا، حيث أوضح — على خلاف الاعتقاد القديم — أنه إذا ترك جسمان من نوع واحد مهما اختلفا فى الوزن، ليسقطا معا من عل فإنهما يصلان إلى الأرض فى وقت واحد(٤٥). ووضع ديكارت قانون القصور الذاتى، فى صيغة بالغة الوضوح — وهو أن أى جسم يظل فى حالة الجمود أو فى حركة مستقيمة إلا إذا تأثر بقوة خارجية. وسبق هو وجاسندى، إلى نظرية الجزيئات فى الحرارة. وأسس رسالته فى «الأرصاد» (١٦٣٧) على الكوزمولوجيا (علم الكوينات يبحث فى أصل الكون وبنيته العامة وعناصره ونواميسه) التى لم تعد مقبولة، ولكن هذه الرسالة أسهمت كثيرا فى وضع أسس الأرصاد الجوية كعلم من العلوم. وتوسع تورشللى ١٦٤٢ فى دراساته عن الضغط الجوى لتشمل ميكانيكا الرياح، حيث ذهب إلى أن هذه هى التيارات الموازنة التى تنجم عن الاختلافات المحلية فى كثافة الهواء. أما جاسندى، ذلك الرجل المشهور بالمامه بكل العلوم، فانه تابع التجارب فى قياس سرعة الصوت، وتوصل إلى أنها ١٤٣٧ر١ قدما فى الثانية. وأعاد صديقه الكاهن، مارتن مرسن، التجربة، وقرر أنها ١٣٨٠ر١ قدما، وهذا أقرب إلى الرقم السائد، وهو ١٠٨٧ر١ ووضع مرسن فى ١٦٣٦ السلسلة الكاملة للنغمات التوافقية التى يحدثها سلك رنان.

وتركزت أبحاث البصريات حول مسائل الانعكاس والانكسار العويصة، وبخاصة عند مشاهدتها فى قوس قزح. وحوالى ١٥٩١ وضع ماركو أنطونيو

دى دومنيس رسالة فى « الضوء » أوضح فيها تكوين قوس قزح الرئيسى ، (وهو الوحيد الذى يمكن رؤيته بصفة عامة) على أنه راجع إلى إنكسارين وانعكاس واحد لضوء على قطرات بخار الماء فى السماء أو الرذاذ . وتكوين قوس قزح الثانوى (وهو قوس من الألوان فى ترتيب عكسى ، يرى أحيانا بشكل باهت ، خارج القوس الرئيسى) . على أنه راجع إلى إنكسارين وانعكاسين . وفى ١٦١١ عالج كبلر فى رسالة « الانكساريات » موضوع انكسار الضوء فى العدسات . وبعد ذلك بعشر سنين جاء ولبرورد سنل من ليدن ، وصاغ قوانين الانكسار فى دقة جعلت من الميسور اجراء حساب أدق لعمل العدسات فى الضوء ، وصنع ميكروسكوبات وتلسكوبات أفضل. فطبق ديكارت هذه القوانين على الحساب الميكانيكى لزوايا الاشعاع فى قوس قزح . أما تفسير ترتيب اللون فكان لزاما أن ينتظر مجىء نيوتن .

وأدى بحث جلبرت — الذى يعتبر بداية عصر جديد — فى الجاذبية الأرضية إلى سلسلة طويلة من النظريات والتجارب . واقترح فيانوس سترادا عضو جمعية يسوع ، الارسال البرقى (١٦١٧) ، وذلك بأن يتصل رجلان الواحد منهما بالآخر ، من بعيد ، عن طريق استخدام الفعل المتجانس لابرتين مغناطيسيتين وضعتا بحيث تشيران فى وقت واحد إلى حرف هجاء واحد بعينه ، وفى ١٦٢٩ أدلى جزويتى آخر ، نيقولو كابيو ، بأول وصف عرفه العالم للتنافر الكهربى . وجاء عالم آخر هو أثناسيوس كيرشر ، فوصف فى كتابه « المغناطيس » (١٦٤١) قياس المغناطيسية بتعليق مغناطيس فى إحدى كفتى ميزان ، ومقاومة تأثيره بوضع موازين فى الكفة الأخرى . وعزا ديكارت المغناطيسية إلى تأثير الجزيئات التى تنفثها الدوامة الكبرى التى اعتقد هو أن الأرض نشأت عنها .

وكانت الكيمياء القديمة (الخيمياء) لاتزال شائعة، وخاصة كبديل ملكى لخفض قيمة العملة . فكان الامبراطور رودلف الثانى ، وناخبو سكسونيا

وبراندانبرج والبالاتينات ، ودوق برنزويك وكونت هس ، يستخدمون جميعا أرباب الكيمياء القديمة لصنع الفضة أو الذهب[٤٦] . ومن هذه التجارب ومن الحاجة إلى علم المعادن وصناعة الصباغة ، ومن الحاح الطبيب الألمانى باراسلوس على الدواء الكيمياوى ، من هذا كله بدأ علم الكيمياء يتشكل . وكان أندريا ليبافيوس يمثل هذا الانتقال من «الخيمياء» إلى الكيمياء . وكان مؤلفه « الدفاع عن خيمياء تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة» (١٦٠٤) استمرارا للسعى وراء المطلب القديم ، ولكن كتابه « الكيمياء » (١٥٩٧) كان أول رسالة منهجية فى الكيمياء العلمية الحديثة . واكتشف باراسلسوس كلوريد القصدير ، وكان أول من صنع سلفات الأومنيوم، وكان من أوائل من اقترح نقل الدم كعلاج. وكان معمله فى كوبرج إحدى عجائب المدينة. ووضع جان بابتستافان هلمونت — وهو نبيل ثرى أكب على العالم وصرف همه فى تقديم الخدمات الطبية للفقراء — وضح اسمه بين مؤسسى الكيمياء بتمييز الغازات عن الهواء وتحليل أنواعها وتركيبها . ونحت لفظة « غاز » من اللفظة الأغريقية Chaos وحقق إكتشافات كثيرة فى مجاله المختار ، ابتداء من الغازات المتفجرة فى البارود، إلى امكانات الاشتعال فى « ريح الإنسان»[٤٧] واقترح القلويات فى علاج الحموضة المفرطة فى الجهاز الهضمى. وأوصى يوهان جلوبر بيللورات سلفات الصوديوم للاستعمال كعلاج ممتاز من الظاهر أو من الباطن. ولا يزال « ملح جلوبر » يستخدم كملين . ان جوبر وهلمونت كليهما اشتغل بالخيمياء (أو الكيمياء القديمة) كهواية .

وأسهمت كل هذه « العلوم الطبيعية » فى تحسين الانتاج الصناعى ، وأدوات القتل فى الحروب. وطبق الفنيون المعرفة الجديدة بالحركات والضغوط فى السوائل والغازات ، وتكوين القلوى ، وقوانين التذبذب ، ومسارات الاسقاط والقذف، وتنقية المعادن. واستخدم البارود فى تفجير المناجم (١٦١٣) وفى ١٦١٢ اخترع سيمون ستورتفانت طريقة لانتاج فحم الكوك، لتخليصه

من العناصر المتطايرة . فهذا « الكوك » له قيمته وأهميته فى صناعة المعادن ، لأن شوائب الفحم العادى تضر بالحديد ، وقد حل محل الفحم النباتى وأنقذ الغابات . وقلت تكلفة صناعة الزجاج ، حيث عم استعمال زجاج النوافذ فى ذاك العصر . وبنمو الصناعة تضاعفت المخترعات الميكانيكية. لأنها كانت تعود إلى أبحاث العلماء أقل منها إلى مهارات الصناع الذين يتوقون إلى توفير الوقت . ومن هنا فاننا نسمع لأول مرة عن المخراط اللولبى فى ١٥٧٨، واطار الحبك والربط فى ١٥٨٩ . والمسرح الدائر فى ١٥٩٧ ، وآلة درس القمح وقلم الحبر فى ١٦٣٦ .

وقام المهندسون آنذاك بأعمال فذة تستحق الاعجاب حتى فى أيامنا هذه، فقد رأينا كيف أن دومنيكو فونتانا هز رومه باقامة مسلة فى ميدان القديس بطرس . وابتدع ستفينوس مهندس موريس ناسو ، نظام البوابات للتحكم فى السدود — وهى حارسة جمهورية هولندة . واستخدم منفاخ ضخم فى تهوية المناجم ، والمضخات المعقدة فى رفع المياه إلى أبراج لتضخ المياه إلى البيوت والنافورات فى المدن مثل أوجزبرج وباريس ولندن وأنشئت قناطر تروس على أساس القاعدة الهندسية البسيطة وهى أن المثلث لايمكن أن يعدل شكله ألا بتغير طول أحد الجوانب . وفى ١٦٢٤ سارت غواصة تحت الماء لمسافة ميلين فى نهر التاميز[٤٨] . وتقدم جيروم كاردان وجامباتستا دللابورتا وسالومون دى كوز بنظرية الآلة البخارية خطوة إلى الأمام ، وفى ١٦١٥ وضع كوز وصفا لآلة لرفع الماء بفعل قوة تمدد البخار[٤٩] .

ولم تكن الجيولوجيا قد ولدت بعد ، حتى اللفظ نفسه لم يكن موجودا ، وكانت دراسة الأرض تسمى « علم المعادن » وجال النظر بعين الإجلال إلى قصة « الخلق » فى التوراة دون المقامرة بالبحث فى نشأة الكون . ورمى برنارد باليسى بالزندقة لاحيائه الفكرة القديمة التى تقول بأن الأحافير والمستحاثات ليست إلا بقايا متحجرة لكائنات ميتة. وغامر فيكارت بالقول

بأن الكواكب السيارة بما فيها الأرض كانت يوما كتلا متوهجة مثل الشمس، وعندما برد الكوكب، كون قشرة من السوائل والمواد الصلبة فوق نار مركزية داخلية، أنتج دخانها الينابيع الحارة والبراكين والزلازل(٥٠).

وتقدمت الجغرافيا بفضل البعثات التبشيرية والرواد والتجار الذين أرادوا نشر دياناتهم أو التوسع فى العلم والمعرفة أو التجارة. وفى ١٥٦٧ وما بعدها ارتاد الملاحون الأسبان البحار الجنوبية، وكشفوا جزيرة جوادالقنال وغيرها من جزر سليمان — وسميت كذلك على أمل العثور هناك على كنوز سليمان. وزار المبشر البرتغالى بيكوياس (الذى أخذ أسيرا فى الحبشة (١٥٨٨)، النيل الأزرق. وحل لغزا قديما بأن فيضان النيل المنتظم ليس له من سبب إلا فعل الأمطار فى مرتفعات الحبشة. ويواضح أن وللم جانسزون كان أول من وطئت قدماه أرض استراليا (١٦٠٦). وكشف آبل تسمان تسمانيا ونيوزيلند (١٦٤٢) وجزر فيجى (١٦٤٣) ودخل التجار الهولنديون سيام وبورما والهندالصينية. ولكن المعلومات عن هذه البلاد وعن الصين، وردت إلينا أساسا عن طريق المبشرين الجزويت. وبأمر من هنرى الرابع ملك فرنسا ارتاد صمويل تشاملن ساحل نوفاسكوشيا وصعد فى نهر سانت لورنس إلى قرب مونتريال، وأسس أتباعه مدينة كويك، وبينوا على الخريطة البحيرة التى تحمل اسمه.

وكافح صانعو الخرائط حتى لا يتخلفوا كثيراً عن الرواد والمستكشفين، ومنهم جيراردوس مركيتور (جيرهارد كريمر) الذى درس فى لوفان، وأسس محلا لصنع الخرائط والأدوات العلمية والكرات الأرضية. وفى ١٥٤٤ قبض عليه وحوكم بتهمة الهرطقة، ولكنه تفادى العواقب الوخيمة، فوجد على أية حال أنه من الحكمة أن يقبل دعوة وجهت اليه من جامعة دوزبرج، حيث أصبح رساما للخرائط لدى دوق جوليس كليفز (١٥٥٩). وطوال حياته التى امتدت اثنين وثمانين عاما، جهد مركيتور دون كلل أو ملل فى رسم خرائط

للفلاندرز واللورين وأوربا والأرض . وفى مؤلفه المشهور « الوصف الجديد الدقيق للأرض وطرق الملاحة» (١٥٦٨) أدخل نظام « الأسقاط المركاتورى» فى الخرائط الذى أدى إلى تيسير الملاحة.باظهار دوائر خطوط الطول موازية بعضها لبعض ، ودوائر العرض خطوطا مستقيمة ، وكلتا المجموعتين من الخطوط تشكل زوايا قائمة ، الواحد منهـا مع الآخر . وفى ١٥٨٥ شرع فى اصدار « أطلسه» الكبير (ونحن مدينون له بالفضل فى استخدام هذا اللفظ)، محتويا على إحدى وخمسين خريطة،فى اتقان ودقة لم يسبق لهما مثيل،وصف فيها الأرض المعروفة آنذاك . ودخل صديقه أبراهام أورتل فى مبارات معه بكتابه الجامع « مدار الأرض » (أنتورب ١٥٧٠) . أن هذين الرجلين كليهما حرر الجغرافيا من ارتباطها الألفى السعيد ببطلميوس (الفلكى السكندرى فى القرن الثانى الميلادى) ، ووضعاها فى شكلها الحديث . وبفضلها احتفظ الهولنديون بمـــا يكاد يكون احتكارا تاما لصناعة الخرائط طيلة قرن من الزمان .

٥ ـــ العلم والحياة

وكان على علم الإحياء (البيولوجيا) أن ينتظر قرنين من الزمان حتى يتسنم الذروة ، ونشأ علم النبات على مهل من خلال الدراسات الطبية للأعشاب العلاجية واستيراد النباتات الغريبة إلى أوربا وجلب المبشرون الجزويت لحاء الشجر من بيرو (الكينين) والونيلية (نبات أمريكى استوائى ، الفانيليا) والراوند . وأدخل البطاطس حوالى ١٥٦٠ من بيرو إلى أسبانيا ، ومنها انتشر فى أنحاء القارة . ووصف برسبيرو ألبينى أستاذ علم النبات فى بادوا خمسين نباتا أجنبيا زرعت مجددا فى أوربا . ومن دراساته لنخيل البلح استدل على التكاثر الجنسى فى النبات الذى أوضحه تيوفراستوس فى القرن الثالث ق . م . يقول ألبينى : « إن إناث نخيل البلح لا تحمل ثمرا إلا إذا اختلطت أغصان الأشجار الذكور والأشجار الإناث بعضها ببعض ، أو كما يحصل عادة ، إلا إذا تناثر

الغبار الموجود فى غلاف الأشجار الذكور أو أزهار الأشجار الاناث[٥١] .
وقد يقسم لناؤوس فيما بعد النباتات وفقا لطرق تكاثرها ، ولكن الآن فى
١٥٧٣ قدم أندريا سيسالبينو الفلورنسى أول تقسيم منهجى للنباتات ، ١٥٠٠
نوع منها ـ على أساس بذورها وثمارها المختلفة . وأورد جاسبار بوهين
(من مدينة بازل) فى مؤلفه الضخم « جدول عالم النبات » (١٦٢٣) تصنيفا
لنحو ٦٠٠٠ نبات ، وبذلك استبق ما أنجزه بعد ذلك ليناؤوس من تصنيف
وتسمية ثنائية تبعا للجنس والصنف ، وقضى بوهين أربعين عاما فى إعداد
« جدول النبات » ، ومات بعد سنة من صدوره ، وبقى مرجعا أساسيا لمدة
ثلاثة قرون .

وبدأت « معشبات الأطباء الخاصة تتطور الآن إلى حدائق نباتية تديرها
الجامعات أو الحكومات للجمهور . وكان لأقدمها التى أسست فى بيزا ١٥٤٣ ،
شهرة كبيرة أيام سيسالبينو . وأسس فى زيوريخ حديقة نباتية فى ١٥٦٠ ،
ثم فى بولونا وكاسل وليدن وليبزج وبرسلاو وبازل وهيدلبرج وأكسفورد .
وفى ١٦٢٥ نظم جى دى لابروس ـ طبيب لويس الثالث عشر « حديقة النباتات
الطبية » المشهورة فى باريس ، أما حدائق الحيوان ، بوصفها معارض للوحوش
لتسلية الجماهير ، فقد وجدت فى الصين (١١٠٠ ق ٠ م) وفى رومه القديمة ،
وفى المكسيك أيام الأزتيك (حوالى ١٤٥٠) ، أما الطراز الحديث فقد افتتح
فى درسدن فى ١٥١٤ ، وفى فرساى فى عهد لويس الثالث عشر .

ولقى علم الحيوان عناية أقل مما لقى علم النبات ، لأنه قدم علاجات أقل ،
اللهم إلا فى الطب الأسطورى أو الخرافى ، وفى ١٥٩٩ شرع بوليس ألدروفاندى
فى نشر ١٣ مجلدا ضخما فى التاريخ الطبيعى » ، وعاش حتى رأى ستة منها فى
المطبعة ، ونشر سناتو بولونا السبعة الباقية من مخطوطات المؤلف على نفقة
الدولة . ولم يحتل مكان هذه المجلدات أو ينسخها إلا كتاب بوفون « التاريخ
الطبيعى » (١٧٤٩ - ١٨٠٤) . وابتدأ الجزويتى المتعدد الثقافات أثناسيوس

كيرشر علم الأنسجة العضوية بكتابه الذى وصف فيه (١٦٤٦) الديدان المتناهية الصغر التى وجدها مجهره (الميكروسكوب) فى المواد المتعفنة . أن الاعتقاد بتوالد الكائنات الدقيقة توالدا تلقائيا من اللحم المتعفن أو الفاسد ، أو حتى من الطين ، كاد يكون سائدا تماما ، ولو أن هارفى كان على وشك أن يدحضه فى كتابه « توالد الحيوان » (١٦٥١) . وكان علم الحيوان متخلفا ، لأن نفرا قليلا من المفكرين رأوا الأجداد العليا للحيوان كما رأوهم فى الإنسان ولكن فى ١٦٣٢ كتب جاليليو إلى دوق تسكانيا الأكبر : « ولو أن التباين بين الإنسان وسائر الحيوان هائل جدا ، فإنه يمكن القول بحق بأنه أكثر قليلا من التباين بين بنى البشر أنفسهم[٥٢] » . أن العقل الحديث كان يرتد ببطء إلى ما عرفه الاغريق قبل ذلك بألفى عام .

وآوى علم التشريح إلى شىء من الركود بعد جهود فيساليوس . وكان تشريح الجثث لا يزال محل معارضة ـ كما فعل هوجو جروتيوس[٥٣] . ولكن « دروس التشريح » الكثيرة فى الفن الهولندى تعكس الارتياح العام إلى هذا العمل . والاسم اللامع هنا ، مثلما هو فى الجراحة هو جيرولامو فابرزيو أكوابندانت . تلميذ فللوبيو وأستاذ هارفى . وفى أثناء رياسته لجامعة بادوا شيدت هناك قاعة التشريح الكبرى ـ وهى المبنى الوحيد المحتفظ به كاملا من تلك الحقبة ، إن اكتشافه للصمامات فى الأوردة ، ودراساته فى تأثيرات الأربطة قادتا هارفى إلى شرح الدورة الدموية وتقدمت المعرفة بدورة السوائل فى الجسم خطوة إلى الأمام بكشف جاسبارو أسللى للأوعية اللمفاوية التى تنقل الكيلوس الشبيه باللبن (مستحلب الطعام المهضوم قبل امتصاصه) من الأمعاء الدقيقة . والحق أن أسللى ، على الرغم من اسمه « الجحش الصغير » وصف الدورة الدموية قبل أن ينشر هارفى نظريته بست سنين . وكان اندريا سيسالبينو قد شرح النظرية الأساسية (١٥٧١) قبل هارفى بنصف قرن . وظل يتعلق بالفكرة القديمة ، وهى أن بعض الدم يمر من الحجاب الحاجز للقلب ، ولكنه

اقترب ، أكثر من هارفى ، من شرح كيفية انتقال الدم من الشرايين إلى الأوردة إن أنبل الجيوش كانت تتقدم على مائة جبهة لتخوض أعظم الحروب والمعارك إنها معارك العلم .

٦ ـ العلم والصحة

وفى هذا النضال من أجل العلم والمعرفة ، كانت المعركة الأساسية هى معركة الحياة ضد الموت ، وهى معركة خاسرة على الصعيد الفردى ، ظافرة بانتظام على المستوى الجماعى . وكم للأطباء والمستشفيات ، فى نضالهم لعلاج الأمراض والآلام ، من أعداء بشريين فى القذارة الشخصية ، والقذارة العامة، والسجون الكريهة الرائحة والمثيرة للاشمئزاز، والدجالين وجرعاتهم السحرية، والمتصوفين « العلميين » ، ومعالجى الفتق ، ندبى الحجارة ، ومعالجى اعتام عدسة العين ، وخالعى الأسنان ، هواة تحليل البول . وســـارت الأمراض الجديدة فى سباق مع العلاجات والأدوية الجديدة .

وكان مرض الجذام قد اختفى، وقللت الوسائل الوقائية من الاصابة بمرض الزهرى، وكان فاللوبيو قد اخترع (١٥٦٤) غلافات من الكتان لإتقاء عدوى هذا المرض . (وسرعان ما استخدم هذا لمنع الحمل ، وكان يباع لدى الحلاقين والمومسات أو أصحاب المواخير[٥٤]) . ولكن أوبئة التيفوس والتيفود والحمى والملاريا والدفتريا ، والاسقربوط والانفلونزا والجدرى والدوسنطاريا ، ظهرت فى تلك الحقبة فى عدة أقطار فى أوربا، وبخاصة ألمانيا . وثمة احصاءات قد يكون مبالغا فيهـا ، بأن الوفيات بلغت ٤٠٠٠ من الطاعون الدملى فى بازل ١٥٦٣ — ١٥٦٤، وأن ٢٥٪ من سكان فريبورج ـ أم ـ بريزو ماتوا بالطاعون ١٥٦٤ ، و ٩٠٠٠ فى ردستوك ، و ٥٠٠٠ فى فرانكفورت ١٥٦٥، ٤٠٠٠ فى هانوفر ، و ٦٠٠٠ فى برونزويك ١٥٦٦[٥٥] وعزا السكان المذعورون مثل هذا الطاعون إلى دس السموم عمدا . وفى فرانكشتين فى سيليزيا أحرق ١٧ شخصا

أحياء حتى الموت للاشتباه فى أنهم دسوا السم[٥٦] . وكانت وطأة الطاعون الدملى شديدة جداً فى فرانكفورت فى ١٦٠٤ حتى لم يعد هناك من الرجال من يكفى للقيام بدفن الموتى[٥٧] . وتلك مبالغات واضحة ، ولكن يروى عن مصادر موثوقة أنه بسبب الطاعون الدملى فى إيطاليا ١٦٢٩ — ١٦٣١ مات فى ميلان ٨٦ ألفا ، وفى جمهورية البندقية ما لا يقل عن ٥٠٠ ألف ، وفيما بين ١٦٣٠ — ١٦٣١ كان عدد ضحايا الطاعون مليون شخص فى جنوب إيطاليا وحده[٥٨] ، وقلما سار معدل الانجاب عند النساء مع شدة الدهاء وسعة الحيلة فى إزهاق الأرواح . وضوعفت آلام الوضع بتزايد عدم جدواه . وكانت نسبة الوفيات فى الأطفال تبلغ خمس المواليد قبل إتمام السنة الثانية من العمر[٥٩] وكانت الأسرات كبيرة والسكان قليلين .

وكانت الصحة العامة آخذة فى التحسن ، والمستشفيات يتضاعف عددها وتعليم الطب يصطبغ بالتشدد والصرامة — ولو أنه كان من الميسور الاشتغال بالطب دون الحصول على درجة علمية . وكان فى بولونا وبادوا وبازل وليدن ومونبيلييه وباريس مدارس طب ذائعة الصيت تجذب إليها الطلاب من كل أنحاء أوربا الغربية . وأمامنا مثال فذ من البحث العلمى الدؤوب طيلة ثلاثين عاما من التجارب حاول بها سانكتوريوس تحويل العمليات الفسيولوجية إلى نظام كمية . وأنجز قدرا كبيرا من عمله بينما كان جالسا إلى مائدة على ميزان كبير ، وسجل ما يطرأ على وزنه من تغيرات عند دخول أو خروج المواد الصلبة والسوائل ، بل إنه وزن العرق نفسه . ووجد أن جسم الانسان يخرج بضعة أرطال يوميا عن طريق التنفس العادى . وانتهى إلى أن هذا شكل جوهرى من أشكال الطرد أو التخلص من الزوائد . واخترع مقياسا طبيا للحرارة (١٦١٢) وآخر للنبض ، ليعاون هذا وذاك فى تشخيص الأمراض .

وكان العلاج يتدرج من الضفدعة إلى العلقة . ووصف بعض مشاهير الأطباء ، كعلاج ، الضفادع المجففة تخاط فى كيس يعلق على الصدر ، كعصيدة

يتصيد ويمتص الهواء الفاسد المسموم المحيط بالجسم فى المناطق المصابة بالطاعون[٦٠] . وجمعوا بين امتصاص الدم بالعلقات أو بالحجم ، وبين تناول مقادير كبيرة من الماء ، على أساس أن بعض السائل الداخل إلى الجسم سوف يتحول إلى دم جديد غير ملوث .وكانت ثمة مدرستان للعلاج تتباريان على الفريسة ، وهو المريض : مدرسة العلاج الميكانيكى التى نشأت عن آراء ديكارت التى تقول بأن كل عمليات الجسم ميكانيكية ، ومدرسة العلاج الكيميائى التى بدأها باراسلسوس، وطورها هلمونت . والتى تفسر كل وظائف الأعضاء بأنها كيمياوية . وكانت المعالجة المائية العلمية شائعة . وكانت المياه العلاجية موجودة فى باث انجلترا ، وفى سبا فى الأراضى الوطيئة ، وفى بلومبيير فى فرنسا ، وفى أماكن أخرى كثيرة على الراين وفى إيطاليا ، وقد رأينا مونتيني يجرب العلاج بالمياه فى هذه الأماكن ، ونثر حصى الكلى طوال الطريق . وأدخل إلى أوربا عقاقير جديدة ، مثل الناردين (حوالى ١٥٨٠) ، والأنتيمون (الأثمد) حوالى ١٦٠٣ ، وعرق الذهب (١٦٢٥) ، والكينين (١٦٣٢) .ودون دستور الصيدلة والأدوية فى انجلترا (١٦١٨) نحو ١٩٦٠ عقارا . ويذكر مونتيني علاجات خاصة ادخرها نفر من الأطباء لمرضاهم الصبورين

> القدم اليسرى لسلحفاة ، بول السحلية ، روث الفيل ، كبد حيوان الخلد ، الدم المستخرج من الجناح الأيمن لحمامة بيضاء . وبالنسبة للمصابين بحصى الكلى مثلى .... روث الفأر المسحوق ... وغير ذلك من السخافات التى توحى بالسحر والتعاويذ أكثر منها بالعلم الجاد[٦١] .

وكانت مثل هذه العلاجات التافهة الغريبة باهظة التكاليف إلى حد مثير وكان الناس فى القرن السابع عشر يئنون من أثمان الدواء أكثر مما يضجون من أجور الأطباء[٦٢] .

وترك طب الأسنان للحلاقين ، وكان يقوم في معظمه على الخلع . وكان بين « الحلاقين الجراحين » آنذاك جماعة من المحترفين المهرة ، من أمثال امبرواز بارى ، فرانسوا روست ، اللذين أحييا الخلع القيصرى ، وجسبارو طليا كوتسى المتخصص فى إعادة تشكيل الأذن والأنف والشفاة ، من لدائن البلاستيك ، وقد اتهمه الأخلاقيون بالتدخل فى صنع الله ، ونبشت رفاته من الأرض المطهرة ، ودفنت فى أرض غير مقدسة (٦٣) . وكان ولهلم فبرى « أبو الجراحة فى ألمانيا » أول من أوصى ببتر العضو أو الطرف فوق الجزء المصاب . وأورد جيوفنى كولى أقدم وصف معروف لعمليـــة نقل الدم (١٦٢٨) .

وامتعض المرضى من أجر الطبيب ، كما هو الحال فى كل العصور . وسخر الممثلون الهزليون من ردائه الطويل وحذائه الاحمر ، ومن رزانته ووقاره وهو إلى جانب فراش المريض ، وإذا كان لنا أن نصدق هجو الممثلين الهزليين الفكاهيين ، فإن مكانته الاجتماعية لم تكن تعلو كثيرا من مرتبة المعلم ، ولكننا لو رجعنا إلى تاريخ « درس التشريح » لرمبرانت ، لشهدنا طبقة من الرجال تتمتع بمنزلة رفيعة فى المجتمع ، قادرة حتى على الاسهام فى لوحة عظيمة . أن أعظم فلاسفة ذلك العصر ، الذى كان يحلم ،كما يحلم كل منا ، بمستقبـل أفضل للبشرية ، فكر فى تحقيق حلمه على أساس تحسين الخلق الانسانى والنهوض بالعلوم الطبية ، بوصفهما أكثر العوامل ملاءمة لمثل هـذه الثورة ; وفى هـذا يقول ديكارت : « إن العقل نفسه يعتمد كثيراً على سلامة أعضاء الجسم وتنظيم أدائها لوظائفها ، إلى حد أنه إذا كان من الميسور أن نفتش عن وسيلة تزيد بها من عقل الانسان وقدرته ، فاعتقادى أنه ينبغى أن نلتمسها فى الطب والدواء »(٦٤) .

٧ — من كوبرنيكس إلى كبلر

لقد تركنا علم الفلك لنعرض له فى خاتمة المطاف ، لأن أبطاله ، وهم يقتربون من نهاية هذه الفترة ، يشكلون العناصر الرئيسية فيها .

أن نفس الكنيسة التى كان عليها أن تخرس جاليليو ،قادت الطريق إلى أحد المنجزات العظمى فى علم الفلك الحديث — ألا وهو إصلاح التقويم . أن مراجعة التقويم التى كان قد قام بها سوسينز ايوليوس قيصر حوالى ٤٦ ق. م. أدت إلى زيادة السنة باحدى عشرة دقيقة و١٤ ثانية . ومن ثم فانه فى ١٥٧٧ تخلف التقويم اليوليانى عن تعاقب الفصول بنحو ١٢ يوما ، وبذلك لم تقع أعياد الكنيسة فى المواعيد التى قصد لها أن تقع فيها. وكم من محاولات بذلت لاصلاح التقويم : فى عهد كليمنت السادس ، سكستس الرابع ، ليو العاشر — ولكن نشأت عوائق جمة ، منها عدم اتفاق الجميع على حل معين . وعدم توفر المعرفة الدقيقة بالفلك . وفى ١٥٧٦ قدم إلى البابا جريجورى الثالث عشر تقويم قام بتصويبه لويجى ججليو. وأحاله البابا إلى لجنة من اللاهوت والمحامين ورجال العلم ، ومن بينهم الجزويتى البافارى كرستوفر كلافيوس الذى اشتهر بتضليعه فى الرياضيات والفلك ، وواضح أن المخطط النهائى كان من صنعه . واستمرت المفاوضات طويلة مع الأمراء والأساقفة لتحقيق تعاونهم فى هذا المجال وأثيرت اعتراضات كثيرة وأخفقت المساعى التى بذلت للحصول على موافقة الكنائس الشرقية . وفى ٢٤ فبراير ١٥٨٢ وقع البابا جريجورى الثالث عشر المرسوم الذى أقر « التقويم الجريجورى » فى العالم الكاثوليكى . ومن أجل التعادل بين التقويم القديم والحقائق الفلكية ، حذفت عشرة أيام من شهر أكتوبر ١٥٨٢ ، أى أن اليوم الخامس اعتبر اليوم الخامس عشر ، وعمدوا من أجل ذلك إلى ضروب معقدة من الحسم والخصم فى حساب الفوائد وغيرها من المعاملات التجارية . وللتعويض عن الخطأ فى التقويم اليوليانى ، فانهم زادوا فى سنوات القرون التى تقبل القسمة على ٤٠٠ ، يوما فى شهر فبراير ليصبح ٢٩ يوما .

وعارضت البلاد البروتستانتية هذا التغيير. وتمرد الأهالى فى فرانكفورت (على نهر السين) وفى بريستول، اعتقاداً منهم بأن البابا أراد أن يسلبهم عشرة أيام بل أن مونتينى نفسه زمجر وشكا، وهو الشديد الطمع فى الزمن، فقال « إن ما عمد اليه البابا أخيراً من اختصار عشرة أيام من السنة قد أزعجنى إلى حد أنى لا أكاد استرد عافيتى (٦٥)». ولكن التقويم الجديد — الذى لن يحتاج إلى تصويب آخر لمدة ٣٣٣٣ سنة — أخذ بالتدريج يلقى قبولا فى الولايات الألمانية فى ١٧٠٠، وفى انجلترا فى ١٧٥٢، وفى السويد فى ١٧٥٣، وفى روسيا ١٩١٨ (*).

وثمة تلكؤ شبيه بهذا حدث فى ارتضاء وتقبل فلك كوبرنيكس. وكان من الممكن دراسته وتعليمه فى إيطاليا، لو أنه عرض على أنه فرضية قابلة للجدل، لا على أنه حقيقة واضحة (٦٦). ودافع عنه جيوردانو برونو، وتساءل بالفعل كما نللا إذا كان سكان الكواكب الأخرى ظنوا أنفسهم، كما يظن أهل الأرض، أنهم مركز الأشياء، وهدفها (٦٧). وتسابق اللاهوتين البروتستانت مع الكاثوليك عامة فى إستنكار الطريقة الجديدة، ودحضها بيكون وبودين على السواء (٦٨). والأغرب من هذا كله أن أعظم الفلكين فى نصف القرن التالى لوفاة كوبرنيكس (١٥٥٣)، رفضها كذلك.

ولد تيكو براهى فى ١٥٤٦، فى مقاطعة سكانيا التى كانت آنذاك دنمركية

(*) من الناحية المثالية كان يمكن تقسيم السنة إلى ١٣ شهرا فى كل منها ٢٨ يوماً، مع يوم أجازة لا تاريخ له (أو يومين فى السنة الكبيسة) فى نهاية العام. ومن ثم يكون التقويم فى الصحيفة الواحدة، مع بعض إشارات دوارة للدلالة على الشهر والسنة، نافعا لكل الشهور إلى ما لا نهاية، حيث يقع كل يوم من أيام الأسبوع فى نفس التواريخ على مر الشهور والأعوام. ويمكن أن تنقسم سنة العمل إلى شهور متساوية وارباع متساوية. ولكن هذا، مع اشد الأسف قد يزعج القديسين ويوقعهم فى حيرة.

وهى الآن فى الطرف الجنوبى للسويد ، وكان أبوه عضواً فى مجلس الدولة الدنمركى ، وأمه مديرة ملابس الملكة . أما عمه الثرى جورجن الذى انفطر قلبه غما لأنه لم ينجب أولاداً ، فقد اختطفه، وتملق أبويه واسترضاهما بكل الوسائل ، ابتغاء موافقتهما ، وهيأ للطفل كل فرص التعليم ووسائله . وفى سن الثالثة عشرة التحق تيكو بجامعة كوبنهاجن . وطبقا لما ذكره جاسندى ، انجذب تيكو إلى الفلك عندما سمع أحد المعلمين يناقش موضوع كسوف شمس قادم . ولحظ حدوث الكسوف كما تنبأوا به ، وعجب لهذا العلم الذى بلغ مثل هذه القدرة على التنبؤ، واشترى نسخة من كتاب بطليوس « المجسطى » . وأكب عليها إلى حد أهمال سائر الدراسات . ولم يتخل قط عن النظرة الهندسية التى تجلت فى القرن الثانى من عصرنا .

وفى سن السادسة عشرة نقل إلى جامعة ليبزج ، حيث درس القانون بالنهار ، ودرس النجوم بالليل . وحذروه من أن مثل هذا العمل قد يؤدى إلى انحطاط فى الجسم وإنهيار فى الأعصاب . ولكن تيكو أصر وثابر ،وأنفق كل ما يحصل عليه فى شراء الآلات الفلكية . وفى ١٥٦٥ مات عمه ، تاركا له ثروة كبيرة . وأسرع تيكو ، بعد تسوية أموره ، إلى وتنبرج ، لمزيد من الرياضيات والفلك ،ثم غادرها فراراً من الطاعون ، إلى روستوك ، وهناك اشترك فى مبارزة أطاحت بجزء من أنفه ، فاتخذ أنفاً براقاً جداً من الفضة والذهب ظل به بقية حياته . وانهمك فى التنجيم وتنبأ بموت سليمان القانونى ، ليجد أن السلطان قد فارق الحياة بالفعل(٦٩). وبعد كثير من التجوال فى ألمانيا عاد إلى الدنمرك ، وشغل نفسه بالكيمياء . وأعاده إلى الفلك كشف نجم جديد فى مجموعة ذات الكرسى (١٥٧٢) . أن ملاحظاته السعيدة لهذا النجم المتنقل ، وما كتبه عنه فى أول مؤلف نشر له « النجم الجديد » أكسباه شهرة فى كل أنحاء أوربا . ولكن أزعجا بعض وجهاء الدنمرك الذين اعتقدوا أن التأليف ضرب من حب الظهور الذى لايليق بالدم الأزرق . وأذهلهم

تيكو بزواجه من بنت فلاحة . ويبدو أنه أحس بأن زوجة وربة بيت بسيطة، خير رفيق لفلكي منصرف بكليته إلى الفلك ، وأحسن صنو منفتح سمح لرجل ذى أنف ذهبي .

ولما لم يقنع تيكو بالتسهيلات الفلكية فى كوبنهاجن ، فإنه اتخذ طريقه إلى كاسل ، حيث كان الدوق وليم الرابع قد بنى ١٥٦١ أول مرصد ذى سقف دوار ، وطور يوست بورجى ساعة حائط ذات رقاص (بندول) جعلت من الميسور تحديد أوقات رصد النجوم وحركاتها فى دقة لم يسبق لها مثيل . وامتلأ تيكو حماسا جديداً فعاد إلى كوبنهاجن ، وأثار اهتمام فردريك بمشروع لإقامة مرصد . فوضع الملك تحت تصرفه جزيرة هفين (فينوس) فى مياه السوند . وأجرى عليه راتبا كبيراً،واستطاع تيكو بهذا المال بالإضافة إلى موارده الخاصة ، أن يشيد هناك قصراً وحدائق أطلق عليهما أورانيبرج (مدينة السماء) ، وكانت تضم مساكن ومكتبة ومعملا وعدة مراصد ومصنعا لما تحتاج إليه من آلات . ولم يكن لديه مقراب (تلسكوب) ، حيث كان لابد من انتظار ثمانية وعشرين عاما حتى يتم اختراعه — على أن أرصاد تيكو هى التى قادت كبلر إلى اكتشافات قيمة كانت فاتحة لعصر جديد .

وطيلة إحدى وعشرين سنة فى جزيرة هفين جمع تيكو وتلاميذه من المادة ما يفوق فى حجمه ودقته أية مادة معروفة من قبل . وسجل كل يوم ، ولعدة سنوات ، حركة الشمس الظاهرية ، وكان من أوائل الفلكيين الذين أدخلوا فى حسابهم انحراف الضوء وأخطاء الراصدين والآلات،ولذلك عاود أرصاده وملاحظاته مرات ومرات . وكشف عن التغيرات فى حركة القمر ووضعها فى صيغة قانون . وأدى به تدقيقه الشديد فى تفقد أحد المذنبات فى ١٥٧٧ إلى الاعتقاد السائد فى العالم الآن ، بأن المذنبات أجرام سماوية حقيقية تتحرك فى مدارات محددة منتظمة ، بدلا من كونها تنشأ فى الغلاف الجوى للارض . وعندما نشر تيكو الثبت الذى جمعه عن ٧٧٧ نجما ، وحددها بعناية فائقة على القبة السماوية الضخمة فى مكتبته، فإنه بذلك برر حياته .

وتوفى فردريك الثانى فى ١٥٨٨ . وكان الملك الجديد طفلا فى الحادية عشرة ، ولم يطق الأوصياء الذين تولوا الحكم صبرا على غرور تيكو براهى وحدته وإسرافه . كما فعل فردريك من قبل . وسرعان ما انخفضت المنح الحكومية ثم انقطعت فى ١٥٩٧ . فغادر تيكو الدنمرك ، واستقر به المقام فى قلعة بناتك ، بالقرب من براغ ، ضيفا على الإمبراطور رودلف الثانى الذى أمل فى الحصول منه على نبوءات تنجيمية . وأحضر تيكو آلاته وسجلاته من هيمن ، وأعلن عن مساعد . فجاءه كبلر (١٦٠٠) ، وعمل مع سيده الذى يصعب التعامل معه وإرضاؤه ، عملا متقطعا ، ولكنه كان مخلصا فيه . وفى الوقت الذى كان فيه تيكو يتوق إلى الخروج من المادة الغزيرة التى جمعها بنظرية معقولة عن السموات ، دهمه وهو جالس إلى المنضدة انفجار فى المثانة، وبقى يتلوى من الآلام لمدة أحد عشر يوما ثم فارق الحياة (١٦٠١) . وهو حزين على عدم اتمام عمله . وقال خطيب الجنـــازة أنه «لم يطمع فى شىء سوى الوقت»[٧٠] .

٨ — كبلر : ١٥٧١ — ١٦٣١

كان انتقال تيكو إلى براغ من حسن حظ العلم ، لأن كبلر ورث أرصاده وملاحظاته ، واستنتج منها قوانين الكواكب التى مهدت لنظرية نيوتن فى الجاذبية . وبجمعت ، من براهى إلى كبلر إلى نيوتن . ومن كوبرنيكس إلى جاليليو إلى نيوتن ، خطوط أساسية لتكوين علم الفلك الحديث .

ولد كبلر فى فيل Weil بالقرب من شتتجارت،وكان أبوه ضابطا فى الجيش، طالما خرج للحرب مؤثراً ميدانها على حياة المنزل ، وأخيراً عاد وافتتح حانة اشتغل يوهان نادلا فيها . وكان الصبى سقيما معتل الصحة ، شل الجدرى يديه وأضعف بأستمرار بصره . وآنس منه دوق روتنبرج أنه يمكن أن يصبح واعظا فاضلا . فتولى الانفاق على تعليمه . وفى توبنجن ، حول ميكائيل ما ستلن الذى كان يقوم بتدريس فلك بطليموس — حول كبلر سراً إلى

نظرية كوبرنيكس . وتحمس الشاب للنجوم إلى حد أنه تخلى عن التفكير فى أى عمل كنسى .

وبعد الحصول على الدرجة الجامعية أصبح كبلر مدرسا فى ستيريا ، يعلم اللاتينية والبلاغة والرياضيات مقابل ١٥٠ جلدن فى العام ، مع مسكن بالمجان ، يضاف إلى هذا ٢٠ جلدن لقاء تحرير تقويم تنجيمى سنوى . وفى سن الخامسة والعشرين تزوج كبلر من سيدة فى الثالثة والعشرين ، كانت قد شيعت زوجا لها إلى مثواه الأخير ، وانفصلت عن زوج ثان ، وقدمت له هذه السيدة مهراً وأتت إليه بابنة ، وأضاف هو ستة أطفال بمرور الزمن . وبعد سنة من الزواج أرغم كبلر على مغادرة جراز لأنه كان بروتستانتيا (١٥٩٧) ، وكان فرديناند دوق ستيريا الجديد كاثوليكيا صميما فأصدر أمره إلى كل رجال الدين والمعلمين البروتستانت بمغادرة بلاده . وكان كبلر قد اقترف إثما آخر بنشره « الكون الخفى » (١٥٩٦) الذى دافع فيه بحرارة عن نظرية كوبرنيكس ، وأرسل نسخا منه إلى تيكو وجاليليوا ملافى عونهما . وبعد سنة عانى فيها الفقر المدقع ، انقذته دعوة تيكو إياه إلى براج . ولكن كان من الصعب التعامل مع تيكو وارضاؤه . ولقى كبلر عنتا فى العقيدة وفى كسب العيش . وأنتاب الزوجة مرض عصبى . بعد ذلك توفى تيكو ، وعين كبلر خلفا له براتب سنوى قدره ٥٠٠ فلورين .

وكان تيكو براهى قد أوصى لكبلر بسجلاته ، ولم يورثه آلاته . ولما لم يستطع شراء أحسن الآلات ، فإنه وجد نفسه مسوقا إلى دراسة أرصاد تيكو وملاحظاته دون أن يضيف إليها شيئاً . وما كان له أن يقول مع نيوتن « إنى أخترع فروضا » ، بل على العكس . امتلا رأسه بالفروض وبات يهمهم بها ، « عندى ذخيرة من المخترعات أو من ثمرات الخيال[٧١] » . وكانت مهارته الفذة تكمن فى أختبار الفروض . كما تمثلت حكمته وعقله فى طرحها جانبا ، إذا ثبت أن النتائج التى توصل إليها رياضيا ، لا تتمشى مع الظواهر التى رصدها أولا حظها[٧٢] . وفى محاولته لتعيين مدار المريخ جرب ٧٠ فرضا على مدى أربع سنوات .

وفى آخر الأمر فى ١٦٠٤ توصل إلى كشفه الأساسى الممتاز الذى فتح عصراً جديدا — وهو أن مدار المريخ حول الشمس عبارة عن قطع ناقص ، وليس دائرة ، كما ظن الفلكيون ابتداء من أفلاطون ومن جاء بعده بما فيهم كوبر نيكس . فالمدار المتخذ شكل القطع الناقص هو الوحيد الذى ينسجم مع الأرصاد المتكررة التى قام بها تيكو وغيره . وقفز ذهن كبلر المتوقد الذكاء إلى التساؤل : ماذا لو كانت مدارات كل الكواكب على شكل قطع ناقص ؟ وبادر إلى تفحص الفكرة على أساس الملاحظات والأرصاد المدونة ، فاتفقت معها اتفاقا يكاد يكون تاما . وفى رسالة باللاتينية عن حركات المريخ « الفلك الجديد وحركة المريخ » . (١٦٠٩) نشر أول قانونين من « قوانين كبلر » أولهما : أن كل كوكب يدور فى مدار على شكل قطع ناقص ، الشمس إحدى بؤرتيه ، والثانى أن سرعة دوران الكوكب تزيد كلما قرب من الشمس ، لا كلما ابتعد عنها ، وأن نصف القطر الذى يمتد من الشمس إلى الكوكب يقطع ، فى دورانه مسافات متساوية فى أزمنة متساوية ، وعزا كبلر الاختلافات فى سرعة الكواكب إلى زيادة انبثاق الطاقة الشمسية التى يحسها الكوكب كلما اقترب من الشمس ، ومن هذه الناحية طور كبلر عن جلبرت فكرة الجذب المغناطيسى وهى قريبة جدا من نظرية نيوتن فى الجاذبية .

وعند موت الامبراطور رودلف (١٦١٢) انتقل كبلر إلى لنز ، وعاد ثانية إلى العيش على التعليم فى المدارس ، وماتت زوجته فتزوج من بنت فقيرة يتيمة . وفيما كان يزود بيته الجديد بالخمر ، افتتن بالصعوبة التى لقيها فى تقدير محتويات قنينة ذات جوانب منحنية . وساعد البحث الذى نشره عن هذه المسألة على التمهيد لاكتشاف حساب التفاضل (الكميات المتناهية الصغر) .

وبعد أن فكر كبلر لمدة عشر سنوات تفكيرا عميقا فى إيجاد العلاقة بين سرعة الكوكب وحجمه ، نشر فى كتابه « تناسق الكون » (١٦١٩) قانونه الثالث ، مربع زمن دورة الكوكب حول الشمس يتناسب مع الجذر التكعيبى

لمتوسط بعده عن الشمس (مثال ذلك . أن زمن دورة المريخ يمكن إثبات أنه ١٫٨٨ من زمن دورة الأرض ، ومربع هذا هو ٣٫٥٣ والجذر التكعيبي لهذا هو ١٫٥٢ ، أى أن متوسط المسافة بين المريخ والشمس يصبح ١٫٥٢ من المسافه بين الأرض والشمس . وكان لكبلر أن يبتهج أيما ابتهاج لوضعه دوران الكواكب بمثل هذا الترتيب والانتظام إلى درجة أنه شبه كل سرعة فى المدار بنغمة على السلم الموسيقى ، وانتهى إلى أن الحركات مجتمعة شكلت « تناغم النجوم » الذى لاتسمعه ، على أية حال ، إلا « روح » الشمس . ومزج كبلر علمه بالتصوف موضحا مرة أخرى مقالة جوته الكريمة . إن عيوب الإنسان هى أخطاء زمانه ، على حين أن فضائله هى من عنده . ويمكن أن نغتفر غروره حين كتب فى مقدمة « تناسق الكون » ،

أن ما وعدت به أصدقائى فى عنوان هذا الكتاب . ، . وما أثرته منذ ١٦ عاما كموضوع يستحق البحث . وهو الذى من أجله انضممت إلى تيكوبراهى . . . وهو الذى خصصت له أحسن سنى حياتى ، ، . . قد أخرجته اليوم إلى النور . . . لم تمض بعد ثمانية عشر شهرا حين سقطت الشمس المشرقة على ... ان يعوقنى شىء ، سوف أطلق العنان لثورتى المقدسة . . . إذا غفرتم لى فلسوف أبتهج . . ولئن غضبتم فلسوف أحتمل غضبكم . . . سبق السيف العذل . لقد وضع الكتاب ، وليس يهمنى كثيرا أن يقرأ الآن ، أو أن تقرأه الذرارى والأعقاب ، ولم لا ينتظر قرنا ليجد قارئا ، كما انتظر « الله » الاله ستة آلاف عام حتى وجد مستكشفا[٧٣] .

وفى « خلاصة فلك كوبرنيكس » (١٦١٨ — ١٦٢١) أوضح كبلر كيف أن قوانينه أيدت وشرحت وأصلحت من نظرية كوبرنيكس ، فقال « لقد شهدت من أعماق نفسى بأنها صحيحة ، وإنى لأتأمل جمالها فى ابتهاج غامر لا يكاد يصدق[٧٤] » ووضعت الرسالة فى عداد الكتب المحظورة لأنها نمت

عن أن نظرية كوبرنيكس كانت قد أثبتت . ولم ينزعج كبلر ، وهو البروتستانتى الورع . وعاش لفترة قصيرة فى بحبوحة من العيش وسط التهليل والتصفيق . وكان بصفة عامة يتقاضى راتبه بوصفه فلكى الامبراطور ، ومن بريطانيا الثانية دعاه جيمس الأول (١٦٢٠) ليذهب إلى هناك ليزدان به البلاط الملكى ولكنه رفض الدعوة خشية أن يعانى من أن يصبح حبيسا فى جزيرة[٧٥] .

وشارك كبلر أهل زمانه فى الإيمان بالسحر ، واتهمت أمه بممارسته . وادعى بعض الشهود أن ماشيتهم ، بل أنهم هم أنفسهم ، قد انتابتهم العلل لمجرد أن « فرو كبلر » قد مستهم ، وأقسمت إحدى المشاهدات على أن ابنتها البالغة من العمر ٨ سنوات قد أصابها سحر أم كبلر بالمرض ، وهددت بقتل الساحرة إذا لم تبادر بإبراء البنت . وأنكرت المرأة المتهمة كل ما نسب إليها ، ولكن قبض عليها وأودعت السجن مكبلة فى الأغلال ، ودافع عنها كبلر فى كل مراحل نظر الدعوى . واقترح المدعى العام فى الولاية أن ينتزع عنها الاعتراف بالتعذيب ، واقتيدت إلى غرفة التعذيب لترى الآلات المستخدمه فيه ، ولكنها ظلت تؤكد براءتها . وأفرج عنها بعد أن قضت فى السجن ثلاثة عشر شهرا . ولكنها ما لبثت أن ماتت (١٦٢٢) .

أن هذه المأساة بالاضافة إلى آثار نشوب الحرب هنا وهناك ، ملأت سنى كبلر الأخيرة بالغم والقتام . وفى ١٦٢٢ احتلت القوات الامبراطورية مدينة لنز وقارب سكانها أن يهلكوا جوعا . وفى وسط هذه الفوضى واصل كبلر صياغة أرصاده وملاحظاته ، وأرصـــاد تيكو وغيره من الفلكيين وملاحظـاتهم ، وتدوينها فى « الجداول الرودلفية » التى ضمت وصنفت ١٠٠٥ نجما ، وبقيت ذات قيمة معترف بها لمدة قرن من الزمان . وفى ١٦٢٦ انتقل إلى أولم . وأبطأ به راتبه الامبراطورى ولاقى عنتا شديداً فى الانفاق على أسرته . وأهاب بدوق والنشتين أن يعينه منجما ، فكان له ما أراد ، وظل لعدة سنوات يتبع القائد يحسب له الطالع وينشر التقاويم التنجيمية . وقصد فى ١٦٣٢ إلى رجنز برج يلتمس من الديت أن يدفع له رواتبه المتأخرة .

واستنزفت الجهود ما بقى له من قوى جسمية ، فإنتابته الحمى ، وأودت بحياته فى أيام قلائل (١٥ نوفمبر ١٦٣٠) وهو فى التاسعة والخمسين من العمر وقد طمست الحرب كل معالم قبره .

وكانت رسالته فى تاريخ الفلك أن يتوسط بين كوبرنيكس ونيوتن . وتقدم على كوبرنيكس بإحلاله المدارات ذات القطع الناقص محل المدارات الدائرية ، وبالتخلى عن الانحرافات وأفلاك التدوير ، وفى وضعه الشمس فى إحدى بؤرتى القطع الناقص ، لا فى مركز دائرة . وبهذه التغييرات خلص نظرية كوبرنيكس من الصعاب التى كادت تبرر رفض تيكو براهى لها . وعن طريقه بدأت الآن فكرة القياس من مركز الشمس تلقى قبولا وتنتشر إنتشاراً واسعا . وحول ما كان مجرد حدس براق ، إلى فرضية مصوغة فى تفصيل رياضى . وأمد نيوتن بقوانين الكواكب التى قادته إلى نظرية الجاذبية . وعلى حين احتفظ كبلر بعقيدته الدينية راسخة لا تتزعزع ، أظهر أن الكون كيان له قانون ، ونظام كامل متناغم متناسق ، فيه قوانين تحكم الأرض كما تحكم هى نفسها النجوم . وهو يقول «أن كل ما أصبوا إليه أن أدرك كنه الذات الآلهية . فأنى أجد الله فى الكون الخارجى مثلما أجده فى داخلى أنا »[٧٦] .

٩ — جاليليو : ١٥٦٤ — ١٦٤٢ :

١ — الفيزيائى :

ولد جاليليو جاليلى فى بيزا يوم وفاة ميكلانجو (١٨ فبراير ١٥٦٤) ، فى نفس العام الذى ولد فيه شكسبير . وكان أبوه فلورنسيا مثقفاً أسهم فى تعليمه اليونانية واللاتينية والرياضيات والموسيقى . ولم يكن من قبيل العبث أن يكون جاليليو ، على وجه الدقة تقريباً ، معاصراً لمنتفردى (١٥٦٧ — ١٦٤٣) لأن الموسيقى كانت من ضروب عزائه وسلواه الدائمة ، وبخاصة فى سنى شيخوخته التى فقد فيها بصره ، فعزف على الأرغن عزفا جديراً بالاكبار والتقدير ،

وعزف على العود عزفا جيداً . وأحب الرسم والتصوير ، وأبدى فى بعض الأحيان أسفه أنه لم يصبح فنانا . وفى إيطاليا العجيبة التى قضى فيها شبابه ، ظل تيار النهضة يلفح الوجوه موحيا إلى الناس بالكمال . وحزن جاليليو لأنه لم يتيسر له أن يصمم معبداً أو ينحت تمثالا أو يصور لوحة أو ينظم شعراً أو يؤلف موسيقى أو يقود سفينة(٧٧) ، لقد هفت نفسه إلى أن يقوم بهذا كله ، وإنا لنحس حين ندقق النظر فيه أنه لم يكن يعوزه إلا الوقت . وكان يمكن تحت أى الظروف على إختلافها ، أن يكون مثل هذا الانسان رجلا عظيما فى أية ناحية من النواحى . ونزع جاليليو فى صباه ، بطبيعته أو بحكم الظروف إلى صنع الالآت واللعب بها .

وأرسل وهو فى السابعة عشرة إلى جامعة بيزا ليدرس الطب والفلسفة . وبعد سنة واحدة أنجز كشفه العلمى الأول — وهو إن تأرجحات البندول ، بصرف النظر عن إتساعها ، تستغرق نفس الوقت . وبإطالة ذراع البندول أو تقصيره أمكنه أن ينقص أو يزيد من معدل ذبذبته حتى تزامنت مع نبضه ، وبهذه « البلسيلوجيا » (علم النبض) استطاع أن يقيس ضربات القلب بدقة .

وحوالى هذا الوقت اكتشف أقليدس ، حيث استمع مصادفة إلى معلم يدرس الهندسة لغلمان دوق تسكانيا الأكبر ، فبدا له أن منطق الرياضيات أسمى ، بما لا يقاس ، من الفلسفة الاسكولاستية (الفلسفة النصرانية فى القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة) وفلسفة أرسطو ، اللتين تلقاهما فى قاعة الدرس فانصرف خفية ، وفى يمناه « مبادىء » إقليدس ، إلى متابعة دروس معلم الغلمان واهتم به المعلم ، ولقنه الدروس سرا . وفى ١٥٨٥ ترك جاليليو جامعة بيزا دون أن يحصل على درجة وانتقل إلى فلورنسة ، وبتوجيه من المعلم انصرف فى ولع شديد إلى الرياضيات والميكانيكا . وبعد ذلك بعام واحد اخترع ميزانا هيدروستاتيا ليقدر الأوزان النسبية للمعادن فى سبيكة وأثنى عليه وامتدحه كلافيوس الجزويتى لبحث فى مركز الجاذبية فى الأجسام الصلبة . وفى تلك الأثناء انحطت موارد أبيه ، وكان عليه أن يواجه الالتزام بكسب قوته بنفسه

فتقدم بطلبات للتدريس فى بيزا وفلورنسة وبادوا ، فرفضوا تعيينه لصغر سنه وفى ١٥٨٩ ، بينما كان هو وأحد أصدقائه يسعيان للحصول على عمل فى القسطنطينية وفى الشرق ، نمى إلى علمه خلو كرسى الرياضيات فى بيزا . فتقدم لشغله ، وهو قليل الرجاء فى الحصول عليه . وكان بعد فى الخامسة والعشرين . وعين فى هذا المنصب لمدة ثلاث سنوات براتب قدره ٦٠ سكودى فى العام . وكاد بهذا الراتب أن يتضور جوعا . ولكنه استطاع أن يكشف عن نشاطه وجلده .

لقد اشتد عوده إلى حد كبير ، فبدأ لفوره ، من منصة التدريس ، فى شن الحرب على فيزياء أرسطو . لقد قال الإغريق « بأن الحركة إلى أسفل لأية كتلة من الذهب أو الرصاص أو أى جسم آخر يهبط نتيجة تنقله ، أسرع بالنسبة لحجمه(٧٨) . وذهب لكريشيس(٧٩) وليونارد ودافنشى(٨٠) إلى هذا الرأى . وفى الأزمنة القديمة نفسها ناقش هبارخس (حوالى ١٣٠ ق . م) رأى أرسطو عن هبوط الأجسام بفعل الثقل » . وذهب يؤانس فيليبونس (٥٣٣) وهو يعلق على أرسطو « إلى أن الفرق الزمنى بين سقوط جسمين وزن أحدهما ضعف وزن الآخر » ، « هو لاشىء البتة ، أو أنه فرق ضئيل جدا لا يمكن(٨١) ادراكه وهنا نأتى إلى قصة مشهورة ، ولو أنها محل نزاع ، وردت أولا فى سيرة حياة جاليليو ، التى كتبها صديقة فنشنزو فيفيانى فى ١٦٥٤ (بعد ١٢ عاما من وفاة جاليليو) ، مدعيا أنها مستقاة من كلام جاليليو نفسه .

ما كان أشد فزع الفلاسفة كلهم ، حين أثبت جاليليو أن كثيرا جدا من النتائج التى استخلصها أرسطو ، زائفة ، عن طريق التجارب والبراهين الدامغة ... من ذلك أن سرعة الأجسام المتحركة من مادة واحدة ، ولكن مختلفة الوزن ، ومتحركة فى نفس الوسط لا تحتفظ بالتبادل بتناسب وزنها . كما قال أرسطو . ولكنها كلها تتحرك بنفس السرعة . مدللا على ذلك بتكرار التجارب من فوق برج بيزا ، بحضور

سائر المعلمين وكل الفلاسفة والطلبة ... أنه عزز مكانة كرسي التدريس وحظي بشهرة أهاجت حقد الفلاسفة منافسيه عليه حتى ثاروا ضده[٨٢].

أن جاليليو نفسه لم يذكر شيئا عن تجربة بيزا في كتاباته الباقية . كما أنه لم يرد ذكرها فيما دونه إثنان من معاصرية في ١٦١٢ و ١٦٤١ عن تجاربهما الخاصة بهما في إسقاط أجسام مختلفة الوزن من فوق البرج المائل[٨٣] ورفضت قصة فيفياني على أنها أسطورة من نسج بعض الباحثين في ألمانيا وأمريكا * . وليس من المؤكد كذلك أن زملاءه الأساتذة في بيزا استاءوا . وترك هذه الجامعة في صيف ١٥٩٢، وربما كان السبب في ذلك أنه عرض علية مركز أعلي ومرتب أكبر ، فنراه في سبتمبر أستاذا في بادوا يدرس الهندسة والميكانيكا والفلك ، وقد حول داره إلى معمل دعا إليه طلبته وأصدقاءه . وتجنب الزواج ولكنه اتخذ عشيقة أنجبت له ثلاثة أطفال .

ووضع جاليليو ما جمعه من أبحاث وتجارب ، في كتابه « محاورات حول علمين جديدين » ، وذلك في أيامه الأخيرة ، قبيل وفاته ، ويقصد بهذين العلمين الاستاتيكا والديناميكا وأثبت عدم قابلية المادة للفناء . وصاغ قواعد الرافعة والبكرة . وأوضح أن سرعة سقوط الأجسام سقوطا مطلقا تزيد بنسبة

(*) إن كتابات أرسطو هي في الغالب ملاحظات موجزة ، ربما توسع فيها أو عدلها في محاضراته . وربما قصد بقطعة «De Coelo» أنه في وسط مقاوم ، كما في ذلك الهواء الطلق ، تسقط الأشياء ذات الكتلة المكثفة مثل قطعة النقود ، أسرع ما تسقط الأسياء ذات الحجم الكبير والوزن الصغير مثل قطعة الورق . وهذا بطبيعة الحال صحيح . ولكن في فراغ ، تسقط قطعة النقود والورقة أو كرة من الرصاص وريشة ، بنفس السرعة . بل أنه حتى في الهواء الطلق ، فإن قطعة الورق إذا تنضلت في كتلة متضامة تسقط بنفس السرعة التي تسقط بها العملة تقريبا . وإذا لحظنا التعديل في بيان فيفياني أن الأشياء يجب أن تكون من نفس المادة ... وأن تسقط في نفس الوسط ، فإن الهوة بين فيلسوف اليونان وعالم بيزا تضيق كثيرا .

منتظمة . وقام بتجارب كثيرة على مستويات مائلة ، وحاول أن يبرهن على أن أى جسم يتدحرج إلى أسفل على مستوى ما يمكن أن يصعد على مستوى مائل إلى ارتفاع مماثل لسقوطه لولا الاحتكاك أو أية مقاومة أخرى. وانتهى إلى قانون القصور الذاتى (وهو أول قوانين نيوتن للحركة) — وهو أن أى جسم متحرك، يستمر بشكل غير محدود فى نفس الخط وبنفس معدل الحركة ، مالم تتدخل معه قوة خارجية[٨٤] وأثبت أن أية قذيفة تدفع فى اتجاه أفقى تسقط إلى الأرض فى منحن قطعى مكافىء يقابل قوة الدفع وقوة الجاذبية . وحول العلامات الموسيقية إلى مسافات موجبة فى الهواء ، وأوضح أن درجة النغم تعتمد على عدد الذبذبات التى يحدثها الوتر المعزوف فى وقت محدد. وقال بأن النغمات تبدو متوافقة متآلفة إذا طرقت الذبذبات الآذان فى انتظام إيقاعى[٨٥] . إن خواص المادة لا تكون إلا للمادة التى يمكن معالجتها رياضيا — التمدد ، الوظيفة ، الحركة الكثافة . اما الخواص الأخرى — الأصوات والطعم والرائحة والألوان وما إليها ، فإنها تستقر فى الشعور فقط ، فإذا فنيت المخلوقات الحية انمحت هذه الصفات وأبطلت[٨٦] ، وراوده الأمل فى أن هذه « الصفات الثانوية » يمكن بمرور الزمن تحليلها إلى خواص طبيعية أولية للمادة والحركة ، ويمكن قياسها رياضيا[٨٧] .

وتلك إضافات أساسية مثمرة للعلم ، عوقها عدم كفاية الآلات والأجهزة العلمية . ومن ذلك أن جاليليو استخف بعامل مقاومة الهواء فى سقوط الأجسام والقذائف . ولكن ما من رجل ، منذ أرشميدس ، أدى للفيزياء مثلما أدى جاليليو .

٢ — الفلكى :

كان جاليليو ، فى أخريات أيام إقامته فى بادوا ، يخصص جزءا أكبر فأكبر من وقته للفلك . وفى ١٥٩٦ كتب إلى كبلر (الذى يصغره بسبع سنين) رسالة يشكره فيها على كتابه « الكون الخفى » جاء فيها : —

إنى لأعتبر نفسى سعيدا لأجد فى شخصك زميلا عالما مثلك ، فى بحثى عن الحقيقة . . . وسأعكف على قراءة كتابك تحدونى كل الرغبة فى استيعاب ما فيه ، لأنى كنت لعدة سنوات من أنصار نظرية كوبرنيكس ، ولأنه (أى الكتاب) يكشف لى عن أسباب كثير من الظواهر الطبيعية البالغة الابهام والتى لا يمكن فهم كنهها فى ضوء الفرضية المقبولة عامة . ودحضا لهذه الفرضية جمعت براهين كثيرة . ولكنى لا أنشرها ، حيث يثنينى عن نشرها حظ أستاذنا كوبرنيكس الذى حظى لدى نفر قليل من الناس بشهرة خالدة ، ولكن لقى تجريحا واستنكارا من كثرة لا يحصى عديدها (لأن عدد الأغبياء كبير جدا) .

وقد أتجاسر على نشر تأملاتى إذا كثر أمثالك[٨٨] .

وأعلن جاليليو إيمانه بنظرية كوبرنيكس فى محاضرة ألقاها فى بيزا ١٦٠٤ وصنع فى ١٦٠٩ أول مقراب (تلسكوب) له ، وفى ٢١ أغسطس عرضه على السلطات الرسمية فى البندقية وإليك روايته فى هذه المناسبة : —

أن كثيرا من النبلاء وأعضاء السناتو ، برغم كبر سنهم ، صعدوا أكثر من مرة إلى قمة أعلى كنيسة فى البندقية (سان مارك) لكى يروا الأشرعة والمراكب . . . وهى بعيدة جدا بحيث لا بد من انقضاء ساعتين قبل رؤيتها بغير منظارى المقرب . . . لأن تأثير آلتى يصل إلى حد أن أى جسم على مسافة خمسين ميلا . يظهر كبيرا كما لو كان على مسافة خمسة أميال فقط . . . إن السناتو الذى عرف كيف نهضت بخدمته لمدة سبعة عشر عاما فى بادوا . . . أصدر أمرا باختيارى للأستاذية مدى الحياة[٨٩] .

وأدخل جاليليو على تلسكوبه من التحسينات ما جعله يكبر الأشياء ألف مرة . وذهل لما رأى من عالم جديد من النجوم التى تبلغ عشرة أمثال ما دون عنها من قبل . وشوهد أن المجموعات الآن تحتوى على عدد كبير من النجوم لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، ورئى أن «بنات أطلس» ستة وثلاثون

بدلا من سبع ، وأن « كوكبة الجبار» ثمانون بدلا من سبع وثلاثين ، وظهرت « المجرة » ، لا كتلة سديمية ، بل غابة من النجوم الكبيرة أو الصغيرة . ولم يعد القمر سطحا أملس ، بل تغضن من الجبال والأودية ، ويمكن أن يفسر ضوؤه فى نصفه غير المواجه للشمس بأنه ، بصفة جزئية ، راجع إلى ضوء الشمس المنعكس من الأرض . وفى يناير ١٦١٠ اكتشف جاليليو أربعة من « الأقمار » التسعة ، أو توابع المشترى . وكتب يقول : « هذه الأجسام الجديدة تدور حول نجم آخر كبير جدا ، مثلما يدور حول الشمس ، عطارد والزهرة ، وربما غيرهما من الكواكب الأخرى المعروفة[٩٠] » وفى يولية اكتشف دائرة زحل الذى ظنه خطأ ثلاثة نجوم . وكان نقاد كوبرنيكس قد قالوا بأنه إذا كانت الزهرة تدور حول الشمس ، فلا بد أن يكون لها ، مثل القمر ، أوجه — أى تغييرات فى النور وأشكال ظاهرية ، وقالوا بأنه لا توجد أية علامة على هذه التغييرات . ولكن فى ديسمبر كشف تلسكوب جاليليو عن مثل هذه الأوجه ، واعتقد بأنه لا يمكن تفسيرها إلا بدوران الكوكب حول الشمس .

إننا لا نكاد نصدق ، ولكن جاليليو أكد فى رسالة إلى كبلر ، أن أساتذة بادوا أبوا أن يؤمنوا بصحة كشوف جاليليو ، بل أبوا أن يشاهدوا السموات من خلال مناظيره[٩١] . لقد سئم الحياة فى بادوا وتطلع إلى مناخ علمى أفضل فى فلورنسه (التى كانت الآن تتحول من الفن إلى العلم) فأطلق على توابع المشترى اسم « سيديرا مديشيا » وهو اسم كوزيمو الثانى دوق تسكانيا الأكبر وفى مارس ١٦١٠ أهدى إلى كوزيمو رسالة باللاتينية (Sidereus nuncius) لخص فيها كشوفه الفلكية . وفى شهر مايو كتب إلى سكرتير الدوق رسالة تلتهب بمثل الحماسة والزهو اللذين فاضت بهما رسالة ليوناردو إلى دوق ميلان فى ١٤٨٢ . وعدد فيها الموضوعات التى كان يدرسها ، والكتب التى يأمل أن يدون فيها ما انتهى إليه من نتائج ، وتساءل هل فى مقدوره أن يحصل له من سيده على وظيفة تتطلب أقل الوقت للتدريس وأكثر الوقت للبحث . وفى

يونية عينه كوزيمو « كبير الرياضيين فى جامعة بيزا ، وكبير الرياضيين فى والفلاسفة لدى الدوق الأكبر » ، براتب سنوى قدره ألف فلورين ، دون التزام بالقيام بالتدريس . وفى سبتمبر انتقل جاليليو إلى فلورنسه ، دون أن يصطحب معه خليلته .

وكان قد أصر على لقب الفيلسوف ولقب الرياضى على السواء ، لأنه أراد أن يؤثر فى الفلسفة والرياضيات كلتيهما . وأحس ، كما أحس راموس وبرونو وتلزيو وغيرهم من قبل ، وكما كان يدلل بيكون فى نفس هذا العقد من السنين . على أن الفلسفة (التى فهمها على أنها دراسة وتفسير للطبيعة فى جميع مظاهرها) قد ارتمت فى أحضان أرسطو ، وأنه قد حان الوقت للتحرر من الأربعين مجلدا اليونانية ، وللنظر إلى العالم بمقولات أكثر انطلاقا وعيون وعقول مفتوحة . أنه يمكن القول بأنه وثق بالعقل ثقة كبيرة . « إنى لكى أثبت لخصومى صحة النتائج التى انتهيت إليها ، اضطررت إلى أن أثبتها بتجارب كثيرة مختلفة . ولو أنى أنا وحدى لم أحس قط بأنه من الضرورى أن أقوم بتجارب كثيرة[٩٢] .

وكان فيه من الغرور وروح المشاكسة ما يتسم به المبتكرون المجددون ، ولو أنه تحدث أحيانا فى تواضع حكيم ، « ما قابلت قط يوما رجلا جاهلا إلا تعلمت منه شيئاً[٩٣] » . وكان مجادلا عنيداً بارعا فى طعن غريمه بعبارة ، أو سلقه بألسنة حداد . وعلى هامش كتاب للجزويتى أنطونيو روتشو يدافع فيه عن فلك بطلميوس ، كتب جاليليو : « جاهل ، فيل ، أحمق ، غبى ، خصى[٩٤] » .

ولكن هذا كان بعد انضمام الجزويت إلى إتهامه ، وقبل اصطدامه بمحكمة التفتيش كان له أصدقاء كثيرون فى « جماعة يسوع » ، وعمد كريستوفر كلافيوس إلى إثبات ملاحظات جاليليو بملاحظاته هو نفسه . وأطنب جزويتى آخر فى مدح جاليليو على أنه أعظم الفلكيين فى ذاك العصر . وثمة لجنة من الباحثين الجزويت ، عينها الكردينال بللارمين لفحص كشوف جاليليو ،

فكتب تقريراً أيدت فيه كل النقاط[٩٥] . وعندما قصد إلى رومه فى ١٦١١ أكرم الجزويت وفادته على أنه « زميل رومانى » لهم . وكتب يقول : « أقمت مع الآباء اليسوعيين وكانوا قد تحققوا من الوجود الفعلى للكواكب الجديدة ، وظلوا يوالون رصدها لمدة شهرين ، وقارنا ملاحظاتنا وأرصادنا فوجدناها متفقة كل الاتفاق[٩٦] » ورحب به كبار رجال الكنيسة ، وأكد له البابا بول الخامس شعوره الطيب الذى لا يتغير نحوه ورضاه عنـــه[٩٧] .

وفى أبريل عرض على المطارنة والأساقفة ورجال العلم فى رومه نتائج أرصاده التى كشفت عن وجود البقع الشمسية التى فسرها هو بأنها سحب . ومن الواضح أن جاليليو كان يجهل أن يوهان فابريكيوس كان قد أعلن بالفعل عن كشفها فى بحثه « البقع الشمسية » (ويتنبرج ١٦١١) ، واستبق جاليليو فيما استخلصه من أن « دورية » البقع تدل على دوران الشمس ، وفى ١٦١٠ وجه كرستوف شينر أستاذ الرياضيات الجزويتى فى انجلوستاد ، إلى ماركوس ولزر كبير القضاة فى أوجزبرج ، ثلاث رسائل زعم فيها أنه كشف البقع الشمسية فى أبريل ١٩١١ . فلما عاد جاليليو إلى فلورنسه تلقى من ولزر نسخة من رسائل شينر ، وناقشها فى بحث له « ثلاث رسائل عن البقع الشمسية » نشرته أكاديمية دى لنسى فى رومه ١٦١٣ ، وزعم أنه رصد البقع فى ١٦١٠ ، وعرضها على الأصدقاء فى بادوا . وفى ملحمة ادعاء السبق إلى كشف البقع تخلخلت أواصر الصداقة بين جاليليو والجزويت .

واقتناعا من جاليليو بأنه يمكن تفسير كشوفه على أساس من نظرية كوبرنيكس ، شرع يتحدث عن النظرية على أنها قد تم إثبات صحتها . ولم يكن لدى الفلكيين اليسوعيين أى اعتراض على اعتبارها مجرد فرضية . وأرسل شينر اعتراضاته على آراء كوبرنيكس مع رسالة يستميله ويسترضيه فيها : « إذا أردت أن تتقدم بحجج مضادة فإنها لن تسىء إلينا فى شىء ، بل على

النقيض من ذلك ، إن كل هذا سيعيننا على إظهار الحقيقة[٩٨] . وأحس كثير من رجال اللاهوت أن فلك كوبرنيكس كان واضحا كل الوضوح أنه لا يتفق مع ما جاء فى الكتاب المقدس . وأن الكتاب المقدس سوف يفقد قيمته وأن المسيحية نفسها سوف تتأثر إذا انتشرت آراء كوبرنيكس . ماذا يمكن أن يصيب العقيدة المسيحية الأساسية إذا كان الله سبحانه وتعالى قد اختار كوكب الأرض مقرا (كرسيا) دنيويا له — هذه الأرض التى يريدون اليوم أن يجردوها من مكانتها السامية ومنزلتها الرفيعة ، وتوضع طليقة بين كواكب أكبر منها مرات كثيرة ، وبين نجوم لا حصر لها ؟ » .

٣ — فى المحاكمة :

واجه جاليليو هذه المشكلة فى عناد وتشدد . وفى ٢١ ديسمبر ١٦١٣ كتب إلى الأب كاستللى : « حيث أن الكتاب المقدس يتطلب تفسيرا يختلف عن المعنى المباشر للألفاظ (مثلما يحدث عند تحدثه عن غضب الله ، وبغضه وتأنيبه ويديه وقدميه) . فإنه يبدو لى ليس للكتاب المقدس كبير شأن فى حال الجدل والمناظرات الرياضية ... وأعتقد أن العمليات الطبيعية التى ندركها بالرصد الدقيق أو الملاحظة الدقيقة ، أو نستنتجها بالدليل المقنع . لا يمكن دحضها أو تنفيذها بآيات من الكتاب المقدس[٩٩] . وانزعج الكاردينال بللارمين ، وبعث إلى جاليليو عن طريق أصدقاء الطرفين ، بعتاب قاس ، وكتب إلى فوسكارينى تلميذ جاليليو يقول : « يبدو لى أنه ينبغى أن أنصحكما ، أنت وجاليليو ، ألا تتحدثا بمثل هذه اللهجة القاطعة (عن الفلك الجديد وكأنه قد ثبتت صحته) ، بل على سبيل الافتراض فحسب ، وهو ما أنا مقتنع بأن كوبرنيكوس نفسه قد فعل من قبل[١٠٠] » .

وفى ٢١ ديسمبر ١٦١٤ بدأ الهجوم توماسوكاتشينى ، وهو واعظ دومنيكانى ، اتخذ تورية بارعة من آية الانجيل « أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء » (أعمال الرسل ١ — ١١) ومضى يوضح أن نظرية

كوبرنيكس تتعارض تعارضا تاما لا يقبل الجدل مع الكتاب المقدس وأرسل معارضون أقل شأنا بشكاوي إلى محكمة التفتيش ، وفى ٢٠ مارس ١٦١٥ أودع كاسينى اتهاما رسميا ضد جاليليو فى المحكمة ، فكتب المونسنيور دينى إلى جاليليو أنه لن يمس بسوء إذا وضع فى منشوراته بعض عبارات تشير إلى أن رأى كوبرنيكس هو مجرد فرضية[١٠١] . ولكنه أبى ، كما قال ، لن يعدل أو يخفف من كوبرنيكس . «فى رسالة نشرت فى ١٦١٥ ، كتب إلى دوقة تسكانيا الكبرى يقول : « بالنسبة لترتيب أجزاء الكون ، أعتقد أن الشمس قائمة دون حركة فى مركز دوران الأجرام السماوية * . على حين أن الأرض تدور على محورها كما تدور حول الشمس[١٠٢] ، ثم مضى يمعن فى الهرطقه :

« إن الطبيعة عنيدة ثابتة لا تتغير ، ولا تتجاوز قط القوانين التى فرضت عليها . ولا تكترث فى قليل ولا كثير بأن الناس لا يفهمون أسبابها ولا مناهجها العويصة المبهمة . ومن ثم فإنه يبدو أنه ليس ثمة شىء طبيعى تضعه التجربة الحسية أمام أعيننا ، أو تثبته لنا البراهين الضرورية ، ينبغى أن يكون محل نزاع بمقتضى نصوص الكتاب المقدس ، التى قد يكون لها معنى مختلف كامن وراء الألفاظ » .

على أنه وعد بالامتثال للكنيسة :

إنى أعلن (ولسوف يتضح صدق وإخلاصى) لا مجرد أنى أقصد أن أستسلم حرا مختارا وأعترف بأخطائى التى يمكن أن أقع فيها فى هذا النقاش ، نتيجة الجهل بأمور تتعلق بالدين ، بل أنى كذلك لا أحب أن أدخل فى نزاع حول هذه الأمور مع أى إنسان كان . . . وهدفى

(*) من سخرية التاريخ أن هذه قضية لا يؤمن بها اليوم أى فلكى ، وربما كان الفلك بأسره ، مثل التاريخ برمته ، يجب أن يؤخذ على أنه مجرد فرضية . وليس ثمة تيقن من العالم الاخر ، كما أنه ليس ثمة تيقن من الأمس .

الوحيد هو أنه إذا وجد من بين الأخطاء التي قد تكثر في بحث موضوع بعيد عن اختصاصي ، أي شيء يفيد الكنيسة المقدسة في اتخاذ قرار يتعلق بمنهج كوبرنيكس ، فيمكن أن تأخذه وتنتفع به ، كما يحلو لرؤسائها ، وإلا فليمزق كتابي ويحرق . لأني لا أقصد ولا أزعم أن أجني ثمارا تجانبها التقوى والكثلكة[١٠٣] .

ولكنه أضاف : « أني لا أشعر بأني مضطر إلى الايمان بأن الله الذي أمدنا بالاحساس والعقل والفكر ، قصد بنا أن نضيع فرصة استخدامها والانتفاع بها[١٠٤]

وفي ٥ ديسمبر ١٦١٥ قصد إلى رومة من تلقاء نفسه مزوداً برسائل ودية من الدوق الأكبر إلى ذوي النفوذ من المطارنة والأساقفة ، وإلى سفير فلورنسة في الفاتيكان . وفي رومة أخذ جاليليو على عاتقه أن يحول الرجال الرسميين عن رأيهم فرادى ، وعرض نظرية كوبرنيكس كلما سنحت له فرصة وفي كل مناسبة ، وسرعان ما بات « كل فرد في رومة يبحث في النجوم[١٠٥] . وفي ١٦ فبراير ١٦١٦ أصدرت محكمة التفتيش توجيهاتها إلى الكاردينال بللارمين بأن يستدعي من يدعى جاليليو وينذره بأن يتخلى عن آرائه المزعومة ، وفي حالة امتناعه ... يعلنه أمام كاتب العدل وبعض الشهود بالأمر بالاقلاع عن تدريس آراء كوبرنيكس أو الدفاع عنها ، بل حتى مناقشتها ، فإذا لم يذعن لهذا يودع السجن[١٠٦] . وفي اليوم ذاته مثل جاليليو أمام الكاردينال بللارمين وأعلن امتثاله للأمر[١٠٧] . وفي ٥ مارس أصدرت المحكمة قرارها التاريخي :

> إن الفكرة التي تقول بأن الشمس تقف بلا حركة وسط الكون فكرة سخيفة ، وهي من الناحية الفلسفية فكرة زائفة ، وهي كذلك هرطقة لا جدال فيها ، لأنها تناقض النصوص المقدسة . والفكرة التي تقول بأن الأرض ليست مركزا للكون بل حتى أن لها دورة يومية ، زائفة من الناحية الفلسفية ، وأنها على الأقل اعتقاد خاطىء[١٠٨] .

وفي نفس اليوم حرمت « لجنة فهرست الكتب الممنوعة » نشر أو قراءة

أى كتاب يدافع عن النظريات الممنوعة ، أما بالنسبة لكتاب كوبرنيكس « (١٥٤٣)» فقــد حظرت إستخدامه حتى يتم تصويبه . وفى ١٦٢٠ أباحت للكاثوليك قراءة الطبعات التى حذفت منهـا تسع عبارت كانت تثبت أن النظرية صحيحة .

وعاد جاليليو أدراجه إلى فلورنسه وخلا إلى الدروس فى داره « بللو سجاردو » ، وكف عن الجدل حتى ١٦٢٢ . وفى ١٦١٩ نشر أحد مريديه ، ماريو جيدوتشى ، مقالا يجسم فيه نظرية جاليليو (المرفوضة الآن) وهى أن المذنبات عبارة من إنبثاقات فى الغلاف الجوى للأرض ، منتقدا بشدة آراء الجزويتى أورازيو جراسى فما كان من الحبر أو الأب الغاضب إلا أن نشر تحت اسم مستعار هجوما على جاليليو وأشياعه . وفى ١٦٢٢ أرسل جاليليو إلى المونسنيور شيزارينى فى رومه مخطوطة «المحلل» يرد به على جراسى وينبذ فى مجال العلم أى استشهاد أو مرجع إلا الرصد والعقل والتجربة . وبموافقة المؤلف خفف أعضاء أكاديمية لنسى بعض عبارات قليلة وبهذه الصيغة قبل البابا أربان الثامن أن يهدى إليه، وأجاز طبعه (أكتوبر ١٦٢٣) أنه ألمع تأليف جاليليو ، وإحدى روائع النثر الايطالى والقدرة والبراعة فى الجدل والمناظرة . وقيل إن البابا سر به ، وأن الجزويت تضايقوا منه .

وما أن ظفر جاليليو بهـذا التشجيع حتى قصد ثانية إلى رومه (أول أبريل ١٦٢٤) أملا فى تحويل البابا الجديد إلى الايمان بآراء كوبرنيكس . وتلقاه أربان بالود والترحات ـــ واستقبله ست مرات ى لقاءات طويلة ، وأغدق عليه الهدايا . واستمع إلى حجج كوبرنيكس ، ولكنه أبى أن يرفع حظر المحكمه . وقفل جاليليو راجعا إلى فلورنسه ، يعزيه تصريح أربان للدوق الأكبر : « لقد غمرنا بعطفه الأبوى لوقت طويل هذا الرجل العظيم الذى تتألق شهرته فى السماء كما تملأ الأرض[١٠٩] . وفى ١٦٢٦ شد من عزم جاليليو تعيين تلميذه بنديتو كاستللى رياضيا للكرسى البابوى ، وتلميذ آخر هو الأب نيقولو ريتشاردى كبير مراقبى المطبوعات ، فسارع الآن لاستكمال

مؤلفه الأساسى ، وهو عرض لمنهج كوبرنيكس والمنهج المعارض له . وفى مايو حمل المخطوطة إلى رومه ، وعرضها على البابا ، وحصل على ترخيص من الكنيسة بنشرها ، شريطة معالجة الموضوع على أنه فرضة . وعاد إلى فلورنسه حيث راجع الكتاب وأصدره فى فبراير ١٦٣٢ تحت عنوان طويل « محاورة جاليلى جاليليو . . . حيث أنه فى اجتماعات دامت أربعة أيام ، نوقش فيها المنهجان الرئيسيان فى العالم : منهج بطلميوس ومنهج كوبرنيكس « مع عرض ، دون تحيز ولا تحديد ، للحجج الفلسفية والطبيعية للمنهجين كليهما » .

وربما جلب الكتاب على مؤلفه بلايا أقل ، وكسب له شهرة ، لولا بدايته وخاتمته . تقول المقدمة : « إلى القارىء البصير الفطن » :

منذ عدة سنوات نشر فى رومه مرسوم بابوى مفيد ، قضى — تجنبا للنزعات الخطيرة فى عصرنا الحاضر — بفرض نطاق من الصمت المعقول على الرأى الذى نادى فيه فيثاغورس ، والذى يقول بأن الأرض تدور . ومن الناس من ذكر فى توقح وصفاقة — أن هذا المرسوم لم ينبع من تحريات وتدقيقات تتسم بالحكمة وحسن التمييز ، بل عن هوى ينم عن قلة الدراية والمعرفة ، وتعالت الشكاوى بأنه يجدر الايتاح للمستشارين الذين ليس لديهم أية دراية بالأرصاد الفلكية فرصة التضييق على ذوى العقول المفكرة المتأملة عن طريق قوانين الحظر المتهورة الطائشة[١١٠] .

والحق أن فى هذا إشارة للقارىء بأن صيغة الحوار تتسم بالمراوغة تملصا من محكمة التفتيش . وكان فى الحوار شخصيتان هما سلفياتى وساجريدو ، وهذان أسمان لاثنين من أصدق أصدقاء جاليليو ، وهما يدافعان عن منهج كوبرنيكس ، وشخصية ثالثة — سمبلشيو ، يدحضه ، ولكن فى مغالطة صريحة واضحة ، وقرب نهاية الكتاب أورد جاليليو على لسان سمبلشيو عبارة ، كان أوربان الثامن قد أصر على إضافتها . وهى بالحرف الواحد تقريبا :

« إن الله هو القوى وهو على شىء قدير ، ومن ثم لا يجوز أن نقدم المد

والجزر دليلا ضروريا على حركتي الأرض لأننا بذلك نحد من سعة علم الله وقدرته ، وعلى هذه العبارة يعلق سلفياتي تعليقا ساخراً فيقول : « أنها وأيم الحق حجة إنجيلية ممتازة »(١١١) .

أن الجزويت اللذين تناولت « المحاورات » كثيرا منهم فى لهجة قاسية (جاء فيها أن أفكار شينر عقيمة تافهة » ، أوضحوا للبابا أن عبارته سالفة الذكر أوردت على لسان شخصية أبرزها الكتاب ساذجة غافلة ، فعين أربان لجنة لفحص الكتاب ، وقررت اللجنة أن جاليليو لم يتناول نظرية كوبرنيكس على أنها فريضة ، بل على أنها حقيقة ، وأنه حصل على الترخيص بنشر الكتاب نتيجة لتحريفات وتشويهات بارعة ، وأضاف الجزويت إلى ذلك ، عن حكمة وبصيرة ، أن نظريات كوبرنيكس وجاليليو أشد خطرا على الكنيسة من هرطقات لوثر وكلفن . وفى أغسطس ١٦٣٢ حظرت المحكمة الاستمرار فى بيع كتاب « المحاورات » وأمرت بمصادرة النسخ الباقية . وفى ٢٣ ديسمبر دعت جاليليو للمثول أمام مندوب الحكومة فى رومه . وتوسل أصدقاؤه إلى أولى الأمر أن تشفع له لديهم سقامه وشيخوخته (٦٨ عاما)، ولكن على غير طائل . وبعثت ابنته إليه وكانت وقتئذ راهبة متحمسة بخطابات مؤثرة ترجوه فيها أن يمتثل للكنيسة ، كما نصحه الدوق الأكبر أن يذعن ، وزوده بمحفة الدوق الأكبر، ودبر مع سفير فلورنسه أمر اقامته فى السفارة. ووصل جاليليو إلى رومه فى ١٣ فبراير ١٦٣٣ .

وانقضى شهران قبل أن تدعوه محكمة التفتيش إلى المثول أمامها(١٢أبريل). واتهم بنقض عهده بالالتزام بقرار ٢٦ فبراير ١٦٣١ ، وحثوه على الاعتراف بذنبه ، فرفض محتجا بأنه لم يقدم آراء كوبرنيكس إلا على أنها مجرد فرضية، وظل سجينا فى قصر المحكمه حتى ٣٠ أبريل ، وهناك انتابه المرض ، ولم يعذبوه ، ولكنهم ربما أشاعوا فى نفسه الخوف من التعذيب. وفى مثوله الثانى أمام اللجنة اعترف فى ذلة وخشوع أنه أورد آراء كوبرنيكس بشكل أكثر

إنحيازا إليه منه ضده ، وعرض أن يصحح هذا فى « حوار » يلحق بالأول . فرخصوا له بالعودة إلى دار السفير . وفى ١٠ مايو أعادوا التحقيق معه ، وعرض أن يكفر عن خطيئته، وتوسل إليهم أن يرحموا شيخوخته واعتلال صحته . وفى التحقيق معه للمرة الرابعة (٢١ يونية) أكد أنه بعد قرار ١٦١٦ « لم يعد يخامرنى أى شك ، وآمنت ، ولا زلت أؤمن ، برأى بطليوس — أن الأرض لا تدور ، وأن الشمس هى التى تدور — على أنه حق كل الحق ، ولا يقبل الجدل »(١١٢) ، فاعترضت المحكمة بأن محاورات جاليليو اوضحت ، بما لا يدع مجالا للشك ، أنه يقر آراء كوبرنيكس، وأصر هو على أنه كان ضد هذه الآراء منذ ١٦١٦ . وظل البابا على اتصال بالتحقيق ، ولو أنه لم يشهده بشخصه . وكان جاليليو يأمل فى أن يمد له أربان الثامن يد العون ، ولكن البابا رفض التدخل . وفى ٢٢ يونيه أصدرت المحكمة قرارها بادانته بالهرطقة والتمرد والعصيان . وعرضت عليه الغفران شريطة تأدية القسم علنا أمام الجمهور بالتخلى عن آرائه ، وحكمت عليه « بالسجن فى هذه المحكمة لمدة تحددها هى وفق مشيئتها » ورأت للتكفير عن ذنبه أن يتلو مزامير الكفارة السبعة كل يوم طيلة السنوات الثلاث التالية، وجعلوه يجثو ويبرأ من نظرية كوبرنيكس ، ويضيف :

> بقلب مخلص ، وإيمان صادق ، ألعن وأبغض وأعلن التخلى عن الأخطاء والهرطقة المنسوبة إلى ، وبصفة عامة ، عن أى خطأ أو هرطقة أخرى أخالف فيها ... الكنيسة المقدسة. وأقسم أنى لن أذكر بعد اليوم أى شىء قد يثير مثل هذه الريب حولى ، وأنى إذا عرفت أى هرطيق أو أى شخص مشتبه فى أنه هرطيق فلابد أن أبلغ عنه هذه المحكمة .... وأدعو الله أن يمنحنى العون،وأرجو أن تساعدنى هذه الكتب المقدسة التى أضع يدى عليها(١١٣) .

ووقع على الحكم سبعة من الكرادلة ، ولكن البابا لم يصدق عليه (١١٤). أما قصة أنه عند مغادرته قاعة المحاكمة غمغم متحديا « ومع ذلك فهى تدور فعلا » . فإنها أسطورة لم يظهر لها أثر قبل ١٧٦١ (١١٥) . وبعد قضاء ثلاثة أيام فى سجن محكمة التفتيش ، سمح له ، بأمر من البابا ، بالذهاب إلى قصر الدوق الأكبر فى ترنيتا مونتى فى رومه . ثم نقل بعد أسبوع إلى مسكن مريح فى قصر تلميذه السابق ، رئيس الأساقفة أسكانيو بتشولوميني فى سيينا . وفى ديسمبر ١٦٣٣ . سمح له بالانتقال إلى داره الخاصة فى أرسترى بالقرب من فلورنسه أنه من الناحية العملية كان لا يزال سجينا ، محظورا عليه مغادرة مسكنه ، ولكنه كان حراً فى مواصلة دراساته . وتعليم تلاميذه ، وتأليف كتبه واستقبال زائريه - وهنا زاره ملتون فى ١٦٣٨ . وجاءت ابنته الراهبة لتقيم معه . واحتملت هى نفسها عقوبة تلاوة المزامير السبعة .

٤ — الشيخ الجليل :

واضح أن جاليليو كان الآن رجلا متهدما مغلوبا على أمره ، أذلته كنيسة أحست بأنها وصية على عقيدة بنى البشر وآمالهم وأخلاقهم ، أن تخليه عن آرائه بعد قضاء عدة شهور فى السجن . وعدة أيام فى المساءلة والمحاكمة ، بما كان من الجائز أن يحطم عقل مكافح شاب كما يحطم إرادته ، نقول أن هذا التخلى كان أمرا يمكن التجاوز عنه لدى شيخ هرم علق بذاكرته إحراق برونو قبل ذلك بثلاثة وثلاثين عاما ولكنه فى الواقع لم يهزم فقد انتشر كتابه فى كل أنحاء أوربا فى أكثر من عشر لغات ترجم إليها . ولم يمح أثره .

وخفف من أحزانه وآلامه فى سيينا وفى أرسترى اشتغاله بتلخيص أبحاثه الفيزيائية فى مؤلف ضخم آخر : « محاورات ... حول علمين جديدين » . ولما كانت أبواب المطبعة الإيطالية موصدة دونه بمقتضى الحكم الذى صدر ضده، فإنه أجرى مقاوضات سرية مع طابعين أجانب، وانتهى الأمر بأن مطبعة الزفير أصدرت الكتاب فى ليدن ١٦٢٨ . وهللت له دنيا العلماء على أنه سما

بعلم الميكانيكا إلى مستوى لم يبلغه من قبل . وبعد صدوره ، عكف جاليليو على إعداد محاورات إضافية درس فيها ميكانيكا القذف أو الإطلاق ، وأشار إلى ماجاء به نيوتن فيما بعد فى قانونه الثانى عن الحركة . ويقول أول مؤرخى سيرة جاليليو : « فى آخريات أيام حياته ، وفيما كان يعانى كثيرا من اعتلال صحته ، كان عقله مشغولا دوما بالمسائل الميكانيكية والرياضية»[١١٦] ، وفى ١٦٣٧ وقبيل أن يفقد بصره ، أعلن عن آخر كشوفه الفلكية ، نودان أوميسان القمر - تغيرات جانبه المواجه للأرض دائما . وفى ١٦٤١ ، وقبل وفاته ببضعة شهور قلائل ، شرح لابنه طريقة صنع ساعة ذات بندول .

إن اللوحة التى رسمها له سوسترمان فى أرسترى (والموجودة الآن فى قاعة بيتى) هى العبقرية مجسمة : جبهة عريضة ، وشفتان مشاكستان مولعتان بالجدل والمناظرة ، وأنف دقيق ، وعينان حادتان ، نفاذتان ، وهذا وجه من أكرم الوجوه فى التاريخ . وفقد الشيخ الجليل بصره فى ١٦٣٨ . وربما كان التحديق المجهد سبب ذلك ، وكان يجد شيئا من العزاء فى اعتقاده بأن أحدا من بنى الإنسان من عهد آدم ، لم ير أكثر مما رأى هو ، فهو يقول : « إن هذا الكون الذى وسعت فيه وكبرته ألف مرة ، تقلص الآن وانحصر فى نطاق جسمى الضيق ، هكذا أراد الله ، ولابد أن أريد هذا أنا أيضا»[١١٧] . وفى ١٦٣٩ حين كان يعانى من الأرق ومن مائة من الآلام الأخرى رخصت له محكمة التفتيش فى زيارة فلورنسه ، تحت مراقبة دقيقة ، ليرى أحد الأطباء ويحضر القداس . فلما عاد إلى أسترى ، أملى على فيفانى وتورشللى ، وعزف على العود حتى فقد سمعه كذلك . وفى ٨ يناير ١٦٤٢ ، وكان قد قارب السابعة بعد الثمانين ، فاضت روحه بين أيدى حوارييه .

وأطلق عليه جروتيوس « أعظم عقل فى كل العصور»[١١٨] . وثمة شىء من القصور فى العقل والخلق بطبيعة الحال . فأخطاؤه — الغرور والزهو والانفعال والخيلاء — إن هى ببساطة إلا عثرات مناقبه أو ثمنها : الثبات

الشجاعة ، الأصالة . ولم يعترف بأهمية حسابات كبلر فى مدارات الكواكب وكان يتراخى فى الاعتراف بقيمة أعمال معاصريه، وقلما تحقق. كم من كشوفه فى الميكانيكا كانت قد أنجزت قبله . لقد أجرى بعضها رجل آخر من فلورنسه إسمه ليوناردو . ولكن الآراء التى عوقب من أجلها ليست هى بالضبط ما يعتنقه الفلكيون اليوم ، ومثله مثل معظم الشهداء تحمل أن يكون الصواب خطأ — ولكنه لم يكن على خطأ فى إحساسه بأنه خلق من الديناميكا علما كاملا ، وأنه وسع العقل البشرى وزاد من قدرة الناس على رؤية الأشياء وفقا لعلاقاتها الصحيحةو أهميتها النسبية ، بفضل إبرازه ، بمقياس أكبر كثيرا عن ذى قبل ، أن الكون واسع سعة رهيبة . وشارك كبلر شرف تقبل الناس لآراء كوبرنيكس ، كما شارك نيوتن شرف إظهار أن السماء نفسها تفصح عن عظمة القانون . ثم أنه ، بوصفه من أفاضل أبناء عصر النهضة ، كتب أحسن نثر إيطالى فى زمانه .

وانتشر أثره حتى عم كل أوربا . أن إدانته هى التى رفعت مكانة العلم فى البلاد الشمالية ، على حين حطت من قيمته لفترة قصيرة فى إيطاليا وأسبانيا وليس معنى هذا أن محكمة التفتيش حطمت وقضت على العلم فى إيطاليا ، فان تورشللى وكاسينى وبوررللى وربدى ومالبيجى وموروجانى حملوا المشعل إلى فولتا وجلفانى وماركونى، ولكن العلماء الإيطاليين الذين علقت بأذهانهم قصة جاليليو اجتنبوا التورطات الفلسفية فى العلم . وبعد إعدام برونو حرقا وبعد تخويف ديكارت وتهديده بمصير جاليليو ، باتت الفلسفة فى أوربا احتكارا بروتستانتيا .

وفى ١٨٣٥ حذفت الكنيسة مؤلفات جاليليو من قائمة الكتب المحظورة وانتصر الرجل المحطم المقهور على أقوى النظم فى التاريخ .

الفصل الثالث والعشرون

١٥٦٤ — ١٦٤٨

الفلسفة تولد من جديد

١ — الشكاكون

فى ظل صراعات الدول القومية ، والقوى الاقتصادية ، والأحزاب السياسية ، وتنوع المذاهب الدينية ، فى غمرة هذا كله ، بدأت تتشكل المسرحية الأساسية فى التاريخ الأوربى الحديث ، وما هى إلا نضال من أجل الحياة جهدت فيه ديانة عظمى ، ضيق عليها الخناق واستنزف قوتها ، العلم والطائفية والأبيقورية والفلسفة . هل المسيحية فى الطريق إلى الفناء ؟ أو هل الديانة التى أمدت المدنية الغربية بالأخلاق والشجاعة والفن تعانى انحلالا بطيئا ، بفعل انتشار المعرفة واتساع الآفاق الفلكية والجغرافية والتاريخية ، والتحقق من الشر فى التاريخ والنفس ، وتخلخل الإيمان بالحياة الآخرة وضعف الثقة فى حسن توجيه العالم ؟ . وإذا كان الأمر كذلك ، فهذا هو الحديث الأساسى فى الأزمنة الحديثة ، لأن الديانة هى روح المدنية ، والمدنية تفنى بفناء عقيدتها . ولم تعد القضية فى نظر برونو وديكارت ، وهوبز وسبينوزا ، وبسكال وبل ، وهلباخ وهلفيش ، وفولتير وهيوم ، لبنتز وكانت ، قضية كثلكة ضد بروتستانتية ، بل قضية المسيحية نفسها ، قضية الشك والرفض والإنكار — لأعز الأساسيات فى العقدة القديمة . أن مفكرى أوربا — وهم طلائع العقل الأوربى — لم يعودوا يناقشون سلطة البابا ، بل كانوا يناقشون وجود الله .

وثمة عوامل كثيرة أدت إلى الكفر . إن مبدأ المحاكمة العقلية أو تكوين

رأى خاص ، وهو المبدأ الذى اتهمته الكنيسة الكاثوليكية وأدانته لأنه يدعو إلى الفوضى المذهبية والأخلاقية ، نادت به وأقرته كل الهيئات البروتستانتية تقريبا ، ثم شجبته وأدانته فيما بعد ، وفى الوقت نفسة قوض هذا المبدأ أركان العقيدة . أن الشيع المتزايدة قاتلت بعضها بعضا ، وكأنها ذرارى بالغة الكثرة ، وفضحت مطالب بعضها بعضا ، وتركت الديانة عارية فى مهب رياح العقلانية . وأهابت هذه الفرق والشيع لنصرتها فى أثناء صراعها ، الأسفار المقدسة والعقل كليهما . ودعت دراسة الكتاب المقدس إلى الشك فى معانيه وفى عصمته من الخطأ . وأنهى اللجوء إلى العقل عصر الإيمان . وحقق الاصلاح البروتستانتى أكثر مما كان يصبو إلية . وأضربت بصورة خاصة ، حملات النقد الذى أنصب على الكتاب المقدس ، بالمذهب البروتستانتى الذى أقيم فى طيش وتهور على كتاب مقدس منزل من عندالله . إن التحسينات التى أدخلت على النظام الاجتماعى وأمن الناس ، خففت من الأرهاب والقسوة، وأحس الناس أنهم لابد لهم أن يدركوا أن الله سبحانه وتعالى أرحم وألطف مما صوره لهم بولص وأوغسطين وليولا وكلفن ، ولم تعد الجحيم والقضاء والقدر أمورا يمكن تصديقها ، وأجزت الأخلاقية الجديدة اللاهوت القديم . وهيأ نمو الثروة لانتشار نزعة حياة ابيقورية التمست لها فلسفة تبررها . إن كارثة الحروب الدينية أنصبت على رأس الديانة نفسها فكانت هى ضحيتها . إن ازدياد المعرفة بالأخلاق والفلسفات الوثنية ، وبالعبادات والطقوس الآسيوية أثار مقارنات محيرة مزعجة بالمسيحية . ألم نسمع أرزم يدعو ويتوسل إلى « القديس سقراط » ، ألم نر مونتيني يرجع المذاهب الدينية إلى أحداث الجغرافيا وإلى حكم الحروب ؟ وكشف تقدم العلم عن عمل « القانون الطبيعى » فى كثير من الحالات ، ومثال ذلك مسار المذنبات الذى رأت فيه الديانة يد العناية الآلهية . ووجدت الطبقات المتعلمة أنه من الصعب عليها أن تصدق أو تؤمن بالمعجزات على حين ابتهج وفاخر بها غير المثقفين . ثم هذه

الأرض التى تقول الأساطير الأثيرة لدى العامة بأنها أحست «بأقدام الرب»، أليست كما ألمح كوبرنيكس وجاليليو مجرد فقاعة ومرحلة قصيرة فى هذا الكون البالغ السعة، وسعة لا يمكن تحديدها، بالنسبة للأرباب الحاسدين الحاقدين الوارد ذكرهم فى سفر التكوين ؟ وأين ذهبت السماء ، والتقلبات على أشدها حتى أنها لتغير المواقع مرتين فى اليوم الواحد .

وكان «الموحدون» أكثر الشكاكين اعتدالا ، وهم الذين ، فى إيطاليا وسويسرا وبولنده وهولنده وانجلترا ، أثاروا الشكوك حول ألوهية المسيح . وكان هناك بالفعل نفر قليل من الربوبيين(*) الذين آمنوا بالله متماثلا مطلقا مع الطبيعة ، وأنكروا ألوهية المسيح ، ورغبوا فى أن يجعلوا المسيحية مذهبا أخلاقيا لا عقيدة دينية , وكانوا حتى تلك اللحظة مشتتين حذرين ، حتى اشتد عودهم وارتفعت مكانتهم فباتوا يزعجون الجلاد ، كما فعل إدوارد هربرت من شربورى . ولسوف نجدهم بعد ١٦٤٨ ، وقد ارتفع صوتهم عن ذى قبل . وأشد جرأة منهم كان الابيقوريون فى ألمانيا ، الذين سخروا من «يوم الحساب» الذى طال ترقبه ، ومن الجحيم التى يحتمل ألا تكون رهيبة مزعجة ، برغم كل شيء ، مادام أكثر الناس ابتهاجا ومرحا سوف يحشرون[1] فيها . وفى فرنسا أطلق على مثل هؤلاء الناس «ذوو العقول الصلبة» أو «الإباحيون» وهم الذين بدأت أساليبهم المائعة الطليقة تضفى معناها الحديث على لفظة كانت تعنى فى الأصل «المفكرين الأحرار» . وفى ١٥٨١ ألف فيليب دوبلسيز — مورنى كتابا فى ٩٠٠ صفحة «حقيقة الديانة المسيحية ، فى مواجهة الملحدين» . وفى ١٦٢٣ نشر الجزويتى فرانسوا جاراس كتابا فى

(*) الربوبية : Deism الايمان بالله بغير اعتقاد بديانات منزلة — مذهب فكرى فى القرن الثامن عشر يدعو إلى الايمان بدين طبيعى مبنى على العقل ، لا على الوحى ، ويؤكد على الناحية الأخلاقية ، منكرا تدخل الخالق فى نواميس الكون .

أكثر من ألف صفحة من قطع الربع ، حمل فيه على «الإباحيين» الذين يؤمنون بالله شكلا أو من أجل دين الدولة » . . ولا يرتضون ألا « الطبيعة » والقضاء والقدر[٢] . وفى العام نفسه قدر «مرين مرسن عدد الملحدين فى باريس بنحو ٥٠ ألفا[٣] ، ولكن هذه الكلمة كانت تستخدم فى هاتيك الأيام بشكل فضفاض ، وربما قصد بها مارين « الربوبيين . وفى ١٦٢٥ أوضح جبرابيل نودى أن الشرائع التى نزل بها الوحى المقدس على « توما بمبليوس » (ملك رومه الأسطورى ٧١٥ — ٦٧٢ ق . م) وعلى موسى ، ماهى إلا خرافات ابتدعت لإقامة النظام الاجتماعى ، وأن رهبان طيبة لفقوا حكايات الصراع مع الشيطان ليزيدوا من شهرتهم ويرفعوا من مكانتهم ويغـــذوا الجمهور الساذج . وفى ١٦٣٣ نشر فرانسوا دى لاموث لافاين — سكرتير ريشيليو ، ومعلم لويس الرابع عشر ، الذى تولى الملك فيما بعد — كتابه المسمى «محاورات أورازيوس تابيرو » ، صرح فيه بشكوكيه عامة : « إن معرفتنا هراء فى هراء ، وأن حقائقنا خيالات وأوهام ، وأن دنيانا بأسرها . . . مهزلة متصلة»[٥] وكان فرنسوا هذا من بين الذين ضعف إيمانهم قبل تعدد المذاهب المخصومة : « ليس فى هذة العقائد التى لا حصر لها رجل لا يؤمن بأن مذهبه هو الحق ، وأن غيره هو الباطل »[٦] . وعلى الرغم من شكوكيته تزوج فى سن الثامنة والسبعين ، ووافته المنية فى الرابعة والثمانين وهو على فراشه . وكان ، وهو متشكك فاضل ، قد كف عن معارضة الكنيسة .

وكان قدر كبير من هذه الشكوكية الفرنسية صدى سلبيا لمونتيني . ثم أصبحت قوة إيجابية بناءة فى شخص صديقه بيير شارون ، وهو قسيس من بوردو ، قام له بالطقوس الأخيرة عند موته ، وورث مكتبته ، وكتب فى ١٦٠١ « رسالة عن الحكمة » فى ثلاثة مجلدات فى وصف الحكمة ، ولكن قيل عن هذه الرسالة بغير حق ، بأنها ترتيب منهجى لمونتيني ، ولكنها ، على الأصح ، رسالة مستقلة تدين بكثير من الفضل « للمقالات » ، ولكنها تحمل

طابع شخصية شارون الدمثة الوقورة . وهو يقول بأن كل المعرفة تنبع من الحواس ، وهى لذلك عرضة لتقييدات الحواس وعجزها وأخطائها الكثيرة، فلنسب الحقيقة من شأننا نحن . ويقول السفهاء من الناس بأن الحقيقة يثبتها قبول كل الناس لها وإن صوت الخلق من صوت الله . ولكن شارون يعتقد أكثر مايعتقد أن صوت الناس هو صوت الجهالة ، وأنه صوت الآراء التى تلفق لهم ، وأن الإنسان يجب أن يتشكك خاصة فيما يؤمن أكثر الناس به[٧] . إن الروح قوة خفية حادة لا تهدأ ، متصلة بالمخ ، وظاهر أنها تفنى بفناء الجسم[٨] إن الديانة تنطوى على أسرار وخفايا لا يمكن إثباتها وعلى سخافات كثيرة . وعليها يقع وزر التضحيات الوحشية والقساوات التعصبية . وإذا كان كل الناس فلاسفة (كما قد يقول فولتير فيما بعد) ، يتعشقون الحكمة ويمارسونها ، فلن تعود ثمة حاجة إلى الديانة ، ويمكن أن تعيش المجتمعات بمقتضى علم أخلاق طبيعى مستقل عن اللاهوت أو الدين ، ويمكن أن يوجد الإنسان الفاضل ، دون سماء ولا جحيم »[٩] . ولكن إذا أخذنا فى الاعتبار مافطر عليه الإنسان بالطبيعة من شر وجهل ، فإن الدين يصبح أداة ضرورية لازمة للأخلاق والنظام[١٠] . وبناء على هذا يتقبل شارون كل أساسيات المسيحية ، حتى الملائكة والمعجزات[١١] ، وينصح الحكماء بمراعاة كل المراسم الدينية التى تضعها الكنيسة التى ينتسب هو إليها عن غير قصد ، على أية حال[١٢] ، ولن يكون المتشكك الحق هرطيقا أبدا[١٣] .

وعلى الرغم من هذه النتائج القويمة التى خلص إليها شارون فإن أحد الجزويت المعاصرين يحشره فى زمرة أخطر الملحدين وأشرهم وأخبثهم[١٤] . ولما مات شارون فجأة بالسكتة القلبية ، فى سن الثانية والستين (١٦٠٣) قال الأتقياء بأن هذا عقاب من عندالله على كفره والحادة[١٥] . وقبيل وفاته أعد طبعة ثانية من كتابه ، خفف فيها من الأجزاء الأكثر تهورا وطيشا ، وأكد لزملائه من رجال الدين أنه إنما قصد « بالطبيعة » الله سبحانه وتعالى ،

وعلى الرغم من ذلك وضع كتابه فى عداد الكتب المحظورة . ولمدة نصف قرن من الزمان فاق كتابه مقالات « مونتينى انتشارا وشعبية . وطبع كتاب « محاورات » الحكمة خمسا وثلاثين مرة فى فرنسا فيما بين عامى ١٦٠١-١٦٧٢ . وفى القرن الثامن عشر كان أثر شارون أقوى من أثر أستاذه . ولكن نفس العرض المنظم الذى جذب القرن السابع عشر الكلاسيكى ، بدأ فى أعين القرن التاسع عشر وعظا كئيبا مدرسيا ، وضاع شارون وسط ما اكتشف من جديد ، من تألق وبهجة فى مونتينى .

٢ — جيوردانو برونو ١٥٤٨—١٦٠٠

كان كوبرنيكس قد وسع الكون . فمن ذا الذى يمكن أن « يوسع الله » اليوم ويعيد التعبير عن الألوهية فى لغة جديدة بهذه المجموعات من النجوم الهادئة التى لايحصى عددها ؟ أن برونو حاول هذا .

ولد برونو فى نولا على بعد ١٦ ميلا إلى الشرق من نابلى . وعمد باسم فلبو ، وغير اسمه إلى جيوردانو عندما كان فى سن السابعة عشرة ، دخل دير الدومنيكان فى نابلى . وفيه وجد مكتبة عظيمة غنية ، لا بكتب اللاهوت فحسب ، بل كذلك بالكتب اليونانية واللاتينية القديمة ، عن أفلاطون وأرسطو ، بل حتى عن مؤلفين عرب وعبرانيين كانت قد ترجمت إلى اللاتينية . وتعلقت طبيعته الشاعرية على الفور بالأساطير الوثنية التى رسخت فى فكره لوقت طويل بعد تبخر اللاهوت المسيحى . وافتتن بمذهب ديمقريتس الذرى تابعه أبيقور ، وبسطه كوبرنيكس فى صورة رائعة . وقرأ كتب المفكرين المسلمين ابن سينا وابن رشد ، والفيلسوف اليهودى ابن جابيرول . وتسرب إلى نفسه شىء من التصوف العبرانى ، مختلطا بأفكار ديونسيوس الزائفة وأفكار برناردينو تلزيو عن اتحاد الأضداد فى الطبيعة وفى الله ،

كما تسرب إليه كذلك شيء من فكرة نيقولا (من كوزا) عن كون لا نهائي ليس له مركز أو محيط ، تنفخ فيه الحياة روح واحدة . وأعجب بالتصوف الطبي الثائر عند باراسلسوس وبالرمزية الروحية ، وبوسائل تقوية الذاكرة عند ريموند للى ، وبفلسفة كورنيليوس أجريبا الغامضة . وعمل كل هذا على تشكيل برونو.كما أشعل فيه نار البغض لأرسطو وللفلسفة النصرانيةفي العصور الوسطى (السكولاستية) ولتوماس أكويناس . ولكن برونو كان في دير الدومنيكان وتوماس أكويناس هو رائد الفكر عندهم .

ولم يكن بد من أن يزعج الراهب الشاب رؤساءه بالاعتراضات والأسئلة والنظريات . أضف إلى ذلك أن حاسة الجنس كانت تضطرم بين جنبيه ، واعترف فيما بعد بأن كان ثلوج القوقاز ما كانت لتنقع غلته أو تطفىء شهوته ، وأن ثمة علاقة دقيقة بين يقظة الجنس ويقظة العقل . وفي ١٥٧٢رسم كاهنا ، ولكن الشكوك ظلت تثور بين جوانحه وتلهبه خفية. كيف يمكن أن يكون هناك ثلاثة في واحد هو الله سبحانه وتعالى ؟ كيف يتسنى لكاهن مهما كانت مرتبته أن يحول الخبز والخمر إلى جسد يسوح للمسيح ودمه ؟ . وبعد رسامته ، عنفه رؤساؤه مرتين تعنيفا رسميا . وفي ١٥٧٦ ، بعد أن قضى أحد عشر عاما في الرهبنة ، فر فجأة من الدير ، وتوارى عن الأنظار لبعض الوقت في رومه . وخلع رداء الرهبنة ، وعاد إلى اسمه الذي عمد به ، والتمس الأمان والتستر في الاشتغال بالتعليم في مدرسة للبنين في نولى بالقرب من جنوه .

وهكذا بدأت ست عشرة سنة من التجوال،سرى فيها القلق والأرق في جسمه جنبا إلى جنب مع التردد والتذبذب في عقله. وبعد أربعة أشهر قضاها في نولى، انتقل إلى سافونا ، ثم إلى تورين ، وإلى البندقية ثم إلى بادوا . وعاد فارتدى ثانية ثوب الراهب الدومنيكاني ليحظى بكرم الوفادة في الأديار . ثم سار إلى برسكيا ، وإلى برجامو ، وعبر جبال الألب إلى شامبرى حيث أستقبله

وأطعمه دير للدومنيكان . ثم إلى ليون ، ومنها إلى جنيف . وهناك فى معقل الكلفنية جرد نفسه من ثوب الرهبنة مرة أخرى ، وهناك قضى شهرين فى هدوء لا يلتئم مع مزاجه، يكسب قوته بتصحيح المخطوطات والتجارب للطبع ومن بين هذه ، كان نقده الخاص لمحاضرة ألقاها أحد رجال الدين الكلفنيين فى جامعة جنيف . وأشار فيه برونو إلى عشرين خطأ فى هذه المحاضرة. وألقى القبض على طابع النقد وحكم عليه بغرامة، أما برونو فاستدعى للمحاكمة أمام محكمة الكنيسة ، فقدم اعتذارا وصفحوا عنه. وتولاه اليأس والقنوط حين ألفى نفسه يهرب من شراك رقابة ليقع فى براثن أخرى ، فغادر جنيف وعاد إلى ليون ومنها إلى تولوز ، حيث ظهر ظل عابر من التسامح فى صراع الكاثوليك مع الهيجونوت ، وفى تدفق اليهود المرتدين إرتدادا يسيرا من أسبانيا والبرتغال . وربما حدث أثناء اقامته (١٥٨١) ، أن نشر فرانسوا سانكى فى تولوز ، رسالته الشكوكية « المعرفة الصحيحة الكريمة .... ليس ثمة شيء معروف » ، وحاضر برونو لمدة ثمانية عشر شهرا فى رسالة أرسطو « الروح » . ولأسباب غير معروفة . وربما من أجل شهرة أوسع وأعظم . رحل برونو إلى باريس .

وكان برونو قد أحرز شهرة ، لا بوصفه فيلسوفا فحسب ، بل كذلك بوصفه خبيرا فى فن تقوية الذاكرة . وأرسل هنرى الثالث فى طلبه واستولى على الأسرار السحرية من ذاكرة طيبة . وسرا الملك من دروس برونو وعينه مدرسا فى الكوليج دى فرانس . واحتمل برونو فى هدوء لمدة عامين، ولكنه فى ١٥٨٢ نشر رواية هزلية (كوميدية) تحت عنوان « حامل المشعل» يهجو فيها هجاء لاذعا ، الرهبان والأساتذة والمتحذلقين . . . ولندع المقدمة تتحدث :

ستروون ، فى فوضى مشوشة ، نتفا عن النشالين ، وألوانا من الزيف والخداع ، ومغامرات الأوغاد ، كما ترون الاشمئزاز الطريف .

والحلوى ، المرة ، والقرارات الحمقاء ، والايمان الخاطىء والآمال المشلولة ، والصدقات الشحيحة . . . . والنساء القويات الشكيمة (الرجوليات) والرجال المخنثين . . . . وحب الذهب (المال) فى كل مكان .

ومن ثم تنشأ الحيات الربعية (الراجعة) ، والسرطانات الروحية ، والأفكار الهزيلة ، والحماقات المتسلطة . . . . والمعرفة المتقدمة ، والعمل المثمر ، والصناعة الهادفة . وفى إيجاز ، سترون فى الرواية ، أمنا تافها ، وقدرا ضئيلا من الجمال ، ولن تروا شيئا طيبا أو حسنا .

ووقع على الرواية : « برونو النولى ، المتخرج فى أكاديمية تسمى الازعاج »[٦٦] .

وفى مارس ١٥٨٣ قصد انجلترا وكان هنرى الثالث أكثر استعدادا للتوصية به خيراً لدى الآخرين منه للاحتفاظ بخدماته لديه[٦٧] ، فزوده بخطابات يقدمه فيها للسفير الفرنسى فى لندن ، ميشيل دى كاستلنو ، سيردى لاموفيسير ، وهنا بدأت أسعد اللحظات فى حياة برونو . حيث أقام فى قصر السفير عامين يأكل ويشرب ، متحررا من أية نفقة أو ضرورة إقتصادية ، وهنا أيضا كتب بعضا من أهم مؤلفاته ، كما وجد ملجأ من العواصف التى يثيرها خلقه وشخصيته ، وكان يخفف عنه مناظراته ومجادلاته مع رجل متسامح عرك الدنيا ، وعرف أنه من الأفضل ألا ينظر إلى الميتافيزيقا بعين الجد . وفى هذا البيت التقى برونو بسير فيليب سدنى ، وأرلى لبستر ، وجون فلوريو ، وأدموند سبنسر . وجبرابيل هارفى وغيرهم من ألمع العقول فى انجلترا فى عصر اليزبث . إن أحاديث برونو مع هؤلاء الرجال زودته بالأسس التى بنى عليها « معرض آرائه » ، وحظى بمقابلة الملكة نفسها . وامتدحها فى عبارات أخذتها عليه محكمة التفتيش فيما بعد .

وفى ١٥٨٣ طلب من جامعة أكسفورد أن تأذن له فى القاء المحاضرات فى قاعاتها ، ووصف بهذه المناسبة ، مؤهلاته فى لغة باعدت إلى الأبد بينه وبين وصفه بالتواضع(١٨) ، وحصل على الترخيص ، فتحدث عن خلود الروح ، وعن « الكرة السماوية المكبره إلى خمسة أمثالها » أى عن نظرية كوبرنيكوس فى الكواكب . وتحداه وضايقه بالأسئلة كثير من بينهم رئيس كلية لنكولن ، كما يروى برونو بطريقته الخاصة : —

> هلا عرفت كيف استاعوا أن يردوا على حججه (برونو)؟ وكيف أنه لخس عشرة مرة ، وبخمسة عشر قياسا منطلقاً . ضيق الخناق على « الدكتور » المسكين الذى صدروه ، لهذه المناسبة الرهيبة ، بوصفه رئيسا للأكاديميه ، حتى وقف حائرا كعصفور فى قفص ؟ وهلا علمت بأية فظاظة وأية غلاظة تصرف هذا الخنزير ، وبالصبر والروح الإنسانية اللتين تذرع بهما من أثبت أنه حقا مولود فى نابلى وأنه نشأ فى ظل سماء أكرم وأرحب ؟ وهلا عرفت كيف أنهوا محاضراته العامة(١٩) ؟

وأطلق برونو على أكسفورد فيما بعد اسم « أرملة التعليم الصحيح » ، « مجموعة من الجهل المتحذلق العنيد والوقاحة ، امتزجت بفظاظة خرقاء يمكن أن ينفد معها صبر أيوب(٢٠) » .

ولكن فيلسوفنا لم يكن « أيوب » . وكتب كتابة رائعة عن النجوم ، ووجد من بين أهل الأرض أغبياء إلى حد لا يطاق . وأحس بأن عرضه الفلسفى لفلك كوبرنيكوس كان خطوة طيبة فى سبيل فهمه ، وأنه كان « ناقدا لاذعا(٢١) » لكل من رفضوا آراءه . ولو أن فلوريو ألفاه ، بعد أن هدأ رعه « وديعا لطيفا(٢٢) وكان غروره امتحانا لأصدقائه ، مثل الريح فى شراعه . وخلع على نفسه ألقابا فخمة : « دكتور فى اللاهوت الأكثر تطورا ، استاذ فى الحكمة الخالصة غير الضارة(٢٣) » . وكان يتمتع بخيال النابوليتانى المتقد

وفصاحته المثيرة. وحيثما ذهب كانت شمس الجنوب تجعل الدم يغلى فى عروقه، « إنى لأرهق نفسى وأعذبها وأقهرها ، حبا فى الحكمة الحقة ، وغيرة على التأمل الصادق »[٢٤]

وفى أواخر عام ١٥٨٥ عاد إلى باريس ، فى أثر السفير الذى استدعى إليها . وحاضر فى السوربون مثيرا عداوة أنصار أرسطو ، كما هى العادة . وأغرته حروب العصبة ضد هنرى الثالث بأن يختبر الجامعات الألمانية، فتسجل فى جامعة ماربرج ، ولكنه رفض القاء المحاضرات ، وعرض برئيس الجامعة وقصد إلى وتنبرج ، وقضى عامين يحاضر فى جامعة لوثر ، ولدى مغادرته لها عبر عن شكره فى خطاب محلق ودع فيه الجامعة . ولكن لاهوت رجال الاصلاح لم يرقه ، فالتمس رعاية رودلف الثانى فى براغ . وظنه الامبراطور رحلا غريب الأطوار ، ولكنه منحه ٣٠٠ ثيلر ، وأذن له بالتدريس فى جامعة هلمستد فى برنزويك . وبقى سعيداً فى عمله لعدة أشهر ، إتهمه بعدها رئيس الكنيسة اللوثرية وأصدر قراراً بحرمانه من الكنيسة[٢٥] . ولسنا نعرف جوهر الحقيقة فيما جرى ، ولكن برونو رحل إلى فرانكفورت وزيوريخ ثم إلى فرانكفورت ثانية (١٥٩٠ — ١٥٩١) حيث استقر بهالمقام لينشر مؤلفاته اللاتينية .

وفى تلك الأثناء ـ قبل إيداعه السجن بأمر من محكمة التفتيش بعام واحد ـ كانت فلسفته قد اكتملت ، ولو أنها لم تصل قط إلى مرتبة الوضوح والترابط. أننا عند النظر فى أهم مؤلفات برونو لتصدمنا العنوانات التى وضعها فى صيغة مقتضبة . ويغلب عليها أن تكون شاعرية مبهمة ، تنذرنا بألا نتوقع فلسفة منهجية متماسكة ، بل هى على الأرجح أفكار خيالية صالحة وانجذابات صوفية أو نشوات . وقل أن نجد فى أى مؤلف آخر ، اللهم إلا رابليه ، هذا الخليط من النعوت والألقاب والمجازات البلاغية والرموز والخرافات والنزوات والفكاهات ، والكلام المنمق والتوافه والتمجيد والسخرية وخفة الدم، مكدسة بعضها فوق بعض ، فى فوضى من المبادىء والأفكار الثاقبة والفرضيات .

لقد ورث برونو براعة الكتاب المسرحيين الايطاليين والمرح الصاخب المؤذى لدى الشعراء الايطاليين الذين يحشون قصائدهم بألفاظ ايطالية إلى جانب ألفاظ من لغة أو لغات أخرى ، كما ورث هجاء برنى وأرتينو اللاذع . وإذا كان المقصود بالفلسفة : القدرة على رؤية الأشياء رؤية هادئة وفقا لعلاقتها الصحيحة وأهميتها بالنسبية ، والتحفظ أو التقييد المعقول المنطقى ، والقدرة على الاحاطة بكل الجوانب ، والتسامح مع كل وجهات النظر المخالفة ، فإن برونو ، على هذا الأساس ليس فيلسوفا ، بل أنه محارب أو مصارع ، يصم أذنيه ويغشى عينيه ، لكيلا لا تصرفه الأخطار المحدقة عن هدفه — الذى كان قبل ظهور فولتير بقرنين من الزمان — محو عار الاضطهاد وظلمته فثمة مرارة أشد من فولتير فى برونو فى تهكمه الوحشى للمعالجة اللاهوتية المثالية للايمان الغافل الخالى من التفكير :

إنى لأقول وأكرر القول بأنه ليس ثمة مرآة توضع أمام أعين البشر ، خير من الحماريه أو الحمار ليكشف بشكل أوضح عن واجب هذا الانسان الذى .. يفتش عن ثواب يوم الحساب .. ومن ناحية أخرى ، ليس ثمة شىء أشد فعالية فى تردينا فى هاوية الجحيم من التأملات الفلسفية والعقلانية التى تنبع من الحواس ... وتنمو وتنضج فى العقل البشرى المتطور . فحاولوا إذن أن تكونوا حميرا ، يأيها الرجال ، ويأيها الذين أنتم بالفعل حمير ، وأدرسوا حتى تسيروا من حسن إلى أحسن ، وتحققوا هذه الغاية والمكانة اللتين لايمكن الوصول إليهما بالمعرفة والجهود مهما عظمت ، بل بالايمان ، واللتين لايحول دونهما الجهل والأخطاء مهما كانت جسيمة ولكن يحول دونهما الكفر . وإذا كنتم بمثل هذا السلوك مقيدين فى سجل الحياة فلسوف تحظون ببركة الكنيسة « المحاربة » ، وبمجد الكنيسة المنتصرة » ، التى « يعيش فيها « الله » ويحكم فى كل العصور .. آمين[٢٦]

أن رؤية برنو للكون رؤية جمالية فى أصلها ، وهى تقدير عميق ينسم

بالتعجب والدهشة من كون لا نهائى ساطع براق . ولكنها كذلك محاولة فلسفية لتكييف الفكر البشرى مع كون يشكل فيه كوكبنا الذى نعيش عليه جزءا غاية فى الصغر من اتساع لا يمكن إدراك مداه . أن الأرض ليست مركز العالم ، وكذلك الشمس ليست مركزا له . وفيما وراء العالم الذى نراه (ولم يكن هناك تلسكوب حين كتب برونو) عوالم أخرى (كما أوضح التلسكوب بعد ذلك بقليل وفيما وراء هذه العوالم الأخرى توجد عوالم أخرى أيضا كما أثبت التلسكوب بعد تحسينه) ، وهكذا إلى ما لا نهاية ، أننا لا نستطيع أن ندرك نهاية أو بداية . وبدلا من النجوم « الثابتة » كما ظن كوبرنيكوس أنها ثابتة ، فانها تغير مواقعها على الدوام ، وحتى فى السموات كل الأشياء تجرى . والفضاء والزمن والحركة كلها أمور نسبية . وليس هناك مركز ولا محيط ، ولا ارتفاع وانخفاض . وتختلف نفس الحركة عند رؤيتها من أماكن أو نجوم مختلفة . ولما كان الزمن هو مقياس الحركة ، فان الزمن نسبي كذلك ، وربما كان هناك نجوم كثيرة تسكنها كائنات حية ذكية . فهل مات المسيح من أجلهم كذلك ؟ على أنه فى هذا الاتساع الذى لا نهاية له ، هناك بقاء ثابت للمادة ، وولاء دائم لا محيد عنه للقانون .

ولما كان الكون لا نهائيا ، فانه لا يمكن أن يكون هناك « لا نهائيان » فاذن يكون « الله » اللانهائى والكون اللانهائى شيئاً واحداً (وهنا قول سبينوزا « الله أو المادة أو الطبيعة) » ، وليس هناك « مدبر أول » كما قال أرسطو . بل هناك حركة أو طاقة متأصلة فى كل جزء من هذا الكل » . « وليس الله عقلا خارجيا . . . . والأجدر به أن يكون القاعدة الداخلية للحركة ، وهى طبيعته وروحه »[٢٧] . والطبيعة هى العقل الخارجى الالهى ، على أن هذا العقل ليس موجودا فى « سماء عليا » ، بل هو موجود فى كل جزء من جزيئات الواقع .

إن العالم يتألف من عناصر دقيقة جداً ومن وحدات لا تقبل الانقسام من القوة ، ومن حياة ، ومن عقل بدائى (وهنا كان برونو همزة الوصل بين لوكريشيوس وليبنتز) ولكل جزء صغير فرديته القائمة بذاتها وعقله الخاص به ، ومع ذلك فإن حريته لا تعنى التحرر من القانون ، ولكنها تعنى (كما قال سبينوزا) سلوكه وفق قانونه وطبيعته المتأصلتين الخاصتين به . وهناك فى الطبيعة قاعدة التقدم والتطور ، بمعنى أن كل جزء يكافح من أجل التطور والنمو . (Entelechia أرسطو) .

وهناك فى الطبيعة أضداد ، وقوى متعارضة ، ومتناقضات . ولكن عمل الكون بأسره فى « مشيئة الله » تتوافق كل المتضادات وتختفى . كذلك فان الحركات المتباينة للكواكب هى التى تحدث الانسجام فى السموات ، ووراء التنوع المحير الساحر فى الطبيعة توجد هناك وحدة أروع وأشد عجبا ، تظهر فيها كل الأجزاء وكأنها أعضاء فى كائن واحد . « أنها وحدة تسحرنى ، فأنا بقوة هذه الوحدة حر ولو كنت مستعبداً ، سعيد فى غمرة الحزن ، غنى فى حمأة الفقر ، حى حتى فى الموت »[٢٨] (إنى ، ولو أنى خاضع للقانون ، أعبر عن طبيعتى الخاصة . وبرغم أنى أقاسى فانى أجد عزاء فى التحقق من أن « شر » الجزء يصبح غير ذى معنى فى المشهد العام للكل) . ومن ثم تكون معرفة الوحدة الأسمى هى هدف العلم والفلسفة ، وهى الدواء الشافى للعقل . (الحب العقلى لله ، عند سبينوزا) .

إن هذه الخلاصة البسيطة لفلسفة برونو تهمل ومضاته وجنونه البطولى ، وهى تنطوى على اتصال وتماسك فى تفكيره مغايرين له كل المغايرة ، لأنها تحتوى على متناقضات وتوكيدات جازمة ، وعلى فيض من التقلبات ، لا تتفق إلا مع المذهلات الكونية . وثمة مجموعة أخرى من أفكاره يمكن أن تسلكه فى عداد المتصوفة المجوس . أنه تحدث عن المزايا الخاصة بكثير من الكواكب ، فذهب إلى أن الأشخاص الذين يولدون « تحت تأثير » الزهرة

ينزعون إلى الحب والبلاغة والهدوء والسلام ، أما الذين يولدون « تحت تأثير » المريخ فيميلون إلى النزاع والبغض . وآمن بالخصائص الخفية للأشياء والأرقام ، وأن الأمراض قد تكون عفاريت ، ويمكن علاجها فى بعض الحالات بلمسة ملك أو لعاب ابن سابع[٢٩] .

وكان وهمه الأخير أنه كان يؤمل ، فى حال عودته إلى إيطاليا واستجواب محكمة التفتيش له ، فى أنه يستطيع أن يقتبس بعض قطع رشيدة من مؤلفاته يخدع بها الكنيسة فتحسبه ابنها البار . وربما راوده الأمل فى أن إيطاليا لم تكن قد سمعت بكتابه الذى نشره فى انجلترا « طرد الحيوان المنتصر » . والذى كان يمكن أن يفسر الحيوان الذى طرد فيه على أنه الكاثوليكية أو المسيحية أو المبادىء الدينية عامة[٣٠] . ولا بد أنه قد تاقت نفسه إلى إيطاليا وإلا كيف نفسر لهفته على قبول دعوة جيوفنى موسنيجو للقدوم إلى البندقية معلما له وضيفاً عليه ؟ وكان موسنيجو سليل أسرة من ألمع أسرات البندقية ، وكان كاثوليكيا ورعا ، ولكنه كان مهتما بالقوى الخفية ، وقد أبلغوه أن برونو كان على علم تام بفروع السحر ، وأنه يختزن فى ذاكرته القوية الكثير من الخفايا والأسرار . وكانت محكمة التفتيش قد أعلنت منذ أمد طويل أن برونو خارج على القانون ويجب القبض عليه فى أول فرصة . ولكن البندقية اشتهرت بحماية أمثال هؤلاء الخارجين على القانون ، متحدية بذلك محكمة التفتيش . وعلى ذلك سارع برونو إلى مغادرة فرنكفورت فى أواخر ١٥٩١ وشق طريقه عبر الألب إلى إيطاليا .

وأعد له موسنيجو مسكنا وتلقى عنه دروسا فى تقوية الذاكرة . ولكن تقدم التلميذ كان بطيئاً وظن أن معلمه قد حجب عنه بعض تقاليد السحر الخفية كما أنه فى نفس الوقت ارتعد فزعا من الهرطقات التى تمثلت فى الفيلسوف الثرثار القليل الحذر ، وسأل موسنيجو كاهن الاعتراف إذا كان يجب عليه أن يبلغ محكمة التفتيش عن برونو ، فنصحه الكاهن بالتريث حتى يتثبت من حقيقة برونو بشكل أدق . وامتثل موسنيجو لمشورة الكاهن ، ولكن عندما

أعلن برونو عن عزمه على العودة إلى فرانكفورت ، أبلغ موسنيجو المحكمة وفى ٢٣ مايو ١٥٩٢ وجد برونو نفسه نزيلا فى سجن المحكمة فى البندقية . وأوضح موسنيجو أنه « تصرف وفق ما أملاه عليه ضميره ، وبأمر من كاهن الاعتراف[٣١] . وأبلغ المتحققين أن برونو كان يعارض كل الأديان ، ولو أن الكثلكة كانت أحبها إلى نفسه ، ولكنه أنكر التثليث وتجسد المسيح وتحول القربان ، وأنه اتهم المسيح والرسل بتضليل الناس وخداعهم بالمعجزات المزعومة ، وأنه قال بأن كل الإخوة أو رجال الدين والرهبان حمير دنسوا الأرض بنفاقهم وريائهم وجشعهم وحياتهم المملوءة بالشرور ، وأن الفلسفة يجب أن تحل محل الديانة ، وأن الانغماس فى « الملذات الدنيوية » ليس خطيئة وأنه ، أى برونو ، أشبع شهواته قدر ما سنحت له الفرص[٣٢] ، وأن برونو كان قد قال له « أنه استمتع بالنساء كثيرا ، ولو أنه لم يبلغ بعد عدد نساء سليمان[٣٣] .

وحققت المحكمة مع السجين على مهل ، من مايو إلى سبتمبر ١٥٩٢ ودفع بأنه كان قد كتب ما كتب بوصفه فيلسوفا ، وأنه كان يستفيد من تمييز بمبوناتزى بن « الحقين » أنه يجوز للانسان أن يناقش ، بوصفه فيلسوفا ، نظريات قبلها بوصفه كاثوليكيا . وصرح بمايساوره من شكوك فى موضوع التثليث . واعترف بأنه مذنب فى أخطاء كثيرة ، وأبدى ندمه عليها ، وتضرع إلى المحكمة وهى تعرف سقامه وعيوبه ، أن تعيده إلى أحضان الكنيسة الأم وأن تزوده بما يلائمه من علاج ، وأن تستعمل معه الرأفة[٣٤] . ولم تستجب المحكمة إلى شىء من هذا وأعادته إلى زنزانته لمدة شهرين آخرين وفى ٣٠ يوليه حققوا معه مرة ثانية ، واستمعوا إلى اعترافه وطلبه الرأفة وأعادوه مرة ثانية إلى السجن . وفى سبتمبر طلبت محكمة التفتيش فى رومه من البندقية إرسال السجين إليها . فاعترضت حكومة البندقية ، ولكن المحكمة أوضحت أن برونو من مواطنى نابلى ، لا البندقية . ووافق السناتو على تسليمه . وفى ٢٧ فبراير ١٥٩٣ تم ترحيله إلى رومه .

وكان جزءاً من إجراءات محكمة التفتيش أن تترك السجين يقبع مكتئباً حزيناً فى السجن افترات طويلة قبل التحقيق وفى أثنائه وبعده . وكادت تنقضى سنة كاملة قبل أن يمثل برونو أمام محكمة روما فى ديسمبر ١٥٩٣ ، وحققوا معه، أو قل عذبوه بالتحقيق ، ثانية ، فى أبريل ومايو وسبتمبر وديسمبر ١٥٩٤ . وأجتمعت المحكمة مرتين فى يناير ١٥٩٥ لتدرس الأوراق . وتقول أوراق المحاكمة أنه فى مارس ١٥٩٥ وأبريل ١٥٩٦ « مثل برونو أمام كبار الكرادلة، وأنهم زاروه فى زنزانته . وأستمعوا له وسألوه عما يمكن أن يكون فى حاجة إليه[٣٥] » ، وفى دسمبر ١٥٩٦ استمعوا إلى شكواه « من الطعام » . وفى مارس ١٥٩٧ استدعى للمثول بين يدى المحققين الذين « استمعوا مرة أخرى إلى ما يحتاج إليه » . ولم تعرف ماذا كان يحتاج إليه ، ولكن النداءات المتكررة توحى بمصاعب يتعذر وصفها ، ليس من بينها هذا التسويف الطويل، المفروض أن الهدف منه هو تحطيم الروح الجياشة إلى حـــد الإذلال المهذب للنفس . وانقضى عام آخر ، وفى ديسمبر ١٥٩٨ سمح له بورق وقلم ، وفى ١٤ يناير ١٥٩٩ استدعى مرة أخرى ، وتليت عليه ثمان مسائل هرطيقية مأخوذة من كتبه . وطلبوا إليه أن يشجبها علنا ، فدافع عن وجهة نظره ولكنه وافق على قبول حكم البابا فى المسائل سالفة الذكر . وفى ٤ فبراير قرر كليمنت الثامن وهيئة محكمة التفتيش أن هذه المقتبسات هرطيقية صريحة . ولم يرد فى أوراق المحاكمة ذكر لآراء برونو فى نظريات كوبرنيكس ، بل أن الهرطقة أنصبت على التجسيد والتثليث . وسمح له بأربعين يوما أخرى للاعتراف بأخطائه .

واستمعوا له مرة أخرى فى ١٨ فبراير ، ثم فى أبريل وسبتمبر ونوفمبر . وفى ٢١ ديسمبر أعلن أنه لن يتراجع . وفى ٢٠ يناير ١٦٠٠ قدم إلى البابا مذكرة يدعى فيها أن المسائل الواردة فى الاتهام اقتبست من مظانها بشكل خاطىء ، ويعرض أن يتولى الدفاع عنها أمام رجال الدين ، ويقول مرة أخرى أنه يرتضى حكم البابا . وبناء على ذلك ، كما تقول سجلات المحاكمة « أصدر قداسة

البابا كليمنت الثامن أمرا بإتخاذ الإجراءات النهائية فى القضية .... وبالنطق بالحكم ، وبإحالة الأخ المدعو جوردانوس إلى المحكمة المدنية » . وفى ٨ فبراير استدعى المحققون برونو ، وكرروا على مسامعه الإتهامات الموجهة إليه ، وأبلغوه أنهم أمهلوه ثمانية أعوام ليراجع موقفه ويبدى الندم ، وأنه وافق على حكم البابا فى أمر مروقه عن الدين ، وأن البابا قرر أنه مارق ، وأن المتهم لا يزال مصراً على هرطقته ، « سادراً فى غيه ، عنيداً ، مكابراً » ، ومن ثم صدر الحكم بإحالته إلى المحكمة المدنية .... إلى حاكم رومه ، الحاضر هنا الآن ليقرر العقوبة التى تستحقها « ولو أننا نرجو جادين أن يخفف من صرامة القوانين ، بالنسبة لما تعانيه من آلام ، وألا يكون جزاؤك الاعدام أو بتر الأعضاء ». ووقع على الحكم ثمانية كرادلة ، من بينهم بللارمين . ويقول كسبار سكيوبيوس — وهو عالم ألمانى تحول حديثا إلى الكثلكة ثم أقام فى رومه — أن برونو ، عندما تلى عليه الحكم ، قال لقضاته : « ربما كنتم يا من نطقتم الحكم بإعدامى ، أشد جزعا وخشية منى أنا الذى تلقيته »[٣٦] .

ونقل برونو على الفور إلى سجن مدنى . وفى ١٩ فبراير ، وهو لا يزال مصراً على موقفه ، جرد من ثيابه وربط لسانه ، وشد إلى خازوق من الحديد فوق ركام من الحطب فى « بيازا كامبودى فيورى » وأحرق حيا على مشهد من جمع غفير متعظ . وكان فى الثانية والخمسين من العمر ، وفى ١٨٨٩ ، أقيم له فى نفس المكان ، تمثال ، جمعت له التبرعات من مختلف أركان الدنيا .

٣ — فانينى وكمبانلا

بعد تسعة عشر عاما من هذا الذى أسلفنا ، ظهرت نزعة مماثلة ، ولقيت من فورها نفس المصير .

ولد جيوليو سيزار لوسيليو فانينى فى جنوب إيطاليا لأب إيطالى وأم

أسبانية — بارود يتزوج ناراً . ويبدو أن تجول فانيني فى أنحاء أوربا — كما فعل برونو - يختبر الأجواء واللاهوتيات ، ويؤلف الكتب ، وفيها ومضات عارضة من فكر ثاقب (مثل قوله أن الإنسان كان يوما من ذوات الأربع) لا تكاد تتوازن مع الهراء الغامض ؛ استقر به المقام فى تولوز (١٦١٧) ، حيث قضى - مثل برونو - عامين نعم فيهما بالهدوء . ولكن أحد المترددين على محاضراته وشى به على أنه يسخر من التجسيد ويعارض فكرة وجود « إله بشرى »[٣٨] . وثمة مستمع آخر ، هو سيردى فرانسون — كسب ثقة فانيني ، واستدرجه — كما فعل موسيجو مع برونو من قبل — وأبلغ أمره إلى برلمان البلدة . فقبض عليه فى ٢ أغسطس ١٦١٨ ، لا بأمر الكنيسة ؛ بل بناء على أمر من مفوض الملك العام . وإستناداً إلى محاضراته اتهم بالإلحاد والتجديف ، وهاتان جريمتان تعاقب عليهما الدولة . وأكد فانيني إيمانه بالله ، ولكن فرانسون زعم أن السجين صرح بالحاده وكفره أكثر من مرة قائلا بأن « الطبيعة هى الاله الوحيد » ، وأقر القضاة شهادة الشاهد ، وعلى الرغم من إحتياجات فانيني الصارخة ، وما أظهره من تقى وورع فى سجنه ، صدر الحكم عليه — وهو فى الرابعة والثلاثين : —

بأن يسلم إلى الجلاد ، الذى يجره إلى سياج تقال ، وهو فى قيصه ، وحبل المشنقة حول عنقه ، حاملا فوق كتفيه إعلانا يقول « ملحد دنس اسم الله » ، وعلى هذه الحال يقوده أمام المدخل الرئيسى لكنيسة القديس ستيفن ، وهناك يجثو على ركبتيه ليطلب الغفران من الله ومن الملك ومن العدالة ، عن تجديفه وإلحاده ، ثم يسوقه إلى ميدان سالين ، ويشده إلى خازوق مقام هناك ، ويقطع لسانه ، ويشنقه ، ثم يحرق جسمه ثم يترك الرماد لتذوره الرياح[٦٥] .

ويروون أن فانيني ، حين جيء به من السجن ليلقى عقابه (٩ فبراير ١٦١٩) صاح معجبا « دعونى أذهب ، دعونى أذهب فرحا مبتهجا لأموت موتة فيلسوف[٣٩] » .

كذلك وله توماسو كمبانللا ، ودم كالابريا الحار يجرى فى عروقه ، وخفف من حرارته لبعض الوقت فى دير للدومنيكان ، ودرس تلزيو وامبيد وكليس ؛ ونبذ أرسطو ، وتناول بالتعريض والتسخيف « قرار البابا بالحرم » من الكنيسة فأودع بالسجن بأمر من محكمة التفتيش فى نابلى لبضعة شهور (١٥٩١-١٥٩٢) وبعد الإفراج عنه ألقى بعض الدروس والمحاضرات فى بادوا ، واتهم بالفسق والفجور ، وهناك دون أول مؤلف هام له فى الفلسفة (١٥٩٤) نصح فيه المفكرين — كما فعل فرانسيس بيكون بعد ذلك بأحد عشر عاما — بدراسة الطبيعة ، لا دراسة أرسطو - وأعد برنامجا للعودة إلى العلم والفلسفة . ولما عاد إلى نابلى انضم إلى مؤامرة لتخليصها من نير أسبانيا . ولكن المؤامرة أحبطت ، وزج به فى سجون الولاية لمدة سبعة وعشرون عاما (١٥٩٩-١٦٢٦) وعذب اثنتى عشرة مرة ، استمر التعذيب فى إحداها أربعين ساعة[٤٠] . وخفف من آلام السجن بالفلسفة والشعر وتصوره للدولة المثالية . وفى قصيدته (السونيت) وعنوانها « الشعب » يعبر عن استيائه عن عجز الأهالى عن مساعدته فى ثورته فيقول :

> الشعب دابة لها مخ مشوش غبى ، لا تعرف قوتها ، ومن ثم تقف محملة بالخشب والحجاره ، تقودها يدان هزيلتان لمجرد طفل بالشكيمة واللجام ، إن رفسة واحدة تكفى لتحطيم القيد ، ولكن الدابة تخاف وتجبن ، وتفعل مايطلبه الطفل ، ولا تدرك قدرتها على إرهابه ، لأن « البعبع » التافه يذهلها ويربكها . وأعجب من هذا أنها تكبل نفسها وتكمم لسانها بيدها - وتجلب على نفسها الموت والحرب مقابل دريهمات (بنسات) يتصدق

بها الملولا عليها من خزائتها هى . إنها تملك كل ما بين الأرض والسماء ، ولكنها لا تعرف ذلك . وإذا هب إنسان لينطق بهذه الحقيقة لقتلته دون أن تغفر له ذنبه(٤١) .

وأهم إنتاج لكمبانللا فى سنوات الشقاء هذه « مدينة الشمس » التى تخيلها قائمة على جبل فى سيلان ، وكل موظفيها صفوة مختارة – وهم قابلون للعزل – عن طريق جمعية وطنية تضم كل من بلغ العشرين من سكان المدينة ، وهؤلاء الموظفون المختارون على هذا الأساس ، يختارون بدورهم رئيس الحكومة ، وهو كاهن يسمونه « هوه Hoh » يفصل هو ومعاونوه فى كل المسائل دنيوية أو دينية . ويشرفون كذلك على زواج الجنسين ، ليستوثقوا من أن النساء والرجال يتصلون بعضهم ببعض لينجبوا أحسن الذرية . إنهم حقا يسخرون منا حين نبدى اهتماما شديدا بنتاج الخيل والكلاب ، ونهمل نسل الإنسان(٤١) ومن ثم ليس هنا مكان للعاهات والتشوهات . والنساء فى مدينة الشمس هذه شركة بين الرجال على الشيوع فى انضباط صارم ، يقتضيهن القيام بتمرينات شاقة ، توفر لهن بشرة صافية ومظهرا عاما طيبا . . فإذا صبغت امرأة وجهها بالمساحيق ، أو استخدمت أحذية عالية الكعبين . . كانت عقوبتها الإعدام(٤٣) ويدرب الجنسان كلاهما على الحرب ، ويكون جزاء من يهرب من ميدان القتال أن يلقى عند الإمساك به فى عرين للأسود والدببة ليلقى حتفه(٤٤) . وكل فرد مكلف بالعمل . ولكن لمدة أربع ساعات فقط ، يوميا (وينشأ الأطفال تنشئة مشتركة ، ويعدون إعدادا نفسيا لاقتسام السلع وفق أسس شيوعية ، أما ديانة هؤلاء الناس فهى عبادة الشمس بوصفها « وجه الإله وصورته الحية » « إنهم يؤكدون أن الأرض بأسرها سوف تعيش فى التئام تام مع عاداتهم وأعرافهم(٤٥) » .

وهذا البيان الشيوعى ، الذى يردد صدى أفلاطون . كتبه كمبانللا فى السجن حوالى ١٦٠٢ ، ونشر فى فرانكفورت آم مين فى ١٦٢٢ . وربما كان

البيان يعبر عن آمال المتآمرين النابوليتانيين ، وربما كان سببا فى احتجاز كمبانيللا فى السجن طويلا ، على أنه تصالح مع الكنيسة فى الوقت المناسب فأفرج عنه . وقد أدخل السرور على قلب أرمان الثامن بتوكيده ، على حق البابوات فى حكم الملوك . وفى ١٩٣٤ أرسله أرمان إلى باريس لينقذه من التورط فى ثورة نابوليتانية أخرى ورعاه ريشليو وحماه . ولكن الثائر المنهوك ، بعد أن استرد شبابه فارق الحياة وهو فى صومعته فى دير الدومنيكان (١٦٣٩) ، وكان يقول : « أنا الناقوس -كمبانللا - الذى يؤذن ببزوغ الفجر الجديد[٤٦] .

٤ — الفلسفة والسياسة

١ — جوان دى ماريانا : ١٥٣٦ - ١٦٢٤ :

كان محور السياسة فى العصور الوسطى تثبيت سيطرة البابا على الملوك جميعهم وتوحيدهم كلهم تحت رايته . أما أبرز مظاهر التاريخ السياسى الحديث فهو صراع الدول القومية التى تحررت من سلطة البابا . ومن ثم كانت أول قضية شغلت بال الفلسفة السياسية فى القرن الذى جاء فى أعقاب الإصلاح الدينى ، هى أن المفكرين الكاثوليك كانوا يطالبون باستعادة سلطان البابا ، على حين طالب المفكرون البروتستانت بالقضاء على سيطرة البابا قضاء تاما ، وكان أنصار البابوية يحاجون بأن الملكية المطلقة التى تطالب بحقوق الملوك الإلهية وتنكر كل الضوابط والقيود التى يفرضها الدين والأخلاق والقانون ؛ قد تمزق إربا إربا ، ولكن دعاة الإصلاح ردوا على هذا بقولهم بأنه ليس ثمة سلطة « فوق قومية » (تتخطى الحدود القومية) يمكن أن توثق فى سعيها لتحقيق خير البشرية ، بل أنها على الأرجح لابد أن تسعى لتدعيم قوتها الخاصة ونفعها الخاص هذا بالإضافة إلى أن كنيسة ذات سلطة عليا قد تخنق كل حرية الحياة وحرية الفكر .

وكان الفلاسفة « السكولاسيون » فى العصور الوسطى ،قد استمدوا سلطة الملك — وهم فى هذا يرددون رأى المشرعين الرومان — من رضا الشعب ، لا من رضا الله ، ومن ثم لا تكون ثمة سلطة الهية للملوك ، ويعزل بحق أى حاكم غير صالح ، كما أن المفكرين الكلفنيين : مثل بليز وبوكانان ومؤلف « قصاص الطغيان » — أيدوا هذا الرأى أيما تأييد . ولكن اللاهوتيين اللوثريين والأنجليكانيين أيدوا حقوق الملوك الالهية كعنصر موازنة ضرورى ضد عنف الشعب ومزاعم البابا ،وقالوا بوجوب الامتثال للملك حتى ولو كان ظالما (٤٧) .

وكان بين المدافعين عن سلطة الشعب كثير من الجزويت الذين رأوا فى هذه النظرية وسيلة لاضعاف سلطان الملوك أمام سلطان البابا . ويحاج الكاردينال بللارمين فى هذا بقوله : إذا كانت سلطة الملك مستمدة من الشعب، ومن ثم خاضعة له ،فانه من الواضح أن تكون تابعة لسلطة البابا المستمدة من الكنيسة التى أسسها المسيح ، وهى بذلك لا تخضع لغير الله . وانتهى لويس مولينا — وهو جزويتى أسبانى — إلى أنه مادام الشعب هو مصدر السلطة الدنيوية ، فانه يجوز له حقا وعدلا — ولكن وفق اجراءات سليمة — أن يخلع الملك الظالم(٤٨) . وجاء فرانشسكو سواريه ،وهو خير من أنجبه المجتمع المسيحى من رجال اللاهوت (٤٩) ، فقرر هذه النظرة من جديد ، مع بعض تعديلات دقيقة قاوم بها مزاعم جيمس الأول الاستبدادية ، واعتنق الرأى القائل بحق البابوات فى عزل الملوك . وأثار دفاع الجزويتى جوان دى ماريانا عن قتل الطغاة سخطا عالميا ، حيث زعموا أنه شجع على قتل هنرى الرابع .

أن ماريانا (الذى لاحظنا بالفعل أنه أعظم مؤرخى جيله) كان من كل الوجوه شخصا مرموقا ، اشتهر بعلمه وفصاحته وجرأته الفكرية . وفى ١٥٩٩ أهدى إلى فيليب الثالث ونشر ،باذن من الرقيب المحلى الجزويتى، رسالته « الملك وتعليمه » ، واستبق هوبز بنصف قرن ، فوصف « حالة الطبيعة » قبل

نشوء المجتمع ، حيث عاش الانسان آنذاك عيشة الحيوان فى البرية ، متحررا من أية قيود أو ضوابط ، اللهم إلا عجزه الجثمانى ، لا يعترف بقانون ولا بملكية خاصة ، يشبع غريزته فى التماس الطعام والرفيقة . ولكن كانت ثمة منغصات فى الحرية التى نادى بها روسو ، من ذلك تكاثر الحيوانات الضارية الخطرة . وعمد الناس إلى حماية أنفسهم عن طريق تنظيم اجتماعى ، وهو أعظم أداة اخترعت آنذاك ، ووسيلة ضرورية لمقابلة أعضاء الدفاع والهجوم الفسيولوجية التى زودت بها الطبيعة الحيوان . وبمقتضى ميثاق صريح أو ضمنى اتفق أعضاء الجماعة على تفويض سلطتهم الجماعية إلى رئيس أو ملك . ولكن السيادة بقيت فى الشعب ، وفى معظم الأحوال تقريبا ، قامت جمعية وطنية (مثل الكورتيز فى أسبانيا — الجمعية التشريعية ، من مجلسين) بالرقابة على السلطة المفوضة للملك أو الرئيس ، واحتفظت بالاشراف على الخزينة وسنت مجموعة من القوانين كانت سيادتها أعلى من سلطة الملك . »

وفى رأى ماريانا أن الديمقراطية أمر مستحيل ، بسبب تفاوت توزيع القدرات والذكاء بين الناس والدمار كل الدمار فى تحديد السياسة عن طريق الاستفتاء[٥٠] . فالملكية المقيدة أو الدستورية أحسن أنواع الحكومات ، فهى تلتئم مع طبيعة الانسان ، وتعاون على بقاء الدولة . ويجب أن تكون وراثية ، لأن الحكومة الانتخابية إن هى الا مثار للفوضى فى فترات دورية .

ويجب أن يكون الملك مقيدا بالقانون وبالضوابط الدينية والأخلاقية ، ويحق الشعب فى عزله إذا طغى . ويجب عليه ألا يغير القوانين أو يفرض ضرائب دون موافقة الشعب . « ويجب عليه ألا يقرر شيئا بشأن الدين[٥١] ، لأن الكنيسة فوق الدولة وينبغى لها أن تحكم نفسها ، ومع ذلك فعليه أن يحمى ديانة البلد ، لأنه إذا أهملت الديانة فلن تقوم للدولة قائمة[٥٢] » . ويجب على الدولة أن تساند الدين فى محافظته على المبادىء الأخلاقية ، وتشجب مصارعة الثيران لأنها تشجع على الوحشية ، والمسرح لأنه يهيج الغرائز

الجنسية[٥٣] ، وتنفق على العناية بالمرضى والفقراء عن طريق التوسع فى إنشاء المستشفيات وتوزيع الصدقات وأعمال البر . وينبغى على الأغنياء أن يعطوا الفقراء ما ينفقونه الآن على مظاهر البذخ وعلى الكلاب . ويجب أن تكون الضرائب عالية على الكماليات ، منخفضة على الضروريات . فان السلع الموجودة فى البلاد يمكن أن تفى بحاجات الجميع إذا أحسن توزيعها توزيعا عادلا [٥٤] . فالأمير الصالح يمكنه أن يحول دون تركز الثروة ، ولم تحل الملكية الخاصة محل الشيوعية البدائية إلا لأن « الجشع العظيم وضع يده على كل النعم الالهية واستأثر بكل شيء لنفسه [٥٥] » . أن هذا نظام ضرورى الآن ، ولسوف تعاد الشيوعية فى السماء [٥٦] .

ويجوز أن يعزل الطاغية ، بل يجوز حقا وعدلا قتله ، حتى بيد فرد ، فى بعض الظروف : —

من هو الحاكم الذى يمكن أن يعتبر طاغية ؟ . . . . إننا يجدر بنا ألا نترك الفصل فى هذا لأى فرد ، أو حتى لأفراد كثيرين ، إلا إذا اشترك صوت الشعب فى هذا جهرا ، وانضم المثقفون والمعروفون بالجدية والرزانة إليه للتداول فى الأمر . . . ولكن إذا جر الأمير البلاد إلى الخراب ، وأساء استخدام ممتلكات الدولة أو الأفراد ، وخرق القوانين العامة ، وانتهك حرمة الدين ، وبدأ يثبت أقدامه فى صلف ووقاحة وعقوق . . . . . وإذا لم يتسن للمواطنين أن يجتمعوا لاجراء مشاورات ومداولات عامة ، ولكنهم عاقدون العزم جديا على وضع حد لهذا الطغيان — ومع افتراض أن هذا عمل بغيض لايحتمل . . . . فانه فى مثل هذه الحالة ، إذا تقدم فرد ، مستجيبا لهذه الرغبة العامة ، وعرض القيام بالقضاء على هذا الحاكم . فأنى لا أعتبر هذا الفرد آثما ولا شريرا . . . . وإنها لفكرة سليمة أن يقتنع الأمراء بأنهم إذا طغوا

وبغوا ... فانه يمكن قتلهم ، لاحقا وعدلا فحسب ، بل أن قتلهم يكون كذلك مدعاة للثناء والفخر(٥٧) .

وأعاد ماريانا إلى ذاكرة قرائه حوادث قتل الطغاة فى التاريخ — هارموديوس وأرستوجيتون اللذين قتلا الطاغية همبارخوس (أثينا - القرن السادس ق.م)، وبرونوس الذى أخرج الطاغية تاركينوس من رومه. وأشار إلى أن أثينا ورومه ، بل فى الواقع كل أوربا المثقفة خلدت ذكرهم . ولكن ماريانا كشف عن تحيزه ، برضائه إلى حد ما عن ذبح هنرى الثالث بيد كليمنت منذ عهد قريب(١٥٨٩) :

ان هنرى الثالث ملك فرنسا خر صريعا بطعنة من أحد الرهبان بسكين مسمومة فى أحشائه . أن هذا منظر كريه .... إن جاك كليمنت درس اللاهوت فى كلية الدومنيكان التابعة لطائفته . وأبلغه رجال اللاهوت الذين استشارهم ، أن قتل الطاغية عمل مشروع . أن موت كليمنت شرف خالد لفرنسا ، كما بدا لكثير من الناس ، فقد اعتبر الكثيرون أنه مات وهو جدير بالخلود ، على حين أن آخرين من ذوى الحكمة البالغة والثقافة العالية استنكروا عمله ووجهوا إليه اللوم(٥٨) .

وقد نذكر أن هنرى الثالث كان يناهض العصبة الكاثوليكية ، وأنه أمر أعوانه بقتل هنرى دوق جيز ، زعيم العصبة . وكان فيليب الثانى ملك أسبانيا يؤيد العصبة ، وقد أمدها ببعض المال ، كما وافق على قتل اليزابث الأولى ملكة انجلترا ، ووليم أورانج . ولم يكن لدى فيليب الثالث أى اعتراض على قتل أى عدو لأسبانيا .

وفى ١٥٩٩ أمر كلوديو أكوافيفا رئيس «مجتمع يسوع»، بتصحيح كتاب ماريانا «الملك» . ولما قتل هنرى الرابع بيد رافاياك (٢٤ مايو ١٦١٠) أعلن

أكوافيفا استنكاره لمبدأ ماريانا فى قتل الطغاة (٨ يولية) وحظر إدراجه فى فى تعاليم الجزويت . وكان ماريانا فى الوقت نفسه قد اعتقل ، لا لتحبيذه قتل الطغاة، بل من أجل احتجاجه على خفض فيليب الثالث لقيمة العملة، وتحذيره اياه من مساوىء التضخم فى رسالة قيمة « تزييف العملة » (١٦٢٥) . واحتمل ماريانا عناء السجن بطريقة فلسفية ، وبقى على قيد الحياة بعد اطلاق سراحه. وتوفى ١٦٢٤ . وهو فى سن السابعة والثمانين .

٢ — جان بودين : ٠٥٣٠ — ١٥٩٦

ما أشد الاختلاف بين بودين وماريانا ؟ إنه لم يكن لاهوتيا له قدمان فى السماء ، ولم يكن مناصرا كئيبا للعصبة ، ولكن كان من هواة السياسة (مثل ميشيل دى لوبيتال ، وهو من أنصار التسامح الدينى ، وكان مستشارا لهنرى الرابع ومن المعجبين به). ولد جان فى آنجرز،وربما كانت أمه أسبانية يهودية وجاء إلى باريس ١٥٦٠،واشتغل بالقانون،ولكنه لم يدرعليه ربحا.وانصرف فى لهفة شديدة إلى دراسة الفلسفة والتاريخ. ودرس فى نهم . العبريةواليونانية والألمانية والايطالية ، وكتابات ليفى وتاسيتس والعهد القديم ، وشيشرون ، ودساتير دول غرب أوربا . وآمن بأن دراسة التاريخ هى بداية الحكمة السياسية . وكان أول ما قدم للمطبعة « منهج لتيسير فهم التاريخ » (١٥٦٦) . وهو كتاب يجده الطالب تافها لاقيمة له ولامتعة فيه،محشوا بالتنميقات البلاغية، والأطناب الممل . إن العقل الفلسفى لايتم نضجه مبكرا.لقد أعتقد بودين وهو فى السادسة والثلاثين أن التاريخ يوحى إلينا بالفضيلة عن طريق الكشف عن هزائم الأشرار وانتصارات الأخيار[٥٩]، ومع ذلك فان الكتاب يعتبر بعد — « مقالات ميكيافللى » — أول كتاب هام فى فلسفة التاريخ .

وفى هذا الكتاب ، وفى كتاب « الجمهورية » الذى جاء بعده — وقبل قرن ونصف قرن من ظهور فيكو ومونتسكيو — نجد تفكيرا منهجيا منتظما فى

المناخ والسلالة باعتبارهما عاملين من عوامل التاريخ . فالتاريخ من وظائف الجغرافيا — الحرارة ، المطر . التربة ، سمات السطح ... أن الجغرافيا تحدد الخلق ، والخلق يحدد التاريخ . وأن الناس لتتباين أخلاقهم وسلوكهم ، تبعا لحياتهم على الجبال أو فى الأودية ، أو على شواطىء البحار . ويتميز أهل الشمال بقوة الجسم والنشاط العضلى . على حين يتميز أهل الجنوب بالحساسية العصبية وحدة الذهن . أما سكان المنطقة المعتدلة ، مثل شعوب البحر المتوسط وفرنسا فانهم يجمعون بين خصائص الشمال والجنوب ، وهم عمليون أكثر من أهل الجنوب، ومفكرون أكثر من أهل الشمال،وينبغى أن تتكيف حكومة أى شعب مع خلقه الذى حددته الجغرافيا والسلالة ، والذى لايكاد يتغير بمرور الزمن/.وعلى هذا الأساس يجب أن يحكم شعوب الشمال بالقوة،وشعوب الجنوب بالدين/.

وفى كتاب أقل شأنا « الرد على تناقضات مالستروا » ، أسس بودين « الاقتصاد السياسى » تقريبا(٦٠) خلل أسباب سرعة إرتفاع الأسعار فى أوربا، وناقش مساوىء خفض قيمة العملة ، ودافع عن حرية التجارة، فى عصر الحماية الطبيعية والاقليمية،وأكد العلاقة بين الواقع الاقتصادى والسياسة الحكومية.

ولكن أروع أعماله — وهو أهم اضافة للفلسفة السياسية فيما بين ميكيافللى وهوبز — هو كتابه « الجمهورية »(١٥٧٦) . وقد استعمل بودين هذه اللفظة بمعناها الرومانى : أى الدولة . وفرق بين الدولة والمجتمع . فالمجتمع قائم على الأسرة ، التى لها أساس طبيعى فى العلاقة بين الجنسين وبين الأجيال . أما الدولة فتقوم على قوة مصطنعة . وكانت الأسرة فى شكلها الطبيعى ، أبوية — أى أن للأب سلطة مطلقة على أزواجه وبنيه وممتلكات الأسرة ، وربما انقصت المدنية بشكل خطير من حقوق الأب . ويجب أن تخضع المرأة دوما للرجل لأنها أضعف منه عقلا ، وفى وضعها معه على قدم المساواة إغفال خطير

« للطبيعة » . وينبغى أن يكون للزوج على الدوام حق الطلاق ، كما ورد فى التوراة . وذهب بودين إلى القول بأن انهيار سلطان الأب وتخلخل إنضباط الأسرة كانا بالفعل يقوضان الأسس الطبيعية للنظام الاجتماعى . لأن الأسرة ، وليست الدولة ، هى وحدة النظام والأخلاق ومصدرها ، فإذا إنهارت وحدة الأسرة والانضباط، فلن يملأ فراغها أية قوانين مهما بلغ عددها(٦١). والملكية الخاصة أمر لا غنى عنه لكيان الأسرة وبقائها . والشيوعية مستحيلة لأن كل الناس ولدوا غير متساوين(٦٢) .

وكان بودين أكثر واقعية من ماريانا وروسو فى مناقشته لأصل الدولة . فليس ثمة لغو وهراء حول ميثاق أو عقد اجتماعى ، فقد تنشأ الجماعات القروية على شىء من مثل هذا الاتفاق . أما الدولة . فقد نشأت بتغلب مجموعة من الأصوات على مجموعة أخرى ، ثم أصبح زعيم الفريق المنتصر ملكا(٦٣) . ولم ينبع اقرار القوانين من ارادة الشعب أو « سيادته » بل من القوة النظامية للحكومة ، — ومن ثم فان الملكية المطلقة أمر طبيعى ، فإنها فى الدولة ، استمرار لسلطة الأب فى الأسرة الأبوية . فلن تكون هناك سيادة لأية دولة إذا خضعت لغير قوانين الطبيعة وقوانين الله(٦٤) . وكما انتهى هوبز إلى هذه النتائج فرارا من الفوضى التى سببتها الحرب الأهلية فى انجلترا (١٦٤٢ — ١٦٤٩) ، فان بودين رأى فى الحكومة الاستبدادية المخرج الوحيد من الحروب الدينية وتمزيق فرنسا ، مع ملاحظة أن كتابه نشر بعد أربع سنوات فقط من مذبحة سانت برتليو، وربما كتب بالدم الذى كان يجرى أنهارا فى شوارع باريس. وبدا لبودين أنه إذا كانت مهمة الدولة هى المحافظة على النظام ، فان هذا لن يتسنى لها إلا عن طريق سيادة مطلقة غير قابلة للتحويل أو التخلى عنها .

وبناء على هذا تكون الملكية غير المقيدة ، الوارثية . هى خير أنواع الحكومات : يجب أن تكون غير مقيدة حتى لاتنتهى إلى الفوضى ، ووراثية تجنبا لشرور النزاع على العرش . فالملكية مثل السلطة الأبوية — سادت فى معظم أنحاء الأرض ، لأطول مدة من الزمن ، ولقد أقرها التاريخ .على حين أن الديموقراطيات لم تحكم الدول إلا لفترات قصيرة فحسب ، ولكنها تنهار، بسبب تقلب الشعب ، وعجز الموظفين الذين يختارهم ، وفسادهم وقبولهم للرشوة(٦٥) ، وفى أية جمعية شعبية يحسب عدد الأصوات دون وزنها أو تقدير قيمتها (من أجل نوعية التفكير الذى أدلى بالصوت) ، فإن عدد الحمقى والأشرار والجهال أكبر ألف مرة دائما من عدد الرجال الذين يقام لهم وزن » . وليس ثمة خلاص للديمقراطية إلا إذا تولى الحكم ، وراء ستار المساواة، نفر قليل من الناس ، ورجح وزن العقول عدد الرؤوس(٦٦) .

واعترف بودين بأنه لابد من إيجاد مخرج من الاستبدادية المطلقة إذا أصبح الحاكم طاغية ظالما . فأباح حق القيام بالثورة أو قتل الطاغية ، وربما كان ذلك على أساس غير منطق . وسلم بأنه حتى ملكياته البالغة حد الكمال ، لابد أن يأتى يوم تنهار فيه ، وتعزل نتيجة تغييرات لامعدى عنها ، وتتعذر الحيلولة دون وقوعها . واستبق هيجل،فقسم التاريخ إلى فترات ثلاث : الأولى سيطرت فيها دول الشرق ، والثانية شعوب البحر المتوسط ، والثالثة أقطار شمالى أوربا . ومن خلال تعاقب القيام أو السقوط هذا ، ذهب بودين إلى القول بأنه يلحظ شيئا من التقدم.ولا يقع العصر الذهبى فى الماضى الأسطورى، بل فى المستقبل الذى سيجنى ثمار أعظم الاختراعات على الاطلاق — وهى الطباعة(٦٧) . وكتب ، (قبل بيكون بنصف قرن .) أن العلوم تدخر فى أعماقها كنوزا لن تقدر على استنفادها أية عصور مقبلة قط .

وكان بودين مفكرا حرا ، مع نظرة كريمة بعين الاعتبار إلى الكتاب المقدس ، (أو بالأحرى إلى العهد القديم، لأنه يتجاهل العهد الجديد تقريبا.) ،

مع انكار تام لحقيقة السحر والملائكة والعفاريت والتنجيم ، وضرورة إقامة دولة ملتئمة مع الخصائص الخفية للأرقام . ونادى بأقصى العقوبة للسحرة ، ونصح الأمراء بالمحافظة على وحدة العقيدة الدينية لأطول وقت ممكن ، ولكن إذا قويت الهرطقة وانتشرت ، فليس من الحكمة قمعها بالقوة ، بل أنه من الأفضل الاعتماد على عنصر الزمن لكسب الهراطقة إلى جانب الدين الرسمى .

أما ماذا عساه يكون هذا الدين ، فلم يفصح عنه بودين . وكان دينه مشكوكا فيه . وفى كتابه الغريب « حديث سبعة رجال » الذى تركه عن عمد دون أن ينشره ، (طبع لأول مرة ١٨٤١) ، صور كاثوليكيا ولوثريا وكلفنيا ويهوديا ومسلما ، وأبيقوريا وربوبيا ، فى مناقشة فى البندقية . وفازت اليهودية ، أما المبادىء المسيحية فى الخطيئة الأصلية ، والتثليث والتجسد فقد كان الهجوم عليها أقوى بكثير من الدفاع عنها . ولم يثبت فى النهاية إلا الإيمان بالله . أن نقاد بودين اتهموه بأنه يهودى وكلفنى وملحد ، وقالوا بأنه مات على غير دين « كالكلب » . ولكن الايمان بالتوجيه الإلهى للعالم ، واضح بأجلى بيان فى « الجمهورية » ، والالحـــاد موضوع خارج نطاق التسامح ، لأنه يهزأ بالكون[٦٩] .

وكان بودين ، مثل هوبز ، رجلا هيابا يحاول أن يتلمس طريقه إلى الهدوء والاستقرار وسط طغيان الثورة والحرب . وأصاب أعظم مؤلفاته عدوى زمانه ، فكان فلسفة لعالم مضطرب معتل يتلهف على النظام والسلام . ولا يمكن أن تقارن بالحكمة المصقولة التى جاءت فى «مقالات» مونتينى الذى كان أقل منه انزعاجا فى تلك السنوات ذاتها . ومع ذلك فانه منذ عهد أرسطوليس ثمة رجل ، ربما باستثناء ابن خلدون ، نشر الفلسفة السياسية على مثل هذا النطاق الواسع ، أو دافع عن آرائه وأهوائه بمثل هذه القوة والعمق ، مثل بودين . ولن تجد قبل ظهور « لفياثان هوبز » مثل هذه المحاولة الجادة لاكتشاف بعض المنطق فى أساليب الدول .

٣ — هوجو جروشيوس : ١٥٨٣ - ١٦٤٥

إذا بقى ذكر هوبج جروتو عالقا بالأذهان ، على حين طوى النسيان تقريبا ذكر معظم الرواد الأول فى حقله، وهو القانون الدولى (*) فقد يرجع هذا إلى أنه عاش كما كتب ، ولأنه ألف كتابه الممتاز فى فترة كانت تعج بدبلوماسية نشيطة وسياسة محفوفة بالمخاطر . ولد هوبج (أوهوجو) فى دلفت ، ودرس الرياضيات والفلسفة والقانون فى ليدن . وامتدح سكاليجر أسلوبه اللاتينى وأثنى عليه ، وفى السادسة والعشرين حظى بتقدير بلاده له بسبب مؤلفه « حرية البحار » (١٦٠٤) الذى أوجز فيه القانون البحرى ، ودافع عن حرية البحار من أجل جميع البلاد ، وبخاصة هولنده التى كانت تتحدى البرتغال التى أدعت أحتكار الطرق البحرية إلى الشرق الأقصى. وعندما عين مؤرخا رسميا للمقاطعات المتحدة ألف بلغة لاتينية قاربت حد الامتياز تاريخا جريئا ، ولكنه دقيق للثورة الكبرى ، ولقد رأيناه يناضل إلى جانب مذهب التحرر الذى نادى به أرمنيوس فى النزاع بين أولد نبار تفلدت وموريس ناسو . فقبض عليه واعترف بأخطائه[٧٠] فحكم عليه بالسجن مدى الحياة . وتوصلت زوجته أن تقيم معه فى السجن ، فسمح لها بذلك . وبعد قرابة ثلاثة سنوات قضاها فى السجن ، خبأته زوجته فى صندوق للكتب ، فهرب من المعتقل ، وقصد إلى فرنسا حيث أجرى عليه لويس الثالث عشر معاشا ضئيلا . وعندما صعدت ألمانيا حرب الثلاثين، ألف جروشيوس الذى كان يعانى الفقر والعوز كتابة « قانون الحرب والسلام » (١٦٢٥) .

(*) وعلى الأخص فرانسيسكو فكتوريا أستـــاذ اللاهوت فى سـلامنكا فى « المحاضرات » (١٥٧٧) .

البريكو جنتيلى أستاذ القانون المدنى فى أكسفورد الذى استبق بكتابة « قانون الحرب » (١٥٨٨) كتاب جردشيوس « دفاع عن حرية البحار » ، ثم فرانسيسكو سورية الذى عرض فى كتاب ضخم فكرة إنشاء عصبة أمم يحكمها القانون الدولى .

رأيت أنه يسود العالم المسيحى نزعة إلى شن الحروب التى قد تخجل منها حتى [illegible] المتبربرة ، فيفزع الناس إلى السلاح لأتفه الأسباب ، أو [illegible] سبب ، حتى إذا ما حملوا السلاح،لم يعد هناك أى احترام لقانون سماوى، أو قانون وضعى ، وكأنما أبيح للناس ارتكاب أية جرائم دون قيد(٧١) .

كان مكيافللى قد ذهب إلى أن الدول لايمكن الابقاء أو الحفاظ عليها إلا إذا [illegible] ن الالتزام بالقانون الاخلاقى المفروض على مواطنيها. فينبغى على رجال الدولة — بالتفويض عادة — أن يكونوا مستعدين للكذب والسلب والقتل ، قدر ما يرون أن هذا أو ذاك مرغوب فيه ، من أجل مصلحة الدولة، لأن الدول ، حتى تلك اللحظة تعيش فى أدغال تتنازع فيها البقاء ، مثلما كانت تعيش الأسرات قبل قيام الدول . وهى لاتعرف قانوناً إلا قانون « صيانة الذات » . ويسلم جروشيوس بأنه يجوز إعفاء الحكومات من « القانون الوضعى » الذى سنه الانسان ، ولكنه يرى أنها ملتزمة بطاعة القانون الطبيعى ويعرف هذا القانون « الحق الطبيعى » بأنه هو أن ما « يمليه ويفرضه « العقل الرشيد » ، ليكشف عن الفساد الخلقى أو الضرورة الخلقية لعمل من الأعمال، باتفاق هذا العمل أو تنافره مع الطبيعة العقلانية ، ومن ثم يوضح أن هذا العمل يحله الله أو يحرمه ، والله هو منشىء الطبيعة أو خالقها(٧٢) . وعلى هذا يكون القانون الطبيعى هو نظام الحقوق والواجبات الذى ينبع من الطبيعة الأساسية للأنسان بوصفه كائنا عقلانيا يعيش فى مجتمع . فكل ما هو ضرورى لوجوده واسهامه فى المجتمع حق طبيعى له ، فهو ناشىء عن طبيعته وملائم لها. ويجب أن تلتزم الدول فى تصرفاتها بمراعاة هذه الحقوق .

ويتابع جروشيوس كلامه فيقول بأن هذا يجب أن يكون خاضعا « لقوانين الشعوب » التى قصد بها القانون الرومانى تلك التى لم تشملها « المواطنة الرومانية » ، فلما انهارت الامبراطورية الرومانية الغربية طبقها مشرعو

العصور الوسطى على علاقات الدول بعضها ببعض . وهذا يصبح فى نظر جروشيوس التجميع المبهم أو غير الواضح لكل القواعد والقيود التى قبلتها معظم الدول المتطورة أو النامية ، بحكم العرف ، فى اتصالاتها المتبادلة . وعلى هذين الأساسين : القانون الطبيعى ، وقوانين الشعوب ، يبنى جروشيوس الهيكل النظرى ، وهو أول صياغة حديثة لقانون دولى مرغوب فيه .

وهو بصفة عامة يحرم الحرب على الاطلاق . وهو يدرك أن الجماعة — مثل الحيوان — اذا أحست بأنها مهددة فى أعز ما تملك أو فى حياتها ، فانها ستدافع عن نفسها بأية وسيلة متاحة — وإذا أمكن بالحجة والبرهان أو بالقانون ، حتى اذا أخفقت هاتان الوسيلتان ، فأية قوة تأتمر بأمرها(٧٣) . وبناء على هذا فان أية دولة فى مثل هذه الظروف يكون لها الحق فى شن الحرب دفاعا عن حياة مواطنيها وممتلكاتهم . ولكن الحرب عمل مجاف للعدالة ولا يمكن تبريره ، اذا شنت من أجل الغزو والفتح ، أو السلب والنهب ، أو من أجل الأرض ، أو لرغبة صادقة أو مزعومة فى فرض حكومة صالحة على شعب غير راغب فيها(٧٤) . والحروب الوقائية جائرة كذلك . د نشر بعض الكتاب مبدأ لا يمكن التسليم به قط ، وهو أن قانون الشعوب يجيز لدولة ما أن تبد أعمالا عدائية ضد دولة أخرى تثير عظمتها المتزايدة فزع الدولة الأولى. وإذا كان هذا مجرد ذريعة نفعية ، فإنه اجراء يجوز اللجوء إليه ، ولكن مبادىء العدالة لا تؤيده(٧٥) . ويجب أن يلتزم الأفراد بالامتناع عن الخدمة فى حروب يرون بوضوح أنها جائرة(٧٦) .

فإذا افترضنا ، حينذاك أن ثمة حربا عادلة مشروعة ، فان لكل أمة تشترك فيها حقوقا ، فلها أن تلجأ إلى الخداع والتضليل ، وتثأر وتسترد الأرض ، وتستولى على الغنائم ، وتأسر وتستخدم الأسرى . ولكن على الأمة واجبات ، مثلما أن لها حقوقا ، فيجدر بها أن تعلن الحرب قبل أن تشنها ، كما تحترم أية معاهدة عقدت بشأنها ، وتلتزم بمسئولياتها فيها بصرف النظر عمن عقدت معه . كما يجدر فى حملات الغزو لمحافظة على حياة النساء والأطفال

والمسنين ، بل على الأصح ، غير المحاربين عامة . ويجوز استرقاق الأسرى ، ولكن لا ينبغى قتلهم . واغتبط جروشيوش لظاهرة طيبة تبشر بالتقدم ، تلك أن المسيحيين والمسلمين لم يعودوا يستعبدون أسراهم الذين على دينهم .

وكانت مناقشة كريمة معتدلة برغم ما شابها من عيوب ، فإذا كان «القانون الطبيعى » أمرا من املاء « العقل الرشيد » ، فمن ذا الذى يحدد أى عقل هو الرشيد ؟ ففى الدولة انما تحدده الحكومة التى تملك قوة مسلحة ، فأساس الامتثال لقواعد السلوك الموصى به ، هو قدرة المشرع على فرضها فرضا . فالقوة لا تؤسس حقا بل تسن قانونا . فالقانون الدولى ينتظر هيئة تشريعية دولية تدعمها قوة دولية ، وهو أساسا لن يتضمن إلا قيودا متواضعة واتفاقات يمكن نقضها ، قبلتها الدول المعنية على أساس أنها ملائمة للظروف التى أبرمت فيها . وإذا عرفنا « قانون الشعوب » بأنه أعراف أكثر الشعوب تطورا فان هذا ، مرة أخرى ، يقتضى ضمنا وجود مرجع ثقة مؤهل وقادر على تحديد الشعوب الأكثر تطورا . وأين هذا المرجع الثقة ؟ فى أوربا ؟ فى الصين ؟ فى دولة الإسلام ؟ وهل تسمح حكومة لمواطنيها ليحكموا ويقرروا لأنفسهم أن الحرب عادلة أو غير عادلة ؟ أنها تستطيع ذلك لو أن جهاز صيانة المبادىء والتوجيه فيها كان جهازا صالحا للوفاء بهذا الغرض .

لقد كان الكتاب غير منطقى ، ولكنه كان ضروريا . لقد شنت ألف حرب جائرة ، وكان من الخير أن يفكر إنسان فى اتخاذ خطوات للتخفيف من أعمال القتل التى ترتكبها الأمم المتحاربة ، طبقا لقيود مقبولة بالتبادل ، ومن الخير استنكار حروب الغزو والسلب والنهب . ومن الخير أن يرتفع صوت ينادى بالرحمة لغير المحاربين والأسرى . وسخرت حرب الثلاثين سنة من هذه الامتيازات والالتماسات . ولكن عندما خفت حدة هذا الجنون المسعور ، بررت حالة ألمانيا بعد الحرب كتاب جروشيوس أبلغ تبرير .

أن ريشليو الذى عقد العزم على الدخول فى حرب الثلاثين سنة ، حبس عن جروشيوس المعاش الذى كان يتقاضاه ، وآوى المؤلف المعرض للمخاطر

إلى همبرج . وفى ١٦٣٣ أرسله أوكسنستيرنا إلى باريس سفيرا للسويد لدى فرنسا ، ولكن جروشيوس — شأن معظم الفلاسفة — كان أكثر إئتلافا مع أفكاره وآرائه منه مع الناس ، فكن بغضه لريشليو ، ثم لمزران من بعده، من أن يحدد دبلوماسيته . وفى ١٦٤٥ عاد إلى التماس الراحة والسلوى بين كتبه . ودعته الملكة كريستينا للاقامة فى بلاطها ، عالما بجزل له العطاء ، ولكنه حظى بموافقتها على اللجوء إلى ألمانيا . فرتبت له الملكة أمر السفر إلى لوبك ، ولكن عاصفة جنحت بالقارب إلى الشاطىء ، فعانى جروشيوس كثيرا من هول الصدمة ومن اقتضاح أمره ، وقضى نحبه فى روستوك فى ٢٩ أغسطس ١٦٤٥ ، وهو فى الثانية والستين من العمر .

وبعد انقضاء مائتين وسبعة وستين عاما غفرت له هولندة « تحرريته » ، وفى ١٨٨٦ أقامت له تمثالا فى مسقط رأسه . وفى ١٨٩٩ وضع مندوبو الولايات المتحدة إلى المؤتمر الدولى للسلام فى لاهاى ، على قبره اكليلا من الفضة ، اعترافا بأن كتابه أسهم لبعض الوقت فى الحد من « لعبة الملوك » .

٥ — الكاهن الأبيقورى

هلا وقفنا ، ونحن نمضى فى طريقنا إلى ديكارت ، وقفه أخيرة ، لنفكر مليا فى سر الكاهن الكاثوليكى الذى أحيا مادية أبيقور . فكان من مظاهر التطور العقلى فى أوربا أن فيلسوف اللذة اليونانى الذى ظل اسمه لعدة قرون مرادفا « للكفر والالحاد » ، يلقى الآن ، وفى غمرة النفور المتزايد من أرسطو، تكريما وتشريفا على يدى كاهن ورع لا عيب فيه ، نباتى مات من فرط تشدده فى الإمساك أيام الصوم الكبير .

بدأ بيير جاسندى حياته ابنا لأحد الفلاحين بالقرب من ديرفى بروفانس، وأظهر من حدة الذهن والشغف بالمعرفة ماهيأ له وهو فى السادسة عشرة

الاشتغال بتعليم « الأدب » ، وفى الخامسة والعشرين تدريس الفلسفة فى جامعة أكس . ورسم كاهنا ، وأصبح قسيسا ورئيسا لكاتدرائية دين . وفى تلك الأثناء كان قد فرغ من تأليف كتاب يتسم بالانفعال والثورة على أرسطو « تمرينات التناقض » . وقد أحرق معظم الكتاب بناء على نصيحة الأصدقاء ، ولكن الأجزاء التى نشرها منه فى ١٦٢٤ نمت عن تأييده «لفلك» كوبرنيكس ، و « ذرية » لوكريشس و « فلسفة » ابيقور . وهنا كانت دعـــوة صارخة للاستشهاد . ولكن بيير كان شابا لطيف المعشر ، متواضع السلوك مواظبا على واجباته الدينية ، إلى درجة يبدو معها أن أحدا لم يفكر فى إحراقه . أنه أعلن طوال حياته عن إيمانه بنظرية « الحقيقتين » — أن الفلسفة يمكن أن ترتضى النتائج التى يفرضها العقل بوضوح ، على حين أنه فى الدين قد يظل المرء يتبع العقيدة والطقوس التقليدية بوصفه ابنا بارا للكنيسة . فأصاب بيير عصفورين بحجر واحد .

وبناء على طلب من مرسن صديق ديكارت ، قدم بيير عدة اعتراضات قوية على فلسفة ديكارت ويحسن أن نوجلها . وفى ١٦٤٥ عين أستاذا للرياضيات فى « الكلية الملكية » فى باريس ، ولكنه سرعان ما أصيب بالتهاب رئوى ، فعاد إلى جو دين ذى الشمس الأكثر دفئا . وهناك كتب أعظم مؤلفاته ، وكلها تدور حول أبيقور : « الحياة السعيدة فى نظرية أبيقور » (١٦٤٧) . و « حياة اللذة عند ابيقور » (١٦٤٩) وكتاب يقع فى ١٦٠٠ صحيفة على نهرين « مبادىء فلسفة ابيقور » (١٦٤٩) .

وبينما واصل بيير تثبيت عقيدته الكاثوليكية ، شرح لقراء اللاتينية فلسفة كل من ابيقور ولوكريشس — المادية والذرية وشرعية اللذة . أن « العلة الأولى » لكل شىء هى « الله » ، ولكن بعد هذه الدفعة الأولى (التى استهل بها كل شىء وجوده) واصل كل شىء مسيرته أو تقدمه بفعل قواه وقوانينه الفطرية المتأصلة فيه . وكل معرفة تنبع من الحواس ، وهى ذات وجود فردى .

أما « الكليات » أو الأفكار العامة ، فهى أدوات نافعة للفكر ، ولكن ليس لها ترابط موضوعى . وليس من شك فى أن الروح غير مادية ، وخالدة ، ولكنها تبدو معتمدة على الجسم وواضح أن الذاكرة من وظائف المخ ، وليست اللذة الحسية لا أخلاقية إذا اتسمت باعتدال حازم . ولكن أقل الملذات تغريرا وغدرا هى ملذات الذهن ، فإن الرياضيات مثلا قد يطرب لها الإنسان ويبتهج بها . وكان جاسندى نفسه بطبيعة الحال « ابيقوريا » ، أى أنه ارتضى فلسفة ابيقور ، ولكنه لم ينغمس فى اللذة الحسية ، بل على النقيض من ذلك ، اتسمت حياته باعتدال بالغ . وإنتابته الحمى بعد صوم طول أكثر مما ينبغى . وأجهز عليه أطباؤه بفصده ثلاث عشرة مرة (١٩٥٥) .

وكان موليير وسيرانودى برجراك من بين مريديه فى باريس . وارتضى فونتنل وسانت أفرموند ونينون دى لنكلوس فلسفته دون لاهوته . وأفاد هوبز من أحاديثه معه . وربما أخذ عنه بعض عناصر علم النفس الحسى ، عن طريق تلميذ جاسندى وصديق لوك ، فرانسوا برنييه الذى نشر «موجز فلسفة جاسندى » فى ١٦٧٨ . وآثر نيوتن « ذرات » جاسندى على « جسيمات » ديكارت ، ووجد عند كاهن بروفنسال تلميحا إلى الجاذبية وفكرة غامضة عنها (٧٧) . وفى القرن الثامن عشر هيأت المادية الكامنة فى جاسندى وتوكيده على العلم والتجريب مقابل منطق أرسطو وميتافيزيقا ديكارت — تقول هيأ له هذا وتلك ، بين الفلاسفة الفرنسيين ، مكانة أرفع من مكانة أى مفكر فرنسى آخر ، باستثناء ديكارت . إذن ماهذا الذى جعل من ديكارت لمدة قرن من الزمان معينا لا ينضب للفلسفه الحديثة ؟

٦ — رينيه ديكارت ١٥٩٦ — ١٦٥٠

أول ما نذكره عن ديكارت أنه تلقى تعليمه على أيدى الجزويت . وكان هذا التعليم نقطة البداية وحجر الشحذ عند كل المراطقة الفرنسيين ، ابتداء

من ديكارت ثم فولتير ، ورينان وأناتول فرانس » بين جدران المعبد صنعت المعاول التى حطم بها المعبد » [٧٨] .

ولد فى لاهى ، وهى بلدة صغيرة بمنطقة التورين بفرنسا . وماتت أمه بالسل بعد ولادته بأيام قلائل ، وورث عنها المرض . وكان فى صباه شاحب اللون ، يسعل سعالا يثير الاشفاق ، إلى حد أن الطبيب لم يبشر بأى أمل فى إنقاذه ، ولم تتخل عنه المرضعة يأساً من بقائه على قيد الحياة ، ولكنها أمدته بالدفء والغذاء من جسدها هى ، فعاد إلى الحياة ثانية . وربما سمى لهذا السبب ، باسم رينيه (وهى لفظة مشتقة من أصل لاتينى بمعنى ولد من جديد) . وكان والده محامياً موسراً ، وعضواً فى برلمان رن Rennes ، وترك لابنه عند وفاته دخلا يقدر بستة آلاف فرنك فى العام .

والتحق فى سن الثامنة بكلية « لافيش » اليسوعية « التى يقول عنها أحد المفكرين الأحرار المتحمسين ومشاهير الرياضيين « يبدو أنها زودته بقدر من الرياضيات أعظم كثيراً مما كان يمكن أن يحصل عليه فى معظم الجامعات فى ذاك العصر [٧٩] » وتبين معلموه ضعف جسمه ويقظة ذهنه فأباحوا له البقاء فى الفراش بعد الوقت المحدد للاستيقاظ ، ولحظوا أنه استغل الوقت فى التهام الكتب ، الواحد بعد الآخر ، وفى كل جولاته من الميتافيزيقا ، ظل يحتفظ بإعجابه الشديد بأساتذته الجزويت ، كما أنهم بدورهم ، نظروا إلى شكوكه بشىء من التسامح الأبوى .

وقصد فى سن السابعة عشرة إلى باريس ليلهو ويعبث ، ولكنه لم يجد شيئا ينغمس فيه ، لأنه لم يكن بعد يحفل بالنساء أو يميل إليهن ، ولكنه بوصفه رياضياً ضليعاً ، انصرف إلى الميسر ، مقدراً أنه يستطيع الاستيلاء على خزانة نادى القمار . والتحق بجامعة بواتييه حيث حصل منها على درجات علمية فى القانون المدنى والقانون الكنسى . وما أن استرد عافيته وقوته ، حتى أذهل أصدقاءه ، بانخراطه فى جيش الأمير موريس ناسو (١٦١٨) . ولما نشبت حرب

الثلاثين عاما انضم إلى قوات مكسيمليان أمير بافاريا ، وتذكر رواية غير مؤكدة أنه اشترك فى معركة « الجبل الأبيض » .

وفى غضون هذه الحملات . وبخاصة فى شهور الشتاء الطويلة التى تعوق مواصلة القتال ، كان ديكارت يتابع دراسته ، وفى الرياضيات بصفة خاصة . وذات يوم (١٠ نوفمبر ١٦١٩) فى نيوبرج بالقرب من أولم فى بافاريا ، اتقى البرد بالقبوع فى « موقد » (من المحتمل أن تكون غرفة مدفأة خصيصا له) وفيها - كما يقول هو — رأى فيما يرى النائم فى ثلاث رؤى أو ثلاثة أحلام، ومضات من النور ، وسمع رعداً ، وبدا له أن روحا سماوية كانت توحى إليه بفلسفة جديدة ، وبعد خروجه من هذا « الموقد » (الغرفة) كان — كما يؤكد لنا — قد صاغ الهندسة التحليلية ، وتصور فكرة تطبيق المنهج الرياضى فى الفلسفة[٨٠] .

ورجع إلى فرنسا فى ١٦٢٢ ، ورتب أموره المالية . ثم استأنف جولانه، فقضى قرابة سنة فى إيطاليا : فقصد من البندقية (ويقولون سيراً على الأقدام) إلى لوريتو حيث قدم إجلاله للعذراء . ورأى رومه فى فترة الغفران (١٦٢٥)، ومر بفلورنسه ولكنه لم يزر جاليليو . ثم قفل عائداً إلى باريس وهناك فى الريف تابع دراساته العلمية . وصحب الرياضى المهندس العسكرى جيرار ديسارج فى حصار لاروشيل (١٦٢٨) . وفى أخريات هذا العام قصد إلى هولندة، حيث قضى فى المقاطعات المتحدة بقية أيام حياته تقريبا ، اللهم إلا بعض فترات قصيرة قصد فيها إلى فرنسا لتدبير شئونه المالية .

ولسنا نعلم لماذا ترك فرنسا ، ويحتمل أن هذا يرجع إلى أنه « بعد أن أفصح عما لديه من أسباب للشك فى أشياء كثيرة[٨١] » ، خشى أن يتهم بالهرطقة، مع أنه كان له أصدقاء كثيرون من رجال الكنيسة هناك، مثل مرسن وبيرول. وربما حاول أن يتجنب الأصدقاء والأعداء على حد سواء ، أملا فى أن يجد فى بلد غريب عزلة اجتماعية (لاسكرية) يستطيع فيها أن يشكل الفلسفة التى

كانت تعتلج بين جنبيه لقد كره ضجيج باريس وثرثرتها ، ولكن لم تقلقه الحركة النشيطة التى تلطفها القنوات — فى امستردام ، وهو يقول « هناك ، وسط الجموع المكتظة من شعب عظيم نشيط ، استطعت أن أعيش وحيداً منعزلا ، وكأنى فى صحراء نائية (٨٢) » . وربما كانت رغبته فى أن يتوارى عن الأنظار ويخفى اهتماماته هى التى دفعته إلى تغيير أماكن إقامته أربعا وعشرين مرة فى السنوات العشرين التالية ، من فرانكر إلى امستردام إلى دفنتر ، إلى امستردام إلى أوترخت ، ثم إلى ليدن ، ولكن بالقرب من جامعـــة أو مكتبة عادة . ومكنه دخله من الاستمتاع بطيبات الحياة الاجتماعية فى قصر صغير مع عدد من الخدم . وامتنع عن الزواج ولكنه اتخذ خليله (١٦٣٤) أنجبت له طفلة . وإنا لنسمع إذ نسمع أن الروح الإنسانية تجلت فيه حين بكى الطفله عند موتها فى الخامسة من عمرها . وقد نجا فى الصواب إذا ظنناه فاترا لاتحركه الأحداث الدنيوية ، ولسوف نجد أنه يبرر كثيراً من الأهواء والمشاعر التى يشجبها رجال الأخلاق عادة . وما كان هو نفسه ليتجرد منها ، فهو عرضة للزهو والغضب والغرور (٨٣) .

لقد بذل ديكارت جهداً جباراً لتحقيق هدفه . انظر إلى ما ألزم نفسه بدراسته الرياضيات، الفيزياء ، الفلك ، التشريح ، الفسيولوجيا ، علم النفس ، ميتافيزيقا ، نظرية المعرفة ، الأخلاق ، اللاهوت . فمن ذا الذى يجرؤ اليوم على أن يحول بين هذا كله ؟ . ومن ثم طمع فى العزلة والاحتجاب عن الأنظار ، وأجرى التجارب والمعادلات والرسوم البيانية . وقدر فرص تجنبه محكمة التفتيش أو تهدئتها ، وحاول أن يهيىء لفلسفته منهجا رياضيا . ولحياته منهجا فلسفيا .

ومن أين يبدأ ؟ إنه فى « مقال فى المنهج » ، وهو الكتاب الفذ الذى يعتبر

* كتبه ١٦٢٩ ، ونشر فى ١٦٣٧ فى مجلد يتضمن كذلك بحوثا فى الهندسة والانكسار والشهب ، ثم أعقبه فى ١٦٤١ كتاب « تأملات فى الفلسفة الأولية » ، ثم كتاب =

فاتحة عصر جديد ، أعلن عن أول مبدأ «كان يمكن ، فى حد ذاته ، أن يقيم علية الدنيا ويقعدها ويثير عليه غضب أولى الأمر ، وهكذا كان . فقد كان الموضوع مكتوبا فى لغة فرنسيه واضحة متميزة ميسرة ، فى صيغة المتكلم الحية الساحرة . لقد أحدث ثورة كبيرة فى التفكير ، وقال ديكارت أنه كان سعيداً بنبذ كل النظريات والمبادئ* والتعاليم ، ويطرح كل جهد ومرجع ، وبوجه خاص الفيلسوف أرسطو . وسيبدأ بصفحة جديدة خالية من أى شىء ، ويشك فى كل شىء . « إن السبب الأساسى فى أخطائنا يمكن فى أهواء طفولتنا[٨٤] ... فالمبادىء التى اعتنقتها فى شبابى ، استمر على الأخذ بها دون أن أتحرى حقيقتها ومبلغ الصدق فيها » [٨٥] .

ولكنه كيف يمضى قدما ، إذا ساوره الشك فى كل شىء ؟ . ولما كان مولعا بالرياضيات ، وفوق كل شىء بالهندسة التى دأبت عبقريته على تحويلها ، فقد تاقت نفسه ، بعد ابتدائه بالشك الشامل إلى العثور على حقيقة يمكن التسليم بها على الفور بصفة عامة مثل بديهيات إقليدس . « إن أرشميدس ، لكى يتيسر له أن يزحزح الكرة الأرضية من مكانها وينقلها إلى مكان آخر ، تطلب أن تكون هناك نقطة واحدة ثابتة لا تتحرك ، وأنا بالمثل ، سيكون لى الحق فى أن استبشر خيرا كثيرا إذا أسعدنى الحظ ، فأضع يدى على شىء واحد مؤكد لانزاع فيه[٨٦] . » وأكد على هذه النقطة متهللا : « أنا أفكر . فإذن أنا موجود[٨٧] » . وهذه أشهر عبارة فى الفلسفة* ولم يقصد بها أن تكون قياسا

= « مبادىء الفلسفة » فى ١٦٤٤ وجاء بعده « رسالة فى انفعالات النفس » فى ١٦٥٠ ، دراسة الإنسان » ١٦٦٢

* كان سانت أوغسطين قد استخدم نفس نقطة البداية هذه ، عند محاولته دحض آراء المتشككين الوثنيين الذين أعلنوا الشك فى كل شىء . ولكنه تساءل : من ذا الذى « يشك فى انه يعيش ويفكر ؟ » « لأنه إذا كان يشك فهو يعيش (٨٨) . واستخدم مونتيني نفس الحجة ضد المتشككين المتطرفين اليونان (أنصار برو ٣٦٥—٢٨٥ ق. م) فى « معذرة إلى ريموند سيبوند » وكان ديكارت قد قرأ مونتيني

منطقياً ، بل خبرة مباشرة لا سبيل لانكارها ، وهى أوضح وأجلى فكرة يمكن أن نحصل عليها ، وتكون سائر الأفكار « صحيحة » على قدر اقترابها من هذه البديهية الأساسية — الادراك الحسى المباشر، من حيث الجلاء والوضوح. وكان « منهج » ديكارت الجديد فى الفلسفة هو أن يحلل الأفكار المركبة إلى مكوناتها ، حتى تصبح العناصر غير القابلة للاختزال أفكاراً بسيطة واضحة جلية، ويبين أن مثل هذه الأفكار كلها يمكن أن تشتق من . أو تعتمد على ، الشعور الأول لكائن يفكر . أننا على العكس ، يجدر بنا أن نحاول أن نستنتج من هذا الادراك الحسى الأول كل المبادىء الأساسية فى الفلسفة .

ومرة أخرى كانت ثورة فى الفلسفة حين اتخذ ديكارت نقطة البداية ، لا الأشياء الخارجيه المفروض أنها معروفة، بل الذات الواعية. لقد اكتشفت فلسفة النهضة « الفرد » ، ولكن ديكارت جعل منه همزة الوصل فى فلسفته . «إنى لأرى بوضوح أنه ليس ثمة شىء أيسر على أن أعرفه ، من عقلى أنا[٨٩] » وإذا بدأنا بالمادة ، وسرنا قدما عبر مستويات الحياه العضوية إلى الإنسان فإن الاتصال أو الترابط المنطقى قد يغرينا بتفسير العقل بأنه مادى . ولكننا لا ندرك المادة إلا عن طريق العقل وحده. والعقل فقط هو الذى يمكن معرفته أو أدراكه مباشرة (دون واسطة) .وهنا تبدأ المثالية ، لا بمعناها الأخلاقى ، بل على أنها فلسفة تبدأ بالحقيقه المباشرة للأفكار ، أكثر مما تبدأ بالأشياء التى تعرف عن طريق الأفكار « وليس ثمة تحقيق يمكن اقتراحه أجدى من تحقيق يحاول تحديد طبيعه المعرفة الإنسانية ومداها[٩٠] » . ولمدة ثلاثة قرون كانت الفلسفة تتساءل عما إذا كان « العالم الخارجى » موجودا إلا كمجرد فكرة .

وكما كان من العسير أن نعبر من الجسم إلى العقل ، بنظرية تقدر قدر كل من مصدر الأحاسيس وقوتها وواضح أنهما ماديتان ، وطبيعة الأفكار التى يبدو أنها طبيعة غير مادية ، فإن ديكارت كذلك ، وقد بدأ بالنفس ، وجد من العسير الانتقال من العقل إلى الأشياء . فكيف يتسنى للعقل أن يدرك أن الأحاسيس التى يبدو أنها تدل على عالم خارجى، ليست شيئا أكثر من حالاته هو (أى العقل) ؟

وكيف يصدق الحواس التي غالبا ما تخدعنا وتضللنا ، أو الصور العقلية التي تكون مشرقة عندما تكون « زائفة » في النوم ، قدر اشراقها عندما تكون « حقيقية » في اليقظة ؟ .

وهربا من سجن النفس « الأنانة » يلجأ ديكارت إلى الله الذي لا يمكن بالقطع أن يجعل من كل حواسنا مجرد خدعة . ولكن متى يدخل الله في هذا المنهج الذي بدأ في جرأة بالشك في كل المعتقدات والمبادىء التي تلقاها الإنسان؟ إن ديكارت لا يستطيع اثبات وجود الله من شواهد بديع صنعه في العالم الخارجي ، ولأنه لم يوضح بعد وجود هذا العالم الخارجي . ولذلك أخرج ديكارت « الله » من « النفس المدركة » ، تماما مثل فعل آنسلم في « البرهان الوجودي » قبل ذلك بستة قرون. وهو يقول : إن لدى تصورا لكائن كامل مثالي قدير عليم ، ضروري ، خالد ولكن هذا الذي يوجد أقرب إلى الكمال من هذا الذي لم يوجد ، وعلى ذلك فان الكائن الكامل المثالي يجب أن يكون الوجود من بين صفاته . ومن الذي كان يستطيع أن يبث فيّ هذه الفكرة إلا الله سبحانه وتعالى ؟ « ومن المستحيل أن أحمل في نفسي فكرة الله ، إذا لم يكن الله موجوداً حقا »[٩١] . وإذا كان الله يريد أن يخدعنا فلن يكون كاملا ومن ثم فانه لا يضللنا عندما تكون لدينا أفكار واضحة جلية ، ولا حين يتيح لحواسنا أن تكشف لنا عن عالم خارجي . « لست أدرى كيف يمكن الدفاع « عنه سبحانه » أو تبرئته من تهمة الخداع والتضليل إذا كانت هذه الأفكار ناتجة عن أسباب غير متعلقة بأشياء جسدية مادية . ومن ثم يجب أن نقر بأن الأشياء الجسدية المادية موجودة[٩٢] » ، ومن ثم تنسد بشكل رائع الهوة بين العقل والمادة ، بين الذات والموضوع ويصبح ديكارت ، بعون من الله ، واقعيا . والعلم نفسه — ايماننا الراسخ يكون منطقي خاضع لنظام ، مطيع للقانون ، يمكن التعرف عليه واحصاء ما فيه — يصبح أمراً ممكنا ، لا لشيء إلا لأن الله موجود ، وحاشا الله أن يكذب .

وإنا إذ نتتبع ديكارت لنشهد « عصر العقل » في طفولته يتراجع فزعا من مغامرات الفكر ، محاولا الولوج ثانية إلى حظيرة الإيمان الدافئة . ورغبة

فى بث الطمأنينة من جديد أطلق على « التأملات » : تأملات رينيه ديكارت فى فلسفه أولى ، أبرز فيها وجود الله وخلود النفس. وأهدى الكتاب إلى « الحكيم الألمعى عميد كلية اللاهوت المقدسة فى باريس » ، أى السوربون ، وتقبل العميد الهدية ، ولكن فى ١٦٦٢ أدرج الكتاب فى قائمة الكتب المحظورة ، « حتى يتم تصحيحه » . وبدأ الكتاب على نفس النسق الجرىء الذى بدأت به « المقالات » « اليوم . . . وقد هيأت لنفسى انقطاعا أكيداً لرياضة روحية هادئة ، فلسوف أنكب أخيراً ، انكبابا منطلقا جاداً ، على استعراض عام لكل آرائى السابقة[٩٣] » . لقد ألقى بها جميعا من النافذة، ثم أجاز لها الدخول من الباب . ولم يكن من بين هذه الآراء ، إيمانه بإله عادل قدير فحسب ، بل كذلك إيمانه بإرادة إنسانية حرة وسط آلية (ميكانيكية) كونية ، ونفس باقية (غير فانية) على الرغم من اعتمادها الواضح على جسد فان . ومهما سلمنا بمنطق العلاقة الوثيقة التى لا تنفصم عراها بين السبب والنتيجة فى عالم المادة والجسد ، فان حرية إرادتنا فكرة من احدى الفكرات الفطرية المتأصلة ، الواضحة الجلية ، الحية المباشرة ، إلى حد أنه لا يمكن أن يشك فيها أحد قط ، مهما حاول كثيراً أن يتلاعب بها (أى الفكرات) فى النظريات المجردة[٩٤].

أن فكرة الله ، وفكرة النفس ، وفكرة المكان والزمان ، وفكرة الحركة، والبديهيات الرياضية كلها فطرية متأصلة ، بمعنى أن النفس لا تستمدها من الاحساس والخبرة ، بل من جوهرها وعقلا نيتها .

(وهنا قد يعترض لوك ، ويوافق كانت) . ومهما يكن من أمر ، فان هذه الأفكار الفطرية قد تظل لاواعية حتى تخرجها الخبرة فى صورة واعية ، والنفس حينئذ لا تكون نتاجا للخبرة ، بل شريكها النشيط المبدع فى إنتاج الفكر . أن هذه النفس العقلانية « القدرة على التعقل » واضح أنها غير مادية ، وليس لأفكارها طول ولا عرض ، ولا موقع ولا وزن ، ولا أية خاصية أخرى من خواص المادة[٩٥] . « إنى أنا ، أى النفس التى أنا بها كما أنا عليه الآن ، هى أساسا متميزة عن الجسد بل حتى من الأيسر أن نعرفها عما نعرفه[٩٦] » . وعلى ذلك فان هذا العقل أو النفس غير المادية يمكن أن تبقى بعد الجسد ، ولابد أنها تبقى .

ترى هل كانت تلك النتائج القوية التي انتهى إليها ديكارت صادقة مخلصة، أو أنه أضفى عليها لونا وقائيا ؟ . هل كان ديكارت تواقا إلى متابعة دراسته العلمية في هدوء وسلام بعيداً عن الاضطهاد والتعذيب، إلى حد أنه كان ينفث الميتافيزيقا مثل عداوة مربكة تحول دون انقضاض الطيور الجارحة عليه ؟ لسنا نملك الجزم بشيء في هذا الصدد . وقد يتسنى لامرىء أن يكون عالما فاضلا على الأقل في الفيزياء ، والكيمياء ، والفلك ، إن لم يكن في البيولوجيا – وفي نفس الوقت يتقبل التعاليم الأساسية في المسيحية . وفي إحدى مقالاته أكد ديكارت أن العقل « لا يحول دون تصديق أشياء نزل بها الوحي الإلهي ، على أنها أكثر يقينية من أرسخ معرفتنا وأجدرها بالثقة[٩٧] » وتنم رسائله مع اليزابث أميرة البالاتين ، في أسلوب فصيح عن التقى والتمسك بالصراط المستقيم . وزاره سالاميوس في ليدن ١٦٣٧ فوصفه بأنه « كاثوليكي غيور جداً[٩٨] » .

على أنه تفرغ في العقد الأخير من حياته للعلم . وحول داره إلى معمل ، وأجرى تجارب في الفيزياء ووظائف الأعضاء ، وإذا طلب أحد زواره أن يرى المكتبة ، أشار يكارت إلى ربع عجل كان يقوم بتشريحه [٩٩] . وكان في بعض الأحيان يتحدث ، كما تحدث بيكون ، عن الفوائد العملية — الهائلة التي يجنيها الجنس البشري حين يستطيع العلم أن يجعل الناس « سادة الطبيعة والمسيطرين عليها [١٠٠] » ، وكثيراً ما أدى توكيده الذاتي على الاستنباط وثقته فيه ، إلى نتائج غامضة . ولكنه — اشتغل شغلا خلاقاً بعدة علوم . وألح على أن يستبدل العلم بالأفكار التجريدية النوعية الغامضة التي سادت علم الفيزياء ، في العصور الوسطى: إيضاحات كمية مصوغة في صيغ رياضية . ولقد شهدنا تطويره الهندسة التحليلية وإشارته إلى حساب التفاضل والتكامل اللانهائي . وحل مشاكل تضعيف المكعب وتثليث الزاوية . وابتدع فكرة استخدام الحروف الأولى من حروف الهجاء لتمثل الكميات المعلومة ، والحروف الأخيرة لتمثيل الكميات المجهولة . ويبدو أنه اكتشف قانون انكسار الضوء مستقلا عن سنل Snell . وحالفه التوفيق في دراسه القوى العظمى التي تحدثها وسائل صغيرة ، مثل البكرة

والأسفين والرافعة والملزمة والعجلة ، وصاغ قوانين القصور الذاتى والتصادم وكمية التحرك ، وربما أوحى إلى بسكال بأن الضغط الجـوى ينخفض بالارتفاع (١٠١) ، ولو أنه أخطأ فى إعلان أنه لا يوجد ثمة — فراغ إلا فى عقل بسكال (١٠٢) . وأشار إلى أن كل جسم محوط بدوامات من جسيمات دقيقة تدور حوله — فى طبقات كروية — وهى فكرة تشبه نظرية المجال المغناطيسى الحالية . وفى البصريات حسب حساباً صحيحاً زاوية الانكسار ، وحلل التغيرات التى يتعرض لها الضوء بفعل العدسة البللورية للعين ، وحل مشكلة تصحيح الزيغ الكرى فى التلسكوب ، وصمم عدسات ذات تقوس بيضى الشكل أو زائدى المقطع ، خالية من هذا الزيغ (١٠٣).

وشرح جنيناً ، ووصفه من الوجهة التشريحية ، وهو يقول أنه شرح رؤس حيوانات مختلفة ليتحقق فى أيها تكون الذاكرة والتصور وغيرهما (١٠٤). وأجرى تجارب على الفعل اللاارادى أو المنعكس، وشرح الطريقة (الميكانيكية) التى تطرف بها العين عند اقتراب الضربة أو اللطمة (١٠٥) . ووضع نظرية للانفعال شبيهة بتلك التى وضعها وليم جيمس وكارل لانج : إن السبب الخارجى للانفعال (مثل وقوع نظرنا على حيوان خطير) يولد ذاتياً أو آنيا فعلا مستجيباً (الهرب) والاحساس المرتبط به (الخوف) ، فالانفعال هو إنجاز الفعل لا سببه . والانفعالات متأصلة فى الفسيولوجيا . ويجب دراستها وتفسيرها على أنها عمليات ميكانيكية ، وليست فى حد ذاتها سيئة لأنها الريح فى أشرعتنا ولكن إذا لم يلطف منها العقل ويحد منها ، فإنها قد تستعبد الانسان وتدمره .

ويمكن اعتبار الكون كله ميكانيكيا ، فيما عدا الله والنفس العقلانية وعرض ديكارت هذه الفكرة وجاليليو ومحكمة التفتيش ما تلتان أمام عينيه — على أنها مجرد فرض : فإذا افترضنا أن الله خلق المادة ووهبها الحركة ، فيمكننا أن نتصور أن العالم يتطور بعد ذلك ، وفق قوانين الميكانيكا ، دون تدخل . إن الحركة الطبيعية للجسيمات المادية فى كون ليس فيه فراغ ، تأخذ شكلا دائرياً يؤدى إلى دوامات مختلفة من الحركة . ويمكن أن تكون الشمس والكواكب

والنجوم قد تكونت بفعل تجمع هذه الجسيمات فى مركز هذه الدوامات ، وكما أن كل جسم محوط بدوامة من ذرات دقيقة — وهذا يفسر التماسك والتجاذب — فإن كل كوكب كذلك محصور فى دوامة من الجسيمات تحتفظ بتوابعه فى مداره ، والشمس مركز دوامة هائلة تندفع الكواكب إليها حول الشمس فى دوائر . وكانت نظريه بارعة ، ولكنها سقطت عندما أثبت كبلر أن مدارات الكواكب بيضاوية الشكل .

ويقول ديكارت بأنه لو كانت معرفتنا تامة كاملة لكان فى مقدورنا أن أن نحول — لا الفلك والفيزيقا والكيمياء ، فحسب — بل كل عمليات الحياة ، باستثناء العقل ذاته ، نحولها إلى قوانين ميكانيكية فإن التنفس والهضم ، بل حتى الشعور ، كلها ميكانيكية ، انظر كيف كان هذا المبدأ مفيداً فى اكتشاف هارفى للدورة الدموية . وطبق ديكارت ، فى ثقة تامة ، فكرة الميكانيكية ، على كل عمليات الحيوانات ، لأنه أبى أن يخلع عليهما القدرة على التفكير العقلى . وربما أحس بأنه مضطر ، من الوجهة الدينية . الى ظلم الحيوانات على هذه الصورة ، لأنه كان قد أسس خلود النفس على عدم مادية الذهن العقلانى ، فإذا كان للحيوانات مثل هذا الذهن كذلك ، لكانت هى الأخرى باقية أو غير فانية ، وربما كان فى هذا ازعاج ، إن لم يكن لهواة الكلاب ، فهو على الأقل لرجال اللاهوت .

ولكن إذا كان جسم الانسان آلة مادية فكيف يتسنى للعقل غير المادى أن يعمل فيه . أو يحكمه بقوة غير ميكانيكيه مثل الارادة الحرة ؟ وهنا يفقد ديكارت ثقته ، فيجيب يائساً بأن الله يرتب تفاعل الجسم والعقل بطرق خفية لا يصل إليها إدراكنا المحدود . وربما أرتأى أن العقل يعمل فى الجسم عن طريق الغدة الصنوبرية الموضوعة بشكل مناسب فى قاع المخ .

وكان أكثر تصرفات ديكارت تهوراً وطيشاً طيلة حياته ، أنه طلب من مرسن أن يبعث مقدما بنسخ من كتاب « التأملات » إلى بعض المفكرين مع دعوتهم لارسال ما يعن لهم من اعتراضات عليه ، ورداً على ذلك دحض

جا سندى آراء ديكارت فى كياسة فرنسية(١٠٦) . فإن الكاهن لم يقتنع بحجة ديكارت الوجودية عن وجود الله . أما هوبز فاعترض على أن ديكارت لم يثبت استقلال العقل عن المادة والمخ. ويقول أوبرى بأن هوبز بصفة خاصة ، كان يميل إلى القول بأن ديكارت لو قصر نفسه على الهندسة تماماً لأصبح أعظم علماء الهندسة فى العالم ، وأنه لم ينسجم مع الفلاسفة(١٠٧) . واتفق هيجينز مع هوبز ، وذهبا إلى أن ديكارت نسج قصة خيالية من عناكب الميتافيزيقا .

والآن وبعد ثلاثة قرون من البحث والمناقشة قد يكون من اليسير أن نتبين نقاط الضعف فى أول منهج حديث جرىء للفلسفة . أن فكرة تحويل الفلسفة إلى صيغ هندسية ، ساقت ديكارت إلى طريقة استنباطية ، اعتمد فيها فى طيش زائد ، برغم تجاربه ، على نزعته إلى الاستنباط . وانه لعمل انتحارى أن نجعل من وضوح أية فكرة وجلائها وبهائها وبداهتها اختباراً لصحتها ، فمن ذا الذى يجسر على هذا الأساس ، على إنكار دوران الشمس حول الأرض ؟ والمحاجة بأن الله موجود لأن لدينا فكرة واضحة متميزة عن كائن لا نهائى بالغ حد الكمال (وهل هذا صحيح ؟) ، ثم المحاجة بأن الأفكار الواضحة المتميزة جديرة بالثقة لأن الله لا يمكن أن يخدعنا ، إن هى الا ضرب من التفكير دائرى غامض مثل مدارات كواكب ديكارت . إن هذه الفلسفة تتضح بمفاهيم سكولاستية العصور الوسطى ، التى نصحت بنبذها . إن شك مونتينى كان أثبت وأبقى من شك ديكارت الذى لم يفعل إلا أن زحزح الهراء التقليدى ليفسح مكاناً لهرائه هو .

ومع هذا كله ، بقى فى علم ديكارت ، أن لم يكن فى « ميتافيزيقاه » ، مايشيع فى نفسه الخوف من الاضطهاد والتعذيب . فإن نظريته فى « ميكانيكية الكون » تركت المعجزات والارادة الحرة فى موقف خطر ومأزق حرج ، برغم اعترافه بالدين القويم والصراط المستقيم . أنه لما سمع باد أنه جاليليو (يونية ١٦٣٣) طرح جانبا مؤلفه الضخم « العالم » الذى كان قد اعتزم أن يضم فيه شتات أبحاثه العلمية والنتائج التى توصل آليها ، وكتب ، وقلبه يقطر أسى وحزناً ، إلى مرسن :

لقد كان لهذا النبأ أعمق الأثر فى نفسى ، حتى كدت أعقد العزم على أن أحرق كل مخطوطاتى ، أو على الأقل أخفيها عن الأنظار . . . وإذا كانت حركة الأرض غير صحيحة . فإن كل مبادىء فلسفتى عن « ميكانيكية العالم » خاطئة ... لأنها كلها مترابطة يؤيد بعضها بعضا ... ولكنى على أية حال لن أنشر شيئاً يتضمن كلمة واحدة تغضب الكنيسة . (١٠٨) وعند وفاته لم توجد إلا قصاصات قليلة من مخطوطة « العالم » .

ولم يأت الهجوم (فى حياته) من الكنيسة الكاثوليكية ، بل من رجال اللاهوت الكلفنيين فى جامعتى أوترخت وليدن . فقد اعتبروا دفاعه عن الإرادة الحرة هرطقة خطيرة تسىء إلى « القضاء والقدر » ، كما رأوا فى « ميكانيكية الكون » فكرة تنزلق به إلى حافة الإلحاد ، فإذا كان الكون يستطيع أن يسير لمجرد قوة دافعة يبدأ بهـــا الله « فما هى إلا مسألة وقت حتى ينجز الله دفعته الاستهلالية أو الأولى هذه . وفى ١٦٤١ ، عندما تبنى أحد أساتذة أوترخت فلسفة ديكارت ، أغرى رئيس الجامعة ، جسبرت فوشيوس ، ولاة الأمور فى المدينة بإدانة الفلسفة الجديدة وتحريمها . فما كان من ديكارت إلا أن شن هجوما على فوشيوس ، الذى رد عليه رداً عنيفاً ، وعاود ديكارت الكرة ، وقارعه الحجة بالحجة . وفى ١٦٤٣ دعا القضاء الفيلسوف للمثول أمامهم . ولكنه رفض ، وصدر الحكم عليه . فتدخل أصدقاؤه فى لاهاى ، فقنع أولو الأمر فى المدينة بإصدار قرار بحظر أية مناقشه علنية تأييداً أو تفنيداً لآراء ديكارت .

ووجد بعض السلوى فى صداقته مع الأميرة اليزابث التى كانت تقيم فى لاهاى مع والدتها اليزابث ناخبة البلاتين ملكة بوهيميا المخلوعة . وكانت الأميرة فى التاسعة عشرة حين ظهر كتاب « المقالات » ١٦٣٧ ، فقرأته فى دهشة ممزوجة بالابتهاج والسرور بما رأت أن الفلسفة واضحة مفهومة يسهل إدراكها ، والتقى بها ديكارت وابتهج بما رأى من أن الميتافيزيقا قد تقسم

بالجمال . وأهدى إلى الأميرة الصغيرة كتابه « مبادىء الفلسفة » وكتب كلمة الأهداء فى لغة تفيض بملق بالغ البهجة والسرور . وماتت حيث كانت رئيسة دير للرهبات فى وستفاليا (١٦٨٠) .

ولم يطب المقام لديكارت فى هولنده ، كما كان من قبل ، فكان كثير التردد على فرنسا : (١٦٤٤ ، ١٦٤٧ ، ١٦٤٨) . وآثار فيه الروح الوطنية معاش أجرته عليه حكومة لويس الرابع عشر الجديدة (١٦٤٦) . واحتال للحصول على أحد المناصب الإدارية ، ولكن اقتراب نشوب الحرب الأهلية (حرب الفروند) عاد به إلى هولنده ، فزعا . وفى فبراير ١٦٤٩ تلقى دعوة من كريستينا ملكة السويد ، ليحضر ليلقنها الفلسفه . وتردد فى قبول الدعوة ، ولكن سحرته رسائلها التى تمت فى لغة فرنسية ممتازة ، على ذهن متلهف ، انحاز بالفعل إلى « البهجة الغالية » (فلسفة ديكارت) . وبعثت إليه بأحد أمراء البحر يستميله ، ثم ببارجة حربية لتقله ، فاستسلم وأبحر فى سبتمبر من أمستردام إلى ستكهولم .

واستقبل بكل مظاهر الحفاوة والتكريم ، ولكن أزعجته رغبة الملكة فى أن تتلقى الدروس ثلاث مرات فى الأسبوع ، فى الساعة الخامسة صباحاً ، وكان ديكارب قد تعود أن يبقى فى فراشه إلى وقت متأخر ، والتزم بالمواعيد التى حددتها الملكة طيلة شهرين ، فكان يخرج من بيته إلى مكتبة الملكة فى فجر الشتاء وثلوجه ، وفى أول فبراير ١٦٥٠ انتابه برد انقلب إلى التهاب رئوى ، وفى اليوم الحادى عشر فارق الحياة بعد أن تلقى الأسرار المقدسة الكاثوليكية الأخيرة .

وكان قد اتخذ لنفسه شعارا ، هو « يعيش سعيدا من يتوارى عن الأنظار ويتكتم كثيراً » . ولكن شهرته كانت قد طبقت الآفاق قبل موته بعدة سنوات . لقد نبذت الجامعات فلسفته واشتم رجال الدين رائحة الهرطقة فى

تقواه ، ولكن رجال العلم أطروا رياضياته وفيزياءه ،.ولكن دنيا الاناقة فى باريس ، أقبلت فى سرور بالغ على مؤلفاته التى كتبها فى لغة فرنسية مشرقة جذابة . وسخر موليير من « السيدات العالمات » اللاتى تبادلن أنباء الدوامات فى الصالونات ، « ولكنهن لم يطقن الفراغ » وكان الجزويت حتى تلك اللحظة متسامحين مع تلميذهم النجيب ، وكانوا قد أسكتوا واحدا من طائفتهم شرع يهاجم ديكارت[١٠٩] ، ولكنهم بعد ١٦٤٠ ، لم يعودوا يظلونه بحمايتهم .وكان لهم فى ١٦٦٣ ضلع فى ادراج مؤلفاته فى قائمة الكتب المحظورة . ورحب بوسويه وفنلون ببراهين ديكارت على المبادىء الأساسية فى المسيحية،ولكنهم رأوا فى تأسيسها على العقل خطرا على العقيدة ، واستنكر بسكال الاعتماد على العقل ، على أعتبار أن هذا العقل ريشة فى مهب الريح .

ولكن اعتماد ديكارت على العقل ، هو الذى ، على وجه الدقة ، أيقظ ذهن أوربا ، وأوجز فونتنل الأمر بقوله « أن ديكارت ... هو الذى أمدنا بطريقة جديدة للتفكير . تدعو إلى الاعجاب أكثر مما تدعوا فلسفته ذاتها، تلك التى يعتورها قدر كبير من الزيف والشك ، وفقا للقواعد التى علمنا أياها هو نفسه[١١٠] » . إن شك ديكارت أدى لفرنسا — أو للقارة بصفة عامة — ما أداه بيكون لانجلترا : — أنه حرر الفلسفة من أغلال الزمن وأطلقها لتبحر فى جرأة وشجاعة فى بحر مكشوف ، حتى ولو أنها مالبثت أن عادت ، عند ديكارت نفسه إلى شاطىء الأمان المألوف . ولسنا نقول بأنه كان ثمة انتصار عاجل أو فورى للعقل ، فإن التقاليد والأسفار المقدسة كانت أكثر ثباتا وقوة فى أزهى عصور فرنسا ، وهو « القرن العظيم » أى عصر لويس الرابع عشر ، أنها كانت حقبة بورت رويال وبسكال وبوسويه ، أكثر منها حقبة خلفاء ديكارت . أما تلك الحقبة نفسها فى هولنده فهى عصر سبينوزا وبيلى ، وفى انجلترا عصر هوبز ولوك . أن الزرع كان يخرج شطأه .

وكان لأعمال ديكارت بعض الأثر على الأدب والفن فى فرنسا . إن

أسلوبه كان ابتداعا منعشا . وهنا كانت الفلسفة بلغة قومية فى متناول الجميع بشكل خطير ، وقلما يتحدث فيلسوف بمثل هذه الألفة الساحرة وهو يعدد مغامرات العقل وتجاربه المثيرة بمثل السلاسة والحيوية التى يعدد بهما فرواسار وبطولات الفروسية ومآثرها . ولم يكن كتاب « مقال فى المنهج » مجرد رائعة من روائع النثر الفرنسى . بل أنه كذلك ضرب ، للعصر الزاهر فى فرنسا ، مثلا ، فى لغته وأفكاره ، للترتيب وبراعة التفكير والاعتدال فى الآداب والفنون والسلوك والحديث . وتلاءم توكيده على الأفكار الواضحة الجلية مع الذهن الفرنسى ، وأصبح رفعه من شأن العقل أول قاعدة من قواعد الأسلوب الممتاز عند الناقد الفرنسى بوالو :

« أحب العقل إذن ، ولتستمد كتاباتك وقيمتها منه وحده[111] » .

وباتت الدراما الفرنسية لمدة قرنين من الزمان بلاغة العقل التى تنافس تمرد العاطفة والهوى وربما عانى الشعر الفرنسى بعض الشىء من ديكارت ، فإن مزاجه وآلياته (ميكانيكيه) لم يتركا للخيال أو الأحاسيس سوى مجال ضيق . إن فوضى رابليه المهتاجة واستطراد مونتينى الذى لا ضابط له ، بل حتى الاضطرابات العنيفة فى الحروب الدينية ، أن هذه كلها أفسحت المجال ، بعد ديكارت، لمناقشات كورنى العقلانية، ولوحدات راسين الحازمة ، ولتقوى بوسويه المنطقية ، ولقانون الملكية والبلاط ونظامهما وشكلهما وسلوكهما فى عهد لويس الرابع عشر . وأسهم ديكارت ، عن غير قصد منه فى ابتداع طراز جديد فى الحياة الفرنسية ، كما فعل فى الفلسفة سواء بسواء .

وربما كان أثره فى الفلسفة أعظم من أثر أى مفكر آخر قبل كانت . لقد استقى مالبرانش منه ، وتتلمذ سبينوزا على منطق ديكارت ، واكتشف نقاط الضعف فيه عند شرحه . وقلد « المناقشات » فى نبذة عن سيرة حياته بعنوان « تحسين التفاهم » ، وتبنى المثل الأعلى الهندسى فى كتابه « الأخلاق » ، وبنى بحثه فى « استرقاق الإنسان » على بحث ديكارت « رسالة فى انفعالات النفس» .

وبدأت تقاليد المثالية فى الفلسفة الحديثة ، من بركلى إلى نخت، بتوكيد ديكارت على الفكر بوصفه الحقيقة الوحيدة المعروفة بطريق مباشر ، مثلما انحدرت تقاليد التجريبية من هوبز إلى سبنسر . ولكن ديكارت قدم للمثالية ترياقا — مفهوم كون موضوعى ميكانيكى تماماً — فإن محاولته لفهم العمليات . العضوية وغير العضوية ، سواء بسواء ، على أساس ميكانيكى، هيأت البيولوجيا والفسيولوجيا قوة دافعة متهورة ولكنها مجدية . وتحليله الميكانيكى للاحساس والخيال والذاكرة والإرادة ، أصبح معيناً لا ينضب لعلم النفس الحديث . وبعد أن دعم القرن السابع عشر فى فرنسا العقيدة القويمة بديكارت ، وجدت استثارة القرن الثامن عشر أرضاً خصبة فى شكه المنهجى ، وفى اعتماده على العقل، وفى تفسيره لكل حياة الحيوان على نفس أسس الفيزياء والكيمياء[١١٢]. إن اعتداد الفرنسى — المغترب بنفسه اعتداداً لم يتزعزع قط ، كان يبرره أثره المتزايد على الذهن الفرنسى .

إن « المناظرة الكبرى » بين العقل والإيمان كانت تتخذ شكلا واعياً . ولكن تاريخها الحديث كان قد بدأ فقط . إننا إذا ألقينا نظرة على الأعوام التسعين من ١٥٥٨ - ١٦٤٨ ، من اليزابث إلى ريشليو ، ومن شكسبير إلى ديكارت ، لأدركنا أن كل القضايا المستحوزة على الأذهان لاتزال محصورة فى المسيحية، بين المذاهب الدينية المتنافسة المؤسسة كلها على انجيل قبله الجميع على أنه « كلمة الله» ، وثمة مجرد أصوات شاردة كانت تقول بأن المسيحية نفسها يمكن أن توضع موضع الاختبار، وبأن الفلسفة لن تلبث أن تنبذ كل مذهب خارق للطبيعة .

وبعد هذه المراحل الأولى من الصراع بقيت الكاثوليكية مسيطرة فى أسبانيا والبرتغال حيث ظلت محاكم التفتيش تنشر الرعب والكآبة . أما فى إيطاليا فقد اتسمت الديانة العتيقة بروح أكثر إنسانية ، وأضفت بالفن على الحياة شيئاً من الجمال، وزينت الأخلاقيات بالأمل ، ولم تضت فرنسا حلا وسطاً، وعاشت المسيحية نشيطة مزدهرة بين الشعب ، كاثوليك أو هيجونوت ، على

حين أن الطبقات العليا كانت تسرح وتمرح فى الشك ، مرجئة التقى والورع إلى دنو الأجل المحتوم . وقامت فى الأراضى الوطيئة تسوية جغرافية ، فأبقت المقاطعات الجنوبية على الكثلكة ، وانتصرت الكلفنية فى الشمال . وأنقذ البروتستانتية فى ألمانيا كاردينال فرنسى ، وثبتت بافاريا والنمسا على ولائهما القديم ، على حين أعيدت المجر وبوهيميا إلى حظيرة البابا ، وأصبحت البروتستانتية قانون الأرض أو المبدأ الرسمى فى اسكندناوة ، ولكن ملكة السويد آثرت طقوس رومة ، واقترحت البزابث فى إنجلترا اتحادا كريما بين الطقوس الكاثوليكية والحرية الوطنية ، ولكن البروتستانتية الإنجليزية التى تفرقت شيعا أبرزت حيويتها وغامرت بحياتها .

وفى غمرة تناحر الجيوش والمذاهب ، كانت « دولية العلوم » تكافح للافلات من الخرافة والخوف . كانت تخترع أو تعمل على تحسين الميكروسكوب والتلسكوب والترمومتر والبارومتر ، وكانت تبتكر اللوغاريتمات والنظام العشرى ، وتصلح التقويم ، وتبتدع الهندسة التحليلية ، وكانت تحلم ، لفورها ، بتحويل كل المواقع إلى معادلة جبرية . وكان تيكوبراهى قد قام بكل الأرصاد المتكررة الصابرة التى مكنت لكبلر من صياغة قوانين حركة الكواكب ، التى أنارت الطريق أمام نيوتن ليبصر بقانون كونى عام واحد . وكان جاليليو يكشف عن عوالم جديدة أوسع ، بمناظيره المقربة التى كان يعمل على تحسينها وتكبيرها باستمرار ، وفى قاعات محكمة التفتيش كان النزاع بين العلم والدين يفرغ فى قالب مسرحى . وفى مجال الفلسفة ارتضى جيوردانو برونو الاعدام حرقا حتى الموت ، فى محاولته لإعادة فهم الألوهية والكون على أسس تلتئم مع أفكار كوبرنيكس ، كما أن فرانسيس بيكون الذى يدعو ذوى العقول المفكرة إلى العلم ، كان يخطط مهام

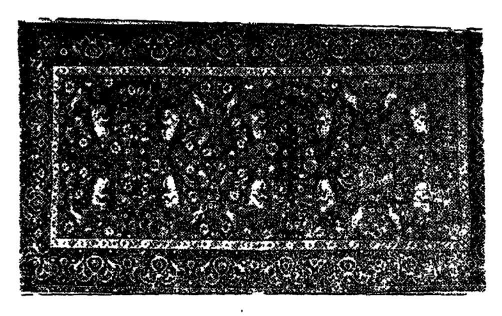
العلوم ومسئولياتها لعـدة قرون مقبلة ، أما ديكارت ، بشكله العام الشامل ، فقد ألقى على عصر العقل عبئا جديدا . وتشكلت الأخلاق والعادات والسلوك تبعا لتقلبات العقيدة . وتأثر الأدب نفسه بالصراع ، وكان لآراء الفلاسفة صداها فى شعر مارلو وشكسبير ودون . وسرعان ما تتضاءل أهمية الثورات والحروب بين الدول المتنافسة إذا قورنت بالصراع السائد المتزايد بين الإيمان والعقل الذى أهاج ذهن أوربا وحوله ، بل ربما ذهن العالم بأسره .



فرانس هالسن ـ متحف اللوفر بباريس (ص ٨٠)



أنتونى فانديك ـ متحف ميونخ (ص ٦١)



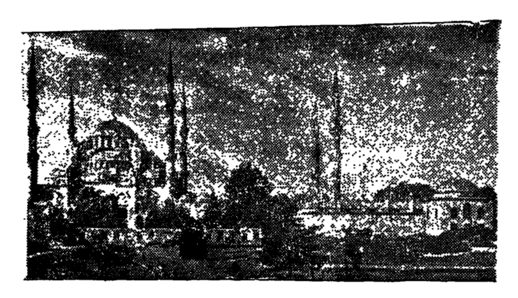
سجادة عجمى ـ متحف المتروبلتان بنيويورك (ص ١٦٤)



استيفن باثورى ملك هولنـدا (ص ١١٦)



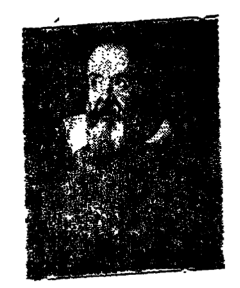
شاعر يجلس فى الحديقة بأصفهان (ص ١٦٠)



جامع السلطان أحمد بالقسطنطينية (ص ١٣٩)



الشـاه عبـاس الأكبر (ص ١٤٨)



جاليليو ـ متحف الفن بفلورنس (ص ٢٦٤)



مدخل ميـدان مسجد الشاه بأصفهان (ص ١٥٢)

المراجع

CHAPTER XVII

1. Geyl, *Rcvolt of the Netherlands,* 16
2. Sombart, *The Jews and Modern Capitalism,* 65; Sèe, *Modern Capitalism,* 31.
3. Motley, *Rise of the Dutch Republic,* I, 217; Janssen, *History of the German People* VIII, 13.
4. Motley, I, 217.
5. Janssen, VIII, 14f,
6. Voltaire, *Essai sur les moeurs,* ch. cxxxvi, in *Works,* XIVb.
7. Motley, I, 207.
8. Ibid., 206.
9. Blok, *History of the People of the Netherlamds,* III, 11; Motley, I, 375f.
10. Ibid., 283.
11. Geyl, 78.
12. Ibid., 86.
13. Janssen, VIII, 19.
14. *Cambridge Modern History,* III, 200.
15. Acton' *Lectures,* 144.
16. Motley, I, 453-4.
17. Ibtd., 465-8.
18. *Camb. Mod. History,* III, 207-8,
19. Motley, I, 478f.
20. Janssen, VIII, 23,
21. Motley. 1, 526.
22. Janssen, VIII, 25.
23. Prescott, *Philip II,* II, 161.
24. Blok, III, 42,
25. Pastor, *History of the Papes,* XVIII, 97.
26. Blok, III, 51.
27. Pastor, XVIII, 101.
28. Motley. I, 628; Janssen, VIII, 123.
29. *Camb. Mod. History,* III, 232.
30. Motley, II, 72-4.
31. Geyl, 128; Lacroix, *Military and Religious Life in the Middle Ages,* 440.
32. Motley, II, 40.
33. Ibid., 101.
34. Voltaire, *Esssai,* ch. cxxxvi; *Works,* p. 294; Hume, *M.,* *The Spanish People,* 372.
35, Pastor, *Popes,* XX, 3.
36. Motley, II, 151.
37. Ibid., 169.
38. 515.
39. Geyl, 165.
40. Ibid,, 130.
41. 128.
42. *Camb. Mod. History,* III, 250.
43. Blok, III, 121-3.
44. Geyl. 162; Pastor, XX, 9.
45. Motley, II, 646.
46. Robinson. J. H., *Readings in Europeam History,* 325; Motley, II, 637.
47. Figgis, *From Gerson to Grotius,* 228.

48. *Camb. Mod. History*, III, 258.
49. Blozo. III, 179.
50. Ibid., 239.
51. Geyl, 206, 215, 231; Ranke *History of the Popes*, II, 221.
52. Blok, III, 415.
53, *Camb Mod History*, III, 646.
54. Blok, III 413,

CHAPTER XVIII

1. Robinson, *Readings*, 556.
2. Prescott, H. F., *Mary Tudor*, 331.
3. Vienna.
4. Prado.
5. Brussels, Vienna, Louvre.
6. Brussels.
7. Rooses. *Rubens*, 1, 9.
8. Pitti Gallery, Florence.
9. Uffizi Gallery, Florence.
10. Grenoble Museum.
11. Rooses, I, 638
12. Burckhardt, *Recollections of Rubens*, 21.
13. Janssen, XI, 161.
14. Dresden.
15. Knackfuss, H., *Van Dyck*, 4.
16. Munich.
17. Lichtenstein Collection, Vienna.
18. Vienna.
19. Geneva.
20. Munich.
21, London.
22. Pitti Gallery.
23. Dresden.
24. Louvre.
25. Vienna.
26. Madrid.
27. Vienna, Madrid.
28. London.
29. Craven, *Treasury af Art Masterpieces*, 105.
30. Antwerp.
31. Fülop-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 422.
32. Munich.
33. Hartford, Conn.
34. Antwperp
35. Antwerp cathedral and Brussels Museum.
36. Vienna.
37. Vienna.
38. Sarasota, Fla.
39. Rooses, *Rubens*, I, 395.
40. Ibid., 417.
41. Pitti Gallery.
42. Boston.
43. Rooses, I, 414.
44. Munich.
45. Munich.
46. Hamburg.
47. Vienna.
48. Munich.
49. Munich.
50. Louvre.
51. Brussels.
52. The Hague
53. Frick Collection, New York.
54. Windsor Castle.
55. Burckhardrt, *Recollection*, 15.
56. Rooses, I, 600.
57. Louvre.

58. Vienna.
59. Knackfuss, 8.
60. Munich.
61. Frick Collection.
62. Brussels.
63. Detroit.
64. Munnich.
65. Vienna.
66 Antwerp.
67. Knackfuss, 9
68. Pitti Gallery.
69. Wallace Collection, London.
70. Lovure.
71, Vienna.
72. Vienna.
73. Lichtenstein Gallery, Vienna.
74 Knackfuss. 76.
75 New York.
76. Ibid.
77. Frick Collection, New York.
78. Fitzwilliam Collection.
79 Dresden.
80. Munnich.
81, Uffizi Gallery.
82. Blok, III, 333, Mousnier, 160.
83. Maverick, L. A., *China a Model for Europe*, 5.
84. Adams, Brooks, *Law of Civilization and Decay*, 107.
85. Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 123.
86. Gooch, *Democratic Ideas*, 45.
87. Geyl 211.
88. Ogg, *Europe in the Seventeenth Century*, 412.
89 Geyl, 238; Blok, III, 354.
90. Fischer. K., *Descartes and His School.* 212.
91. Taine, H., *Lectures on Art*, 322.
92. *En Br.*, X, 498d.
93. In Taine, *Lectures.* 183.
94. Day, Clive, *History of Commerce*, 200
95. Sée, *Modern Capitalism*, 32.
96. Wilenski, R H., *Dutch Painting*, 132
97. Baedeker, K., *Belgique et Hollande*, 383
98. Chute, *Ben Jonson*, 301.
99. Geyl, 206.
100 Honey, W.B , *European Ceramic Art*, 31.
101. Wilenski, *Dutch Painting*,10.
102. Taine, *Lectures*, 333
103. Hauser, *Social History of Art*, I, 467.
104 Davies, G, S., *Frans Hals*, 19.
105. Amsterdam.
106. Haarlem.
107. Lord Northbrooke Collection.
108. Wallace Collection.
109. Devonshire House.
110. Haarlem.
111. Haarlem.
112. Haarlem.
113. Haarlem.
114 Amsterdam.
115. Antwerp.

116. Haarlem.
117. Berlin.
118. Louvre
119 Cassel
120 Mather, F. J, *Western European Painting of the Renaissance*, 461.
121 Chicago.
122 Berlin.
123. New York.
124 The Hague
125 Michel, E. *Rembrandt*, I, 63
126 Amsterdam
127 The Hague
128 The Hague
129 The Hague
130. Duke of Devonshire Collection.
131. Rothschild Collection.
132. Leningrad.
133 Louvre
134. New York.
135 Brussels.
136 Amstredam.
137. Michel, *Rembrandt*, II, 214.
138. Edinburgh
139. Louvre.
140 Louvre.
141. London
142. Berlin
143. Cassel.
144 Berlin.
145 New York.
146 Washington.
147. Leningrad.
148. London.
149. Glasgow.
150. Cassel.
151. Still with the Six family in Amsterdam.
152 Berlin
153 Frick Collection.
154 Wallace Collection
155. Beard, Miriam [illegible] *of the Business* [illegible] 16.
156 Marcus Kappel Collection, Berlin
157 New York
158 'Louvre,
159. Amsterdam.
160. Leningrad.
161. Amsterdam.
162. Froment in Wilenski, *Dutch Paining*, 93.
163. Self-portrait in the Louvre.
164. New York.
165. I de Bruyn Collection.
166. Rathenau Collection.
167. In Michel, *Rembrandt*, I, 259.
168. Wilenski, *Dutch Painting*, 93.
169. Ibid.
170. Meier-Graefe, *Spanish Journey*, 313.

CHAPTER XIX

1 Gade, *Tycho Brabe*, 150.
3. Verner, *Copenhagen*, 3.
3. Ranke, *Popes*, II, 150

4 Fletcher, C R., *Custavus Adolphus*, 15.

ç. Bain, F W., *Christina, Queen of Sweden*, 8.

6. Fletcher, 43.

7. *Camb Mod History*, IV, 187.

8. Wedgwood, C. V., *Thirty Year's War*, 273.

9. Fletcher, 27.

10. Bain, 28.

11. Ibid., 10.

12. 42.

13. 162

14. 96

15. 97.

16. 95

17. 166.

18. Pascal, *Provincial Letters*, introduction, 25.

19. Ranke, *Popes*, II, 355.

20. Ortega y Gasser, *Toward a Philosophy of History*, 18.

21. Horn, F. W., *Literature of the Scandinavian North*' 332,

22. Cf. Ranke' *Popes*, II. 353.

23. Bain, 358-61.

24. Ranke, II, 359; Bain, 180.

25. Voltaire, *Age of Louis· XIV*, 60.

26. Gustafson in Bain, xvi.

27. Bain, 360.

28. Ogg, 446.

29. Bain, 224.

30. Ibid., 229.

31. Lewinski - Corwin, *Political History of Poland*, 216-18; *Cambridge History of Poland*, I, 566.

32. Lednicki, W , *Life and Culture of Poland*, 125-6

33. Ibid., 94.

34. *Camb. History of Poland*, I, 413; Robertson, J. M., *Hitory of Freethought*, I, 426.

35. Lednicki, 102n.

36. Robertson, *Freethought*, II, 37

37 *Camb History* of *Poland*, I, 403-5, 410-11

38. Rnake, II. 161

39. Pokrovsky, M., *History of Russia* 154.

40. Florinsky, M., *Russia: a History and an Interpretation*, 1. 213,

41. Kluchevsky, V., *History of Russia*, II, ch. xiii; III, 21; Florinsky, I, 217

42 Vernadsky, G , *History of Russia*, 65

43. Réau, L , *L' Art russe*, I, 285.

44. Ranke, II, 155.

45. Florinsky, I, 226.

46. E.g., Pokrovsky, 169-70.

47. Ibid., 177; Kluchevsky. III, 20; Florinsky, I, 223.

48. Rambaud, A., *History of Russia*, I, 320.

49. *Camb. Mod. History*, V, 496.

50. Florinsky, I, 227; Pokrovsky 182.
51. Kluchevsky, III, 31.
52. Rambaud, I, 341

CHAPTER XX

1. Tavernier, *Six Voyages*, ii, 7.
2. Brockelmann, C., *History of the Islamic Peoples*, 316.
3 Pepys, *Diary*, Nov 9, 1663.
4. Arnold, T., *The Preaching of Islam*, in Toynbee, A., *Study of History*, VIII, 165.
5. Finlay, G , *History of Greece*, V, 29, in Toynbee, ibid , 164.
6. Tavernier, 1, i,
7. Michelet, *History de France*, IV, 444.
8. Brantôme *Lives of Gallant Ladies*, 135; Landau, R., *Invitation to Morocco*, 64.
9. Gibb, E. J., *Ottoman Literature*, 3.
10. Ibid., 236.
11. Dimand, M. S., *Guide to Exhibition of Islamic Miniature Painting*, 4.
12 Pope, A. U., *Catalogue of a Loan Exhibition of Early Oriental Carpets*, 93-5
13 Pastor, *Popes*, XVIII, 419.
14. Voltaire, *Essai sur les moeurs*, ch. cxxxi, in *Works*, XIBb, 270.
15. Preface to Part II of *Don Quixote*.
16 Motley, *Rise of the Dutch Republic*, II, 338.
17. Pastor, XVIII, 422
18. Ibid., 427.
19 436.
20. Lane-Poole, S.,*Story of Turkey*, 218.
21. *En. Br.*, XV, 969a.
22. Teixeira, p., *Travels*, 62-6.
23. Pope, A. U., *Survey of Persian Art*, II, 1406.
24. Tavernier, *Six Voyages*, iv, 5.
25. Ibid.
26 Michelet, *Histoire de France*, V, 130.
27. *En. Br.*, XII, 705. The account follows the eloquent description in Arthur Upham Pope, *Survey of Persian Art*, II, 1185, and the notes of my visit to Isfahan in 1948.
28. Tavernier, v, 2.
29. Browne, E. G., *Literary History of Persia*, IV, 111.
30. Chardin, John, *Travels in Persia*, 134-6.
31. Ibid., 183, 167.
32. Teixeira, 114, 117.
33. Chardin, 143.
34 Ibid.
35 146.
36. 279.
37. Tavernier, v, 14.

38. Arnold, Thomas, *Painting in Islam*, 89.
39. Chardin, 120.
40. Teixeira, 62.
41. Chardin, 187; Tavernier, v, 14.
42. Chardin, 191. 189.
43. Browne, E. G., *Literary History*, IV. 247.
44. Ibid., 287.
45. *En Br.*, XII, 705b
46. Sir Bernard Eckstein Collection.
47. Boston
48. Pope, *Survey*, I. 7n
49. Gulbenkian Collection. Pope, *Survey*, V. 978
50. Boston.
51. Pope, *Survey*, V, 549
52. Pope, *A.* U., *Introduction to Persian Art*, 162.
53. Chardin, *Travels*. 273
54. New York.
55. In Pope, *Catalogue*, 17
56, Pope, *Introduction*, 220.

CHAPYER XXI

1. Coxe, W., *History of the House of Austria*, II, 29
2. Ibid., 67-72.
3. 130.
4. 94.
5. *Camb. Mod History*, III, 719.
6. Tawney. R. H., *Religion and the Rise of Captialism*, 122-4.
7, Janssen, *History of the German People*. VIII, 297-9.
8. Robertson, J.M., *Freethought*, I, 420.
9. Campbell, *The Jesuits*, 69.
10. Lutzow, Count von. *Bohemia*, 217.
11. *Acton*, *Lectures*, 182.
12 Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 136.
13, Janssen, XV, 32, 44
14. Ibid , 29-31.
15. Thompson, J W., *Economic and Social History of the Later Middle Ages*, 429; Rickard *Man and Metals*, II. 565.
16. Janssen, 148.
17. Ibid., 110.
18. 125
19 Marx Karl, *Capital*, I, 457.
20. Janssen, XIII, 147
21. Ibid., 307.
22. 301.
23. 300.
24. Id., XII, 183.
25. X, 279.
26. XII, 96.
27. XI, 363
28. Pastor in Janssen, XVI, 130.
29 Janssen, X, 277-8.
30. Wedgwood, *Thirty Years War*, 46.
31. Janssen. XV, 421

32. Putnam, G. H., *The Censorship of the Church of Rome*, I, 51.
33. Janssen, X, 11.
34. Ibid., 23, 45.
35. Id., XIII, 363f.
36. XIV, 12-14.
37. Wilenski, *Dutch Painting*, 61.
38. Vienna.
39. *Camb. Mod. History*, III, 153.
40. Schaff, *The German Reformation*, I, 64.
41 Janssen, X, 287f.
42 Ibid., 303-7.
43. 262.
44 258
45. 257.
46 256.
47. Inge, W. R., *Christian Mysticism*, 277.
48 Ibid., 278.
49. Fulop-Miller, *Jesuites*, 346.
50. Janssen, X, 214.
51. Ibid., 103, 110.
52. 165.
53. 32.
54. 30
55. 24
56. 334-41.
57 345,
58. 386-90.
59. 215.
60. 219.
61. 589.
62. 594.
63. Wedgwood. 81.
64. Nosek, V., *Spirit of Bohemia*, 99f.
65 Michelet, IV, 389n.
66. Wedgwood, 171.
67. Ibid., 255.
68. Fletcher, *Gustavus, Adolphus*, 300.
69. Robinson, *Readings*, 345.
70. Fletcher. 283.
71. Guizot, *History*, IV, 160.
72. Wedg Wood, 353.
73. Ibid., 360.
74. 450.
75. 207, 256-7, 410
76. 475.
77. 516; *Camb. Mod. History*, IV, 418.
78. Lutzow, 311; *Camb. Mod. History*, IV, 418.
79. Ibid., 417.,
80. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 294.
81 Jordan, G. J., *The Reunion of Churches*, 15.
82. Wedgwood, 412. Ogg, *Europe in the Seventeenth Century*, 168.
83. Wedgwood, 413.
84 Ibid., 229.
85. *Camb Mod History*, IV, 688

CHAPTER XXII

1. Thorndike, L., *Hisory of Magic and Experimental Science*, VI, 160-5, 221, 239-40,

295; IV, 247; Garrison, F., *History of Medicine*, 37.

2. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 18.
3. Smith, P., *History of Modern Culture*, I, 428.
4. Berry, A., *Short History of Astronomy*, 195.
5. Jackson, C., *Old Paris*, 25.
7. Smith, P., *Modern Culture*, I, 427.
7. Janssen, XII, 346.
8. Ibid., 329.
9. Los Angeles *Times*, July 2, 1958.
10. Janssen, XVI, 372-6, 495; XII, 325, 351
11. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 243-4.
12. Vacandard, E., *The Inquisitio*, 199.
13. Singer, Chas., *Studies in the History of Science*, I, 213.
14. Lea, IV, 235,
15. Michelet, IV, 183-6.
16. Janssen. XI, 388.
17. Id., XVI, 398, 478.
18. Lea, *History of the Inquisition of the Middle Ages*, III, 549.
19. Janssen, XVI, 416.
20. *Camb. Mod. History*, V, 758 (not 9,000, as in IV, 423).
21. Janssen, XVI, 512, 424.
22. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 246; cf. Janssen, XVI, 506.
23. Montaigne, *Essays*, III, xi, 285.
24. Ibid , 286.
25. Smith, *Culture*, I, 453.
26. Ibid.. 454; Dampiei, *History of Scince*, 157.
27. Janssen, XVI, 390.
28. Janssen, XI, 379.
29. Evelyn, *Diary*, I, 139.
30. Putnam, *Censorship of the Church of Rome*, II, 237-69.
31. In Haydn, *Counter-Renaissance*, 531.
32. Hallam, *Literature*, II, 44,
33. Sandys, Sir John, *Companion to Latin Studies*, 855.
34. Putnam, G. H., *Books and Their Makers*, II, 96.
35. Masson, David, *Life of John Milton*, IV, 164.
36. Nosek, *Spirit of Bohemia*, 110.
37. Paulsen, F., *German Education*, 136.
38. Janssen, XIII, 277,
39, Galileo, *Discoveries and Opinions*, ed. Stillman Drake, 77.
40. Singer, *Studies*, 407.
41. Wolf, A., *History of Science, Technology, and Philosophy in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, 47; Singer, *Studies*, 412f.
42. Bell, E T., *Men of Mathematics*, 55,
43. Butterfield. *Origins of Modern Science*, 67,

44. Galileo, *Il saggiatore*, in *Discoveries and Opinions*, 237.
45. Cooper, Lane, *Aristotle, Galileo, and the Tower of Pisa*, 14; Dampier, 143.
46. Janssen, XV, 281,
47. Wolf, 327.
48. Mumford, L., *Technics and Civilizaiion*, 440.
49. Wolf, 544-5; Usher, A. P. *Histroy of Mechanical Invetions*, 303.
50. Descartes, *Principia philosophiae* Part IV, in Wolf, 351.
51. *En Br.*, I, 689d.
52. Galileo, *Dialogue concerning the Two Chief World Systems*, Dedication. p. 3
53. Michel, *Rembrant*, I, 123.
54. Mumford, L., The *Condition of Man*, 213.
55. Janssen, XIV, 69.
56. Ibid., 83,
57. 80.
58. Castiglioni, *History of Medicine*, 561.
59. Garrison, 307.
60. Janssen, XIV, 81.
61. Montaigne, *Essays*, tr. E. J. Trechmann, II, 222, quoted in Craig, Hardin, *The Enchanted Glass*, 44.
62. Garrison, 291-2.
63. Ibid., 226.
64. Descarrtes, *Discours de la méthode*, Part VI, p. 62, in Vartanian, *Diderot and Descartes*, 18.
65. Montaigne, *Essays*, III,x, 262.
66. Putnam, *Censorship*, I, 128-9; Belloc, H., *How the Reformation Happened*, 281; Fülop-Miller, *Jesuits*, 399; Smith, P., *Culture*, I, 43,
67. Camqanclla, Letter to Galileo, Jan. 12, 1611, in Smith, *Culture* I, 45.
68. Buckle, I, 101, Thorndike, VI, 42.
69. Gade, *Tycho Brahe*, 35.
70. Ibide., 187.
71. Kesten, H., *Copernicus and His World*, 346.
72. Whewell, *History of the Inductive Sciences*, I. 290-3.
73. Hogben, *Science of the Citizen*, 207; Kesten, 353.
74. Dampier, 139.
75. Berry, 194.
76. In Inge, *Christian Mysticism*, 298.
77. Galileo, *Dialogue concerning the Two Chief World Systems*, 105 (end of First Day).
78. Aristotle *De coelo*, 4.2. 309, in Cooper, L., *Aristotle, Galileo, and the Tower of Pisa*, 64.
79. Lucretius, *De rerum natura*, II, 230-1.
80. Leonardo da Vinci, *Codex*

Atlanticus, fol. 123ra, in Cooper, 69.

81. In Cooper, 47.
82. Viviani in Cooper, 26.
83. Ibid,, 29-31.
84. Galileo, *Two Chief World Systems*, 147.
85. Galileo,*Dialogues concerning Tow New Sciences*, 103.
86. Galileo, *II saggiatore*, in *Discoveries and Opinions*,274.
87. Ibid., 276-7.
88. Kesten, 348.
89. In Singer, *Studies*, 228.
90. Letter of Jan. 30, 1610, in Singer, 232.
91. Walsh, J. J. *The Popes and Science*, 393; Wolf, 29.
92. In Singer, 251.
93. Kesten, 396.
94. In Smith, *Culture*, I, 53.
95. Singer, 240.
96. Fülop-Miller, *Jesuits*, 397.
97. Singer, 240.
98. Fülop-Miller, 398.
99. Ibid.
100. Ibid.
101. Kesten, 371.
102. Galileo, *Discoveries and Opinions*, 177.
103. Ibid., 180.
104. 183.
105. Drake in Galileo, *Discoveries and Opinions*, 217.
106. Singer, 252.
107. Kesten, 375.
108. Wolf, 36.
109. Kesten, 379; Singer, 258.
110. Golileo, *Two Chief World Systems*, 5.
111. Ibid., 460.
112. Kesten, 388.
113. Singer, 269.
114. *En. Br.*, IX, 98ob.
115. Ibid., Wolf, 37.
116. Viviani in Singer, 279.
117. Kesten, 93.
118. Ibid., 395.

CHAPTER XXIII

1. Janssen, XVI, 132-4.
2. Robertson, *Freethought*, 483.
3. Ibid., 484.
4. Mousnier, *Histoire générale*, IV, 203.
5. Ibid., 201.
6. Owen, John, *Skeptics of the French Renaissance*, 676.
7. Ibid., 578-9.
8. Ibid.
9. 584.
10. 580.
11. Charron, Pierre, *Of Wisdom*, I, 61, 74, 79-80.
12. Owen, 598.
13. Cf. Charron, in Paşcal, *Pensées*, ed. Havet, introd. xii.
14. Bury, *Freedom of Thought*, 75.
15. Owen, 570.
16. Singer., D. W., *Giordano Bruno*, 22.

17. Ibid., 24.
18. Owen, 274.
19. Bruno, *La cena de le ceneri*, Dialogue IV, in Singer, D. W., 33
20. In Owen, 274
21. Singer, *Bruno*, 137.
22. Ibid, 35.
23 Symonds, *Catholic Reaction*, II, 53-4.
24 Owen, 125.
25. Singer, *Bruno*, 146.
26. In Owen, 294.
27. Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 41.
28. Bruno, Dedication to *De la causa, principio et uno, in* Singer, *Bruno*, 103.
29. Thorndike, *Magic and Experimental Science*, IV. 425-7.
30. Owen, 290-3,
31. Singer *Bruno*, 161.
32. Symonds, *Catholic Reaction*, II, 62.
33. Kesten, 323.
34. Singer, *Bruno*, 166.
35. Ibid., 172.
36. 179.
37. Owen, 390.
38. Ibid., 399.
39. 400.
40. Symonds, 128; Kesten, 328.
41. Tr. J. A. Symonds in Van Doren, *Anthology*, 599.
42. Campanella *City of the Sun*, in *Ideal Commonwealths*, 147.
43 Ibid, 157.
44 164.
45 168
46 Murray, R. H., *Erasmus and Luther*, 443.
47. Ranke, *Popes*, II, 13.
48 Carlyle, R. W., *Medieval Political Theory*, VI, 341.
49. Campbell, *The Jesuits*, 379.
50. Mariana, *The King and The Education of the King*, i, 2.
51. Ibid., i, 10.
52. Ibid, Preface, p. 108.
53. Ibid. iii, 15.
54. In Laski, *Political Thought in England, Locke to Bentham*, 85.
55. Mariana, *The King*, i, 1.
56. Ibid., iii, 2.
57. i, 6, pp. 144-9.
58. Ibid.
59. Bodin, *Method for the Easy Comprehension of History*, 11.
60. Allen, *Political Thought*, 395.
61 Bodin, *De republica*, i, 4, in Allen, 408-9.
62. Ibid., 410.
63. Bodin, *De republica*, i, 6.
64. Ibid., i, 9.
65. Ibid., vi, 4, in Dunning, *Political Theories from Luther to Montesquieu*, 107.
66. Ibid., in Allen, *Political Thought*, 436.

67. In Allen, 406.
68. Bodin, *Method for the Easy Comprehension of History*, in Allen, 399.
69. Allen, 400-1.
70. Blok, III, 463
71. Grotius, Prolegomena, in Dunning, 161.
72. Grotius, *Rights of War and Peace*, I, i, 10. p. 21.
73. Ibid., I, ii, 1,
74. II, xxii,
75. I, xvii,
76. II, xxvi.
77. Lange, F, E., *History of Materialism*, I, 266,
78. France, A., *Elm Tree on the Mall*, 13,
79. Russell, B., *History of Western Philosophy*, 558,
80. Ficher, K., *Descartes*, 194f.
81. *Discours*, Part III, in Descartes, *Selections*, 27.
82. Ibid., p. 38,
83. Faguet, *Dix-septiéme siècle*, 6-7.
84. Descartes, *Principia philosophiae*, I, 71, in *Meditations and Principles of Philosophy*, 168
85. *Discours*, Part II, in *Selections*, 12.
86. Descartes, *Meditations*, II, in *Selections*, 96,
87. *Discours*, Part IV, and *Meditations*, II, in *Selections*, 29, 99,
88. St, Augustine, *De Trinitate*, x, 10,
89. *Meditations*, II, in *Selections*, 106.
90 "Rules for the Direction of Mind," VIII, in *Selections*, 69.
91. *Meditations*, III, in *Selections*, 125.
92 Ibid,, 154.
93. Ibid., 89.
94. *Principia philosophiae*, I, xxxix.
95. *Meditations*, IV, in *Selections*, 127.
96 *Discours*, IV, in *Selection* 30.
97. *En. Br.*, VII, 249d.
98. Ibid.
99. Lévy-Bruhl. *History of Modern Phlosophy in France*, 29.
100. *Discours*, in Vartanian, *Diderot and Descartes*, 16,
101. Fischer, *Descartes*, 406.
102. In Smith, *Culture*, I, 194.
103. Smith, D. E., ed., *Isaac Newton*, 18.
104. Fischer, 229.
105. Garrison, *History of Medicine*, 258.
106. *Selections*, 222-47.
107. Aubrey, *Brief Lives*, 95.
108. Fischer, 231.
109. Fülop-Miller, *Jesuits*, 124.
110. Fontenelle, *Digression sur les anciens et les modernes*, in Fellows and Torrey, *Age of the Enlightement*, 57.
111. Lévy-Bruhl, 33.
112. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 205 and *passim*.

